الرافدين على الجلالين

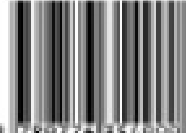
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء التاسع والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج[1]

---

(١) **قال ابن عطية**:"هي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك".
وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".
وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.
* آياتها اثنتان وعشرون. وكلماتها مائة وتسع. وحروفها أَربعمائة وثمان وخمسون. وفواصل آياتها (قرط ظب جدّ). *
* أسماء السورة.
تسمى «سورة البروج» وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير «سورة البروج»، وذلك لافتتاحها بقسم الله بالسماء ذات البروج وهي الكواكب السيارة في أثناء سيرها، قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: ١].
وتسمى «سورة السماء ذات البروج» ثبتت هذه التسمية عند الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين-، والذي يظهر من هذه الاسم، «السماء ذات البروج» أنه لم يحك لفظ القرآن، أي: لم يذكر واو القسم، وقد عنون بعض المفسرين السورة بهذه التسمية مع إضافة واو القسم: «والسماء ذات البروج».
* معظم مقصود السّورة: القَسَم على أَصحاب الأخدود، وكمال ملكة الملِك المعبود، وثواب المؤمنين فى جِوار المقام المحمود، وعذاب الكافرين فى الجحيم المورود، وما للمطيع والعاصى من كرم الغفور الودود، والإشارة إِلى هلاك فرعون وثمود.
* متشابه سورة البروج: قوله: {ذَلِكَ الفوز الكبير} (ذلك) مبتدأ، و (الفوز) خبره. و (الكبير) صفته. وليس فى القرآن نظيره. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥١٠).

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١).

{وَالسَّمَاء ذَات الْبُرُوج} الْكَوَاكِب اِثْنَيْ عَشَر بُرْجًا تَقَدَّمَتْ فِي الْفُرْقَان.

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢).

{وَالْيَوْم الْمَوْعُود} يَوْم الْقِيَامَة.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣).

{وَشَاهِد} يَوْم الْجُمْعَة {وَمَشْهُود} يَوْم عَرَفَة كَذَا فُسِّرَتْ الثَّلَاثَة فِي الْحَدِيث فَالْأَوَّل مَوْعُود بِهِ وَالثَّانِي شَاهِد بِالْعَمَلِ فِيهِ وَالثَّالِث تَشْهَدهُ النَّاس وَالْمَلَائِكَة وَجَوَاب الْقَسَم مَحْذُوف صَدْره تَقْدِيره لَقَدْ.

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤).

{قُتِلَ} لُعِنَ {أَصْحَاب الْأُخْدُود} الشَّقّ فِي الْأَرْض.

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥).

{النَّار} بَدَل اِشْتِمَال مِنْهُ {ذَات الْوُقُود} مَا توقد به.

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦).

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا} حَوْلهَا عَلَى جَانِب الْأُخْدُود عَلَى الْكَرَاسِيّ {قُعُود}.

وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧).

{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ} بِاَللهِ مِنْ تَعْذِيبهمْ بِالْإِلْقَاءِ فِي النَّار إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ إِيمَانهمْ {شُهُود} حُضُور رُوِيَ أَنَّ الله أَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُلْقَيْنَ فِي

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

النَّار بِقَبْضِ أَرْوَاحهمْ قَبْل وُقُوعهمْ فِيهَا وَخَرَجَتْ النَّار إِلَى مَنْ ثم فأحرقتهم.

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨).

{وما نقموا منهم إلا أن يُؤْمِنُوا بِاَللهِ الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَمِيد} الْمَحْمُود.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩).

{الذي له ملك السماوات وَالْأَرْض وَاَللهُ عَلَى كُلّ شَيْء شَهِيد} أَيْ مَا أَنْكَرَ الْكُفَّار عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا إِيمَانهمْ.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠).

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات} بِالْإِحْرَاقِ {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَاب جَهَنَّم} بِكُفْرِهِمْ {وَلَهُمْ عَذَاب الْحَرِيق} أَيْ عَذَاب إِحْرَاقهمْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَة وَقِيلَ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ أُخْرِجَتْ النَّار فأحرقتهم كما تقدم[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي بن أبي طالب؛ قال: كان المجوس أهل كتاب، وكانوا مستمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أحلت لهم، فتناول منها ملك من ملوكهم؛ فغلبته على عقله، فتناول أخته أو ابنته فوقع عليها، فلما ذهب عنه السكر؛ ندم، وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيت؟ وما المخرج منه؟ قالت: المخرج منه أن تخطب الناس فتقول: أيها الناس! إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات والبنات، فإذا ذهب ذا في الناس وتناسوه؛ خطبتهم فحرمته، فقام خطيباً فقال: يا أيها الناس! إن الله أحل لكم نكاح الأخوات أو البنات، فقال الناس جماعتهم: معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقرّ به، أو جاءنا به نبي، أو نزل علينا في كتاب، فرجع إلى صاحبته فقال: ويحك إن الناس قد أبوا عليّ ذلك، قالت: إذا أبوا عليك ذلك؛ فابسط فيهم السوط، =

=

فبسط فيهم السوط؛ فأبوا أن يقروا؛ فرجع إليها، فقال: قد بسطت فيهم السوط فأبوا أن يقروا، قالت: فجرّدْ فيهم السيف، فَجَرَّدَ فيهم السيف، فأبوا أن يقروا، قالت: خدّ لهم الأخدود، ثم أوقد فيه النيران؛ فمن تابعك؛ فخلّ عنه، فخدّ لهم أخدوداً وأوقد فيه النيران، وعرض أهل مملكته على ذلك، فمن أبى؛ قذفه في النار، ومن لم يأب؛ خلّى عنه؛ فأنزل الله فيهم: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)} إلى قوله: {وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤٦٧) ونسبه لعبد بن حميد.

* قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: ١].

وفي تفسير قوله تعالى: {ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: ١]، أقوال:

أحدها: ذات النجوم، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن أبي نجيح، والسدي، ومقاتل.

قال مجاهد:"البروج: النجوم".

قال قتادة:"بروجها: نجومها".

قال قتادة: "سُميت بروجًا، لظهورها".

الثاني: ذات الكواكب، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.

قال الزجاج:"ذات الكواكب".

عن قتادة:"{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الحجر: ١٦]، قال: الكواكب".

الثالث: أنها الكواكب العظام، يعني: السبعة السيارة. قاله أبو صالح.

عن أبي صالح قوله: "{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: الكواكب العظام".

الرابع: ذات القصور، قاله ابن عباس، و يحيى بن رافع.

قال ابن عباس:"قصور في السماء".

قال الضحاك:"يزعمون أنها قصور في السماء".

=

وعن عطية:"{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: قصورا في السماء فيها الحرس".

وحكي ابن كثير عن مجاهد:"البروج التي فيها الحرس".

قال ابن قتيبة: "أصل البرج: القصر والحِصْن".

الخامس: ذات الخلْق الحسن، قاله المنهال بن عمرو.

السادس: ذات الرمل والماء. قاله سفيان بن حسين.

السابع: ذات المنازل، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة، وعلي بن عيسى، ويحيى بن سلام، وهي اثنا عشر برجاً رصدتها العرب والعجم، وهي منازل الشمس والقمر.

قال ابن قتيبة:"البروج: بروج النجوم، وهي اثنا عشر برجا".

قال الماوردي:"وأصل البروج: الظهور، ومنه تبرجت المرأة إذا أظهرت نفسها".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: {وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} هي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجًا، فمسير القمر في كلّ برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلا ثم يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر".

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام.

قال السعدي أي ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب، ونظام دال على كمال قدرة الله ورحمته وسعة علمه وحكمته.

قوله تعالى: {وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ} [البروج: ٢].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأقسم باليوم الذي وعدته عبادي لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ".

عن عمار، قال: قال أبو هريرة: "«{الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ}: يَوْمُ الْقِيَامَةِ». قال يونس، وكذلك الحسن".

عن أبي مالك الأشعريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «{الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ}: يوم القيامة».

عن أبي هريرة، وقتادة، وابن زيد:"{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}، يعني: يوم القيامة".

قال قتادة: "اليوم الموعود، يوم القيامة".

فاليوم الموعود هو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

قال ابن عباس: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه.

- **قال ابن عطية** هو يوم القيامة باتفاق.

كما قال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين).

- **قال ابن عاشور**: وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله وعد بوقوعه قال تعالى (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) مع ما في القسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرض بهم.

- وقد كانوا يوعدون به في الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين:

كما قال تعالى في حق المؤمنين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

=

وفى حق الكفار (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون).
وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون).
فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازات كلا الفريقين على عملهم [الشنقيطي].
قوله تعالى: {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} [البروج: ٣]، أي:"وشاهد يشهد، ومشهود يشهد عليه".
وفي تفسير قوله تعالى: {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} [البروج: ٣]، أقوال:
أحدها: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، وبه قال علي بن أبي طالب، وابن عباس -في رواية-، وعمار مولى بني هاشم، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وبه قال الزجاج.
عن علي بن زيد، ويونس بن عبيد، يحدثان عن عمار، مولى بني هاشم، عن أبي هريرة- أما علي، فرفعه إلى النبي ﷺ، وأما يونس، فلم يعد أبا هريرة -، أنه قال في هذه الآية: {وشاهد ومشهود} [البروج: ٣]، قال- يعني -: "الشاهد يوم عرفة، واليوم الموعود: يوم القيامة".
عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه الله منه».
عن عمار مولى بني هاشم، يحدث عن أبي هريرة، قال في هذه الآية: {وشاهد ومشهود} [البروج: ٣]، قال: "الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، والموعود: يوم القيامة".

=

=

عن عمار، قال: قال أبو هريرة: "الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة".
عن سعيد بن المسَيَّب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهدُ، والمشهود يوم عرفة".
عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا".
فعلى هذا سمي يومُ الجمعة شاهداً، لأنه يشهد على كل عامل بما يعمل فيه، وسمي يومُ عرفة مشهوداً، لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة.
عن حارثة بن مضرِّب، عن عليّ -رضى الله عنه-:"أنه قال في هذه الآية: {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}، قال: يوم الجمعة، ويوم عرفة".
قال علي رضي الله عنه:"الشاهد يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة".
قال قتادة:"الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة".
قال قتادة:"يومان عظيمان من أيام الدنيا، كنا نحدّث أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة".
قال ابن عباس:"الشاهد يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة".
الثاني: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم النحر، قاله ابن عمر.
الثالث: أن الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة. قاله الحسن بن عليّ، ورواه مجاهد عن ابن عباس.
الرابع: أن الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عَرَفة. رواه مجاهد عن ابن عباس.
الخامس: أنّ الشّاهد: محمّد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن بن علي.

=

=

السادس: أن الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الناس، قاله جابر بن عبد الله.

السابع: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، يشهده الأولون والآخرون. قاله الحسن.

الثامن: أن الشاهد: يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة، قاله سعيد بن المسيب.

التاسع: أنّ الشاهد ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة، قاله عكرمة، والضحاك، ورواه ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد.

العاشر: أن الشاهد: آدم، والمشهود: يوم القيامة. رواه ابن أبي نجح عن مجاهد.

الحادي عشر: أنّ الشاهد: آدم، وذريته، والمشهود يوم القيامة، قاله عطاء بن يسار.

الثاني عشر: أن الشاهد: الإنسان، والمشهود: الله ﷻ، قاله محمد بن كعب.

الثالث عشر: أن الشاهد: يوم النحر، والمشهود: يوم عرفة، قاله إبراهيم.

الرابع عشر: أن الشاهد: الإنسان، والمشهود: يوم الجمعة رواه مجاهد عن ابن عباس.

الخامس عشر: أن الشاهد: يوم الذبح، والمشهود: يوم الجمعة، وهذا القول مروي عن ابن عمر، وابن الزبير.

السادس عشر: أنّ الشاهد: عيسى ابن مريم عليه السلام، والمشهود: أمته، قاله أبو مالك. ودليله قوله ﷻ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٧].

السابع عشر: أنّ الشاهد: محمّد ﷺ، والمشهود: أمته، قاله عبد العزيز بن يحيى، وبيانه: {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١].

الثامن عشر: أن الشاهد: محمد، والمشهود: يوم القيامة. دليله: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣]. رواه يوسف المكيّ، عن ابن عباس، وبه قال ابن الزبير، والحسن بن علي.

=

=

قال الحسين بن علي:"الشاهد جدي رسول الله ﷺ، والمشهود يوم القيامة، ثم تلا هذه الآية {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥]، ثم تلا: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣]".

وروي عن سعيد بن المسيب: {وَمَشْهُودٍ}: يوم القيامة".

التاسع عشر: أن الشاهد: محمدﷺ، والمشهود: يوم الجمعة. رواه يزيد عن عكرمة.

العشرون: أن الشاهد: محمد، والمشهود: يوم عرفة، قاله الضحاك.

الواحد والعشرون: أن الشاهد: هذه الأمة، والمشهود: سائر الناس، قاله الحسين بن الفضل، ودليله: {لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ}.

الثاني والعشرون: أن الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم، قاله محمد بن علي الترمذي، وحكي السدي نحوه.

الثالث والعشرون: أن الشاهد: الملك يشهد على آدم، والمشهود: يوم القيامة. ودليله هاتين الآيتين: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: ٢١] {وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣]. قاله عكرمة.

الرابع والعشرون: أن الشاهد: الحق، والمشهود: الكون، قاله الجنيد.

وحكي الثعلبي:"الشاهد: الحق، والمشهود: الخلق".

الخامس والعشرون: أن الشاهد، الحجر الأسود، والمشهود: الحجّاج. رواه الثعلبي عن أبي بكر محمد بن أحمد بن نحيد القطان البلخي.

السادس والعشرون: أنّ الشاهد: الأنبياء، والمشهود: محمّد ﷺ، وبيانه: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]. حكاه الثعلبي.

=

=

السابع والعشرون: أن الشاهد: هو الله، والمشهود: بنو آدم، قاله سعيد بن جبير.

الثامن والعشرون: أن الشاهد: هو الله، والمشهود: يوم القيامة. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

التاسع والعشرون: أن الشاهد: هو الله، والمشهود: محمدﷺ. بيانه قوله سبحانه: {وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [النساء: ٧٩]، وقوله سبحانه: {{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُم} [الأنعام: ١٩]. قاله سعيد بن حسن.

الثلاثون: أنّ الشاهد: الله ﷻ، والملائكة، وأولو العلم، والمشهود: لا إله إلا الله، وبيانه: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]. حكاه الثعلبي.

الواحد والثلاثون: أنّ الشاهد: الأنبياء، والمشهود: الأمم، حكاه ابن الجوزي عن الشيخ علي بن عبيد الله.

الثاني والثلاثون: أن الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الناس. قاله جابر بن عبد الله.

الثالث والثلاثون: أن الشاهد: أفعال العبد، والمشهود: العبد. حكاه الثعلبي.

الرابع والثلاثون: أن الشاهد: يوم الإثنين، والمشهود: يوم الجمعة. حكاه الثعلبي.

قال السمعاني:"وشهادة الأيام شهادتها على الأعمال، ومعنى المشهود في الأيام هو أنه يشهدها الناس، وهو في يوم القيامة على معنى أنه تشهده الملائكة وجميع الخلائق".

الخامس والثلاثون: أن الشاهد: الليالي والأيام، والمشهود: بنو آدم، دليله الخبر المروي:"عن الحسن، قال: "ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم يقول: يا أيها الناس إني يوم جديد، وأنا على من يعمل في شهيد، وإني لو غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة". حكاه الثعلبي.

=

=

السادس والثلاثون: ن الشاهد: الملائكة المتعاقبون في الأمة، والمشهود: قرآن الفجر، وتفسيره قول الله تعالى: {إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً} [الإسراء: ٨٧]. حكاه الزمخشري.

السابع والثلاثون: أن الشاهد، النجم، والمشهود عليه الليل والنهار، أي: يشهد النجم بإقبال هذا وتمام هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «حتى يطلع الشاهد»، والشاهد النجم. حكاه الزمخشري.

قال الشوكاني:"وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد والمشهود في هذه الآية المطلقة، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين في هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى، وإلا لزم أن يكون قوله هنا: «وشاهد ومشهود» هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، ولم يقل قائل بذلك. فإن قلت: هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة، وحديث أبي مالك، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، والشاهد والمشهود؟ قلت: أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها، بل اتفقت
على أنه يوم القيامة، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ويوم الجمعة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، ولا تضر زيادة يوم عرفة في حديث أبي هريرة الثاني، وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة، وفي حديثه الثاني أنه يوم

=

=

القيامة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة، وفي حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، وكذا في حديث سعيد فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، وأما اليوم الموعود فقد قدمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة".

قال البغوي:"الأكثرون: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم النحر".

وتوقف ابن جرير الطبري وابن كثير ولم يرجّحا، أما الطبري فقال:"والصواب من القول في ذلك عندنا: أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شهد، ومشهود شهد، ولم يخبرنا مع إقسامه بذلك أيّ شاهد وأيّ مشهود أراد، وكلّ الذي ذكرنا أن العلماء قالوا: هو المعنيّ مما يستحقّ أن يُقال له: {وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}".

وقال السعدي:"{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مبصر ومبصر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي".

وفي جواب القسم أقوال:

أحدها: أنه قوله ﷻ: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}، قاله قتادة، والزجاج.

قال قتادة:"وقع القسم -هاهنا-: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}".

الثاني: أنه قوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ}، كما أنّ القسم في قوله ﷻ: {وَالشَّمْسِ وَضُحاها}... {قَدْ أَفْلَحَ}، حكاه الفراء.

الثالث: أنه متروك، وهذا اختيار ابن جرير.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: جواب القسم في ذلك متروك، والخبر مستأنف؛ لأن علامة جواب القسم لا تحذفها العرب من الكلام إذا أجابته".

=

=

واختار قوم من أهل العلم العموم، فقالوا: كل ما يصلح أن يطلق عليه شاهد فهو شاهد، وكل ما يصلح أن يطلق عليه مشهود فهو مشهود، وهذا اختيار ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، فعلى ذلك: يدخل في لفظ (الشاهد) الحجيج الذين يشهدون الحج، والمصلون الذين يشهدون الجمع، والمصلون الذين يشهدون الأعياد، ويدخل في لفظ (الشاهد) الشاهد الذي تثبت به الدعاوى، وعموم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأمة محمد ﷺ، وهذا المسلك يسلكه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في مواطن متعددة، فتجده دائما يجنح إلى القول بالعموم.

قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر علماء التفسير في الشاهد والمشهود عدة أقوال يجمعها: أن الله أقسم بكل شاهد وبكل مشهود، والشهود كثيرون: منهم محمد ﷺ شهيدا علينا، ومنهم هذه الأمة شهداء على الناس، وأعضاء الإنسان يوم القيامة تشهد عليه بما عمل من خير وشر، والملائكة يشهدون يوم القيامة، فكل من شهد بحق فهو داخل في قوله: (وشاهد) وأما قوله: المشهود فهو يوم القيامة.

قوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} [البروج: ٤].

قال الطبري:"يقول: لعن أصحاب الأخدود".

قال ابن الجوزي:"لُعِنَ أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود". والأخدود شق يشق في الأرض، والجمع: أخاديد. وهؤلاء قوم حفروا حفائر في الأرض وأوقدوا فيها النار، وألقَوا فيها من لم يكفر".

قال الزجاج:"الأخدود: شق في الأرض، ويجمع: أخاديد".

عن قتادة: {قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ}، قال: يعني: القاتلين الذين قتلوهم يوم قتلوا".

=

قال ابن كثير:"أي: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي الحفير في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، ﷻ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا
عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدُودًا وأججوا فيه نار، وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها".
وقد اختلف أهل العلم في «أصحاب الأخدود»، على ستة أقوال:
أحدها: أنه مَلِكٌ كان له ساحر فبعث إليه غلامـًا يعلِّمه السّحر، فكان الغلام يمرُّ على راهب، فأعجبه أمره، فتبعه، فعلم به المَلِك، فأمره أن يرجع عن دينه، فقال: لا أفعل، فاجتهد الملك في إهلاكه، فلم يقدر، فقال الغلام: لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. اجمع الناس في صعيد واحد، واصلبني على جذع، وارمني بسهم من كنانتي، وقل: بسم الله ربِّ الغلام، ففعل، فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فخدَّ الأخاديد، وأضرم فيها النار، وقال: فمن لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها، ففعلوا، وهذا مختصر حديث صهيب عن رسول الله ﷺ.
وقد أورد محمد بن إسحاق بن يَسَار هذه القصة في السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم.
الثاني: أن ملكـًا من الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما أفاق قال لها: ويحك: كيف المخرج؟ فقالت له: اجمع أهل مملكتك فأخبرهم أنّ الله ﷻ قد أَحَلَّ نكاح الأخوات، فإذا ذهب هذا في الناس وتناسَوه، خطبتَهم فحرَّمته. ففعل ذلك، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فبسط فيهم السّوط، ثم جرَّد السيف، فأَبَوْا، فخدَّ لهم أخدودا، وأوقد فيه النار، وقذف من أبى قبول ذلك، قاله عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه.
الثالث: أنهم أناس اقتتل مؤمنوهم وكافروهم، فظهر المؤمنون، ثم تعاهدوا أن لا يَغدِر بعضهم ببعض، فغدر الكفار، فأخذوهم، فقال لهم رجل من المؤمنين:

=

أوقدوا ناراً، واعرضوا عليها، فمن تابعكم على دينكم، فذاك الذي تحبون، ومن لم يتابعكم أُقحم النار فاسترحتم منه. ففعلوا، فجعل المسلمون يقتحمونها، ذكره قتادة.

الرابع: أن قوماً من المؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة، فأرسل إليهم جبَّار من عبدة الأوثان، فعرض عليهم الدخول في دينه فأبوا، فخدّ لهم أخدودا، وألقاهم فيه، قاله الربيع بن أنس.

الخامس: أن جماعة آمنوا من قوم يوسف بن ذي نواس بعد ما رفع عيسى، فخدّ لهم خدّا، وأوقد فيه النار، فأحرقهم كلهم، فأنزل الله تعالى: {قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ}، وهم: يوسف بن ذي نواس وأصحابه، قاله مقاتل.

السادس: أنهم قوم كانوا يعبدون صنماً، ومعهم قوم يكتمون إيمانهم، فعلموا بهم، فخدُّوا لهم أُخدوداً، وقذفوهم فيه، حكاه الزجاج.

وروي عن عبد الرحمن بن جبير قال: "كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتونا، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد. وفي العراق في أرض بابل بختنصر، الذي وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له،

فامتنع دانيال وصاحباه: عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتونا وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهما بردا وسلاما وأنقذهما منها وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار".

واختلفوا في الذين أُحرقوا على خمسة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا من الحبشة، قاله -عليّ- عليه السلام-.

عن علي- رضي الله عنه -: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، قال:"هم الحبشة".

=

=

قال علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:"كان نبي أصحاب الأخدود حبشيا".

الثاني: من بني إسرائيل، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"هم ناس من بني إسرائيل خدّوا أخدودًا في الأرض، ثم أوقدوا فيها نارًا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء، فعُرِضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه".

وقال الضحاك:"يزعمون أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجالا ونساء، فخدّوا لهم أخدودًا، ثم أوقدوا فيها النيران، فأقاموا المؤمنين عليها، فقالوا: تكفرون أو نقذفكم في النار".

الثالث: من أهل اليمن، قاله الحسن.

قال الضحاك: "كانوا من نصارى اليمن، وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة".

الرابع: من أهل نجران، قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: "{قُتِلَ أَصْحَابُ الأخْدُودِ}، قال: كان شقوق في الأرض بنَجْرَان كانوا يعذّبون فيها الناس".

الخامس: من النبط، قاله عكرمة.

وقال السدي: "كانت الأخدود ثلاثة: خَدّ بالعراق، وخَدّ بالشام، وخَدّ باليمن".

وقال مقاتل:"كانت الأخاديدُ ثلاثةً: واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، حرّقوا بالنار، أمّا التي بالشام فهو بطيانوس بن بليس الرومي، أمّا التي بفارس فهو بخت نصر، وأمّا التي بأرض العرب فهو يوسف بن ذي نواس، فأمّا التي بفارس والشام فلم يُنزل الله سبحانه فيهما قرآنًا، وأنزل في التي كانت بنجران، وذلك أنّ رجلين مُسلِمَيْن ممّن يقرؤون الإنجيل أحدهما بأرض تِهامة والآخر بنجران اليمن، فأجّر أحدُهما نفسَه في عمل يعمله، وجعل يقرأ

=

=

الإنجيل، فرأتْ بنتُ المستأجر النورَ يُضيء في قراءة الإنجيل، فذكرتْ ذلك لأبيها، فرمقه حتى رآه، فسأله، فلم يُخبره، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام، فتابَعه هو وسبعة وثمانون إنسانًا مِن رجل وامرأة، وهذا بعد ما رُفِع عيسى إلى السماء، فسمع ذلك يوسف بن ذي نواس بن شراحيل بن تُبّع بن اليشرح الحِمْيَري، فخَدَّ لهم في الأرض، فأوَقد فيها، فعرضهم على الكفر، فمَن أبى منهم أن يكفر قذفه في النار، ومَن رجع عن دين عيسى لم يُقذَف في النار، وإنّ امرأة جاءت ومعها ولد لها صغير لا يَتكلّم، فلما قامتْ على شفير الخندق نظرتْ إلى ابنها، فرجعتْ عن النار، فضُربتْ حتى تقدّمتْ، فلم تزل كذلك ثلاث مرات، فلما كانت في الثالثة ذهبتْ ترجع، فقال لها ابنها: يا أُمّاه، إني أرى أمامك نارًا لا تُطفأ. فلما سمعت ابنَها يقول ذلك قَذَفا جميعًا أنفسَهما في النار، فجعلها الله وابنها في الجنة، فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانًا".

وفي عددهم، ثلاثة أقوال:

أحدها: اثنا عشر ألفًا، قاله وهب.

الثاني: سبعون ألفًا، قاله ابن السّائب.

الثالث: ثمانون رجلا، وتسع نسوة. وتسع نسوة، قاله مقاتل.

وقال الحسن: كان أصحاب الأخدود ثمانين بين رجل وامرأة، فأخذهم المشركون، فخذوا لهم أخدودا في الأرض، ثم أوقدوا لهم نارا ضخمة ثم فجعلوا يقولون للرجل وللمرأة منهم: إما أن تترك دينك وإما أن نقذفك في النار. فيقول: ما أنا بتارك ديني لشيء! فيقذف فيها فيحترق حتى أتوا عليهم، فبقيت امرأة ومعها صبي فتهيبت، فقال لها الصبي: امضي ولا تنافقي، فمضت فاحترقت".

=

=

هذا جواب القسم، فأقسم ﷻ بالسماء ذات البروج، وبشاهد ومشهود على أنه (قتل أصحاب الأخدود) أي: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفر من الأرض.

والأخدود: وهو الحفرة العظيمة المستطيلة في الأرض، كالخندق.

- قال السعدي: وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: (قتل أصحاب الأخدود).

- قد يقول قائل: إن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فيكف تسلط أهل الكفر على هؤلاء المؤمنين وقذفوهم في النار؟

لأهل العلم أجوبة على ذلك: ولعل أقرب الأجوبة: أن المراد بالسبيل المنفي في قوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) السبيل إلى القلوب بالحجج، فلا يستطيع الكافر أن يصل بحجته إلى قلب مؤمن أبدا، بل كما قال الله سبحانه وتعالى (حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد).

أما السبيل على الأبدان فقد نيل من بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام، بل قتل بعضهم، قال الله سبحانه وتعالى (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) فأفادت الآية أن هناك أنبياء قتلوا بغير حق.

وأيد ذلك قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق).

وفي صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال (كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه

=

=

فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجرا فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني أنت اليوم أفضل منى. قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك قال: ربي. قال: ولك رب غيري قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال إني لا أشفى أحدا إنما يشفى الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمئشار فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك. فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك. فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم أكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من

=

أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال اللهم أكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله. فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام. ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال باسم الله رب الغلام. ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها. أو قيل له اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق).

قوله تعالى: {النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ} [البروج: ٥].

قال الطبري: أي:"ذات الحطب الجزل".

قال الزمخشري:"وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس".

أي: النار العظيمة المتأججة ذات الحطب واللهب.

(الوقود) بفتح الواو اسم ما توقد به النار من حطب ونفط ونحوه، ومعنى (ذات الوقود) أنها لا يخمد لهبها لأن لها وقودا يلقى فيها كلما خبت. [قاله ابن عاشور].

=

قوله تعالى: {إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ} [البروج: ٦]، أي:"إذ هم قعود على الأخدود ملازمون له".

قال الطبري:"المعنى: أنهم قعود على حافة الأخدود".

قال الزمخشري:"{إِذْ} ظرف لـ {قتل}، أي: لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها. ومعنى {عَلَيْها}: على ما يدنو منها من حافات الأخدود، كقوله:

[تُشَبُّ لمقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِها]... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى والمحَلَّقُ

وكما تقول: مرت عليه، تريد: مستعليا لمكان يدنو منه".

عن مجاهد:"{إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ} كانوا قعودًا على الكراسي عند الأخدود".

عن قتادة، قوله: {النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}، يعني: بذلك المؤمنين".

قال الربيع بن أنس: "{النّارِ ذاتِ الوَقُودِ} نجّى الله المؤمنين الذين ألقُوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسّهم النار، وخرجت النار إلى مَن على شفِيرِ الأخدود مِن الكفار فأحرقتهم".

أي: حين هم جلوس حول النار، يتشفون بإحراق المؤمنين.

- قال الرازي: الغرض من ذكر ذلك أحد أمور ثلاثة:

إما وصفهم بقسوة القلب إذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له.

وإما وصفهم بالجد في تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا في تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة.

وإما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد دينهم والإصرار على حقهم، فإن الكفار إنما حضروا في ذلك الموضع طمعا في أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم، ثم إن أولئك المؤمنين لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق.

=

=

قوله تعالى: {وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} [البروج: ٧]، أي:"وهم على ما يفعلون بالمؤمنين من تنكيل وتعذيب حضور".

قال الطبري:"يعني: حضور".

قال ابن أبي زمنين:"من تحريقهم إياهم بالنار".

قال ابن كثير:"أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين".

قال الزمخشري:"معنى شهادتهم على إحراق المؤمنين: أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهودا يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنّ أحدا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب. ويجوز أن يراد: أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين، يؤدّون شهادتهم يوم القيامة: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}".

عن قتادة: "{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}، يعني: بذلك الكفار".

أي: أن الكفار قعود على حافة الأخاديد ينظرون ويشاهدون ما يحدث من عذاب للمؤمنين ويستمتعون بالنظر إليهم وهو يعذبون، وهذا من قسوة قلوبهم ونزع الرحمة منها وجبروتهم.

قوله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨]، أي:"وما أخذوهم بمثل هذا العقاب الشديد إلا أن كانوا مؤمنين بالله العزيز الذي لا يغالَب، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما وجد هؤلاء الكفار الذين فتنوا المؤمنين على المؤمنين والمؤمنات بالنار في شيء، ولا فعلوا بهم ما فعلوا بسبب، إلا من أجل أنهم آمنوا بالله: الشديد في انتقامه ممن انتقم منه، المحمود بإحسانه إلى خلقه".

عن ابن عباس:"{وما نَقَمُوا مِنهُمْ} ما كرهوا منهم".

قال الزجاج:"أي: ما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم".

=

=

قال ابن أبي زمنين:"ما كرهوا منهم {إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، ما سفكوا لهم دماء، ولا أخذوا لهم مالا".

قال ابن كثير:"أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قَدّر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس".

قال الزمخشري: أي:"وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان، كقوله :

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

قال ابن الرقيات :

ما نقموا من بنى أميّة إلّا... أنّهم يحلمون إن غضبوا

وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد، وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما. يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

أي: وما كان لهم عندهم ذنبا إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد في جميع أحواله وأفعاله وشرعه وقدره.

كما قال تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله).

- فعلى ذلك: قد يبتلى شخص فيسجن ويقول: ليس علي ذنب، فقل: وما ذنب أصحاب الأخدود؟ وما ذنب نبينا محمد ﷺ لما قال الكفار أو كما حكى الله مقالتهم (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)؟

=

=

ما ذنب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قال له قومه (اقتلوه أو حرقوه)؟

ما ذنب لوط وقد قال الله سبحانه وتعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)؟ فليس لهؤلاء جميعا ذنب إلا الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

(العزيز) اسم من أسماء الله متضمن للعزة الكاملة.

(الحميد) اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أن له سبحانه الحمد كله، وهو وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

قال الخطابي: الحميد هو المحمود الذي استحق الحمد بفعاله.

وقال ابن كثير: الحميد: أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره.

فيجب الإيمان بأن الله هو المستحق للحمد على الإطلاق، كما قال تعالى (الحمد لله رب العالمين).

فهو سبحانه حميد في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره قال تعالى (وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون).

وله الحمد في الأولى والآخرة قال تعالى (له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون).

قوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البروج: ٩]، أي:"هذا الإله الجليل الذي له ملك السماوات والأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذي له سلطان السموات السبع والأرضين وما فيهنّ".

قال ابن كثير:"من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما".

=

=

قال الزمخشري:"فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقديرا، لأن ما {نَقَمُوا مِنْهُمْ} هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغيّ، وإن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [البروج: ٩]، أي:"وهو -سبحانه- على كل شيء شهيد، لا يخفى عليه شيء".

قال ابن عباس: "لم يغب عنه شيء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله على فِعْل هؤلاء الكفار من أصحاب الأخدود بالمؤمنين الذين فتنوهم شاهد، وعلى غير ذلك من أفعالهم وأفعال جميع خلقه، وهو مجازيهم جزاءهم".

قال ابن كثير:"أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية".

قال السعدي: أي:"علمًا وسمعًا وبصرًا، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى عن سواء السبيل".

قال الزمخشري:"وعيد لهم، يعنى: أنه علم ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه".

- فإن قال قائل: ابن آدم يملك؟ فالجواب: أن ملكنا ليس ملكا عاما، فملكي ليس ملك لك، وملكك ليس ملكا لي، ثم نحن لا نملك التصرف فيها، فتصرفنا

=

=

محدود حسب الشريعة، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله فإنه هذا ممنوع ولا يجوز، فملك غير الله قاصر وغير شامل.

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرا فلا تقترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء..

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به.، لأنك ملكه.

قال ابن عاشور (الذي له ملك السماوات والأرض) لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم بل هو حقيق بأن يمدحوا به لأنهم آمنوا برب حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه لأنه ينصر مواليه ويثيبهم ولأنه يملكهم، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئا فيقوى التعجيب منهم بهذا.

(والله على كل شيء شهيد) أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية.

- **قال ابن عاشور**: تذييل بوعيد للذين اتخذوا الأخدود وبوعد الذين عذبوا في جنب الله، ووعيد لأمثال أولئك من كفار قريش وغيرهم من كل من تصدوا لأذى المؤمنين ووعد المسلمين الذين عذبهم المشركون مثل بلال وعمار وصهيب وسمية.

وقال السعدي: الشهيد: أي المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها....

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [البروج: ١٠]، أي:"إن الذين حرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار؛ ليصرفوهم عن دين الله، ثم لم يتوبوا".

=

=

قال الطبري:"يقول: إن الذين ابْتَلَوُا المؤمنين والمؤمنات بالله بتعذيبهم، وإحراقهم بالنار ثم لم يتوبوا من كفرهم وفعلهم".

قال ابن كثير:"أي: حَرقوا، {ثُمَّ}، لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا".

قال الزجاج:"أي: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، يقال: فتنت الشيء، أحرقته، والفتين: حجارة سود كأنها محرقة".

قال الزمخشري:"جوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار وأحرقوهم".

عن ابن عباس:"{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}: حرّقوا المؤمنين والمؤمنات".

قال ابن أبزى، والضحاك:"حرّقوهم".

قال قتادة:"حرّقوهم بالنار".

عن مجاهد: "{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا}، قَالَ: عَذَّبُوا".

قال السعدي:"وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة".

قال الحسن البصري: "انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة".

عن الحسن البصري -من طريق المبارك بن فَضالة- قال: "كان أصحاب الأخدود خَدُّوا أخدودًا، وملئوها نارًا، فأَلْقَوا فيها مَن آمن بِالله، وتركوا مَن كفر، فأَلقَوا بضعةً وثمانين مؤمنًا حتى أَتَوا على عجوز كبيرة وابنها خلفها صبي صغير، فلما رأت النار كيف تأخذهم جزعتْ، قالت: يا بني، أما ترى! قال لها ابنها: يا أُمّتاه، امضي ولا تُنافِقي. فمضتْ، واقتحم ابنُها على أثرها، قال الحسن: كانت لذعة نار، لا نار عليهم آخر ما عليهم. ثم قال: يا سبحان الله! ما أحلم الله! إنهم يُعذِّبون أولياءه بالنار، وهو يدعوهم إلى التوبة! ثم قرأ: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ

=

=

والمُؤْمِناتِ} يقول: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يتوبوا، أي: فلو تابوا لتاب الله- ﷻ- عليهم".

قوله تعالى: {فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ} [البروج: ١٠]، أي:"فلهم في الآخرة عذاب جهنم".

قال الطبري: أي: "في الآخرة".

عن الربيع:"{فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ}: في الآخرة".

قال الزجاج:"فلهم عذاب جهنم بكفرهم".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج: ١٠]، أي:"ولهم العذاب الشديد المحرق".

قال الطبري: أي: "في الدنيا".

عن الربيع:"{وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}: في الدنيا".

قال الزجاج:"ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين والمؤمنات".

قال ابن كثير:"وذلك أن الجزاء من جنس العمل".

قال الزمخشري:"هي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين.. أو ولهم عذاب الحريق في الدنيا، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم".

عن الربيع بن أنس: "أن النار التي أحرقوا المؤمنين فيها ارتفعت من الأخدود، فأحرقت الملك وأصحابه، فهو معنى قوله: {ولهم عذاب الحريق}".

عن الربيع بن أنس -من طريق أبي جعفر- قال:... نجّى اللهُ المؤمنين الذين أُلْقُوا في النار مِن الحريق بأن قبض أرواحهم قبل أنْ تمسّهم النار، وخرجت النار إلى مَن على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم، فذلك قول الله: {فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ} في الآخرة، {ولَهُمْ عَذابُ الحَرِيقِ} في الدنيا".

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١).

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير}(١).

=

- قال القرطبي: قوله تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أي حرقوهم بالنار، والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار، إذا أدخله الكور، لينظر جودته.

- قال في التسهيل (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق، وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب، وهذا أظهر لقوله: ثم لم يتوبوا، لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم. وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب، وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره لقوله ﷺ: الإسلام يجب ما قبله.

(ثم لم يتوبوا) أي: لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا.

- قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: ١١]

إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحات، لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ذلك الفوز العظيم.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البروج: ١١]، أي:"إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحات".

=

=

قال الطبري:"إن الذين أقرّوا بتوحيد الله، وهم هؤلاء القوم الذين حرّقهم أصحاب الأخدود وغيرهم من سائر أهل التوحيد وعملوا بطاعة الله، وأُتَمروا لأمره، وانتهَوْا عما نهاهم عنه".

قال النحاس:"أي: أمروا بتوحيد الله سبحانه، وانتهوا إلى أمر الله ونهيه".

قال السعدي:"{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} بقلوبهم {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بجوارحهم".

عن قتادة: "{المؤمن}، قال: يعني: الذي آمن بكتابه".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

قال ابن عباس: «أعمال الصالحة»: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر".

قوله تعالى: {لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البروج: ١١]، أي:"لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري:"يقول: لهم في الآخرة عند الله بساتين تجري من تحتها الأنهار والخمر واللبن والعسل".

قال السمعاني:"وهذا على ما جرى أمر القرآن، فإنه إذا ذكر الوعد للكفار يذكر الوعد للمؤمنين بجنبه".

عن أبي مالك: قوله:"{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، يعني: المساكن تجري أسفلها أنهارها".

عن مسروق قال: قال عبد الله: "أنهار الجنة تفجر من جبل المسك".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: ١١]، أي:"ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده".

قال النحاس:"أي: الظفر بما طلبوا".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي هو لهؤلاء المؤمنين في الآخرة، هو الظفر الكبير بما طلبوا والتمسوا بإيمانهم بالله في الدنيا، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيه منهم".

قال السعدي:"الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته".

وقال الفراء:"يقول: فازوا من عذاب الكفار، وعذاب الآخرة، فأكبر به فوزا".

عن أبي مالك، قوله: "{ذلك}، يعني: هذا".

عن سعيد بن جبير: "{وذلك} يعني: ذلك الثواب..".

قال الراغب:"الْفَوْزُ: الظّفر بالخير مع حصول السّلامة".

(وعملوا الصالحات) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات، والعمل الصالح لا يكون صالحا إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصا لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعا للنبي، قال ﷺ (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) متفق عليه.

(لهم جنات) الجنات جمع جنة، والجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) أي البستان، وفي قوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وقد جاء هذا في آيات كثيرة.

قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا).

وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

وقال تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام).

وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا)

- أن دخول الجنة أعظم بشرى وأعظم أمنية، كما قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون). وقال تعالى (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا).

- قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنواع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).

(تجري من تحتها الأنهار) أي من تحت أشجارها، قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢).

{إِنَّ بَطْش رَبّك} بِالْكُفَّارِ {لَشَدِيد} بِحَسْب إِرَادَته.

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣).

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئ} الْخَلْق {وَيُعِيد} فَلَا يُعْجِزهُ ما يريد.

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤).

{وَهُوَ الْغَفُور} لِلْمُذْنِبِينَ الْمُؤْمِنِينَ {الْوَدُود} الْمُتَوَدِّد إِلَى أوليائه بالكرامة.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥).

{ذُو الْعَرْش} خَالِقه وَمَالِكه {الْمَجِيد} بِالرَّفْعِ الْمُسْتَحِقّ لِكَمَالِ صِفَات الْعُلُوّ.

فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦).

{فَعَّال لِمَا يُرِيد} لَا يُعْجِزهُ شَيْء[1].

=

- وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى).

(ذلك) الإشارة لما أعده الله ﷻ للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والأنهار.

(الفوز الكبير) الفوز: هو النجاح والفلاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب (الكبير) الذي لا فوز أكبر منه، ولا نعيم أعظم منه.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: ١٢].

=

=

عن عبد الله بن مسعود -من طريق عرفجة- قال: قَسم: {والسَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ} إلى قوله: {وشاهِدٍ ومَشْهُودٍ}، قال: هذا قَسمٌ على: {إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} إلى آخرها".

قال قتادة:"وقع القسم -هاهنا-: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: "{إن بطش ربك لشديد}، قال: ههنا القَسم".

قال ابن عباس:"إنّ أَخْذَه بالعذابِ إذا أَخذَ الظَّلَمةَ لَشديدٌ".

قال ابن أبي زمنين:"عقوبة ربك {لَشَدِيدٌ}".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن بطش ربك يا محمد لمن بطش به من خلقه، وهو انتقامه ممن انتقم منه لشديد، وهو تحذير من الله لقوم رسوله محمد ﷺ، أن يُحلّ بهم

من عذابه ونقمته، نظير الذي حلّ بأصحاب الأخدود على كفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وفتنتهم المؤمنين والمؤمنات منهم".

قال ابن كثير:"أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر، أو هو أقرب".

قال السعدي:"أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين كما قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}".

قال الزمخشري:"البطش: الأخذ بالعنف، فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم: وهو بطشه بالجبابرة والظلمة، وأخذهم بالعذاب والانتقام".

أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد، فإنه تعالى ذو القوة الذي ما شاء كان كما شاء في لمح البصر أو هو أقرب.

=

=

كما قال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

- **قال ابن عاشور**:... فالخطاب للنبي ﷺ للاستدلال على كون بطشه تعالى شديدا ببطشين بطشهما بفرعون وثمود.

- قال في التسهيل: البطش الأخذ بقوة وسرعة.

- **قال ابن عاشور**: وبطش الله يشمل تعذيبه إياهم في جهنم ويشمل ما قبله مما يقع في الآخرة وما يقع في الدنيا قال تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) ووجه الخطاب للنبي ﷺ لأن بطش الله بالذين فتنوا المؤمنين فيه نصر للنبي ﷺ وتثبيت له.

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [البروج: ١٣].

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [البروج: ١٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: إنه هو يُبْدِئُ الخلق حين خلقه، ويعيده يوم القيامة. قاله الضحاك، وابن زيد، وابن جريج.

عن الضحاك:"{يُبْدِئُ ويُعِيدُ}: يعني: الخَلْق".

قال ابن جريج:"يُبدئ الخَلْق، ثم يعيده".

قال ابن زيد:"يُبدئ الخَلقَ حين خَلَقَه، ويعيده يوم القيامة".

قال الزجاج:"أي: يبدئ الخلق ثم يعيده بعد بلاه".

قال السعدي أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك".

قال ابن كثير:"أي: من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع".

الثاني: إنه هو يُبْدِئُ العذاب ويعيده. قاله ابن عباس.

=

=

قال الزمخشري:"أي يبدئ البطش ويعيده، يعنى: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة. أو دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالاعادة".

قال الطبري:"وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، وأشبههما بظاهر ما دلّ عليه التنزيل القولُ الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أنه يُبْدِئُ العذاب لأهل الكفر به ويعيد، كما قال جلّ ثناؤه: {فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} في الدنيا، فأبدأ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيده لهم في الآخرة، لأن الله أتبع ذلك قوله: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} فكان للبيان عن معنى شدّة بطشه الذي قد ذكره قبله، أشبه به بالبيان عما لم يَجْرِ له ذكر، ومما يؤيد ما قلنا من ذلك وضوحًا وصحة قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}، فبيَّن ذلك عن أن الذي قبله من ذكر خبره عن عذابه وشدّة عقابه".

أي: من قوته وقدرته التامة (يبدئ) أي: يخلق ابتداء (ويعيد) أي: يبعث بعد الموت.

كما قال تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون).

وقال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه).

وقيل: يبدئ البطش ويعيده أي يبطش بهم في الدنيا والآخرة، والأول أظهر وأرجح لقوله (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده).

- **قال ابن الجوزي**: قوله تعالى (إنه هو يبدئ ويعيد) فيه قولان:

أحدهما: يبدئ الخلق ويعيدهم، قاله الجمهور.

والثاني: يبدئ العذاب في الدنيا على الكفار ثم يعيده عليهم في الآخرة

- قال الشنقيطي: قيل: يبدئ الخلق ويعيده، كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت، ثم بالبعث.

=

=

وقيل: يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم، واستدل لهذا بقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) وفي الحديث (ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة، إلا بطح لها بقاع قرقر، ثم يأتي بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها، حتى يقضي بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة، وإما إلى نار) إلى آخر الحديث في صاحب البقر والغنم والذهب، ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم هو الأول، لأنه يكثر في القرآن كقوله تعالى (قل هل من شركآئكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) وقوله (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده).

قوله تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه، وذو المحبة له".

قال ابن كثير:"{وَهُوَ الْغَفُورُ}، أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان".

عن ابن عباس: "{الْغَفُورُ الْوَدُودُ}، يقول: الحبيب".

قال ابن عباس: "التودد إلى أوليائه بالمغفرة".

عن مجاهد:"الواد".

قال الزجاج:"{الْوَدُودُ}، أي: المحب أولياءه

وعن ابن زيد: {الْغَفُورُ الْوَدُودُ}، قال: الرحيم".

قال الحسن: "يتودد إلى خلقه بما يعطيهم من النعم في وأرزاقهم، وما يغفر لهم من الذنوب".

قال ابن جريج:"يَوَدُّ على طاعته مَن أطاعه".

قال الحسين بن واقد:"الغفور للمؤمنين، الودود لأوليائه".

=

=

قال الثعلبي:"قيل: معناه: يغفر ويودّ أن يغفر".

قال السعدي:"{وَهُوَ الْغَفُورُ} الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب. {الْوَدُودُ} الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن {الودود} بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين. بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر. فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه".

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها... من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها... سبحانه هو واسع الغفران

متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)، وقال تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

=

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه ﷻ حتى يضع كنفه -أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

(الودود) الودود الذي يحبه أصحابه، محبة لا يشبهها شيء، وهو تعالى الودود الواد لأحبابه كما قال تعالى (يحبهم ويحبونه) والمودة هي المحبة الصافية.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه وذو المحبة له.

قوله تعالى: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} [البروج: ١٥]، أي:"صاحب العرشِ المجيدُ الذي بلغ المنتهى في الفضل والكرم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ذو العرش الكريم".

قال ابن كثير:"أي: صاحب العرش المعظم العالي على جميع الخلائق".

قال السعدي:"أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون {المجيد} نعتا للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها".

عن ابن عباس: "{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}، يقول: الكريم". وروي عن قتادة مثله.

عن أبي خالد، قال:"سمعت سعد الطائي، يقول: العرش ياقوتة حمراء".

قال وهب بن منبه:"إن الله خلق العرش من نوره".

=

و {الْمَجِيدُ} فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب، ﷻ. والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح.

أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق [المجيد] فيه قراءتان:

الرفع: على أنه صفة للرب ﷻ، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

والجر: على أنه صفة للعرش، أي العرش العظيم الذي من عظمته أنه وسع السموات والأرض.

قال السعدي: وخص الله العرش بالذكر لعظمته ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه.

- فهو عرش عظيم، ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات.

- هذا العرش وصفه الله بأوصاف عظيمة:

وصفه بالعظمة: كما في قوله (وهو رب العرش العظيم).

ووصفه بأنه كريم: كما في قوله (رب العرش الكريم).

وتمدح سبحانه بأنه ذو العرش: كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة: كما في قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض: كما قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

وأخبر ﷺ أن للعرش قوائم كما في قوله (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش..).

كما أخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس كما قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) رواه البخاري.

=

كما اخبر ﷺ أن التقدير كان بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض فقال ﷺ (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) رواه مسلم.

قوله تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [البروج: ١٦].

قال ابن عباس -في رواية عطاء-:"يريد أنه لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه".

قال يحيى بن سلام:"يعني: للَّذي يريد".

قال السعدي:"أي: مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله. فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئًا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد".

قال ابن كثير:"أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له- وهو في مرض الموت -: «هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد» ".

قال الطبري:"يقول: هو غفار لذنوب من شاء من عباده إذا تاب وأناب منها، معاقب من أصرّ عليها وأقام، لا يمنعه مانع، مِنْ فِعْل أراد أن يفعله، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل، لأن له مُلك السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم".

قال مقاتل:"يقول: ليس يريد شيئا إلا فعله، يقول إن العبد يفرق من سيده أن يفعل ما يشاء، والسيد يفرق من أميره الذي هو عليه، والأمير يفرق من الملك، والملك يفرق من الله ﷻ، والله ﷻ لا يفرق من أحد أن يفعل".

أي: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧).

{هَلْ أَتَاك} يَا مُحَمَّد {حَدِيث الْجُنُود}.

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨).

{فِرْعَوْن وَثَمُود} بَدَل مِنْ الْجُنُود وَاسْتُغْنِيَ بِذِكْرِ فِرْعَوْن عَنْ أَتْبَاعه وَحَدِيثهمْ أَنَّهُمْ أُهْلِكُوا بِكُفْرِهِمْ وَهَذَا تَنْبِيه لِمَنْ كَفَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآن لِيَتَّعِظُوا.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩).

{بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيب} بِمَا ذُكِرَ.

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠).

{وَاَللَّه مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيط} لَا عَاصِم لَهُمْ منه.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١).

{بَلْ هُوَ قُرْآن مَجِيد} عَظِيم.

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢).

{فِي لَوْح} هُوَ فِي الْهَوَاء فَوْق السَّمَاء السَّابِعَة {مَحْفُوظ} بِالْجَرِّ مِنْ الشَّيَاطِين وَمِنْ تَغْيِير شَيْء مِنْهُ طُوله مَا بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وهو من درة بيضاء قاله بن عباس رضي الله عنهما[(١)].

=

فالآية فيها إثبات لصفة الإرادة، وفيه إثبات لقدرة الله تعالى التي ليس لها منتهى، ولا يعجزه شيء، فما أراده – سبحانه – فعله، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

(١) قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} [البروج: ١٧ – ١٨]، أي:"هل بلغك -أيها الرسول- خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائها، فرعون وثمود، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال".

=

قال الثعلبي: أي:"خبر الجموع الهالكة: {فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}".

قال الزمخشري:"المعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود الرسل وما نزل بهم لتكذيبهم".

قال ابن كثير:"أي: هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}، أي: إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدا، أخذ عزيز مقتدر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: هل جاءك يا محمد حديث الجنود الذين تجندوا على الله ورسوله بأذاهم ومكروههم [هل أتاك حديث الجنود، فرعون وقومه وثمود]؛ يقول: قد أتاك ذلك وعلمته، فاصبر لأذى قومك إياك لما نالوك به من مكروه كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلي، ولا يثنيك عن تبليغهم رسالتي، كما لم يُثْن الذين أرسلوا إلى هؤلاء، فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم إلى عطب وهلاك، كالذي كان من هؤلاء الجنود".

قال مقاتل:"يعنى: قد أتاك {حَدِيثُ الْجُنُودِ} في القرآن {فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}، قد عرفت ما فعل الله ﷻ بقوم فرعون، حيث ساروا في طلب موسى- عليه السلام- وبني إسرائيل وكانوا ألف ألف وخمسمائة ألف، فساقهم الله- تعالى- بآجالهم إلى البحر، فغرقهم الله أجمعين فمن الذي جاء يخاصمني فيهم، قال: «وثمود» وهم قوم صالح حيث عقروا الناقة وكذبوا صالحا، ثم تمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، فجاءهم العذاب يوم السبت غدوة حين نهضت الشمس، {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ} [الشمس: ١٤] وجبريل- عليه السلام- الذي كان دمدم، لأنه صرخ صرخة فوقع بيوتهم عليهم فسواها، يقول فسوى البيوت على قبورهم، لأنهم لما استيقنوا بالهلكة عمدوا فحفروا قبورا في منازلهم، وتحنطوا بالمر والصبر، قال: {فَسَوَّاهَا} [الشمس: ١٤]، يقول: استوت على قبورهم، قال: فهل جاء أحد يخاصمني

=

فيهم، فذلك قوله: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس: ١٥]، قال: فاحذروا يا أهل مكة فأنا المجيد الحق الذي ليس فوقي أحد".

عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} فقام يسمع، فقال: "نعم، قد جاءني".

وقوله تعالى: (هل أتاك حديث الجنود) استفهام للتشويق، أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة الذين تجند لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟

و (الجنود) جمع جند وهو العسكر المتجمع للقتال، وأطلق على الأمم التي تجمعت لمقاومة الرسل كقوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب). (ابن عاشور)

قال القرطبي: يؤنسه بذلك ويسليه.

- ففيه تسلية للنبي ﷺ، وفيه تهديد لقومه الذين كذبوه، وفيه تقوية لعزمه.

ثم بين تعالى من هم، فقال:

(فرعون) هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون فكابر وعاند وادعى الربوبية والألوهية، وأهلكه الله وجنوده بالغرق، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للحرق كما قال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب).

وقال تعالى (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين).

=

=

(وثمود) وهم قوم نبي الله صالح (وإلى ثمود أخاهم صالحا) مساكنهم شمال الجزيرة في العلا، المعروفة الآن بمدائن صالح، كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة فأهلكهم الله بالصيحة والصاعقة.

- قال القرطبي: إنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين. وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك؛ فدل بهما على أمثالهما في الهلاك.

- قال الشوكاني: (فرعون وثمود) وهو بدل من الجنود، والمراد بفرعون هو وقومه، والمراد بثمود: القوم المعروفون، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ودل بهما على أمثالهما.

قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} [البروج: ١٩]، أي:"لم يعتبر القوم بذلك، بل الذين كفروا في تكذيب متواصل كدأب مَن قبلهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء القوم الذين يكذّبون بوعيد الله أنهم لم يأتهم أنباء من قبلهم من الأمم المكذّبة رسل الله كفرعون وقومه، وثمود وأشكالهم، وما أحلّ الله بهم من النقم بتكذيبهم الرسل، ولكنهم في تكذيبهم بوحي الله وتنزيله، إيثارًا منهم لأهوائهم، واتِّباعًا منهم لسنن آبائهم".

قال ابن كثير:"أي: هم في شك وريب وكفر وعناد".

قال الثعلبي:"واستجاب للتعذيب، كدأب من قبلهم".

قال السمعاني: أي: في تكذيب الرسل".

=

قال الزمخشري:"أي: تكذيب واستيجاب للعذاب.. ومعنى الاضراب: أن أمرهم أعجب من أمر أولئك، لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم، ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا، وكذبوا أشد من تكذيبهم".

(بل الذين كفروا في تكذيب) أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيه الآيات ولا تجدي لديه العظات.

قال ابن عاشور: وحذف متعلق التكذيب لظهوره من المقام إذ التقدير: أنهم في تكذيب بالنبي ﷺ وبالوحي المنزل إليه وبالبعث.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج: ٢٠]، أي:"والله قد أحاط بهم علما وقدرة، لا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شيء".

قال مقاتل بن حيان:"أحاط علمه بأعمالهم".

قال الطبري: أي:"بأعمالهم مُحْصٍ لها، لا يخفى عليه منها شيءٌ، وهو مجازيهم على جميعها".

قال الثعلبي:"عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم".

قال السمعاني: "أي: محيط بأفعالهم وأقوالهم".

قال الزمخشري:"والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه. والاحاطة بهم من ورائهم: مثل لأنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به".

قال السعدي:"أي: قد أحاط بهم علمًا وقدرة، كقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره".

قال الزجاج:"أي: لا يعجزه منهم أحد. قدرته مشتملة عليهم".

قال ابن كثير:"أي: هو قادر عليهم، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه".

=

قال مقاتل:"فلما قال رسول الله- ﷺ- ذلك، وقرأ عليهم سأله رجل من جلسائه عن علم الله ﷻ في عباده شيء بدا له من بعد ما خلقهم، أو كان قبل أن يخلقوا؟ فأنزل الله ﷻ: {وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}".

أي: هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه كما قال تعالى (والله محيط بالكافرين) وقال تعالى (إن ربك لبالمرصاد).

- قال السعدي: ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

- قال الرازي (والله من ورائهم محيط) فيه وجوه:

أحدها: أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحوزته، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه، فلا يجد مهربا، يقول تعالى: فهو كذا في قبضتي وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك فلا تجزع من تكذيبهم إياك، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم.

وثانيها: أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم كقول تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) وقوله (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) وقوله (وظنوا أنهم أحيط بهم) فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك، يقول: فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك.

وثالثها: أن يكون المراد والله محيط بأعمالهم، أي عالم بها، فهو مرصد بعقابهم عليها.

قوله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ} [البروج: ٢١]، أي:"وليس القرآن كما زعم المكذبون المشركون بأنه شعر وسحر، فكذَّبوا به، بل هو قرآن عظيم كريم".

قال الطبري:"يقول- تكذيبا منه جلّ ثناؤه للقائلين للقرآن هو شعر وسجع -: ما ذلك كذلك، بل هو قرآن كريم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: عظيم كريم".

قال الثعلبي:"كريم شريف كثير الخير وليس كما زعم المشركون".

قال السعدي:"أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم".

عن قتادة وسعيد بن جبير: "{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ}، يقول: قرآن كريم".

قال الزمخشري:"أي: هذا الذي كذبوا به {قُرْآنٌ مَجِيدٌ} شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه".

وقال عبد العزيز بن يحيى: "مجيد يعني غير مخلوق".

قال السمعاني: "في بعض التفاسير أن الرسول لما قرأ عليهم ما ذكرنا من الآيات قالوا له: لعلك غلطت أو سهوت؟ ولعل الذي ينزل عليك ليس من قبل الله؟ فأنزل الله تعالى: {بل هو قرآن مجيد} هو المتجمع بخصال الخير".

أي: ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله من الوحي العظيم المعلوم.

(قرآن مجيد) أي: أي الكريم العظيم الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

قال بعض العلماء: معنى المجيد هو كتاب شريف، أشرف من كل كتاب، عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى، وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرآت، واسع الأوصاف وعظيمها، متناه في الشرف والكرم والبركة، لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا.

- قوله (المجيد) نستفيد أن من تمسك به نال المجد والعظمة.

- الثناء على هذا القرآن بأنه مجيد، وقد سبق بيان وجه كونه مجيد: ومما وصف به القرآن:

العزيز: كما قال تعالى: (وإنه لكتاب عزيز).

=

=

ومعناه: أي منيع من الشيطان، لا يجد إليه سبيلا، ولا يستطيع أن يغيره، أو يزيد فيه أو ينقص منه، وعديم النظير منيع من الباطل، ومن كل من أراده بتحريف أو سوء، ويمتنع على الناس أن يقولوا مثله، فهو غالب وقاهر.

- **قال ابن عطية**: ووصف تعالى الكتاب بالعزة، لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه، والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى.

الكريم: قال تعالى: (إنه لقرآن كريم).

ومعناه: الكريم اسمه جامع لما يحمد، وذلك أن فيه البيان والهدى والحكمة، وهو معظم عند الله تعالى.

وقيل: كريم لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور.

وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. تفسير القرطبي.

قوله تعالى: {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو قرآن كريم مُثْبَت في لوح محفوظ".

قال الزجاج:"القرآن في اللوح وهو أم الكتاب عند الله".

قال ابن كثير:"أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل".

قال الزمخشري:"يعنى: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح {مَحْفُوظٍ} من وصول الشياطين إليه".

قال السعدي:"{مَحْفُوظٍ} من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء. وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى".

عن قتادة: "{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}: عند الله".

عن مجاهد:"{فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، قال: في أُمِّ الكتاب".

=

=

عن عبد الله بن بريدة، في قوله: {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، قال: "اللوح عند الله، وهو أُمّ الكتاب".

عن أنس بن مالك: "{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله، {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} في جَبْهَة إسرافيل".

وقال الحسن البصري: "إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه"

(محفوظ) أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل والتغيير وتطاول الشياطين كما قال تعالى (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)

قال الشيخ السعدي: وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه- سبحانه- بالسماء {ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣)} [البروج: ١ - ٣].

وقد فسرت "البروج ": بالبروج التي تنزلها الشمس والقمر والسيارة.

وفسرت: بالنجوم، أو نوع منها.

وفسرت: بالقصور العظام.

وكل ذلك من آيات قدرته، وشواهد وحدانيته، وأدلة ربوبيته؛ فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر، ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب. فجعل هذه "البروج" في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن

=

يكـون فاعلـه غيـر قـادر، ولا عـالم، ولا مريـد، ولا حـي، ولا حكـيم، ولا مبـاين للمفعول.

وهذا ونحوه مما هـدم قواعـد الطبائعيـة، والملاحـدة، والفلاسـفة الـذين لا يثبتـون للعالم ربا مباينا له، قادرا فاعلا بالاختيار، عالما بتفاصيله، حكيما مدبرا له.

فبروج السماء- وهي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها- من أعظم آياته سبحانه، فلهذا أقسم بها مع السماء، ثـم أقسم بـ "اليـوم الموعـود" وهـو يـوم القيامـة، وهـو المقسم به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه.

ودل على وقوع اليوم الموعود باتفاق الرسل عليه، وبمـا عـرف عبـاده مـن حكمتـه وعزتـه التـي تـأبى أن يـتركهم سـدى، ويخلقهـم عبثـا. وبغيـر ذلـك مـن الآيـات والبراهين التي يستدل بها- سبحانه- على إمكانه تارة، وعلى وقوعـه تـارة، وعلـى تنزيهه عمـا يقـول أعـداؤه مـن أنـه لا يـأتي بـه تـارة. فالإقسام بـه عنـد مـن آمـن بـالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم- سبحانه- بـ "الشاهد" و"المشهود"، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه: المدرك والمدرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي؛ وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي- بحمد الله- في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوي، وهو السماء وما فيها من البروج، التي هـي أعظـم الأمكنـة وأوسعها.

ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا، الذي هو مظهر ملكـه، وأمـره، ونهيـه، وثوابـه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله.

=

ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو "الشاهد" و"المشهود". وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء، وجوارحهم تشهد به عليهم.

وأيضا؛ فـ "الشاهد" هو: المطلع، والرقيب، والمخبر. و"المشهود" هو: المطلع عليه، المخبر به، المشاهد.

فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) } [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، وكما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه = كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر؛ وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود، ومنها ما هو شاهد عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيبا حفيظا على غيره، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده، مطلعا عليهم رقيبا؟!

وأيضا؛ فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه.

وأيضا؛ فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: {ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١٠٣) } [هود: ١٠٣] يشهده الله، وملائكته، والإنس، والجن، والوحش، فالشاهد من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضا؛ فكلامه مشهود كما قال تعالى: {وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) } [الإسراء: ٧٨]، تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار؛ فالمشهود من أعظم آياته، وكذلك الشاهد.

فكل ما وقع عليه اسم "شاهد" و"مشهود" فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه

=

=

لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل.

وأيضا؛ فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون، فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب؛ لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب: {قتل أصحاب الأخدود (٤)}؛ لأن ذلك دعاء وطلب، ولكنه- سبحانه- ذكر حال أعدائه وأوليائه، فذكر أصحاب الأخدود الذين فتنوا أولياءه، وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعدوا على جانب الأخدود، شاهدين على ما يجري على عباد الله وأوليائه عيانا، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولم يعيبوا عليهم ذنبا سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به.

وهذا شأن أعداء الله دائما، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: {قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٥٩)} [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزههم عن مثل فعلهم، فقالوا: {أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢) } [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها، وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله، ونعوت

=

=

جلاله، وعلوه على مخلوقاته، ويعادونهم على ذلك، ويرمونهم لأجله بالعظائم.
وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم، وولايتهم إياهم، وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.
وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه، وتركهم ما خالفه.
وكل هؤلاء لهم نصيب من هذه الآية، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود، وبينهم نسب قريب أو بعيد.
ثم أخبر- سبحانه- أنما أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا المؤمنين وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم، وهذا غاية الكرم والجود.
قال الحسن: "انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة".
انظروا إلى كرم الرب تعالى، يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أولياءه، وحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة لله أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن به، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.
ثم ذكر- سبحانه- جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبدئ المعيد، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو- سبحانه- الموصوف بشدة البطش، وهو مع ذلك الغفور الودود.
و"الودود": المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه.

=

=

وهو "الودود"- أيضا- أي: المحبوب.

قال البخاري في "صحيحه": "الودود: الحبيب".

والتحقيق: أن اللفظ يدل على الأمرين؛ على كونه وادا لأوليائه، مودودا لهم، فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه، يحبهم ويحبونه. قال شعيب عليه السلام: {إن ربي رحيم ودود (٩٠)} [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم "الودود" بـ "الرحيم" وبـ "الغفور"، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحبه. والرب- تعالى- يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه، ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان.

ثم قال تعالى: {ذو العرش}، فأضاف "العرش" إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة.

وهذا يدل على عظمة "العرش"، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه بـ "ذو" صفاته القائمة به كقوله تعالى: {ذو القوة} [الذاريات: ٥٨]، و {ذو الجلال والإكرام (٢٧)} [الرحمن: ٢٧]، ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك. فلو كان حظ "العرش" منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق بين أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بـ "المجيد"، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه.

وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء. والمخلوق إنما يصير مجيدا بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟! تعالى الله عما يقول المعطلون علوا

=

=

كبيرا، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

و"المجد" في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير.

وأحسن ما قرن اسم "المجيد" إلى "الحميد"، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام: {رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (٧٣)} [هود: ٧٣]، وكما شرع لنا في آخر الصلاة بأن نثني على الرب- تعالى- بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول بعد "ربنا ولك الحمد": "أهل الثناء والمجد".

فـ "الحمد" و"المجد" -على الإطلاق- لله الحميد المجيد، فـ "المجيد" : الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. و"الحميد": العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ {المجيد}- بالكسر- فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشه مجيدا فهو- سبحانه- أحق بالمجد.

وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم نسمع في صفات الخلق "مجيد". ثم خرجها على أحد وجهين:

إما على الجوار.

وإما أن يكون صفة لـ "ربك".

وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإن الله- سبحانه- وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة.

فوصفه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، لسعته، وحسنه، وبهاء منظره، فإنه أوسع شيء في المخلوقات، وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته، وحسنه، وبهاء منظره إلا الله تعالى. ومجده مستفاد من مجد

=

=

خالقه ومبدعه، والسماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي- الذي بين يديه- كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه- كذلك- كتلك الحلقة في الفلاة.

قال ابن عباس: "السماوات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس".

فكيف لا يكون مجيدا وهذا شأنه؟ فهو عظيم، كريم، مجيد.

وأما تكلف هذا المتكلف جره على الجوار، أو أنه صفة لـ "ربك" = فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

وقوله تعالى: {فعال لما يريد (١٦)} دليل على أمور:

أحدها: أنه- سبحانه- يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (١٧)} [النحل: ١٧]، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئا فعله، فإن "ما" موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله.

وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر؛ فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلا.

وهذه هي النكتة التي خفيت على "القدرية" و"الجبرية"، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتان: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلا. وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله. وقد يريد فعله ولا يريد

=

=

من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ، حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: "قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم : أن لا تشرك بي شيئا، فأبيت إلا الشرك". فأخبر- سبحانه- أنه أراد من المشرك ألا يشرك به شيئا، ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه، وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله- سبحانه- وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه. وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه- تعالى- أن يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله؛ فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه = لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد. وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردا لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل.

وكذلك إذا أمكن إرادته- سبحانه- محو ما شاء، وإثبات ما شاء = أمكن فعله، وكانت تلك الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

وقد اشتملت هذه السورة -على اختصارها- من التوحيد على:

وصفه- سبحانه- بـ "العزة"؛ المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير.

=

=

و"الحمد" المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته.

وملكه السماوات والأرض؛ المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه.

وشهادته على كل شيء؛ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها، وسمعه بمسموعاتها، وعلمه بمعلوماتها.

ووصفه بشدة البطش؛ المتضمن لكمال القدرة والقوة والعزة.

وتفرده بالإبداء والإعادة؛ المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة، وانقيادها لقدرته، فلا يستعصي عليه منها شيء.

ووصفه بـ "المغفرة"؛ المتضمن لكمال جوده، وإحسانه، وغناه، ورحمته.

ووصفه بـ "الودود"؛ المتضمن لكونه حبيبا إلى عباده، محبا لهم.

ووصفه بأنه "ذو العرش"؛ الذي لا يقدر قدره سواه، وأنه عرشه المختص به؛ الذي لا يليق بغيره أن يستوي عليه.

ووصفه بـ "المجد"؛ المتضمن لسعة العلم، والقدرة، والملك، والغنى، والجود، والإحسان، والكرم.

وكونه فعالا لما يريد؛ المتضمن لحياته، وعلمه، وقدرته، ومشيئته، وحكمته. وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها.

فـ {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب} [الكهف: ١]، و{تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} [الفرقان: ١].

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به، وكذب رسله؛ تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم.

ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم، ولا أسوأ حالا ممن عادى من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل

=

سورة الطارق(١)

=

وجه، وبكل اعتبار، فقال تعالى: {بل الذين كفروا في تكذيب (١٩) والله من ورائهم محيط (٢٠)} [البروج: ١٩، ٢٠]، فهل أعجب ممن كفر بمن هو محيط به، آخذ بناصيته، قادر عليه؟!

ثم وصف كلامه بأنه "مجيد"، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله، فهو "المجيد"، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "قرآن مجيد: كريم"؛ لأن كلام الرب ليس هو كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر. وقد تقدم أن "المجد": السعة، وكثرة الخير؛ وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به.

وقوله: {في لوح محفوظ (٢٢)} [البروج: ٢٢]؛ أكثر القراء على الجر، صفة لـ "لوح"، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به؛ لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن تقدر الشياطين على الزيادة فيه أو النقصان.

فوصفه- سبحانه- بأنه محفوظ في قوله: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩) } [الحجر: ٩]، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة.

فالله- سبحانه- حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

(١) قال ابن عطية: "هي مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك".

وقال ابن الجوزي: "هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.

قال ابن عاشور: "هي مكية بالاتفاق، نزلت قبل سنة عشر من البعثة".

=

=

* آياتها سبعَ عشرة فى عدّ الجميع، غير أَبى جعفر؛ فإِنَّها عند ستَّ عشرة. أَسقط {يَكِيْدُوْنَ كَيْدًا}، وعدّها الباقون. وكلماتها إِحدى وستُّون. وحروفها مائتان وتسع وثلاثون. فواصل آياتها (ظلّ بق عار).

* أسماء السورة:

تسمى «سورة الطارق» سميت في كتب التفسير، وكتب السنة، وفي المصاحف «سورة الطارق»، لوقوع هذا اللفظ في أولها، قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ } [الطارق: ١].

وتسمى «سورة السماء والطارق» ثبتت هذه التسمية عند الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين-، كما أنها سميت «والسماء والطارق»، بإضافة واو القسم، وبذلك ترجمت في تفسير الطبري، والثعالبي، وابن أبي زمنين، ومكي بن أبي طالب، وهي تسمية اجتهادية وليست توقيفية.

وهي تسمية اجتهادية من الصحابة-رضي الله عنهم- وهي تسمية لها بأول جملة افتتحت بها السورة، قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج: ١].

وروي عن أبي هريرة:"أن رسول الله ﷺ، أمر أن يقرأ: بالسماوات في العشاء".

أي: «السماء ذات البروج» و «السماء والطارق»، فمجمعها جمع: سماء، وهذا يدل على أن اسم السورتين: سورة «السماء ذات البروج»، «سورة السماء والطارق».

* مقصود السّورة: القسم على حفظ أَحوال الإِنسان، والخبر عن حاله فى الابتداءِ والانتهاءِ، وكشف الأَسرار فى يوم الجزاءِ، والقَسَم على أَنَّ كلمات القرآن جَزْل، غير هَزْل، من غير امتراءِ، وشفاعة حضرة الكبرياءِ إِلى سيّد الأَنبياءِ بإِمهال الكافرين، فى العذاب والبلاءِ، فى قوله: {أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١).

{وَالسَّمَاء وَالطَّارِق} أَصْله كُلّ آتٍ لَيْلًا وَمِنْهُ النُّجُوم لِطُلُوعِهَا لَيْلًا.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمك {مَا الطَّارِق} مُبْتَدَأ وَخَبَر فِي مَحَلّ الْمَفْعُول الثَّانِي لِأَدْرَى وَمَا بَعْد مَا الْأُولَى خَبَرهَا وَفِيهِ تَعْظِيم لِشَأْنِ الطَّارِق الْمُفَسَّر بِمَا بَعْده هُوَ.

النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣).

{النَّجْم} أَيْ الثُّرَيَّا أَوْ كُلّ نَجْم {الثَّاقِب} الْمُضِيء لِثَقْبِهِ الظَّلَام بِضَوْئِهِ وَجَوَاب الْقَسَم

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤).

{إنْ كُلّ نَفْس لَمَا عَلَيْهَا حَافِظ} بِتَخْفِيفِ مَا فَهِيَ مَزِيدَة وَإِنْ مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ إنَّهُ وَاللَّام فَارِقَة وَبِتَشْدِيدِهَا فَإِنْ نَافِيَة وَلَمَا بِمَعْنَى إلَّا وَالْحَافِظ مِنْ الْمَلَائِكَة يَحْفَظ عَمَلهَا مِنْ خَيْر وَشَرّ.

=

* ومن المتشابه: {فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} وهذا تكرار، وتقديره: مهِّل مهِّل مهِّل؛ لكنَّه عدل فى الثَّانى إِلى (أَمهل)؛ لأَنَّه من أَصله، وبمعناه: كراهة التكرار، وعدل فى الثالث إِلى قوله: {رُوَيْداً}؛ لأَنَّه بمعناه، أَى أَرْودهم إِرواداً. ثم صُغِّر (إِرواداً) تصغير التَّرخيم، فصار: رويداً. وقيل: (رويدًا) صفة مصدر محذوف، أَى إِمهالاً رُويْدًا، فيكون التكرار مرّتين. وهذه أُعجوبة. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥١٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥).

{فَلْيَنْظُرْ الْإِنْسَان} نَظَر اِعْتِبَار {مِمَّ خُلِقَ} مِنْ أي شيء.

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦).

جوابه {خلق من ماء دافق} ذِي اِنْدِفَاق مِنْ الرَّجُل وَالْمَرْأَة فِي رَحِمهَا

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧).

{يَخْرُج مِنْ بَيْن الصُّلْب} لِلرَّجُلِ {وَالتَّرَائِب} لِلْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَام الصَّدْر.

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨).

{إِنَّهُ} تَعَالَى {عَلَى رَجْعه} بَعْث الْإِنْسَان بَعْد مَوْته {لَقَادِر} فَإِذَا اِعْتَبَرَ أَصْله عَلِمَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى ذَلِكَ قَادِر عَلَى بَعْثه.

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩).

{يَوْم تُبْلَى} تُخْتَبَر وَتُكْشَف {السَّرَائِر} ضَمَائِر الْقُلُوب في العقائد والنبات.

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠).

{فَمَا لَهُ} لِمُنْكِرِ الْبَعْث {مِنْ قُوَّة} يَمْتَنِع بِهَا مِنْ الْعَذَاب {وَلَا نَاصِر} يَدْفَعهُ عَنْهُ.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١).

{وَالسَّمَاء ذَات الرَّجْع} الْمَطَر لِعَوْدِهِ كُلّ حِين.

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢).

{وَالْأَرْض ذَات الصَّدْع} الشَّقّ عَنْ النَّبَات.

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣).

{إِنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {لَقَوْل فَصْل} يَفْصِل بَيْن الْحَقّ والباطل.

وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤).

{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} بِاللَّعِبِ وَالْبَاطِل.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥).

{إِنَّهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {يَكِيدُونَ كَيْدًا} يَعْمَلُونَ الْمَكَايِد لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦).

{وَأَكِيد كَيْدًا} أَسْتَدْرِجهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧).

{فَمَهِّلْ} يَا مُحَمَّد {الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ} تَأْكِيد حَسَّنَهُ مُخَالَفَة اللَّفْظ أَيْ أَنْظِرْهُمْ {رُوَيْدًا} قَلِيلًا وَهُوَ مصدر مؤكد لمعنى العالم مُصَغَّر رَوْد أَوْ أَرْوَاد عَلَى التَّرْخِيم وَقَدْ أَخَذَهُمْ الله تَعَالَى بِبَدْرٍ وَنَسَخَ الْإِمْهَال بِآيَةِ السيف أي الأمر بالقتال والجهاد[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة في قوله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)}؛ قال: نزلت في أبي الأشدين، كان يقوم على الأديم فيقول: يا معشر قريش! من أزالني عنه؛ فله كذا وكذا، ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر؛ فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٨)، و"الدر المنثور" (٨/ ٤٧٤، ٤٧٥) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} [الطارق: ١].

قال ابن كثير: "يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة".

قال الفراء: "الطارق: النجم، لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلا فهو طارق".

=

=

قال الزجاج:"الطارق: النجم، والنجم يعنى به النجوم، وإنما قيل للنجم: طارق، لأنه طلوعه بالليل، وكل ما أتى ليلا فهو طارق، لأن الليل يسكن فيه، ومن هذا قيل: أطرق فلان إذا أمسك عن الكلام وسكن".

عن الضحاك:"{الطّارِقِ}: النجم".

عن قتادة:"{والسَّماءِ والطّارِقِ}، قال: هو ظهور النجوم بالليل، يقول: تطرقك بالليل".

عن ابن جريج:"{والسَّماءِ والطّارِقِ}، قال: النجم يخفى بالنهار، ويبدو بالليل".

عن ابن عباس:"{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، قال: السماء وما يطرق فيها".

حكي أبو الليث عن ابن عباس:"قال: الطارق: الكواكب التي تطرق في الليل، وتخفى في النهار".

قال ابن كثير:"قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقا؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا، أي: يأتيهم فجأة بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن» ".

وحكي أبو الليث عن سعيد بن جبير، قال: «سألت ابن عباس- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عن قوله:: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، فقال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق: ٢-٣]، وسكت. فقلت له: مالك؟ فقال: والله ما أعلم منها، إلا ما أعلم ربي». يعني: تفسير الآية ما ذكر في هذه الآية، وهو قوله: والنجم الثاقب. يعني: هو الطارق".

يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة (والطارق) معطوف على السماء.

=

=

والقسم من طرق تأكيد الكلام، وأقسم الله بالسماء وبالطارق لأنهما من مخلوقاته الباهرة، ولما فيهما من الآيات الظاهرة، والإقسام بهما دليل على عظمة شأنهما وعظمة خالقهما.

والطارق أصله في اللغة ما يطرق ليلا.

- **قال ابن عطية** (والطارق) الذي يأتي ليلا، وهو اسم جنس لكل ما يظهر ويأتي ليلا، ومنه نهى رسول الله ﷺ الناس من أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقا، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر:

يا نائم الليل مغترا بأوله... إن الحوادث قد تطرقن أسحارا.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى أكثر في كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة.

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} [الطارق: ٢]، أي:"وما أدراك ما عِظَمُ هذا النجم؟".

قال أبو الليث:"على وجه التعجب والتعظيم".

قال القشيري:"استفهام، يراد منه تفخيم شأن هذا النجم".

قال ابن فورك: "أي: إنك لم تدر حتى أعلمتك وكل ما يعلمه الإنسان فالله أعلمه بالضرورة أو بالدليل".

قوله تعالى: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق: ٣]، أي:"هو النجم المضيء المتوهِّج".

وفي تفسير قوله تعالى: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق: ٣]، وجوه:

أحدها: يعني: المضيء، قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني، ويحيى بن سلام، ومقاتل، وأبو عبيدة.

قال ابن عباس:"هي الكواكب المضيئة، وثقوبه: إذا أضاء".

قال يحيى بن سلام:"يعني: الكوكب المضيء".

=

=

وقال عكرمة: "هو مضيء ومحرق للشيطان".

قال النحاس:"أصحّ ما قيل في معنى الثاقب ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس الثاقب قال: يقول: المضي".

عن قتادة: "{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}: المضيء".

قال قتادة:"ثقوبه: ضوءه".

قال عطاء الخراساني:"ثقوبه: استنارته".

قال أبو عبيدة:"المضيء، أثقب نارك أضئها".

قال الفراء:"الثاقب: المضيء، والعرب تقول: أثقب نارك، للموقد".

قال الزجاج:"الثاقب: المضيء، يقال: ثقب يثقب تقوبا. إذا أضاء، ويقال للموقد: أثقب نارك، أي: أضئها".

قال الراغب:"الثَّاقِب: المضيء الذي يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه. قال الله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ} [الصافات: ١٠]، وقال تعالى: {وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق: ٢- ٣]، وأصله من الثُّقْبَة، والمَثْقَب: الطريق في الجبل، كأنه قد ثقب، وقال أبو عمرو: والصحيح: المِثْقَب، وقالوا: ثَقَبْتُ النار، أي: ذكيتها".

الثاني: المتوهَّج، قاله مجاهد.

الثالث: المنقضّ، قاله عكرمة.

الرابع: أن الثاقب: هو النجم، حين يرسل على الشياطين، فيثقبه، يعني: فيحرقه. قاله الحسن البصري، وعطاء.

وروي عن عكرمة، قال: أن " {الثَّاقِبُ}: الذي يثقب".

وحكي الماوردي عن السدي:"الثاقب: الشياطين حين ترمى".

ولفظ آخر حكاه ابن كثير عن السدي:"يثقب الشياطين إذا أرسل عليها".

=

=

قال الماتريدي:"الذي يثقب الشيطان، أي: يخرقه".

قال يزيد الرقاشي: "يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر، فذكر ذلك لابي مجلز رضي الله، عنه، فقال: ليس ذاك، ولكن ثقوبه ضوءه".

الخامس: الثاقب في مسيره ومجراه، قاله الضحاك.

قال النحاس:"لطلوعه من المشرق كأنه يثقب موضعه".

السادس: أن الثاقب الذي قد ارتفع على النجوم كلها، قاله الفراء.

قال الفراء:"والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعا: قد ثقب".

قال ابن خالويه:"يقال: ثقب الطائر إذا علا في الهواء، وأسف إذا دنا من الأرض، ودوم إذا سكن جناحيه ليستقل".

وفي هذا "النجم"، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه زُحل، قاله عليّ، وابن عباس.

روى أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: "هو زحل، ومسكنه في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجومُ أمكنتَها من السماء، هبط، فكان معها، ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد".

قال الثعلبي:"قيل: هو زحل سمي بذلك لارتفاعه، وتقول العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعا: قد ثقب".

وقال السمعاني:"يعني: أنه يثقب السموات بضيائه".

الثاني: الثريّا، قاله ابن زيد.

قال السمعاني:"والعرب إذا أطلقت النجم، عنت به الثريا".

الثالث: أنه اسم جنس، ذكره علي بن أحمد النّيسابوريّ. وهو قول الحسن.

قال الحسن:"{النَّجْمُ}: -ها هنا- جماع النجوم".

=

=

قال الواحدي:" {النَّجْمُ الثَّاقِبُ}، اسم الجنس، وأُريد به العموم في قول أهل المعاني، وأكثر أهل التفسير".

وقال مقاتل:"وذلك أن الله ﷻ خلق النجوم ثلاثة: نجوم يهتدى بها، ونجوم رجوم للشياطين، ونجوم مصابيح الأرض، فأقسم الله ﷻ بها".

(النجم الثاقب) بيان وتفسير للطارق، أي: المضيء الذي يثقب نوره ويخرق السموات فينفذ حتى يرى الأرض.

- قال السعدي: والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وسمي النجم طارقا لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: (نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا) أي يأتيهم فجأة بالليل.

- قال القرطبي: الطارق: النجم، اسم جنس سمى بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث: نهى النبي ﷺ أن يطرق المسافر أهله ليلا.. والعرب تسمى كل قاصد في الليل طارقا. يقال: طرق فلان، إذا جاء ليلا.. وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمى قاصد الليل طارقا، لاحتياجه في الوصول إلى الدق... وفي الحديث: أعوذ بك من طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن.

- **قال ابن عاشور**: شبه طلوع النجم ليلا بطروق المسافر الطارق بيتا بجامع كونه ظهورا في الليل.

قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ٤]، أي:"ما كل نفس إلا أوكل بها مَلَك رقيب يحفظ عليها أعمالها؛ لتحاسب عليها يوم القيامة".

قال الطبري: أي:"إن كلّ نفس لعليها حافظ من ربها، يحفظ عملها، ويُحصي عليها ما تكسب من خير أو شرّ".

=

قال أبو الليث:"فأقسم الله تعالى بالسماء ونجومها. ويقال: بخالق السماء ونجومها إن كل نفس لما عليها حافظ وهذا جواب القسم، يعني: ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ قولها وفعلها".

وفي قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ٤]، وجهان :

أحدهما: أن «ما» التي بعد اللام صله زائدة، وتقديره: إن كل نفس لعليها حافظ، قاله الأخفش، وأبو عبيدة، والزجاج.

الثاني: «لّما» بمعنى: «إلاّ»، وتقديره: إنْ كل نفس إلاَّ عليها حافظ، قاله ابن عباس، ويحيى بن سلام.

قال الفراء:"قرأها العوام «لما»، وخففها بعضهم. الكسائي كان يخففها، ولا نعرف جهة التثقيل، ونرى أنها لغة في هذيل، يجعلون إلا مع إن المخففة «لما». ولا يجاوزون ذلك. كأنه قال: ما كل نفس إلا عليها حافظ".

عن ابن عون، قال: "قرأت عند ابن سيرين: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} فأنكره، وقال: سبحان الله، سبحان الله".

عن الحسن البصري -من طريق هارون- أنه كان يقرؤها: "{إن كُلُّ نَفْسٍ لَّمّا عَلَيْها حافِظٌ} مُشدّدة. ويقول: إلا عليها حافظ، وهكذا كلّ شيء في القرآن بالتثقيل".

وفي «الحافظ»، وجوه:

أحدها: أنهم الحفظة من الملائكة. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"كلّ نفس عليها حفظة من الملائكة".

قال السمعاني:"الحافظ: هو الملك".

قال ابن فورك:"الحافظ: المانع من هلاك الشيء".

=

قال ابن كثير:"أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} الآية [الرعد: ١١]".

الثاني: حافظ من الله يحفظ عليه أجله ورزقه، قاله سعيد بن جبير.

قال ابن جريج:"يحفظ عمله، وأجله، ورِزقَه".

الثالث: حفظة من الملائكة يحفظون عليه عمله من خير أو شر، قاله قتادة، ومقاتل.

قال قتادة:"حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيته يا ابن آدم قُبِضت إلى ربك".

قال قتادة:"قرينه يحفظ عمله".

قال مقاتل:"من الملائكة يكتبون حسناته وسيئاته".

الرابع: حافظ من الله يحفظ قولها وفعلها ويحفظها حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم تخلى عنها. قاله الكلبي، وحصين، والفراء.

قال الفراء:"الحافظ من الله ﷻ يحفظها، حتى يسلمها إلى المقادير".

قال ابن عطية:"وهذا قول فاسد المعنى، لأن مدة الحفظ إنما هي بقدر".

وروي عن خُصَيف بن عبد الرحمن -من طريق عتّاب بن بشر- في قوله: {إن كل نفس لما عليها حافظ}، يقول: لَمّا عليها مِن الحق حافظ من الله".

هذا جواب القسم، أي: كل نفس عليها من الله يحرسها من الآفات.

كما قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله).

ويحفظ أعمالها.

كما قال تعالى (وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون).

=

=

فيقسم رب العزة سبحانه بالسماء، ويقسم بالطارق الذي في السماء وهو: النجم، وقد أقسم الله بالنجم في آيات أخر (والنجم إذا هوى) يقسم الله بذلك على أن كل نفس عليها حافظ على الوجهين المتقدمين، فإذا اعتقدت هذا المعتقد استقامت سريرتك، وصلح حالك، وحفظت لسانك، إن علمت أن عليك حافظا يسطر الأعمال والأقوال.

- قال ابن القيم: والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية، الاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها، وإنها لم تترك، بل أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها ويحصر ما تكتسب من خير وشر.

والمقصود من الآية الكريمة: تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى عليها بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} [الطارق: ٥]، أي:"فلينظر الإنسان المنكر للبعث مِمَّ خُلِقَ؟ ليعلم أن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أوّلا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلينظر الإنسان المكذّب بالبعث بعد الممات، المُنكر قُدرة الله على إحيائه بعد مماته، من أيّ شيءٍ خلقه ربه".

قال النحاس:"من نظر القلب".

قال ابن فورك:"النظر: -ها هنا- نظر الاعتبار".

قال ابن عباس:"هو أبو الأشدين، كان يقوم على الأديم فيقول: يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا".

عن عكرمة، في قوله: {فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ}، قال: "هو أبو الأَشُدَّيْن، كان يقوم على الأديم، فيقول: يا معشر قريش، مَن أزالني عنه فله كذا وكذا. ويقول: إنّ

=

=

محمدًا يزعم أنّ خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة".

أي: فلينظر الإنسان نظر اعتبار وتفكر من أي شيء خلقه الله؟ قد خلقه الله- تعالى- بقدرته، من ماء متدفق، يخرج بقوة وسرعة من الرجل، ليصب في رحم الأنثى.

ففي هذا: تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى.

كما قال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه).

- قال ابن القيم: قوله (فلينظر) أي نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

- قال القرطبي: وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أول أمره وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره.

قوله تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} [الطارق: ٦]، أي: خلق من منيٍّ منصبٍّ بسرعة في الرحم".

قال ابن كثير:"يعني: من ماء مدفوق".

قال مقاتل:"خلق من ماء الرجل، والمرأة «والتصق بعضه على بعض فخلق منه".

قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق: ٧]، أي:"يخرج من بين صلب الرجل وصدر المرأة".

قال ابن كثير:"يعني: يخرج منهما".

قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}.

وفي تفسير قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق: ٧]، وجهان:

=

=

أحدهما: من بين صلب الرجل وترائبه، قاله الحسن، وقتادة.

قال قتادة:"يخرج من بين صلب الرجل ونحره".

الثاني: بمعنى أصلاب الرجال وترائب النساء. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسفيان.

قال سفيان:"الصُّلْب للرجل، والترائب للمرأة".

قال ابن عباس:"صلب الرجل وترائب المرأة، لا يكون الولد إلا منهما".

وفي «التَّرَائِبِ»، ستة أقوال:

أحدها: أنه الصدر، قاله سعيد بن جبير، وابن عياض، وابن زيد، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإنَّ تُدْبروا نأخذكُم في ظهوركم... وإنْ تُقْبِلُوا نأخذكُم في الترائب

قال ابن زيد:"الترائب: الصدر. وهذا الصلب وأشار إلى ظهره".

الثاني: ما بين المنكبين والصدر، قاله مجاهد.

وروي عن مجاهد: "{التَّرَائِبِ}، قال: أسفل من التراقي".

وقال سفيان:"الترائب فوق الثديين".

الثالث: أن «الترائب»: موضع القلادة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومقاتل ،قال المثقَّب العبدي :

وَمِنْ ذَهَبٍ يُسَنُّ عَلَى تَرِيبٍ... كَلَوْنِ العَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ

وقال آخر :

وَالزَّعْفَرَانُ عَلَى تَرَائِبِهَا شَرِقا... بِهِ اللَّبَّاُت والنَّحْرُ

قال ابن عباس:"تريبة المرأة وهو موضع القلادة".

وقال ابن عباس:"يقول: من بين ثدي المرأة".

عن أبي رجاء، قال: "سُئل عكرِمة عن «الترائب»، فقال: هذه، ووضع يده على صدره بين ثدييه".

=

=

وقال الزجاج:"قال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا لامرئ القيس:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ... تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ".

الرابع: أن الترائب: الأضلاع التي أسفل الصلب، قاله سعيد بن جبير.

وقال الزجاج:"الترائب: جاء في التفسير أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربع أضلاع من يسرة الصدر".

الخامس: أن «الترائب»: أطراف الرجل واليدان والرجلان والعينا، قاله ابن عباس-أيضا-، والضحاك.

قال الضحاك:"الترائب: اليدان والرجلان".

وقال الضحاك:"عيناه ويداه ورجلاه".

السادس: هي عصارة القلب، ومنه يكون الولد. قاله معمر بن أبي حبيبة.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، قولُ من قال: هو موضع القِلادة من المرأة، حيث تقع عليه من صدرها؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم".

أي: يخرج هذا الماء (من بين الصلب) وهي عظام ظهر الرجل (والترائب) وهي عظام صدر المرأة، فسبحان العليم الخبير.

أي: وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل، ومن بين ترائب المرأة، حيث يختلط الماءان، ويتكون منهما الإنسان في مراحله المختلفة بقدرة الله- تعالى-.

ويحتمل أن المراد بالترائب ترائب الرجل أيضا أي: عظام صدره، لأنه قال (يخرج من بين الصلب والترائب) ولم يقلب: يخرج من الصلب والترائب.

=

=

* قال ابن عاشور: وأطنب في وصف هذا الماء الدافق لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ليستيقظ الجاهل الكافر ويزداد المؤمن علما ويقينا.

والمراد بالآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، وخلقه من ذلك الماء الدافق، وأن الذي خلقه هذه الخلقة بقدرته، قادر ـ سبحانه ـ على أن يعيد بعثه للحساب، مرة أخرى. قال الزمخشري : "فإن قلت : ما وجه اتصال قوله (فلينظر) بما قبله ؟

قلت : وجه اتصاله به : أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا، أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى ؛ حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته " انتهى من "تفسير الكشاف".

وإذا كان الصلب هو : الظهر، باتفاق المفسرين هنا، وأما الترائب، فقد اختلف أهل العلم فيما هي، وأين موضعا.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ : "واختلف أهل التأويل في معنى الترائب، وموضعها :

قال بعضهم : الترائب : موضع القلادة من صدر المرأة "، وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة، وغيرهما.

وقال آخرون : الترائب : ما بين المنكبين والصدر، وهو مروى عن مجاهد، وغيره من السلف.

وقال آخرون : معنى ذلك، أنه يخرج من بين صلب الرجل ونحره "، وهو مروى عن قتادة.

وروى ـ أيضا ـ قول من قال : هو اليدان والرجلان والعينان، ومن قال : هي الأضلاع التي أسفل الصلب، ومن قال : هي عصارة القلب.

=

=

ثم قال- أي : الطبري- رَحِمَهُ اللَّهُ : "والصواب من القول في ذلك عندنا، قول من قال: هو موضع القلادة من المرأة، حيث تقع عليه من صدرها ؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم، قال المثقب العبدي :

ومن ذهب يسن على تريب... كلون العاج ليس بذي غضون " انتهى بتصرف.

وهذا الذي اختاره إمام المفسرين : من أن المراد به : صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة منها، هو الذي اختاره الإمام القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٤٣، ٢٠/ ٥)، والحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٧٥)، واختاره أيضا : العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، قال : "اعلم أنه تعالى بين أن ذلك الماء، الذي هو النطفة، منه ما هو خارج من الصلب، أي : وهو ماء الرجل، ومنه ما هو خارج من الترائب، وهو ماء المرأة، وذلك قوله جل وعلا : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من مآء دافق يخرج من بين الصلب والترآئب) الطارق/ ٥-٧ لأن المراد بالصلب : صلب الرجل، وهو ظهره، والمراد بالترائب : ترائب المرأة، وهي موضع القلادة منها. ومنه قول امرىء القيس : مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل " انتهى.

واختار ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد صلب الرجل وترائبه، حيث قال في "إعلام الموقعين" (١/ ١٤٥-١٤٦): لا خلاف أن المراد بالصلب صلب الرجل.

واختلف في الترائب : فقيل : المراد به ترائبه أيضا، وهي عظام الصدر، ما بين الترقوة إلى الثندوة. وقيل : المراد ترائب المرأة. والأول أظهر :

١- لأنه سبحانه قال : (يخرج من بين الصلب والترائب) ولم يقل يخرج من الصلب والترائب، فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجا من بين هذين المختلفين، كما قال في اللبن : (يخرج من بين فرث ودم).

=

=

٢- وأيضا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل. كذلك قال أهل اللغة : قال الجوهري : "والنطفة الماء الصافي قل أو كثر، والنطفة ماء الرجل، والجمع نطف".

٣- وأيضا فإن الذي يوصف بالدفق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته " انتهى.

وهو اختيار الشيخ ابن عاشور، وابن سعدي، وابن عثيمين، كما في "لقاء الباب المفتوح" (رقم/ ٤٥)، وانظر نحوا من ذلك في "اللقاء الشهري" (رقم/ ٤٥).

ونقل القرطبي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أن : "المعنى : يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة " انتهى تفسير الطبري (٢٠/ ٤).

واختار هذا القول الإمام ابن جزي، رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيره. انظر : تفسير التسهيل، لابن جزي (٧٨٥).

(فائدة) قال الدكتور محمد دودح: والحقيقة العلمية هي أن الأصول الخلوية للخصية في الذكر أو المبيض في الأنثى تجتمع في ظهر الأبوين خلال نشأتهما الجنينية، ثم تخرج من الظهر من منطقة بين بدايات العمود الفقري وبدايات الضلوع ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم، وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل، وإلا فشلت في إنتاج الحيوانات المنوية، وتصبح معرضة للتحول إلى ورم سرطاني إذا لم تكمل رحلتها.

والتعبير (يخرج من بين الصلب والترآئب) يفي بوصف تاريخ نشأة الذرية، ويستوعب كافة الأحداث الدالة على سبق التقدير والاقتدار والإتقان والإحكام في الخلق، منذ تكوين البدايات في الأصلاب وهجرتها خلف أحشاء البطن، ابتداء من المنطقة بين الصلب والترائب إلى المستقر ، وحتى يولد الأبوان ويبلغان

=

=

ويتزاوجان وتخلق الذرية مما يماثل نطفة ماء في التركيب عديمة البشرية من المني لكنها حية تتدفق ذاتيا لتندمج مع نطفة نظير، فتتكون النطفة الأمشاج من الجنسين.

(خلق من مآء دافق. يخرج من بين الصلب والترآئب).. حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرنا ، بيان هذا أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هي عظام صدره.. وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب..، فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا، ومقابل أسفل الضلوع.. فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب ، هذا وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف ؛ فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم ، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن فتحتاج إلى عملية جراحية " انتهى.

وقال الدكتور محمد علي البار: تقول الآية الكريمة أن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ، ونحن قد قلنا أن هذا الماء (المني) إنما يتكون في الخصية وملحقاتها ، كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة ، فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية ؟

=

=

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه ، والصلب هو العمود الفقري والترائب هي الأضلاع ، وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط، أي بين الصلب والترائب ، ثم تنزل الخصية تدريجيا حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج تجويف البطن) في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة.. ، ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها، أي من بين الصلب والترائب ، فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر (الأورطي البطني) من بين الصلب والترائب ، كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة، أي بين الصلب والترائب ، كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو للمبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب ، وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة، أي بين الصلب والترائب.

فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب !!

فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب ، كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب ، والآية الكريمة إعجاز كامل، حيث تقول : (من بين الصلب والترآئب) ، ولم تقل من الصلب والترائب ، فكلمة " بين " ليست بلاغية فحسب، وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية.

والعلم الحديث يقرر أن الماء الذي لا يقذف ولا يندفع وإنما يسيل.. إنما هو إفرازات المهبل وغدد بارثولين المتصلة به، وأن هذه الإفرازات ليس لها دخل في تكوين الجنين، وإنما وظيفتها ترطيب المهبل.. ولكن العلم الحديث يكشف شيئا مذهلا ؛ أن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المني ، كذلك البويضة في

=

المبيض تكون في حويصلة " جراف " محاطة بالماء، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء.. وتلقفت أهداب البوق البويضة لتدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقي بالحيوان المنوي لتكون النطفة الأمشاج.. هذا الماء يحمل البويضة تماما كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية ، كلاهما يتدفق ، وكلاهما يخرج من بين الصلب والترائب : من الغدة التناسلية ؛ الخصية أو المبيض.

وتتضح مرة أخرى معاني الآية الكريمة في إعجازها العلمي الرائع : ماء دافق من الخصية يحمل الحيوانات المنوية ، وماء دافق من حويصلة " جراف " بالمبيض يحمل البويضة". انظر كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن (ص/ ١١٤-١٢٤).

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} [الطارق: ٨]، أي:"إن الذي خلق الإنسان من هذا الماء لَقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هذا الذي خلقكم أيها الناس من هذا الماء الدافق، فجعلكم بشرًا سويًا، بعد أن كنتم ماء مدفوقًا، على رجعه لقادر".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} [الطارق: ٨]، وجوه:

أحدها: على أن يرد المني في الإحليل، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}، قال: في الإحليل".

قال مجاهد:"على أن يرد الماء في الإحليل".

قال مجاهد:"على ردّ النطفة في الإحليل".

الثاني: على أن يرد الماء في الصلب، قاله عكرمة.

عن عكرمة: "{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}، قال: لِلصُّلب".

قال عكرمة:"إنه على رَدّه في صُلْبه لقادر".

=

الثالث: على أن يرد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"يقول: إن شئتُ رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة".

الرابع: على ردّ الإنسان ماءً كما كان قبل أن يخلقه منه. وهذا قول الضحاك أيضا-
.

قال الضحاك:"إن شئتُ رددتُه كما خلقته من ماءٍ".

الخامس: على أن يعيده حيّاً بعد موته، قاله الحسن، وعكرمة، وقتادة.

عن قتادة: "{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}، إن الله تعالى ذكره على بعثه وإعادته قادر".

السادس: على أن يحبس الماء فلا يخرج. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"على رجع ذلك الماء لقادرٌ، حتى لا يخرج، كما قدر على أن يخلق منه ما خلق قادر على أن يرجعه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: إن الله على ردّ الإنسان المخلوق من ماء دافق من بعد مماته حيًّا، كهيئته قبل مماته لقادر، وإنما قلت: هذا أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لقوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، فكان في إتباعه قوله: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}، نبأ من أنباء القيامة، دلالة على أن السابق قبلها أيضًا منه، ومنه {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} يقول تعالى ذكره: إنه على إحيائه بعد مماته لقادر يوم تُبلى السرائر، فاليوم من صفة الرجع، لأن المعنى: إنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر".

أي: الذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور والجزاء.

=

=

- قال ابن القيم: قوله (إنه على رجعه لقادر) أي: على رجعه إلى يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه.

- قال ابن كثير: قوله (إنه على رجعه لقادر) فيه قولان:

أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك.

والقول الثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، لأن من قدر على البدء قادر على الإعادة، واختاره ابن جرير.

ورجح هذا القول الرازي وقال: ويشهد له قوله (يوم تبلى السرائر) أي أنه قادر على بعثه يوم القيامة.

ورجحه الشوكاني وقال: ورجحه ابن جرير، والثعلبي، والقرطبي.

قوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩]، أي:"يوم تُخْتَبر السرائر فيما أخفته، ويُمَيَّز الصالح منها من الفاسد".

قال الطبري:"يوم تُخْتَبَرُ سرائر العباد، فيظهر منها يومئذ ما كان في الدنيا مستخفيًا عن أعين العباد من الفرائض التي كان الله ألزمه إياها، وكلَّفه العمل بها".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء عند استه يقال: هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان» ".

عن سفيان: "{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، قال: تُخْتَبَر".

قال عطاء بن أبي رباح:"ذلك الصوم والصلاة وغسل الجنابة، وهو السرائر، ولو شاء أن يقول: قد صُمْتُ، وليس بصائم، وقد صلَّيتُ، ولم يصلّ، وقد اغتسلت، ولم يغتسل".

=

=

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقا، ومن اختانهن فهو عدو الله حقا، الصلاة والصوم والغسل من الجنابة».

عن قتادة: "{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}، إن هذه السرائر مختبرة، فأَسِرّوا خيرًا وأعلنوه إن استطعتم، ولا قوّة إلا بالله".

قال الزمخشري:"{السَّرائِرُ}: ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال. وبلاؤها. تعرّفها وتصفحها، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث".

وعن الحسن أنه سمع رجلا ينشد :

سَيَبْقَى لَهَا فِيْ مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا... سَرِيْرَةُ وِدٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِر

فقال: ما أغفله عما في «وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ»؟".

أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهودا، وقد جاء في الحديث (يرفع لكل غادر لواء يقال هذه غدرة فلان بن فلان).

يقول تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور).

وقال تعالى (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت).

- يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (يوم تبلى السرائر): وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة؛ فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا، فتبدو سريرته على وجهه نورا وإشراقا وحياءا، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها.

=

=

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) أي: تختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه.

- قال الرازي (تبلى السرائر) أي تختبر، والسرائر ما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفى من الأعمال.

- **قال ابن عاشور:** (السرائر) جمع سريرة وهي ما يسره الإنسان ويخفيه من نواياه وعقائده.

- وبلو السرائر، اختبارها وتمييز الصالح منها عن الفاسد، وهو كناية عن الحساب عليها والجزاء، وبلو الأعمال الظاهرة والأقوال مستفاد بدلالة الفحوى من بلو السرائر.

والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله؛ فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له.- قال عبد الله بن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا في الوجوه، وشينا فيها. والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

قوله تعالى: {فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} [الطارق: ١٠]، أي:"فما للإنسان من قوة يدفع بها عن نفسه، وما له من ناصر يدفع عنه عذاب الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فما للإنسان الكافر يومئذ من قوّة يمتنع بها من عذاب الله، وأليم نكاله، ولا ناصر ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه، وقد كان في الدنيا يرجع إلى قوّةٍ من عشيرته، يمتنع بهم ممن أراده بسوءٍ، وناصرٍ من حليفٍ ينصره على من ظلمه واضطهده".

قال الزمخشري:"فما للإنسان {مِنْ قُوَّةٍ} من منعة في نفسه يمتنع بها، {وَلا ناصِرٍ}، ولا مانع يمنعه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: الإنسان يوم القيامة {مِنْ قُوَّةٍ}، أي: في نفسه {وَلا نَاصِرٍ}، أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك".

عن قتادة: "{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ}: ينصره من الله".

قال قتادة:"من قوّة يمتنع بها، ولا ناصر ينصره من الله".

قال سفيان:"القوّة: العشيرة، والناصر: الحليف".

قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} [الطارق: ١١].

وفي قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} [الطارق: ١١]، وجهان من التفسير:

أحدها: ذات المطر، لأنه يرجع في كل عام، قاله ابن عباس، وآخرون.

قال ابن الجوزي:"وسمي المطر رجعاً لأنه يجيء ويرجع ويتكرَّر، هذا قول المفسّرين وأهل اللغة".

قال الفراء:"تبتدئ بالمطر، ثم ترجع به في كل عام".

قال الزجاج:"ذات المطر لأنه يجيء ويرجع ويتكرر".

قال أبو عبيدة:"الماء، قال المتنخّل -يصف السيف- :

أَبْيَضُ كالرَّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا... مَا ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي".

عن ابن عباس: "{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}، قال: السحاب فيه المطر".

قال ابن عباس:"ذات السحاب فيه المطر".

قال ابن عباس:"المطر بعد المطر".

قال ابن عباس:"يعني بـ «الرجع»: القطر والرزق كلّ عام".

قال الحسن:"ترجع بأرزاق الناس كلّ عام".

قال أبو رجاء: "سُئل عنها عكرِمة، فقال: رجعت بالمطر".

عن الضحاك:"{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}، يعني: المطر".

=

قال مجاهد:"السحاب يمطر، ثم يَرجع بالمطر".

قال قتادة:"ترجع بالغيث كلّ عام".

قال قتادة: "ترجع بأرزاق العباد كلّ عام، لو لا ذلك هلكوا، وهلَكت مواشيهم".

قال الطبري:"ترْجع بالغيوم وأرزاق العباد كلّ عام؛ ومنه قول المتنخِّل في صفة سيف:

أَبْيَضُ كالرَّجْعِ رَسُوبٌ إذَا... مَا ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي".

قال الزمخشري:"{الرَّجْعِ}: تسمية بمصدري: رجع، وآب، وذلك أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض. أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعا. وأوبا، ليرجع ويؤب. وقيل: لأنّ الله يرجعه وقتا فوقتا. قالت الخنساء: كالرجع في المدجنة السارية".

الثاني: ذات النجوم الراجعة، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"شمسها وقمرها ونجومها يأتين من هاهنا".

قال النحاس:"أهل التفسير على أنه المطر، لأنه يرجع كل عام، إلا ابن زيد، فإنه قال: {وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ}: شمسها وقمرها ونجومها".

يقسم الله تبارك وتعالى بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حينا بعد حين، قال ابن عباس: الرجع المطر.

قال في التسهيل: (والسمآء ذات الرجع) المراد بالرجع عند الجمهور المطر وسماه رجعا بالمصدر، لأنه يرجع كل عام أو لأنه يرجع إلى الأرض.

قوله تعالى: {وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [الطارق: ١٢].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [الطارق: ١٢]، وجوه:

=

أحدها: ذات النبات لانصداع الأرض عنه، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، وأبو مالك، والسدي، والفراء، والطبري، والزجاج.

قال ابن الجوزي:"أي: ذات الشقّ، وقيل لها هذا، لأنها تتصدَّع وتتشقَّق بالنبات، هذا قول المفسّرين وأهل اللغة".

قال الفراء:"تتصدع بالنبات".

قال ابن عباس:"صدعها عن النبات".

قال ابن عباس:"ذات النبات".

قال ابن عباس:"يقول: صدعها إخراج النبات في كلّ عام".

عن الضحاك:" {وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} : النبات".

قال قتادة:"تصدع عن النبات".

قال قتادة:"تصدع عن الثمار وعن النبات كما رأيتم".

قال الحسن:"هذه تصدع عما تحتها؛ قال أبو رجاء: وسُئل عنها عكرِمة، فقال: هذه تصدع عن الرزق".

الثاني: ذات الأودية، لأن الأرض قد انصدعت بها، قاله ابن جريج.

الثالث: ذات الطرق التي تصدعها المشاة، قاله مجاهد.

عن مجاهد: " {وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} ، مثل المأزم مأزم منى".

قال مجاهد:"الصدع: مثل المأزم، غير الأودية وغير الجُرُف".

الرابع: ذات الحرث، لأنه يصدعها. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد، في قوله: " {وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} ، وقرأ: {ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا} ، إلى آخر الآية، قال: صدعها للحرث".

الخامس: ذات الأموات: لانصداعها عنهم للنشور. حكاه القرطبي.

=

=

يقسم تبارك وتعالى بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار. (إنه) أي: القرآن.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} [الطارق: ١٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هذا القول وهذا الخبر لقول يفصل بين الحقّ والباطل ببيانه".

قال الزجاج:"جواب القسم، يعنى: به القرآن، يفصل بين الحق والباطل".

قال الثعلبي:"حق وجد وجزل يفصل بين الحق والباطل".

قال القشيري:"أي: إن القرآن لقول جزم".

عن ابن عباس: "{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}، يقول: حقّ".

عن قتادة: "{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ}، أي: حُكْم".

وقال مقاتل:"يقول: إن الذي وصفته في هذه السورة لهو قول الحق".

قوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} [الطارق: ١٤].

قال الطبري:"يقول: وما هو باللعب ولا الباطل".

قال مقاتل، والزجاج:"يقول: وما هو باللعب".

قال ابن كثير:"أي: بل هو حق جد".

عن ابن عباس: "{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}، يقول: بالباطل".

عن مجاهد: "{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}، قال: باللعب".

قال سعيد بن جبير:"وما هو باللعب".

قال عطاء الخراساني:"الهزل: الباطل".

قال القشيري:"الهزل: ضد الجدّ، فليس القرآن بباطل ولا لعب".

قال الزمخشري:"يعنى: أنه جدّ كله لا هوادة فيه. ومن حقه- وقد وصفه الله بذلك- أن يكون مهيبا في الصدور، معظما في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه وأن

=

=

يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وأن يلقى ذهنه إلى أنّ جبار السماوات يخاطبه فيأمره وينهاه، ويعده وبوعده، حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون جادًا غير هازل، فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله: {وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} [النجم: ٦٠- ٦١]، {وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت: ٢٦أي: ليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، بل هو جد كله، لأنه كلام أحكم الحاكمين.

أي: وان هذا القرآن، ليس فيه شائبة من شوائب الهزل أو اللعب أو المزاح. بل هو جد كله، فيجب على كل عاقل، أن يتبع هداه، وأن يستجيب لأمره ونهيه.

وفي هذه الآيات الكريمة رد بليغ، على أولئك المشركين الجاهلين، الذين وصفوا القرآن، بأنه نزل على الرسول ﷺ ليهزل به، لأنه يخبرهم بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة. (الوسيط).

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} [الطارق: ١٧]، أي:"إن المكذبين للرسول ﷺ، وللقرآن، يكيدون ويدبرون؛ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المكذّبين بالله ورسوله والوعد والوعيد يمكرون مكرًا".

قال القشيري:"أي: يحتالون حيلة".

قال الثعلبي:"يعني: مشركي مكّة".

قال النحاس:"أي: للنبي ﷺ وللمؤمنين".

قال الزجاج:"يعني: به الكفار، أنهم يحاتلون النبي عليه السلام، ويظهرون ما هم خلافه".

قال ابن كثير:"أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا}، أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن".

=

قال الزمخشري:"يعنى: أهل مكة يعملون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق".

قال السمعاني:"الكيد -في اللغة-: هو صنع يصل به إلى الشيء على الخفية والاستتار".

قوله تعالى: {وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: ١٧]، أي:"وأكيد كيدًا لإظهار الحق، ولو كره الكافرون".

قال الطبري:"يقول: وأمكر مكرًا؛ ومكره جلّ ثناؤه بهم: إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به".

قال النحاس:"أمهلهم".

قال الثعلبي:"وأريد بهم أمرا".

قال القشيري:"هم يحتالون حيلة، ونحن نحكم فعلا ونبرم خلقا، ونجازيهم على كيدهم، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال".

قال الزمخشري: أي:"وأنا أقابلهم بكيدي: من استدراجى لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم".

قال الزجاج:"كيد الله لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون".

قال السمعاني:"الكيد -من الله-: هو الاستدراج من حيث لا يعلمون الكفار، والاستدراج هو الأخذ قليلا قليلا، وقيل: هي الأخذ من حيث يخفى عليهم، وقيل: {وأكيد كيدا} أي: أعاقبهم عقوبة كيدهم".

قوله تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ} [الطارق: ١٧]، أي:"فلا تستعجل لهم -أيها الرسول- بطلب إنزال العقاب بهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فمهِّل يا محمد الكافرين ولا تعجل عليهم".

=

قال ابن كثير:"أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم".

قال الزمخشري:"يعنى: لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به".

قال السمعاني:"أي: أمهل الكافرين، وهذا قبل آية السيف".

قوله تعالى: {أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق: ١٧]، أي:"أمهلهم وأنظرهم قليلا، وسترى ما يحلُّ بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك".

قال الزجاج:"أي: أمهلهم قليلا".

قال الزمخشري:"أي: إمهالا يسيرا، وكرّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير".

قال الطبري:"يقول: أمهلهم آنًا قليلا وأنظرهم للموعد الذي هو وقت حلول النقمة بهم".

قال ابن كثير:"أي: قليلا. أي: وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]".

قال قتادة:"الرويد: القليل".

قال الحسن:"قليلا".

عن ابن عباس: "{أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}، يقول: قريبًا".

قال السدي:"أَمْهِلهم حتى آمرَ بالقتال".

قال الضحاك: "فقتلوا يوم بدر".

قال ابن زيد:"مَهِّلْهم، فلا تعجل عليهم تَرْكَهُمْ، حتى لمَّا أراد الانتصار منهم أمره بجهادهم وقتالهم، والغلظة عليهم".

=

قال السمعاني:"أي: أمهلهم قليلا، والعرب تقول: رويدك يا فلان أي: كن على أودة ورفق، وأما هاهنا فهو بمعنى القليل على ما بينا. وقد أخذهم يوم بدر بالسيف، وسيأخذهم بعذاب الآخرة عن قريب".

يخبر تعالى عن الكافرين بأنهم يكذبون ويصدون عن سبيله فقال (إنهم يكيدون كيدا) أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن، وإلى تكذيب الرسول.

كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

وقال تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون).

- **قال ابن عاشور**: والكيد: إخفاء قصد الضر وإظهار خلافه.

(وأكيد كيدا) لإظهار الحق ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاءوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده.

- قال بعض العلماء: إن من كيد الله سبحانه وتعالى: أنه يمدهم في طغيانهم، ويمدهم في النعيم، وينعم عليهم بالنعم، ويستدرجهم بهذه النعم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، كما قال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) يفتح لهم أبواب النعم ويقذف في قلوبهم الغرور، ثم يسقطون سقطة ينتقم الله فيها منهم سبحانه وتعالى.

- وفي هذا أن الله تعالى لا يوصف بالمكر والكيد والخداع إلا على وجه المقابلة في حق الكائدين والماكرين والمخادعين. كما في هذه الآية.

وقوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون).

وقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

=

وقوله تعالى (ويمكرون ويمكر الله).

وقوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون).

- فصفات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: إذا كانت الصفة نقصا لا كمال فيها، فهي ممتنعة في حق الله تعالى.

كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز ونحوها.

القسم الثاني: إذا كانت الصفة كمالا لا نقص فيها فإن الله يوصف بها مطلقا.

كالحياة، والعلم، والسمع، والعزة، والقدرة ونحوها.

القسم الثالث: إذا كانت الصفة كمالا في حال، ونقصا في حال.

لم تكن جائزة في حق الله تعالى ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، بل يفصل فيها: فتجوز في الحال التي تكون كمالا، وتمتنع في الحال التي تكون نقصا.

وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، فهذه صفات تكون كمالا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها، لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها.

كقوله تعالى (ويمكرون ويمكر الله) وقوله (إنهم يكيدون كيدا. وأكيد كيدا) وقوله (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

- وأما الخيانة فلا يوصف بها مطلقا لأنها صفة ذم مطلقا، ولذلك لم يذكر الله أنه خان من خانوه، فقال تعالى (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم).ولم يقل فخانهم. [القواعد المثلى].

(فمهل الكافرين) أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم الانتقام والعذاب.

=

=

(أمهلهم رويدا) أي: أنظرهم قليلا، وسترى ما ذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك.

فكيد سبحانه وتعالى لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم.

كما قال تعالى (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ).

وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين).

وقال تعالى (وأملي لهم إن كيدي متين).

وقال تعالى (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير).

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه- سبحانه- بـ {والسماء والطارق (١)} [الطارق: ١]، وقد فسره بأنه {النجم الثاقب (٣)} الذي يثقب ضوؤه.

والمراد به الجنس لا نجم معين، ومن عينه بأنه "الثريا"، أو "زحل": فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه- سبحانه- أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته.

وسمى "النجم": طارقا؛ لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس أو أهله ليلا.

قال الفراء: "ما أتاك ليلا فهو طارق".

وقال الزجاج، والمبرد: "لا يكون الطارق نهارا".

ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيوما بذكرها ... وأيدي الثريا جنح في المغارب

وقال جرير:

=

=

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة، فارجعي بسلام

ولهذا قيل: أول من رد "الطيف" جرير، ولم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف، فـ "الطيف" والضيف كلاهما لا يرد.

وقال الآخر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب ... عليك سلام، هل لما فات مطلب؟

والمقسم عليه- ها هنا- حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم- سبحانه- أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكسب من خير أو شر.

واختلف القراء في "لما": فشددها بعضهم، وخففها بعضهم.

فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى "إلا"، وهي تكون بمعنى "إلا" في موضعين:

أحدهما: بعد "إن" "المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: {وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم} [هود: ١١١].

والثاني: في باب القسم، نحو: سألتك بالله لما فعلت.

قال أبو علي الفارسي: "من خفف كانت "إن" عنده هي المخففة من الثقيلة، و"اللام" في خبرها هي الفارقة بين "إن" النافية والمخففة. و"ما" زائدة، و"إن" هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة.

ومن قرأها مشددة كانت "إن" عنده نافية بمعنى "ما"، و"لما" في معنى "إلا". قال سيبويه، عن الخليل -في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت- قال المعنى: إلا فعلت".

ثم نبه- سبحانه- الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه، على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: {فلينظر الإنسان مم خلق

=

=

(٥)} [الطارق: ٥] أي: "فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ خلقه من نطفة قادر على إعادته".

ثم أخبر- سبحانه- أنه خلق من ماء دافق.

و"الدفق": صب الماء، يقال: دفقت الماء فهو مدفوق، ودافق، ومندفق.

فالمدفوق: الذي وقع عليه فعلك كـ: المكسور، والمضروب.

والمندفق: المطاوع لفعل الفاعل؛ تقول: دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر.

و"الدافق"؛ قيل: إنه فاعل بمعنى مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

وقيل: هو على النسب؛ لا على الفعل، أي: ذي دفق، وذات رضى. ولم يرد الجريان على الفعل.

وقيل:- وهو الصواب- إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق، فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل؛ سواء فعله هو أو غيره؛ كما يقال: ماء جار، ورجل ميت وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به الموت نسب إليه على جهة الفعل.

وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها.

وأما "العيشة الراضية" فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط؛ فتأمله.

وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر، والساعة الراهنة- وإن لم يفعلا ذلك- فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟!

ونبه- سبحانه- بكونه دافقا على أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب.

=

=

قال ابن عباس: "يريد صلب الرجل، وترائب المرأة- وهو موضع القلادة من صدرها -؛ والولد يخلق من المائين جميعا".

وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره.

وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق- سبحانه- نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

ثم ذكر- سبحانه- الأمر المستدل عليه وهو المعاد بقوله {إنه على رجعه لقادر (٨)}؛ أي: على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه.

هذا هو الصحيح في معنى الآية، وفيها قولان ضعيفان:

أحدهما: قول مجاهد: "إنه على رد الماء في الإحليل لقادر".

والثاني: قول عكرمة والضحاك: "إنه على رد الماء في الصلب لقادر".

وفيها قول ثالث؛ قال مقاتل : "إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة".

والقول هو الأول ؛ لوجوه:

أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

الثاني: أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

الثالث: أنه لم يأت في القرآن لهذا المعنى نظير في موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم- سبحانه- الدليل عليه.

الرابع: أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: {يوم تبلى السرائر (٩) } وهو يوم القيامة؛ أي: أن الله قادر على رجعه إليه حيا في ذلك اليوم.

الخامس: أن الضمير في {رجعه} هو الضمير في قوله: {فما له من قوة ولا ناصر (١٠) } وهذا للإنسان- قطعا- لا للماء.

=

=

السادس: أنه لا ذكر للإحليل حتى يتعين كون الرجع إليه، فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه؛ لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه.

السابع: أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة؛ وإن كان مقدورا للرب تعالى، ولكن هو لم يخبر به، ولم تجر به العادة، ولا هو مما تكلم الناس فيه نفيا أو إثباتا. ومثل هذا لا يقرره الرب- تعالى- ولا يستدل عليه على منكريه، وهو- سبحانه- إنما يستدل على أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد، أو سيقع.

فإن قيل: فقد قال تعالى: {أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه (٣) بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤)} [القيامة: ٣، ٤]، أي: نجعلها كخف البعير؟

قيل: هذه- أيضا- فيها قولان: أحدهما: هذا. والثاني:- وهو الأرجح- أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت بعدما فرقها البلى في التراب.

الثامن: أنه- سبحانه- دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه؛ ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبر بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه، ليستنتج منه صحة إمكان رد الماء.

التاسع: أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتى يجعل أحدهما دليلا على إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية؛ فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

=

العاشر: أنه- سبحانه- نبه بقوله: {إن كل نفس لما عليها حافظ (٤)} على أنه قد وكل به من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء. ثم نبه بقوله ﷻ: {إنه على رجعه لقادر (٨)} على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصي عليه.
فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه، ونهايته الجزاء عليه، ونبه على هذا بقوله: {يوم تبلى السرائر (٩)} أي: تختبر السرائر.
وقال مقاتل: "تظهر وتبدو".
وبلوت الشيء: إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه.
و"السرائر": جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له.
قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "يبدي الله يوم القيامة كل سر، فيكون زينا في الوجوه، وشينا فيها". والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.
وفي التعبير عن الأعمال بـ "السر" لطيفة، وهي أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا، فتبدو سريرته على وجهه نورا وإشراقا وحسنا، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته- لا اعتبار بصورته- فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها، وفي الحديث: "أنقوا هذه السرائر؛ فإنه ما أسر امرؤ سريرة إلا ألبسه الله رداء سريرته".
وفيما كتب بعض السلف إلى بعض: "من أصلح سريرته أصلح الله علانيته".

=

وقال بعضهم: "من كانت سريرته خيرا من علانيته فهو الفضل، ومن استوت سريرته وعلانيته فهو العدل، ومن كانت علانيته خيرا من سريرته فهو الجور".

ومن دعاء ابن عمر: "اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة".

ومن دعاء علي بن الحسين: "اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي، وتقبح في خفيات العيون سريرتي".

قال الشاعر:

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم أخبر - سبحانه - عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله؛ لا بقوة منه، ولا بقوة من خارج - وهو "الناصر" -، فإن العبد إذا وقع في شدة: فإما أن يدفعها بقوته، أو بقوة من ينصره، وكلاهما معدوم في حقه، ونظيره قوله سبحانه: {لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون (٤٣)} [الأنبياء: ٤٣].

ثم أقسم - سبحانه - بـ {السماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع (١٢)}، فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات.

قال الفراء: "تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام".

وقال أبو إسحاق: "الرجع: المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر".

وكذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام".

والتحقيق: أن هذا على وجه التمثيل، ورجع السماء: هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال، على مرور الأزمان. ترجعه رجعا، أي: تعطيه مرة بعد مرة.

=

=

والخير كله من قبل السماء يجيء، ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر "الرجع" به، وحسن تفسيره به مقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر "الصدع" بالنبات؛ لأنه يصدع الأرض أي: يشقها.

فأقسم- سبحانه- بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله -تعالى- الدالة على ربوبيته.

وأقسم على كون القرآن حقا وصدقا، فقال تعالى: {إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤)} [الطارق: ١٣، ١٤]، كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

و"القول الفصل": هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ومصيب الفصل الذي يتفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما يقال: أصاب الفصل، وأصاب المحز؛ إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد، ومنه: فصل الخطاب.

وأيضا؛ فالقول الفصل: الفصل ببيان المعنى، ضد الإجمال.

فكون القرآن "فصلا" يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه "حقا" ليس بالباطل، و"جدا" ليس بالهزل.

ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له- وهو الباطل واللعب- قابل بين الفصل والهزل، وإنما يكيد المكذبون ويتحيلون، ويخادعون لرده ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده- سبحانه- استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: {وأملي لهم إن كيدي متين (١٨٣)} [الأعراف: ١٨٣]، فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه؛ فيأخذه، كما يفعل الملوك. فإذا

=

سورة الأعلى(١)

=

فعل أعداء الله ذلك بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة.

ثم قال سبحانه وتعالى: {فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧)}؛ أي: أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم. والرب- تعالى- هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى: انتظر بهم قليلا.

و"رويدا" في كلامهم:

يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو: رويدا زيدا، أي: خله، وأمهله، وارفق به.

الثاني: أن يكون مصدرا مضافا إلى المفعول، نحو: رويد زيد، أي: إمهال زيد، نحو: "ضرب الرقاب".

الثالث: أن يكون نعتا منصوبا، نحو قولك: ساروا رويدا، تقول العرب: ضعه رويدا، أي: وضعا رويدا.

وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع: "فخرج رويدا، وأجاف الباب رويدا".

ويجوز في هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالا.

والثاني: أن يكون نعتا لمصدر محذوف، فإن أظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني.

و"رويدا" في الآية هو من هذا النوع الثالث، والله أعلم.

(١) السّورة مكِّيّة.

* آياتها تسعَ عشرة بالإجماع. وكلماتها ثمان وسبعون. وحروفها مائتان وإِحدى وسبعون. فواصل آياتها على الألَف.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١).

{سَبِّحْ اِسْم رَبّك} أَيْ نَزِّهْ رَبّك عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ وَاسْم زَائِد {الْأَعْلَى} صِفَة لربك.

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢).

{الذي خلق فسوى} مخلوقه وجعله مُتَنَاسِب الْأَجْزَاء غَيْر مُتَفَاوِت.

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣).

{وَالَّذِي قَدَّرَ} مَا شَاءَ {فَهَدَى} إلَى مَا قَدَّرَهُ مِنْ خَيْر وَشَرّ.

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤).

{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} أَنْبَتَ الْعُشْب.

=

* سمّيت سورة الأعلى؛ لمفتتحها.

* مقصود السّورة: بيان عُلُوّ الذات، والصّفات، وذكر الخِلْقة، وتربية الحيوانات، والإشادة بالثمار، والنبات، والأَمنُ مِن نَسْخ الآيات، وبيان سهولة الطاعات، وذل الكفَّار فى قَعْر الدّركات، والتحضيض على الصّلاة والزَّكات، وفى الدّنيا بقاءُ الخيرات، وفى الآخرة بقاءُ الدّرجات، فى قوله: {والآخرة خَيْرٌ وأبقى}.

* ومن المتشابه: قوله: {سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ}، وفى العلق: {اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ} زاد فى هذه السّورة: {الأعلى}؛ مراعاة للفواصل وفى هذه السّورة: {خَلَقَ فَسَوَّى}، وفى العلق {خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ} بصائر ذوي التمييز (١/ ٥١٤).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥).

{فَجَعَلَهُ} بَعْد الْخُضْرَة {غُثَاء} جَافًّا هَشِيمًا {أَحَوَى} أَسْوَد يَابِسًا

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦).

{سَنُقْرِئُك} الْقُرْآن {فَلَا تَنْسَى} مَا تَقْرَؤُهُ.

إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧).

{إِلَّا مَا شَاءَ الله} أَنْ تَنْسَاهُ بِنَسْخِ تِلَاوَته وَحُكْمه وَكَانَ ﷺ يَجْهَر بِالْقِرَاءَةِ مَعَ قِرَاءَة جِبْرِيل خَوْف النِّسْيَان فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ لَا تَعْجَل بِهَا إِنَّك لَا تَنْسَى فَلَا تُتْعِب نَفْسك بِالْجَهْرِ بِهَا {إِنَّهُ} تَعَالَى {يَعْلَم الْجَهْر} مِنْ الْقَوْل وَالْفِعْل {وَمَا يَخْفَى} مِنْهُمَا.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) .

{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} لِلشَّرِيعَةِ السَّهْلَة وَهِيَ الْإِسْلَام.

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩).

{فَذَكِّرْ} عِظْ بِالْقُرْآنِ {إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى} مِنْ تَذْكِرَة الْمَذْكُور فِي سَيَذَّكَّرُ يَعْنِي وَإِنْ لَمْ تَنْفَع وَنَفْعهَا لِبَعْضٍ وَعَدَم النَّفْع لِبَعْضٍ آخَر.

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠).

{سَيَذَّكَّرُ} بِهَا {مَنْ يَخْشَى} يَخَاف الله تَعَالَى كآية فذكر بالقرآن من يخاف وعيد.

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١).

{وَيَتَجَنَّبهَا} أَيْ الذِّكْرَى أَيْ يَتْرُكهَا جَانِبًا لَا يَلْتَفِت إِلَيْهَا {الْأَشْقَى} بِمَعْنَى الشَّقِيّ أَيْ الْكَافِر.

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢).

{الَّذِي يَصْلَى النَّار الْكُبْرَى} هِيَ نَار الْآخِرَة وَالصُّغْرَى نَار الدُّنْيَا.

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣).

{ثم لا يموت فيها} فيستريح {ولا يحيى} حياة هنيئة.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤).

{قَدْ أَفْلَحَ} فَازَ {مَنْ تَزَكَّى} تَطَهَّرَ بِالْإِيمَانِ.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥).

{وذكر اسم ربه} مكبرا {فصلى} الصلوا ت الْخَمْس وَذَلِكَ مِنْ أُمُور الْآخِرَة وَكَفَّار مَكَّة معرضون عنها.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦).

{بَلْ تُؤْثِرُونَ} بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّة {الْحَيَاة الدُّنْيَا} عَلَى الْآخِرَة.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧).

{وَالْآخِرَة} الْمُشْتَمِلَة عَلَى الْجَنَّة {خَيْر وَأَبْقَى}.

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨).

{إِنَّ هذا} إفلاح من تزكى وكون الآخرة خيرا {لَفِي الصُّحُف الْأُولَى} أَيْ الْمُنَزَّلَة قَبْل الْقُرْآن.

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩).

{صُحُف إِبْرَاهِيم وَمُوسَى} وَهِيَ عَشْر صُحُف لِإِبْرَاهِيم والتوراة لموسى[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار وسعد وبلال، ثم قدم عثمان =

=

في عشرين، ثم قدم رسول الله ﷺ، فما رأينا أهل المدينة فرحوا بشيء؛ فرحهم برسول الله ﷺ، فما قدم حتى نزلت: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)} وسورة من المفصل.

أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢٤، ٣٩٢٥، ٤٩٤١، ٤٩٩٥)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٥١٦، ٥١٧ رقم ٦٨٦)، وهذا لفظ النسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قلنا: يا رسول الله! كيف نقول في سجودنا؛ فأنزل الله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)}؛ فأمرنا أن نقول في سجودنا: "سبحان ربي الأعلى".

أخرجه الواحدي في "الوسيط" (٤/ ٤٦٩) من طريق إبراهيم بن الهيثم الزهري نا آدم نا محمد بن الفضل عن زيد العمي عن مرة الهمداني عنه به. و محمد بن الفضل كذاب، وزيد العمي ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي؛ لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي، حتى يتكلم النبي ﷺ بأوله؛ مخافة أن يغشى قلبه فينسى، فقال له جبريل: "لِمَ تفعل ذلك؟ قال: مخافة أن أنسى"؛ فأنزل الله ﷻ: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٩٤ رقم ١٢٦٤٩) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر؛ ضعيف جداً.

الثانية: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٦): "رواه الطبراني؛ وفيه جويبر وهو ضعيف".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٨): "في إسناده جويبر؛ ضعيف جداً".

=

=

* قوله تعالى: (سبح اسم ربك الأعلى) الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: سبحان ربي الأعلى.

- والرب: هو السيد المدبر المتصرف.

قوله تعالى (الأعلى) أي: الأعلى من كل شيء بجميع أنواع العلو.

والأعلى: اسم من أسماء الله يشتمل على إثبات صفة العلو لله تعالى ومعناه الأعلى من كل شيء، فهو أفعل تفضيل دال على علوه تعالى بكل معاني العلو فهو الأعلى قدراً ومنزلة، وهو الأعلى بالقهر والغلبة، وهو الأعلى بذاته فوق كل شيء وفي ذكر اسمه الأعلى في هذا الموقع بيان لموجب استحقاقه للتسبيح وهو التنزيه عن النقائض.

ومعنى تسبيح الله: تنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين.

- قال ابن كثير: يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن تنزيه الرب سبحانه وتعالى عن صفات النقص، وعما يقوله الظالمون، ومما لا يليق به سبحانه وتعالى ومن النقائص والقبائح.

- **قال ابن عاشور**: الافتتاح بأمر النبي ﷺ بأن يسبح اسم ربه بالقول، يؤذن بأنه سيلقي إليه عقبه بشارة وخيرا له وذلك قوله: (سنقرئك فلا تنسى) الآيات كما سيأتي ففيه براعة استهلال.

والخطاب للنبي ﷺ.

- وصح من مجموع الطرق أن النبي عليه السلام لما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال: اجعلوها في سجودكم، ولما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال: (اجعلوها في ركوعكم) رواه أبو داود.

فيه إثبات علو الله تعالى، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

علو ذات، وعلو قدر.

=

=

علو ذات: (أن الله فوق سمواته مستو على عرشه بائن من خلقه).

وعلو القدر: أي قدره وشأنه عال.

علو والقدر متفق عليه بين أهل السنة وأهل البدعة (فكلهم يؤمنون بأن الله تعالى عال علوا معنويا).

وأما العلو الذاتي، فيثبته أهل السنة والجماعة، ولا يثبته أهل البدع، والحق مذهب أهل السنة وأن الله عال بذاته والأدلة كثيرة جدا على علوه سبحانه وتعالى.

فمن القرآن الكريم: تنوعت دلالة القرآن على علو الله سبحانه وتعالى:

التصريح بالفوقية: كقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم).

التصريح بالعروج إليه: كقوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه) وقوله ﷺ (فيعرج الذين باتوا فيكم)

التصريح بالصعود إليه: كقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب).

التصريح بالعلو المطلق: كقوله تعالى (وهو العلي العظيم) وقوله سبحانه (وهو العلي الكبير).

التصريح بتنزيل الكتاب إليه: كقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم).

التصريح بأنه سبحانه في السماء: كقوله تعالى (أأمنتم من في السماء)، ومعنى [في] إما أن يكون معناها [على] أو أن يكون المراد بالسماء العلو.

التصريح بنزوله سبحانه كل ليلة: قال ﷺ (ينزل الله كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر).

والأحاديث كثيرة في ذلك:

=

=

كقوله ﷺ (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء). وكان ﷺ يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى.

وأقر الجارية حينما سألها: أين الله؟ قالت: في السماء. رواه مسلم.

والعقل دل على ذلك: فإن العلو صفة كمال والسفل صفة نقص، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة: فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورية فطرية، فما من داع أو خائف فزع إلى ربه إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو.

(الذي خلق) أي خلق الخليقة وأوجدها من العدم، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات.

(فسوى) هذا يشمل أمور:

أولا: سوى كل مخلوق في أحسن الهيئات وأتمها.

كما قال تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك).

وقال تعالى (ثم كان علقة فخلق فسوى).

وقال تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحه).

ثانيا: سوى بين خلقه في الإحكام والإتقان.

(والذي قدر) أي: قدر مقادير كل شيء كما قال تعالى (وخلق كل شيء فقدره تقديرا).

القدر: ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها.

=

=

قال ﷺ (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

- والإيمان بالقدر لا يتم إلا بأربعة أمور:

أولا: الإيمان بعلم الله الشامل.

معناه: الإيمان بأن الله تعالى قد علم بعلمه الأزلي الأبدي ما كان وما يكون من صغير، وكبير، وظاهر، وباطن مما يكون من أفعاله أو أفعال مخلوقاته.

دليل هذه المرتبة:

قال تعالى: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة).

وقال تعالى: (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما).

ثانيا: أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء.

ومعناه: الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون.

ودليل هذه المرتبة:

قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها).

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء). رواه مسلم.

وهناك آية فيها دليل لكلا المرتبتين:

قال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير).

=

=

ثالثا: كل شيء بمشيئة الله.

ومعناه: الإيمان بمشيئة الله وأنها عامة في كل شيء، فما وجد موجود، ولا عدم معدوم من صغير، وكبير، وظاهر، وباطن، في السموات والأرض إلا بمشيئة الله سواء كان ذلك من فعله تعالى أم من فعل مخلوقاته

ودليل هذه المرتبة:

قوله تعالى (ويفعل الله ما يشاء).

رابعا: أن الله خالق كل شيء.

ومعناه: الإيمان بخلق الله تعالى، وأنه خالق كل شيء من صغير، وكبير، وظاهر، وباطن، وأن خلقه شامل لأعيان هذه المخلوقات وصفاتها وما يصدر عنها من أقوال وأفعال وآثار.

دليل هذه المرتبة:

قال تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا).

وقال تعالى (والله خلقكم وما تعملون).

- ولذلك من أعظم النعم الرضاء بالقضاء والقدر، فإن الرضا بالقضاء والقدر يوجب القناعة بما آتاه الله كما قال ﷺ (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه) رواه مسلم

قال عمر: ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم، الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكريم.

وقد قيل: القناعة كنز لا يفنى.

- فمن فوائد الإيمان بالقدر:

أولا: تكميل الإيمان بالله

=

=

فإن القدر قدر الله- ﷻ- فالإيمان به من تمام الإيمان بالله ـ ﷻ ـ.

ثانيا: استكمال لأركان الإيمان

لأن النبي ﷺ ذكره ضمن الإيمان في حديث جبريل.

ثالثا: أن الإنسان يبقى مطمئنا

لأنه إذا علم أن هذا من الله رضي واطمأن وعرف أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقد قلنا: إنه لا يمكن أن يغير الشيء عما وقع أبدا، فلا تحاول، ولا تفكر، ولا تقل: (لو)، فالذي وقع لا يمكن أن يتغير أو يتحول.

رابعا: أن هذا من تمام الإيمان بربوبية الله.

وهذا يشبه الفائدة الأولى، لأن الإنسان إذا رضي بالله ربا استسلم لقضائه وقدره واطمأن إليه.

خامسا: إن الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله- ﷻ- فيما يقدره من خير أو شر، ويعرف به أن وراء تفكيره وتخيلاته من هو أعظم وأعلم، ولهذا كثيرا ما نفعل الشيء أو كثيرا ما يقع الشيء فنكرهه وهو خير لنا. فأحيانا يشاهد الإنسان رأي العين أن الله يعسر عليه أمرا يريده، فإذا حصل ما حصل وجد أن الخير في عدم حدوث ذلك الشيء. وما أكثر ما نسمع أن فلانا قد حجز في الطائرة الفلانية على أنه سيسافر، ثم يأتي فيجد أن الطائرة قد أقلعت، وفاته السفر، فإذا بالطائرة يحصل عليها حادث. فهو عندما حضر أولا ليركب فيها ووجد أنها أقلعت يحزن، لكن عندما يقع الحادث يعرف أن هذا خير له، ولهذا قال الله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

(فهدى) أي: فهدى كل مخلوق وأرشده لما خلق له وقدر له.

=

=

وهذه هي الهداية العامة، كما قال تعالى (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

وقال تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

فسبحان من هدى النمل لا يحفر جحره إلا في مرتفع من الأرض خشية السيول، ويدخر في الصيف قوته للشتاء.

سبحان من هدى البعير، يضل صاحبه في وسط الصحراء، فيهديه إلى الطريق، وإلى مواضع الماء.

سبحان من هدى النحل يصنع العسل المصفى.

- قال الألوسي: (فهدى) فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعا أو اختيارا ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان على الخصوص ففوق ذلك بمراحل وأبعد منه ثم أبعد وأبعد بألوف من المنازل وهيهات أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ولا يكاد يعلمها إلا اللطيف الخبير.

- **قال ابن عاشور**: والمعنى قدر الأشياء كلها فهداها إلى أداء وظائفها كما قدرها لها، فالله لما قدر للإنسان أن يكون قابلا للنطق والعلم والصناعة بما وهبه من العقل وآلات الجسد هداه لاستعمال فكره لما يحصل له ما خلق له، ولما قدر البقرة للدر ألهمها الرعي ورثمان ولدها لتدر بذلك للحالب، ولما قدر النحل لإنتاج العسل ألهمها أن ترعى النور والثمار وألهمها بناء الجبح وخلاياه المسدسة التي تضع فيها العسل.

(والذي أخرج المرعى) أي: من جميع صنوف النباتات والزروع.

والمرعى: النبات الذي ترعاه السوائم.

=

=

(فجعله) بعد أن كان خضرا رطبا.

(غثاء) أي هشيما يابسا متكسرا بعد أن كان غضا طريا.

والغثاء: هو اليابس من النبت.

(أحوى) أي: أسود بعد أن كان أخضر كما قال تعالى (فأصبحت كالصريم) أي: كالليل الأسود البهيم.

(سنقرؤك فلا تنسى) الخطاب للنبي ﷺ، أي: سنقرئك يا محمد القرآن فلا تنساه، وهذا وعد منه تعالى وتطمين للنبي ﷺ كما قال تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه).

قال في التسهيل: هذا خطاب للنبي ﷺ وعده الله أن يقرئه القرآن فلا ينساه، وفي ذلك معجزة له عليه السلام ؛ لأنه كان أميا لا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام من القرآن، وقيل: معنى الآية كقوله (لا تحرك به لسانك) الآية: فإنه عليه السلام كان يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل، خوفا أن ينساه فضمن الله له أن لا ينساه.

(إلا ما شاء الله) (إلا) أداة استثناء، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيك إياه مما ينسخ، قال تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها).

والمقصود بهذا أن بعض القرآن ينساه النبي إذا شاء الله أن ينساه.

ثبت أن النبي ﷺ نسي بعض الآيات التي رفعت من الصدور تماما، وليس من صدر النبي ﷺ فقط بل من عموم أمة محمد، كما ورد في صحيح مسلم بسند حسن عن حذيفة قال (إن سورة الأحزاب كانت في طولها مثل البقرة!) فنسخت من الصدور، وبقي منها هذا القدر، وأيضا قد ينسى النسيان المعتاد، كما قال عليه السلام (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون)، وقال: (يرحم الله فلانا! لقد أذكرني آية كيت وكيت من سورة كيت وكيت، كنت أنسيتها).

- قال ابن عاشور (إلا ما شاء الله) وذلك نوعان:

=

أحدهما: وهو أظهرهما أن الله إذا شاء نسخ تلاوة بعض ما أنزل على النبي ﷺ أمره بأن يترك قراءته فأمر النبي ﷺ المسلمين بأن لا يقرأوه حتى ينساه النبي ﷺ والمسلمون.

وهذا مثل ما روي عن عمر أنه قال (كان فيما أنزل الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما) قال عمر: لقد قرأناها، وأنه كان فيما أنزل: لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى (أو ننسها) في قراءة من قرأ: (ننسها) في سورة البقرة.

النوع الثاني: ما يعرض نسيانه للنبي ﷺ نسيانا موقتا كشأن عوارض الحافظة البشرية ثم يقيض الله له ما يذكره به.

ففي "صحيح البخاري عن عائشة قالت: (سمع النبي ﷺ رجلا يقرأ من الليل بالمسجد فقال: ي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن أو كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا، وفيه أن رسول الله ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة فسأله أبي بن كعب أنسخت؟ فقال: "نسيتها".

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) الآية. هذه الآية الكريمة تدل على أن النبي ﷺ ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه- وقد جاءت آيات كثيرة تدل على حفظ القرآن من الضياع كقوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

والجواب: أن القرآن وإن كان محفوظا من الضياع فإن بعضه ينسخ بعضا وإنساء الله نبيه بعض القرآن في حكم النسخ فإذا أنساه آية فكأنه نسخها ولا بد أن يأتي بخير منها أو مثلها.

كما صرح به تعالى في قوله (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها).

وقوله تعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل).

=

وأشار هنا لعلمه بحكمة النسخ بقوله (إنه يعلم الجهر وما يخفى).

وهذا الذي ذكره الشنقيطي وأن معنى (إلا ما شاء الله) المراد به نسيان منسوخ التلاوة والحكم دون غيره، ذهب إليه الحسن وقتادة ومقاتل ورجحه الطبري، وقال به السمرقندي، والسمعاني، والزمخشري، وأبي السعود.

- قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن ننسيكه بنسخه ورفعه.

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء في الآية حقيقي، وأن النسيان الذي أفاده الاستثناء هو الذي يعقبه التذكر، لا النسيان التام الذي هو محو الشيء من الذهن بالكلية.

ويكون معنى الآية: سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه، ثم يذكرك به بعد، إما بنفسك وإما بغيرك، وعلى هذا القول يدخل في متعلق النسيان بعض القرآن المحكم.

وبهذا قال: الزجاج، والقاسمي، وذكره الرازي، والبيضاوي، والقرطبي، والشوكاني وغيرهم.

واستدل هؤلاء:

بما رواه الشيخان عن عائشة قالت (سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ في سورة بالليل فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا).

وبما رواه الشيخان- أيضا- عن عبد الله أن النبي ﷺ قال (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون).

(إنه يعلم الجهر وما يخفى) أي: هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخوفونه من الأقوال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

كما قال تعالى (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون).

=

=

وكقوله تعالى (يعلم ما تسرون وما تعلنون).

(ونيسرك لليسرى) أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر.

ففي قوله تعالى (ونيسرك لليسرى) قولان: قيل: نسهل عليك أفعال الخير.

وقيل: نوفقك للشريعة وهي الحنيفية السهلة السمحة.

- قال الشوكاني: (ونيسرك لليسرى) معطوف على سنقرئك، وما بينهما اعتراض.

قال مقاتل: أي نهون عليك عمل الجنة.

وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل.

وقيل: للشريعة اليسرى، وهي الحنيفية السهلة.

وقيل: نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به، والأولى حمل الآية على العموم، أي: نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك.

- **قال ابن عاشور**: والتيسير: جعل العمل يسيرا على عامله.

- ومن أسباب التيسير لليسرى دعاء الله ﷻ، ومن ذلك، **دعوة موسى** عليه السلام (رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري).

(فذكر إن نفعت الذكرى) قال ابن كثير: أي ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم.

- هناك كلام كثير للمفسرين حول معنى هذه الآية، واعتقد أن ما ذكره ابن كثير في معناه هو المناسب والظاهر للآية.

=

=

- قال السعدي: ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير لم تكن مأمورا بها، بل هو منهي عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

أقوال أخرى في الآية:

قيل: في الكلام حذفا أي إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله (سرابيل تقيكم الحر) أي والبرد وهو قول الفراء والنحاس والجرجاني وغيرهم... ورجحه الشوكاني.

وقيل: أنها بمعنى (إذ) وإتيان (إن) بمعنى (إذ) مذهب الكوفيين خلافا للبصريين.

وقيل: أن معنى (إن نفعت الذكرى) الإرشاد إلى التذكير بالأهم أي ذكر بالمهم الذي فيه النفع دون ما لا نفع فيه.

وقيل: بقاء الآية الكريمة على ظاهرها وأنه ﷺ بعد أن يكرر الذكرى تكراير تقوم به حجة الله على خلقه مأمور بالتذكير عند ظن الفائدة أما إذا علم عدم الفائدة فلا يؤمر بشيء هو عالم أنه لا فائدة فيه لأن العاقل لا يسعى إلى ما لا فائدة فيه، ورجحه الشنقيطي.

- قال ابن مسعود: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا) متفق عليه.

- وهذا مسلك الأنبياء عموما ومنهم: نبينا محمد ﷺ .

قال العرباض بن سارية (خرج علينا رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون).

وكان موسى عليه الصلاة والسلام يعظ بني إسرائيل، فوعظهم مرة موعظة حتى بكوا منها واخضلت لحاهم بدموعهم، ورب العزة قال (وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا) فالموعظة مسنونة، لكن ينبغي ألا يكثر في الوعظ.

=

=

- الذكرى تشتمل على ثلاث حكم:

الأولى: خروج فاعلها من عهدة الأمر بها.

الثانية: رجاء النفع لمن يوعظ بها.

وبين الله تعالى هاتين الحكمتين بقوله تعالى (قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون).

وبين الأولى منها بقوله تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم).

وقوله تعالى (إن عليك إلا البلاغ).

الثالثة: إقامة الحجة على الخلق.

وبينها الله تعالى بقوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).

وبقوله (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا).

(سيذكر) أي: سيتعظ وينتفع بالذكرى.

(من يخشى) أي: الذي يخاف الله وقيامه بين يديه، كما قال تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها).

(ويتجنبها الأشقى) أي: ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة.

- قال فريق من أهل العلم: المراد بالأشقى: الكافر الذي سبق في علم الله أنه سيموت على الكفر، والتقييد بما سبق في علم الله؛ لأن هناك كفارا انتفعوا بالذكرى، فالصحابة كانوا كفارا، ولما ذكرهم الرسول عليه الصلاة والسلام تذكروا.

(الذي يصلى النار الكبرى) أي: الذي يدخل نار جهنم المستعرة العظيمة الفضيعة.

=

=

- قال الحسن: (النار الكبرى نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا).

- سميت كبرى: لأنها ضوعفت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءا كما قال ﷺ (ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم).

- قال في التسهيل (النار الكبرى) هي نار جهنم وسماها كبرى بالنظر إلى نار الدنيا، وقيل: سماها كبرى بالنظر إلى غيرها من نار جهنم، فإنها تتفاضل، وبعضها أكبر من بعض وكلا القولين صحيح. إلا أن الأول أظهر. ويؤيده قول رسول الله ﷺ (ناركم هذه التي توقدون جزءا من سبعين جزءا من نار جهنم

(ثم لا يموت فيها) فيستريح من العذاب.

(ولا يحيى) حياة تنفعه.

كما قال تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها).

وقال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون).

وقال تعالى (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى).

وقال ﷺ (يؤتى بالموت في صورة كبش، فيوقف على قنطرة بين الجنة والنار، وينادى: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون، فيقولون: نعم هذا الموت، وينادى: يا أهل النار! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، فيذبح الموت على قنطرة بين الجنة والنار، ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) متفق عليه.

وقال ﷺ (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون) رواه مسلم.

(قد أفلح من تزكى) أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على الرسول ﷺ.

والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

=

=

ومن أسباب التزكية: غض البصر وحفظ الفرج.

قال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم).

ومنها: الرجوع إذا قيل لكم ارجعوا.

قال تعالى (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم).

وسيأتي الكلام ان شاء الله عن تزكية النفس في سورة الليل.

(وذكر اسم ربه) بأنواع الذكر من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير وقراءة قرآن وغيرها.

فصلى) أي: فصلى الصلوات الخمس في أوقاتها وغيرها من الصلوات.

(بل تؤثرون الحياة الدنيا) أي: تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم.

- **قال ابن الجوزي**: إن أريد بذلك الكفار، فالمعنى: أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بها.

وإن أريد به المسلمون، فالمعنى: يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الاستحسان من الثواب.

- قوله تعالى (الحياة الدنيا) هي هذه الحياة التي نعيشها التي قبل الآخرة، وسميت لدنيا لسببين:

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قال تعالى (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) وقال تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء) رواه

=

=

الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

(والآخرة خير وأبقى) أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبا ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد.

قال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى).

وقال تعالى (والآخرة خير لمن اتقى).

وقال تعالى (ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين).

وقال سبحانه (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا).

- قال الشيخ السعدي: فالمؤمن العاقل لا يختار الأردى على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد، فحب الدنيا رأس كل خطيئة.

يقول تعالى مبينا حقارة الدنيا (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

=

=

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه...) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور، قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه).

- من أقوال السلف:

وقال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا.

=

=

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤملون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمنت، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بورا، وأملهم غرورا، وبيوتهم قبورا، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا.

وقال ابن القيم: لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة.

وقال: الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة- أي كثيرة السباع- السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح.

(إن هذا) المشار إليه ما تقدم من قوله (قد أفلح من تزكى...) إلخ الآيات الأربع.

أي:: إن معنى هذا الكلام مذكور في الصحف الأولى المتقدمة التي أنزلها الله على إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وهما أفضل أولي العزم بعد محمد ﷺ.

وهذا اختيار ابن جرير، وابن كثير.

- **قال ابن عطية**:... وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: الإشارة إلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإشارة إلى هذين الخبرين " إفلاح من تزكى " وإيثار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها، وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بهذا، وقيل: إن الإشارة ترجع إلى كل ما ذكر في هذه السورة.

=

سورة الغاشية[1]

=

- وقال الخازن: (إن هذا) أي: الذي ذكر من قوله قد أفلح من تزكى إلى هنا، وهو أربع آيات (لفي الصحف الأولى) أي الكتب المتقدمة التي نزلت قبل القرآن، ذكر في تلك الصحف فلاح من تزكى والمصلي وإيثار الدنيا وإن الآخرة خير وأبقى.

(لفي الصحف الأولى) أي: إن هذا الذي ذكرناه من فلاح من تزكى، ومن إيثاركم الحياة الدنيا على الآخرة، لكائن وثابت ومذكور في الصحف الأولى، التي هي صحف إبراهيم وموسى، التي أنزلها- سبحانه- على هذين النبيين الكريمين، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ.... (الوسيط)

والمراد بالأولية في وصف الصحف سبق الزمان بالنسبة إلى القرآن لا التي لم يسبقها غيرها لأنه قد روي أن بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليه صحف فهو كوصف (عاد بالأولى) في قوله: (وأنه أهلك عادا الأولى).

- **قال ابن عطية**: أي لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي الأخيرات، ونظير هذا قول النبي ﷺ: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.

(صحف إبراهيم وموسى) صحف إبراهيم: هي ما أنزله الله على نبيه وخليله، وصحف موسى: هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران.

وإبراهيم وموسى: هما أشرف المرسلين بعد محمد ﷺ، فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

(١) السّورة مكِّيّة. وآياتها ستّ وعشرون. وكلماتها اثنتان وتسعون. وحروفها ثلاثمائة وأَحد وثمانون. فواصل آياتها (عمرته). سمّيت سورة الغاشية؛ لذكرها.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١).

{هَلْ} قَدْ {أَتَاك حَدِيث الْغَاشِيَة} الْقِيَامَة لِأَنَّهَا تَغْشَى الْخَلَائِق بِأَهْوَالِهَا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢).

{وُجُوه يَوْمئِذٍ} عَبَّرَ بِهَا عَنْ الذَّوَات فِي الْمَوْضِعَيْنِ {خَاشِعَة} ذَلِيلَة.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣).

{عَامِلَة نَاصِبَة} ذَات نَصَب وَتَعَب بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَال

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤).

=

معظم مقصود السّورة: التخويف بظهور القيامة، وبيانُ حال المستوجبين للعقوبة، وذكر حال المستحِقِّين للمَثُوبة (وإقامة الحُجة على وجود الحقِّ) ووعظ الرّسول ﷺ للأُمّة، على سبيل الشَّفَقَة، وأَن المرجع إِلى الله تعالى فى العاقبة فى قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}.

المتشابه: قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} وبعده: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل هم الكفَّار، والثَّانى المؤمنون. وكان القياس أَن يكون الثانى بالواو للعطف؛ لكنَّه جاءَ على وفاق الجُمل قبلها، وبعدها، وليس معهنَّ واو العطف البتَّة.

قوله: {وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ} كلّها قد سبق.

{وَإِلَى السمآء} و {وإلى الجبال} ليس من الجُمل، بل هى إِتباع لما قبلها.

المنسوخ: فيها آية واحدة م {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} ن آية السّيف. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٥١٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{تَصْلَى} بِفَتْحِ التَّاء وَضَمّهَا {نَارًا حَامِيَة}.

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥).

{تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَّة} شَدِيدَة الْحَرَارَة.

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦).

{لَيْسَ لَهُمْ طَعَام إِلَّا مِنْ ضَرِيع} هُوَ نَوْع مِنْ الشَّوْك لَا تَرْعَاهُ دَابَّة لِخُبْثِهِ.

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧).

{لا يسمن ولا يغني من جوع}[١].

---

(١) قوله تعالى: (هل أتاك حديث الغاشية) الاستفهام للتشويق إلى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم من شأنها، أي هل جاءك يا محمد خبر الغاشية العظيمة: وهي القيامة؟

- قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها، وتغمهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة.

- قال في التسهيل (الغاشية) هي القيامة لأنها تغشى جميع الخلق، وقيل: هي النار من قوله (وتغشى وجوههم النار) وهذا ضعيف لأنه ذكر بعد ذلك قسمين: أهل الشقاوة وأهل السعادة.

- قال الرازي: إنما سميت القيامة بهذا الاسم، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، والقيامة كذلك من وجوه:

الأول: أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله).

والثاني: أنها تغشى الناس جميعا من الأولين والآخرين.

والثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد

=

=

(وجوه يومئذ خاشعة) أي: وجوه في ذلك اليوم ذليلة خاضعة مهينة من الخزي والفضيحة وهي وجوه الكفار والمكذبين.

كما قال تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي).

وقال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم).

- المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفار، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة، وذلك من صفات المكلف، لكن الخشوع يظهر في الوجه فعلقه بالوجه لذلك.

- والمراد بالوجوه: أصحابها، من باب التعبير عن الكل بالبعض، وخصت الوجوه بالذكر، لأنها أشرف أعضاء الإنسان، ولأنها هي التي تظهر عليها الآثار المختلفة من حزن أو فرح. أي: وجوه في يوم قيام الساعة، تكون خاشعة ذليلة، تبدو عليها آثار الهوان والانتكاس والخزي، كما قال تعالى: وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل.... (الوسيط).

(عاملة ناصبة) قيل: إن هذا يوم القيامة، أي: أنها في ذلك اليوم تعمل من الأعمال ما فيه نصب وتعب من جر السلاسل والأغلال الثقيلة والخوض في العذاب في نار جهنم.

فقوله (عاملة) اسم فاعل من العمل، والمراد به هنا: العمل الشاق المهين.

وقوله (ناصبة) من النصب، بمعنى: التعب والإعياء يقال: نصب فلان بكسر الصاد- كفرح- ينصب نصبا، إذا تعب في عمله تعبا شديدا.

وفي هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار، لأنهم لما تركوا في الدنيا الخشوع لله تعالى والعمل لصالح، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة.. كان جزاؤهم يوم القيامة، الإذلال، والعمل الشاق المهين الذي لا تعقبه راحة.... (الوسيط).

=

=

فمن هذا العمل: الصعود في النار كما قال تعالى (سأرهقه صعودا).

ومنه: التلاعن الدائم بين أهل النار، فهم دائما في سباب وتلاعن، كما قال تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها).

ومنه الصياح والعويل والدعاء على أنفسهم بالهلاك، كما قال الله سبحانه وتعالى (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا).

وهذا القول (أن المراد يوم القيامة) عاملة في النار ناصبة فيها اختاره ابن جرير، وابن تيمية، وابن عاشور.

عن ابن عباس (عاملة ناصبة) تعمل وتنصب في النار.

وعن الحسن أنه قال: لم تعمل في الدنيا فأعملها في النار.

وعن قتادة: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها وأنصبها في النار.

- قال السعدي: (عاملة ناصبة) أي: تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار، وهذا هو الصواب المقطوع به؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموما، وذلك الاحتمال -أي المراد بها عاملة في الدنيا- جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقيل: إن هذا العمل وهذا النصب يكون في الدنيا، فأصحاب هذه الوجوه الخاشعة عملوا أعمالا وأنفقوا أموالا طائلة، وعملوا أعمالا كبيرة في دنياهم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه الأعمال، لأنها لم تكن خالصة لله.

كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا).

وكما قال تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون).

=

=

وكما قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء).

(تصلى نارا حامية) أي: قد انتهى حرها وغليانها.

(تسقى من عين آنية) أي: تسقى من عين بالغة الغاية في الحرارة.

كما قال تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن).

وقال تعالى (فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم).

وقال تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا).

وقال تعالى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم).

(ليس لهم طعام) أي: ليس لهم في النار طعام يأكلونه.

(إلا من ضريع) إلا طعاما من ضريع، وهو شجر في النار، خبيث شديد المرارة، منتن الرائحة، كثير الشوك، ينشب في الحلق كما قال تعالى (وطعاما ذا غصة وعذابا أليما).

- قال في التسهيل: في الضريع أربعة أقوال: أحدهما أنه شوك يقال له الشبوق وهو سم قاتل وهذا أرجح الأقوال؛ لأن أرباب اللغة ذكروه ولأن النبي ﷺ قال: الضريع شوك في النار.

(لا يسمن ولا يغني من جوع) أي: لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

- قال السعدي: وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة.

- فمسكنهم النار، وشرابهم الحميم، وطعامهم الضريع والزقوم.

=

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨).

{وُجُوه يَوْمئِذٍ نَاعِمَة} حَسَنَة.

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩).

=

- فإن قال قائل: كيف قيل هنا (ليس لهم طعام إلا من ضريع) وفي الآية الأخرى (ولا طعام إلا من غسلين) وهو: صديد أهل النار، أو غسالة أهل النار، فكيف يوفق بين هذه الآيات؟

- قال بعض العلماء: إن هذا محمول على التنوع، فمن الكفار من ليس لهم طعام إلا من ضريع، وكفار آخرون ليس لهم طعام إلا من غسلين.

فأهل النار يتفاوتون في العذاب كما قال سبحانه وتعالى (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب).

وكما قال جل ذكره (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار).

وكما قال جل ذكره (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون).

وكما قال النبي ﷺ لما سأله العباس وقال: يا رسول الله! أبو طالب كان يحوطك ويرعاك ويمنعك فهل نفعته بشيء، قال: (نعم هو في ضحضاح من نار يغلي منهما دماغه، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)، فدلت هذه النصوص على أن أهل النار يتفاوتون في العذاب.

- وقال بعض العلماء: إن الأطعمة تتنوع، ففي وقت معين طعامهم الضريع وفي وقت آخر الغسلين.

- ولهذا قال في التسهيل: فإن قيل: كيف قال هنا (ليس لهم طعام إلا من ضريع) وقال في الحاقة (ولا طعام إلا من غسلين)؟ فالجواب: أن الضريع لقوم والغسلين لقوم، أو يكون أحدهما في حال والآخر في حال.

{لِسَعْيِهَا} فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ {رَاضِيَة} فِي الْآخِرَة لَمَّا رَأَتْ ثَوَابه.
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠).
{في جنة عالية} حسا ومعنى.
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١).
{لا يسمع} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {فِيهَا لَاغِيَة} أَيْ نَفْس ذَات لَغْو هَذَيَان مِنْ الْكَلَام.
فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢).
{فِيهَا عَيْن جَارِيَة} بِالْمَاءِ بِمَعْنَى عُيُون.
فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣).
{فِيهَا سُرَر مَرْفُوعَة} ذَاتًا وَقَدْرًا وَمَحِلًّا.
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤).
{وَأَكْوَاب} أَقْدَاح لَا عُرَا لَهَا {مَوْضُوعَة} عَلَى حَافَّات الْعُيُون مُعَدَّة لِشُرْبِهِمْ.
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥).
{وَنَمَارِق} وَسَائِد {مَصْفُوفَة} بَعْضهَا بِجَنْبِ بَعْض يُسْتَنَد إليها.
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦).
{وَزَرَابِيّ} بُسُط طَنَافِس لَهَا خَمْل {مَبْثُوثَة} مَبْسُوطَة[1].

---

(١) قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناعمة) لما ذكر الله تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء لأن القرآن مثاني، تثنى فيه الأحكام والقصص، وليعيش المسلم بين الترغيب والترهيب فقال: (وجوه يومئذ) أي: يوم القيامة.
(ناعمة) أي يعرف النعيم فيها، وإنما حصل لها ذلك بسعيها.
- قال السعدي: أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.
=

=

(لسعيها راضية) أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد وجدت من الثواب عليه في الآخرة، أكثر مما كانت تتوقع وترجو.

فالمراد بالسعي: العمل الذي كان يعمله الإنسان في الدنيا، ويسعى به من أجل الحصول على رضا خالقه.

القول الثاني: أنها لثواب سعيها وللمقابل الذي أخذته لسعيها راضية عن هذا المقابل وشاكرة لهذا المقابل، كما قال النبي ﷺ (يقول الله يوم القيامة لأهل الجنة: يا أهل الجنة! هل تريدون شيئا أزيدكم؟! فيقولون: يا ربنا! وهل فوق ما أعطيتنا؟ ألم تبيض وجوهنا، ألم تجرنا من النار، فيقول الله سبحانه: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا) الحديث.

(في جنة) الجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

(عالية) أي: رفيعة المنزلة فوق السماوات في أعلى عليين وسقفها عرش الرحمن، وهي عالية أي: عظيمة القدر.

- قال القرطبي (في جنة عالية) أي مرتفعة، لأنها فوق السموات حسب ما تقدم.

وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

(لا تسمع فيها لاغية) أي: لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو أو سب أو فحش، واللغو الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه.

كما قال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا).

وقال تعالى (يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم).

وقال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما).

=

=

- **قال ابن عاشور**: واللغو: الكلام الذي لا فائدة له، وهذا تنبيه على أن الجنة دار جد وحقيقة فلا كلام فيها إلا لفائدة لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا يلذ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخلقي، ولا ينطقون إلا ما يزيد النفوس تزكية.

(فيها عين جارية) هذا اسم جنس، أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا وأنى أرادوا.

فالمراد بالعين هنا: جنس العيون، وبالجارية: التي لا ينقطع ماؤها.

منها: عين التسنيم، والكافور، والسلسبيل كما قال تعالى (عينا فيها تسمى سلسبيلا).

وقال تعالى (ومزاجه من تسنيم. عينا يشرب بها المقربون).

(فيها سرر مرفوعة) السرر: جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش الوطيئة.

- قال ابن جرير: والسرر: جمع سرير، مرفوعة ليرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما خوله ربه من النعيم والملك فيها، ويلحق جميع ذلك بصره.

(وأكواب موضوعة) يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها.

والأكواب: جمع كوب بضم الكاف، وهو إناء للخمر له ساق ولا عروة له.

و (موضوعة): أي لا ترفع من بين أيديهم كما ترفع آنية الشراب في الدنيا إذا بلغ الشاربون حد الاستطاعة من تناول الخمر.

- ومعنى موضوعة: حاضرة معدة بشرابها.

والأكواب جمع كوب. وهو عبارة عن الإناء الذي تشرب فيه الخمر. أي: وفي الجنة أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدى أهلها، بحيث يشربون من الخمر التي وضعت فيها، دون أن يجدوا أي عناء في الحصول عليها.... (الوسيط).

=

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧).

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة نَظَر اِعْتِبَار {إلى الإبل كيف خلقت}.

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨).

{وإلى السماء كيف رفعت}.

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩).

{وإلى الجبال كيف نصبت}.

=

(ونمارق مصفوفة) أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما، مما لا يعلمه إلا الله، وقد صفت للجلوس والاتكاء عليها.

ومصفوفة: أي جعل بعضها قريبا من بعض صفا، أي أينما أراد الجالس أن يجلس وجدها.

- **قال ابن عاشور**: النمارق جمع نمرقة بضم النون وسكون ميم بعدها راء مضمومة وهي الوسادة التي يتكئ عليها الجالس والمضطجع.

- فجمعت بين لذة الاتكاء إليها وجمال الصف وحسن الترتيب.

والنمارق: جمع نمرقة- بضم النون وسكون الميم وضم الراء-، وهي الوسادة الصغيرة التي يتكئ عليها الجالس والمضجع. أي: وفي الجنة وسائد كثيرة، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا، بحيث يجدها الجالس قريبة منه في كل وقت.... (الوسيط).

(وزرابي مبثوثة) الزرابي: البسط، ومعنى مبثوثة: أي هاهنا لمن أراد الجلوس عليها.

والمعنى: وبسط جميلة فاخرة مفرقة مبسوطة في المجالس ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠).

{وَإِلَى الْأَرْض كَيْف سُطِحَتْ} أَيْ بُسِطَتْ فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى قُدْرَة الله تَعَالَى وَوَحْدَانِيّته وَصُدِّرَتْ بِالْإِبِلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدّ مُلَابَسَة لَهَا مِنْ غَيْرهَا وَقَوْله سُطِحَتْ ظَاهِر فِي أَنَّ الْأَرْض سَطْح وَعَلَيْهِ عُلَمَاء الشَّرْع لَا كُرَة كَمَا قَالَهُ أَهْل الْهَيْئَة وَإِنْ لَمْ يَنْقُض رُكْنًا مِنْ أركان الشرع.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١).

{فَذَكِّرْ} هُمْ نِعَم الله وَدَلَائِل تَوْحِيده {إِنَّمَا أنت مذكر}.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢).

{لَسْت عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِر} وَفِي قِرَاءَة بِالسِّينِ بَدَل الصَّاد أَيْ بِمُسَلَّطٍ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْجِهَادِ.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣).

{إِلَّا} لَكِنْ {مَنْ تَوَلَّى} أَعْرَضَ عَنْ الْإِيمَان {وكفر} بالقرآن.

فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤).

{فَيُعَذِّبهُ الله الْعَذَاب الْأَكْبَر} عَذَاب الْآخِرَة وَالْأَصْغَر عَذَاب الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْر.

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥).

{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابهمْ} رُجُوعهمْ بَعْد الْمَوْت.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦).

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابهمْ} جَزَاءَهُمْ لَا نَتْرُكهُ أَبَدًا[1].

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن قتادة؛ قال: لما نعت الله ما في الجنة؛ عجب من ذلك أهل الضلالة؛ فأنزل الله: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)} فكانت الإبل من عيش العرب ومن خولهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٠٥): ثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٤٩٤)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) الاستفهام للتقريع والتوبيخ، يقول تعالى آمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل.

- **قال ابن عطية**:... وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواه وهو على قوته غاية في الانقياد. قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الحجر فبركت الناقة وأذنت رأسها من فم الحجر، وكان سريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

- وقال القرطبي... ثم ذكر الإبل أولا، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه؛ قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته.

=

=

- فإن قيل: لماذا مثل بالإبل ولم يمثل مثلا بالفيل وهو أعظم خلقا من الجمل؟ فأجاب الحسن البصري رحمه الله تعالى على ذلك بقوله: إن الفيل لم يكن معروفا عند العرب كمعرفتهم للإبل، وقال أيضا: ثم إن الفيل كالخنزير، لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره، أما الناقة، فيحلب لبنها، ويركب ظهرها، ويؤكل لحمها، فوجه الانتفاع بالجمال أكبر بمراحل من الانتفاع بالفيل،

- قال في التسهيل: حض على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها، وأكل لحومها وشرب ألبانها، وأبوالها وغير ذلك. وقيل: أراد بالإبل السحاب وهذا بعيد وإنما حمل قائلة عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال، والصحيح أن المراد الحيوان المعروف، وإنما ذكره لما فيه من العجائب، ولاعتناء العرب به إذ كانت معايشتهم في الغالب منه، وهو أكثر المواشي في بلادهم.

(وإلى السماء كيف رفعت) أي: وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم.

قال تعالى (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها).

وقال تعالى (أفلم ينظروا إلى السمآء فوقهم كيف بنيناها).

وقال تعالى (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)

وقال تعالى (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير).

وقال تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه).

=

=

وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون).

وقال تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض).

(وإلى الجبال كيف نصبت) أي: كيف وجدت بهذا الوضع الباهر بأن نصبت على وجه الأرض نصبا ثابتا راسخا. يحمى الأرض من الاضطراب والتزلزل.

قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا).

قال في التسهيل (والجبال أوتادا) شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد.

وقال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم).

وقال تعالى (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا).

وقال تعالى (وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا).

(وإلى الأرض كيف سطحت) أي: كيف سويت وفرشت وبسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها، ومن الاستقرار عليها، وهذا لا ينافي كونها كروية، لأن الكرة إذا اشتد عظمها.. كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع بها.

- قال الشوكاني (وإلى الأرض كيف سطحت) أي: بسطت، والسطح: بسط الشيء، يقال لظهر البيت إذا كان مستويا: سطح.

كما قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء).

وقال تعالى (وهو الذي مد الأرض).

وقال تعالى (والأرض مددناها).

وقال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهدا).

وقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون).

=

=

- قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده... فيه دليل على أنه لو كانت الأرض غير مبسوطة، كأن تكون غير مستقرة أو مضطربة لكان في ذلك مشقة وتعب.

- فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

- فإنهم لو نظروا إلى كل ذلك نظر اعتبار وتفكر، لأيقنوا أن الله الذي خلقها قادر على بعثهم بعد الموت والحساب، وخصت هذه الأربعة بالذكر لأنها يشاهدونها دائما بأعينهم.

(فذكر) أي: فذكر يا محمد الناس وخوفهم بما أرسلت به إليهم.

(إنما أنت مذكر) أي: ليس لك إلا ذلك، فليس عليك هداية الناس، وإنما أنت منذر ومذكر والهداية بيد الله.

(لست عليهم بمصيطر) أي: لست بمتسلط عليهم، ولا قاهر لهم حتى تجبرهم على الإيمان.

- فمهمة الرسول هي التبليغ والإنذار فقط:

قال تعالى (إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين).

وقال تعالى (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير).

وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين).

وقال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا).

وقال تعالى (إن عليك إلا البلاغ).

=

سورة الفجر[1]

=

وقال سبحانه (وما على الرسول إلا البلاغ المبين).

وقال تعالى (وما أنت عليهم بجبار).

(إلا من تولى وكفر) أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله.

- قال الشوكاني (إلا من تولى وكفر) هذا استثناء منقطع، أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهو عذاب جهنم الدائم، وقيل: هو استثناء متصل من قوله (فذكر) أي: فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، والأول أولى.

(فيعذبه الله العذاب الأكبر) أي: الشديد الدائم، وهو عذاب جهنم الدائم

(إن إلينا إيابهم) أي: مرجعهم ومنقلبهم، والآية تهديد.

(ثم إن علينا حسابهم) أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

- وفي هذا إثبات الحساب.

(١) قال ابن عطية:"هي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال: هي مدنية، والأول أشهر وأصح".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

قال القرطبي:"سورة الفجر مكية".

* آياتها ثلاثون فى عدّ الشام، والكوفة، وتسع وعشرون (فى البصرة، واثنتان وثلاثون فى الحجاز، وكلماتها مائة وسبع وعشرون) وحروفها خمسمائة وتسع
=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالْفَجْرِ (١).

{وَالْفَجْر} أَيْ فَجْر كُلّ يَوْم.

=

وتسعون. المختلف فيها أَربع: نعّمه، رزقه بجهنَّم، {فِي عِبَادِي} فواصل آياتها (هاروت ندم).

* تسمى «سورة الفجر» اشتهرت تسميتها بـ «سورة الفجر» بدون الواو في المصاحف والتفاسير، وكتب السنة، ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها بقوله تعالى: {وَالْفَجْرِ} [الفجر: ١].

وتسمى «سورة والفجر» وبذلك ترجمت في بعض كتب السنة، والتفسير، وعلوم القرآن، وهي تسمية لها بأول جملة افتتحت بها السورة، قال تعالى: {وَالْفَجْرِ} [الفجر: ١].

* معظم مقصود السّورة: تشريف العِيد، وعرفة، وعشْرِ المحرّم، والإشارةُ إِلى هلاك عاد، وثمود، وأَضرابهم، وتفاوتُ حال الإِنسان فى النعمة، وحرصه على جَمْع الدّنيا، والمال الكثير، وبيان حال الأَرض فى القيامة، ومجئ الملائكة، وتأَسّف الإنسان يومئذ على التقصير، والعصيان، وأَنَّ مرجع المؤمن عند الموت إِلى الرّحمة، والرضوان، ونعيم الجنان، فى قوله: {وادخلي جَنَّتِي}.

* متشابه سورة والفجر قوله تعالى: {فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ} وبعده: {وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه} لأَن التقدير فى الثانى أَيضا: وأَما الإِنسان، فاكتفى بذكره فى الأَول؛ والفاءُ لازم بعده؛ لأَن المعنى: مهما يكن من شئ فالإِنسان بهذه الصفة، لكن الفاء أُخِّر ليكون على لفظ الشرط والجزاءِ. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥١٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢).

{وَلَيَالٍ عَشْر} أَيْ عَشْر ذِي الْحِجَّة.

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣).

{وَالشَّفْع} الزَّوْج {وَالْوَتْر} بِفَتْحِ الْوَاو وَكَسْرهَا لُغَتَانِ الْفَرْد.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤).

{وَاللَّيْل إِذَا يَسْرِ} مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا.

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥).

{هَلْ فِي ذَلِكَ} الْقَسَم {قَسَم لِذِي حِجْر} عَقْل وَجَوَاب الْقَسَم مَحْذُوف أَيْ لَتُعَذَّبُنَّ يَا كفار مكة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦).

{أَلم تر} تَعْلَم يَا مُحَمَّد {كَيْف فَعَلَ رَبّك بِعَادٍ}.

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧).

{إِرَم} هِيَ عَاد الْأُولَى فَإِرَم عَطْف بَيَان أَوْ بَدَل وَمَنْع الصَّرْف لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيث {ذَات الْعِمَاد} أَيْ الطُّول كَانَ طُول الطَّوِيل مِنْهُمْ أربعمائة ذراع.

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨).

{الَّتِي لَمْ يُخْلَق مِثْلهَا فِي الْبِلَاد} فِي بطشهم وقوتهم.

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩).

{وَثَمُود الَّذِينَ جَابُوا} قَطَعُوا {الصَّخْر} جَمْع صَخْرَة وَاتَّخَذُوهَا بُيُوتًا {بِالْوَادِ} وَادِي الْقُرَى.

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠).

{وَفِرْعَوْن ذِي الْأَوْتَاد} كَانَ يَتِد أَرْبَعَة أَوْتَاد يَشُدّ إِلَيْهَا يَدَيْ وَرِجْلَيْ مَنْ يُعَذِّبهُ.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١).

{الَّذِينَ طَغَوْا} تَجَبَّرُوا {فِي الْبِلَاد}.

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢).

{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَاد} الْقَتْل وَغَيْره.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣).

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبّك سَوْط} نَوْع {عَذَاب}.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤).

{إِنَّ رَبّك لَبِالْمِرْصَادِ} يَرْصُد أَعْمَال الْعِبَاد فَلَا يَفُوتهُ مِنْهَا شَيْء لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالْفَجْرِ}، هو انفجار الصبح من أفق المشرق، وهما فجران:

فالأول منهما: مستطيل كذنب السرحان يبدو كعمود نور لا عرض له، ثم يغيب لظلام يتخلله، ويسمى هذا الفجر المبشر للصبح، وبعضهم يسميه الكاذب لأنه كذب بالصبح. وهو من جملة الليل لا تأثير له في صلاة ولا صوم.

وأما الثاني: فهو مستطيل النور منتشر في الأفق ويسمى الفجر الصادق لأنه صدقك عن الصبح، قال الشاعر:

شعف الكلاب الضاريات فؤاده... فاذا يرى الصبح المصدّق يفزع

وبه يتعلق حكم الصلاة والصوم، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

وفي قسم الله بـ «الفجر»، أقوال:

أحدها: عُنِي به جميع النهار، وعبّر عنه بـ «الفجر»، لأنه أوله، روى هذا المعنى أبو نصر عن ابن عباس.

عن ابن عباس: "{وَالْفَجْرِ}، قال: النهار".

=

=

الثاني: أن الفجر: الصبح الذي يبدأ به النهار من كل يوم، قاله علّي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والأسود بن يزيد، والسدي. ورواه أبو صالح عن ابن عباس.

قال الأسود بن يزيد:"هو فجركم هذا".

عن مجاهد، والضحاك :"{والفَجْرِ}، قال: فجر النهار".

قال سهل:"ظاهرها الفجر: الصبح".

وقال القرظي: "انفجار الصبح من كلّ يوم إلى انقضاء الدّنيا".

قال الطبري:"هذا قسم، أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالفجر، وهو فجر الصبح".

الثالث: أنه عنى به صلاة الصبح، رواه عطية عن ابن عباس.

الرابع: أنه أراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر. قاله مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب، ومقاتل.

قال مجاهد:"فجر يوم النحر وليس كل فجر".

قال مقاتل:"يعني: غداة جمع يوم النحر".

الخامس: أنه فجر أول يوم من ذي الحجة، لأنّ الله سبحانه قرن الأيّام بها. قاله الضحاك.

السادس: أنه أول يوم من المحرم، تنفجر منه السنة. قاله قتادة.

وروي عثمان بن محصن عن ابن عباس: أنه "فجر المحرّم".

في بعض التفاسير: "أنّ الفجر الصخور والعيون تتفجّر بالمياه".

قال علي بن عبيد الله: "الفجر: ضوء النهار إذا انشق عنه الليل، وهو مأخوذ من الانفجار، يقال: انفجر النهر ينفجر انفجاراً: إذا انشق فيه موضع لخروج الماء: ومن هذا سمي الفاجر فاجراً، لأنه خرج عن طاعة الله".

=

=

قوله (والفجر) الواو حرف قسم (والفجر) هو المقسم به، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لما فيها من الدلالة على عظمته، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله (والفجر) هو الصبح.

أقسم الله به لأنه من آيات الله الباهرة، ومن مخلوقاته العظيمة الظاهرة، حيث تعود الأرواح إلى الأجساد بعد النوم، وذلك مذكر بالبعث، وتدب الحياة في الكون بعد السكون والظلمة وينتشر النور.

- قال الرازي: أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الأرزاق، وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وهذا كقوله (والصبح إذا أسفر) وقال في موضع آخر، (والصبح إذا تنفس) وتمدح في آية أخرى بكونه خالقا له، فقال (فالق الإصباح).

- وقال ابن عاشور: القسم بهذه الأزمان من حيث إن بعضها دلائل بديع صنع الله وسعة قدرته فيما أوجد من نظام يظاهر بعضه بعضا من ذلك وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار، ووقت الليل الذي تمحضت فيه الظلمة.

قوله تعالى: {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر: ٥]، أي: "وأقسم بالليالي العشر الأوَل من ذي الحجة وما شرفت به على الراجح".

وفي قوله تعالى: قوله تعالى: {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} [الفجر: ٥]، ستة أقوال:

أحدها: أنها ليالي عشر ذي الحجة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال ابن الزبير، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، ومقاتل، وسهل بن عبد الله، وهو اختيار الإمام ابن كثير.

عن مجاهد: "{وَلَيَالٍ عَشْرٍ}، قال: عشر ذي الحجة".

قال مسروق:"عشر ذي الحجة، وهي التي وعد الله موسى ﷺ".

=

=

قال مسروق:"ليال العشر، قال: هي أفضل أيام السنة".

قال ابن عباس:"إن الليالي العشر التي أقسم الله بها، هي ليالي العشر الأول من ذي الحجة".

قال ابن عباس:"عشرة الأضحى". وفي لفظ، قال: "هي ليال العشر الأول من ذي الحجة". وفي لفظ: "أول ذي الحجة إلى يوم النحر".

قال الضحاك:"يعني: عشر الأضحى".

قال قتادة:"كنا نحدَّث أنها عشر الأضحى".

قال قتادة:"هي العشر الأول من ذي الحجة، أتمها الله لموسى".

قال عبد الله بن الزبير:"أول ذي الحجة إلى يوم النحر".

قال سهل:"يعني: عشر ذي الحجة وهي الأيام المعلومات".

قال مقاتل:"فهي عشر ليال قبل الأضحى، وأما سماها الله ﷻ ليال عشر لأنها تسعة أيام وعشر ليال".

قال الأسود بن يزيد:"عشر الأضحى".

قال ﷺ (ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام، يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء) رواه البخاري.

الثاني: أنها عشر المحرّم من أوّله. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"أوّل ذي الحجة؛ وقال: هي عشر المحرّم من أوّله".

الثالث: هي العشر الأواخر من شهر رمضان، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس.

الرابع: هي العشر الأول من رمضان، قاله الضحاك.

الخامس: هي العشر الأول من المحرم، قاله يمان بن رئاب.

السادس: هي عشر موسى عليه السلام التي أتمها الله سبحانه له، قاله مجاهد.

=

قال مجاهد:"ليس عمل في ليال من ليالي السنة أفضل منه في ليالي العشر، وهي عشر موسى التي أتمَّها الله له".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا: أنها عشر الأضحى لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأن عبد الله بن أبي زياد القَطْوانيّ، حدثني قال: ثني زيد بن حباب، قال: أخبرني عياش بن عقبة، قال: ثني جُبير بن نعيم، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «{وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ}، قال: عَشْرُ الأَضْحَى»".

قوله تعالى: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [الفجر: ٥]، أي:"وأقسم وبكل شفع وفرد".

واختلف أهل التفسير في «الشفع والوتر»، على أقوال:

أحدها: أن الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ، ولكنه حديث ضعيف لا يثبت.

الثاني: أنّ الشّفع يوم النحر، والوتر: يوم عرفة. رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك.

قال ابن عباس: الشفع: يوم النحر والوتر: يوم عرفة". وفي لفظ: "الوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم الذبح".

قال الأسود بن يزيد:"«والشفع»: يوم الأضحى، و «الوتر»: يوم عرفة".

قال الضحاك:"عرفة وَتْر، والنحر شفع، عرفة يوم التاسع، والنحر يوم العاشر".

قال الضحاك:"أقسم الله بهنّ لما يعلم من فضلهنّ على سائر الأيام، وخير هذين اليومين لما يُعلَم من فضلهما على سائر هذه الليالي {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}، قال: الشفع: يوم النحر، والوَتر: يوم عرفة".

الثالث: أن الشفع والوتر: الصلاة، منها الشفع، ومنها الوتر، رواه عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ، وبه قال قتادة.

=

قال قتادة:"إن من الصلاة شفعا، وإن منها وترا".

قال قتادة:"هي الصلاة المكتوبة فيها الشفع والوتر".

قال الربيع بن أنس:"ذلك صلاة المغرب، الشفع: الركعتان، والوتر: الركعة الثالثة".

الرابع: أن الشفع: الخلق كله، والوتر: الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد-في رواية-، وأبو صالح.

قال ابن عباس:"الله وتر، وأنتم شفع".

عن أبي صالح:"{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}، قال: خلق الله من كل شيء زوجين، والله وَتْر واحد صَمَد".

قال مجاهد:"كلّ خلق الله شفع، السماء والأرض والبرّ والبحر والجنّ والإنس والشمس والقمر، والله الوَتر وحده".

قال مجاهد:"الوتر: الله، وما خلق الله من شيء فهو شفع".

عن مجاهد، في قوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، قال: الكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والجنّ والإنس، والوَتْر: الله؛ قال: وقال في الشفع والوتر مثل ذلك".

قال مجاهد:"كل شيء خلقه الله شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس والشمس والقمر، نحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد".

وقال مجاهد:"الشفع: الزوج، والوتر: الله". وفي رواية:"الله الوتر، وخلقه: الشفع الذكر والأنثى".

=

وقال ابن عطاء:"{وَالْفَجْرِ} : محمّد ﷺ لأنّ به تفجّرت أنوار الإيمان وغابت ظلم الكفر. {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} ليالي موسى التي أكمل بها ميعاده بقوله تعالى: {وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}، {وَالشَّفْعِ} : الخلق، {وَالْوَتْرِ} : الحقّ".

الخامس: أن الْوَتْرِ: آدم شفّعه الله بزوجته حواء، رواه مجاهد عن ابن عباس، وحكاه الثعلبي دون نسبة.

السادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر: اليوم الثالث، وهو النّفر الأخير، قاله عبد الله بن الزّبير، واستدلّ بقوله ﷻ: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ٢٠٣]. وبه قال ابن زيد.

قال عبد الله بن الزبير:"الشفع: يومان بعد يوم النحر، والوتر: يوم النفر الآخر، يقول الله: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْه} [البقرة: ٢٠٣]".

عن عبد الله بن الزبير:"أنه سئل عن الشفع والوتر، فقال: الشفع قول الله: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ٢٠٣]، والوتر اليوم الثالث"، وفي لفظ: "الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق".

عن ابن عبد السلام عن أبي سعيد بن عوف، حدثنا بمكة قال: "سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الشفع والوتر. فقال: الشفع قول الله ﷻ: فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، والوتر قوله: ومن تأخر فلا إثم عليه".

عن أبي سعيد بن عوف قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول على المنبر: يا معشر الحاجّ إنّكم جئتم من القريب والبعيد على الضعيف والشديد، فأسهرتم الأعين وأنصبتم الأنفس وأتعبتم الأبدان، فلا يبطلنّ أحدكم حجّه وهو لا يشعر، ينظر نظرة بعينه أو يبطش بطشة بيده، أو يمشي مشية برجله، يا أهل مكّة وسّعوا عليهم

=

ما وسّع الله عليكم وأعينوهم ما استعانوكم عليه، فإنّهم وفد الله وحاجّ بيت الله ولهم عليكم حقّ، فاسألوني فعلينا كان التنزيل، ونحن حصرنا التأويل، فقام إليه رجل من ناحية زمزم فقال: دخلت فأرة جرابي وأنا محرم؟ فقال: اقتلوا الفويسقة، فقام آخر فقال: أخبرنا بـ «الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» و «الليالي العشر»، فقال: أمّا «الشفع والوتر»، فقول الله سبحانه: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}، فهما الشفع والوتر، وأمّا «الليالي العشرة»، فالثمان وعرفة والنحر، فقام آخر فقال: أخبرنا عن يوم «الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»؟ فقال: هو يوم النحر ثلاث تتلوها".

قال ابن زيد:"الشفع: يومان بعد يوم النحر، والوتر: يوم النَّفْر الآخرِ، يقول الله: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ٢٠٣]".

السابع: أن الشفع: صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب، حكاه عطية.

الثامن: أن الشفع: الركعتان من صلاة المغرب، والوتر: الركعة الثالثة، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس.

قال أبو العالية:"ذلك صلاة المغرب، الشفع: الركعتان، والوتر: الركعة الثالثة".

التاسع: أن الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومجاهد -في رواية-، والحسن.

العاشر: أنه العدد، منه شفع، ومنه وتر، وهذا مروي عن الحسن-أيضا-.

عن قتادة، أنه سُئل عن «الشفع والوتر»، فقال: "قال الحسن: هو العدد".

وروي عن معمر، قال: "قال الحسن في ذلك: الخلق كله شفع {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}، قال: كان أبي يقول: كلّ شيء خلق الله شفع ووتر، فأقسم بما خلق، وأقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون".

الحادي عشر: أن الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة، قاله الضحاك.

=

=

الثاني عشر: أنّ الشّفع: هو الله، لقوله ﷻ: {ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ} [المجادلة: ٧]، والوتر: هو الله، لقوله ﷻ: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، قاله سفيان بن عيينة.

الثالث عشر: أن الشفع: هو آدم وحواء. والوتر: الله تعالى، قاله مقاتل بن سليمان، وسهل بن عبد الله.

وقال سهل: "{وَالشَّفْعِ} آدم وحواء -وقيل جميع ما خلق الله من الأضداد: الليل والنهار والنور والظلمة والموت والحياة- {وَالْوَتْرِ}: هو الله تعالى".

الرابع عشر: أن الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

الخامس عشر: الشفع: درجات الجنان، لأنها ثمان، والوتر: دَرَكات النار لأنها سبع، فكأنّ الله تعالى أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن الفضل.

السادس عشر: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين بين عِزٍ وذُلٍّ، وقدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وموت وحياة. والوتر: انفراد صفات الله ﷻ، عِزٌّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بل جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الورَّاق.

السابع عشر: أن الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت. حكاه الثعلبي.

الثامن عشر: أن الشفع: مسجد مكة والمدينة، والوتر: بيت المقدس. حكاه الثعلبي.

التاسع عشر: أنّ الشّفع: القران في الحج والتمتع، والوتر: الإفراد. حكاه الثعلبي.

العشرون: أن الشفع: العبادات المتكررة كالصلاة، والصوم، والزكاة، والوتر: العبادة التي لا تتكرر، كالحجّ، حكاه الثّعلبيّ حكاه الثعلبي.

الواحد والعشرون: أن الشَّفْعِ: النفس والروح إذا كانتا معا، وَالْوَتْرِ: الروح بلا نفس والنفس

=

=

بلا روح، فكأنّ الله سبحانه أقسم بها في حالتي الاجتماع والافتراق. حكاه الثعلبي.

الثاني والعشرون: أن الشَّفْعِ: الأفعال، وَالْوَتْرِ: النيّة، وهو الإخلاص. حكاه الثعلبي.

الثالث والعشرون: أن الشَّفْعِ: الفرائض، وَالْوَتْرِ: السنن. حكاه الثعلبي.

الرابع والعشرون: أن الشفع: الزّكاة، وهو الزوج، والوتر: الخسا، وهو الفرد، قاله أبو عبيدة، وأنشد له قول الكميت :

إِذا نَحْنُ في تِعْدَادِ خَصْلِكَ لَمْ نَقُلْ... خَسَا وَزَكا أَعْيَيْن مِنَّا المُعَدِّدَا

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعا من الشفع ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل، وكلّ شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل إنه داخل في قسمه هذا لعموم قسَمه بذلك".

قال الشنقيطي: "ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا.

أما جملة فقالوا إنما الوتر هو الله للحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" وما سواه شفع كما في قوله تعالى {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [٥١/ ٤٩]، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق كما في عموم {فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ} [٦٩/ ٣٨-٣٩].

أما التفصيل فقالوا المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء وهكذا ذكروا لكل شيء مقابله ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة.

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم أنه هو الأول لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة.

=

=

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء فإنها من سالب وموجب وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان حتى الماء الذي كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين أكسجين وهدروجين ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أي الغليان ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتاقطران ماء وهكذا.

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب فلم يبق في الكون شيء قط فردا وترا بذاته إلا ما نص عليه الحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغني بذاته عن غيره والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت إلخ بخلاف المخلوق وقلنا المستغني بذاته عن غيره لأن كل مخلوق شفعا فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك ولهذا كان القول الأول وهو أن الوتر هو الله والشفع هو المخلوقات جميعها هو القول الراجح وهو الأعم في المعنى.".

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} [الفجر: ٥]، أي:"وأقسم بالليل إذا يَسْري بظلامه".

وفي قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} [الفجر: ٥]، وجهان من التفسير:

القول الأول: أن الفعل له، ومن ثم فيه قولان:

أحدهما: إذا يسري ذاهبًا، حكاه ابن الجوزي عن الجمهور، وهو اختيار الزجاج، والطبري.

عن ابن عباس: "{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْر}، يقول: إذا ذهب".

=

=

قال عبد الله بن الزبير:"حين يذهب، يتبع بعضه بعضا". وفي لفظ:"حتى يُذهِب بعضه بعضا".

الثاني: إذا يسري مقبلا، قاله قتادة.

عن أبي العالية، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم: "{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، قال: إذا سار".

عن أبي العالية:"{واللَّيْلِ إذا يَسْرِ}، يقول: إذا أقبل".

عن الضحاك:"{واللَّيْلِ إذا يَسْرِ}، قال: يجري".

وقال مقاتل:"يعني: إذا أقبل".

وحكي الماوردي عن ابن عباس:"إذا أظلم".

وقال ابن زيد:"الليل إذا يسير".

قال ابن كثير:"وقال مجاهد، وأبو العالية، وقتادة، ومالك، وزيد بن أسلم وابن زيد: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}: إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس، أي: ذهب. ويحتمل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب؛ لأنه في مقابلة قوله: {وَالْفَجْرِ} فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} على إقباله كان قَسَمًا بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٧، ١٨]. وكذا قال الضحاك: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، أي: يجري".

القول الثاني: أن الفعل لغيره، والمعنى: إذا يسري فيه، كما يقال: ليل نائم، أي: ينام فيه، قاله الأخفش، وابن قتيبة.

قال كثير بن عبد الله بن عمرو: "سمعت محمد بن كعب القرظي، يقول في قوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} قال: اسر يا سار ولا تبين إلا بجَمْع".

وفي المراد بهذا الليل ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أنه عام في كل ليلة، وهذا الظاهر.

الثاني: أنه ليلة المزدلفة، وهي ليلة جَمْعٍ، لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله. قاله مجاهد، وعكرمة.

عن عكرِمة: "{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، قال: ليلة جمع".

عن عكرمة:"{واللَّيْلِ إذا يَسْرِ}، قال: ليلة جَمع. قال: وكانوا يقولون: سرى الليلُ بجَمع فمضى. يعني: مضى الليل والناس بجَمع. قال عكرمة: هذا القَسم في أيام العشر كلّه".

قال مقاتل:"هي ليلة الأضحى".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ:"أنه قيل له: ما {واللَّيْلِ إذا يَسْرِ}؟ قال: هذه الإفاضة، اسْرِ، يا ساري، ولا تَبِيتنّ إلا بجَمع".

الثالث: ليلة القدر، لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب فيها. حكاه الماورديّ.

قرأ ابن كثير، ويعقوب «يسري» بياءٍ في الوصل والوقف، وافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «يسر» بغير ياءٍ في الوصل والوقف. قال الفراء، والزجاج: الاختيار حذفها لمشاكلتها لرؤوس الآيات، ولاتِّباع المصحف.

قوله تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر: ٥]، أي:"أليس في الأقسام المذكورة مَقْنَع لذي عقل؟".

وفي «ذي الحجر» لأهل التفسير خمسة أقوال:

أحدها: لذي عقل، قاله ابن عباس، والحسن -في رواية-، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وبه قال الأخفش، والفراء، وأبي عبيدة، وابن قتيبة، والطبري.

قال ابن عباس:"لأولي النُّهى".

=

=

قال ابن عباس:"لذي عقل، لذي نُهَي".

قال ابن عباس:"لذي لُبّ، لذي حِجَى".

قال ابن عباس:"ذو الحِجْر والنُّهى والعقل".

قال ابن عباس-في رواية مجاهد-:"لذي عقل، لذي رأي، لذي قدرة، لذي نهى".

قال مجاهد:"لذي عقل، لذي رأي".

وقال الحسن: "لذي لُبّ".

قال قتادة:"لذي حِجى، لذي عقل ولُبّ".

قال ابن زيد:"لذي عقل، وقرأ: {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، و {لأولِي الألْبابِ}، وهم الذين عاتبهم الله وقال: العقل واللُّبّ واحد، إلا أنه يفترق في كلام العرب".

قال الطبري: المعنى:"إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه مما هو أغلظ منه في الإقسام".

قال ابن كثير:"أي: لذي عقل ولب وحجا ودين".

وقال الفراء:"العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل".

قال الزجاج:"أي: لذي عقل ولب، ومعنى القسم توكيد ما يذكر وتصحيحه بأن يقسم".

قال مقاتل:"فأقسم الله بيوم النحر، والعشر، وبآدم وحواء، وأقسم بنفسه، فلما فرغ منها قال: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}، يعني: إن في ذلك القسم كفاية لذي اللب، يعنى ذا عقل، فيعرف عظم هذا القسم".

الثاني: لذي حلم، قاله الحسن.

الثالث: لذي دين، قاله محمد بن كعب.

الرابع: لذي ستر من النار، قاله أبو مالك.

=

=

الخامس: لذي علم، قاله أبو رجاء.

السادس: لذي نهى وحلم وحياء. قاله عطاء الخراساني.

والحجر: "المنع، ومنه اشتق اسم الحجر لامتناعه بصلابته، ولذلك سميت الحجرة لامتناع ما فيها بها، ومنه سمي حجر المَولَّى عليه لما فيه من منعه عن التصرف، فجاز أن يحمل معناه على كل واحد من هذه التأويلات لما يضمنه من المنع".

قال ابن الجوزي:"وسمي العقل حجْراً، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلا، لأنه يعقل عمّا لا يحسن، وسمي العقل النُّهى، لأنه ينهى عما لا يحل. ومعنى الكلام: أن من كان ذا لبٍّ عَلِم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه دلائل على توحيد الله وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به لدلالته".

قال ابن كثير:"وإنما سمي العقل حجْرًا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي. ومنه حجر اليمامة، وحَجَرَ الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف، {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٢٢]، كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم".

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ} [الفجر: ٨- ٩]، أي:"ألم تر -أيها الرسول- كيف فعل ربُّك بقوم عاد، قبيلة إرم؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى كيف فعل ربك بعاد؟".

=

=

قال ابن كثير:"هؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبَرا".

وفي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ} [الفجر: ٨- ٩]، وجوه:

أحدها: أن «إرم»: هي الأرض، قاله قتادة.

الثاني: دمشق، قاله عكرمة، ورواه ابن أبي ذئب عن المقْبري.

الثالث: الإسكندرية، قاله محمد بن كعب.

قال ابن كثير:"ومن زعم أن المراد بقوله: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو اسكندرية كما رُوي عن القُرَظي أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يُرَد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم، وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وإن حصباءها لآلئ وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا مجيب. وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد- فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

=

=

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب- وهو عبد الله بن قِلابة- في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريبًا

مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئا.

وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} هاهنا مطولة جدا، وهي قصة ضعيفة لا تثبت،وهي قريبة مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات، ويَطْنزون بهم. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب".

الرابع: أن «إرم»: أُمة من الأمم، قاله مجاهد، قال الشاعر :

كما سحرت به إرم وعاد...... فأضحوا مثل أحلام النيام

قال أبو عبيدة:"هما عادان: عاد الأخيرة، وعاد الأولى وهي: {إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ}، ذات الطول".

الخامس: أنه اسم قبيلة من عاد، قاله قتادة، والسدي.

قال قتادة:"كنا نحدّث أن إرم قبيلة من عاد، بيت مملكة عاد".

قال قتادة:"«إِرَمَ»: قبيلة من عاد كان يقال لهم: إرم، جدّ عاد".

=

=

قال ابن كثير:"وهذا قول حسن جيد قوي".

السادس: أن «إرم»: اسم جد عاد، قاله محمد بن إسحاق، وحكى عنه أنه أبوه، وأنه عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح.

عن ابن إسحاق: "{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ}، يقول الله: بعاد إرم، إن عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح".

قال ابن كثير:"وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة: ٧، ٨] وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم".

السابع: أن «إرم»: أمة قديمة، يعني: عادا الأولى. رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

الثامن: أنه الهلاك، يقال: أرم بنو فلان، أي: هلكوا، قاله ابن عباس، والضحاك.

قال ابن عباس:"يعني بالإرم: الهالك؛ ألا ترى أنك تقول: أرم بنو فلان؟".

عن الضحاك:"{بِعَادٍ إِرَمَ}: الهلاك؛ ألا ترى أنك تقول أُرِمَ بنو فلان: أي هَلَكوا".

التاسع: أن الله تعالى رمّهم رّمـًا فجعلهم رميمـًا، فلذلك سماهم، قاله السدي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن إرم إما بلدة كانت عاد تسكنها، فلذلك ردّت على عاد للإتباع لها، ولم يجر من أجل ذلك، وإما اسم قبيلة فلم يُجر أيضا، كما لا يُجْرى أسماء القبائل، كتميم وبكر، وما أشبه ذلك إذا أرادوا به القبيلة، وأما اسم عاد فلم يجر، إذ كان اسما أعجميا. فأما ما ذُكر عن مجاهد

=

=

أنه قال: عُنِيَ بذلك القديمة، فقول لا معنى له، لأن ذلك لو كان معناه لكان محفوظا بالتنوين، وفي ترك الإجراء الدليل على أنه ليس بنعت ولا صفة. وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاءت القراءة بترك إضافة عاد إليها، وترك إجرائها، كما يقال: ألم تر ما فعل ربك بتميم نهشل؟ فيترك إجراء نهشل، وهي قبيلة، فترك إجراؤها لذلك، وهي في موضع خفض بالردّ على تميم، ولو كانت إرم اسم بلدة، أو اسم جدّ لعاد لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها، كما يقال: هذا عمروُ زبيدٍ وحاتمُ طيىء، وأعشى هَمْدانَ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى، كما قال قتادة، والله أعلم، فلذلك أجمعت القرّاء فيها على ترك الإضافة وترك الإجراء".

قال ابن كثير:"وقولُ ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: {إِرَمَ} قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}".

قوله تعالى: {ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر: ٨]، أي:"ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة".

وفي قوله تعالى: {ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر: ٨]، وجوه:

أحدها: ذات الطُّول، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة، مأخوذ من قولهم: رجل معمّد، إذا كان طويلاً.

قال ابن عباس:"يعني: طولهم مثل العماد".

قال مجاهد:"كان لهم جسم في السماء".

وقال مقاتل:"يعني: ذات الأساطين وهي أساطين الرهبانيين التي تكون في الفيافي والرمال، فشبه الله ﷻ طولهم إذ كانوا قياما في البرية بأنه مثل العماد، وكان طول

=

=

أحدهم ثمانية عشر ذراعا ويقال اثني عشر ذراعا في السماء مثل أعظم أسطوانة تكون".

الثاني: ذات العماد، لأنهم كانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، قاله مجاهد، وقتادة، والفراء.

قال الفراء:"{إرم} تابعة لعاد، و {العماد}: أنهم كانوا أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم".

قال ابن كثير:"لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشِّعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٦٩]. وقال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فصلت: ١٥]".

عن مجاهد: "{الْعِمَادِ}، قال: أهل عَمُود لا يقيمون".

قال قتادة:"ذُكر لنا أنهم كانوا أهل عَمُود لا يقيمون، سيارة".

قال قتادة:"كانوا أهلَ عمود".

الثالث: ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة: الأعمدة، قاله الضحاك.

عن الضحاك:"{ذَاتِ الْعِمَادِ}، يعني: الشدّة والقوّة".

عن ثور بن زيد الديلي قال: "قرأت كتابا قد سمى حيث قرأه: أنا شداد بن عاد وأنا الذي رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد وأنا الذي كنزت كنزا على سبعة أذرع، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ".

=

=

عن المقدام عن النبي ﷺ: أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: "كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم".

الرابع: قيل ذلك لهم لبناء بناه بعضهم، فشيَّد عَمَده، ورفع بناءه، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد، في قوله: "{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، قال: عاد قوم هود بنَوها وعملوها حين كانوا في الأحقاف، قال: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا}، مثل تلك الأعمال في البلاد، قال: وكذلك في الأحقاف في حضرموت، ثم كانت عاد، قال: وثم أحقاف الرمل، كما قال الله: بالأحقاف من الرمل، رمال أمثال الجبال تكون مظلة مجوّفة".

قال الطبري:"وأشبه الأقوال في ذلك بما دلّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال: عُنِيَ بذلك أنهم كانوا أهل عمود، سيارة لأن المعروف في كلام العرب من العماد، ما عمل به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح، بل وجه أهل التأويل قوله: {ذَاتِ الْعِمَادِ} إلى أنه عُنِيَ به طول أجسامهم، وبعضهم إلى أنه عُنِيَ به عماد خيامهم، فأما عماد البنيان، فلا يعلم كثير أحد من أهل التأويل وجهه إليه، وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ما وجد إلى ذلك سبيلا دون الأنكر".

قال ابن كثير:"فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحا يقاتلون به، أو طول الواحد منهم- فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما هاهنا، والله أعلم".

قال الرازي: (ألم تر) ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم، وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر.

=

=

قال ابن عاشور: والمقصود من ذكر الله تعالى حكايتهم أن يكون زجرا للكفار عن الإقامة على مثل ما أدى إلى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه، وليكون بعثا للمؤمنين على الثبات على الإيمان.

- قال الشوكاني: (ألم تر) أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وقد كان أمر عاد وثمود مشهورا عند العرب؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون.

قوله تعالى: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: ٨]، أي:"التي لم يُخلق مثلها في البلاد في عِظَم الأجساد وقوة البأس".

وفي قوله تعالى: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: ٨]، وجهان:

أحدهما: لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد في البلاد، قاله عكرمة، وابن زيد.

قال الطبري:"وهذا قول لا وجه له، لأن العماد واحد مذكر، والتي للأنثى، ولا يوصف المذكر بالتي، ولو كان ذلك من صفة العماد لقيل: الذي لم يخلق مثله في البلاد، وإن جعلت التي لإرم، وجعلت الهاء عائدة في قوله: {مِثْلُهَا} عليها، وقيل: هي دمشق أو إسكندرية، فإن بلاد عاد هي التي وصفها الله في كتابه فقال: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ} والأحقاف: هي جمع حِقْف، وهو ما انعطف من الرمل وانحنى، وليست الإسكندرية ولا دمشق من بلاد الرمال، بل ذلك الشِّحْرَ من بلاد حضرموت، وما والاها".

قال ابن كثير:"وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ}".

الثاني: لم يخلق مثل قوم عاد في البلاد، لطولهم وشدتهم، قاله الحسن، وقتادة.

=

=

قال ابن كثير:"أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم".

قال قتادة:"ذكر أنهم كانوا اثني عشر ذراعا طولا في السماء".

قال مقاتل:"يقول ما خلق الله ﷻ: مثل قوم عاد في الآدميين، ولا مثل إرم في قوم عاد".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم التي لم يخلق مثلها في البلاد، يعني: مثل عاد، والهاء عائدة على «عاد». وجائز أن تكون عائدة على إرم لما قد بينا قبل أنها قبيلة. وإنما عُنِيَ بقوله: لم يُخْلق مثلها في العِظَم والبطش والأيد".

قال ابن عاشور: ووصفت عاد بـ (ذات العماد) لقوتها وشدتها، أي قد أهلك الله قوما هم أشد من القوم الذين كذبوك قال تعالى (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) وقال (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة).

- **قال ابن عطية**: وقال جمهور المفسيرين: (إرم) مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن.

(التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم.

- **قال ابن عاشور**: وأريد بالخلق خلق أجسادهم فقد روي أنهم كانوا طوالا شدادا أقوياء، وكانوا أهل عقل وتدبير، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد، ثم فسدت طباعهم بالترف فبطروا النعمة.

- قال القرطبي: الضمير في "مثلها" يرجع إلى القبيلة، أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة؛ عن الحسن وغيره.

=

=

قوله تعالى:

{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ } [الفجر: ٩]

أي: وكيف فعل بثمود قوم صالح الذين قطعوا الصخر بالوادي واتخذوا منه بيوتًا؟

قال مقاتل:"ثمود هو أبوهم، وبذلك سماهم، وهم قوم صالح".

وفي تفسير الآية قولان:

أحدهما: يعني: قطعوا الصخر ونقبوه ونحتوه حتى جعلوه بيوتًا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل، والفراء، وأبو عبيدة، والطبري، كما قال تعالى: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩].

عن ابن عباس: "{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}، يقول: فخرقوها".

قال ابن عباس:"يعني: ثمود قوم صالح، كانوا ينحتون من الجبال بيوتا".

قال مجاهد:"جابوا الجبال، فجعلوها بيوتا".

قال قتادة:"نَقبوا الصخر".

قال قتادة:"جابوها ونحتوها بيوتا".

قال الضحاك:"يقول: قَدُّوا الحجارة".

قال ابن زيد:"ضربوا البيوت والمساكن في الصخر في الجبال، حتى جعلوا فيها مساكن".

قال ابن كثير:"يعني: يقطعون الصخر بالوادي".

قال الفراء:"خرقوا الصخر، فاتخذوه بيوتا".

قال مقاتل:"يعني: الذين نقبوا الصخر بالوادي، وذلك أنهم كانوا يعمدون إلى أعظم جبل فيثقبونه فيجعلونه بيتا، ويجعلون بابه منها، وغلقه منها، فذلك قوله: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩]".

=

=

الثاني: معناه: طافوا لأخذ الصخر بالوادي، حكاه أبو عبيدة، كما قال الشاعر:

ولاَ رأَيْتُ قَلوصـًا قبلَها حَمَلَتْ... سِتِّين وَسْقـًا ولا جابَتْ بها بلداً

وقول الآخر:

أتاكَ أبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدُّجَى... دُجَى اللَّيلِ جَوّابُ الفَلاةِ عَمِيمُ

قال أبو عبيدة:"ويجوب الفلاة -أيضا-: يدخل فيها ويقطعها".

وأما «الواد»، فقد زعم محمد بن إسحاق أنه وادي القرى.

وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة، قال: كان رسول الله عليه السلام في غزوة تبوك، فأتى على وادي ثمود وهو على فرس شقراء، فقال: «أسرعوا السير فإنكم في واد ملعون».

قال قتادة:"ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لما مرّ بوادي ثمود، وهو عامد إلى تبوك قال: فأمر أصحابه أن يسرعوا السير، وأن لا ينزلوا به، ولا يشربوا من مائه، وأخبرهم أنه وادٍ ملعون".

قوله تعالى: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} [الفجر: ١٠]

أي: وكيف فعل بفرعون مَلِك «مصر»، صاحب الجنود الذين ثبّتوا مُلْكه، وقوّوا له أمره؟

قال مقاتل:"فرعون: واسمه مصعب بن جبر، ويقال: الوليد بن مصعب".

وفي تفسير الآية أربعة أقوال:

أحدها: أن الأوتاد الجنود، فلذلك سمي بذي الأوتاد لكثرة جنوده، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"الأوتاد: الجنود الذين يشدّون له أمره".

قال النحاس:"أي: ذي الجنود الكثيرة المحتاجة لضرب الأوتاد في أسفارها".

=

=

قال الثعلبي: يعني: "أراد ذا الجنود والجموع الذين يقوّون أمره ويسدّدون مملكته، وسمّي الأجناد أوتادا لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتّدونها في أسفارهم".

الثاني: لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد يشدها في أيديهم، قاله ابن عباس-أيضا-، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال الزجاج:"لأنه كان له أربع أساطين، إذا عاقب الانسان ربط منه كل قائمة إلى اسطوانة من تلك الأساطين".

قال مجاهد:"كان يوتد الناس بالأوتاد".

قال الحسن:"كان يُعَذِّب بالأوتاد".

قال السدي:"كان فرعون إذا أراد أن يقتل أحدًا ربطه بأربعة أوتاد على صخرة، ثم أرسَل عليه صخرة مِن فوقه، فشَدخه، وهو ينظر إليها، قد رُبِط بكلّ وتد منها قائمة".

عن أبي رافع، قال:"وتَّد فرعونُ لامرأته أربعةَ أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحًا عظيمة حتى ماتت".

قال سعيد بن جبير:"كان يجعل رجلا هاهنا ورجلا هاهنا، ويدا هاهنا ويدا هاهنا بالأوتاد".

قال الكلبي: "بمثل ذلك عذب فرعون زوجته آسية بنت مزاحم عندما آمنت حتى ماتت".

عن أبي رافع، قال: "أوتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحا عظيمة حتى ماتت".

قال الفراء:"كان إذا غضب على الرجل مده بين أربعة أوتاد حتى يموت معذبا، وكذلك فعل بامرأته آسية ابنة مزاحم، فسمى بهذا لذلك".

=

=

قال مقاتل:"وذلك أنه أوثق الماشطة على أربع قوائم مستلقية، ثم سرح عليها الحيات والعقارب، فلم يزلن يلسعنها ويلدغنها، ويدخلون من قبلها ويخرجون من فيها حتى ذابت كما يذوب الرصاص لأنها تكلمت بالتوحيد، وذلك أنها كانت تمشط هيجل بنت فرعون، فوقع المشط من يدها فقالت: «باسم الله وخيبة لمن كفر بالله»، فقالت ابنة فرعون: وأيّ إله هذا الذي تذكرين؟ قالت: إله موسى. فذهبت، فأخبرت أباها، فكان من أمرها ما كان، فذلك قوله: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}، يقول: إنه أوثق امرأة على أربع قوائم من أجل أنها عرفتني".

عن عبد الله بن عباس -من طريق إسحاق بن بشر -وهو كذاب -، عن ابن سمعان -وهو متروك-، عن عطاء-:"أنّ فرعون إنما سُمّي {ذي الأوتاد} لأنه كانت امرأة -وهي امرأة خازن فرعون حزبيل، وكان مؤمنًا كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون- فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس مَن كفر بالله. فقالت بنت فرعون: وهل لك مِن إلهٍ غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له. فقامت، فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أنّ إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له. فأرسَل إليها، فسألها عن ذلك، فقالت: صدقتْ. فقال لها: ويحكِ، اكفري بإلهكِ وأقِرّي بأني إلهكِ. قالت: لا أفعل. فمدَّها بين أربعة أوتاد، ثم أرسَل عليها الحيّات والعقارب، وقال لها: اكفري بإلهكِ، وإلا عذّبتُك بهذا العذاب شهرين. فقالت له: ولو عذَّبتني سبعين شهرًا ما كفرتُ بالله. وكان لها ابنتان، فجاء بابنتها الكبرى، فذبحها على قُربٍ منها، وقال لها: اكفري بالله، وإلا ذبحتُ الصغرى على قلبكِ. وكانت رضيعًا، فقالتْ: لو ذبحتَ مَن على وجه الأرض على فِيَّ ما كفرتُ بالله- ﷻ -. فأتى بابنتها الصغرى، فلما أُضجعتْ على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت

=

=

المرأة، فأطلق الله لسان ابنتها، فتكلّمتْ، وهي مِن الأربعة الذين تَكلّموا أطفالًا، وقالت: يا أُمّاه، لا تجزعي؛ فإنّ الله قد بنى لكِ بيتًا في الجنة، اصبري فإنّك تُفْضِين إلى رحمة الله وكرامته. فذُبحتْ، فلم تلبث أن ماتتْ، فأسكنها الله الجنة. قال: وبعث في طلب زوجها حزبيل، فلم يقدروا عليه، فقيل لفرعون: إنّه قد رُئِي في موضع كذا وكذا في جبل كذا. فبعث رجلين في طلبه، فانتهيا إليه وهو يُصلّي، ويليه صفوف من الوحوش خلفه يُصلُّون، فلمّا رأيا ذلك انصرفا، فقال حزبيل: اللهم، إنّك تعلم أنّي كتمتُ إيماني مائة سنة، ولم يظهر عَلَيَّ أحد، فأيّما هذان الرجلين كتم عليَّ فاهدِه إلى دينك، وأَعْطِه مِن الدنيا سُؤْلَه، وأيّما هذين الرجلين أظهر عليَّ فعجِّل عقوبته في الدنيا، واجعل مصيره في الآخرة إلى النار. فانصرف الرجلان إلى فرعون، فأمّا أحدهما فاعتبر وآمن، وأمّا الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم، فلان. فدعا به، فقال: أحقٌّ ما يقول هذا؟ قال: لا، ما رأيتُ مما قال شيئًا. فأعطاه فرعون وأجزل، وأمّا الآخر فقتله، ثم صلبه. قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة مِن نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مزاحم، فرأتْ ما صنع فرعونُ بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أنْ أصبر على ما يأتي به فرعون، وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تُؤامِر نفسها إذ دخل عليها فرعون، فجلس قريبًا منها، فقالت: يا فرعون، أنتَ شرُّ الخَلْق وأخبثهم، عمدتَ إلى الماشطة فقتلتَها! قال: فلعلّ بك الجنون الذي كان بها؟ قالت: ما بي مِن جنون، وإنّ إلهي وإلهها وإلهك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له. فمزَّق عليها ثيابها، وضربها، وأرسَل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أنّ الجنون الذي كان بالماشطة أصابها؟ قالت: أعوذ بالله مِن ذلك، إني أشهد أنّ ربي وربَّك وربّ السماوات والأرض واحدٌ لا شريك له. فقال لها أبوها: يا آسية، ألستِ مِن خير نساء العماليق، وزوجكِ إله العماليق؟ قالت: أعوذ

=

=

بالله مِن ذلك، إن كان ما يقول حقًّا فقولا له أن يتوّجني تاجًا تكون الشمس أمامه، والقمر خلفه، والكواكب حوله. فقال لهما فرعون: اخرجا عني. فمدَّها بين أربعة أوتاد يُعذّبها، ففتح الله لها بابًا إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: {رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين} [التحريم: ١١]. فقبض الله روحها، وأسكنها الجنة".

الثالث: أن الأوتاد: بنيان ومنارات، يعذّب الناس عليها. قاله سعيد بن جبير.

وعن الضحاك:"أن الأوتاد: البنيان، فسمي بذي الأوتاد لكثرة بنائه".

وقال محمد بن كعب: "يعني: ذا البناء المحكم".

الرابع: لأنه كانت له مظال وملاعب على أوتاد وحبال يلعب له تحتها، قاله قتادة.

قال قتادة:"ذي البناء، كانت مظال يلعب له تحتها، وأوتادا تضرب له".

قال قتادة:"كانت له أوتاد، وأرسان وملاعب يلعب له عليها".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: عُنِيَ بذلك: الأوتاد التي تُوتَد، من خشب كانت أو حديد، لأن ذلك هو المعروف من معاني الأوتاد، ووصف بذلك لأنه إما أن يكون كان يعذّب الناس بها، كما قال أبو رافع وسعيد بن جُبير، وإما أن يكون كان يُلعب له بها".

قوله تعالى: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١١- ١٤]

أي: هؤلاء الذين استبدُّوا، وظلموا في بلاد الله، فأكثروا فيها بظلمهم الفساد، فصب عليهم ربُّك عذابا شديدا. إنَّ ربك -أيها الرسول- لبالمرصاد لمن يعصيه، يمهله قليلا ثم يأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر.

قوله تعالى: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: ١١]، أي:"هؤلاء الذين استبدُّوا، وظلموا في بلاد الله".

=

=

قال ابن كثير:"أي: تمردوا وعتوا".

قال الطبري: يعني: "عادًا وثمود وفرعون وجنده، تجاوزوا ما أباحه لهم ربهم، وعتوا على ربهم إلى ما حظره عليهم من الكفر به {فِي الْبِلادِ} التي كانوا فيها".

قال مقاتل:"جمع عادا وثمود وفرعون، فقال: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ}، يعني: الذين عملوا فيها بالمعاصي".

قوله تعالى: {فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} [الفجر: ١٢]، أي:"فأكثروا فيها بظلمهم الفساد".

قال السدي:"بالمعاصي".

قال ابن كثير:"وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس".

قال الطبري: **"**فأكثروا في البلاد المعاصي، وركوب ما حرّم الله عليهم".

قال مقاتل:"يقول: فأكثروا فيها المعاصي".

قوله تعالى: {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر: ١٣]، أي:"فصب عليهم ربُّك عذابا شديدا".

قال الطبري: **"**فأنزل بهم يا محمد ربك عذابه، وأحلّ بهم نقمته، بما أفسدوا في البلاد، وطغَوْا على الله فيها".

قال ابن كثير:"أي: أنزل عليهم رجزا من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين".

وفي قوله تعالى: {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر: ١٣]، وجوه:

أحدها: خلط عذاب، وهو ما خلط لهم من أنواع العذاب، بعضها ببعضٍ، كقوله: {فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ وآخر من شكله أزواجٌ} [ص: ٥٦- ٥٧]، حكاه الماوردي، ومنه قول الآخر :

أحارثُ إنّا لو تُساطُ دماؤنا... تَزَيّلْنَ حتى لا يَمسَّ دَمٌ دَمَا

=

=

قال البيضاوي:"{سَوْطَ عَذَابٍ}: هو ما خلط لهم من أنواع العذاب، وأصله: الخلط، وإنما سمي به الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض".

الثاني: أي: عذاب يخالط اللحم والدم، من قولهم: يسوطه سوطا، أي: خلطه، فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض، قاله ابن عيسى، ومنه قول كعب بن زهير :

لكِنَّها خُلَّةٌ، قدْ سِيطَ مِنْ دَمِها... فَجْعٌ وَوَلْعٌ، وإِخْلافٌ وتَبْدِيلُ

قال السمين الحلبي:"السوط: في الأصل مصدر ساطه يسوطه، أي: خلطه.. فسمي به هذه الآلة المعروفة التي يعاقب بها، وهو ما يضفر من الجلود لأنه يخلط اللحم بالدم. فقوله: {سوط عذابٍ} على التشبيه بما يعرفون ألمه وإيجاعه، وإلا فشتان ما بين السوطين! وما أبلغ هذه الاستعارة عند أهل الذوق! وقيل: سمي سوطًا لاختلاط طاقاته بعضها ببعضٍ".

قال الراغب:"السَّوْطُ: الجلد المضفور الذي يضرب به، وأصل السَّوْطِ: خلط الشيء بعضه ببعض، يقال: سُطْتُهُ وسَوَّطْتُهُ، فالسّوط يسمّى سوطا لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض".

الثالث: أن هذا على الاستعارة، لأنّ السوط عندهم غاية العذاب، فجرى ذلك لكلّ عذاب، حكاه الثعلبي، قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِيْنَهُ... وَصَبَّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ

قال القشيري:"أي: شدة العذاب".

وقال أبو الليث:"يعني: شديد العذاب حتى أهلكهم".

قال الشوكاني:"قيل: ذكر «السوط» للدلالة على شدة ما نزل بهم، وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به".

=

=

الرابع: قسط عذاب، كالعذاب بالسوط الذي يعرف إلا أنه أعظم، قاله ابن عيسى، وابن فورك، وابن أبي زمنين.

وقال غلام ثعلب:"قِطْعَة عَذَاب".

قال الشوكاني:"معنى «سوط عذاب»: نصيب عذاب".

وقال السدي:"أي: "كلّ يوم لون آخر من العذاب".

وعن قتادة:"يعني: "لونا من العذاب صبّه عليهم".

وعن عمرو بن عبيد:"كان الحسن: إذا قرأ هذه الآية، قال: إن عند الله أسواطا كثيرة، فأخذهم بسوط منها".

الخامس: أنه وجع من العذاب، قاله السدي.

السادس: أن العذاب الذي عذّبهم به سماه: سوط عذاب، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

عن مجاهد: {سَوْطَ عَذَابٍ}، قال: ما عذّبوا به".

وقال قتادة: "كان سوط عذاب هو الغرق".

قال قتادة:"كلّ شيء عذّب اللهُ به فهو سَوْط عذاب".

قال الفراء:"هذه كلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب، تدخل فيه السوط. جرى به الكلام والمثل. ونرى ذلك: أن السوط من عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذ كان فيه عندهم غاية العذاب".

السابع: يعني: نقمته، وكانت نقمته عذابا. قاله مقاتل.

الثامن: أنهم كانوا يعدون الضرب بالسياط إلى أن يموت أشد العذاب، فذكر العذاب بذكر «السوط» -هاهنا-، على معنى أنه بلغ النهاية في عذابهم. حكاه السمعاني.

=

وحكي الماتريدي: أنه" عذبهم بسوطهم الذي كانوا به يعذبون الخلق، ويضربونهم".

قال الزمخشري:"يقال: صب عليه السوط، وغشاه وقنعه، وذكر السوط: إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّلهم في الآخرة، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به".

قال ابن عطية:"«الصب» يستعمل في السوط لأنه يقتضي سرعة في النزول.. وإنما خص «السوط» بأن يستعار للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤]، أي:"إنَّ ربك -أيها الرسول- لبالمرصاد لمن يعصيه، يمهله قليلا ثم يأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر".

عن الضحاك في هذه الآية، قال: إذا كان يوم القيامة، يأمر الربّ بكرسيه، فيوضع على النار، فيستوي عليه، ثم يقول: وعزّتي وجلالي، لا يتجاوزني اليوم ذو مَظلِمة، فذلك قوله: {لَبِالْمِرْصَاد}".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤]، وجوه من التفسير: :

أحدها: أي: بالانتظار، وهو معنى قول أبو بكر الأصم، والفراء، كما قال طرفة :

أَعَاذِلُ إنّ الجَهْلَ من لَذّةِ الفتى،... وإنّ المَنَايَا للرّجَالِ بِمَرْصَدِ

قال أبو بكر الأصم: "يرصد عذابه بأعدائه ينتظر به آجالهم، ثم يوقع بهم العذاب إذا أتى الأجل".

قال الفراء:"يقول: إليه المصير".

قال السدي:"السُّدِّيّ: أرصد النار على طريقهم حتّى يهلكهم".

الثاني: أي: بالطريق المعلم الذي يرتصدون به، فلا يجاوزه ظلم ظالم، ولا يفوته هارب. وهو معنى قول سفيان بن عيينة، وعمرو بن قيس، ومقاتل.

=

قال مقاتل:"يعني: بالصراط، وذلك أن جهنم عليها سبع قناطر، كل قنطرة مسيرة سبعين عاما، على كل قنطرة ملائكة قيام، وجوههم مثل الجمر، وأعينهم مثل البرق، بأيديهم المحاسر والمحاجن والكلاليب يسألون في أول قنطرة عن الإيمان، وفي الثانية، يسألون عن الصلوات الخمس، وفي الثالثة، يسألون عن الزكاة، وفي الرابعة، يسألون عن صوم رمضان، وفي الخامسة، يسألون عن حج البيت، وفي السادسة، يسألون عن العمرة، وفي السابعة، يسألون عن مظالم الناس، فذلك قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}".

عن سفيان: "{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، يعني: جهنم عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرحمة، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الربّ تبارك وتعالى".

عن الضحاك في هذه الآية، قال: "إذا كان يوم القيامة، يأمر الربّ بكرسيه، فيوضع على النار، فيستوي عليه، ثم يقول: وعزّتي وجلالي، لا يتجاوزني اليوم ذو مَظلِمة، فذلك قوله: {لَبِالْمِرْصَاد}".

عن سالم بن أبي الجعد، في قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ}، قال: "إنّ لجهنم ثلاث قناطر؛ قنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرَّحِم، وقنطرة فيها الرّبّ -تبارك وتعالى- ، وهي المرصاد، لا ينجو منها إلا ناجٍ، فمَن نجا مِن ذينك لم ينج مِن هذا".

عن عمرو بن قيس -من طريق الحكم بن بشير- قال: "بلغني: أنّ على جهنم ثلاث قناطر؛ قنطرة عليها الأمانة، إذا مَرُّوا بها تقول: يا ربّ، هذا أمين، يا ربّ، هذا خائن. وقنطرة عليها الرَّحِم، إذا مَرُّوا بها تقول: يا ربّ، هذا واصل، يا ربّ، هذا قاطع. وقنطرة عليها الرّبّ: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ}".

عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عبد الكلاعي: أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول: "إن لجهنم سبع قناطر- قال: والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى، فيقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، قال:

=

فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها، قال: فيهلك فيها من هلك، وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها، وكيف خانوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصَلُوها وكيف قطعوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. قال: والرحم يومئذ متدلية إلى الهُويّ في جهنم تقول: اللهم من وصلني فَصِلْه، ومن قطعني فاقطعه. قال: وهي التي يقول الله ﷻ: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}".

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: "يا معاذ، إن المؤمن لدى الحق أسير. يا معاذ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلَّف جسر جهنم خلف ظهره. يا معاذ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله، ﷻ، فالقرآن دليله، والخوف محجته، والشوق مطيته، والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياء وزيره، وربه، ﷻ، من وراء ذلك كله بالمرصاد" ولكنه حديث ضعيف.

الثالث: يعني: أنه يرصد عليهم ما عملوا، فلا يشتد عليه، ولا يعزب عنه شيء من علمهم؛ بل يحفظ عليهم ما استتر منه وما ظهر. وهو معنى قول ابن عباس، والحسن.

قال النحاس:"من أحسن ما قيل فيه إنه مجاز، أي: يرصد أعمال العباد، أي: لا يفوته شيء".

قال الزجاج:"أي: يرصدا من كفر به وعبد غيره بالعذاب".

قال ابن الجوزي:"أي: يرصد مَنْ كفر به بالعذاب، والمرصد: الطريق".

قال ابن كثير:"يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والآخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور".

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥).

{فَأَمَّا الْإِنْسَان} الْكَافِر {إِذَا مَا ابْتَلَاهُ} اِخْتَبَرَهُ {رَبّه فَأَكْرَمَهُ} بِالْمَالِ وَغَيْره {وَنَعَّمَهُ فَيَقُول رَبِّي أكرمن}.

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦).

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ} ضَيَّقَ {عَلَيْهِ رِزْقه فَيَقُول رَبِّي أَهَانَن}.

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧).

{كَلَّا} رَدْع أَيْ لَيْسَ الْإِكْرَام بِالْغِنَى وَالْإِهَانَة بِالْفَقْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَة وَكُفَّار مَكَّة لا ينتبهون لذلك {بل لا يكرمون الْيَتِيم} لَا يُحْسِنُونَ إِلَيْهِ مَعَ غِنَاهُمْ أَوْ لا يعطونه حق من الميراث.

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨).

{ولا يحضون} أَنْفُسهمْ أَوْ غَيْرهمْ {عَلَى طَعَام} أَيْ إِطْعَام {المسكين}.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩).

{ويأكلون التراث} الْمِيرَاث {أَكْلًا لَمًّا} أَيْ شَدِيدًا لِلَمِّهِمْ نَصِيب النِّسَاء وَالصِّبْيَان مِنْ الْمِيرَاث مَعَ نَصِيبهمْ مِنْهُ أو مع مالهم.

=

عن ابن عباس: "{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، يقول: يَرى ويسمع".

عن الحسن: "{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، قال: بمرصاد أعمال بني آدم".

قال عطاء بن أبي رباح: "لا يفوته أحد".

وقال الطبري:"إن ربك يا محمد لهؤلاء الذين قصصت عليك قَصَصَهم، ولِضُرَبائهم من أهل الكفر، لبالمِرصاد يرصدهم بأعمالهم في الدنيا وفي الآخرة، على قناطر جهنم، ليكردسهم فيها إذا وردوها يوم القيامة".

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠).

{ويحبون الْمَال حُبًّا جَمًّا} أَيْ كَثِيرًا فَلَا يُنْفِقُونَهُ وَفِي قِرَاءَة بِالْفَوْقَانِيَّةِ فِي الْأَفْعَال الْأَرْبَعَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ} [الفجر: ١٥]، أي:"فأما الإنسان إذا ما اختبره ربه بالنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش".

(فأما الإنسان) المراد جنس الإنسان. (إذا ما ابتلاه ربه) أي: إذا ما امتحنه ربه واختبره. والابتلاء الاختبار، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون).

(فأكرمه ونعمه) بالأموال والأولاد والصحة وغير ذلك.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنى {فأكْرَمَهُ} بالمال، وأفضل عليه، {وَنَعَّمَهُ} بما أوسع عليه من فضله".

قال ابن عطية:"{ابْتَلاهُ}، معناه: اختبره، {ونَعَّمَهُ}، معناه: جعله ذا نعمة".

قال سهل:"يعني: بعض المؤمنين إذا اختبره ربه".

قوله تعالى: {فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر: ١٥]، أي:"فيظن أن ذلك لكرامته عند ربه، فيقول: ربي أكرمن".

أي: فبدل أن يشكر نعمة الله عليه ويعترف بها، يظن أن هذا الإكرام والتنعيم الدنيوي إكرام من الله له فيغتر بذلك، وأنه إنما أوتي ذلك لأنه أهل له، وما علم أن ذلك قد يكون استدراجا له كما قال تعالى عن قارون أنه قال (قال إنما أوتيته على علم عندي).

قال الطبري:"فيفرح بذلك ويسرّ به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة".

قال السمعاني:"أي: أنا كريم عليه حيث أعطاني هذه النعم".

=

=

قال ابن كثير:"فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]".

قال سهل:"بما أعطاني من السعة والرزق وذلك له استدراج واغترار.. ومنهم من يزين له ما هو فيه ومنهم من تغلبه الشهوة".

عن قتادة:"{وأمّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِ}: ما أسرع كفر ابن آدم، يقول الله -جلّ ثناؤه-: كلا إنّي لا أُكرِم مَن أكرمتُ بكثرة الدنيا، ولا أُهين مَن أهنتُ بقِلّتها، ولكن إنما أُكرِم مَن أكرمتُ بطاعتي، وأُهين مَن أهنتُ بمعصيتي".

عن قتادة، قوله: "{فَأَمَّا الإنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}، وحقّ له".

قال مجاهد:"ظنَّ كرامةَ الله في كثرة المال، وهوانه في قِلّته، وكذب، إنما يُكرم بطاعته مَن أكرم، ويُهين بمعصيته مَن أهان".

قال الحسن: "لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يفسد عمله".

قوله تعالى: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ} [الفجر: ١٦]، أي:"وأما إذا ما اختبره، فضيَّق عليه رزقه".

قال الطبري:"يقول: وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر، فضيَّق عليه رزقه وقَتَّره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه".

قال ابن كثير:"إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق".

عن ابن زيد:"{فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ}، قال: ضيقه عليه".

قوله تعالى: {فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر: ١٦]، أي:"فيظن أن ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربي أهانن".

=

=

قال الطبري:"فيقول ذلك الإنسان: ربي أهانني، يقول: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه من العافية في جسمه".

قال ابن كثير:"يعتقد أن ذلك من الله إهانة له".

قال الثعلبي: يقول: "أذلني بالفقر، ولم يشكر الله تعالى على ما أعطاه من سلامة الجوارح، ورزقه من العافية والصحة".

عن ابن زيد: "{فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ}، قال: ضَيَّقه".

عن قتادة: "{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}، ما أسرع كفر ابن آدم، يقول الله -جلّ ثناؤه-: كلا إنّي لا أُكرِم مَن أكرمتُ بكثرة الدنيا، ولا أُهين مَن أهنتُ بقِلّتها، ولكن إنما أُكرِم مَن أكرمتُ بطاعتي، وأُهين مَن أهنتُ بمعصيتي".

قال ابن الجوزي: واعلم أن من لا يؤمن بالبعث، فالكرامة عنده زيادة الدنيا، والهوان قلتها.

وقال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث: وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره. قلت: الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا لم يعطينه الله.

قال الرازي: فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمني، وإن لم يجد هذه الراحة يقول: ربي أهانني، ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)

=

=

وقال (ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقيا في الآخرة فذاك التنعم ليس بسعادة.

وثانيها: أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيرا ما يوسع على العصاة والكفرة، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإما يحكم المصلحة، وإما على سبيل الاستدراج والمكر، وقد يضيق على الصديقين لأضداد ما ذكرنا، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة

وثالثها: أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة، فالأمور بخواتيمها، والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقا.

ورابعها: أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها، أما إذا لم يحصل للإنسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى الله، واشتغلت بعبودية الله فكان وجدان الدنيا سببا للحرمان من الله، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا، مع أن ذلك أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات.

- **قال ابن عاشور**: وهذا التوهم يستلزم ظنهم أفعال الله تعالى جارية على غير حكمة قال تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما

=

=

أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ).

وقرأ أبو جعفر: «فَقَدَّرَ» بالتشديد.

قوله تعالى: {كَلَّا} [الفجر: ١٧]، أي:"ليس الأمر كما يظن هذا الإنسان، بل الإكرام بطاعة الله، والإهانة بمعصيته".

فليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإن كان فقيرا بأن يصبر.

فالشأن كل الشأن في توفيق الله للعبد كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقد قال ﷺ (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب) رواه أحمد.

وفي قوله تعالى «كَلَّا» في هذا الموضع، وجهان:

احدهما: أنه تعالى أنكر أن يكون سبب كرامته من أكرم كثرة ماله، وسبب إهانته من أهان قلة ماله. قله الحسن، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، واختيار الطبري.

عن الحسن في قوله {فَأَمَّا الْإِنْسَان} [الفجر: ١٥]، الآية، قال: «كلا» أكذبتهما جميعا ما بالغنى أكرمك، ولا بالفقر أهانك، ثم أخبرهم بما يهين «كَلَّا بَلْ لَا يكْرِمُونَ الْيَتِيمَ»، الآية".

قال مجاهد:"ظن كرامة الله في المال، وهو أنه في قتله، وكذب، إنما يكرم بطاعته، ويهين بمعصيته، من أهان".

=

=

قال قتادة:"ما أسرع ما كفر ابن آدم، يقول الله جلّ ثناؤه: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأُهينُ من أهنت بمعصيتي".

قال مقاتل:"يقول: كلا ما أغنيت هذا الغني لكرامته، ولا أفقرت هذا الفقير لهوانه علي، ولكن كذلك أردت أن أحسن إلى هذا الغني في الدنيا، وأهون على هذا الفقير حسابه يوم القيامة".

الثاني: أنه الله تعالى أنكر حمد الإنسان ربه على نِعمه دون فقره، وشكواه الفاقة، ومعنى الآية، كلا: أي: لم يكن ينبغي أن يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمده على الأمرين جميعا، على الغنى والفقر. وهذا قول الفراء.

قال الفراء:"{كلا}: لم يكن ينبغي له أن يكون هكذا، ولكن يحمده على الأمرين: على الغنى والفقر".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن قتادة لدلالة قوله: {بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} والآيات التي بعدها، على أنه إنما أهان من أهان بأنه لا يكرم اليتيم، ولا يَحُضّ على طعام المسكين، وسائر المعاني التي عدّد، وفي إبانته عن السبب الذي من أجله أهان من أهان، الدلالة الواضحة على سبب تكريمه من أكرم، وفي تبيينه ذلك عَقيب قوله: {فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}، بيان واضح عن الذي أنكر من قوله ما وصفنا".

قال ابن كثير:"{كَلا}، أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر".

=

=

قال ابن عطية: "{كَلَّا} ردّا على قولهم ومعتقدهم، أي: ليس إكرام الله تعالى وإهانته، في ذلك، وإنما ذلك ابتلاء فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر، وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى، وإهانته فبالمعصية... ذكر الله تعالى في هذه الآية: ما كانت قريش تقوله تستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن من عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم، وبضده المهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالبا على كثيرين من الكفار، جاء التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس، إذ يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع، ومن ذلك حديث الأعراب الذين كانوا يقدمون المدينة على النبي ﷺ، فمن نال خيرا قال هذا دين حسن، ومن ناله شر قال هذا دين سوء".

قال الخازن: (كلا) أي ليس الأمر كذلك، أي لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق وقلته، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جل جلاله وحكمته فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، لكن لأمر اقتضته حكمة الله تعالى، وإنما يكرم المرء بطاعته، ويهينه بمعصيته، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره، أيشكر أم يكفر، ويضيق عليه ليختبره، أيصبر أم يضجر، ويقلق.

- **قال ابن عاشور:** وقد تكرر في القرآن التعرض لإبطال ذلك كقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون).

وقد تضمن هذا الوهم أصولا انبنى عليها، وهي: إنكار الجزاء في الآخرة، وإنكار الحياة الثانية، وتوهم دوام الأحوال.

قوله تعالى: {بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} [الفجر: ١٧]، أي:"وأنتم لا تكرمون اليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، ولا تحسنون معاملته".

=

=

فاليتيم الذي فقد أباه وكاسيه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه، فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير.

- وفي الآية تعظيم حق اليتيم وترغيب في إكرامه، وقد عظم الله حق اليتيم.

فقال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن).

وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا).

وقال ﷺ (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا) متفق عليه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: بل إنما أهنت من أهَنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم".

قال ابن عطية:"ثم أخبرهم بأعمالهم من أنهم لا يكرمون اليتيم وهو من بني آدم الذي فقد أباه وكان غير بالغ. ومن البهائم ما فقد أمه".

قال السعدي:"فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: {كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه. فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير".

قال ابن كثير:"فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله ابن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي عتاب عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه،

=

=

وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه" ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» ".

عن سهل- يعني ابن سعد- أن رسول الله ﷺ قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة". وقرن بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام".

قوله تعالى: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر: ١٨]، أي:"لا يَحُثُّ بعضكم بعضًا على إطعام المحتاج الذي لا يملك ما يكفيه ويسد حاجته".

والمسكين هو المحتاج الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئا، وهو الفقير، وسمي مسكينا لأن الفقر أسكنه وأذله.

ونفى الحض على إطعامهم، نفى لإطعامهم من باب أولى، وفي ذلك زيادة لمذلتهم، لأنهم لا يطعمون، ولا يحضون غيرهم عليه، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الرحمة والعطف.

- قوله تعالى (ولا تحاضون على طعام المسكين) ولم يقل: ولا تطعمون المسكين، والحكمة- والله أعلم- أن كل إنسان يستطيع الحث على إطعام المسكين، لكن قد يكون هناك الكثير من الناس لا يقدرون على إطعام المسكين بأنفسهم لفقرهم.

- قال في التسهيل: الحض على الأمر هو الترغيب فيه، ومن لا يحض غيره على أمر فلا يفعله هو، كأنه ذم لترك طعام المسكين.

قال ابن عاشور: لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفع وساطة.

قال ابن كثير:"يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك".

قال السعدي:"أي: لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المحاويج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب".

=

=

قال الزمخشري:"قال: بل هناك شرّ من القول، وهو: أنّ الله يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة، وحض أهله على طعام المسكين".

القراءة العامة: «تَحَاضُّونَ»، بالتاء وفتحها وإثبات الألف فيها، بمعنى: ولا يحضّ بعضكم بعضًا على طعام المسكين، وقرئ «وَلا تَحُضُّون»، بمعنى: ولا تأمرون بإطعام المسكين، وقرئ «يَحُضُّون»، بالياء وحذف الألف بمعنى: ولا يكرم القائلون إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ربي أكرمني، وإذا قدر عليه رزقه ربي أهانني- اليتيم-.

عن عبد الرحمن بن عوف:"أن النبي ﷺ قرأ «بل لا يكرمون اليتيم ولا يحضون»، بالياء".

قوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} [الفجر: ١٩]، أي:"وتأكلون حقوق الآخرين في الميراث أكلا شديدًا".

عن الحسن، وقتادة: "{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا}، أي: الميراث".

وفي قوله تعالى: {لَمًّا} [الفجر: ١٩]، أربعة وجوه:

أحدها: يعني: أكلا شديداً، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

وقال الفراء:"كثيرا".

قال الطبري:"وتأكلون أيها الناس الميراث أكلا شديدًا لا تتركون منه شيئا".

الثاني: يعني: جمعـًا، من قولهم لممت الطعام لَمّـًا، إذا أكلته جمعـًا، قاله الحسن، وبكر بن عبد الله، وعكرمة، وأبو عبيدة.

عن الحسن: "{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا} ـ قال: نصيبه ونصيب صاحبه".

قال أبو عبيدة:"تقول: لممته أجمع. أي: أتيت على آخره".

=

=

قال بكر بن عبد الله:"اللمّ: الاعتداء في المِيراث، يأكل ميراثه وميراث غيره".
وروي ابن أبي حاتم عن عكرمة بن عبد الله المزني مثل ذلك.
الثالث: معناه: سفه سفاً، قاله مجاهد، ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
قال مجاهد:"اللمّ السفّ، لفّ كل شيء".
عن ابن عباس: "{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا}، يقول: سَفًّا".
الرابع: هو أنه إذا أكل مال نفسه ألمّ بمال غيره فأكله، ولا يتفكر فيما أكل من خبيث وطيب، قاله الحسن، وابن زيد.
عن الحسن:"{أَكْلا لَمًّا}، قال: من طيب أو خبيث".
قال ابن زيد:"الأكل اللم الذي يلم كل شيء يجده لا يسأل عنه يأكل الذي له والذي لصاحبه، لا يدري أحلالا أم حراما؟".
قال ابن زيد:"الأكل اللمّ: الذي يأكل كلّ شيء يجده ولا يسأل، فأكل الذي له والذي لصاحبه، كانوا لا يُوَرِّثون النساء، ولا يورّثون الصغار، وقرأ: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ}، أي: لا تورِّثونهنّ أيضا، {أَكْلا لَمًّا}، يأكل ميراثه، وكلّ شيء لا يسأل عنه، ولا يدري أحلال أو حرام".
قال ابن كثير:"{أَكْلا لَمًّا}، أي: من أي جهة حصل لهم، من حلال أو حرام".
قال ابن عطية:"قيل: كانوا لا يورّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم".
و جاء في التفسير الوسيط: بيان لرذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة. والتراث: هو المال الموروث عن الغير، والمراد بالأكل مطلق الانتفاع، وخص الأكل بالذكر، لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية... أي: ومن صفاتكم القبيحة أنكم

=

=

تأكلون المال الموروث عن غيركم، أكلا شديدا، بحيث لا تتركون منه شيئا، ولا تفرقون بين ما هو حلال أو حرام، ولا بين ما يحمد وما لا يحمد، بل تأخذون حقوقكم وحقوق غيركم من النساء والصبيان.

قوله تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ٢٠].

أي: حبا كثيرا مع الحرص والشره، ولا تؤدونه حقوقه، وفي هذا ذم لهم، وفيه إشارة إلى أن المحبة الطبيعية للمال لا بأس بها.

وفي قوله تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ٢٠]، وجهان:

أحدهما: يعني: حبا شديدا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، و «الجمّ» الكثير، قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمَّا

وقال أبو عبيدة:"كثيرا شديدا".

قال الطبري: أي:"وتحبون جمع المال أيها الناس واقتناءه حبا كثيرا شديدا، من قولهم: قد جمّ الماء في الحوض: إذا اجتمع، ومنه قول زُهير بن أبي سلمى:

فَلَمَّا ورَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمامُهُ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحاضِرِ المُتَخَيَّمِ".

عن ابن عباس والضحاك: "{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}، فيحبون كثرة المال".

قال ابن زيد:"الجمّ: الشديد".

وقال مجاهد:"الجمّ: الكثير".

الثاني: فاحشـًا، تجمعون حلاله إلى حرامه، قاله الحسن.

عن الحسن:"{حُبًّا جَمًّا}، قال: فاحشا".

عن سفيان: "أنه قال في قوله: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ومال وارثه أحب إليه من ماله. قالوا يا رسول الله: ما منا إلا

=

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١).

{كَلَّا} رَدْع لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ {إِذَا دُكَّتْ الْأَرْض دَكًّا دَكًّا} زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِم كُلّ بِنَاء عَلَيْهَا وَيَنْعَدِم.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢).

{وَجَاءَ رَبّك} أَيْ أَمْره {وَالْمَلَك} أَيْ الْمَلَائِكَة {صَفًّا صَفًّا} حَال أَيْ مُصْطَفِّينَ أَوْ ذَوِي صفوف كثيرة.

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣).

{وَجِيءَ يَوْمئِذٍ بِجَهَنَّم} تُقَاد بِسَبْعِينَ أَلْف زِمَام كُلّ زِمَام بِأَيْدِي سَبْعِينَ أَلْف مَلَك لَهَا زَفِير وَتَغَيُّظ {يَوْمئِذٍ} بَدَل مِنْ إِذَا وَجَوَابهَا {يَتَذَكَّر الْإِنْسَان} أَيْ الْكَافِر مَا فَرَّطَ فِيهِ {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} اِسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي أَيْ لَا يَنْفَعهُ تَذَكُّره ذَلِكَ.

يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤).

{يقول} مع تذكره {يا} للتنبيه {ليتني قَدَّمْت} الْخَيْر وَالْإِيمَان {لِحَيَاتِي} الطَّيِّبَة فِي الْآخِرَة أَوْ وَقْت حَيَاتِي فِي الدُّنْيَا.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥).

{فَيَوْمئِذٍ لَا يُعَذِّب} بِكَسْرِ الذَّال {عَذَابه} أَيْ الله {أَحَد} أَيْ لَا يَكِلهُ إِلَى غَيْره.

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦).

{و} كذا {لَا يُوثِق} بِكَسْرِ الثَّاء {وَثَاقه أَحَد} وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ الذَّال وَالثَّاء

=

وماله أحب إليه من مال وارثه. قال: ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت».

فَضَمِير عَذَابه وَوَثَاقه لِلْكَافِرِ وَالْمَعْنَى لَا يُعَذَّب أَحَد مِثْل تَعْذِيبه وَلَا يُوثَق مِثْل إيثَاقه.

يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧).

{يَا أَيَّتهَا النَّفْس الْمُطْمَئِنَة} الْآمِنَة وَهِيَ الْمُؤْمِنَة.

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨).

{اِرْجِعِي إِلَى رَبّك} يُقَال لَهَا ذَلِكَ عِنْد الْمَوْت أَيْ اِرْجِعِي إِلَى أَمْره وَإِرَادَته {رَاضِيَة} بِالثَّوَابِ {مَرْضِيَّة} عِنْد الله بِعَمَلِك أَيْ جَامِعَة بَيْن الْوَصْفَيْنِ وَهُمَا حَالَانِ وَيُقَال لَهَا فِي القيامة.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩).

{فَادْخُلِي فِي} جُمْلَة {عِبَادِي} الصَّالِحِينَ.

وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠).

{وادخلى جنتي} معهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ قال: "من يشتري بئر رومة نستعذب بها؛ غفر الله له؟ "؛ فاشتراها عثمان، فقال النبي ﷺ: "هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟ "، قال: نعم؛ فأنزل الله -تعالى- في عثمان: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)} الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥١٣)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٩) وقال: "وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به".

وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر؛ متروك.

=

=

الثانية: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وعن بريدة في قوله -تعالى-: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)}؛ قال: نزلت في حمزة.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٨، ٢٢٩)، و"الدر المنثور" (٨/ ٥١٤) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله -تعالى-: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)}؛ قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥١٣، ٥١٤) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢١- ٢٢]

أي: ما هكذا ينبغي أن يكون حالكم. فإذا زلزلت الأرض وكَسَّر بعضُها بعضًا، وجاء ربُّك لفصل القضاء بين خلقه، والملائكة صفوفًا صفوفًا.

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة والكروب الشديدة، فقال تعالى (كلا) أي حقا (إذا دكت الأرض دكا دكا) أي: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

قوله تعالى: {كَلَّا} [الفجر: ٢١]، أي:"ما هكذا ينبغي أن يكون حالكم".

قال الزمخشري:"{كَلَّا}: ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم".

قال الطبري: أي:"ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر".

قال عمر مولى غُفْرة: "إذا سمعت الله يقول: «كلا»، فإنما يقول: كذبت".

وقال ابن كثير:"يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال: {كَلا}، أي: حقا".

=

=

قال السعدي:"{كَلا} أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بباق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم".

قوله تعالى: {إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر: ٢١]، أي:"فإذا زلزلت الأرض وكَسَّر بعضُها بعضًا".

قال الزمخشري: أي:"دكا بعد دك. كقوله: حسبته بابا بابا، أي: كرّر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا".

قال السمعاني:"أي: فتت ودقت".

قال السعدي:"تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت".

قال الطبري: "يعني: إذا رجت وزُلزلت زلزلة، وحرّكت تحريكا بعد تحريك".

وقال ابن كثير:"أي: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم".

قال ابن عطية:"دكّ الأرض: تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدكاء: التي لا سمن لها".

عن ابن عباس: "{إِذَا دُكَّتِ الأرْضُ دَكًّا دَكًّا}، يقول: تحريكها".

قال الربيع بن أنس:"تحمل الأرض والجبال فيدك بعضها على بعض".

قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢]، أي:"وجاء ربُّك لفصل القضاء بين خلقه، والملائكة صفوفًا صفوفًا".

وفيه إثبات المجيء لله إثباتا يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تمثيل ولا تشبيه.

وقول المصنف ({وَجَاءَ رَبّك} أَيْ أَمْره) تأويل وهو خطأ تقدم التنبيه عليه مرارا.

قال محمد بن السّائِب الكلبي: "{وجاءَ رَبُّكَ} ينزل".

=

=

قال الطبري: أي:"وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفا صفا بعد صفّ".

قال السعدي:"ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار".

قال ابن كثير:"{وَجَاءَ رَبُّكَ} يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول: "أنا لها، أنا لها". فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة "سبحان" فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا".

عن قتادة: "{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}، صفوف الملائكة".

قال عطاء:"يريد: صفوف الملائكة، وأهل كلّ سماء صفٌّ على حِدة".

قال السدي:"يعني: صفوف الملائكة، كلّ أهل سماء على حِدة".

قال الضحاك:"جاء أهل السماوات كل سماء صفا".

قال السمعاني:"قوله: {وَجَاء رَبك}، هو من المتشابه الذي يؤمن به ولا يفسر، وقد أول بعضهم: وجاء أمر ربك، والصحيح ما ذكرنا".

قال ابن عطية:"وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه".

قال منذر بن سعيد: "معناه: ظهوره للخلق هنالك ليس مجيء نقلة وكذلك مجيء الصاخة ومجيء الطامة".

=

=

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟

قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك محال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم صَفًّا صَفًّا ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس".

قوله تعالى: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [الفجر: ٢٣]، أي:"وجيء في ذلك اليوم العظيم بجهنم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وجاء الله يومئذ بجهنم".

قال السعدي:"تقودها الملائكة بالسلاسل".

عن قتادة: "{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، قال: جيء بها مزمومة". وروي عن أبي وائل مثله.

قال قتادة:"جَنبَتَيْه الجنة والنار، قال: هذا حين ينزل مِن عرشه إلى كرسيه لحساب خَلْقه. وقرأ: {وجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}".

وروى مسلم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها».

قال أبو وائل:"يُجاء بها يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك".

قال ابن وهب قال: "أخبرني العطاف بن خالد في قول الله: {وجيء يومئذٍ بجهنم}، قال: يقال: يؤتى بجهنم يوم القيامة، يأكل بعضها بعضا يقودها سبعون ألف ملك، فإذا رأت الناس، فذلك قول الله: {إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها

=

تغيظا وزفيرا}، قال: فإذا رأيتم زفرت زفرة فلا يبقى نبيٌ ولا صديقٌ إلا برك لركبتيه، يقول: يا رب، نفسي، نفسي، ويقول رسول الله: يا رب، أمتي، أمتي".

عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: "تنزل الملائكة من السموات، فتحيط بأقطار الأرض، ويجاء بجهنم، فإذا رأوها هالتهم، فندوا في الأرض كما تند الإبل، فلا يتوجهون قطرا إلا رأوا ملائكة فيرجعون من حيث جاءوا، وذلك قوله: «{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. } [الرحمن: ٣٣] وذلك قوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢]، {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّم} [الفجر: ٢٣]، وذلك قوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: ٢٥]".

قال مقاتل: "يجاء بها من مسيرة خمسمائة عام، عليها سبعون ألف زمام على كل زمام سبعون ألف ملك، متعلقون بها يحبسونها عن الخلائق، وجوههم مثل الجمر، وأعينهم مثل البرق، فإذا تكلم أحدهم تناثرت من فيه النار بيد كل ملك منهم مرزبة، عليها ألفان وسبعون رأسا كأمثال الجبال، وهي أخف في يده من الريش، ولها سبعة رءوس كرءوس الأفاعي، وأعينهم زرق، تنظر إلى الخلائق من شدة الغضب تريد أن تنفلت على الخلائق من غضب الله ﷻ، ويجاء بها حتى تقام على ساق العرش".

قال ابن عاشور: "وإنما اقتصر على ذكر جهنم لأن المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا وإلا فإن الجنة أيضا محضرة يومئذ قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين)".

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ} [الفجر: ٢٣]، أي:"يومئذ يتعظ الكافر ويتوب".

قال ابن كثير:"أي: عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه".

=

قال ابن الجوزي: أي: "يوم يجاء بجهنم يتّعظ الكافر ويتوب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يومئذ يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة الله، وفيما يقرّب إليه من صالح الأعمال".

قال الزجاج:"يومئذ يظهر الإنسان التوبة".

قال الضحاك:"يريد التوبة".

قال مقاتل: "يعني: أمية بن خلف الجمحي إذا عاين النار والملائكة".

قوله تعالى: {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]، أي:"وكيف ينفعه الاتعاظ والتوبة، وقد فرَّط فيهما في الدنيا، وفات أوانهما؟".

قال مقاتل: "يعني: ومن أين له التذكرة في الآخرة؟ وقد كفر بها في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: وكيف تنفعه الذكرى؟".

قال الطبري:"يقول: من أيّ وجه له التذكير".

قال ابن الجوزي: "أي: كيف له بالتوبة وهي في القيامة لا تنفع".

عن ابن عباس: "{وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}، يقول: وكيف له".

قوله تعالى: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]، أي:"يقول: يا ليتني قدَّمتُ في الدنيا من الأعمال ما ينفعني لحياتي في الآخرة".

قال ابن كثير:"يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي- إن كان عاصيا- ويود لو كان ازداد من الطاعات- إن كان طائعا -".

قال ابن الجوزي: أي:"{قَدَّمْتُ} العمل الصالح في الدنيا لِحَيَاتِي في الآخرة التي لا موت فيها".

قال الفراء:"لآخرتي التي فيها الحياة والخلود".

قال الزجاج:"أي: لدار الآخرة التي لا موت فيها".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن تلهُّف ابن آدم يوم القيامة، وتندّمه على تفريطه في الصَّالِحات من الأعمال في الدنيا التي تورثه بقاء الأبد في نعيم لا انقطاع له، يا ليتني قدمت لحياتي في الدنيا من صالح الأعمال لحياتي هذه، التي لا موت بعدها، ما ينجيني من غضب الله، ويوجب لي رضوانه".

قال ابن عطية:"قال جمهور المتأولين معناه: لِحَياتِي الباقية يريد في الآخرة، وقال قوم من المتأولين: المعنى لِحَياتِي في قبري عند بعثي الذي كنت أكذب به وأعتقد أني لن أعود حيا. وقال آخرون: لِحَياتِي هنا مجاز، أي لَيْتَنِي قَدَّمْتُ عملا صالحا لأنعم به اليوم وأحيا حياة طيبة، فهذا كما يقول الإنسان أحييتني في هذا الأمر، وقال بعض المتأولين لوقت أو لمدة حياتي الماضية في الدنيا، وهذا كما تقول جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا ونحوه".

عن مجاهد: "{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}، قال: الآخرة".

قال الضحاك:"عملتُ في الدنيا لحياتي في الآخرة".

عن قتادة: "{يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}، هُناكُم والله الحياة الطويلة".

عن قتادة:"{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}، قال: علم الله أنه صادق، هناك حياة طويلة لا موت فيها آخر ما عليه".

عن محمد بن أبي عَمِيرة- وكان من أصحاب رسول الله ﷺ- قال: لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرِمًا في طاعة الله، لَحَقِرَه يوم القيامة، ولودَّ أنه يُرَدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب".

قال السعدي:"وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها، وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء".

قال في التسهيل (يقول يا ليتني قدمت لحياتي) فيه وجهان:

أحدهما: أنه يريد الحياة في الآخرة فالمعنى: يا ليتني قدمت عملا صالحا للآخرة.

=

=

والآخر: أنه يريد الحياة الدنيا فالمعنى: يا ليتني قدمت عملا صالحا وقت حياتي، فاللام على هذا كقوله كتبت لعشر من الشهر، (أي في حياتي. فاللام بمعنى في).

قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢٥]، أي:"ففي ذلك اليوم العصيب لا يستطيع أحدٌ ولا يقدر أن يُعذِّبَ مثل تعذيب الله من عصاه".

قال ابن كثير:"أي: ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه".

قال السعدي:"لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له".

قال مقاتل: "يعني: ليس أعظم من الله- تعالى- سلطانه على قدر عظمته، وعذابه مثل سلطانه".

قال ابن عباس:"لا يعذب بعذاب الله أحد".

قال أبو عبيدة:"ويومئذ لا يعذّب عذاب الله أحد في الدنيا".

عن أبي قِلابة، قال: ثني من أقرأه النبيّ ﷺ «فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ».

قوله تعالى: {وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢٦]، أي:"ولا يستطيع أحد أن يوثِقَ مثل وثاق الله، ولا يبلغ أحدٌ مبلغه في ذلك".

قال ابن كثير:"أي: وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم، عز وجل، هذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين".

قال الثعلبي:"معنى الآية لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب والوثاق، وهو الإشارة في السلاسل والأغلال".

قال السعدي:"فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين".

قال مقاتل: "يعني: ولا يوثق كوثاق الله عز وجل أحد".

قال قتادة:"ولا يوثِق كوثاق الله أحد".

قال ابن عباس:"ولا يوثق وثاق الله أحد".

=

=

قال الحسن:"قد علم الله أن في الدنيا عذابا وَوَثاقا، فقال {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢٥]: في الدنيا، {وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢٦]: في الدنيا".

وفي قوله تعالى: {لَا يُعَذِّبُ} [الفجر: ٢٥]، و {وَلَا يُوثِقُ} [الفجر: ٢٦]، وجهان من القراءة:

الوجه الأول: {لَا يُعَذِّبُ}، {وَلَا يُوثِقُ}، بكسر الذال والثاء، وهو يحتمل ثلاثة وجوه من التفسير :

أحدها: أن العذاب في الدنيا وإن اشتد من الملوك على الإنسان، فهو لا يبلغ عذاب الله تعالى لأعدائه في الآخرة وإن خف. حكاه الماتريدي.

الثاني: {لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}، أي: لا ينبغي لأحد في الدنيا أن يعذب أحدا بعذاب الله- تعالى- وهو النار، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يعذب أحد بعذاب الله تعالى». حكاه الزجاج.

الثالث: المعنى: لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد، الملك يومئذ لله وحده، والأمر بيده. ذكره الزجاج.

الوجه الثاني من القراءة: {لَا يُعَذَّبُ} [الفجر: ٢٥]، و {وَلَا يُوثَقُ} [الفجر: ٢٦]، على نصب الذال والثاء، وهو يحتمل وجهين من التفسير :

أحدهما: أن يكون التفسير منصرفا إلى صنف من الكفرة، والمعنى: ولا يعذب عذاب هذا الصنف من الكفار أحد، وكذلك لا يوثق وثاقه أحد. ذكره الزجاج.

قال الزجاج:"«لَا يُعَذَّبُ»: المعنى لَا يُعذَّبَ عَذَابَ هذا الكافِرِ وعذاب هذا الصِّنْفَ مِنَ الكفار أَحَد".

الثاني: ألا يعذب أحد مكان أحد، كما يفعله ملوك الدنيا في أنهم يعذبون الوالد مكان الولد، ويعذبون من يتصل بالذين استوجبوا العذاب. حكاه الماتريدي.

=

=

قوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} [الفجر: ٢٧]، أي:"يا أيتها النفس المطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به".

وفي قوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} [الفجر: ٢٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: المصدّقة، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس:"{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}، يقول: المصدّقة".

وقال مقاتل:"يعني: المطمئنة بالإيمان".

قال الزجاج:"المطمئنة: التي اطمأنت بالإيمان وأخبتت إلى ربها".

وقال الفراء: المطمئنة:"بالإيمان والمصدقة بالثواب والبعث".

قال الماتريدي:"المطمئنة: هي الساكنة التي لا ترتاب، ولا تضطرب؛ فتكون طمأنينتها بوعد الله ووعيده، وأمره ونهيه، وتوحيده".

قال النحاس:"المعنى: المطمئنة بوعد الله جلّ وعزّ ووعيده".

الثاني: المؤمنة بما وعد الله، قاله قتادة.

قال قتادة:"هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله".

قال الحسن:"المطمئنة إلى ما قال الله، والمصدّقة بما قال".

وحكي الثعلبي عن الحسن:"المؤمنة: الموقنة".

قال سهل:"المطمئنة: المصدقة بثواب الله وعقابه".

قال الطبري:"يعني بالمطمئنة: التي اطمأنت إلى وعد الله الذي وعد أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة، فصدّقت بذلك".

الثالث: الآمنة، وهو في حرف أُبيّ بن كعب: «يا أَيَّتُها النَّفْسُ الآمِنَةُ المُطْمَئِنَّةُ».

قال الكلبي: "إن «الآمنة» -في هذا الموضع- يعني به: «المؤمنة»".

الرابع: الراضية بقضاء الله التي قد علمت أنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها وأنّ ما أخطأها لم يكن ليصيبها، رواه ابن أبي نجاح عن مجاهد، وعطية.

=

=

الخامس: الموقِنة بأن الله ربها، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها. قاله مجاهد.

قال ابن عطية:"معناه: الموقنة غاية اليقين، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال: {وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، فهي درجة زائدة على الإيمان، وهي أن لا يبقى على النفس في يقينها مطلب يحركها إلى تحصيله".

قال الواحدي في البسيط: "قال صاحب النظم: المطمئنة الموقنة اعتبارا بقوله: {وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، والطمأنينة: حقيقة الإيمان، فإذا لم تكن طمأنينة كانت وسوسة، وهذه الصفة ثابتة لنفس المؤمن في الدنيا؛ لأنه صَدَّق الله، واطمأن إلى ما ذكر في كتابه".

قال مجاهد:"المنيبة المخبتة التي قد أيقنت أن الله ربها، وضربت لأمره جأشا".

قال مجاهد:"النفس التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشا لأمره وطاعته".

قال مجاهد:"أيقنت بأن الله ربها، وضربت لأمره جأشا".

قال مجاهد:"المخبِتة".

قال مجاهد:"المُخبِتة والمطمئنة إلى الله".

السادس: المطمئنة إلى الدنيا، ارجعي إلى ربك في تركها. حكاه الثعلبي.

السابع: المخلصة. قاله ابن كيسان.

الثامن: أنها العارفة بالله سبحانه التي لا تصبر عنه طرفة عين. قاله ابن عطاء.

التاسع: المطمئنة بذكر الله. وبيانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨]. حكاه الثعلبي.

قال السعدي: "{الْمُطْمَئِنَّةُ} إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه، التي قرت عينها بالله".

العاشر: أنها المتوكّلة على الله تعالى الواثقة بما ضمن لها من الرزق. حكاه الثعلبي.

=

=

الحادي عشر: أنها التي يبيّض الله وجهها ويعطيها كتابها بيمينها فعند ذلك تطمئن. حكاه المسيّب عن الكلبي وأبي روق.

الثاني عشر: أن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن اطمأنت النفس إلى الله ﷻ، واطمأن الله إليها. وهذا قول الحسن.

قوله تعالى: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٨]، أي:"ارجعي إلى ربك راضية بإكرام الله لك، والله سبحانه قد رضي عنك".

واختلفوا في أيّ حين يقال لها ذلك، على ثلاثة أقوال:

أحدها: عند خروجها من الدنيا، قاله أبو صالح، وحكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.

عن أبي صالح: "{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، قال: هذا عند الموت. {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}، قال: هذا يوم القيامة".

قال زيد بن أسلم:"بُشِّرت بالجنة عند الموت، ويوم الجمع، وعند البعث".

قال ابن كثير:"وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضا، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك -هاهنا-".

قال السعدي: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ} الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه".

الثاني: عند البعث يقال لها: ارجعي إلى صاحبك، وإلى جسدك، فيأمر الله الأرواح أن تعود إلى الأجساد، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والضّحّاك، وعطاء.

عن عكرِمة:"في هذه الآية: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، إلى الجسد".

قال ابن عباس:"تردّ الأرواح المطمئنة يوم القيامة في الأجساد".

=

=

قال الضحاك:"يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد، فيأتون الله كما خلقهم أول مرّة".

قال سعيد بن جبير: "يسيل واد من أصل العرش فتنبت فيه كل دابة على وجه الأرض، ثم تطير الأرواح، فتؤمر أن تدخل الأجساد، فهو قوله: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}".

الثالث: تقول لهم الملائكة إذا أعطوا كتبهم بأيمانهم: {ارجعي إلى ربك}، أي: إلى ما أعد الله لك من الثواب. وهذا قول الفراء.

قال الطبري:"الصواب عندي القول الذي ذكرناه عن ابن عباس والضحاك، أن ذلك إنما يقال لهم عند ردّ الأرواح في الأجساد يوم البعث لدلالة قوله: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}".

وفي قوله تعالى: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٨]، أقوال:

أحدها: ارجعي إلى صاحبك الذي كنتِ في جسده، وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، والضّحّاك. ودليل هذا القول القراءة «فادخلي في عبدي» على التوحيد.

الثاني: ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ بعد الموت في الدنيا، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

قال ابن كثير:"أي: إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته".

الثالث: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته، قاله الحسن.

قال الفراء:"إلى ما أعد الله لك من الثواب".

الرابع: إِلَى أمثالك من عباد ربك الصالحين. قاله ابن كيسان.

الخامس: يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا ارجعي إلى الله تعالى بتركها، والرجوع إلى الله هو سلوك سبيل الآخرة. حكاه الثعلبي، والماوردي.

وفي قوله تعالى: {رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٨]، وجهان:

=

=

أحدهما: رضيت عن الله ورضي عنها، قاله الحسن.

قال الحسن: "{راضِيَةً} عن الله بما أعدّ لك، {مَرْضِيَّةً} رضي عنكِ ربّكِ".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، في الآية، قال: "{راضِيَةً} ما رأيتِ من ثوابي، مرضيًّا عنكِ؛ حتى يسألكِ منكر ونكير".

قال السعدي: أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها".

الثاني: رضيت بما أعطيت من الثواب، مرضية عنها بعملها، قاله ابن عباس.

قال الزجاج:"أصل «مرضية»: مرضوة، أي: راضية بما أتاها، قد رضيت وزكيت".

قال ابن كثير:"{رَاضِيَةً}، أي: في نفسها {مَرْضِيَّةً}، أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها".

قوله تعالى: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} [الفجر: ٢٩]، أي:"فادخلي في عداد عباد الله الصالحين".

وفي قوله تعالى: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} [الفجر: ٢٩]، وجوه:

أحدها: في عبدي.

قرأ سعد بن أبي وقاص، وأُبيّ بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران، وأبو جعفر، وأبو صالح والكلبي: «فادخلي في عبدي».

قال الطبري:"يعني: الروح ترجع في الجسد".

قال الزجاج: "فعلى هذه القراءة- والله أعلم -: ادخلي إلى صاحبك الذي خرجت منه فادخلي فيه. والأكثر في القراءة والتفسير: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٢٩- ٣٠]".

وقرأ ابن مسعود: «في جسد عبدى».

الثاني: في طاعتي، قاله الضحاك.

=

الثالث: ادخلي مع عبادي. قاله السدي، ويحيى بن سلام.

الرابع: معناه: ادخلي في عبادي الصالحين. قاله قتادة.

قال ابن عطية:"العباد -هنا- الصالحون المنعمون".

قال الزجاج: أي:"في جملة عبادي المصطَفَيْن".

قال ابن كثير:"أي: في جملتهم".

قال الثعلبي:"يعني: مع أنبيائنا في الجنّة".

عن أبي صالح: "{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، قال هذا عند الموت. {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}، قال: هذا يوم القيامة".

قال السعدي: وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به حال الموت".

الخامس: يعني: في رحمتي، كقوله تعالى: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين} [النمل: ١٩]. قاله مقاتل.

السادس: فادخلي في حزبي. قاله الأخفش.

قوله تعالى: {وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٣٠]، أي:"وادخلي معهم جنتي".

أحدهما: في رحمتي، قاله الضحاك.

الثاني: الجنة التي هي دار الخلود ومسكن الأبرار، قاله قتادة، وحكاه الماوردي عن الجمهور.

واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية، على خمسة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في أبي بكر الصديق- رضي الله عنه -.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: "{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا. فقال: أما أنه سيقال لك هذا».

=

وفي رواية الطبري عن ابن عباس:"أنها نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله ما أَحسن هذا، فقال ﷺ: «أما أنه سيقال لك هذا».

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: "قرأت عند النبي ﷺ:"{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، فقال أبو بكر- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -: إن هذا حسن، فقال له النبي ﷺ: «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت»".

الثاني: أنها نزلت في عثمان حين أوقف بئر رومة، قاله الضحاك.

عن الضحاك عن ابن عباس:"إن النبي ﷺ، قال: «من يشتري بئر رومة نستعذب بها غفر الله له»، فاشتراها عثمان، فقال النبي ﷺ: «هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟» قال: نعم. فأنزل الله في عثمان:"{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}، الآية".

الثالث: أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، لما استشهد يوم أُحد، قاله أبو هريرة، وبريدة الأسلمي.

قال بريدة: "يعني: نفس حمزة".

عن ابن بريدة في هذه الآية يا: {أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}، قال: نفس حمزة بن عبد المطّلب نزلت فيه يوم استشهد يوم أحد، بل نزلت نفسه عند ربّ العالمين، مكرمة مشرفة على من عنده حتّى يردها الله سبحانه إلى حمزة في دعة، وسكون وكرامة".

الرابع: أنها نزلت في خبيب بن عدي لما صلبه أهل مكة، قاله مقاتل.

قال مقاتل:"نزلت هذه الآية في حبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه نحو المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتها فحول الله ﷻ وجهه نحو هذه القبلة من غير أن يحوله أحد، فلم يستطع أن يحوله عنها أحد".

الخامس: أنها عامة في كل المؤمنين، قاله عكرمة، والثعلبي.

=

=

قال سعيد بن جبير: "مات ابن عباس بالطائف، فشهدت جنازته، فجاء طير أبيض لم ير على خلته حتى دخل في نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، لم ندر من تلاها: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)} [الفجر: ٢٧- ٣٠]".

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي- المعروف بشكِّر- في كتاب "العجائب" بسنده عن قُبَاث بن رزين أبي هاشم قال: أسرتُ في بلاد الروم، فجمعنا الملك وعَرَض علينا دينه، على أن من امتنع ضربت عنقه. فارتد ثلاثة، وجاء الرابع فامتنع، فضربت عنقه، وألقي رأسه في نهر هناك، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال: يا فلان، ويا فلان، ويا فلان- يناديهم بأسمائهم- قال الله تعالى في كتابه: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} ثم غاص في الماء، قال فكادت النصارى أن يسلموا، ووقع سرير الملك، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام. قال: وجاء الفداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا".

عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «اللهم إني أسألك نفسا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك».

* قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والفجر (١) وليال عشر (٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤) هل في ذلك قسم لذي حجر (٥)} [الفجر: ١- ٥].

قيل: جوابه قوله تعالى: {إن ربك لبالمرصاد (١٤)} [الفجر: ١٤].

وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

=

=

والثـاني: أن قولـه: {إن ربـك لبالمرصـاد (١٤)} ذكـر تقريـرا لعقوبـة الله الأمـم المذكورة وهي: عاد، وثمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم ثم قال مقررا ومحذرا: {إن ربك لبالمرصاد (١٤)}، أفلا ترى تعلقه بذلك دون القسم؟!

وأحسن من هذا أن يقال: إن "الفجر" و"الليالي العشر" زمن يتضمن أفعالا معظمة، و"العشر" هو عشر ذي الحجة وهو يتضمن أفعالا معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته. وذلك ضد ما وصف به عادا، وثمودا، وفرعون؛ من العتو والتكبر والتجبر؛ فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر" قيل: يا رسول الله؛ ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء". فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به.

{والفجر (١)}: -

إن أريد به جنس "الفجر"- كما هو ظاهر اللفظ- فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: {والليل إذا يسر (٤)} المتضمن لآخر الصلوات.

وإن أريد بـ "الفجر" فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رئي الشيطان في ليلة أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه فيها. وذلك "الفجر": فجر يوم النحر، الذي هو أفضل الأيام

=

=

عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أفضل الأيام عند الله يوم النحر" رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وهو آخر أيام العشر، وهو يوم "الحج الأكبر"، كما ثبت في "صحيح البخاري" وغيره، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله- ﷺ: "إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان". ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا في يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالا وتأويلا للقرآن.

وعلى هذا قد تضمن القسم: المناسك، والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له، والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل عليه السلام: {إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) } [الأنعام: ١٦٢]، وقيل لخاتم الرسل ﷺ: {فصل لربك وانحر (٢)} [الكوثر: ٢]، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر- سبحانه- من جملة هذه الأقسام: الشفع، والوتر؛ إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع، ومنها وتر؛ في: الأمكنة، والأزمنة، والأعمال.

فـ "الصفا" و"المروة" شفع، و"البيت" وتر، و"الجمرات" وتر، و"منى" و"مزدلفة" شفع، و"عرفة" وتر.

وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين "الصفا" و"المروة" وتر، ورمي "الجمار" وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل، فـ "إن الله وتر، يحب الوتر".

والصلوات منها شفع، ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وترا، كما قال النبي ﷺ: "المغرب وتر النهار، فأوتروا صلاة الليل" رواه الإمام أحمد.

=

=

وفي "الصحيح" عنه ﷺ قال: "صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة، توتر لك ما قد صليت".

وأما الزمان: فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين.

وروى مجاهد، عن ابن عباس: "الوتر: آدم، وشفع بزوجته حواء".

وقال في رواية أخرى: "الشفع: آدم وحواء، والوتر: الله وحده".

وعنه رواية ثالثة: "الشفع: يوم النحر، والوتر: ثلاثة أيام بعده".

وقال ابن الزبير: "الشفع: يومان بعد يوم النحر، والوتر: اليوم الثالث".

وقال عمران بن حصين، وقتادة: "الشفع والوتر هي الصلاة"، وروي فيه حديث مرفوع.

وقال عطية العوفي : "الشفع: الخلق، قال الله تعالى: {وخلقناكم أزواجا (٨) } [النبأ: ٨]، والوتر: هو الله".

وهذا قول الحكم، قال: "كل شيء شفع، والله وتر".

وقال أبو صالح : "خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد". وهذا قول مجاهد، ومسروق.

وقال الحسن: "الشفع والوتر: العدد كله منه شفع ووتر".

وقال ابن زيد : "الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر".

وقال مقاتل : "الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة".

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن "الشفع" و"الوتر" نوعا المخلوقات، والمأمورات.

والثاني: أن "الوتر" الخالق، و"الشفع" المخلوق.

=

وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله تعالى: {والشمس وضحاها (١)} [الشمس: ١]، وفي قوله: {وشاهد ومشهود (٣) } [البروج: ٣]، وفي قوله: {والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) } [الليل: ١- ٣].

وقال ههنا: {والليل إذا يسر (٤) } [الفجر: ٤]، وفي "سورة المدثر" أقسم بالليل إذا أدبر، وفي "سورة التكوير" أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بـ "أقبل"، وفسر بـ "أدبر"؛ فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي: حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

وعرف "الفجر" باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر؛ لأنها إنما تعرف بالعلم.

وأيضا؛ فإن في التنكير تعظيما لها، فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف "الفجر" ما يدل على شهرته، وأنه "الفجر" الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله.

فلما تضمن هذا القسم تعظيم ما جاء به إبراهيم ومحمد -صلى الله عليهما وسلم- كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا عقب القسم بقوله تعالى: {هل في ذلك قسم لذي حجر (٥) } [الفجر: ٥]، فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة، وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كـ: عاد، وفرعون، وثمود.

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين؛ ذكر بعد ذلك حال المتكبرين المتجبرين الطاغين، ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب؛ أي: سوطا من عذاب.

=

ونكره: إما للتعظيم؛ وإما لأن يسيرا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن لهم معه بقاء ولا ثبات.

ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم، وأخبر أن توسعته على من وسع عليه -وإن كان إكراما له في الدنيا- فليس ذلك إكراما على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، ولا هو من أهل كرامته ومحبته، وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع ابتلاء وامتحانا، ويقتر ابتلاء وامتحانا، فيبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، وهو- سبحانه- يبتلي عبده بنعمة تجلب له أخرى، وبنعمة تجلب له نقمة، وبنقمة تجلب له أخرى، وبنقمة تجلب له نعمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته، وسلطانه، وماله، وهم هؤلاء الأمم الثلاثة:

"قوم عاد": اغتروا بقوتهم.

و"ثمود": اغتروا بجنانهم، وعيونهم، وزروعهم، وبساتينهم.

و"قوم فرعون": اغتروا بالمال والرياسة.

فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا، وهذا شأنه- دائما- مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه.

ثم ذكر- سبحانه- حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه؛ كاليتيم والمسكين، فلا يكرم هذا، ولا يحض على إطعام هذا.

ثم ذكر حرص الإنسان على جمع المال وأكله، وحبه له، وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

=

سورة البلد(١)

=

ثم ختم السورة بمدح "النفس" المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلها حال "النفس" الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه.

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

قال القرطبي:"سورة البلد مكية باتفاق".

قال الزمخشري:"هي مكية".

قال ابن عطية:"هي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال قوم هي مدنية".

قال الألوسي:"مكية في قوله الجمهور بتمامها، وقيل مدنية بتمامها، وقيل مدنية إلّا أربع آيات من أولها. واعترض كلا القولين بأنه يأباهما قوله تعالى: {بِهـٰذَا الْبَلَـدِ} [البلد: ١، ٢]، قيل -ولقوة الاعتراض- ادعى الزمخشري الإجماع على مكيتها، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن في بعض الأخبار ما هو ظاهر في نزول صدرها بمكة بعد الفتح".

قال ابن عاشور:"هي مكية، وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه واقتصر عليه معظم المفسرين، وحكى ابن عطية عن قوم: أنها مدنية. ولعل هذا قول من فسر قوله: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهـٰذَا الْبَلَدِ} [البلد: ٢] أن الحل الإذن له في القتال يوم الفتح وحمل وأنت حل على معنى: وأنت الآن حل، وهو يرجع إلى ما روى القرطبي عن السدي وأبي صالح وعزي لابن عباس. وقد أشار في «الكشاف» إلى إبطاله بأن السورة نزلت بمكة بالاتفاق، وفي رده بذلك مصادرة، فالوجه أن يرد بأن في قوله: أيحسب أن لن يقدر عليه أحد إلى قوله: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد: ٥-

=

=

١١] ضمائر غيبة يتعين عودها إلى الإنسان في قوله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ} [البلد: ٤]، وإلا لخلت الضمائر عن معاد".

قال السيوطي:"حكى ابن الفرس فيها أيضا قولين، وقوله: {بهذا البلد} يرد القول بأنها مدنية".

* آياتها عشرون. وكلماتها اثنتان وثمانون. وحروفها ثلاثمائة وإِحدى وخمسون. فواصل آياتها (هدنا).

* تسمى «سورة البلد» اشتهرت تسميتها بـ «سورة البلد» في المصاحف وكتب التفاسير، وعلوم القرآن، ووجه تسميتها بذلك إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ١]، وإما لإرادة البلد المعروف وهو مكة.

وتسمى «سورة لا أقسم بهذا البلد» بذلك عنون لها في بعض كتب التفسير، وعلوم القرآن، وقد ترجمها في «صحيح البخاري»: بـ «سورة لا أقسم». وهي تسمية للسورة بأول جملة افتتحت بها، قال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد: ١].

وتسمى «سورة العقَبَة» لقوله: {فَلاَ اقتحم العقبة}.

* معظم مقصود السّورة: تشريف مكَّة بحكم القَسَم بها، وشدّة حال الأَدنى، والخبر من سرّه وعلانيته، والمِنَّة عليه بالنعم المختلفة، وتهويل عَقَبَة الصِّراط وبيان النجاة منها، ومدح المؤمنين وصبرهم على البلاءِ، ورحمة بعضهم بعضاً، وخلود الكفَّار فى النَّار فى قوله: {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ}.

* ومن المتشابهات: قوله: {لاَ أُقْسِمُ بهاذا البلد} ثم قال {وَأَنتَ حِلٌّ بهاذا البلد} كرّره وجعله [فاصلا] فى الآيتين. وقد سبق القول فى مثل هذا، وممَّا ذكر فى هذه السّورة على الخصوص أَنَّ التقدير: لا أُقسم بهذا البلد وهو حَرَام وأَنت حِلّ بهذا البلد وهو حلال؛ لأَنَّه أُحِلَّت له مكَّة حتى قيل فيها: مَن شاءَ قاتل فلما اختلف

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)

{لَا} زَائِدَة {أُقْسِم بِهَذَا الْبَلَد} مَكَّة.

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢).

{وَأَنْتَ} يَا مُحَمَّد {حِلّ} حَلَال {بِهَذَا الْبَلَد} بِأَنْ يَحِلّ لَك فَتُقَاتِل فِيهِ وَقَدْ أَنْجَزَ الله لَهُ هَذَا الْوَعْد يَوْم الْفَتْح فَالْجُمْلَة اِعْتِرَاض بَيْن الْمُقْسَم بِهِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣).

{وَوَالِد} أَيْ آدَم {وَمَا وَلَدَ} أَيْ ذُرِّيَّته وَمَا بِمَعْنَى مِنْ.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤).

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان} أَيْ الْجِنْس {فِي كَبَد} نَصَب وَشِدَّة يُكَابِد مَصَائِب الدُّنْيَا وَشَدَائِد الْآخِرَة.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥).

{أَيَحْسَبُ} أَيَظُنُّ الْإِنْسَان قَوِيّ قُرَيْش وَهُوَ أَبُو الْأَشَدّ بْن كِلْدَة بِقُوَّتِهِ {إنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أَنَّهُ {لَنْ يَقْدِر عَلَيْهِ أَحَد} وَاَللَّه قَادِر عَلَيْهِ.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦).

=

معناه صار كأنه غير الأَوّل، ودخل فى القِسْم الذى يختلف معناه ويتَّفق لفظه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{يَقُول أَهْلَكْت} عَلَى عَدَاوَة مُحَمَّد {مَالًا لُبَدًا} كَثِيرًا بَعْضه عَلَى بَعْض.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧).

{أَيَحْسَبُ أَنْ} أَيْ أَنَّهُ {لَمْ يَرَهُ أَحَد} فِيمَا أَنْفَقَهُ فَيَعْلَم قَدْره وَاَللَّه عَالِم بِقَدْرِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَتَكَثَّر بِهِ وَمُجَازِيه عَلَى فعله السيء

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨)

{أَلَمْ نَجْعَل} اِسْتِفْهَام تَقْرِير أَيْ جَعَلْنَا {لَهُ عينين}.

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩).

{ولسانا وشفتين}.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠).

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} بَيَّنَّا لَهُ طَرِيق الْخَيْر وَالشَّرّ(١).

---

(١) قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ١].

(لا) للاستفتاح والتنبيه وتوكيد القسم، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والمراد بالبلد مكة أم القرى، بإجماع المفسرين [حكاه الرازي].

ابتدئت بالقسم تشويقا لما يرد بعده وأطيلت جملة القسم زيادة في التشويق، و (لا أقسم) معناه: أقسم.

أقسم الله تعالى بها لشرفها وعظمها، فهي أحب أرض الله إلى الله كما قال ﷺ (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) رواه الترمذي.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام، وهو مكة".

وفي {لَا}، أقوال:

=

=

أحدها: أن «لا» زائدة، والتقدير: أقسم بهذا البلد. وهذا قول ابن عباس، وابن جبير، والأخفش. وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه قول الشاعر:

تَذكّرْت ليلى فاعْتَرَتني صَبابةٌ... وكاد ضمير القلْبِ لا يتَقطّع

أي: يتقطع، ودخل حرف «لا» صلة.

قال الشوكاني:"ذهب جمهور المفسرين إلا أن «لا» مزيدة للتوكيد، والمعنى: فأقسم".

قال الزجاج:"المعنى: أقسم بهذا البلد. و «لا» أدخلت توكيداً كما قال ﷻ: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ}".

قال النحاس:"«لا» زائدة للتوكيد، أي: فأقسم..".

قال ابن عطية:"«لا» زائدة، والتقدير فأقسم.. وقسم الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها، وتعريضها للعبرة، إذ القسم بها منبه منها".

قال ابن عاشور:"صيغة «لا أقسم» صيغة قسم، أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي: ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسم".

قال ابن قتيبة:"وكان بعض النحويين يجعلها صلة، ولو جاز هذا لم يكن بين خبر فيه الجحد، وخبر فيه الإقرار- فرق".

الثاني: إنها للنفي، وإن المنفي بها محذوف، وهو كلام الكفار الجاحدين، كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بهذا البلد، وهذا قول مجاهد، والفراء، وكثير من النحويين، كقول القائل: لا، والله، فـ «لا»: رد لكلام قد تقدمها، ومنه قول امرئ القيس:

فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ... لا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّى أَفِرْ

=

=

عن مجاهد في قوله: لا أقسم قال: «لا» ردا عليهم، {أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ}".

قال الفراء: "وهو على مذهب كلام العرب يقولون: لا والله لا أفعل كذا. أي: والله".

قال هشام الرفاعي: "سمعت أبا بكر بن عياش يقول: قوله: {لا أُقْسِمُ} توكيد للقسم كقوله: لا والله".

قال ابن قتيبة:"فإنها زيدت في الكلام على نية الرّد على المكذبين، كما تقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول. لو قلت: والله ما ذاك كما تقول، لكان جائزا، غير أن إدخالك «لا» في الكلام أوّلا، أبلغ في الرّدّ".

قال الطبري: "«لا» رد لكلام قد كان تقدّمه من قوم، وجوابا لهم، لأن المعروف من كلام الناس في محاوراتهم إذا قال أحدهم: لا والله، لا فعلت كذا، أنه يقصد بلا ردّ الكلام، وبقوله: والله، ابتداء يمين، وكذلك قولهم: لا أقسم بالله لا فعلت كذا؛ فإذا كان المعروف من معنى ذلك ما وصفنا، فالواجب أن يكون سائر ما جاء من نظائره جاريا مجراه، ما لم يخرج شيء من ذلك عن المعروف بما يجب التسليم له".

قال الشوكاني:"وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز، كما قال أبو حيان وغيره".

قال أبو حيان:"ولا يجوز، لأن في ذلك حذف اسم لا وخبرها، وليس جوابا لسائل سأل، فيحتمل ذلك، نحو قوله لا لمن قال: هل من رجل في الدار؟".

الثالث: أنها لام الابتداء، والأصل: فلأقسم. فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ بالله من العقراب

=

=

وقد قرأ هكذا: «فلأقسم» بدون ألف الحسن وحميد وعيسى بن عمر، وعلى هذا القول، وهذه القراءة يقدر مبتدأ محذوف، والتقدير: فلأنا أقسم بذلك.

وقال الزجاج:"وقرئت: «لأُقْسِمُ بهذا البلد»، فتكون اللام لامَ القسَم والتوكيد، وهذه القراءة قليلة".

الرابع: أن «لا» هنا بمعنى: «ألا» التي للتنبيه، ذكره الأخفش.

قال الشوكاني:"وهو بعيد".

وفي قوله تعالى: {بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ١]، قولان:

أحدهما: مكة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وابن زيد.

عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وابن زيد: "{لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، يعني: مكة".

قال قتادة:"البلد: مكة".

الثاني: الحرم كله، قاله مجاهد-أيضا-.

عن مجاهد: "{لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، قال: الحرام".

قال السمعاني:"هو مكة في قول الجميع".

قال الواحدي:"أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام، والسورة نازلة بها".

قال الرازي: فإن الله تعالى جعلها حرما آمنا، فقال في المسجد الذي فيها (ومن دخله كان ءامنا).

وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب، فقال (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

وشرف مقام إبراهيم بقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).

وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال (ولله على الناس حج البيت).

وقال في البيت (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا).

=

=

وقال (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا).

وقال (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق).

وحرم فيه الصيد، وجعل البيت المعمور بإزائه، فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها.

قوله تعالى: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ٢].

الواو حالية، والخطاب للنبي ﷺ، والتقدير: أقسم بهذا البلد حال كونك يا محمد (حل بهذا البلد) أي: يحل لك أن تقاتل فيه، وذلك ساعة من نهار كما في الحديث قال ﷺ (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة،... وإنما أحلت لي ساعة من نهار...) متفق عليه.

وفي قوله تعالى: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: حل لك ما صنعته في هذا البلد من قتال أو غيره، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ومنصور، وابن زيد.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: وأنت يا محمد حِلٌّ بهذا البلد، يعني بمكة؛ يقول: أنت به حلال تصنع فيه من قَتْلِ من أردت قتلَه، وأَسْرِ من أردت أسره، مُطْلَقٌ ذلك لك".

عن منصور:"{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}، قال: أُحِلَّت للنبي ﷺ، قال: اصنع فيها ما شئت".

عن الضحاك: "{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}، يعني: محمدا، يقول: أنت حلّ بالحرم، فاقتل إن شئت، أو دع".

عن قتادة: "{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}، يقول: بريء عن الحرج والإثم".

قال قتادة:"أنت به حلّ لست بآثم".

=

=

عن مجاهد: "{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}، قال: ما صنعت فأنت في حلّ من أمر القتال".

قال مجاهد:"يعنى: رسول الله ﷺ، يقول: أنت في حل مما صنعت فيه".

قال مجاهد:"أحل له أن يصنع فيه ما شاء".

قال مجاهد:"أنت حِلّ مما صنعت فيه".

قال مجاهد:"أحلّ الله لك يا محمد ما صنعت في هذا البلد من شيء، يعني: مكة".

قال مجاهد:"لا تؤاخَذ بما عملت فيه، وليس عليك فيه ما على الناس".

عن ابن عباس:"" {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}، قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وأما غيرك فلا".

قال ابن عباس:"يعني بذلك: نبيّ الله ﷺ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، ويستحْيِي من شاء؛ فقتل يومئذ ابن خَطَل صَبْرا وهو آخذ بأستار الكعبة، فلم تحِل لأحد من الناس بعد رسول الله ﷺ أن يقتل فيها حراما حرّمه الله، فأحلّ الله له ما صنع بأهل مكة، ألم تسمع أن الله قال في تحريم الحرم: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا}، يعني: بالناس أهل القبلة".

قال ابن زيد:"لم يكن بها أحد حلا غير النبيّ ﷺ، كلّ من كان بها حراما، لم يحلّ لهم أن يقاتلوا فيها، ولا يستحلوا حرمه، فأحله الله لرسوله، فقاتل المشركين فيه".

الثاني: أنت مُحِل في هذا البد غير مُحْرِم في دخولك عام الفتح، قاله الحسن، ومجاهد-أيضا-، وعطاء، ومقاتل.

قال الحسن:"أحلها الله لمحمد ﷺ ساعة من نهار يوم الفتح".

قال عطاء:"إن الله حرّم مكة، لم تحلّ لنبيّ إلا نبيكم ساعة من نهار".

قال مجاهد:"أحلّ لرسول الله ﷺ ما صنع فيه ساعة".

=

=

قال عطاء:"إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لبشر إلا لرسول الله ﷺ ساعة من نهار، ولا يختلي خلاها، ولا يعضد عضاها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمعرف".

قال مقاتل:"يعني لم أحلها لأحد من قبلك ولا من بعدك وإنما أحللتها لك ساعة من النهار، وذلك أن الله ﷻ لم يفتح مكة على أحد غيره، ولم يحل بها القتل لأحد، غير ما قتل النبي– ﷺ– مقيس بن ضبابة الكناني وغيره، حين فتح مكة".

الثالث: أن يستحل المشركون فيه حرمتك وحرمة من اتبعك توبيخـًا للمشركين. حكاه الماوردي.

فإن قيل: إن السورة مكية وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة؟

فالجواب: أن هذا وعد بفتح مكة كما تقول لمن تعده بالكرامة: أنت مكرم يعني فيما يستقبل.

وقيل: إن السورة على هذا مدنية نزلت يوم الفتح، وهذا ضعيف.

قوله تعالى: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [البلد: ٣]، أي:"وأقسم بوالد البشرية –وهو آدم عليه السلام– وما تناسل منه من ولد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأقسم بوالد وبولده الذي وَلَد".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [البلد: ٣]، أقوال:

أحدها: الوالد: آدم، وما ولد: ولده، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن والضحاك، وأبو صالح، وسفيان.

عن أبي صالح في قول الله (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) قال: آدم وما ولد".

عن قتادة: "{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}، قال: آدم وما ولد".

قال الضحاك:"الوالد: آدم، وما ولد: ولده".

عن مجاهد: "{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}، قال: ولده".

=

=

قال مجاهد:"الوالد: آدم، وما ولد: ولده".

الثاني: أن الوالد إبراهيم وما ولد، قاله أبو عمران الجَوْنِيّ.

الثالث: أن الوالد هو الذي يلد، وما ولد: هو العاقر الذي لا يلد، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له".

الرابع: أن الوالد: العاقر، وما ولد: التي تلد، قاله ابن عباس-أيضا-، وعكرمة.

عن ابن عباس، وعكرِمة: "{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}، قال: العاقر، والتي تلد".

الخامس: أنه الوالد وولده على العموم. قاله ابن عباس-أيضا-، وبه قال الطبري.

عن ابن عباس: "{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}، قال: هو الوالد وولده".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك: ما قاله الذي قالوا: إن الله أقسم بكلّ والد وولده، لأن الله عم كلّ والد وما ولد. وغير جائز أن يخصّ ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمه".

قال ابن كثير: "وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده".

قال القرطبي: "قول مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: (ووالد) آدم عليه السلام. (وما ولد) أي وما نسل من ولده... أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى".

قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد: ٤].

هذا جواب القسم، أي: خلقنا الإنسان في نصب وتعب لا يفارقانه منذ نخلقه في بطن أمه إلى وفاته بانقضاء عمره، ثم يكابد شدائد الآخرة، ثم إما إلى نعيم لا نصب معه ولا تعب، وإما إلى جحيم لا يفارقه.

=

=

قال الطبري:"وهذا هو جواب القسم".

قال قتادة: "وقع -ها هنا- القسم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}".

وفي قوله تعالى: {فِي كَبَدٍ} [البلد: ٤]، أقوال:

أحدها: أن المعنى: خلق منتصباً يمشي على رجلين، وسائر الحيوان غير منتصب، قاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، وإبراهيم، وبه قال الفراء.

وعلى هذا التفسير، يكون معنى «الكبد»: الاستواء والاستقامة.

عن الحكم بن عتيبة، عن ابن عباس: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: خلقنا مستويا وخلق كل دابة على أربع".

قال ابن عباس:"منتصبا في بطن أمه، وقد وكل به ملك، إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه، لولا ذلك لغرق في الدم".

قال عكرمة:"في انتصاب، يعني: القامة".

عن أبي صالح: "{خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: قائما".

قال الضحاك:"خُلِق منتصبا على رجلين، لم تخلق دابة على خلقه".

عن مجاهد: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في صَعَد".

وعن عبد الله بن شَدَّاد، في قوله: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: معتدلا بالقامة، قال أبو صالح: معتدلا في القامة".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن إبراهيم: -أحسبه عن عبد الله- {فِي كَبَدٍ}، قال منتصبا".

قال مقاتل:"منتصبا قائما، وذلك أن الله- تبارك وتعالى- خلق كل شيء على أربع قوائم- غير ابن آدم يمشي على رجلين-".

=

=

وقال سهل:"الكبد: الانتصاب، أي: لقد خلقناه في بطن أنه منتصباً. كما قال مجاهد: إن الولد يكون في بطن أمه منتصباً كانتصاب الأم، وملك موكل به، إذا اضجعت الأم رفع رأسه، ولولا ذلك لغرق في الدم".

عن عبد الحميد بن جعفر:"سمعت محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلا من الأنصار عن قول الله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في قيامه واعتداله. فلم ينكر عليه أبو جعفر".

قال الزجاج:"وقيل {فِي كَبَدٍ}: خَلْقُ الإنسان في بَطْنِ أمَهِ ورأسه قِبَلَ رأسِها، فإذا أرادت الولادة انقلب الرأس إلى أسفل".

الثاني: خلق في شدّة، يعني: مولده ونبات أسنانه وغير ذلك، وهو مأخوذ من: المكابدة، ومنه قول لبيد :

عَيْنِ هَلا بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ... قُمْنا وَقَامَ الخُصُومِ فِي كَبَد

قاله ابن عباس-أيضا-، والحسن، وعكرمة، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال أبو عبيدة، والزجاج.

قال القاسم بن سلام:"أي: في شدة -بلغة قريش-".

قال ابن كيسان: "المكابدة: مقاساة الأمر وركوب معظمه، وأصله: الشدّة، وهو من الكبد".

عن ابن عباس: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، يقول: في نَصَب".

عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرِمة: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في شدّة".

قال ابن عباس:"في شدّة معيشته، وحمله وحياته، ونبات أسنانه".

قال ابن عباس:"في شدة خلق في ولادته ونبت أسنانه وسوره ومعيشته وختانه".

عن الحسن:"أنه قال في هذه الآية: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، يقول: في شدّة".

=

=

عن مجاهد: "{الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: شدة خروج أسنانه".

الثالث: لأنه يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، قاله الحسن، سعيد بن أبي الحسن، وقتادة، وعطاء.

قال السعدي: يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد".

عن الحسن:"{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة".

قال الحسن:"يكابد أمور الدنيا وأمور الآخرة".

قال الحسن: "يكابد السرّاء والضرّاء، وليس أحد يكابد الأمور ما يكابد ابن آدم".

عن الحسن:"أنه قرأ هذه الآية: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: "لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد هذا الإنسان".

قال الحسن:"لم يخلق الله خلقا يكابد ما يُكابد ابن آدم".

قال قتادة:"يكابد أمر الدنيا والآخرة".

قال قتادة:"حين خُلِق في مشقة لا يُلَقى ابن آدم إلا مكابد أمر الدنيا والآخرة".

عن سعيد بن أبي الحسن يقول: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة".

قال النحاس:"من أبين ما قيل في معناه قول عطاء قال: «{فِي كَبَدٍ}: في مكابدة للأمور".

الرابع: أن الإنسان آدم-عليه السلام-، خلق في وسط السماء، قاله ابن زيد.

عن ابن زيد:"{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في السماء، يسمى ذلك الكَبَد ".

=

=

الخامس: في اعتدال، لما بيّنه بعد من قوله: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} [البلد: ٨]، الآيات، حكاه ابن شجرة.

السادس: يعني: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، يتكبد في الخلق، مأخوذ من: تكبد الدم. وهو غلظه، ومنه أخذ أسم: الكبد، لأنه دم قد غلظ، وهو معنى قول مجاهد.

قال مجاهد: "يكون نطفة وعلقة ولا يزال في مكابدة".

السابع: لأنه يكابد الشكر على السّراء والصبر على الضّراء، لأنه لا يخلو من أحدهما، قال الماوردي رواه ابن عمر.

التاسع: أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، يقدر على التصرف والأعمال الشديدة. ذكره السعدي.

قال النحاس-بعد أن ذكر طرفا من هذه الأقوال-:"فهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أبين ما قيل فيها أي يكابد الأمور ويعالجها. فهذا الظاهر من كلام العرب في معنى كبد. قال ذو الإصبع العدواني :

لي ابن عمّ لو أنّ النّاس في كبد... لظلّ محتجرا بالنّبل يرميني

وقال لبيد :

قمنا وقام الخصوم في كبدي".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك أنه خلق يُكابد الأمور ويُعالجها، فقوله: {فِي كَبَدٍ}، معناه: في شدّة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب من معاني الكَبَد..".

وجاء في التفسير الوسيط: الكبد: الشدة والتعب والمشقة، من المكابدة للشيء، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب في فعله. وأصله من كبد الرجل- بزنة طرب-

=

=

فهو أكبد، إذا أصيبت كبده بالمرض، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تعب ومشقة تنال الإنسان.

والمعنى: لقد خلقنا الإنسان لهذه الشدائد والآلام، التي هي من طبيعة هذه الحياة الدنيا، والتي لا يزال يكابدها وينوء بها، ويتفاعل معها.. حتى تنتهي حياته، ولا فرق في ذلك بين غنى أو فقير، وحاكم أو محكوم وصالح أو صالح.. فالكل يجاهد ويكابد ويتعب، من أجل بلوغ الغاية التي يبتغيها.

وفيمن أريد بالإنسان -ها هنا- قولان:

أحدهما: جميع الناس.

الثاني: الكافر يكابد شبهات.

قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} [البلد: ٥]

أي: أيظنُّ بما جمعه من مال أن الله لن يقدر عليه؟

قال ابن الجوزي:"أي: أيحسب أن لن نقدر على بعثه، ومعاقبته؟!".

قال القرطبي:"أي: أيظن ابن آدم أن لن يعاقبه الله ﷻ".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أيحسب الكافر، أن لن يقدر عليه الله تعالى، يعني: على أخذه وعقوبته".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: ألا يقدر الله عليه، وهذا المشرك يحسب أن لن يبعثه الله بعد الموت".

قال الزمخشري:"الضمير في {أَيَحْسَبُ}، لبعض صناديد قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد. والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوى في قومه المتضعف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه".

=

=

قال مقاتل:"يعني: بـ «الأحد»: الله- ﷻ، يعني: نفسه، أيحسب هذا الإنسان أن لن يقدر الله ﷻ على أن يذهب بماله، وإن أحرزه".

قال الحسن البصري: "يعني: أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله".

عن مجاهد:"{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}:، قال: لم يقدر عليه أحد".

قال الضحاك:"الأحد: الله ﷻ".

عن السدي:"{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} الآية، قال: الكافر يحسب أن لن يقدر الله عليه، ولم يره".

قال الزجاج: أي: "أيحسب لشدته أن لن يقدر عليه أحد وأنه لا يبعث، وقيل: أن لن يقدر عليه الله ﷻ لأنه كان لا يؤمن بالبعث".

قال المراغي:"أي: أيظن ذلك المغتر بقوته، المفتون بما أنعمنا به عليه- أنه مهما عظمت حاله، وقوى سلطانه، يبلغ منزلة لا يقدر عليه فيها أحد؟ ما أجهله إذا ظن ذلك، فإن فى الوجود قوة جميع القوى هي المهيمنة على كل قوة، والمسيطرة على كل قدرة، وهى القوة التي أبدعته، والقدرة التي أنشأته".

وقال قتادة: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} قال: ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟".

واختلف أهل التفسير فيمن نزلت قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} [البلد: ٨] وما بعدها، على أقوال:

أحدها: أنها نزلته في رجل من قريش شديد القوة، اسمه أسيد بن كلدة الجمحي، كان يحسب أن أحدا لا يقدر عليه. قاله الفراء.

قال الفراء:"نزلت في رجل من بني جمح كان يكنى: أبا الأشدين، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظي، ثم يأمر العشرة فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق

=

=

الأديم. ولم تزل قدماه. فقال الله تبارك وتعالى: {أَيَحْسَبُ} [البلد: ٥] لشدته {أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} [البلد: ٥]، والله قادر عليه".

قال الطبري:"كان رجلا من بني جمح من أقوى قريش وأشدهم، وكان يبسط له الأديم العكاظي، فيقوم عليه، ويجتمع القوم على الأديم، فيجذبونه من تحت قدمه فينقطع ولا تزول قدمه، وكان شديدا في عداوة النبي، فأنزل الله تعالى هذه الآية فيه".

قال البغوي:"نزلت في أبي الأشدين واسمه أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديدا قويا يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا، فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعا ويبقى موضع قدميه".

قال الطبري:"ذُكر أن ذلك نزل في رجل بعينه من بني جُمح، كان يُدعى أبا الأشدّ، وكان شديدًا، فقال جلّ ثناؤه: أيحسب هذا القويّ بجَلَده وقوّته، أن لن يقهره أحد ويغلبه، فالله غالبه وقاهره".

الثاني: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة. حكاه الثعلبي-أيضا-، والبغوي.

الثالث: أنها نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنّه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله ﷺ فأمره أن يكفّر وقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات منذ دخلت في دين محمّد. قاله مقاتل.

الرابع: أنها نزلت في عمرو بن ود، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله علي بن أبي طالب خلف الخندق، حكاه الزمخشري عن النقاش.

قال الزمخشري-بعد أن ذكر الأقوال السابقة-:"وكان كل واحد منهم قد ادعى أنه أنفق مالا كثيرا على إفساد أمر النبي ﷺ أو في الكفارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله".

=

=

قال المراغي:"وسواء أكانت هذه الآيات نزلت في هؤلاء أم في غيرهم فإن معناها عام كما علمت".

قوله تعالى: {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا} [البلد: ٧].

أي: يقول هذا الكافر المغتر بقوته: أنفقت مالا متراكما بعضه على بعض من كثرته، وهو إنما أهلكه في الباطل، فيفتخر بذلك، فهو يفتخر في إفنائه المال الكثير في شهواته وفي غير وجهه.

و (اللبد) جمع لبدة وهو ما تلبد، أي: كثر واجتمع.

قال المراغي:"أي: إنهم إذا طلب إليهم أن يعملوا عملا من أعمال البر قالوا: إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفاخر والمكارم، ولم يعلموا أن المكرمة ما عده الله مكرمة، والبر ما اعتبره الله برا، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقة الله ورسوله، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصد عن سبيل الله، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أبا جهل بن هشام يقول: أنفقت مالا كثيرا في عداوة محمد ﷺ، فلم ينفعني ذلك، وهو أنه ضمن مالا لمن يقتل محمدا ﷺ، ويقال: أنفق مالا يوم بدر".

قال النحاس:"قيل: يدافع بهذا عن فعل الخيرات، وقيل: قال هذا تندّما، ويدلّ على هذا الجواب ما بعده".

قال السعدي: "وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق".

=

=

عن ابن جريج، في قوله {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا}، قال: "أيمن علينا فما فضلناه أفضل، {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} [البلد: ٨]، وكذا وكذا".

وفي قوله تعالى: {يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا} [البلد: ٧]، وجوه:

أحدها: يعني: مالا كثيراً. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وشرحبيل بن سعد، وابن زيد. ونحوه عن والضحاك.

عن مجاهد: "{مَالا لُبَدًا}، قال: كثيرا".

قال ابن عباس:"يعني باللبد: المال الكثير".

قال ابن زيد:"اللبد: الكثير".

عن شرحبيل بن سعد:"{أهلكت مالا لبدا}، قال: كثير".

وروي عن الضحاك:"{أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا}، قال: أنفقت مالا في الصد عن سبيل الله".

قال الزمخشري:"يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم، ويدعونها معالى ومفاخر".

قال الفراء: أي:"أنفقت مالا كثيرا في عداوة محمد ﷺ وهو كاذب".

وقال الفراء:"اللبد: الكثير. قال بعضهم واحدته: لبدة، و «لبد»: جماع. وجعله بعضهم على جهة: قثم، وحطم واحدا، وهو في الوجهين جميعا الكثير".

الثاني: أي: مالا كثيرا مجتمعـًا بعضه على بعض، ومنه سمي: اللِّبْد، لاجتماعه وتلبيد بعضه على بعض. وهذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، والطبري.

قال أبو عبيدة:"من «التلبّد»، وهو: المال الكثير بعضه على بعض".

قال ابن قتيبة:"أي: كثيرًا. وهو من «التلبُّد»: كأن بعضَه على بعض".

قال الزجاج:"معنى «لُبَد»، كثير، بعضه قَدْ لُبِّدَ بِبَعْض، و «فُعَل» للكثرةِ، يقال: رجل حُطَم: إذا كان كثير الحطم".

=

=

قال الطبري: أي: "يقول هذا الجليد الشديد: أهلكت مالا كثيرا، في عداوة محمد ﷺ، فأنفقت ذلك فيه، وهو كاذب في قوله ذلك، وهو فعل من: التلبُّد، وهو الكثير، بعضه على بعض، يقال منه: لبد بالأرض يَلْبُد: إذا لصق بها".

الثالث: يعني مالاً قديماً، لاشتقاقه من: الأبد، أو للمبالغة في قدمه من عهد لَبِد، لأن العرب تضرب المثل في القدم بلبد، وذكر قدمه لطول بقائه وشدة ضَنِّه به. أفاده الماوردي.

ويُقْرأ: «لُبَّداً»، بالتشديد، جمع: لاَبِد.

قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ} [البلد: ٨]، أي:"أيظنُّ في فعله هذا أن الله ﷻ لا يراه، ولا يحاسبه على الصغير والكبير؟".

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

قال الفراء: أي:"في إنفاقه".

قال الزمخشري: أي:"حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارا بينهم، يعنى: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبا".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: إن لم ير الله تعالى صنيعه فلا يعاقبه بما فعل".

قال المراغي:"أي: أيظن ذلك المغتر بماله، المدعى أنه أنفقه في سبيل الخير- أن الله لم يطلع على أفعاله ولم يعلم ما دعاه إلى الإنفاق؟ إنه لا ينبغى له أن يظن ذلك، فإن البارئ له مطلع على قرارة نفسه، عالم بخبيئات قلبه، لا يعزب عنه شئ في الأرض ولا في السماء، عليم بأنه لم ينفق شيئا من ماله في سبيل الخير المشروع والبر المحمود، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة، أو لمشاقة الله ورسوله، أو في وجوه أخرى يظنها خيرا وهى خسران وضلال مبين".

=

=

قال السعدي: "هذا توعد لهذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات، أي: أيحسب في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟ بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر".

عن قتادة:"{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}، قال: ابن آدم، إنك مسؤول عن هذا المال؛ من أين اكتسبتَه، وأين أنفقتَه".

قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} [البلد: ٨]، أي:"ألم نجعل له عينين يبصر بهما".

قال ابن كثير:"أي: يبصر بهما".

قال الزمخشري:"{عَيْنَيْنِ}: يبصر بهما المرئيات".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألم نجعل لهذا القائل {أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا}، عينين يبصر بهما حجج الله عليه، ولسانا يعبر به عن نفسه ما أراد، وشفتين، نعمة منا بذلك عليه".

قال أبو الليث السمرقندي:"ذكر ما أنعم عليه ليعتبر به ويوحد فقال: ألم نخلق له عينين. يبصر بهما".

قال المراغي:"فهو إذا أبصر شيئا فإنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين، فهذه النعمة التي يعتز بها إنما هي من عملنا".

قوله تعالى: {وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} [البلد: ٩]، أي:"، ولسانًا وشفتين ينطق بها".

قال الزمخشري:"{وَلِساناً}: يترجم به عن ضمائره، {وَشَفَتَيْنِ}، يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك".

قال ابن كثير:"{وَلِسَانًا}، أي: ينطق به، فَيُعبر عما في ضميره، {وَشَفَتَيْنِ} يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالا لوجهه وفمه".

قال أبو الليث السمرقندي:"ولسانا ينطق به وشفتين فيضمهما".

=

=

قال القشيري:"أي: ألم نخلقه سميعا بصيرا متكلّما".

قال الزجاج:"أي: ألم نَفعل به ما يُسـتَدلُّ بـه علـى أن الله قَـادرٌ علـى أن يبعثـه وأن يحصِيَ عليه ما يعمله".

قال ابن أبي زمنين:"فالذي جعل ذلك قادر على أن يبعثه فيحاسبه".

عن قتادة: "{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} : نِعَم من الله متظاهرة، يقررك بها كيما تشكره".

قال المراغي:"فإذا أبان عما في نفسه، فإنمـا يبـين بمـا وهبنـا لـه مـن لـدنا مـن تلـك الجارحة التي يتكلم بها، فإذا غره حديثه، أو قوة حجتـه، فلـيس فـضل ذلـك راجعـا إليه، وإنما الفضل لمن وهبه ذلك".

قال ابن عاشور " والاقتصار على العينين لأنهما أنفع المشاعر ولأن المعلل إنكـار ظنه إن لم يره أحد.

وذكـر الـشفتين مـع اللـسان لأن الإبانـة تحـصل بهـما معـا فـلا ينطـق اللـسان بـدون الشفتين ولا تنطق الشفتان بدون اللسان.

قوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]، أي:"وبينَّا له سبيلَي الخير والشر".

وفي قوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} أقوال:

أحدها: سبيل الخير والشر، قاله علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وابن زيد. وهو المشهور عن ابن عباس.

قال القشيري:"ألهمناه طريق الخير والشّر".

قال الفراء: "النجدان: سبيل الخير، وسبيل الشر".

قال ابن قتيبة:"«النَّجْد»: الطريق في ارتفاع. يريد: طريق الخير والشر".

قـال الزجـاج:"الطـريقين الواضـحين، النجـد المرتفـع مـن الأرض، فـالمعنى: ألـم نعرفه طريق الخير وطريق الشر بينين كبيان الطريقين العاليين".

=

=

عن أبي عمارة، عن علي- رضي الله عنه- في قوله جل وعز: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، قال: الخير والشر".

قال ابن مسعود- رضي الله عنه -:"نجد الخير، ونجد الشرّ".

قال ابن عباس:"هديناه السبيلين: سبيل الخير، وسبيل الشر، يقول: عرفناه سبيل الخير، وسبيل الشر".

قال مجاهد:"سبيل الخير والشرّ".

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير».

عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: "هُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ خَيْرٍ، وَنَجْدُ شَرّ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الخَيْرِ".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "أَيُّها النَّاسُ إِنَّمَا هُمَا النَجْدَانِ: نَجْدُ الخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرّ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الخَيْرِ".

قال سهل:"بيّنّا له طريق الخير ليتبعه، وطريق الشر ليجتنبه، كما قال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣]. وقيل: يعني التدبير".

قال ابن كثير:"ونظير هذه الآية قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [سورة الإنسان: ٢، ٣]".

قال الجصاص:"يعني -والله أعلم-: بينا سبيل الخير والشر ليجتبي الخير ويجتنب الشر وكما قيل لعمر ابن الخطاب: «فلان لا يعرف الشر. قال: أجدر أن يقع فيه»".

الثاني: سبيل الهدى والضلالة، قاله ابن عباس.

قال ابن أبي زمنين:"أي: بصرناه السبيلين: سبيل الهدى، وسبيل الضلالة".

=

=

الثالث: سبيل الشقاء والسعادة، قاله مجاهد.

الرابع: الثديين ليتغذى بهما، قاله ابن عباس- في رواية عنه-، وابن المسيب، والضحاك، وقتادة، والربيع بن خثيم.

عن ابن عباس:"{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، قال: هما الثديان".

عن محمد بن كعب القرظي:"أن ابن عباس، قال في قوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، قال: «الثديين».

عن الضحاك، قال: "الثديان".

وروي عن أبي بُردة، قال: "مرّ بنا الربيع بن خثيم، فسألناه عن هذه الآية: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، فقال: أما إنهما ليسا بالثديين".

قال الطبري:"الصواب في ذلك عندنا: قول من قال: عُنِي بذلك طريق الخير والشرّ، وذلك أنه لا قول في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا، والثديان وإن كانا سبيلي اللبن، فإن الله تعالى ذكْره إذ عدّد على العبد نِعَمه بقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}، إنما عدّد عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير من نعمه، فكذلك قوله: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}".

قال المراغي:"أي: وأودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنبها، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير وأرشدناه إلى ما في الشر من هنوات وعيوب، ثم أقدرناه على أن يسلك أيّ الطريقين شاء، بعد أن آتيناه قوة التمييز، والقدرة على الاختيار والترجيح، ليسلك الطريق التي أراد منهما، فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر في آيات الله، والتدبر في دلائله، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوى بصاحبه إلى طريق الردى، ويوقعه في المهالك. وإنما سماهما الله نجدين، للإشارة إلى أنهما واضحان

=

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١).

{فَلَا} فَهَلَّا {اِقْتَحَمَ الْعَقَبَة} جَاوَزَهَا.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا الْعَقَبَة} الَّتِي يَقْتَحِمهَا تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا وَالْجُمْلَة

=

كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار، وإلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها. وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية وتوصل إلى الغاية".

والهداية هنا: هداية الدلالة لا هداية التوفيق، فقد تقدم أن الهداية هدايتان: هداية الدلالة، ويملكها البشر بإذن الله، قال تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم).

وقال تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد).

وقال تعالى (وأهديك إلى ربك فتخشى) أي: أدلك على عبادة ربك فتحصل على الخير، فالهداية هنا هداية الدلالة، يملكها البشر بإذن ربهم.

أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى، قال تعالى (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء).

قال بعض العلماء: وكأنهما إنما سميا نجدين- أي: سبيل الخير والشر: لأنهما لما وضحت الدلائل، وقربت الحجج، وظهرت البراهين، جعلا كالطريق المرتفعة العالية، في أنها واضحة لذوي الأبصار.

أو إنما سميا بذلك، للإشارة إلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير، بل الغالب أن يكون طريق الشر، أشق وأصعب، وأحوج إلى الجهد.

اِعْتِرَاض وَبَيَّنَ سَبَب جَوَازهَا بقوله.

فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣).

{فَكّ رَقَبَة} مِنْ الرِّقّ بِأَنْ أَعْتَقَهَا.

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤).

{أَوْ إِطْعَام فِي يَوْم ذِي مَسْغَبَة} مَجَاعَة.

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥).

{يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة} قَرَابَة.

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦).

{أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة} لُصُوق بِالتُّرَابِ لِفَقْرِهِ وَفِي قِرَاءَة بَدَل الْفِعْلَيْنِ مَصْدَرَانِ مَرْفُوعَانِ مُضَاف الْأَوَّل لِرَقَبَةٍ وَيُنَوَّن الثَّانِي فَيُقَدَّر قَبْل الْعَقَبَة اِقْتِحَام وَالْقِرَاءَة الْمَذْكُورَة بَيَانه.

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧).

{ثُمَّ كَانَ} عَطْف عَلَى اِقْتَحَمَ وَثُمَّ لِلتَّرْتِيبِ الذِّكْرِيّ وَالْمَعْنَى كَانَ وَقْت الِاقْتِحَام {مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا} أَوْصَى بَعْضهمْ بَعْضًا {بِالصَّبْرِ} عَلَى الطَّاعَة وَعَنْ الْمَعْصِيَة {وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} الرَّحْمَة عَلَى الخلق.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨).

{أُولَئِكَ} الْمَوْصُوفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَات {أَصْحَاب الْمَيْمَنَة} الْيَمِين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩).

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَاب الْمَشْأَمَة} الشِّمَال.

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠).

{عليهم نار مؤصدة} بالمهمزة والواو بدله مطبقة(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ } [البلد: ١١]، أي: فهلا تجاوز مشقة الآخرة بإنفاق ماله، فيأمن.

قال ابن قتيبة:"أي: فلا هو اقتحم العقبة".

والمعنى: لقد جعلنا للإنسان عينين ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين. فهلا بعد كل هذه النعم، فعل ما يرضينا، بأن جاهد نفسه وهواه، وبأن قدم ماله في فك الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين.

قال القرطبي: "أي فهلا أنفق ماله الذي أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العقبة فيأمن!.

الاقتحام الدخول في الأمر الشديد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلم يركب العقبة فيقطعها ويحوزها".

قال أبو عبيدة:"فلم يقتحم العقبة في الدنيا".

قال السعدي: "أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته".

قال ابن أبي زمنين:"أي: لم يقتحم العقبة، وهذا خبر، أي: أنه لم يفعل. العرب تقول: لا فعل بمعنى لم يفعل".

قال الزمخشري: "يعنى: فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة: من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة، وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضى النافع عند الله، لا أن يهلك مالا لبدا في الرياء والفخار، فيكون مثله: {مَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ... }، الآية".

وفي تفسير الآية، أقوال:

أحدها: أنها طريق النجاة، قاله ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:"{اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}، أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير".

الثاني: أنها جبل في جهنم، قاله ابن عمر.

الثالث: أنها عقبة شديدة في النار دون الجسر، قاله الحسن، وقتادة.

قال قتادة:"للنار عقبة دون الجسر".

قال قتادة:"إنها قحمة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله".

قال قتادة:"النار عقبة دون الجنة".

قال قتادة:"للناس عقبة دون الجنة واقتحامها {فَكُّ رَقَبَةٍ} [البلد: ١٣]، الآية".

عن الحسن، في قوله: "{فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}، قال: جهنم".

وقال الحسن:"عَقَبَةٌ في جهنم".

الرابع: أن «العقبة»: النار. قاله ابن عباس.

الخامس: سبعون دركة في جهنم، قاله كعب.

قال كعب:"العقبة: سبعون درجة في جهنم".

عن أبي رجاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بلغني أن «العقبة»، التي ذكر الله في كتابه، مطلعها سبعة آلالف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة".

السادس: أنها الصراط يضرب على جهنم كحد السيف، قاله مجاهد، والضّحّاك، والكلبي.

حكي عنهم الثعلبي، قالوا: "هي الصراط يضرب على جهنّم كحدّ السيف مسيرة ثلاثة آلاف سهلا وصعودا وهبوطا، وأنّ لجنبتيه كلاليب وخطاطيف كأنّها شوك السعدان، فناج مسلم وناج مخدوس ومكردس في النار منكوس، فمن الناس من يمرّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمرّ عليه كالريح العاصف، ومنهم من يمرّ عليه كالفارس، ومنهم من يمرّ عليه كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفا،

=

=

ومنهم الزالّون والزالّات، ومنهم من يكردس في النار، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء".

السابع: أن ذكر «العقبة» -هاهنا- مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البِرِّ، فجعله كالذي يتكلَّف صعود العقبة. يقول: لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة، والإطعام، وهذا قول قتادة، والحسن، وذكره علي بن أحمد النيسابوري في آخرين.

قال قتادة:"هذا مَثَل ضربه الله سبحانه، يقول: إنّ المعتق والمطعم يقاحم نفسه وشيطانه مثل مَن يتكلّف صعود العقبة".

قال الزمخشري: "الاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة. والقحمة: الشدة، وجعل الصالحة: عقبة، وعملها: اقتحاما لها، لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة والله شديدة. مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان".

قال القشيري:"«العقبة» التي يجب على الإنسان اقتحامها: نفسه وهواه، وما لم يجز تلك العقبة لا يفلح".

قال الثعلبي:"يقال: إنّه شبّه عظم الذنب وثقلها على مرتكبها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحا كان مثله مثل من اقتحم تلك العقبة، وهي الذنوب حتّى تذهب وتذوب، كمن يقتحم عقبة فيستوي عليها ونحوها".

قال الحسن: "عقبة -والله- شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه وشيطانه وهواه وعدوه".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ} [البلد: ١٢].

أي وما أدراك وما أعلمك ما اقتحام العقبة، وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما العقبة".

=

=

قال السمعاني:"أي: فما أدراك ما تجاوز بها العقبة".

حكي عن سفيان بن عيينة أنه قال:"كلّ ما قال جلّ وعزّ: «وما أدراك»، فقد بيّنه، وما قال فيه: «وما يدريك»، فلم يبيّنه".

قال النحاس:"فهذا غلط قد قال الله ﷻ: {وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ} [القارعة: ٣]، وقال تعالى ذكره: {ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ٣]، وليس بعد هذا يتبين".

قوله تعالى: {فَكُّ رَقَبَةٍ } [البلد: ١٣].

أي: الأعمال التي تجعلك تتجاوز هذه العقبة (فك رقبة) أي: فكها من الرق، بعتقها أو مساعدتها في أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

قال الأخفش:"أي: "«العقبةُ»: فكُّ رقبةٍ {أَوْ إِطْعَامٌ}".

عن قتادة:"{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}، ثم أخبر عن اقتحامها، فقال: {فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ}".

قال الراغب:"الفَكَكُ: التّفريج، وفَكُّ الرّهن: تخليصه، وفَكُّ الرّقبة: عتقها".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَكُّ رَقَبَةٍ} [البلد: ١٣]، أقوال:

أحدها: يعني: فك رقبة من الذنوب بالتوبة. قاله عكرمة.

قال الماوردي:"يحتمل أنه أرد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، لا يمنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه الصواب".

وقال القشيري:"«فَكُّ رَقَبَةٍ» هو إعتاق نفسه من رقّ الأغراض والأشخاص".

الثاني: أنه أراد عتق الإنسان نفسه من عذاب الله بالكلم الطيّب والعمل الصّالح، وفكّ غيره بما يفيده من ذلك. حكاه الراغب.

قال الراغب:"والثاني يحصل للإنسان بعد حصول الأوّل، فإنّ من لم يهتد فليس في قوّته أن يهدي".

=

=

الثالث: يعني: إخلاصها من الأسر. حكاه الماوردي.
قال السعدي: "ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار".
قال ابن عطية:"وكذلك فك الأسير إن شاء الله، وفداؤه أن ينفرد الفادي به".
الرابع: يعني: عتقها من الرق، وسمي المرقوق رقبة، لأنه بالرق كالأسير المربوط من رقبته، وسمي: عتقًا فكها، لأنه كفك الأسير من الأسر، قال حسان بن ثابت :
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكنَاهُ بِلاَ ثَمَنٍ... وجَزِّ نَاصِيةٍ كُنَّا مَواليهَا
قال ابن قتيبة:"أي: عِتقُها وفكُّها من الرِّق".
قال مكي بن أبي طالب:"أي: اقتحامها والنجاة منها هو فك رقبة من الرق وأسر العبودية".
قال ابن عاشور: والرقبة مراد بها الإنسان، من إطلاق اسم الجزء على كله مثل إطلاق رأس وعين ووجه، وإيثار لفظ الرقبة هنا لأن المراد ذات الأسير أو العبد وأول ما يخطر بذهن الناظر لواحد من هؤلاء، هو رقبته لأنه في الغالب يوثق من رقبته.
وقد روى عقبة بن عامر الجهني: أن رسول الله ﷺ قال: "من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار".
قال الحسن:"ذُكر لنا أنه ليس مسلم يعتق رقبة مسلمة، إلا كانت فداءه من النار".
قال قتادة: ذُكِر أن قيسا الجذامي حَدّث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: "من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار".
قال قتادة: "ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ سُئل عن الرقاب أيها أعظم أجرا؟ قال: "أكثرها ثمنا".
وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار). متفق عليه.

=

=

عن أبي نجيح، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلا مُسْلِمًا، فإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ، عَظْما مِنْ عِظام مُحَرِّرِهِ مِنْ النَّار؛ وأَيُّمَا امْرأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً، فإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنَ عِظَامِهَا، عَظْما مِنَ عِظامِ مُحَرّرِها مِنَ النَّار".

عن سُليم بن عامر: "أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عَبسةَ حَدِّثنا حديثًا ليس فيه تَزَيّد ولا نسيان. قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار، عُضْوا بعضو. ومن شاب شيبة في سبيل الله، كانت له نورا يوم القيامة، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ، كان كمعتق رقبة من بني إسماعيل".

عن أبي أمامة، عن عمرو بن عَبَسَةَ، قال السلمي، قلت له: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وَهم. قال: سمعته يقول: "من وُلد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنْثَ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة، ومن رَمى بسهم في سبيل الله، بلغ به العدو، أصاب أو أخطأ، كان له عتق رقبة. ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها".

عن الغريف بن الديلمي، قال: أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له: حدثنا حَديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته، فيزيد وينقص. قلنا: إنما أردنا حديثًا سمعتَه من رسول الله ﷺ. قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب- يعني النار- بالقتل، فقال: "أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار".

=

=

عن سعيد بن مرجانة: "أنه سمع أبا هُرَيرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب منها إربا منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج". فقال علي بن الحسين: أنتَ سَمعتَ هذا من أبي هُرَيرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له- أفْرَهَ غلمانه -: ادعُ مطْرَفًا. فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حُر لوجه الله".

عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملا يدخلني الجنة. فقال: "لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقد أعرضت المسألة. أعتق النسمة، وفك الرقبة". فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال: "لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم؛ فإن لم تُطِق ذلك فأطعم الجائعَ، واسْقِ الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير".

قال ابن عادل الحنبلي:"قال أبو حنيفة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: العِتْقُ أفضل من الصدقة، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدلّ على قول أبي حنيفة، لتقديم العتق على الصدقة".

قرئ: {فَكُّ رَقَبَةٍ} بالإضافة، وقُرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل و «الرقبة» مفعوله، وكلتا القراءتين معناهما متقارب.

قوله تعالى: {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} [البلد: ١٤]، أي:"أو إطعام في يوم ذي مجاعة شديدة".

فإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل.

قال بعض العلماء: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس.

=

قال الرازي: واعلم أن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر، وهو كقوله (وآتى المال على حبه) وقال (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا).

قال ابن عاشور: ووجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإطعام فيه أن الناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال خشية امتداد زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات، فالإطعام في ذلك الزمن أفضل، وهو العقبة ودون العقبة مصاعد متفاوتة.

قال الطبري:"يقول: أو أطعم في يوم ذي مجاعة، والساغب: الجائع".

قال أبو عبيدة:"أي: مجاعة".

قال الزجاج:"المسغبة: المجاعة".

قال ابن عطية:"«المسغبة»: الجوع العام".

قال السعدي: "أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة".

عن مجاهد: "{فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، قال: الجوع".

عن ابن عباس: "{أو أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، يوم مجاعة".

عن ابن عباس، والضحاك: "{فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَة}: مجاعة".

قال عكرمة:"ذي مجاعة".

قال الحسن:"في يوم، الطعام فيه عزيز". وروي عن إبراهيم مثله.

وقال قتادة:"يوم يُشْتَهَى فيه الطعام".

قوله تعالى: {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} [البلد: ١٥]، أي:"يتيمًا -مات أبوه وهو صغير- من ذوي القرابة يجتمع فيه فضل الصدقة وصلة الرحم".

ووجه تخصيصه بالإطعام أنه مظنة قلة الشبع لصغر سنه وضعف عمله وفقد من يعوله ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رغب في إطعامه وإن لم =

=

يصل حد المسكنة والفقر ووصف بكونه (ذا مقربة) أي مقربة من المطعم لأن هذا الوصف يؤكد إطعامه لأن في كونه يتيما إغاثة له بالإطعام، وفي كونه ذا مقربة صلة للرحم.

قال الطبري:"يقول: أو أطعم في يوم مجاعة صغيرًا لا أب له من قرابته، وهو اليتيم ذو المقرَبة؛ وعُنِي بذي المقربة: ذا القرابة".

قال البغوي:"يريد يتيما بينك وبينه قرابة".

قال ابن عباس:"أي: ذا قرابة". وروي عن ابن زيد مثله.

قال عكرمة والحسن والضحاك والسدي:"أي: ذا قرابة منه".

قال ابن عطية:"معناه: ذا مقربة لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ لزينب امرأة عبد الله بن مسعود: «تصدقي على زوجك فهي صدقة لك وصلة» ".

عن الشعبي:"أن زينب امرأة عبد الله سألت رسول الله ﷺ عن الصدقة على الأقارب، فقال: «الصدقة على الأقارب تضاعف على غير الأقارب مرتين»".

عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة".

قوله تعالى: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد: ١٦]، أي:"أو فقيرًا معدمًا لا شيء عنده، فقيرا مدفعا لاصقا بالتراب من فقره وضره، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس".

قال ابن عطية:"و {أَوْ} في قوله {أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ}، فيها معنى الإباحة ومعنى التخيير، لأن الكلام يتضمن معنى الحض والأمر فيها أيضا معنى التفضيل المجرد، لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون أَوْ فيه إلا منفصلة، وأما معنى الشك أو الإبهام فلا مدخل لها في هذه الآية".

=

=

وفي تفسير قوله تعالى: {أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد: ١٦]، أقوال:

أحدها: أن «ذا المتربة»: هو المطروح على الطريق لا بيت له، قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن عباس:"المُلقى في الطريق الذي ليس له بيت إلا التراب".

قال ابن عباس:"هو المطروح الذي ليس له بيت".

قال ابن عباس:"المسكين؛ المطروح في التراب".

قال ابن عباس:"هو المسكين الملقى بالطريق بالتراب".

قال ابن عباس، ومجاهد:"الذي ليس له مأوى إلا التراب".

الثاني: الذي قد ألصقه الفقر بالتراب، فلا يقيه من التراب لباس ولا غيره، قاله ابن عباس-أيضا، والحسن، ومجاهد-أيضا-، وعكرمة، وأبو الرجاء، وعطاء الخراساني، وأبو عبيدة.

عن مجاهد: "{ذَا مَتْرَبَةٍ}، قال: ساقط في التراب".

قال مجاهد:"المطروح في الأرض، الذي لا يقيه شيء دون التراب".

قال مجاهد:"الذي لا يقيه من التراب شيء"".

قال مجاهد:"الذي لا يُواريه إلا التراب".

قال ابن عباس:"الذي ليس له شيء يقيه من التراب".

قال ابن عباس:"هو المُلزق بالأرض، لا يقيه شيء من التراب".

قال ابن عباس:"التراب: الملقى على الطريق على الكُناسة".

قال ابن عباس:"هو اللازق بالتراب من شدّة الفقر".

قال عكرمة:"الملتزق بالأرض من الحاجة". وفي لفظ:"المترب: اللازق بالأرض من الجهد".

قال عكرمة:"التراب: اللاصق بالأرض".

=

=

قال عكرمة:"ليس بينه وبين التراب شيء قد لزق به".

عن أبي صالح، عن ابن عباس: أنه مر بمسكين لاصق بالتراب حاجة، فقال: هذا الذي قال الله تبارك وتعالى: {أو مسكينا ذا متربة}".

قال أبو عبيدة:"قد لزق بالتراب".

قال ابن قتيبة:"أي: ذا فقرٍ، كأنه لَصِق بالتراب من الفقر".

قال الزجاج:"يعنى: أنه من فقره قد لصق بالتُّرَاب".

قال مقاتل:"يعني: فقيرا قد التصق ظهره بالتراب من العري، وشدة الحاجة، فيستحي أن يخرج فيسأل الناس".

قال ابن عطية:"معناه: مذقعا قد لصق بالتراب وهذا مما ينحو إلى أن المسكين أشد فاقة من الفقير".

الثالث: أنه ذو العيال، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك.

قال قتادة:"مسكين ذو بنين وعيال، ليس بينك وبينه قرابة".

قال قتادة:"كنا نحدّث أن الترب هو ذو العيال الذي لا شيء له".

قال الضحاك:"ذا عيال لاصقين بالأرض، من المسكنة والجهد".

الرابع: أنه المديون، قاله عكرمة.

الخامس: أنه ذو زمانة، قاله أبو سنان.

السادس: أنه الذي ليس له أحد، قاله ابن جبير.

السابع: أن ذا المتربة: البعيد التربة، يعني: الغريب البعيد عن وطنه، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"يعني: بعيد التربة، أي: غريبا من وطنه".

الثامن: أن «المتربة»: شدة الحاجة، من قولهم: ترب الرجل إذا افتقر. قاله ابن عباس، وابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:"ذا حاجة، الترب: المحتاج".

وقال عكرمة:"هو المحارَف الذي لا مال له".

قال الثعلبي:"سمعت أبا القاسم الحلبي، يقول: سمعت أبا حامد الخازرجي، يقول: المتربة -هاهنا-: من التربة، وهي: شدّة الحال، وأنشد الهذلي :

وكُنَّا إِذا مَا الضيفُ حَلَّ بأَرضِنا... سَفَكْنا دِماءَ البُدْن فِي تُرْبَة الْحَالِ".

التاسع: أن «المسكين ذو المتربة»: هو الرجل الذي يخرج من بيته إلى حاجة، ثم يرد وجهه منقلبا إلى بيته يستيقن ليس له فيه إلا التراب. وهذا قول أبو سعيد الخدري.

عن حنش بن عبد الله:"أن أبا سعيد الخدري قال له: سل لي عبد الله بن عباس عن: {مسكينا ذا متربة}، قال: فلقيت ابن عباس فقلت له: ما «المسكين ذا متربة»، فقال: المسكين ذو المتربة الرجل الذي يخرج من بيته إلى حاجة، ثم يرد وجهه منقلبا إلى بيته يستيقن ليس له فيه إلا التراب".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عُنِيَ به: أو مسكينا قد لصق بالتراب من الفقر والحاجة؛ لأن ذلك هو الظاهر من معانيه. وأن قوله: {مَتْرَبَةٍ} إنما هي «مَفْعَلةٍ»، من ترب الرجل: إذا أصابه التراب".

قوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [البلد: ١٥]، أي:"ثم كان مع فِعْل ما ذُكر من أعمال الخير من الذين أخلصوا الإيمان لله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثم كان هذا الذي قال: {أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا} من الذين آمنوا بالله ورسوله، فيؤمن معهم كما آمنوا".

قال السمعاني:"يعني: يقتحم العقبة من فعل هذه الأشياء، فكان من الذين آمنوا".

قال مقاتل:"آمنوا بالله- تعالى- وملائكته وكتبه ورسله وجنته وناره".

=

=

قال السعدي: "أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم. من كل قول وفعل واجب أو مستحب".

قال النحاس:"ثم كان من الذين آمنوا، أي: ثبت على الإيمان، وقيل: ثم للإخبار".

قال الزجاج:"معناه: إذا فعل ذلك وكان عقد الإيمان ثم أقام على إيمانه".

قال ابن كثير:"أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله ﷻ. كما قال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩] وقال {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} الآية [النحل: ٩٧]".

* فإن قيل: لما كان الإيمان شرطا للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدما عليها، فما السبب في أن الله تعالى أخره عنها بقوله (ثم كان من الذين ءامنوا)؟

والجواب: من وجوه:

أحدها: أن هذا التراخي في الذكر لا في الوجود، كقوله:

إن من ساد ثم ساد أبوه.. ثم قد ساد قبل ذلك جده

لم يرد بقوله: ثم ساد أبوه التأخر في الوجود، وإنما المعنى، ثم اذكر أنه ساد أبوه كذلك في الآية.

وثانيها: أن يكون المراد، ثم كان في عاقبة أمره من الذين آمنوا وهو أن يموت على الإيمان فإن الموافاة شرط.

وثالثها: أن من أتى بهذه القرب تقربا إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد ﷺ ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه السلام، فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات، قالوا: ويدل عليه ما روي: أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول الله ﷺ (إنا كنا نأتي

=

=

بأعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ : أسلمت على ما قدمت من الخير).

ورابعها: المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى.

قال النحاس: هو مشكل، وأحسن ما قيل فيه أن معناه: ثم أخبركم أنه كان من الذين آمنوا حين فعل هذه الأشياء.

وقال ابن العربي والجصاص:"«ثم» بمعنى: «الواو»". أي: "وكان من الذين آمنوا".

قال النحاس: "وهذا لا يصح ولا يجوز".

قال ابن عطية:"معنى قوله {ثُمَّ كانَ}، أي: كان وقت اقتحامه العقبة، {مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، وليس المعنى أنه يقتحم، ثم يكون بعد ذلك، لأن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن وذلك غير نافع".

قال الزمخشري:"جاء بـ «ثم»، لتراخى الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به".

قال الشوكاني: "(ثم كان من الذين ءامنوا) عطف على المنفي بلا. وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله".

قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [البلد: ١٦]، أي:"وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه".

فالتواصي بالصبر من شيم أهل الإيمان والصلاح (والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا) أي: أوصى بعضهم بعضا بالصبر، (بالحق وتواصوا بالصبر).

=

=

وقال تعالى عن لقمان (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر) فلقمان يوصي ولده بالصبر.

قال الطبري:"يقول: وممن أوصى بعضهم بعضا بالصبر على ما نابهم في ذات الله".

قال الزجاج:"أي: على طاعة الله، والصبر عن الدخول في معاصيه".

قال ابن عطية:"معناه: على طاعة الله وبلائه وقضائه وعن الشهوات والمعاصي".

قال ابن كثير:"أي: المتواصين بالصبر على أذى الناس".

قال سهل:"يعني: بالصبر على أمر الله".

قال مقاتل:"يعني: على فرائض الله- تعالى- ما افترض عليهم في القرآن، فإنهم إن لم يؤمنوا بالله، ولم يعملوا الصالحات، ولم يصبروا على الفرائض، لم أقبل منهم كفاراتهم وصدقاتهم".

قال السمعاني:"أي: بالصبر عن معاصي الله، وقيل: بالصبر على طاعة الله، وقيل: بالصبر عن لذات الدنيا وشهواتها".

قال الزمخشري:"أي: أوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه. أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن".

قال السعدي: أي: "على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشرحًا به الصدر، مطمئنة به النفس".

عن كعب:"{وتواصوا بالصبر} [البلد: ١٧]: «على فرائض الله وحكمه»".

عن هشام بن حسّان، في قوله:"{وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ}، قال: على ما افترض الله".

=

=

قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: ١٧]، أي:"وتواصوا بالرحمة بالخلق من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية".

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه.

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد.

قال الزجاج:"ثم كان مع ذلك من الذين يتواصون {بِالْمَرْحَمَةِ}".

قال الزمخشري:"المرحمة: الرحمة، أي وأوصوا بأن يكونوا متراحمين متعاطفين. أو بما يؤدى إلى رحمة الله".

قال السمعاني:"أي: مرحمة بعضهم على بعض،: {وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}: هو وصية البعض البعض".

قال الثعلبي: أي:"برحمة الناس".

قال ابن كثير:"والمتواصين على الرحمة بهم".

قال سهل:"والتراحم بين الخلق. وقد سئل رسول الله ﷺ ما الإسلام؟ فقال: «الصبر والسماح. فقيل: ما الإيمان؟ فقال: طيب الكلام وإطعام الطعام». قال سهل: وأطيب الكلام ذكر الله تعالى".

قال مقاتل:"يعني: بالرحم، فلا يقطعونها".

قال ابن عطية:"قيل: هو التراحم وعطف بعض من الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس ولو لم يتراحموا جملة هلكوا".

قال السعدي: "من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه".

=

=

قال ابن عباس:"مَرْحَمة الناس".

قال ابن عباس:"يعني: بذلك رحمة الناس كلهم".

وجاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وفي حديث آخر: «لا يَرْحَم اللهُ من لا يَرْحَم الناس» ".

عن ابن عامر عن عبد الله بن عَمْرو- يرويه- قال: "من لم يَرْحم صغيرنا ويَعْرِف حَقَّ كبيرنا، فليس منا".

قال الشوكاني: فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها.

قال ابن عاشور: وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر وتواصيهم بالمرحمة لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر، والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية قال تعالى (رحماء بينهم).

والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضا كناية عن اتصافهم بالمرحمة لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها، كما تقدم في قوله تعالى (ولا تحضون على طعام المسكين) وفيه تعريض بأن أهل الشرك ليسوا من أهل الصبر ولا من أهل المرحمة، وقد صرح بذلك في قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين) إلى قوله (وما يلقاها إلا الذين صبروا) وقوله (كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } [البلد: ١٨]

=

=

أي: الذين فعلوا هذه الأفعال، هم أصحاب اليمين، الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين إلى الجنة.

قال الطبري: "يقول: الذين فعلوا هذه الأفعال التي ذكرتها، من فكّ الرقاب، وإطعام اليتيم، وغير ذلك، أصحاب اليمين، الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين إلى الجنة".

قال ابن كثير: "أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين".

قال السعدي: "لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها".

وفي تسميتهم «أصحاب الميمنة»، سبعة وجوه:

أحدها: لأنهم أُخذوا من شق آدم الأيمن، قاله زيد بن أسلم.

الثاني: لأنهم أوتوا كتابهم بأيمانهم. قاله عطاء، ومحمد بن كعب.

الثالث: لأنهم أهل الحسنات. قاله ابن جريج.

الرابع: لأنهم ميامين على أنفسهم. قاله الحسن، والربيع، ويحيى بن سلام.

قال الزجاج: "أولئك أصحاب اليمن على أنفسهم، أي: كانوا ميامين على أنفسهم غير مشائيم".

الخامس: لأنهم أهل الجنة. قاله السدي.

قال النحاس: "يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة".

قال ابن عطية: "«الْمَيْمَنَةِ»: هي فيما روي عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس".

السادس: لأنهم أصحاب التقدم، والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي: اجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين. قاله المبرد.

السابع: لأنه منزلهم على اليمين، قاله ميمون.

=

=

عن أنس بن مالك، قال: «كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: "فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل: لخازن السماء افتح، قال: من هذا؟ قال هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول: ففتح،- قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس- فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت من هذا؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموسى فقال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ "، قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم، أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري، كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»، قال ابن حزم، وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: "ففرض الله

=

=

ﷺ على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي، حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك"».

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا} [البلد: ١٩]، أي:"والذين كفروا بالقرآن، فنبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به ولا عملوا صالحا، ولا رحموا عباد الله".

عن سعيد بن جبير: "{آياتنا}، يعني: القرآن".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{آيات الله}، يعني: القرآن".

قال الطبري:"يقول: والذين كفروا بأدلتنا وأعلامنا وحججنا من الكتب والرُّسل وغير ذلك".

قال السعدي: "بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله".

قوله تعالى: {هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} [البلد: ١٩]، أي:"هم الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات الشمال إلى النار".

قال الطبري:"يقول: هم أصحاب الشمال يوم القيامة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال".

=

=

قال ابن كثير: "أي: أصحاب الشمال".

قال الزجاج: "«أصحاب الشمال»: هم أصحاب المنزلة الدنيئة الخسيسة".

قال ابن قتيبة: "والعرب تسمِّي اليدَ اليسرى: الشُّؤمَى؛ والجانبَ الأيسر: الجانبَ الأَشْأَمَ. ومنه قيل: اليُمْن والشُّؤم. فاليُمن: كأنه ما جاء عن اليمين؛ والشُّؤم: ما جاء عن الشمال. ومنه سميت: اليَمَنُ، والشَّأم".

وفي تسميتهم بذلك، سبعة وجوه:

أحدها: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر، قاله زيد بن أسلم.

الثاني: لأنهم أوتوا كتابهم بشمالهم، قاله عطاء، ومحمد بن كعب.

الثالث: لأنهم أهل السيئات، قاله ابن جريج.

الرابع: لأنهم مشائيم على أنفسهم، قاله الحسن، والربيع، ويحيى بن سلام.

قال الزجاج: "أي: هم المشائيم على أنفسهم، نعوذ بالله من النار".

الخامس: لأنهم أهل النار، قاله السدي.

قال النحاس: "يؤخذ بأهل النار ذات الشمال إلى النار".

السادس: لأنهم أصحاب التأخر. والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي: اجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين. قاله المبرد.

السابع: لأن منزلهم عن اليسار، وهو مقتضى قول ميمون.

قال ابن عطية: "«الْمَشْأَمَةِ»: الجانب الأشأم وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليمن والشام للواقف بباب الكعبة متوجها إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمى هي اليسرى".

قوله تعالى: {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ} [البلد: ٢٠]

أي: جزاؤهم جهنم مطبَقةٌ مغلقة عليهم.

=

=

قال الطبري: يقول: "عليهم نار جهنم يوم القيامة مُطْبَقة؛ يقال منه: أوصدت وآصدت".

قال ابن كثير:"أي: مطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها".

قال السعدي: "أي: مغلقة، في عمد ممددة، قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة".

قال أبو عبيدة:"مطبقة، آصدت وأوصدت، وهو أطبقت".

عن أبي هريرة:"{مُؤْصَدَةٌ}، قال: مؤصدة مطبقة".

عن ابن عباس: "{عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}، قال: مُطْبَقة".

قال ابن عباس:"مغلقة الأبواب".

قال الضحاك:"مغلقة عليهم".

عن الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطية العوفي:"{عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ}، قال: مُطبَقة".

قال قتادة:"أي: مُطْبَقة، أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها ولا فرج، ولا خروج منها آخر الأبد".

وقال أبو عمران الجوني: "إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان، وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا في الحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أو صدوها عليهم، أي: أطبقوها قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدا، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدا، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدا".

* مسألة: قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: وأما سورة {لا أقسم بهذا البلد} فذكر فيها جواب القسم، وهو قوله: {لقد خلقنا الإنسان في كبد (٤)} [البلد: ٤].

وفسر "الكبد":

=

=

بالاستواء وانتصاب القامة.

قال ابن عباس- في رواية مقسم عنه -: "مستقيم منتصب على قدميه".

وهذا قول: أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد الله ابن شداد.

قال المنذري : "سمعت أبا طالب يقول: "الكبد": الاستواء والاستقامة".

وفسر بالنصب.

هذا قول: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن. ورواية عن: علي، وابن عباس.

قال الحسن: "لم يخلق الله خليقة تكابد ما يكابد ابن آدم".

وقال سعيد بن أبي الحسن : "يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة".

وقال قتادة: "يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة".

وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: "يعني: حمله، وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه، وحياته، ومعاشه، وموته؛ كل ذلك شدة".

قال مجاهد: "حملته أمه كرها، ووضعته كرها، ومعيشته في شدة، فهو يكابد ذلك".

وعلى هذا: "الكبد": من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته. والرجل يكابد الليل: إذا قاسى هوله وصعوبته.

و"الكبد": شدة الأمر، ومنه تكبد اللبن: إذا غلظ واشتد. ومنه "الكبد"؛ لأنها دم يغلظ ويشتد.

وانتصاب القامة والاستواء من ذلك، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة.

فالإنسان مخلوق في شدة؛ بكونه في "الرحم"، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب والنار، ولا راحة له إلا في الجنة.

=

=

وفسر "الكبد" بشدة الخلق، وإحكامه، وقوته، ومنه قول لبيد :

يا عين هلا بكيت أربد، إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد؟ أي: في شدة وعناء.

وهذا يشبه قوله تعالى: {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم} [الإنسان: ٢٨]، قال ابن عباس: "أي: خلقهم".

وقال أبو عبيدة: "الأسر": شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر". قال: "وكل شيء شددته من قتب أو غبيط فهو مأسور".

وقال المبرد: """الأسر": القوى كلها".

وقال الليث : """الأسر": قوة المفاصل والأوصال، وشد الله أسر فلان، أي: قوى خلقه، وكل شيئين جمع طرفاهما فشد أحدهما بالآخر فقد أسر".

وقال الحسن: "شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب".

وقال مجاهد: "هو الشرج ؛ يعني: موضع مصرتي البول والغائط، إذا خرج الأذى تقبضتا".

والمقصود أنه- سبحانه- أقسم في "سورة البلد" على حال الإنسان، وأقسم- سبحانه- بالبلد الأمين وهو "مكة" أم القرى، ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: أصل المكان، وأصل السكان؛ فمرجع البلاد إلى "مكة"، ومرجع العباد إلى آدم.

وقوله: {وأنت حل بهذا البلد (٢)} فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول، وهو ضد الظعن.

=

=

فإن أريد به المعنى الأول فهو حال ساكن البلد، بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع. ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هم في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان.

والمقصود إنما هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه؛ فإنه إذا أقسم به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالأمن والتعظيم.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه لأمر آخر وهو: إقسامه ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد.

فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إماما وهاديا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث ؛ وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين؛ الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني، وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيدا. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه.

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

ثم أنكر- سبحانه- على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه أحد من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور، فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، وكيف يقدر غيره من لم يكن قادرا في نفسه؟! فهذا برهان

=

=

مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه: القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: {أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥)}، وبقوله: {أيحسب أن لم يره أحد (٧)} فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟

ثم أنكر- سبحانه- على الإنسان قوله: {أهلكت مالا لبدا (٦)}، وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وهو: إنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه؛ لم يكن ذلك إهلاكا له، بل تقربا به إلى الله ﷻ وتوصلا به إلى رضاه وثوابه، وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر- سبحانه- افتخاره وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه- سبحانه- بقوله: {أيحسب أن لم يره أحد (٧)}، وأتى ها هنا بـ "لم" الدالة على المضي، في مقابلة قوله: {أهلكت مالا لبدا (٦)}؛ فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟!

ثم ذكر- سبحانه- برهانا مقررا أنه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لا يراه؟ وكيف يعطيه آلة البيان- من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى- من لا يتكلم، ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟! وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من خالقه؟ ومن جعل غيره عالما بنجدي الخير والشر- وهما طريقاهما- أولى وأحق بالعلم منه.

ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هدايته النجدين؟! فدل هذا كله على إثبات الخالق، وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده، ووعيده.

=

=

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه.

والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول، مكملين له؛ لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته.

ومع هذا فقامت عليه حجته، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليه حتى يقتحمها:

١- بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه، ورق عدوه.

٢- وإطعام المسكين واليتيم في يوم المجاعة.

٣- وبالإخلاص له- سبحانه- بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه، وهو تصديق خبره، وطاعة أمره ابتغاء وجهه.

٤- وبنصيحة غيره؛ بأن يوصيه بالصبر والمرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بهما، فيكون صابرا رحيما في نفسه، معينا لغيره على الصبر والرحمة، دالا لغيره عليهما.

فمن لم يقتحم هذه "العقبة"؛ وهلك دونها: هلك منقطعا عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوبا عنه.

والناس قسمان:

١- ناج؛ وهو من قطع "العقبة"، وصار وراءها.

٢- وهالك؛ وهو من دون "العقبة"، وهم أكثر الخلق.

ولا يقتحم هذه "العقبة" إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر، وهم "أصحاب الميمنة".

=

=

والهالكون دون "العقبة" الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر، وهم "أصحاب المشأمة" = {عليهم نار مؤصدة (٢٠) } قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي، والاعتقادات الباطلة المنافية لما أخبرت به الرسل، فلم تخرج قلوبهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

وأيضا فإن طريقة القرآن: يذكر العلم والقدرة، تهديدا وتخويفا؛ ليرتب الجزاء عليهما، كما قال تعالى: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا} [الأنعام: ٦٥]، وقال تعالى: {أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠) } إلى قوله: {ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) } [العلق: ٩- ١٠، ١٤]، وقال تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٨٠) } [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدا في القرآن.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار- مع ذلك- بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرا أمكن مجازاته، وإذا كان عالما أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته. وإن كان قادرا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها؛ لم يجاز بالعدل.

والرب سبحانه وتعالى موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته، فحينئذ يجب على العاقل طلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، وهو اقتحام "العقبة" المتضمن للتوبة إلى الله تعالى، والإحسان إلى خلقه.

=

=

وقال تعالى: {فلا اقتحم العقبة (١١)}، وهو فعل ماض، ولم يكرر معه "لا": إما استعمالا لأداة "لا" كاستعمال "ما".

وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء، نحو: فلا سلم ولا عاش، ونحو ذلك.

وإما لأن "العقبة" قد فسرت بمجموع أمور؛ فاقتحامها فعل كل واحد منها، فأغنى ذلك عن تكريرها، فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: {فك رقبة} - بالفعل - كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: {وما أدراك ما العقبة (١٢)} على حد قوله: {وما أدراك ما الحاقة (٣)} [الحاقة: ٣]، {وما أدراك ما يوم الدين (١٧)} [الانفطار: ١٧]، {وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١)} [القارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيما لشأن "العقبة" وتفخيما لأمرها.

وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر، فإن قوله: {فك رقبة (١٣) أو إطعام} إلى قوله: {ثم كان من الذين آمنوا} [البلد: ١٣ - ١٧] تفسير لاقتحام "العقبة"، وليس هو تفسيرا لنفس "العقبة"، فإن "العقبة" مكان شاق كؤود، يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور، فمن فعلها فقد اقتحم "العقبة".

ويدل على ذلك قوله تعالى: {ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا}، وهذا عطف على قوله: {فك رقبة (١٣) }، والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولا.

وأيضا؛ فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلابد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام "العقبة"؟ أو: اقتحامها فك رقبة.

وأيضا؛ فمن قرأ بالفعل فقد طابق بين المفسر وجميع ما فسره، ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير:

=

=

إن كان لقوله: {اقتحم} طابقه بقوله: {ثم كان من الذين آمنوا} وما بعده؛ دون {فك رقبة (١٣) } وما يليه.

وإن كان لقوله: {العقبة (١٢) } طابقه: {فك رقبة (١٣) أو إطعام} دون قوله: {ثم كان من الذين آمنوا} وما بعده.

وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظا ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه "العقبة"، هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟

فقالت طائفة: "العقبة" ها هنا مثلا ضربه الله- تعالى- لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن: الحسن، ومقاتل.

قال الحسن: "عقبة- والله- شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، وعدوه، والشيطان".

وقال مقاتل: "هذا مثل ضربه الله" ؛ يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل من يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة. وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس.

قال عطاء: "هي عقبة جهنم".

وقال الكلبي: "هي عقبة بين الجنة والنار". وهذا لعله قول مقاتل : "إنها عقبة جهنم".

وقال مجاهد، والضحاك: "هي "الصراط"، يضرب على جهنم".

وهذا لعله قول الكلبي.

وقول هؤلاء أصح نظرا، وأثرا، ولغة.

قال قتادة: "إنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله".

=

=

وفي أثر معروف: "إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها إلا المخفون" ؛ أو نحو هذا، فإن الله- تعالى- سمى الإيمان به، وفعل ما أمر، وترك ما نهى: عقبة.

وكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام "العقبة"، وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: "ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار".

فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله {وما أدراك} في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم. ا.هـ

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد: ١- ٢) للسائل أن يسأل عن تكرير لفظ البلد وجعله معطوفاً وفاصلة في الآيتين؟ وكيف موقع ذلك في البلاغة وعند الفصحاء؟

والجواب أنه قد تقدم أن العرب مهما اعتنت بشئ وتهممت به كررته، وإن ذلك منفصيح كلامهم، وإن منه قولهم:

وإن صخرا لوالينا وسيدنا... البيتين

والبلد الحرام لم يزل معظماً عند العرب، وما (دام) شأنه كذلك فتكريره مستحسن، مع أن التكرير هنا ليس كالتكرير الواقع في قوله.

لا أري الموت يسبق الموت شئ نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر: ليت الغراب غداة ينعب دائباً كان الغراب مقطع الأوداج

لأن هذا مما أوقعوا فيه الظاهر موقع المضمر المحتاج إليه في ربط الخبر، وفجاؤوا به ظاهراً تهويلاً لأمر الموت فقال: "يسبق الموت"، وهو يريد يسبقه، وهو ضمير لازم جعل موضعه الظاهر تعظيماً له، والكلام واحد حصل فيه الربط بإعادة الاسم ظاهراً، وكذا فعل الآخر في قوله: "كان الغراب مقطع الأوداج "،

=

=

أعاد الظاهر موضع الضمير، وارتبط الكلام وحسن إعادة الظاهر لما قصد من التهويل والتشنيع وعظيم ما توهم من التفاؤل به، وهذا فيما وقع في جملة واحدة، وأما ما يقع من تكرير المكرر في جملتين إذا كرر اعتناء أو تهويلاً فأفصح عندهم من الواقع في جملة واحدة لحصول مناسبة تحسن كقوله في عجز البيت المتقدم:

نغص الموت ذا الغني والفقيرا

فتكرير الموت هنا أوسع في التهويل من تكراره في قوله صدر البيت: "يسبق الموت شئ"، لأنا إذا عللنا هذا إنما نقول أعاد الظاهر موضع المضمر لما أراد من تعظيم الموت وتهويل أمره، فإذا عللنا تكريره في قوله: "نغص الموت ذا الغنى والفقيرا" عللناه بهذا وبأن الكلام جملتان فحسن فيهما ما لا يحسن في الجملة الواحدة. وإذا تقرر هذا فاعلم أن الواقع في الآية العلية أجل في البلاغة من هذا كله وأعظم موقعاً في الفصاحة لا تساع مجال التوسع، ألا ترى أن البلد معظم فهذا مسوغ كاف، والكلام جملتان وهذا مسوغ أيضا، والجملة الواقع فيها التكرر جملة اعتراض، وجمل الاعتراض كالكلام الأجنبي بوجه عام، إنما يؤتي بالجملة تشديداً وإنباء بما يقصد من اعتناء أو تحرير كلام، فلكون جمل الاعتراض أجنبية في الأصل عن الكلام حسن فيها ما لا يحسن في غيرها، فساغ التكرير وحسن في الآية من هذه الأوجه الثلاثة. إلا أن القسم إنما وقع بقوله: (أقسم بهذا البلد ووالد وما ولد)، وليس قوله: (أنت حل بهذا البلد) مما وقع به القسم بوجه، وإنما هي جملة اعتراض سيقت بياناً لعظم قدره صلي الله عليه وسلم وأن هذا البلد العظيم الحرمة أحل له ولم يحل لأحد غيره. فكأن قد قيل: أقسم بهذا البلد العظيم لدينا وقد حللناه لك على عظم قدره، وذكره ظاهراً لما يحرز هذا المعنى من تعظيمه لما فيه من التنبيه والتحريك، فسيقت هذه الجملة اعتراضاً وكلاماً قائماً بنفسه. ليس من المقسم به في شئ، وإنما جئ به لما ذكر. وإذا تباين الكلام بجهة ما لم

=

سورة الشمس[1]

=

يستثقلوا فيه إعادة الظاهر إذ هو بمثابة ما الثاني فيه غير الأول، فوضح أن الآية واردة على أعلى وجوه البلاغة وأفصح الكلام، وأنه لو جئ هنا بالمضمر مكان الظاهر لم يكن بوجه، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة البلد- قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) (البلد: ٤)، وفي سورة التين والزيتون: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: ٤)، إن سئل عن قوله في الأولى: "في كبد" وفي الثانية: "في أحسن تقويم"؟

فالجواب عنه: أنهما حالان من حالات الإنسان لا تعارض بينهما لأن مصرف كل من هاتين الحالتين بين، وكلام المفسرين في ذلك شاف، وليس هذا بالجملة من الغرض المبنى عليه هذا الكتاب إذ لا إشكال فيه. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٦-٥٠٧).

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

قال القرطبي:"مكية باتفاق".

قال ابن عطية:"هي مكية".

* وآياتها خمس عشرة عند القرّاءِ. وعند المكِّى ستَّ عشرة. وكلماتها أَربع وخمسون. وحروفها مائتان وأَربعون. المختلف فيها آية {فَعَقَرُوْهَا}. فواصل آياتها على الأَلِف؛

* تسمى «سورة الشمس» سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير «سورة الشمس» بدون واو، وكذلك عنونها النسائي في سننه.

وقد وردت في بعض المصادر «سورة والشمس»، مع الواو.

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١).

{وَالشَّمْس وَضُحَاهَا} ضَوْئِهَا.

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢).

{وَالْقَمَر إِذَا تَلَاهَا} تَبِعَهَا طَالِعًا عِنْد غُرُوبهَا.

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣).

=

ووجه تسميتها بذلك إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها، قال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} [الشمس: ١].

وتسمى «سورة والشمس وضحاها» عنونها البخاري، والترمذي، سورة «والشمس وضحاها»، بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير، وهو أولى أسمائها لئلا تلتبس على القارئ بسورة إذا الشمس كورت المسماة سورة التكوير.

وأما الحاكم فقد عنونها سورة «الشمس وضحاها» بدون واو.

وهي تسمية للسورة بأول جملة افتتحت بها، قال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} [الشمس: ١].

* مقصود السّورة: أَنواع القَسَم المترادفة، على إِلهام الخَلْق فى الطَّاعة والمعصيّة، والفلاح والخَيْبَة، والخبرُ من إِهلاك ثمود، وتخويف لأَهل مكَّة فى قوله: {وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا}.

* المتشابه: قوله: {إِذِ انبعث أَشْقَاهَا} قيل هما رجلان: قُدار ومصدع، فوَحّد لرَوِيّ الآية. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَالنَّهَار إِذَا جَلَّاهَا} بِارْتِفَاعِهِ.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤).

{وَاللَّيْل إِذَا يَغْشَاهَا} يُغَطِّيهَا بِظُلْمَتِهِ وَإِذَا فِي الثَّلَاثَة لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّة وَالْعَامِل فِيهَا فِعْل الْقَسَم.

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥).

{والسماء وما بناها}.

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦).

{وَالْأَرْض وَمَا طَحَاهَا} بَسَطَهَا.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧).

{وَنَفْس} بِمَعْنَى نُفُوس {وَمَا سَوَّاهَا} فِي الْخِلْقَة وَمَا فِي الثَّلَاثَة مَصْدَرِيَّة أَوْ بِمَعْنَى مَنْ.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨).

{فَأَلْهَمَهَا فُجُورهَا وَتَقْوَاهَا} بَيَّنَ لَهَا طَرِيق الْخَيْر والشر وأخر التقوى رعاية لرؤوس الآي وجواب القسم.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩).

{قَدْ أَفْلَحَ} حُذِفَتْ مِنْهُ اللَّام لِطُولِ الْكَلَام {مَنْ زَكَّاهَا} طَهَّرَهَا مِنْ الذُّنُوب.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠).

{وَقَدْ خَابَ} خَسِرَ {مَنْ دَسَّاهَا} أَخْفَاهَا بِالْمَعْصِيَةِ وَأَصْله دَسَّسَهَا أُبْدِلَتْ السِّين الثَّانِيَة أَلِفًا تَخْفِيفًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} [الشمس: ١].

=

=

يقسم الله تعالى بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار.

وإنما أضاف الضحى إليها، لأن الشمس هي سبب النهار، وهي آية النهار المبصرة كما قال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا).

قال الطبري:"معنى الكلام: أقسم بالشمس، وبضحى الشمس".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَضُحَاهَا} [الشمس: ١]، على وجهين:

أحدهما: أن الضحى: هو النهار كله. قاله قتادة. وبه قال ابن قتيبة.

عن قتادة: "{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}، قال: هذا النهار".

الثاني: أن الضحى ضيائها. قاله مجاهد، وبه قال الزجاج.

عن مجاهد: "{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}، قال: ضوئها".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: أقسم جلّ ثناؤه بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار".

قرأ الأعمش وأصحابه «ضحاها» و «تلاها» و «طحاها» بالفتح، وقرأوا باقي السورة بالكسر. وقرأ الكسائي السورة كلها بالإمالة. وقرأها أبو عمرو بن العلاء بين اللفظين.

قوله تعالى: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس: ٢]، أي:"وأقسم بالقمر إذا تبعها في الطلوع والأفول".

قال الطبري: يقول:"والقمر إذا تبع الشمس".

قال ابن قتيبة:"أي: تَبِع الشمس".

قال الزجاج:"معناه: حين تلاها، وقيل حين- استدار فكان يتلو الشمس في الضياء والنور".

=

=

عن مجاهد: "{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا}، قال: تبعها".

عن ابن عباس (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا}، قال: يتلو النهار".

قال مجاهد:"يعني: الشمس إذا تبعها القمر".

وفي اتباع القمر للشمس، أربعة وجوه:

أحدها: أول ليلة من الشهر، إذا سقطت الشمس يرى القمر عند سقوطها، قاله قتادة.

قال قتادة:"يتلوها صبيحة الهلال فإذا سقطت الشمس رُؤي الهلال".

قال قتادة:"إذا تلاها ليلة الهلال".

الثاني: الخامس عشر من الشهر يطلع القمر مع غروب الشمس، قاله الطبري.

قال الطبري: "وذلك في النصف الأوّل من الشهر، إذا غُربت الشمس، تلاها القمر طالعا".

الثالث: في الشهر كله فهو في النصف الأول يتلوها، وتكون أمامه وهو وراءها، وإذا كان في النصف الأخير كان هو أمامها وهي وراءه، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"هذا قسم، والقمر يتلو الشمس نصف الشهر الأوّل، وتتلوه النصف الآخر، فأما النصف الأوّل فهو يتلوها، وتكون أمامه وهو وراءها، فإذا كان النصف الآخر كان هو أمامها يقدمها، وتليه هي".

الرابع: أنه خلفها في الليل، فكان له مثل ما لها في النهار لأن تأثير كل واحد منهما في زمانه، فللشمس النهار. وللقمر الليل. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} [الشمس: ٣]، أي:"وأقسم بالنهار إذا جلّى الظلمة وكشفها".

قال الطبري:"يقول: والنهار إذا أضاء".

عن قتادة:"{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا}، قال: إذا غشيها النهار".

=

=

وفي عود الضمير في قوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} [الشمس: ٣]، قولان:

أحدهما: أنها تعود إلى «الشمس»، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه، وهذا قول مجاهد، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تبدَّتْ لنا كالشَّمسِ تحتَ غمامةٍ... بدَا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

قال مجاهد:"يعني: إذا أضاء".

قال الآلوسي: وقوله (والنهار إذا جلاها) أي: جلى النهار الشمس، أي: أظهرها، فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار، ومضى منه مدة، فالإسناد مجازى كالإسناد في نحو: صام نهاره.

وهذا القول الصحيح، أن مرجع الضمير في قوله تعالى (جلاها) يعود إلى الشمس.

ورجحه ابن جرير، والرازي، وابن تيمية، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور.

الثاني: أن الضمير عائد إلى «الظلمة»، أي: جلى الظلمة، وإن لم يجر للظلمة ذكر، لأن المعنى معروف، كما تقول: أصبحت باردة، وهبت شمالاً، وهذا قول الفرّاء، وذكره الزجاج، وحكاه ابن الجوزي عن اللغويين، ورجحه: الفراء، والزجاج، والبغوي، والواحدي، والشوكاني.

قال الزجاج:"قالوا معناه: إذا جلى الظلمة، وإن لم يكن في الكلام ذكر الظلمة فالمعنى يدل عليها، كما تقول: أصبحت باردة، تريد: أصبحت غداتنا باردة".

قال ابن قتيبة:"يعني: جَلَّى الظُّلمة، أو الدنيا".

قال الشوكاني:"القول الأول أولى، وقيل: المعنى: جلى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض والليل".

=

=

عن يزيد بن ذي حمامة، قال: "إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل يهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب".

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: ٤]، أي:"وأقسم بالليل عندما يغطي الأرض فيكون ما عليها مظلمًا".

قال مقاتل:"يعني: تغشى ظلمته ضوء النهار".

قال الطبري:"يقول:"والليل إذا يغشي الشمس، حتى تغيب فَتُظْلِمُ الآفَاقُ".

عن قتادة: "{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} : إذا غَشَّاها الليل".

قال مجاهد:"يغشاها الليل".

قال الأخفش:"{يَغْشَاهَا} من: الغشاوة".

قال السعدي:"فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فباطل".

قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [الشمس: ٥]، أي:"وأقسم بالسماء وبنائها المحكم".

قال الطبري:"يقول:"والسماء ومَنْ خَلَقها، وبناؤه إياها: تصييره إياها للأرض سقفا".

وفي «ما»، قولان:

أحدهما: بمعنى «مَن» تقديره «والسماء وبانيها»، قاله الحسن، ومجاهد، وأبو عبيدة.

عن مجاهد: "{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} ، قال: الله بنى السماء".

وقال أبو عبيدة:"أي: والّذى بناها، قال الشاعر :

دعينى إنما خطأى وصوبى... علىّ وإن ما أهلكت مال

=

=

أي: وإنّ الذي أهلكت مال".

أي: أقسم بالسماء، والذي بناها هو الله ﷻ كما قال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقال تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا).

- فأقسم الله بالسماء، وبنفسه الكريمة، وتكون (ما) هنا موصولة.

ورجح هذا القول: السمعاني، وابن تيمية، وابن القيم، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي.

الثاني: أنها بمعنى المصدر، تقديره: والسماء وبنائها، وهذا مذهب قتادة، والزجاج.

عن قتادة: "{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}، وبناؤها: خَلْقُها".

ومن المفسرين من أجاز حملها على المعنيين الموصولية والمصدرية، منهم الطبري، وابن عطية، وابن كثير وقال: وكلاهما متلازم، والشوكاني.

قال ابن كثير:"وكلاهما متلازم، والبناء هو الرفع، كقوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، أي: بقوة {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالأرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} [الذاريات: ٤٧، ٤٨]".

قوله تعالى: {وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا} [الشمس: ٦]، أي:"وأقسم بالأرض وبَسْطها".

قال الطبري:"والأرض ومَنْ بسطها يمينا وشمالا ومن كلّ جانب".

وفي قوله تعالى: {وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا} [الشمس: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: والأرض وما خلق فيها. قاله عطية العوفي عن ابن عباس. ويكون «طحاها»، بمعنى: خلقها، قال الشاعر:

وما تَدري جذيمةُ مَنْ طحاها... لا من ساكنُ العَرْشِ الرّفيع

الثاني: يعني: وما بسطها. قاله مجاهد، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

=

=

قال أبو عبيدة:"بسطها يمينا وشمالا ومن كل جانب".

قال ابن قتيبة:"يقال: حيٌّ طاحٍ؛ أي: كثيرٌ متسعٌ".

عن مجاهد:"{وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا}، قال: دحاها".

عن ابن زيد: "{وَمَا طَحَاهَا}، قال: بَسَطَها".

قال ابن كثير:"وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة".

قال الجوهري: "طحوته مثل دحوته، أي: بسطته".

الثالث: يعني: وما قسمها. قاله ابن عباس-أيضا-.

الرابع: أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز، لأنه حياة لما خلق عليها. أفاده الماوردي.

قال السعدي: أي مدها ووسعها فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع.

كما قال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون).

قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس: ٧].

قال السعدي: أي مدها ووسعها فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع.

كما قال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون).

قال مقاتل:"يعني: وبالذي خلقها، يعني: نفسه، فسوى اليدين والرجلين والعينين والأذنين".

قال الطبري: أي:"ونفس وتسويَتها، والقسم بالنفس وبتسويتها".

=

=

قال ابن كثير:"أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ} [الروم: ٣٠]".

وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء؟»

وعن عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم".

وفي معنى {سَوَّاهَا} [الشمس: ٧]، على هذا القول وجهان:

أحدهما: سوى بينهم في الصحة، وسوى بينهم في العذاب جميعـًا، قاله ابن جريج.

الثاني: سوى خلقها وعدل خلقها، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"سوى خلقها ولم ينقص منه شيئا".

قال الزجاج:"فأقسم الله- ﷻ- بهذه الأشياء العظام من خلقه لأنها تدل على أنه واحد والذي ليس كمثله شيء".

قال السعدي:"يحتمل أن المراد: نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة".

قوله تعالى: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: ٨]، أي:"فبيَّن لها طريق الشر وطريق الخير".

=

=

قال الطبري:"فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير، أو شرّ أو طاعة، أو معصية".

قال ابن كثير:"أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها".

قال ابن قتيبة:"أي: عرَّفها في الفطرة".

عن مجاهد:"{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، قال: عَرَّفَها".

قال مجاهد:"عرفها الشقاء والسعادة".

قال قتادة:"فبَيَّن لها فجورها وتقواها".

قال سعيد بن جبير:"ألزمها الفجور والتقوى".

قال ابن عباس:"بَيَّنَ الخيرَ والشرَّ".

قال ابن عباس:"علَّمها الطاعة والمعصية".

قال الضحاك:"بين لها الطاعةَ والمعصية".

قال سفيان:"أعلمها المعصية والطاعة".

وقال ابن زيد:"جعل فيها فجورَها وتقواها".

عن أبي الأسود الدّيلي، قال: "قال لي عمران بن حُصين: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه أشيء قُضِيَ عليهم، ومضى عليهم من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم عليه الصلاة والسلام، وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قُضِيَ عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلما؟ قال: ففزعت منه فزعا شديدا، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خَلْقُه، ومِلْكُ يده، {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}، قال: سددّك الله، إنما سألتك "أظنه أنا" لأخْبُرَ عقلك. إن رجلا من مُزَينة أو جهينة، أتى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون

=

=

مما أتاهم به نبيهم عليه السلام وأكّدت به عليهم الحجة؟ قال: "فِي شَيء قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ"؛ قال: ففيم نعملُ؟ قال: "مَنْ كانَ اللهُ خَلَقَهُ لإحْدَى المَنزلَتَينِ يُهَيِّئُهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلكَ فِي كِتَابِ اللهِ: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}".

قال ﷺ (اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة).

- وإقسام الله بالمذكورات تنبيه إلى عظيم قدرته تعالى، وبديع حكمته وسعة علمه ورحمته.

- **قال ابن عاشور**: وكل من الشمس، والقمر والسماء والأرض، ونفس الإنسان، من أعظم مخلوقات الله ذاتا ومعنى الدالة على بديع حكمته وقوي قدرته.

وكذلك كل من الضحى، وتلو القمر الشمس والنهار، والليل من أدق النظام الذي جعله الله تعالى.

قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩]، أي:"قد فاز مَن طهَّرها ونمَّاها بالخير".

هذا جواب القسم (قد أفلح من زكاها) أي: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، كما قال تعالى (قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى).

قال الفراء:"يقول: قد أفلحت نفس زكاها الله".

قال الطبري:"يقول: قد أفلح من زكَّى الله نفسه، فكثَّر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال".

قال ابن الجوزي:"معنى {زَكَّاها}: أصلحها وطهّرها من الذنوب".

قال ابن قتيبة:"أي: من زَكَّى نفسه بعملِ البِر، واصطناعِ المعروف".

=

=

قال السعدي:"أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح".

قال ابن قتيبة:"أصل التزكية: الزّيادة، ومنه يقال: زكا الزرع يزكوا: إذا كثر ريعه، وزكت النّفقة: إذا بورك فيها، ومنه زكاة الرّجل عن ماله، لأنها تثمّر ماله وتنمّيه. وتزكية القاضي للشّاهد منه، لأنه يرفعه بالتّعديل والذّكر الجميل".

قال قتادة:"قد وقع القسم -ها هنا-: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}".

عن ابن عباس:"{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}، يقول: قد أفلح من زكَّى اللهُ نفسه".

عن مجاهد، وسعيد بن جُبير، وعكرِمة: "{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}، قالوا: من أصلحها".

قال قتادة:"قد أفلح من زكَّى نفسَه بعمل صالح.

قال قتادة:"من عمل خيرا زكَّاها بطاعة الله".

قال ابن زيد:"قد أفلح من زكى اللهُ نفسَه".

قال سهل:"أفلح من رزق النظر في أمر معاده".

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} وقف، ثم قال: "اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها".

عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} قال: "اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها".

عن صالح بن سُعَيد، عن عائشة: أنها فَقَدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: "رب، أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها".

=

عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكَسَل والهرم، والجُبن والبخل وعذاب القبر. اللهم، آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم، إني أعوذ بك من قَلْب لا يخشع، ومن نَفْس لا تشبع، وعِلْم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها". قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن".

قال القرطبي: أصل الزكاة النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل.

فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر، شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الربا وارتفاع الأرض، ليشتهر مكانها للمعتفين، وتوقد النار في الليل للطارقين.

وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، ليخفى مكانها عن الطالبين.

فأولئك علوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها.

وكذا الفاجر أبدا خفي المكان، زمر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي.

- قال ابن القيم: قال تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله، وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى (يدسه في التراب) فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه.

- ينبغي للمسلم أن يسعى في تزكية نفسه، كما قال تعالى: (قد أفلح من زكاها).فقد أقسم الله كما هنا بعظيم مخلوقاته على فلاح من زكى نفسه.

=

وتزكية النفوس من كبرى مقاصد الرسالات الإلهية وبعث الرسل.

فقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: (اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى).

وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

وقال ﷺ (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) رواه أحمد.

والله هو الذي يتولى تزكية الناس.

قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم...).

وقال تعالى: (بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا).

ولهذا نهى الله العبد أن يزكي نفسه.

كما قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى).

- بعض وسائل تزكية النفس:

غض البصر عن المحرمات وحفظ الفرج.

قال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون).

قوله (ويحفظوا فروجهم). وحفظ الفرج يكون بأمرين:

أ- يمنعه من الزنا.

كما قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين).

ب- وتارة بحفظه من الانكشاف أمام الناس.

كما قال ﷺ (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك).

=

=

بالتزكية يذاق طعم الإيمان.

قال رسول ﷺ (ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان، وذكر منها: (وزكى نفسه) رواه الطبراني وصححه الألباني.

ودرجات الجنة العلى جزاء من تزكى.

قال تعالى (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا * جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى).

والصدقة الواجبة والمستحبة من سبل تزكية النفس.

يقول الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

ومراقبة الله- جل وعلا- واستحضار قربه مما تزكى به النفوس.

بل فسر النبي ﷺ تزكية النفس به؛ فقد سأله رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: (أن يعلم أن الله- ﷻ- معه حيث كان) رواه الطبراني وصححه الألباني

ومن تزكية النفس الإعراض عن خطوات الشيطان.

كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا).

والدعاء سبب قوي لحصول التزكية.

فقد كان النبي ﷺ يدعو بهذه الدعوات ويعلمها أصحابه: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها) رواه مسلم.

وجاء عند الإمام أحمد عن عائشة (أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول: رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها).

وقد قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا).

=

=

أي لولا هو يرزق من يشاء بالتوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها، وفجورها وذنبها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خير (ولكن الله يزكي من يشاء) أي من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي.

ففيه أن الله سبحانه هو الذي يتولى الناس ويزكيهم.

قال تعالى (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون).

وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس).

وقال تعالى: (بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا).

ولهذا نهى الله العبد أن يزكي نفسه، كما قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى).

- والتزكية مهمة للإنسان من عدة أوجه:

أولا: أن الله ﷻ- وهو الحق وقوله الصدق- أقسم في كتابه أحد عشر قسما على فلاح من زكى نفسه وعلى خسران من أهمل ذلك، قال تعالى (والشمس وضحاها...).

وقال تعالى (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى).

ثانيا: أن النفس من أشد أعداء الإنسان الداخليين لأنها تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان ﷺ يستعيذ بالله من شرها كثيرا، كما في خطبة الحاجة، وكما في حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم قال سمعت رسول الله صلى ﷺ يقرأ (فألهمها فجورها وتقواها) فقال: اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها). وفي

=

=

المسند والترمذي أنه ﷺ علم حصين بن عبيد أن يقول (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي).

- قال ابن القيم: وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها والظفر بها.

- قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم.

ثالثا: أن التزكية طريق الجنة.

قال الله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى) فهي إذن شرط لدخول الجنة.

رابعا: أن الإنسان محب للكمال فينبغي له أن يعمل على إكمال نفسه بتزكيتها وتربيتها، فهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب بها الأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة ومحتاجة إلى رعاية، ومحتاجة كذلك إلى متابعة للازدياد من الخير كما يزداد البدن من الطاقات والمعارف.

خامسا: أن هناك تلازم بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهر مرتبط بالاعتقاد الباطن، فأي انحراف في الأخلاق إنما هو من نقص الإيمان الباطن.

- قال ابن تيميه: إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة.

- ويقول الشاطبي: الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن فإذا كان الظاهر منخرما أو مستقيما حكم على الباطن بذلك.

- عوامل تزكية النفس:

أولا: محاسبة النفس.

=

=

- قال ابن القيم: إن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها؛ فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها. قال الحسن- ﷺ -: "إن المؤمن والله لا تراه إلا قائما على نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام". فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعي في إصلاحها".

والتوبة إلى الله والإنابة إليه جادة التزكية، يقول الله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون).

ثانيا: ترك المحرمات.

- قال ابن تيمية: النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها، قال ابن قتيبه: دساها أي أخفاها بالفجور والمعصية.

ثالثا: اتهامها دائما، فإنه إذا لم يتهمها الإنسان أغوته وقادته إلى التهلكة، فأنت مخير في الوجهة التي ترتضيها لنفسك، فإذا سرت وراءها وأطلقت لها الزمام سارت بك إلى أسفل سافلين، وإن قدتها أنت وطمحت بها إلى المراتب العالية انقادت لك وراء ذلك، فهي كالطفل تماما.

قوله تعالى: {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ١٠]، أي:"وقد خسر مَن أخفى نفسه في المعاصي".

وفي قوله تعالى: {دَسَّاهَا} [الشمس: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أغواها وأضلها، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، لأنه دسّى نفسه في المعاصي، ومنه قول الشاعر:

فأنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحتْ... حلائلُه منه أَراملَ ضُيَّعـًا

قال سهل:"خسرت نفس أغواها الله ﷻ، فلم تنظر في أمر معاده".

=

=

عن خصيف، عن مجاهد وسعيد بن جُبير:"{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، قال أحدهما: أغواها، وقال الآخر: أضلَّها".

عن مجاهد:"{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، قال: أضلَّها، وقال سعيد: مَنْ أغواها".

عن مجاهد: "{مَنْ دَسَّاهَا}، قال: أغواها".

قال مجاهد:"خاب من أغواه الله ﷻ".

عن ابن عباس: "{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، يقول: وقد خاب من دَسَّى اللهُ نَفسَه فأضلَّه".

وقال ابن عباس:"يعني: مكر بها".

وقال ابن زيد:"وقد خاب من دَسَّى اللهُ نفسَه".

وقال مقاتل:"وقد هلك من أشقاه الله ﷻ".

قال الطبري: يقول:"وقد خاب في طِلبته، فلم يُدرك ما طلب والتمس لنفسه مِن الصلاح مَنْ دساها يعني: من دَسَّس الله نفسه فأَخْمَلها، ووضع منها، بخُذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصِيَ، وترك طاعة الله".

الثاني: أثّمها وأفجرها، قاله قتادة.

الثالث: كذبها، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"يعني: تكذيبها".

الرابع: أي: نقصها بالفجور والمعصية، فجعلها خسيسة حقيرة. قاله ابن قتيبة، والزجاج.

قال ابن قتيبة:"أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البرّ، وبركوب المعاصي. والفاجر أبدا خفيّ المكان، زمر المروءة، غامض الشّخص، ناكس الرأس".

=

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١).

{كَذَّبَتْ ثَمُود} رَسُولهَا صَالِحًا {بِطَغْوَاهَا} بِسَبَبِ طُغْيَانهَا.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢).

{إِذْ انْبَعَثَ} أَسْرَعَ {أَشْقَاهَا} وَاسْمه قَدَّار إِلَى عَقْر النَّاقَة بِرِضَاهُمْ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا (١٣).

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُول الله} صَالِح {نَاقَة الله} أَيْ ذَرُوهَا {وَسُقْيَاهَا} شُرْبهَا فِي يَوْمهَا وَكَانَ لَهَا يَوْم وَلَهُمْ يَوْم.

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤).

{فَكَذَّبُوهُ} فِي قَوْله ذَلِكَ عَنْ الله الْمُرَتَّب عَلَيْهِ نُزُول الْعَذَاب بِهِمْ إِنْ خَالَفُوهُ {فَعَقَرُوهَا} قَتَلُوهَا لِيَسْلَم لَهُمْ مَاء شُرْبهَا {فَدَمْدَمَ} أَطْبَقَ {عَلَيْهِمْ رَبّهمْ} الْعَذَاب {بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} أَيْ الدَّمْدَمَة عَلَيْهِمْ أَيْ عَمَّهُمْ بِهَا فَلَمْ يَفْلِت مِنْهُمْ أَحد.

=

قال الزجاج:"خابت نفس دساها الله. ومعنى: {دساها}: جعلها قليلة خسيسة، والأصل: دسسها، ولكن الحروف إذا اجتمعت من لفظ واحد أبدل من أحدها ياء".

قال الفراء:"يقال: قد خاب من دسى نفسه، فأخملها بترك الصدقة والطاعة، ونرى- والله أعلم- أن {دساها}، من: دسست".

قال السعدي:"أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها".

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥).

{ولا} بالواو والفاء {يخاف عقباها} تبعتها[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [الشمس: ١١]، أي:"كذَّبت ثمود نبيها ببلوغها الغاية في العصيان".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي".

قال الطبري:"يقول: كذَّبت ثمود بطغيانها، يعني: بعذابها الذي وعدهموه صالح عليه السلام، فكان ذلك العذاب طاغيا طغى عليهم، كما قال جلّ ثناؤه: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}".

وفي قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [الشمس: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: كذّبت ثمود بطغيانها ومعصيتها، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، واختاره ابن كثير.

عن قتادة:"{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}، أي: الطغيان".

قال ابن زيد:"بغيانهم وبمعصيتهم".

قال مجاهد:"بمعصيتها".

قال ابن كثير:"فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به".

قال الفراء:"أراد: بطغيانها، إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات، فاختير لذلك".

قال ابن عطية: "وقال جمهور المتأولين الباء سببية، والمعنى كذبت ثمود بنبيها بسبب طغيانها وكفرها".

- **قال ابن الجوزي**: "(كذبت ثمود بطغواها) أي: كذبت رسولها بطغيانها، والمعنى: أن الطغيان حملهم على التكذيب".

الثاني: بأجمعها، قاله محمد بن كعب.

=

=

عن محمد بن كعب:"{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}، قال: بأجمعها".

الثالث: بعذابها، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"اسم العذاب الذي جاءها، الطَّغْوَى، فقال: كذّبت ثمود بعذابها".

قوله تعالى: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس: ١٢]، أي:"إذ نهض أكثر القبيلة شقاوة لعقر الناقة".

قال الطبري:"يقول: إذ ثار أشقى ثمود، وهو قُدَار بن سالف".

عن قتادة:"{إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}، يعني: أُحَيْمِرَ ثَمود".

قال ابن كثير:"أي: أشقى القبيلة، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [القمر: ٢٩]. وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم، شريفًا في قومه، نسيبًا رئيسًا مطاعًا".

قال الفراء:"يقال: إنهما كانا اثنين فلان ابن دهر، والآخر قدار، ولم يقل: أشقياها، وذلك جائز في اللغة".

عن عبد الله بن زَمْعة، قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر في خطبته الناقة، والذي عَقَرها، فقال: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}، انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ".

عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: "ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى قال «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا- يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه» -يعني: لحيته-".

قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا} [الشمس: ١٣]، أي:"فقال لهم رسول الله صالح عليه السلام: احذروا أن تمسوا الناقة بسوء؛ فإنها آية أرسلها الله إليكم، تدل على صدق نبيكم، واحذروا أن تعتدوا على سقيها، فإن لها شِرْب يوم ولكم شِرْب يوم معلوم".

=

قال ابن قتيبة:"أي: احذَروا ناقة الله وشِرْبها".

قال ابن كثير:"أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، {وَسُقْيَاهَا}، أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم".

قال السعدي:"أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها".

قال الطبري:"فقال لثمود صالح: احذروا ناقة الله وسُقياها، وإنما حذّرهم سُقيا الناقة، لأنه كان تقدّم إليهم عن أمر الله، أن للناقة شِربَ يوم، ولهم شِرْب يومٍ آخر، غير يوم الناقة".

قال الفراء:"نصبت «الناقة»، على التحذير حذرهم إياها، وكل تحذير فهو نصب".

عن قتادة:"{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}، قسْم الله الذي قسم لها من هذا الماء".

قال الألوسي: "(رسول الله) هو صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعبر عنه بعنوان الرسالة إيذانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله سبحانه (ناقة الله)".

(ناقة الله) أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، وهي الناقة التي طلبوها آية لهم فأخرجها الله لهم من صخرة صماء وجعلها آية وحجة عليهم، قال تعالى عن صالح أنه قال لهم (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب).

- قال الخازن: (ناقة الله) أي: ذروا ناقة الله وإنما قال لهم ذلك لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها وإنما أضافها إلى الله تعالى لشرفها كبيت الله.

=

(وسقياها) أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم.

كما قال تعالى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم).

- قال المفسرون: سقياها: شربها من الماء، والمعنى: لا تتعرضوا ليوم شربها.

قال محمد بن إسحاق:"فمكثت الناقة التي أخرج الله لهم معها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر، وتشرب الماء، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم".

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [الشمس: ١٣]، أي:"فكذبوا نبيه صالحاً وقتلوا الناقة، ولم يتلفتوا إلى تحذيره".

قال الطبري:"يقول: فكذّبوا صالحا في خبره الذي أخبرهم به، من أن الله الذي جعل شِرْبَ الناقة يوما، ولهم شِرْبُ يوم معلوم، وأن الله يُحِلّ بهم نقمته، إن هم عقروها، كما وصفهم جلّ ثناؤه فقال: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}.. قيل: جاء الخبر أنهم بعد تسليمهم ذلك أجمعوا على منعها الشرب، ورضوا بقتلها، وعن رضا جميعهم قَتَلها قاتِلُها، وعقَرَها من عقرها ولذلك نُسب التكذيب والعقر إلى جميعهم، فقال جلّ ثناؤه: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}".

قال ابن كثير:"أي: كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم".

قال الزجاج: "أي: فلم يوقنوا أنهم يعذبون حين قال لهم: {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣]".

فإن قال قائل: لماذا قال (فعقروها) مع أن الذي تولى عقرها واحد؟

قال القرطبي: "إنما اضيف العقر إلى الكل، لأنه كان برضى الباقين".

=

= - وقال ابن كثير: "وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم".

وقال الرازي: واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

وقال ابن عاشور: "ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح عليه السلام لئلا يزيد عدد المؤمنين به، لأن مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذانا منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السلام وبمن آمن به بعد ذلك وليروا صالحا عليه السلام أنهم مستخفون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم)".

قوله تعالى: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [الشمس: ١٤]، أي:"فأطبق عليهم ربهم العقوبة بجرمهم، فجعلها عليهم على السواء فلم يُفْلِت منهم أحد".

قال الطبري:"فدمَّر عليهم ربهم بذنبهم ذلك، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله صالحا، وعقرهم ناقته، فسوّى الدمدمة عليهم جميعهم، فلم يُفْلِت منهم أحد، فأهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم".

قال ابن كثير:"أي: غضب عليهم، فدمر عليهم، فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء".

قال الزجاج: معناه:"أطبق عليهم العذاب، يقال: دمدمت على الشيء إذا أطبقت عليه، وكذلك دممت عليه القبر وما أشبهه، وكذلك ناقة مدمومة، أي قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه". =

=

قال الرازي: "إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم، كان معنى (فسوى) الدمدمة عليهم وعمهم بها، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعا، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وإن فسرناها بالتسوية، كان المراد فسوى عليهم الأرض".

قال القشيري:"أي: أهلكهم بجرمهم، {فَسَوَّاها}: أي أطبق عليهم العذاب، ويقال: سوّى بينهم ربّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة".

قال السمعاني:"يقال: دمدم، أي: غضب عليهم ربهم، يقال: فلان يدمدم إذا كان يتكلم بغضب. والقول المعروف أن معنى قوله: {فدمدم عليهم}، أي: أطبق عليهم بالعذاب، يعني: عمهم ولم يبق منهم أحدا، ويقال: «الدمدمة»: هو الهلاك باستئصال، فسواهم بالأرض، فلم يبق منهم أحدا صغيرا ولا كبيرا، يقال: سوى بينهم بالعذاب".

قال الزمخشري:"فأطلق عليهم العذاب، وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها الشحم {بِذَنْبِهِمْ} بسبب ذنبهم. وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب، فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر، فسوّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم".

قال الفراء:"أرجف بهم فسواها عليهم، ويقال: {فَسَوَّاهَا}: سوى الأمة، أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم".

قال الراغب:"{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم}، أي: أهلكهم، وأزعجهم، وقيل: الدّمدمة حكاية صوت الهرّة، ومنه: دَمْدَمَ فلان في كلامه، ودَمَمْتُ الثوب: طليته بصبغ مّا، والدِّمَام: يطلى به، وبعير مَدْمُوم بالشّحم، والدَّامَّاء، والدُّمَمَة: جحر اليربوع، والدَّامَاء بالتخفيف، والدَّيْمُومَة: المفازة".

=

=

قال النحاس: "سألت علي بن سليمان عن هذا الضمير [{فَسَوَّاهَا}]، فقال: يعود على «الدمدمة» التي دل عليها: دمدم، وقال غيره: أي: سوى بينهم في العقوبة فأهلكهم جميعا".

قال قتادة: "ذُكر لنا أن أحيمر ثَمود أبى أن يعقرها، حتى بايعه صغيرُهم وكبيرُهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسوّاها".

قال الحسن: "لما عقروا الناقة طلبوا فصيلها، فصار في قارة الجبل، فقطع الله قلوبهم".

قال مقاتل: "لما عقروا الناقة ابتعد الفصيل حتى صعد على جبل فصاح ثلاث مرات: يا صالح، قتلت أيم، وفزع أهل المدينة كلهم إلى صالح، فقالوا: ما حيلتنا؟ قال: حيلتكم أن تأخذوا الفصيل فعسى الله أن يكف عنكم العذاب في شأن الفصيل، فلما صعدوا الجبل ليأخذوه فر من بين أيديهم وتوارى فلم ير، وغاب، قالوا: يا صالح، ما يفعل الله بنا؟ قال: كم من صيحة» صاح الفصيل؟ قالوا: ثلاث مرات، قال: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ} [هود: ٦٥]، الذي صاح الفصيل {وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [هود: ٦٥]، يقول إنه لا يكذب فيه، قالوا: وما علامة ذلك يا صالح؟ قال: إنكم تصفر وجوهكم يوم الثاني وتسود وجوهكم يوم الثالث، قال: ثم يأتيكم العذاب يوم الرابع، فلما أن كان اليوم الأول اصفرت وجوه القوم فلم يصدقوا وقالوا: إنما هذه الصفرة من الخوف والفرق، فلما كان اليوم الثاني احمرت وجوههم واستيقنوا بالعذاب، ثم إنهم عمدوا فحفروا لأنفسهم قبورا وتحنطوا بالمر والصبر وتكفتوا بالأنطاع، فلما أن كان اليوم الثالث اسودت وجوههم حتى لم يعرف بعضهم بعضا من شدة السواد، والتغير، فلما أن كان اليوم الرابع أصبحوا فدخلوا حفرهم، فلما أشرقت الشمس، وارتفع النهار لم يأتهم العذاب، فظنوا أن الله يرحمهم، وخرجوا من قبورهم، ودعوا بعضهم بعضا،

=

=

إذ نزل جبريل- عليه السلام- فسد ضوء الشمس حتى دخلوا في قبورهم، فصاح بهم جبريل عليه السلام- فلما عاينوا جبريل- عليه السلام- ونظروا إلى ضوء الشمس شدوا حتى دخلوا في قبورهم فناموا فصاح بهم جبريل صيحة أن قوموا عليكم لعنة الله، فسالت أرواحهم من أجسادهم وزلزلت بيوتهم حتى وقعت على قبورهم إلى يوم القيامة، فأصبحوا كأن لم يكن بمدينتهم شيء، فذلك قوله: {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [هود: ٦٨]، وذلك قوله: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [الشمس: ١٤]، يعني: فسوى بيوتهم على قبورهم".

قوله تعالى: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس: ١٥]، أي:"ولا يخاف -جلت قدرته- تبعة ما أنزله بهم من شديد العقاب".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس: ١٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: ولا يخاف الله عقبى ما صنع بهم من الهلاك، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وبكر بن عبد الله المزنيّ.

عن بكر بن عبد الله المزنيّ:"{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}، قال: لا يخاف الله التبعة".

قال ابن عباس:"لا يخاف الله من أحد تبعة".

قال الحسن:"لا يخاف تبعتهم".

قال الحسن:"ذاك ربنا تبارك وتعالى، لا يخاف تبعة مما صنع بهم".

قال الحسن:"ذلك الربّ صنع ذلك بهم، ولم يخف تبعة".

قال قتادة:"لا يخاف أن يتبع بشيء مما صنع بهم".

قال الزجاج: "أكثر ما جاء في التفسير لا يخاف الله تعالى تبعة ما أنزل بهم".

قال الزمخشري:"أي: عاقبتها وتبعتها، كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء".

=

=

قال السعدي:"وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟".

الثاني: لا يخاف الذي عقرها عقبى ما صنع من عقرها، قاله الضحاك، والسدي.

قال الضحاك والسدي:"لم يخف الذي عقرها عقباها".

قال السدي:"لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع". وفي لفظ:"الذي لا يخاف الذي صنع، عُقْبَى ما صنع".

الثالث: لا يخاف رسول الله صالح -عليه السلام- الذي أرسل إليهم عقباها. حكاه الزجاج.

قال ابن كثير:"القول الأول أولى؛ لدلالة السياق عليه، -والله أعلم-".

وقرئ: «فَلا يَخافُ عُقْبَاهَا»، بالفاء.

قال النحاس:"سمعت إبراهيم بن محمد نفطويه يقول: من قرأ بالفاء فالمعنى لله لا غير، وهذا كما قال، وعليه أهل التأويل وهو صحيح عن ابن عباس قال إبراهيم بن محمد: ومن قرأ بالواو ذهب إلى أن المعنى للعاقر، أي: انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها، أي: وهذه حاله. والذي قال حسن، غير أنه لا يجوز أن يكون بالواو لله جل وعز الذي قاله بين. والله أعلم بما أراد".

* ذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة، قال ابن القيم: (قال شيخنا: هذا- والله أعلم- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم).

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢)} إلى قوله: {فألهمها فجورها وتقواها (٨)} [الشمس: ١ - ٢، ٨].

قال الزجاج وغيره: "جواب القسم: {قد أفلح من زكاها (٩)}، ولما طال الكلام

=

=

حسن حذف "اللام" من الجواب". -وما ذكره الزجاج هنا هو قول أكثر أهل التفسير واللغة كـ: المبرد، والنحاس، وابن جني، وابن جرير وغيرهم، وذهب الفراء، وابن الأنباري وغيرهما إلى أن جواب القسم محذوف-

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخلاق والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل: إن "ما" مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى،

فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه سبحانه، وبصنعته الدالة على كمال علمه، وقدرته، وحكمته، وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار؛ أمرا يشهد الناس حدوثه شيئا فشيئا، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث = كان العلم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث له لفظا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة الأول.

ولهذا يسلك طائفة من النظار الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح؛ قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) } [آل عمران: ١٩٠].

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين- حتى ظن من ظن أنهما قديمتان- ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما، وكذلك "النفس"؛ فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها، هذا مع ما في ذكر بناء السماء، وطحو الأرض، وتسوية "النفس"؛ من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفا لهذا العالم.

و"الطحو": هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان،

=

=

ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن تغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها عن الماء على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكري؛ يقتضي تخصيصا، فلم يجدوا بدا من أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعم إذا، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة، ولا اختيار، ولا علما بمعين أصلا- كما تقولونه فيه -: محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وأنه الفعال يفعل باختياره ما يريد.

وكذلك "النفس"؛ أقسم بها وبمن سواها، وألهمها فجورها وتقواها، فإن من الناس من يقول: هي قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر- سبحانه- أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى.

فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها، وذكر لفظ "التسوية"- كما ذكره في قوله تعالى: {ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧)} [الانفطار: ٦، ٧]، وفي قوله ﷻ: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي} [الحجر: ٢٩]- إيذانا بدخول البدن في لفظ "النفس"، كقوله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} [الأعراف: ١٨٩] وقوله تعالى: {فسلموا على أنفسكم} [النور: ٦١]. {ولا تقتلوا أنفسكم} [النساء: ٢٩]، {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا} [النور: ١٢] ونظائره، وباجتماع "الروح" مع البدن تفسير "النفس" فاجرة أو تقية، وإلا فـ "الروح" بدون البدن لا فجور لها.

وقوله تعالى: {قد أفلح من زكاها (٩)}؛ الضمير المرفوع في {زكاها (٩)} عائد على "من"، وكذلك هو في {دساها (١٠)}، والمعنى قد أفلح من زكى نفسه، وقد

=

=

خاب من دساها.

هذا هو القول الصحيح، وهو نظير قوله: {قد أفلح من تزكى (١٤)} [الأعلى: ١٤]، وهو- سبحانه- إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح، كقوله: {قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢)} [المؤمنون: ١- ٢] إلى آخر الآيات، وقوله: {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥)} [البقرة: ٥] بعد قوله: {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة} [البقرة: ٣]، وقوله: {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون (٥١)} [النور: ٥١] ونظائره.

قال الحسن: "قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله"، وقاله: قتادة.

وقال ابن قتيبة: "يريد: أفلح من زكى نفسه أي: أنماها وأعلاها بالطاعة، والبر، والصدقة، والكف عن المعاصي، والتنافس في الدرجات، واصطناع المعروف، وقد خاب من دساها أي: نقصها وأخفاها بترك عمل ذلك البر، وركوب المعاصي.

والفاجر- أبدا- خفي المكان، زمر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن النطف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الربا ويفاع الأرض لتشهر بها أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأولاج، والأطراف، والأهضام لتخفي أنفسها وأماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد في ذلك:

وبوأت بيتك في معلم ... رحيب المباءة والمسرح

=

=

كفيت العفاة طلاب القرى ... ونبح الكلاب لمستنبح"

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: {وقد خاب من دساها (١٠)} فقال: "دس" معناه: دس نفسه مع الصالحين وليس منهم".

وعلى هذا فالمعنى: أخفى نفسه في الصالحين، يري الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقال طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس- في رواية عطاء -: "قد أفلحت نفس زكاها الله، فأصلحها".

وهذا قول: مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل، قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله، وطهرها، ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله، وأغواها، وأبطلها، وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله- تعالى- بهذه الأشياء التي ذكرها؛ لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه، وإهلاكها بالمعصية؛ من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة.

قالوا: ويدل عليه قوله: {فألهمها فجورها وتقواها (٨)} [الشمس: ٨].

قالوا: ويشهد له حديث نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت ليلة؛ فوجدت رسول الله ﷺ -وهو يقول: "رب؛ أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها".

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: {قد أفلح من زكاها (٩)} وقف، ثم قال: "اللهم؛ آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها".

=

=

قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق "النفس"، وهو ملهمها الفجور والتقوى، وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا.

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزا في العربية، حملا للضمير المنصوب على معنى "من"، وإن كان لفظها مذكرا؛ كما في قوله ﷻ: {ومنهم من يستمعون إليك} [يونس: ٤٢]، جمع الضمير وإن كان لفظ "من" مفردا، حملا على معناها = فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ "من"، والضمير المرفوع في {زكاها (٩) } يستحقه لفظا ومعنى، فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على "النفس" التي هي أولى به لفظا ومعنى، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه.

وأما عود الضمير الذي يلي "من" على الموصول السابق وهو قوله: {وما سواها (٧) }، وإخلاء جاره الملاصق له- وهو "من"- من عوده إليه، ثم عود الضمير المنصوب- وهو مؤنث- على "من"، ولفظه يذكر دون "النفس" المؤنثة = فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه، ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة؛ وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب ويعاقب عليه، وفي قوله: {فألهمها فجورها وتقواها (٨)} إثبات القضاء والقدر السابق.

فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرا ما يقترنان في القرآن كقوله: {إنه تذكرة (٥٤) فمن شاء ذكره (٥٥) وما يذكرون إلا أن يشاء الله}

=

=

[المدثر: ٥٤- ٥٦] وقوله: {لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)} [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فتضمنت الآيتان الرد على "القدرية" و"الجبرية".

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس؛ فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها: فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبتة.

فصل: وذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة؛ قال شيخنا: "هذا- والله أعلم- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم.

ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) ... وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٥ - ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في "سورة هود" و"الشعراء" وغيرهما.

فكان في قوم لوط- مع الشرك- إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها.

وفي عاد- مع الشرك- التجبر، والتكبر، والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: {من أشد منا قوة}.

وفي أصحاب مدين- مع الشرك- الظلم في الأموال.

=

=

وفي قوم فرعون الفساد في الأرض، والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم؛ فعذب عادا بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء.

وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم؛ فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين.

وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة، فماتوا في الحال.

فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء، وذنبهم مع الشرك عقر ناقة واحدة جعلها الله آية لهم؛ فمن انتهك محارم الله، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم = كان أشد عذابا.

ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله = علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون".

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود بالذكر ههنا- دون غيرهم- معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقنته أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال- تعالى- في وصفهم : {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] وقال تعالى: {وآتينا ثمود الناقة مبصرة} [الإسراء: ٥٩] أي: موجبة لهم التبصر واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم؛ فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لما قرنهم بـ

=

سورة الليل(١)

=

"عاد" قال: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق} الآية [فصلت: ١٥]، ثم قال: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧].

ولهذا أمكن عادا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: {ما جئتنا ببينة} [هود: ٥٣]، ولم يمكن ذلك ثمودا، وقد رأوا البينة عيانا، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة به، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

قال القرطبي:"سورة «والليل» مكية. وقيل: مدنية".

قال ابن عطية:"هي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي وقيل هي مدنية وقيل فيها مدني".

قال أبو حيان:"هذه السورة مكية. وقال علي بن أبي طلحة: مدنية. وقيل: فيها مدني".

وكذلك ذكر الأقوال في «الإتقان»، وأشار إلى أن ذلك لما روي من سبب نزول قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل: ٥]، إذ روي: «أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري، في نخلة كان يأكل أيتام من ثمرها وكانت لرجل من المنافقين فمنعهم من ثمرها فاشتراها أبو الدحداح بنخيل وجعلها لهم». وسيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله-.

* وآياتها إِحدى وعشرون بلا خلاف. وكلماتها إِحدى وسبعون. وحروفها ثلاثمائة وعشر. فواصل آياتها على الألف.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١).

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} بِظُلْمَتِهِ كُلّ مَا بَيْن السماء والأرض.

=

* تسمى «سورة الشمس» سميت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير، «سورة الليل» بدون واو، وسميت في معظم كتب التفسير «سورة والليل» بإثبات الواو.

ووجه تسميتها «سورة الليل»، لافتتاحها بالقسم الإلهي، وذلك في قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١].

وتسمى «سورة والليل إذا يغشى» وبهذه التسمية عنون لها بعض المفسرين، كما عنون لها البخاري، والترمذي، والحاكم في كتبهم.

وهي تسمية للسورة بأول جملة افتتحت بها، قال تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١].

* مقصود السّورة: القسم على تفاوتُ حال الخَلق فى الإِساءَة والإِحسان، وهدايتُهم إِلى شأْن القرآن، وترهيب بعض بالنار، وترغيبُ بعض بالجِنان والبدارُ إِلى الصّدقة كفارةً للذنوبِ والعصيان، ووعد برضى الرحمن المنَّان، فى قوله: {وَلَسَوْفَ يرضى}.

* ومن المتشابه: {فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى} وبعده: {فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى} أَى سنهيّئه للحالة اليسرى، والحالة العسرى. وقيل: الأُولى الجنَّة، والثانية النَّار، ولفظة: {سَنُيَسِّرُهُ} للإِزواج وجاءَ فى الخبر "كلٌّ ميّسر لما خُلِق له". بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢).

{وَالنَّهَار إِذَا تَجَلَّى} تَكَشَّفَ وَظَهَرَ وَإِذَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّة وَالْعَامِل فِيهَا فِعْل الْقَسَم.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣).

{وَمَا} بِمَعْنَى مَنْ أَوْ مَصْدَرِيَّة {خَلَقَ الذَّكَر وَالْأُنْثَى} آدَم وَحَوَّاء وَكُلّ ذَكَر وَكُلّ أُنْثَى وَالْخُنْثَى الْمُشْكِل عِنْدنَا ذَكَر أَوْ أُنْثَى عِنْد الله تَعَالَى فَيَحْنَث بِتَكْلِيمِهِ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّم ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤).

{إِنَّ سَعْيكُمْ} عَمَلكُمْ {لَشَتَّى} مُخْتَلِف فَعَامِل لِلْجَنَّةِ بِالطَّاعَةِ وَعَامِل لِلنَّارِ بِالْمَعْصِيَةِ.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥).

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى} حَقّ الله {وَاتَّقَى} الله.

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦).

{وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أَيْ بِلَا إِلَه إِلَّا الله في الموضعين.

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧).

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} لِلْجَنَّةِ.

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨).

{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ} بِحَقِّ الله {وَاسْتَغْنَى} عَنْ ثوابه.

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)

{وكذب بالحسنى}.

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠).

{فَسَنُيَسِّرُهُ} نُهَيِّئُهُ {لِلْعُسْرَى} لِلنَّارِ.
وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١).
{وَمَا} نَافِيَة {يُغْنِي عَنْهُ مَاله إِذَا تَرَدَّى} فِي النَّار[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة ليأخذ منها الثمرة؛ فربما تقع ثمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل من نخلته، فيأخذ الثمرة؛ من أيديهم، وإن وجدها في فم أحدهم؛ أدخل أصبعه حتى يخرج الثمرة من فيه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، فقال: "اذهب"، ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له: "أعطني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة"، فقال له الرجل: لقد أعطيت وإن لي لنخلاً كثيراً وما فيه نخل أعجب إليّ ثمرة منها، ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ لصاحب النخلة، فأتى رسول الله ﷺ فقال: أعطني ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها، قال: "نعم"، فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل، فقال له صاحب النخلة: أشعر أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة إلى دار فلان نخلة في الجنة، فقلت: لقد أعطيت، ولكن يعجبني ثمرها، ولي نخل كثير ما فيه نخلة أعجب إليّ ثمرة منها، فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا؛ إلا أن أعطى بها ما أريد، ولا أظن أعطى، قال: فكم تؤمل فيها؟ قال: أربعين نخلة، فقال له الرجل: لقد جئت بأمر عظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة. ثم سكت عنه فقال: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال له: أشهد إن كنت صادقًا، فأشهد له بأربعين نخلة بنخلته المائلة، فمكث ثَمَّ ساعة، قال: ليس بيني وبينك بيع لم نفترق، فقال له الرجل: ولست باحق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة، فقال له: أعطيك على أن تعطيني كما أريد =

تعطينيها على ساق، فسكت عنه، ثم قال: هي لك على ساق، قال: ثم ذهب إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله! إن النخلة قد صارت لي؛ فهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال: "النخلة لك ولعيالك"؛ فأنزل الله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١)} إلى آخر السورة.

أخرجه الحافظ ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٥٥)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ٥٠٢)، و"أسباب النزول" (ص ٢٢٩) من طريق حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه حفص وهو ضعيف؛ كما في "التقريب".

قال الحافظ ابن كثير: "هكذا رواه ابن أبي حاتم وهو حديث غريب جداً". وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٢): "بسند ضعيف".

وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: إني لأقول: هذه السورة نزلت في السماحة والبخل. ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٣) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، أي: "أقسم بالليل عندما يغطي بظلامه الأرض وما عليها".

وفي قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، وجوه:

أحدها: إذا أظلم، قاله مجاهد.

قال السمرقندي:"أقسم الله تعالى بالليل، إذا غشيت ظلمته ضوء النهار".

قال ابن أبي زمنين:"إذا غشي النهار، فأذهب ضوءه".

الثاني: إذا غشى الخلائق فعّمهم وملأهم، قاله قتادة.

قال ابن كثير:"أي: إذا غَشيَ الخليقةَ بظلامه".

الثالث: إذا أقبل فغطى كل شيء، قاله ابن جبير.

قال ابن فورك:"قيل الغشي: إلباس الشيء ما يعمه ويستر جملته".

=

قال النحاس:"قيل: المعنى والليل إذا يغشى كل شيء بظلمته فيصير له كالغشاء، وليس كذا النهار، وعلى هذا قول الذبياني :

فإنك كالليل الذي هو مدركي... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع".

قال الزجاج:"معنى: «إذا يغشى الليل الأرض»: توارى الأفق وجميع ما بين السماء والأرض".

قال الطبري: "أقسم الله تعالى بالليل إذا غشَّى النهار بظلمته، فأذهب ضوءه".

قوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ٢]، أي:"وأقسم بالنهار إذا انكشف عن ظلام الليل بضيائه".

وفي قوله تعالى: {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ٢]، وجهان:

أحدهما: إذا أضاء، قاله مجاهد.

قال السمرقندي:"يعني: أقسم بالنهار إذا استنار، وتجلى عن الظلمة".

قال ابن كثير:"{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، أي: بضيائه وإشراقه".

الثاني: إذا ظهر، وهو مقتضى قول ابن جبير. وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:"معنى: {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}: إذا بان وظهر".

قال الطبري:"أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار. ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عِيانا".

عن قتادة، قوله:"{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، قال: آيتان عظيمتان يكوّرهما الله على الخلائق".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى، لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك

=

=

الطير من أوكارها والهوام من مكامنها، فلو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش ولو كان كله نهارا لبطلت الراحة، لكن المصلحة كانت في تعاقبهما على ما قال سبحانه (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) (وسخر لكم الليل والنهار).

- **قال ابن عاشور**: وفي القسم بالليل وبالنهار التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون وبديع قدرته، وخص بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانه الجانب الذي يغشاه من الأرض، ويغشى فيه من الموجودات فتعمها ظلمته فلا تبدو للناظرين، لأن ذلك أقوى أحواله، وخص بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات وظهوره على الأرض كذلك.

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} [الليل: ٣]، (ما) موصولة، أي: وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى من الإنس والجن وسائر الحيوانات والنباتات، وهو الله تعالى.

فأقسم بنفسه الكريمة سبحانه الموصوفة بكونه خالق الذكر والأنثى.

وفي هذه الأقسام تنبيه العباد إلى عظيم صنع الله في آياته، وبديع حكمته وقدرته في هذا الكون الفسيح الذي يجري فيه كل شيء بانتظام بالغ، بما يحقق مصالح الخلق.

قال السمرقندي:"يعني: آدم وحواء".

قال ابن فورك:"عني بـ «الذكر والأنثى»: آدم وحواء".

وقال ابن عباس والكلبي والحسن: "هما آدم وحواء".

قال أبو وحيان:"الظاهر عموم الذكر والأنثى. وقيل: من بني آدم فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته".

=

=

قال ابن كثير:"هو كقوله: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبأ: ٨]، وكقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩]".

قال السعدي: وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرا وأنثى ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسبا للآخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفي «ما»، قولان:

أحدهما: أنها بمعنى المصدر، تقديره: وخلق الذكر والأنثى، وهذا مذهب قتادة، والزجاج.

الثاني: أنها بمعنى: «مَن»، تقديره: «ومن خلق الذكر والأنثى»، وهذا مذهب الحسن، ومجاهد، وأبي عبيدة.

عن الحسن:"أنه كان يقرؤها: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}، يقول: والذي خلق الذكر والأنثى".

عن الحسن:"أنه كان يقرأها: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنْثَى}، يقول: والذي خلق الذكر والأنثى؛ قال هارون قال أبو عمرو: وأهل مكة يقولون للرعد: «سبحان ما سبَّحْتَ له»".

قال أبو عبيدة: المعنى:"ومن خلق الذكر والأنثى".

قال الطبري:"يحتمل أن تجعل «ما» بمعنى «مَنْ»، فيكون ذلك قسما من الله جلّ ثناؤه بخالق الذّكر والأنثى، وهو ذلك الخالق، وأن تجعل «ما» مع ما بعدها بمعنى المصدر، ويكون قسما بخلقه الذكر والأنثى".

قال أبو حيان:"الثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنْثَى}، وما ثبت في الحديث من قراءة: «والذَّكَرِ والأنْثَى»: نقل آحاد مخالف للسواد، فلا يعد قرآنا".

=

=

عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: أنهما كانا يقرآن ذلك: «والذَّكَرِ والأنْثَى»، ويأثُرُه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ.

عن قتادة: "{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنْثَى}، قال: في بعض الحروف «والذَّكَرِ والأنْثَى»".

عن أبي إسحاق قال: "في قراءة عبد الله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى والذَّكَرِ والأنْثَى»".

عن المُغيرة، قال: سمعت إبراهيم يقول: "أتى علقمة الشام، فقعد إلى أبي الدرداء، فقال: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، فقال: كيف كان عبد الله يقرأ هذه الآية: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، فقلت: «وَالذَّكَرِ والأنْثَى» قال: فما زال هؤلاء حتى كادوا يستضلُّونني، وقد سمعتها من رسول الله ﷺ".

عن علقمة قال: "أتينا الشام، فدخلت على أبي الدرداء، فسألني فقال: كيف سمعت ابن مسعود يقرأ هذه الآية: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، قال: قلت: «وَالذَّكَرِ والأنْثَى» قال: كفاك، سمعتها من رسول الله ﷺ يقرؤها".

عن علقمة، قال: "قَدِمت الشام، فلقيت أبا الدرداء، فقال: من أين أنت؟ فقلت من أهل العراق؟ قال: من أيِّها؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: هل تقرأه قراءة ابن أمّ عبد؟ قلت: نعم، قال: اقرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}، قال: فقرأت: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى والذَّكَرِ والأنْثَى»، قال: فضحك، ثم قال: هكذا سمعت مِنْ رسول الله ﷺ".

عن علقمة، قال: "قدمت الشام، فأتى أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ علي قراءة عبد الله؟ قال: فأشاروا إليّ، قال: قلت أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى

=

=

والذَّكَرِ والأنْثَى» قال: وأنا هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول: فهؤلاء يريدوني على أن اقرأ: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنْثَى}، فلا أنا أتابعهم".

عن علقمة بن قيس أبي شبل: "أنه أتى الشام، فدخل المسجد فصَّلى فيه، ثم قام إلى حَلْقة فجلس فيها؛ قال: فجاء رجل إليّ، فعرفت فيه تحوّش، القوم وهيبتهم له، فجلس إلى جنبي، فقلت: الحمد لله إني لأرجو أن يكون الله قد استجاب دعوتي، فإذا ذلك الرجل أبو الدرداء، قال: وما ذاك؟ فقال علقمة: دعوت الله أن يرزقني جليسا صالحا، فأرجو أن يكون أنت، قال: مِنْ أين أنت؟ قلت: من الكوفة، أو من أهل العراق من الكوفة. قال أبو الدرداء: ألم يكن فيكم صاحب النعلين والوساد والمِطْهَرة، يعني ابن مسعود، أو لم يكن فيكم من أُجير على لسان النبيّ ﷺ من الشيطان الرجيم، يعني عَمَّار بن ياسر، أو لم يكن فيكم صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره، أو أحد غيره، يعني حُذَيفة بن اليمان، ثم قال: أيكم يحفظ كما كان عبد الله يقرأ؟ قال: فقلت: أنا، قال: اقرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}، قال علقمة: فقرأت: «الذكر والأنثى»، فقال أبو الدرداء: والذي لا إله إلا هو، كذا أقرأنيها رسول الله ﷺ فوه إلى فيّ، فما زال هؤلاء حتى كادوا يردّونني عنها".

وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ: «وما خلق الذكر»، بجر «الذكر»، وذكرها الزمخشري عن الكسائي، وقد خرجوه على البدل من على تقدير: والذي خلق الله، وقد يخرج على توهم المصدر، أي وخلق الذكر والأنثى.

قوله تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل: ٤].

هذا جواب القسم، أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ومتخالفة فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا.

– والسعي: هو العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه.

=

=

- فأقسم سبحانه بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا بان وظهر وأضاء الأرض بنوره، وبنفسه وهو الذي خلق الذكر والأنثى، أقسم على أن سعي العباد وأعمالهم واهتماماتهم وجهودهم مختلفة، متنوعة ومتفرقة، فعامل خيرا، وعامل شرا.

كما قال ﷺ (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم.

- **قال ابن عطية**: فأخبر تعالى مقسما أن أعمال العباد شتى، أي مفترقة جدا بعضها في رضى الله وبعضها في سخطه.

تنبيه: بين المقسم به وجواب القسم تناسب، فالله أقسم بأشياء متضادة من الليل والنهار والذكر والأنثى على أشياء متضادة، وهي أفعال العباد الحسنة والقبيحة.

قال الطبري:"يقول: إن عَمَلَكُمْ لمختلف أيها الناس، لأن منكم الكافر بربه، والعاصي له في أمره ونهيه، والمؤمن به، والمطيع له في أمره ونهيه، وقوله: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} : جواب القسم، والكلام: والليل إذا يغشى إن سعيكم لشتى، وكذا قال أهل العلم".

قال عكرمة:"السعي: العمل".

قال الفراء:"{لَشَتَّى} : لمختلف".

قال ابن قتيبة:"أي: إن عملكم لمختلفٌ".

قال أبو حيان:"أي: مساعيكم لمتفرقة مختلفة".

قال الزجاج:"أي: إن سعي المؤمن والكافر لمختلف، بينهما بعد".

قال ابن كثير:"ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضا متضادا؛ ولهذا قال: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} ، أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا".

عن قتادة:"{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} ، يقول: لمختلف".

=

=

قال قتادة:"وقع القسم -ها هنا-: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}".

قال الفراء:"نزلت في أبي بكر بن أبي قحافة رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي أبي سفيان، وذلك أن أبابكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشترى تسعة رجال كانوا في أيدي المشركين من ماله يريد به الله تبارك وتعالى فانزل الله جل وعز فيه ذلك: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٥- ٦]، أبو بكر {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٧] للعود إلى العمل الصالح".

عن زيد بن أسلم -من طريق إبراهيم بن سويد- في هذه الآية: "{يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله} [الجمعة: ٩]، قال: النداء حين يخرج الإمام. وكان يقول السعي: العمل؛ إنّ الله يقول: {إن سعيكم لشتي}، وقال: {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها} [الإسراء: ١٩]".

قال مالك بن أنس: "وإنما السعي في كتاب الله العمل والفعل، يقول الله -تبارك وتعالى-: {وإذا تَوَلّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها} [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: {وأَمّا مَن جاءَكَ يَسْعى وهُوَ يَخْشى} [عبس: ٨- ٩]، وقال: {ثم أدبر يسعى} [النازعات: ٢٢]، وقال: {إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى}. قال مالك: فليس السعي الذي ذكر الله في كتابه بالسعي على الأقدام، ولا الاشتداد، وإنما عنى: العمل والفعل".

قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل: ٥].

أي: أعطى ما أمر بإخراجه من النفقات الواجبة والمستحبة كالزكاة والإنفاق على الأهل والأولاد وسائر الصدقات.

قال الطبري:"فأما من أعطى واتقى منكم أيها الناس في سبيل الله، ومن أَمَرَه الله بإعطائه من ماله، وما وهب له من فضله، واتقى الله واجتنب محارمه".

وفي قوله تعالى: {أَعْطَى} [الليل: ٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أعطى ما عنده، قاله ابن عباس.

=

=

قال ابن عباس:"أعطى ما عنده".

عن ابن عباس: "{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى}: من الفضل".

الثاني: أعطى حق الله عليه. قال قتادة.

قال ابن كثير:"أي: أعطى ما أمر بإخراجه".

الثالث: يقول: من ذكر الله. قاله الضحاك.

وفي قوله تعالى: {وَاتَّقَى} [الليل: ٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: اتقى ربه. قاله ابن عباس، والضحاك.

الثاني: اتقى محارم الله التي نهى عنها، قال قتادة.

قال قتادة:"واتقى محارمه".

قال ابن كثير:"واتقى الله في أموره".

الثالث: اتقى البخل، قاله مجاهد.

قوله تعالى: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٦]، أي:"وصدَّق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، وما ترتب عليها من الجزاء".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٦]، أقوال:

أحدها: بتوحيد الله، وهو قول: «لا إله إلا الله»، قاله ابن مسعود، ورواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، وعطاء.

عن أبي الزبير، قال: "قرئ على رسول الله ﷺ: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٦]، قال: "بـ «لا إله إلا الله»".

عن يحيى بن أبي أنيسة:"أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن قول الله: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل: ٨٩]، قال عطاء: من جاء بالتوحيد فله خير وقوة، {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} [النمل: ٩٠]، فقال عطاء: من جاء بالشرك؛ قال: وسمعت عطاء يقول: ألم تسمع

=

=

لقوله: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٥- ٦]، يقول: من صدق بالتوحيد، {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٨- ٩]، كذب بالتوحيد".

الثاني: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه، قاله قتادة، ومقاتل، والكلبي.

قال قتادة:"صدق المؤمن بموعد الله الحسن".

قال قتادة:"بموعود الله على نفسه".

قال مقاتل:"بعدة الله ﷻ أن يخلفه في الآخرة خيرا، إذا أعطى في حق الله ﷻ".

وحكي الماوردي عن خصيف: قال:"بالثواب" ،

الثالث: بالجنة، قاله مجاهد، والحسن، ويحيى بن سلام، والفراء، يدل عليه قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].

وقال الفراء:"بثواب الجنة".

وروي عن الحسن، قال: "الحسنى: الجنة"

عن أبيّ بن كعب قال: "سألت رسول الله ﷺ عن «الحسنى»، قال: «الحسنى: الجنة".

الرابع: بالصلاة والزكاة والصوم، قاله زيد بن أسلم.

الخامس: بما أنعم الله عليه، قاله عطاء.

السادس: بالخَلَف من الله، لقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]. رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن.

قال النحاس:"ومن أحسن ما قيل في معنى: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}، ما قرئ على محمد بن جعفر بن حفص بن راشد، عن يوسف بن موسى، عن ابن علية، قال: أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس،: {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}، قال: «بالخلف». فهذا إسناد مستقيم، ومعنى ملائم لسياق الكلام".

=

=

قوله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٧]، أي:"فسنرشده ونوفقه إلى أسباب الخير والصلاح ونيسِّر له أموره".

أي: نيسر له أمره، ونجعله مسهلا عليه كل خير، ميسرا له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك، لأن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) وقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب).

- **قال ابن عطية**: و" اليسرى " الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و" العسرى ": الحال السيئة في الدنيا والآخرة.

- قال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

- قال بعض العلماء: (فسنيسره لليسرى) أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها.

وفي قوله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: للجنة. قاله زيد بن أسلم.

الثاني: للخير. قاله ابن عباس.

قال الفراء:"للعود إلى العمل الصالح".

قال مقاتل:"يعني: نيسره للعودة إلى أن يعطي فسنيسره للخير".

قال الزجاج:"أي: للأمر السهل الذي لا يقدر عليه أحد إلا المؤمنين".

قال الماوردي:"فسنيسر له أسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها".

قال أبو حيان:"أي: نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون وذلك في الدنيا والآخرة".

=

=

قال الطبري:"المعنى:"فسنهيئه في الدنيا للخلة العُسرى، وهو من قولهم: قد يسرت غنم فلان: إذا ولدت وتهيأت للولادة، وكما قال الشاعر :

هُمَا سَيِّدَنا يَزْعُمانِ وإِنَّمَا... يَسُودَانِنا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَماهُمَا".

عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: "كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تعتق أناسًا ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالا جُلَداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟! فقال: أيْ أبَت، إنما أريد- أظنه قال- ما عند الله: قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}".

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا، وأنزل الله في ذلك القرآن فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى".

عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه قال: سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف؟ قال: "بل على أمر قد فُرغ منه" قال: ففيم العملُ يا رسول الله؟ قال: "كل ميسر لما خلق له".

عن ابن عُمَر: قال: قال عمر: "يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه؟ أفي أمر قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: "فيما قد فُرِغَ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإن كُلا مُيَسَّر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء".

=

=

عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: "لأمر قد فرغ منه". فقال سراقة: ففيم العمل إذًا؟ فقال رسول الله ﷺ: "كل عامل مُيَسَّر لعمله".

عن النزال بن سَبَرَةَ، قال: قال النبيّ ﷺ: "ما مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا قَدْ كُتبَ اللهُ عَلَيْها ما هِيَ لاقِيَتُهُ" وأعرابي عند النبيّ ﷺ مرتاد، فقال الأعرابيّ: فما جاء بي أضرب من وادي كذا وكذا، إن كان قد فرغ من الأمر، فنكت النبيّ ﷺ في الأرض، حتى ظنّ القوم أنه ود أنه لم يكن تكلم بشيء منه، فقال النبي ﷺ: "كُلّ مُيَسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يَسَّرَهُ لِسَبِيلِ الخَيرِ، وَمَنْ يُرِدْ بِهِ شَرًّا يَسَّرَهُ لِسَبِيلِ الشَّرِّ"، فلقيت عمَرو بن مرّة، فعرضت عليه هذا الحديث، فقال: قال النبيّ ﷺ، وزاد فيه: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}".

عن بشير بن كعب العدوي قال: "سأل غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جفَّت به الأقلام، وجرَت به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال: "بَلْ فِيما جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ به المقادِيُر" قالا ففيم العمل إذن؟ قال: "اعمَلُوا، فَكُلُّ عامِلٍ مُيَسَّرٌ لَعَمَلِهِ الَّذِي خلِقَ لَهُ"، قالا فالآن نجدّ ونعمل".

عن علي بن أبي طالب قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في بَقِيع الغَرْقَد في جنازة، فقال: "ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار". فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: "اعملوا، فكل ميسر لما خلق له". قال: ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} إلى قوله: {لِلْعُسْرَى}".

عن علي بن أبي طالب، - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخْصَرَةٌ فَنكَسَ فجعل ينكُت بمخصرته، ثم قال:

=

"ما منكم من أحد- أو: ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة". فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء". ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} الآية".

عن أبي الأحوص، عن عبد الله، أنه كان يدعو: «اللهم ألبسنا لباس التقوى، وألزمنا كلمة التقوى، واجعلنا من أولي النهى، وأمتنا حين ترضى، وأدخلنا جنة المأوى، واجعلنا ممن بر واتقى، وصدق بالحسنى، ونهى النفس عن الهوى، واجعلنا ممن تيسره لليسرى، وتجنبه العسرى، واجعلنا ممن يتذكر فتنفعه الذكرى، اللهم اجعل سعينا مشكورا، وذنبنا مغفورا، ولقنا نضرة وسرورا، واكسنا سندسا وحريرا، واجعل لنا أساور من ذهب ولؤلؤ، وحريرا».

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى} [الليل: ٨]، أي:"وأما مَن بخل بماله واستغنى عن جزاء ربه".

قال الزجاج:"نزلت في رجل أكره ذكره، وهي جامعة لكل من بخل وكذب، لأن الله جل وعز يجازيه أو يخلف عليه".

وفي قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ} [الليل: ٨]، وجهان:

أحدهما: بخل بماله الذي لا يبقى، قاله ابن عباس، والحسن.

قال ابن عباس:"بخل بماله، {وَاسْتَغْنَى} عن ربه".

قال الحسن:"بخل بما لم يَبقَ، واستغنى بغير غِنًى".

الثاني: بخل بحق الله تعالى، قاله قتادة.

عن قتادة:"{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ}، قال: بحق الله عليه، {وَاسْتَغْنَى}: في نفسه عن ربه".

=

قال أبو حيان:"قابل {أعطى} بـ {بخل}، و {اتقى} بـ {استغنى}، لأنه زهد فيما عند الله بقوله: {واستغنى}".

قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٩]، أي:"وكذَّب بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، وما ترتب عليها من الجزاء".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٩]، أقوال:

أحدها: بتوحيد الله، وهو قول: «لا إله إلا الله»، قاله ابن مسعود، ورواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، وعطاء.

عن ابن عباس: "{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى}: وكذّب بـ «لا إله إلا الله»".

قال عطاء:"كذب بالتوحيد".

الثاني: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه، قاله قتادة، ومقاتل، والكلبي.

قال قتادة:"وكذّب بموعود الله الذي وعد، قال الله: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}".

قال قتادة:"وكذّب الكافر بموعود الله الحسن".

الثالث: بالجنة، قاله مجاهد، ويحيى بن سلام، والفراء، يدل عليه قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].

قال ابن كثير:"أي: بالجزاء في الدار الآخرة".

قال الفراء: أي:"بثواب الجنة، أنه لا ثواب".

عن أبيّ بن كعب قال: "سألت رسول الله ﷺ عن «الحسنى»، قال: «الحسنى: الجنة"».

الرابع: بالصلاة والزكاة والصوم، قاله زيد بن أسلم.

الخامس: بما أنعم الله عليه، قاله عطاء.

السادس: بالخَلَف من الله، لقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]. رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن.

=

قال ابن عباس:"وكذّب بالخلف".

قوله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ١٠]، أي:"فسنُيَسِّر له أسباب الشقاء".

وفي قوله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ١٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: للشر من الله تعالى، قاله ابن عباس.

وقال الفراء:"يقول: قد خلق على أنه شقي ممنوع من الخير".

قال ابن كثير:"أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله، ﷻ، يُجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدّر".

الثاني: للنار، قاله ابن مسعود، والضحاك.

قال الزجاج:"العذاب والأمر العسير".

قال سهل:"أي: نسهل عليه العمل، بعمل أهل النار، ألا تراه كيف قال عقبه: {وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى} [الليل: ١١]، في النار".

الثالث: فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها. ذكره الماوردي، وهو معنى قول مقاتل.

قال مقاتل:"نعسر عليه أن يعطى خيرا".

قال أبو حيان:"{لِلْعُسْرَى}: هي الحالة السيئة في الدنيا والآخرة".

قال الزمخشري:"{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى}... حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشدّه، من قوله: {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ}، أو سمى طريقة الخير باليسرى، لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العسرى، لأن عاقبتها العسر. أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسنهديهما في الآخرة للطريقين".

=

قال القرطبي: قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله (ومما رزقناهم ينفقون) وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها.

- قال ابن كثير: (فسنيسره للعسرى) أي: لطريق الشر، كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون)، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ؛ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

قال النحاس:"فإن قيل: التيسير إنما يكون للخير فكيف جاء للعسر؟ فالجواب أنه مثل {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]، أي: اجعل ما يا قوم لهم مقام البشارة وأنشد سيبويه :

[وخيل قد دلفت لها بخيل]... تحيّة بينهم ضرب وجيع

هذا قول البصريين، وقول الفراء إنه إذا اجتمع خير وشر فوقع للخير تبشير جاز أن يقع للشر مثله".

جاء في التفسير الوسيط: والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها، وقد وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هي جماع كل خير، وأساس جميع الفضائل: وصفهم بالسخاء، وبالخوف من الله- تعالى-، وبالتصديق بكل ما يجب التصديق به، ورتب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى.. التي تنتهي بهم إلى الفوز والسعادة.

ووصف- أيضا- أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات، هي أساس البلاء، ومنبع الفساد، ألا وهي: البخل، والغرور، والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به.. ورتب-

=

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢).

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} لَتَبْيِين طَرِيق الْهُدَى مِنْ طَرِيق الضَّلَال لِيَمْتَثِل أَمْرنَا بِسُلُوكِ الْأَوَّل وَنَهْينَا عَنْ اِرْتِكَاب الثَّانِي.

=

سبحانه- على ذلك تهيئتهم للخصلة العسرى، التي توصلهم إلى سوء المصير، وشديد العقاب.

قوله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ١١]، أي:"ولا ينفعه ماله الذي بخل به إذا وقع في النار".

قال الطبري: يقول:"أيّ شيء يدفع عن هذا الذي بخل بماله، واستغنى عن ربه، ماله يوم القيامة {إِذَا} هو {تَرَدَّى}".

وفي قوله تعالى: {إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ١١]، وجهان:

أحدهما: إذا تردّى في النار، قاله أبو صالح، وقتادة.

قال ابن قتيبة:"في النار، أي: سقط".

قال النحاس:"أي: وأيّ شيء يدفع عنه ماله إذا سقط في النار".

الثاني: إذا مات فتردى في قبره، قاله مجاهد.

قال ابن قتيبة:"ويقال: «تَرَدَّى»: تَفَعَّل؛ من «الرَّدَى»، وهو: الهلاك".

قال الزمخشري:"استفهام في معنى الإنكار، أو نفى تَرَدَّى تفعل من الردى وهو الهلاك، يريد: الموت. أو تردّى في الحفرة إذا قبر، أو تردى في قعر جهنم".

قال النحاس:"وذهب مجاهد: إذا هلك، وإنما يقال في الهلاك: ردى، يردي وتردّى: إذا سقط، وردؤ الرجل يردؤ رداءة، وهو: رديء مردئ".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: إذا تردّى في جهنم، لأن ذلك هو المعروف من التردّي، فأما إذا أُريد معنى الموت، فإنه يقال: رَدِيَ فلان، وقلما يقال: تردّى".

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣).

{وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَة وَالْأُولَى} أَيْ الدُّنْيَا فَمَنْ طَلَبَهُمَا مِنْ غَيْرنَا فَقَدْ أَخْطَأَ.

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤).

{فَأَنْذَرْتُكُمْ} خَوَّفْتُكُمْ يَا أَهْل مَكَّة {نَارًا تَلَظَّى} بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنْ الْأَصْل وَقُرِئَ بِثُبُوتِهَا أي تتوقد.

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥).

{لَا يَصْلَاهَا} يَدْخُلهَا {إِلَّا الْأَشْقَى} بِمَعْنَى الشَّقِيّ.

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦).

{الَّذِي كَذَّبَ} النَّبِيّ {وَتَوَلَّى} عَنْ الْإِيمَان وَهَذَا الْحَصْر مُؤَوَّل لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَيَغْفِر مَا دُون ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء} فَيَكُون الْمُرَاد الصِّلِيّ الْمُؤَبَّد.

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧).

{وَسَيُجَنَّبُهَا} يُبْعَد عَنْهَا {الْأَتْقَى} بِمَعْنَى التَّقِيّ.

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨).

{الَّذِي يُؤْتِي مَاله يَتَزَكَّى} مُتَزَكِّيًا بِهِ عِنْد الله تَعَالَى بِأَنْ يُخْرِجهُ لِلَّهِ تَعَالَى لَا رِيَاء وَلَا سُمْعَة فَيَكُون زَاكِيًا عِنْد الله وَهَذَا نَزَلَ فِي الصِّدِّيق ﵁ لَمَّا اِشْتَرَى بِلَالًا الْمُعَذَّب عَلَى إِيمَانه وَأَعْتَقَهُ فَقَالَ الْكُفَّار إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَدٍ كَانَتْ لَهُ عِنْده فَنَزَلَتْ.

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩).

{وما لأحد عنده من نعمة تجزى}.

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠).

{إِلَّا} لَكِنْ فَعَلَ ذَلِكَ {اِبْتِغَاء وَجْه رَبّه الْأَعْلَى} أَيْ طَلَب ثَوَاب الله.

وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١).

{وَلَسَوْفَ يَرْضَى} بِمَا يُعْطَاهُ مِنْ الثَّوَاب فِي الْجَنَّة وَالْآيَة تَشْمَل مَنْ فَعَلَ مِثْل فِعْله رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ فَيُبْعَد عَنْ النَّار ويثاب[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)} هذه الآية في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخرجه البزار في "البحر الزخار" (٦/ ١٦٨ رقم ٢٢٠٩)، والآجرّيُّ في "الشريعة" (٣/ ٥٣، ٥٤ رقم ١٣٥٠)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٠/ ٣- قطعة من المجلد ١٣)، وابن عدي في "الكامل" (٦/ ٢٣٥٩)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ٥٠٥، ٥٠٦) من طريق مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه به.

قال البزار: "وهذا الحديث لا نعلم له طريقاً عن ابن الزبير إلا هذا الطريق، ولا نعلم رواه إلا بشر عن مصعب بن ثابت". وسنده ضعيف؛ لضعف مصعب بن ثابت.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٨): "رواه البزار؛ وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وشيخ البزار لم يسمعه".

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٨) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر.

وأخرجه أحمد بن حنبل في "فضائل الصحابة" (١/ ٩٥- ٩٧ رقم ٦٦)، وابنه عبد الله في "زوائد الفضائل" (١/ ٢٣٧ رقم ٢٩١) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٠، ٣٠١) -، والحاكم (٢/ ٥٢٥) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه به. وهذا إسناد حسن.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

قلنا: لم يخرج مسلم لابن إسحاق إلا متابعة.

(تنبيه): في "الفضائل"، والواحدي وقع اسم والد عامر بن عبد الله مبهمًا [عن بعض أهله] وصرح به عند الحاكم.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٢): ثني هارون بن إدريس الأصم ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن عن عامر بن عبد الله بن الزبير؛ قال: كان أبو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بنيّ! أراك تعتق أناسًا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت! إنما أريد -أظنه قال-: ما عند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)}، وقوله: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)}، يقول: فسنهيئه لخلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا؛ ليوجب له به في الآخرة الجنة.

قلنا: وهذا مع إرساله ضعيف، ابن إسحاق؛ مدلس وقد عنعن.

=

=

وعن عبد الله بن مسعود ﵁؛ قال: إن أبا بكر ﵁ اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببُردة وعشر أواق، فأعتقه لله ﷻ؛ فأنزل الله ﷻ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)}؛ يعني: سعي أبي بكر ﵁، وأمية، وأُبيّ، {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)} بلا إله إلا الله؛ يعني: أبا بكر {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)}؛ قال: الجنة، {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)} بلا إله إلا الله؛ يعني: أمية وأُبيًا {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)}؛ قال: النار {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)}؛ قال: إذا مات {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)} يعني: أمية وأُبيًا {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨)}؛ يعني: أبا بكر {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)} قال: لم يصنع ذلك أبو بكر ليد كانت منه إليه، فيكافئه بها {إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)}.

أخرجه الآجريُّ في "الشريعة" (٣/ ٥٤ رقم ١٣٥١)، وأبو الشيخ؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٤) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٠)، و"الوسيط" (٤/ ٥٠٢، ٥٠٣)- من طريق منصور بن أبي مزاحم نا ابن أبي الوضاح عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن ابن مسعود به.

وهذا إسناد ضعيف؛ لانقطاعه بين أبي إسحاق وابن مسعود.

وقد وقع خطأ في سند الواحدي في "أسباب النزول": ففيه ابن إسحاق وهو خطأ، والصواب: (أبي إسحاق).

وعن عبد الله بن عباس ﵄ في قوله -تعالى-: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)}؛ قال أبو بكر الصديق: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)}؛ قال: أبو سفيان بن حرب.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٦) وقال: "وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به". والكلبي كذاب، وشيخه -أيضًا- متهم بالكذب.

وعن عروة: أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وزنيرة وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧)} إلى آخر السورة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٧)، و"لباب النقول" (ص ٢٣٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة في قوله -تعالى-: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)}؛ قال: نزلت في أبي بكر؛ أعتق ناسًا لم يلتمس منهم جزاء ولا شكوراً ستة أو سبعة؛ منهم: بلال، وعامر بن فهيرة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٦): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر عن سعيد عن قتادة. وهذا مرسل رجاله ثقات، وجاء في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٨) عن سعيد لم يذكر قتادة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧)}؛ قال: هو أبو بكر الصديق.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٣٨) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [الليل: ١٢]، أي:"إن علينا بفضلنا وحكمتنا أن نبيِّن طريق الهدى الموصل إلى الله وجنته من طريق الضلال".

كما قال تعالى (وهديناه النجدين). وقال تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا).

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن علينا لبيانَ الحقّ من الباطل، والطاعة من المعصية".

قال الزجاج:"أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال".

قال أبو حيان:"إن علينا التعريف بالسبيل ومنحهم الإدراك، كما قال تعالى: {وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل: ٩]".

قال قتادة:"على الله البيان، بيانُ حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته".

وقال الفراء:"يقول: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، ومثله قوله: {وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل: ٩]، يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد، ويقال: إن علينا للهدى والإضلال، فترك «الإضلال» كما قال: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ} [النحل: ٨١]، وهي تقي الحر والبرد".

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} [الليل: ١٣]، أي:"وإن لنا ملك الحياة الآخرة والحياة الدنيا".

كما قال تعالى (فلله الآخرة والأولى) فالخلق خلقه والأمر أمره سبحانه وتعالى.

وقدم الآخرة مع أنها متأخرة من حيث الزمن لأهميتها، فهي الدار الحقيقية كما قال تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون).

وقدمها أيضا لأن فيها يظهر تمام ملك الله ﷻ كما قال تعالى (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله).

وفي تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} [الليل: ١٣]، وجهان:

أحدهما: ثواب الدنيا والآخرة، قاله الكلبي، والفراء.

قال أبو حيان:"أي: ثواب الدارين، لقوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [العنكبوت: ٢٧]".

=

=

الثاني: ملك الدنيا وملك الآخرة، قاله مقاتل، والطبري.

قال القشيري: أي:"ملكا، نعطيه من نشاء".

قال الثعلبي:"فمن طلبها من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق".

قال الطبري:"وإن لنا ملك ما في الدنيا والآخرة، نعطي منهما من أردنا من خلقنا، ونحرمه من شئنا، وإنما عَنَى بذلك جلّ ثناؤه أنه يوفق لطاعته من أحبّ من خلقه، فيكرمه بها في الدنيا، ويهيئ له الكرامة والثواب في الآخرة، ويخذُل من يشاء خذلانه من خلقه عن طاعته، فيهينه بمعصيته في الدنيا، ويخزيه بعقوبته عليها في الآخرة".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى} [الليل: ١٤] ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: تتغيظ، قاله الكلبي.

الثاني: تتوقد وتشتعل. قاله مقاتل.

الثالث: تتوهج، قاله مجاهد، وأنشد لعلّي رضي الله عنه :

كأن الملح خالطه إذا ما... تلظّى كالعقيقة في الظلال

قال الطبري:"فأنذرتكم أيها الناس نارا تتوهَّج، وهي نار جهنم، يقول: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا، وتكفروا به، فَتصْلَونها في الآخرة".

قال الزجاج:"معناه: تتوهج وتتوقد".

الرابع: تتأجج. قاله يحيى بن سلام.

عن عمرو بن دينار قال، «فاتت عبيد بن عمير ركعة من المغرب، فقام يقضيها فسمعته يقرأ: «فأنذرتكم نارا تتلظى». قال الفراء: ورأيتها في مصحف عبد الله: «تتلظى» بتاءين.

قوله تعالى: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} [الليل: ١٥]، أي:"لا يدخلها إلا مَن كان شديد الشقاء".

=

=

قال الطبري: "لا يدخلها فيصلى بسعيرها إلا الأشقى".

قال ابن عباس: "يريد أمية بن خلف، ونظراءه الذين كذبوا محمدًا ﷺ والأنبياء قبله".

وفي «الْأَشْقَى»، قولان:

أحدهما: أن «الْأَشْقَى» بمعنى: الشقي. قاله أبو عبيدة، والفراء، والعرب تضع «أفعل» في موضع «فاعل»، ومنه قول طرفة :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ... فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بأَوحَدِ

وقال الفراء: «الأشقى»: "إلا من كان شقيا في علم الله".

الثاني: المعنى: أنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلّا أشقى أهل النار، وأشقى أهل النار: الكفار. ودلّ بهذا على أن غير الكفار يدخلون النار بذنوبهم.

قال الفرّاء: قوله: {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} ،لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقي فلان العدو فكذب إذا نكل ورجع".

قال الزجاج:"فهذه النار الموصوفة لا يدخلها إلا الكفار".

قال الزجاج:"وهذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر لقوله: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [الليل: ١٥- ١٦]، وليس كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها لا يصلى هذه النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل فمنها قوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ} [النساء: ١٤٥]. والله ﷻ كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال ﷻ: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، فلو كان كل من لم يشرك بالله لا يعذب، لم يكن في قوله تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} [النساء: ٤٨] فائدة، وكان يغفر ما دون ذلك".

=

=

(تنبيه): قوله تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى) من المعلوم أن هناك مسلمون يدخلون النار، كما قال النبي ﷺ (أتدرون من المفلس؟ فذكر أن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج، ويأتي وقد شتم هذا، وضرب هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين).

وقال تعالى (ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) فكيف نوجه هذه الآية؟

للعلماء في هذا أجوبة:

الأول: أن النار نيران، وليست نارا واحدة، وهي دركات، فهناك نار معدة للكافرين، ونار أقل منها معدة للمسلمين العصاة الذين لم يتب الله ﷻ عليهم لجرائمهم، فهم يدخلون النار مددا ثم يخرجون منها إلى الجنان على ما ورد في حديث الرسول ﷺ.

والثاني: أن المراد بقوله (لا يصلاها إلا الأشقى)، أي: (لا يصلاها) مخلدا فيها خالدا إلا الكافر، أما المؤمن فهو وإن دخلها فلا يخلد فيها، لقول الله كما في الحديث القدسي: (أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه من الخير ما يزن ذرة...)

قوله تعالى: {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [الليل: ١٦]، أي:"الذي كذَّب نبي الله محمدًا ﷺ، وأعرض عن الإيمان بالله ورسوله، وطاعتهما".

قال الطبري: "يقول: الذي كذّب بآيات ربه، وأعرض عنها، ولم يصدق بها".

عن الحسن:"{لا يَصْلاها إلّا الأَشْقى الَّذِي كَذَّبَ وتَوَلّى}، قال: المُشرك".

=

=

عن الحسن -من طريق الحسن بن دينار- قال: "قيل له: أين أطفال المشركين؟ قال: في الجنة. فقيل له: عمَّن؟ قال: قلتُ: عن الله- ﷻ -؛ قال الله -تبارك وتعالى-: {لا يَصْلاها إلّا الأَشْقى الَّذِي كَذَّبَ وتَوَلّى} وهذا لم يُكذِّب ولم يتولَّ".

عن مالك، قال: "صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ فيها: {واللَّيْلِ إذا يَغْشى}، فلما أتى على هذه الآية: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نارًا تَلَظّى} وقع عليه البكاء، فلم يقدر أن ينفذها من البكاء، وقرأ سورة أخرى".

عن أبي أمامة قال: "لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله، فمن لم يصدقني فإن الله تعالى يقول: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [الليل: ١٥- ١٦]، يقول: لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب بما جاء به -محمد ﷺ-، وتولى عنه".

عن أبي هريرة، قال: "لتدخلن الجنة إلا من يأبى، قالوا: يا أبا هريرة: ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: فقرأ: {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}".

قوله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [الليل: ١٧]، أي:"وسيُزحَزح عنها شديد التقوى".

قال الطبري: "يقول: وسيوقَّى صِلِيَّ النار التي تلظَّى التقيُّ".

قال الرازي: أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر- رضي الله عنه -.

قال ابن كثير: قد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق،- رضي الله عنه -، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛

=

=

فإنه كان صديقا تقيا كريما جوادا بذالا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود -وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية-: أما والله لولا يد لك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال (من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير"، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم) متفق عليه.

- فيه أنه كلما كان الإنسان لله أتقى كان عن النار أبعد.

قال الزجاج:"أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا، لا يطلب بذلك رياء، ولا سمعة. ونزلت في أبي بكر- رضي الله عنه -".

قال ابن الجوزي:"يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع المفسرين".

قال سهل:"الأتقى هو الصديق، هو أتقى الناس، فإن الناس أعطوا واتقوا وهو لم ير الفاني وأبقى لنفسه الباقي كما قال رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله» ".

عن عروة:"أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة، كلهم يعذب في الله، بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [الليل: ١٧]، إلى آخر السورة".

=

=

قال الزمخشري:"الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر -رضى الله عنه-".

قوله تعالى: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل: ١٨]، أي:"الذي يبذل ماله ابتغاء المزيد من الخير".

قال الطبري: "يقول: الذي يعطي ماله في الدنيا في حقوق الله التي ألزمه إياها، يتطهر بإعطائه ذلك من ذنوبه".

قال الزمخشري:"{يَتَزَكَّى}: من الزكاء. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا، لا يريد به رياء ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة".

قال السعدي: "بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصدًا به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب".

قال الشوكاني: "ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال (الذى يؤتى ماله) أي: يعطيه، ويصرفه في وجوه الخير، وقوله (يتزكى) في محل نصب على الحال من فاعل يؤتي، أي: حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكيا لا يطلب رياء ولا سمعة".

قوله تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} [الليل: ١٩]، أي:"وليس إنفاقه ذاك مكافأة لمن أسدى إليه معروفا".

قال الزجاج:"أي: لم يفعل ذلك مجازاة ليد أسديت إليه".

=

قوله تعالى: {إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ٢٠]، أي:"لكنه يبتغي بذلك وجه ربه الأعلى ورضاه".

قال الزجاج:"أي: إلا طلب ثوابه".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} [الليل: ١٩- ٢٠]، وجهان:

أحدهما: يقول: لم ينفق نفقته مكافأة ليد أحد عنده، ولكن أنفقها ابتغاء وجه ربه، فـ «إلا» في هذا الموضع بمعنى: «لكن»، وهذا قول الفراء، وحكاه الطبري.

الثاني: وما لبلال عند أبي بكر حين اشتراه فأعتقه من الرق وخلّصه من العذاب نعمةٌ سلفت جازاه عليها بذلك إلا ابتغاء وجه ربه وعتقه، قاله ابن عباس، وابن الزبير، وقتادة.

عن عامر بن عبد الله عن أبيه، قال: "نزلت هذه الآية في أبي بكر الصدّيق: {وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}".

قال قتادة:"يقول: ليس به مثابة الناس ولا مجازاتهم، إنما عطيته لله".

عن قتادة، في قوله " {وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى}، قال: نزلت في أبي بكر، أعتق ناسا لم يلتمس منهم جزاء ولا شكورا، ستة أو سبعة، منهم بلال، وعامر بن فُهَيرة".

وقال عطاء عن ابن عباس: "إن بلالا لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسلح عليها، وكان عبدا لعبد الله بن جدعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم، ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه، وجعلوا يعذبونه في الرمضاء، وهو يقول: أحد أحد. فمر به رسول الله ﷺ، فقال: ينجيك أحد أحد. ثم أخبر رسول الله- ﷺ- أبا بكر: أن بلالا يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب، فابتاعه به. فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده. فأنزل الله تعالى:

=

{وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)} [الليل: ١٩- ٢١]".

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى بين أن هذا: الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى لا يؤتيه مكافأة على هدية أو نعمة سالفة، لأن ذلك يجري مجرى أداء الدين، فلا يكون له دخل في استحقاق مزيد الثواب بل إنما يستحق الثواب إذا فعله، لأجل أن الله أمره به وحثه عليه".

قال السعدي: "وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه رضي الله عنه ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى".

قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ٢١]، أي:"ولسوف يعطيه الله في الجنة ما يرضى به".

قال الثعلبي: أي:"بثواب الله في العقبى عوضا مما فعل في الدنيا".

قال السمعاني:"أي: يرضى ثوابه في الآخرة، والمعنى: يعطيه الله حتى يرضى".

قال الزمخشري: {وَلَسَوْفَ يَرْضى} : موعد بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه".

قال السعدي:" {وَلَسَوْفَ يَرْضَى} هذا الأتقى، بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات".

قال سهل:"يعني: بما له عندنا، وهو محل الفضل، لا محل الثواب، سراً بسر، وحياة بحياة، وأزلية بأزلية".

=

=

قال الطبري:"سوف يدخل الجنة، كما قال: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)} [الفجر: ٢٨- ٣٠]".

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى بالليل {إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢)} [الليل: ١- ٢] الآيات، وقد تقدم ذكر المقسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى.

فهو- سبحانه- يقسم بـ "الليل" في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه. فأقسم به وقت غشيانه، وأتى به بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئا بعد شيء، وأما "النهار" فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة "الشمس وضحاها": {والنهار إذا جلاها (٣) والليل إذا يغشاها (٤)} [الشمس: ٣، ٤].

وأقسم به وقت سريانه كما تقدم، وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس.

فقيل: معناه أدبر، فيكون معناه مطابقا لقوله: {والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤)} [المدثر: ٣٣، ٣٤].

وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: {والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢)} [الليل: ١- ٢].

فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعا على انصرام الليل، ومجيء الصبح عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعه، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

=

=

وأقسم- سبحانه- بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى؛ على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى.

وسعيه وزمانه مختلف؛ وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه- سبحانه- لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار، والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال تعالى: {فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠)} [الليل: ٥- ١٠]، فتضمنت الآيتان ذكر شرعه وقدره، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحدا.

وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به، وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان، والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر؛ وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه، وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفسا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المعطية هي النفاعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة "العين" التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم، وزروعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

=

=

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير.

فالمتقي ميسر عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا؛ فلو اتقى الله- تعالى- لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تيسر له فقد ييسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقوى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، ونعيم أهل التقوى بالطاعات والقربات أعظم وأجل.

وقال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) } [الطلاق: ٢] إلى قوله : {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٤) } [الطلاق: ٤]، فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره.

وقال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب} [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا- أيضا- تيسير عليه بتقواه.

وقال تعالى: {ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} [الطلاق: ٥]، وهذا تيسير عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

وقال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (٢٩) } [الأنفال: ٢٩]، وهذا تيسير بالفرقان المتضمن للنجاة، والنصر، والعلم، والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير.

وقال تعالى: {واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) } [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

=

=

وقال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم} [الحديد: ٢٨]، فضمن لهم- سبحانه- بالتقوى ثلاثة أمور:

أعطاهم نصيبين من رحمته؛ نصيبا في الدنيا، ونصيبا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم.

وهذا غاية التيسير، فقد جعل- سبحانه- التقوى سببا لكل يسر، وترك التقوى سببا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بـ "لا إله إلا الله"، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف.

و"اليسرى": صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة اليسرى، وهي "فعلى" من اليسر.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء:

فمن فسرها بـ "لا إله إلا الله"؛ فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع، فإن التصديق الحقيقي بـ "لا إله إلا الله" يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها. وجميع الدين- أصوله وفروعه- من شعب هذه الكلمة.

فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه.

ولا يكون مؤمنا بأن الله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله، ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنا بأنه "لا إله إلا هو" حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

=

=

ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العلى، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يصعد إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه للأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة.

فالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو تفصيل "لا إله إلا الله"، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم- على الإطلاق- إلا بها، وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب- على الإطلاق- إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر "الحسنى" بالجنة؛ فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله.

ومن فسرها بالخلف؛ ذكر نوعا من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة.

فرجع التصديق بـ "الحسنى" إلى التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

=

=

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث- وهي: الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى- من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق، فإن "النفس" لها ثلاث قوى:

١- قوة البذل والإعطاء.

٢- وقوة الكف والامتناع.

٣- وقوة الفهم والإدراك.

ففيها: قوة العلم والشعور؛ وتتبعها: قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها.

ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى.

وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء، والمنع.

وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كمل قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها = فقد زكى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت "النفس" بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر- وإن شئت قلت: الدين: طلب، وخبر. والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك -؛ تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها؛ فالإعطاء: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور؛ والتصديق بالحسنى: تصديق الخبر = فانتظم ذلك الدين كله.

وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها، فمن الناس من تكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة

=

=

الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء، ومن الناس من تكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء، ومن الناس من تكون قوة التصديق فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية الشعورية أتم من قوته الإرادية، وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى.

قال ابن عباس {فسنيسره لليسرى (٧)}: "نهيئه لعمل الخير، ونيسرها عليه".

وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: "نيسره للعود إلى العمل الصالح".

وحقيقة "اليسرى" أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسره على قلبه، ونيته، ولسانه، وجوارحه. فتصير خصال الخير وأسبابه ميسرة عليه، مذللة له، منقادة لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللا، وتنقاد له علما وعملا، فإذا خالطته قلت: هذا هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها ... يصلح للدنيا وللدين

{وأما من بخل} فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به، {واستغنى (٨)} بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه، {وكذب بالحسنى (٩)} فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه = {فسنيسره للعسرى (١٠)}.

قال عطاء: "سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي".

وقال مقاتل: "يعسر عليه أن يعطى خيرا".

وقال عكرمة، عن ابن عباس: "نيسره للشر".

=

=

قال الواحدي: "وهذا هو القول؛ لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى، والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى، يقول: سنهيئه للشر، بأن نجريه على يديه".

قال الفراء: "والعرب تقول: قد يسرت غنم فلان؛ إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها" انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه، ونيته، ولسانه، وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل "اتقى" بـ "استغنى"؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته، وشدة حاجته إلى ربه = اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته؛ بارتكاب ما نهاه عنه. فإن من كان فقيرا شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره.

فقابل التقوى بالاستغناء تشنيعا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه؛ بأن فعل فعل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له منه إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين.

فلله ما أحلى هذه المقابلة، وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، وللشرور كلها وأسبابها.

فسبحان من تعرف إلى خواص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين.

=

=

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بين- بحمد الله- لمن وفق لفهمه.

ولهذا أجاب بهما النبي ﷺ لمن أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب، وأزال الإشكال.

ففي "الصحيحين" من حديث علي بن أبي طالب [ن/ ١٨] رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار" قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، ونتكل على كتابنا ؟ قال: "اعملوا، فكل ميسر لما خلق له" ثم قرأ: {فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) } إلى قوله: {للعسرى (١٠) } [الليل: ٥- ١٠].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على "القدرية" و"الجبرية"، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله- سبحانه- الأشياء قبل كونها، واثبات خلق الفعل الجزائي.

وهو يبطل أصول "القدرية" الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا، ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزائي دون الابتدائي = هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب- تعالى -: أن العبد ميسر لما خلق له ؛ لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين، فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله جل جلاله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب. فهم العارفون بأصول الدين حقا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة إلى استنباطها منه، خلافا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم

=

=

بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: "الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين".

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له. فتأمل قوله ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" ومطابقته لقوله تعالى: {فأما من أعطى واتقى (٥)} إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد: إن كان قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله، وإن لم يقدر لي فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك؛ لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدا، وإن أتى به في أمر معين، فهل يمكنه أن يطرده في مصالحه جميعها، من طعامه، وشرابه، ولباسه، ومسكنه، ومنكحه، وهروبه مما يضاد بقاءه، وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"؟! فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح؛ ورب الدنيا والآخرة واحد؟! فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد، وأغراضه، وشهواته؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه.

فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وتلا عنده هاتين الآيتين، موافق لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

=

=

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين، وإنما يستروح إلى ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله- سبحانه- ذلك عنهم في غير موضع من كتابه؛ كقوله تعالى: {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء} الآية وما بعدها [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: {وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء} [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: {وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم} الآية [الزخرف: ٢٠].

وقال تعالى: {وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه} الآية [يس: ٤٧].

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى- بل هي أصل اليسرى- من يسرها للعبد أولا؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله- سبحانه- هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر، وخلق خلقه قسمين:

١- أهل سعادة، فيسرهم لليسرى.

٢- وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى.

واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له، كما تأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح له ولا يليق به، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك، ومن جعل محل المسك والرجيع واحدا فهو من أسفه السفهاء.

=

=

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟

قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟

فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يشفى من جهله؟

قيل: نعم؛ شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال.

فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم. ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة، والمرض، واختلاف الإرادات، والمرادات.

ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، ولولا خلق المضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات، وظهور أحكامها وآثارها لابد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام.

وإذا أعطيت اسم "الملك" حقه- ولن تستطيع- علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب، والعطاء والحرمان = أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولابد، وأن تعطل هذه الصفة أمر ممتنع.

فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة. كما يستلزم حياة "الملك"، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده.

وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على رياض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

فصل: ثم قال تعالى: {إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى} [الليل: ١٢، ١٣]؛ قيل: معناه: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال.

=

=

قال قتادة: "على الله البيان؛ بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته".

اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة.

وهذا المعنى حق، ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: "يريد: أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي".

قال الفراء: "فترك ذكر الإضلال، كما قال: {سرابيل تقيكم الحر} [النحل: ٨١]، أي: والبرد".

وهذا أضعف من القول الأول، وإن كان معناه صحيحا، فليس هو معنى الآية.

وقيل: المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: {وعلى الله قصد السبيل} [النحل: ٩]، وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية.

قال الواحدي: "علينا الهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته".

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي "النحل" في قوله تعالى: {وعلى الله قصد السبيل} [النحل: ٩]، وفي "الحجر" قال: {هذا صراط علي مستقيم (٤١)} [الحجر: ٤١].

وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله عز وجل ولابد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله تعالى، فذكر الطريق والغاية، فالطريق: الهدى، والغاية: الوصول إلى الله عز وجل، فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه، والمطلوب منه. فأعلمه- سبحانه- أن سواه لا يملك

=

=

من الدنيا والآخرة شيئا، وأن الدنيا والآخرة جميعا له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية:

١- ذكر أعلى الغايات؛ وهو الوصول إلى الله سبحانه.

٢- وأقرب الطرق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى.

٣- وتوحيد الطريق؛ فلا يعدل عنها إلى غيرها.

٤- وتوحيد المطلوب، وهو الحق، فلا يعدل عنه إلى غيره.

فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذا غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن: توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة.

والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها:

فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر.

فالأول: يوقع في الشرك، والرياء.

والثاني: يوقع في المعصية، والبطالة.

والثالث: يوقع في البدعة، ومفارقة السنة، فتأمله.

فـ "توحيد المطلوب" يعصم من الشرك، و"توحيد الطلب" يعصم من المعصية، و"توحيد الطريق" يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

ولما أقام- سبحانه- الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة = أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف

=

سورة الضحى[(١)]

=

من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص، فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه، كما قال تعالى: {وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) } [الليل: ١٧، ١٨]، فهذا المتقي المحسن، ولا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية إرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل منن الخلق ونعمهم، وإن حمل منها شيئا بادر إلى جزائهم عليه؛ لئلا يبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس جزاء للمخلوق على نعمته.

ونبه بقوله: {تجزى (١٩) } على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن جزاؤها من المنعم بها عليه، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن عليا رضي الله عنه تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه- سبحانه- بقوله: {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠)} على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطوق بنعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم. ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله إبتغاء وجهه، وطلب مرضاته.

وكما أن هذه الغاية أعلى الغايات، وهذا المطلوب أشرف المطالب؛ فهذه الطريق أقصد الطرق إليه، وأقربها، وأقومها، وبالله التوفيق.

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالضُّحَى (١).

{وَالضُّحَى} أَيْ أَوَّل النَّهَار أَوْ كُلّه.

وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢).

=

قال القرطبي:"سورة «الضحى» مكية باتفاق".

قال ابن عطية:"هي مكية لا خلاف في ذلك بين الرواة".

* وآياتها إِحدى عشرة. وكلماتها أَربعون. وحروفها مائة واثنتان وسبعون. وفواصلها على (ثرا). * تسمى «سورة الضحى» سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير، بدون واو، وسميت في بعض من التفاسير، وفي «صحيح البخاري»، وسنن الترمذي : «سورة والضحى» بإثبات الواو.

ووجه تسميتها «سورة الضحى»، لافتتاحها بالقسم الإلهي، وذلك في قوله تعالى: {وَالضُّحَى} [الضحى: ١].

* معظم مقصود السّورة: بيان ما للرّسول ﷺ: من الشرف والمنقَبَة، ووعده فى القيامة بالشفاعة، وذكر أَنواع الكرامة له، والمِنَّة، وصيانة الفقر واليُتْم من بين الحرمان والمذلَّة، والأَمر بشكر النِّعمة فى قوله، {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}.

* من المتشابه: {فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ} كُرّر ثلاث مرّات؛ لأَنَّها وقعت فى مقابلة ثلاث آيات أَيضاً. وهى {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ} واذكر يتمك {وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ} واذكر فقرك {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} النبوّة والإِسلام {فَحَدِّثْ} واذكر ضلالك. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَاللَّيْل إِذَا سَجَى} غَطَّى بِظَلَامِهِ أَوْ سَكَنَ.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣).

{مَا وَدَّعَك} تَرَكَك يَا مُحَمَّد {رَبّك وَمَا قَلَى} أَبْغَضك نَزَلَ هَذَا لَمَّا قَالَ الْكُفَّار عِنْد تَأَخُّر الْوَحْي عَنْهُ خَمْسَة عَشَر يَوْمًا إِنَّ رَبّه وَدَّعَهُ وَقَلَاهُ.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤).

{وَلَلْآخِرَة خَيْر لَك} لِمَا فِيهَا مِنْ الْكَرَامَات لك {من الأولى} للدنيا.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥).

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيك رَبّك} فِي الْآخِرَة مِنْ الْخَيْرَات عَطَاء جَزِيلًا {فَتَرْضَى} بِهِ فَقَالَ ﷺ إِذْن لَا أَرْضَى وَوَاحِد مِنْ أُمَّتِي فِي النَّار إِلَى هُنَا تَمَّ جَوَاب الْقَسَم بِمُثْبَتَيْنِ بَعْد مَنْفِيَّيْنِ.

{أَلَمْ يَجِدك} اِسْتِفْهَام تَقْرِير أَيْ وَجَدَك {يَتِيمًا} بِفَقْدِ أَبِيك قَبْل وِلَادَتك أَوْ بَعْدهَا {فَآوَى} بِأَنْ ضَمَّك إِلَى عَمّك أَبِي طَالِب.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧).

{وَوَجَدَك ضَالًّا} عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ الشَّرِيعَة {فَهَدَى} أَيْ هَدَاك إِلَيْهَا.

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨).

{وَوَجَدَك عَائِلًا} فَقِيرًا {فَأَغْنَى} أَغْنَاك بِمَا قَنَّعَك بِهِ مِنْ الْغَنِيمَة وَغَيْرهَا وَفِي الْحَدِيث لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَة الْعَرَض وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النفس.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩).

{فَأَمَّا الْيَتِيم فَلَا تَقْهَر} بِأَخْذِ مَاله أَوْ غَيْر ذَلِكَ.

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠).

{وَأَمَّا السَّائِل فَلَا تَنْهَر} تَزْجُرهُ لِفَقْرِه.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١).

{وَأَمَّا بنعمة ربك} عليك بالنبوة وغيره {فَحَدِّثْ} أَخْبِرْ وَحُذِفَ ضَمِيره ﷺ في بعض الأفعال رعاية للفواصل[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جندب البجلي رضي الله عنه؛ قال: احتبس جبريل عليه السلام على النبي ﷺ؛ فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه؛ فنزلت: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه البخاري (رقم ١١٢٤، ١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١، ٤٩٨٣)، ومسلم (رقم ١٧٩٧).

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ١٧٣ رقم ١٧١٢) من طريق سفيان عن الأسود بن قيس عن جندب؛ قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ؛ فقال المشركون: قد ودع محمد؛ فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)}. وهذا سند صحيح على شرطهما، وقد أخرجاه بنحو هذا السياق كما تقدم، وهذا اللفظ فيه بعض اختلاف.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤٠) وزاد نسبته للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

وأخرج الطبراني (٢/ ١٧٣ رقم ١٧٠٩) بسند صحيح عن شعبة عن الأسود بن قيس عن جندب؛ قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك؛ فأنزل الله عز وجل: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}. وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجاه بهذا السياق.

=

=

وأخرج الترمذي في "جامعه" (٥/ ٤٤٢ رقم ٣٣٤٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٥٨) من طريق ابن أبي عمر وأبي أسامة كلاهما عن سفيان بن عيينة ثني الأسود بن قيس عن جندب؛ قال: كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت أصبعه؛ فقال النبي ﷺ: "هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت"، قال: فأبطأ عليه جبريل عليه السلام، فقال المشركون: قد ودع محمد؛ فأنزل الله -تعالى-: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)} . قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

وسنده صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وقد أخرجاه بغير هذا السياق.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)} إلى {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)} [المسد: ٤، ٥]؛ قال: فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمداً قد هجاك؛ فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد! على ما تهجوني؟ قال: فقال: "والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله"، قال: فقالت: هل رأيتني أحمل حطبًا أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد، ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أيامًا لا ينزل عليه؛ فأتته فقالت: يا محمد! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك؛ فأنزل الله عز وجل: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٥٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٠/ ٢٧٧ رقم ١٠٦٥٠)، و"الأوسط" (٣/ ٢٩٧ رقم ٣٢٠٩)، والحاكم (٢/ ٥٢٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٧/ ٦١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٢)، و"الوسيط" (٤/ ٥٠٩)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٣/ ٢١٢) من

=

=

ثلاثة طرق عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه به. وهذا حديث صحيح رجاله ثقات.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "تفرد به عصام بن رواد عن أبيه وقد ضعف".

كذا قال، بل تابعه محمد بن خلف السري عند الطبري والواحدي، وتوبع أيضًا عند من ذكرنا.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٩): "وإسناد "الكبير" حسن".

قلنا: هو نفس إسناد "الأوسط"؛ فلا داعي لتخصيص "الكبير" دون "الأوسط"، ولكن بالمتابعات التي ذكرنا يصح الحديث، نعم؛ طريق الطبراني حسن؛ لكن يصح بمتابعاته.

وقال الحافظ ابن كثير: "إسناده صحيح"، وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣١): "إسناده حسن".

وأخرجه الطبراني في "الأوسط" (١/ ١٧٩، ١٨٠ رقم ٥٧٢) من طريق معاوية بن أبي العباس عن إسماعيل بنحوه.

قال الهيثمي في "المجمع" (٧/ ١٣٩): "وفيه معاوية بن أبي العباس ولم أعرفه".

قلنا: لا يضر هذا؛ فقد تابعه الأوزاعي كما تقدم.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}؛ قال: لما نزل عليه القرآن؛ أبطأ عنه جبريل أيامًا؛ فعيّر بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه؛ فأنزل الله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤١) من طريق العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

=

=

وقال الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٧١٠): "لا يثبت".

وعن خولة خادم رسول الله: أن جرواً دخل البيت، ودخل تحت السرير ومات، فمكث نبي الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال: "يا خولة! ما حدث في بيت رسول الله؛ جبريل لا يأتيني؟ فهل حدث في بيت رسول الله حدث؟ "، فقلت: والله ما أتى علينا يوم خير من يومنا، فأخذ برده فلبسه وخرج، فقلت: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير؛ فإذا شيء ثقيل فلم أزل حتى أخرجته، فإذا بجرو ميت فأخذته بيدي، فألقيته خلف الدار فجاء نبي الله ترعد لحيته وكان إذا أتاه الوحي؛ أخذته الرعدة، فقال: "يا خولة! دثريني"؛ فأنزل الله: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٧٤ رقم ٤١٨٠)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٩٨ رقم ٧٨٩٤)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٤/ ١٩٦، ١٩٧ رقم ٦٣٦)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٢)، و"الوسيط" (٤/ ٥٠٨) عن أبي نعيم ثنا حفص بن سعيد القرشي تثني أمي عن أمها -وكانت خادم رسول الله ﷺ- به.

قال الهيثمي في "مجمع "الزوائد" (٧/ ١٣٨): "رواه الطبراني؛ وأم حفص لم أعرفها".

وقال ابن عبد البر في "الاستيعاب" (٤/ ١٨٣٤): "وليس إسناد حديثها في ذلك مما يحتج به".

وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة": "هذا إسناد ضعيف".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٠): "بسند فيه من لا يعرف"، وزاد نسبته في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤١) لابن مردويه.

=

=

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٨/ ٧١٠): "ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يعرف.. "، ثم قال: "وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة؛ لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود بما في "الصحيح"- والله أعلم-".

وعن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨، ١٦٢): ثنا ابن أبي الشوارب ثنا عبد الواحد بن زياد ثنا سليمان الشيباني عن عبد الله به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن عروة؛ قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ؛ فجزع جزعًا شديداً، وقالت خديجة: أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك، قال: فنزلت: {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)} إلى آخرها.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٢)- من طريق وكيع وأبي معاوية كلاهما عن هشام بن عروة عن أبيه به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٨/ ٧١١): "وهذان طريقان مرسلان ورواتهما ثقات".

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٥٨): "فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين، ولعل ذكر خديجة ليس محفوظًا أو قالته على وجه التأسف والحزن -والله أعلم-". ا. هـ.

=

=

قال الحافظ ابن حجر: "فالذي يظهر أن كلًّا من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالته شماتة، وخديجة قالته توجعًا".

وعن خديجة رضي الله عنها؛ قالت: لما أبطأ عن رسول الله ﷺ الوحي؛ جزع من ذك جزعًا شديداً، فقلت -مما رأيت من جزعه-: لقد قلاك ربك؛ لما يُرى من جزعك؛ فأنزل الله -تعالى-: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٠، ٦١١) -وعنه البيهقي في "الدلائل" (٧/ ٦٠) -من طريق يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه عن خديجة به.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ لإرسال فيه"، ووافقه الذهبي.

قال البيهقي: "في هذا الإسناد إنقطاع فإن صح؛ فقول خديجة يكون على طريق السؤال أو الاهتمام به".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤١) وزاد نسبته لابن مردويه.

وعن قتادة: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}؛ قال: إن جبريل عليه السلام أبطأ عليه بالوحي؛ فقال ناس من الناس وهم يومئذ بمكة: ما نرى صاحبك إلا قد قلاك فودعك؛ فأنزل الله -تعالى- ما تسمع: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عنه به. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن الضحاك في قوله -تعالى-: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}؛ قال: أبطأ عليه جبريل؛ فقال المشركون: قد قلاه ربه وودعه؛ فأنزل الله ﷻ: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٤٨) وسنده ضعيف جداً.

=

=

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من حملة الإبل، فلما نظر إليها؛ قال: "يا فاطمة! تعجلي فتجرعي مرارة الدنيا؛ لنعيم الآخرة غداً"؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤٣) ونسبه للعسكري في "مواعظه"، وابن مردويه وابن لال وابن النجار.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)}؛ قال العباس بن عبد المطلب: لا يدع الله نبيه فيكم إلا قليلاً لما هو خير له.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤٣) ونسبه لابن مردويه. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "سألت ربي شيئاً وددت أني لم أكن سألته، قلت: يا رب! كل الأنبياء؛ فذكر سليمان بالريح، وذكر موسى؛ فأنزل الله ﷻ: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٤٤) ونسبه لابن مردويه.

لقد اتّفق المفسّرون: على أنّ هذه السورة نزلت بعد انقطاع الوحي مدّة، ثم اختلفوا في سبب انقطاعه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن الرّوح، فقال: سأخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي.

ذكر الواحدي عن أبي صالح عن ابن عباس:"أن قريشا سألوا النبيّ ﷺ عن ذي القرنين، وعن الرُّوح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء، فشقَّ ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية.

=

=

الثاني: لقلّة النّظافة في بعض أصحابه.

حكي الواحدي عن مجاهد:"أن الملَك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: لعلِّي أبطأتُ، قال: «قد فعلتَ»، قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوَّكون، ولا تقصُّون أظفاركم، ولا تُنَقُّون براجمكم، فنزلت الآية".

قال مجاهد:"لبث جبرائيل عن محمد اثنتي عشرة ليلة، ويقولون: قلي، فلما جاءه قال: أي جبرائيل لقد رثت علي حتى لقد ظن المشركون كل ظن فنزلت: {وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}".

قال الضحاك:"احتبس عن نبيّ الله ﷺ حتى تكلم المشركون في ذلك، واشتدّ ذلك على نبيّ الله، فأتاه جبرائيل، فقال: اشتدّ عليك احتباسنا عنك، وتكلم في ذلك المشركون، وإنما أنا عبد الله ورسوله، إذا أمرني بأمر أطعته {وَمَا نَتَنزلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ}، يقول: بقول ربك".

قال السدي:"احتبس جبريل عن النبي ﷺ بمكة حتى حزن واشتد عليه، فشكا ذلك إلى خديجة، فقالت خديجة: لعل ربك قد ودعك أو قلاك، فنزل جبريل بهذه الآية: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}، قال: يا جبريل، احتبست عني حتى ساء ظني، فقال جبريل: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّك}".

الثالث: لأجل جرو كان في بيته، قاله زيد بن أسلم.

عن حفص بن سعيد القرشي، قال: حدثتني أمي، عن أمها خولة- وكانت خادمة رسول الله ﷺ-:"أن جروا دخل البيت، فدخل تحت السرير، فمات. فمكث نبي الله- ﷺ- أياما لا ينزل عليه الوحي. فقال: يا خولة! ما حدث في بيتي؟ جبريل- عليه السلام- لا يأتيني! قالت خولة: فقلت: لو هيأت البيت، وكنسته. فأهويت بالمكنسة تحت السرير. فإذا شيء ثقيل، فلم أزل حتى أخرجته، فإذا جرو ميت، فأخذته

=

=

فألقيته خلف الجدار. فجاء نبي الله ﷺ ترعد لحياه. وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته

الرعدة. فقال يا خولة، دثريني، فأنزل الله تعالى: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١- ٣]".

وفي مقدار احتباس الوحي عنه-عليه الصلاة والسلام-، خمسة أقوال:

أحدها: خمسة عشر يومـًا. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الفراء.

ذكر الواحدي عن أبي صالح عن ابن عباس:"أن قريشا سألوا النبيّ ﷺ عن ذي القرنين، وعن الرُّوح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يومـًا لتركه الاستثناء، فشقَّ ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية".

الثاني: أربعون يومـًا، قاله عكرمة، ومقاتل.

قال مقاتل:"وذلك أن جبريل- عليه السلام- لم ينزل على محمد- ﷺ- أربعين يوما، ويقال ثلاثة أيام، فقال مشركو العرب من أهل مكة: لو كان من الله «لتتابع عليه الوحي، كما كان يفعل بمن كان

قبله من الأنبياء، فقد ودعه الله وتركه صاحبه، فما يأتيه. فقال المسلمون: يا رسول الله، فما نزل عليك الوحي؟ قال: كيف ينزل على الوحي، وأنتم لا تنقون براجمكم، ولا تقلمون أظفاركم".

الثالث: اثنتا عشرة ليلة، قاله مجاهد، وابن جريج.

الرابع: ثلاثة أيام، حكاه مقاتل.

الخامس: خمسة وعشرون يومـًا، حكاه الثعلبي.

قال ابن كثير:"وقد ذكر بعض السلف- منهم ابن إسحاق- أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله

=

=

عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطًا عليه وهو بالأبطح، {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ١٠]. قال: قال له هذه السورة: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}".

* قوله تعالى: {وَالضُّحَى} [الضحى: ١]، أي:"أقسم بوقت الضحى".

أي: أقسم بالضحى، فهو قسم من الله تعالى بوقت الضحى الذي فيه انتشار الضياء والحركة، وهو من ارتفاع الشمس إلى الزوال، وقيل المراد بالضحى النهار كله، والأولى أولى.

وفي وقت: «الضحى»، أقوال:

أحدها: أنه ساعة من ساعات النهار. قاله قتادة.

عن قتادة:"{وَالضُّحَى}، ساعة من ساعات النهار".

وحكي عن السدي:"أنه أول ساعة من النهار إذا ترحلت الشمس".

وقال مقاتل:"يعني: حر الشمس، وهي أول ساعة من النهار حين تطلع الشمس".

الثاني: أنه صدر النهار، قاله قتادة.

الثالث: أنه وقت طلوع الشمس، حكاه الماوردي عن قطرب.

الرابع: أنه ضوء النهار، مأخوذ من قولهم: ضحى فلان الشمس، إذا ظهر لها، قاله مجاهد، وبه الفراء، والطبري، والزجاج.

عن مجاهد: "{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}، قال: ضوئها".

الخامس: أنه النهار كله، قاله الفراء، والزجاج.

قال الفراء:"فأمَّا «الضحى»: فالنهار كُلِّه".

وقال الطبري:"أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالضحى، وهو النهار كله، وأحسب أنه من قولهم: ضَحِيَ فلان للشمس: إذا ظهر منه؛ ومنه قوله: {وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى}، أي: لا يصيبك فيها الشمس".

السادس: انه ضحى النهار. قاله الضحاك.

=

=

قال ابن كثير:"هذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء".

قال النحاس:"والمعروف -عند العرب- ما رواه أبو روق عن الضحّاك، قال: «الضّحى: ضحى النهار»".

قال القرطبي: "والمراد به النهار؛ لقوله (والليل إذا سجى) فقابله بالليل، وفي سورة الأعراف (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أي نهارا".

قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ٢]، أي:"وبالليل إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه".

وفي قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: والليل إذا أقبل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"إذا أقبل فغطى كل شيء".

وقال الحسن:"إذا لَبِسَ الناس: إذَا جاء".

الثاني: إذا أظلم، قاله ابن عباس.

وحكي ابن الجوزي عن ابن الأعرابي، قال: "امتد ظلامه".

الثالث: إذا استوى، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}، قال: إذا استوى".

الرابع: إذا ذهب، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الخامس: إذا سكن، قاله عكرمة، وعطاء، وزيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن، وأبو عبدية، وابن قتيبة، والزجاج، مأخوذ من قولهم: سجى البحر إذا سكن، وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجْ... وطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسَّاجْ

وقول الآخر:

=

=

فَمَا ذَنْبُنا إنْ جاشَ بَحْرُ ابنِ عَمِّكم... وَبحْرُكَ ساجٍ ما يُوَارِي الدَّعامِصَا

قال الفراء:"إِذَا أظلم وركد في طوله، كما تَقُولُ: بحر ساج، وليل ساج، إِذَا ركد وسكن وأظلم.

قال أبو عبيدة: "أي:"إذا سكن، يقال: ليلة ساجية وليلة ساكنة".

قال ابن قتيبة:"إذا سكن. وذلك عند تناهي ظلامه وركوده".

قال ابن كثير:"أي: سكن فأظلم وادلَهَم، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا. كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١، ٢]، وقال: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦]".

قال الضحاك:"يعني: استقراره وسكونه".

قال ابن زيد:"إذا سكن، قال: ذلك سجوه، كما يكون سكون البحر سجوه".

قال زيد بن اسلم:"سجوه سكونه".

وروي عن قتادة: "{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}، سكن بالخلق".

وقال مسلم بن خالد الزنجي:"إذا سكن بالخلق".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي في ذلك قول من قال معناه: والليل إذا سكن بأهله، وثبت بظلامه، كما يقال: بحر ساج: إذا كان ساكنا".

قال ابن عاشور: ومناسبة القسم بـ (الضحى والليل) أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام، ولذلك قيد {الليل} بظرف {إذا سجى}.

=

=

فلعل ذلك وقت قيام النبي ﷺ قال تعالى (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا).

قوله تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ٣]، هذا جواب القسم أي:"ما تركك -أيها النبي- ربك، وما أبغضك بإبطاء الوحي عنك".

وقد سبق في سبب النزول، أنه رد على من قال من المشركين لما أبطى عليه جبريل قالوا: ودعه ربه وقلاه، فنفى ﷻ أن يكون ترك نبيه ﷺ وأبغضه.

قال الطبري:"وهذا جواب القسم، ومعناه: ما تركك يا محمد ربك وما أبغضك".

قال ابن كثير:"أي: ما تركك، وما أبغضك".

قال السعدي:"{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة، {وَمَا قَلا} ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به".

قال أبو عبيدة:"{ما وَدَّعَكَ}: من التوديع، {وَما قَلى}: أبغض".

قال ابن قتيبة:"{ما وَدَّعَكَ}: ما أبغضك".

قال ابن عباس:"ما تركك ربك، وما أبغضك".

عن محمد بن إسحاق: "{ما ودعك ربك وما قلى} ما صرمك وتركك، {وما قلى} ما أبغضك منذ أحبّك".

قال ابن زيد:"ما قلاك ربك وما أبغضك؛ قال: والقالي: المبغِض".

=

=

قال الفراء:"نزلت فِي احتباس الوحي عَنِ النَّبِيّ ﷺ خمس عشرة ليلة، فَقَالَ المشركون: قَدْ ودّع مُحَمَّدًا ﷺ ربُّه، أَوْ قلاه التابع الَّذِي يكون معه، فأنزل الله جلّ وعزّ: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} يا محمد، {وَما قَلى} يريد: وما قلاك".

قال الضحاك:"مكث جبريل عن محمد ﷺ، فقال المشركون: قد ودّعه ربه وقلاه، فأنزل الله هذه الآية".

قال قتادة:"إن جبريل عليه السلام أبطأ عليه بالوحي، فقال ناس من الناس، وهم يومئذ بمكة، ما نرى صاحبك إلا قد قلاك فودّعك، فأنزل الله ما تسمع: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

قال قتادة:"أبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد قلاه ربه وودّعه، فأنزل الله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

قال ابن عباس:"لما نزل عليه القرآن، أبطأ عنه جبريل أياما، فعُيّر بذلك، فقال المشركون: ودّعه ربه وقلاه، فأنزل الله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال:"أبطأ جبريل على النبيّ ﷺ، فجزع جزعا شديدا، وقالت خديجة: أرى ربك قد قلاك، مما نرى من جزعك، قال: فنزلت {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} ... إلى آخرها".

عن الأسود بن قيس، قال سمعت جندب بن عبد الله يقول: "إن امرأة أتت النبيّ ﷺ فقالت: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

عن ابن عبد الله، قال: "لما أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقالت امرأة من أهله، أو من قومه: ودّع الشيطان محمدا، فأنزل الله عليه: {وَالضُّحَى} ... إلى قوله: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}".

وفي: {وَدَّعَكَ} [الضحى: ٣]، قراءتان:

=

=

إحداهما: قراءة الجمهور ودّعك، بالتشديد، ومعناها: ما انقطع الوحي عنك توديعًا لك.

قال أبو عبيدة: "{ما وَدَّعَكَ}: من التوديع".

الثانية: بالتخفيف، ومعناها: ما تركك إعراضًا عنك.

قال ابن عباس: "ما تركك ربك".

قوله تعالى: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى} [الضحى: ٤].

أي: وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطراحا كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خير ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خير لك منها".

قال ابن كثير: "أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحًا، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. ولما خُيِّرَ، عليه السلام، في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية".

قال محمد بن إسحاق: "أي: ما عندي مِن مرجعك إليَّ خير لك مما عجَّلتُ لك مِن الكرامة في الدنيا".

قال عكرمة: "لما نزلت: {ولَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى} قال العباس بن عبد المطلب: لا يَدع الله نبيّه فيكم إلا قليلًا لِما هو خير له".

=

=

عن ابن مسعود، قال:"اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا؟ فقال رسول الله ﷺ: "ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة، ثم راح وتركتها".

قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥]، أي:"ولسوف يعطيك ربك -أيها النبي- مِن أنواع الإنعام في الآخرة، فترضى بذلك".

قال الطبري:"ولسوف يعطيك يا محمد ربك في الآخرة من فواضل نعمه، حتى ترضى".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥]، وجهان:

أحدهما: يعطيك من النصر في الدنيا، وما يرضيك من إظهار الدين. قاله محمد بن إسحاق، وحكاه بعض المفسرين.

عن محمد بن إسحاق، قال: "{ولسوف يعطيك ربك فترضى} من الفتح في الدنيا، والثواب في الآخرة".

الثاني: لتعطى في الآخرة ما ترضى من الكرامة والشرف. ومن ثم فيه ثلاثة وجوه:

أحدها: أي: يعطيك في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. قاله ابن عباس.

عن عليّ بن عبد الله بن عباس: "{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، قال: ألف قصر من لؤلؤ، ترابهنّ المسك، وفيهنّ ما يصلحهنّ".

عن قتادة: "{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، وذلك يوم القيامة". وفي للفظ:"ذلك يوم القيامة، هي الجنة".

وقد أعطاه الله من الخير العاجل: التمكين لدينه، والتأييد له ونصره على أعدائه، وظهور الحق، وزهوق الباطل، ودخول الناس في دين الله أفواجا.

=

=

وأعطاه من الخير الآجل مـلا يخطر على بـال: من الشفاعة الكبرى والمقـام المحمود والحوض المورود.

- وهذا العطاء يشمل الدنيا والآخرة.

ورجحه: أبو حيان، والماوردي، والرازي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور، والسعدي.

- **قال ابن عاشور**: وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي ﷺ من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا، وما فتح على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أقطار الأرض شرقا وغربا.

عن عليّ بن عبد الله بن عباس: "{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، قال: ألف قصر من لؤلؤ، ترابهنّ المسك، وفيهنّ ما يصلحهنّ".

الثاني: -ما رواه السديّ، عن ابن عباس-، قال: "من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار".

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "إنا أهلُ بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}".

عن زيد بن علي -من طريق أبي الزناد موج بن علي الكوفي- في قوله: "{ولسوف يعطيك ربك فترضى}، قال: إنّ مِن رضا رسول الله ﷺ أن يدخل أهل بيت نبيّه الجنة".

الثالث: يعني بذلك الشفاعة. قاله الحسن، وأبو جعفر الباقر.

عن الحسن:"أنه سئل عن قوله: {ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى}. قال: هي الشفاعة".

وعن أبي جعفر الباقر: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}،" يعني: بذلك الشفاعة".

=

=

قال الماتريدي:"يحتمل: يعطيك في أمتك ما ترجو وتأمل من الشفاعة لهم وترضى، ويقول بعض الناس: إن أرجى آية هذه؛ حيث وعد له أنه يعطيه ما يرضى، ولا يرضى أن يكون أمته في النار".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه من مسك أذفر".

وفي قراءة عَبْد الله: «ولسيعطيك ربك فترضى»، والمعنى واحد.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضحى: ٦]، أي:"ألم يَجِدْك من قبلُ يتيمًا مات أبوك وأنت حمل في بطن أمك، فآواك ورعاك؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره معدّدا على نبيه محمد ﷺ نعمه عنده، ومذكِّره آلاءه قِبَله: ألم يجدك يا محمد ربك يتيمًا، فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلا تنزله".

قال الفراء:"يَقُولُ: كنت فِي حجر أَبِي طَالِب، فجعل لك مأوى، وأغناك عَنْهُ، ولم يك غنى عنْ كثرة مال، ولكنّ الله رضّاه بما آتاه.

قال الثعلبي:"معنى الآية: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً} صغيرا فقيرا ضعيفا حين مات أبواك، ولم يخلفا لك مالا، ولا مأوى، فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلا تنزله، وضمّك إلى عمّك أبي طالب حتى أحسن تربيتك، وكفاك المؤونة".

قال السعدي:"أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين".

قال ابن كثير:"وذلك أن أباه تُوفّي وهو حَملٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد، عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة

=

=

جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره وَيُوقّره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم آوَوه ونَصَرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه، رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به".

روي عن علي بن موسى الرضا يقول: سمعت أبي يقول: سئل جعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي ﷺ عن أبويه؟ فقال: لئلّا يكون عليه حق لمخلوق".

وروي عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه أنه قال في قوله تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى}: هو من أقوال العرب: «درة يتيمة»، إذا لم يكن لها مثل، وقد جاء في الشعر:

لا ولا درّة يتيمة بحر... تتلالأ في جونة البياع".

قال الثعلبي: والمعنى: "أَلَمْ يَجِدْكَ واحدا في شرفك، وفضلك، لا نظير لك، فآواك إليه".

وقرأ أشهب العقيلي «فأوى»، بالقصر، أي: رحمك. تقول العرب: آويت لفلان أية ومأواة أي رحمته.

قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧]، أي:"ووجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلَّمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال؟".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧]، أقوال:

=

=

أحدها: أي: ضالاً عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك إليها، قاله الجمهور، منهم الحسن، والضحاك، وشهر بن حوشب، والسدي، وابن كيسان، وبه قاله الطبري. يدل عليه قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: ٣]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].

عن الحسن والضحّاك وشهر بن حوشب وابن كيسان: "{وَوَجَدَكَ ضَالًّا} عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة غافلا عنها، فهداك إليها".

عن السديّ: "{وَوَجَدَكَ ضَالا}، قال: كان على أمر قومه أربعين عاما".

قال الزمخشري:"ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السعية، لنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع {مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ} [يوسف: ٣٨]، وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر".

قال الطبري:"ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم".

قال ابن حزم:"أي: ضالا عن المعرفة".

قال أهل العلم:"ضلال الأنبياء غفلة لا جهل، والمعنى: [وجدك] غافلا عن الشريعة لا تدري كيفية العبادة فهداك لها بالأمر والنهي".

قال ابن عطية:"والضلال يختلف، فمنه القريب ومنه البعيد، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام ويحتجون لذلك ويعتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبيه عليه السلام أقرب ضلال وهو الكون واقفا لا يميز المهيع لا أنه تمسك بطريق أحد بل كان يرتاد وينظر".

=

=

قال ابن كثير:"هو كقوله {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]".

قال السعدي:"أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق".

الثاني: ووجدك في قوم ضُلاَّل، فهداك للتوحيد والنبوة، قاله الكلبي، والفراء.

قال الفراء:"يريد: فِي قوم ضلال فهداك".

قيل:"قد يخاطب السيد، والمراد قومه".

الثالث: أن المراد بهذا أنه- عليه السلام-، ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع. رواه أبو الضحى عن ابن عباس.

روى أبو الضحى، عن ابن عباس، قال: "إن رسول الله ﷺ ضل، وهو صبي صغير في شعاب مكّة، فرآه أبو جهل، منصرفا من أغنامه، فردّه إلى جدّه عبد المطلب، فمنّ الله سبحانه عليه بذلك، حين ردّه إلى جدّه على يدي عدوّه" ولكنه حديث ضعيف.

روي عن كِنْدِيرِ بن سعيد، عن أبيه، قال: "حججت في الجاهلية، فإذا أنا برجل يطوف بالبيت، وهو يرتجز، ويقول :

يَا رَبِّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّدَا... يَا رَبِّ رُدَّهْ وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فقلت: من هذا؟ قيل: عبد المطلب بن هاشم، ذهبت أبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلّا جاء بها، وقد احتبس عليه، قال: فما برحت أن جاء النبي ﷺ وجاء بالإبل، فقال: يا بنيّ لقد حزنت عليك حزنا لا يفارقني أبدا" وهو حديث ضعيف أيضا.

=

=

وقد روى مرفوعا مما ذكره فخر الدين الرازي: أنه- ﷺ- قال: «ضللت عن جدى عبد المطلب وأنا صبى حتى كاد الجوع يقتلنى فهدانى الله» وهو حديث ضعيف أيضا.

الرابع: إنه-عليه السلام-، ضل وهو مع عمه في طريق الشام، وكان راكبًا ناقة في الليل، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق. وهذا قول سعيد بن المسيب.

قال السمعاني:"وأولى الأقاويل أن يكون محمولا على الشرائع، وما أنزل الله مثل قوله سبحانه وتعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَان} [الشورى: ٥٢]، أو يكون المعنى: {وَجَدَكَ ضَالًّا} أي: غافلا عن

النبوة والوحي الذي أنزل إليه، مثل قوله في قصة موسى- صلوات الله عليه -: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} [الشعراء: ٢٠]، أي: من الغافلين".

وحكي عن الكلبي، وآخرين تفسير الآية على ظاهره، ومثل هذا التفسير لا يصح نسبته إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ولا لاحد من الأنبياء، لان العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر على الصحيح.

وقد ذكر الثعلبي، والماوردي، وغيرهما وجوها في تفسير الآية، ولكن الأشهر هو ما كتبناه في أعلاه.

وقرأ الحسن: «ووجدَك ضالٌّ فهُدِي»، أي: وجَدَك الضالُّ فاهتدى بك.

قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: ٨].

أي: كنت فقيرا ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، وأعظم من ذلك وأهم ما رزقه الله من غنى النفس والقناعة، التي هي كنز لا يفنى، فالقناعة تقطع الطمع فيما سواه.

وفي قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} أقوال:

=

=

أحدها: وجدك ذا عيال فكفاك، قاله الأخفش، دليله قولهﷺ: «وابدأ بمن تعول»، ومنه قول جرير :

اللهُ نَزَّل فِي الكتابِ فريضةً... لابنِ السبيل وللفقيرِ العائلِ

الثاني: ووجدك فقيرا فأغناك، قاله سفيان، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والطبري، قال أحيحة بن الجلاح :

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ... وَمَا يَدْرِي الغَنُّي مَتَى يَعِيل

أي: متى يفتقر.

قال البغوي:"أي: فقيرا، فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم". قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي».

قال الفراء: "أي: فقيرًا، ورأيتها فِي مصاحف عَبْد الله «عديما»، والمعنى واحد".

قال ابن قتيبة:"عائلا: فقيرا. و «العائل»: الفقير كان له عيال، أو لم يكن. يقال: عال الرجل، إذا افتقر. وأعال: إذا كثر عياله".

قال النحاس:"عال يعيل عيلة: إذا افتقر. وأعال يعيل: إذا كثر عياله. لا نعلم بين أهل اللغة فيه اختلافا".

الثالث: أي: فأرضاك بما أعطاك من الرزق، إذ لم يكن غنيا عن كثرة المال ولكن الله أرضاه بما آتاه، وذلك حقيقة الغنى. وهذا قول الكلبي، ومقاتل، والفراء.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس".

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه".

وحكي الماوردي أن المعنى:"وجدك فقيراً من الحُجج والبراهين، فأغناك بها، وقيل: ووجدك العائلُ الفقير فأغناه الله بك".

=

=

وقرأ ابن السميقع: «وجدك عيّلا»، بتشديد الياء من غير ألف.

أخرج ابن أبي حاتم من طريق موسى بن علي بن رباح، عن أبيه رضي الله عنه قال: "كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب، فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير كثير، فقال عبد الله: ويومئذ قد كان سيدا كريما قد جاء بخير كثير، فقال مسلمة: ألم يقل الله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: ٦- ٨]، فقال عبد الله: أما اليتيم، فقد كان يتيما من أبويه، وأما العيلة: فكل ما كان بأيدي العرب إلى القلة".

عن قتادة: "{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى}، قال: كانت هذه منازل رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى".

عن محمد بن إسحاق، قال: "{ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالًا فهدى ووجدك عائلًا فأغنى} يعرّفه ما ابتدأه به مِن كرامته في عاجل أمره، ومنُّه عليه في يُتمه وعيلته وضلالته، واستنقاذه من ذلك كلّه برحمته".

قوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [الضحى: ٩]، أي:"فأما اليتيم فلا تُسِئْ معاملته".

قال القرطبي: "وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى، فغلظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [الضحى: ٩]، وجوه:

أحدها: فلا تحقر، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"تُغْمِصْه وَتحْقِره".

الثاني: فلا تظلم، قاله مجاهد-أيضا -، وقتادة.

الثالث: فلا تستذل، حكاه ابن سلام.

=

=

الرابع: فلا تمنعه حقه الذي في يدك، قاله الفراء.

قال الزمخشري:"فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه".

قال الفراء:"فتذهب بحقه لضعفه، وهي فِي مصحف عَبْد الله «فلا تكهر»، وسمعتها من أعرابي من بنى أسد قرأها عليّ".

يقال: "فلان ذو كهرورة: عابس الوجه".

ومنه الحديث: «فبأبي وأمي هو، ما كهرني».

قال أبو الحجاج: "الكهر: الزجر".

الخامس: ما قاله قتادة:"كن لليتيم كأب رحيم".

قال الطبري:"يقول: فلا تظلمه، فتذهب بحقه، استضعافًا منك له".

قال ابن كثير:"أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسِنْ إليه، وتلطف به".

عن محمد بن إسحاق، قال: {فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر} لا [تكن] جبّارًا، ولا مُتكبرًا، ولا فاحشًا، فظًّا على الضعفاء مِن عباد الله".

عن أبي عمران الجوني، عن رجل، عن أبي هريرة: "أن رجلاً شكا إلى رسول الله -صلي الله عليه وسلم- قسوة قلبه، فقال له: إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم".

قوله تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى: ١٠]، أي:"وأما السائل فلا تزجره، بل أطعمه، واقض حاجته".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى: ١٠]، وجهان:

أحدهما: في رده إن منعته، ورُدّه برحمة ولين، قاله قتادة.

قال قتادة:"رد السائل برحمة ولين".

قال الفراء:"السائل على الباب، يَقُولُ: إمّا أعطيته، وإمّا رددته ردًّا لينا".

=

=

قال الطبري:"يقول: وأما من سألك من ذي حاجة فلا تنهره، ولكن أطعمه واقض له حاجته".

قال ابن كثير:"أي: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فَحَّاشا، ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله".

الثاني: السائل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجِبْهُ برفق ولين، قاله سفيان.

قال الحسن:"أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، لكنه طالب العلم".

عن عبيد بن يعيش، قال: سمعت يحيى بن آدم يقول: {وأَمّا السّائِلَ فَلا تَنْهَرْ}، قال: "إذا جاءك الطالب للعلم فلا تنهره".

قال السعدي:"وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد".

قال السعدي: "ويدخل في هذا السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورا بحسن الخلق مع المتعلم ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكراما لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد".

قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١]، أي:"وأما بنعمة ربك التي أسبغها عليك فتحدث بها".

قال الطبري:"يقول: فاذكره".

وقال مقاتل:"يعني: اشكر الله على ما ذكر في هذه السورة، وما صنع الله ﷻ بك من الخير".

قال الزمخشري:"التحديث بنعمة الله: شكرها وإشاعتها. يريد: ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك".

=

=

قال ابن كثير:"أي: وكما كنت عائلا فقيرًا فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا» ".

عن أبى نضرة، قال: "كان المسلمون يرون أن من شُكْرِ النعم أن يحدّثَ بها".

عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: "من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر. والجماعة رحمة، والفرقة عذاب".

وعن أنس، أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله. قال: "لا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم".

عن جابر، عن النبي ﷺ قال: "من أبلي بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره".

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "من أعطَى عَطاء فَوَجَد فَليَجزْ به، فإن لم يجد فَليُثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

وفي قراءة على -رضى الله عنه-: «فخبر». والمعنى: "أنك كنت يتيما، وضالا، وعائلا، فآواك الله، وهداك: وأغناك، فمهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث. واقتد بالله، فتعطف على اليتيم وآوه، فقد ذقت اليتم وهو انه، ورأيت كيف فعل الله بك، وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك، كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحدّث بنعمة الله كلها، ويدخل تحته هدايته الضلال، وتعليمه الشرائع والقرآن، مقتديا بالله في أن هداه من الضلال".

وفي قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١]، وجوه من التفسير:

=

=

أحـدها: النبـوة، قالـه مجاهـد-في روايـة-، وابـن شـجرة. ويكـون تأويـل قولـه {فَحَدِّثْ}، أي: ادعُ قومك.

عن مجاهد -من طريق أبي بشر-" {وأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، قـال: بـالنبوة التـي أعطاك ربّك".

عن مجاهد، " {وأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، قال: بالقرآن".

قـال الزجـاج:"أي: بلـغ مـا أرسـلت بـه وحـدث بـالنبوة التـي آتـاك الله وهـي أجـل النعم".

الثاني: فحدِّث به نفسك، وندب إلى ذلك ليكون ذِكرها شكراً. حكاه الماوردي.

روي عن عبد الله بن غالـب:"أنـه كـان إذا أصـبح يقـول: رزقنـي الله البارحـة خيـرا: قرأت كذا وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قـال: يقـول الله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله".

قال الزمخشري:"وإنما يجوز مثل هذا إذا قـصد بـه اللطـف، وأن يقتـدى بـه غيـره، وأمن علـى نفسه الفتنـة. والـستر أفـضل. ولـو لـم يكـن فيـه إلا التـشبه بأهـل الريـاء والسمعة: لكفى به".

عن عمر بن عبد العزيز، قال: "إنّ ذِكر النعمة شكر".

عن أبي نضرة المنذر بن مالك العبدي، قال: "كـان المـسلمون يـرون أنّ مِـن شُـكْر النعمة أن يُحدَّث بها".

عن الحسن البصري، قال: أكثِروا ذِكر هذه النعمة؛ فإنّ ذِكرها شكر".

قـال الحـسن البـصري: شـكر النعمـة ذكرهـا، قـال الله تعـالى: {وأمـا بنعمـة ربـك فحدث}".

عن قتادة بن دعامة، قال: "مِن شُكر النعمة إفشاؤها".

=

=

عن أبي إسحاق السَّبيعي، قال: "يا معشر الشباب، اغتنِموا، قَلَّ ما تمُرّ بي ليلة إلا وأقرأ فيها ألف آية، وإني لأقرأ البقرة في ركعة، وإني لأصوم الأشهر الحُرم، وثلاثة أيام من كلّ شهر، والاثنين والخميس. ثم تلا: {وأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}".

عن يحيى بن سعيد الأنصاري، قال: "كان يُقال: تعديد النِّعم من الشكر".

قال ابن القيم: (وأما بنعمة ربك فحدث) وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والغنى بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابرا مرفوعا: (من صنع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجز به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره).

والقول الثاني: أن التحدث بنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة، قال مجاهد: هي النبوة، قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله، وقال الكلبي: هو القرآن أمره أن يقرأه، والصواب: أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها وإظهارها من شكرها.

- قال الشيخ السعدي: فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب على من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

- قال الشوكاني: أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه، وإظهارها للناس، وإشهارها بينهم، والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه- سبحانه- بالضحى {والليل إذا سجى (٢)} [الضحى: ٢] على إنعامه على رسوله ﷺ،

=

=

وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو يقسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته؛ دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم- وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل- للمقسم عليه؛ وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: "ودع محمدا ربه". فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضا؛ فإن الذي فلق ظلمة الليل عن ضوء النهار؛ هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضا؛ فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم = لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالحهم في دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى- سبحانه- أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع: الترك، والقلى: البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه.

وأطلق- سبحانه- أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل أحواله، وأن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها.

ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضيه؛ وهذا يعم ما يعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الأتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه

=

=

في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار = فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو- سبحانه- يدخل النار من يستحقها من الكفار، والعصاة، والمنافقين من هذه الأمة وغيرها، ثم يحد لرسوله حدا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحدا من أمتي النار، أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له، ورضيه تعالى.

ثم ذكره- سبحانه- بنعمه عليه؛ من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجا إلى من يؤويه، ويهديه، ويغنيه، فآواه ربه وهداه وأغناه.

فأمره- سبحانه- أن يقابل هذه النعم الثلاثة بما يليق بها من الشكر؛ فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها. فأوصاه- سبحانه- باليتامى، والفقراء، والمتعلمين.

قال مجاهد، ومقاتل: "لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيما."

وقال الفراء: "لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه."

وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم، فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين.

}وأما السائل فلا تنهر (١٠){؛ قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة؛ لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيرا؛ فإما أن تطعمه، وإما أن ترده ردا لينا.

وقال الحسن: "أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم."

وهذا قول يحيى بن آدم، قال: "إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره."

=

=

والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وقوله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث (١١)}؛ قال مجاهد: "بالقرآن."

قال الكلبي: "يعني: أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه."

وروى أبو بشر، عن مجاهد: "حدث بالنبوة التي أعطاك الله".

وقال الزجاج: "وبلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم".

وقال مقاتل: "اشكر هذه النعم التي ذكرت في هذه السورة".

والتحقيق: أن النعم تعم هذا كله، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدنيا والدين.

(مسألة):حكم التكبير عند ختم المصحف من بعد سورة الضحى.

التكبير عند القراء : هو عبارة عن قول : "الله أكبر " في بداية كل سورة، ويسمى التكبير العام، أو من نهاية سورة : "الضحى " إلى آخر المصحف الشريف، ويسمى التكبير الخاص.

والتكبير عند القراء لا يؤتى به إلا إذا قرأ القارىء القرآن مرتبا من أوله إلى آخره، والقراء يبحثون في مفهوم التكبير، وحكمه، وكيفية أدائه ضمن هذه الحالة فقط.

هذا، ويذكر بعض القراء مسألة التكبير عند ختم المصحف الشريف، مع البسملة كالهذلي، وابن مؤمن، وبعضهم يذكره في موضعه عند سورة : "والضحى " كأبي العز القلانسي، والحافظ أبي العلاء الهمذاني، وابن شريح، وجعله جمهور القراء في باب منفصل في آخر كتب الخلاف، كما ذكره ابن الجزري صاحب النشر في القراءات العشر، لتعلقه بالختم والدعاء، ولتعلقه بالسور الأخيرة، وهو الأنسب لكتب القراءات المطولة، وذكره في باب البسملة أنسب لكتب التجويد، وبعضهم لا يذكره أصلا كابن مجاهد في سبعته، وابن مهران في غايته .

=

=

على أن التكبير عند ختم المصحف الشريف ليس من القرآن باتفاق القراء، وإنما هو ذكر جليل أثبته الشرع على وجه التمييز بين سور القرآن كما أثبت الاستعاذة في أول القراءة. ولذلك لم يرسم في جميع المصاحف المكية وغيرها .

*: مفهوم التكبير عند ختم المصحف عند الفقهاء :

وأما مفهومه عند الفقهاء، فإني لم أجد من الفقهاء المتقدمين من نص على تعريفه، وبيان أحكامه بشكل منفصل، غير بعض النصوص التي سيأتي الكلام عليها في موضعه.

غير أني وجدت بعض الباحثين المعاصرين وهو الشيخ سعدي أبو حبيب نص على تعريف التكبير بقوله : "ذكر جليل أثبته الشرع على وجه التخيير من سور آخر القرآن " .

وهذا التعريف يعترض عليه بأمور :

الأمر الأول : أنه لا يسلم كون هذا التعريف فقهيا ؛ لكون لم يظهر فيه التأصيل والتفريع الفقهي.

الأمر الثاني : أنه جعل هذا الذكر على سبيل التخيير، وهذا ليس على إطلاقه، فإن التكبير عند ختم المصحف ثبت في بعض الروايات، ولبعض القراء، فليس التخيير لكل أحد من القراء.

الأمر الثالث : أن قوله : من سور آخر القرآن، فيه نوع واحد من أنواع التكبير، وهو التكبير الخاص فقط، وكان ينبغي أن يطلق في التعريف ؛ لكي يشمل نوعي التكبير العام والخاص.

والإمام الحافظ ابن الجزري حين يذكر مفهوم التكبير يجمع في ذلك القراء والمحدثين والفقهاء في تعريف التكبير، ويذكر مفهوم التكبير ناسبا هذا التعريف للعلماء جميعا دون تفريق بين أحد منهم .

=

=

وعليه : فيمكن القول بأن معنى التكبير عند الفقهاء لا يخرج عن المعنى الذي سبق بيانه للقراء في مفهوم التكبير عند ختم المصحف الشريف، على أن الفقهاء يكيفون مفهوم التكبير هذا بناء على تكييف القراء له بما ثبت عندهم رواية.

وعليه : فيقترح الباحث تعريفا للتكبير عند الفقهاء هو : "ذكر مسنون مخصوص على هيئة مخصوصة يؤتى به عند ختم المصحف الشريف".

أما القول : بأنه ذكر مخصوص ؛ فلأن التكبير يكون على حسب ألفاظ محددة سيأتي بيانها وهي ذكر وليست قرآنا باتفاق العلماء.

أما تقييده بكونه مسنونا : فلاتفاق العلماء على أنه سنة، ولم يقل أحد منهم بوجوبه.

وأما معنى القول بأنه : على هيئة مخصوصة، فيراد به : أنه يؤتى به على صورة ورد تحديدها من قبل الشرع، وقام بنقلها القراء جيلا بعد جيل لطائفة مخصوصة من القراء سيأتي بيانها.

أما القول : بأن التكبير عند ختم المصحف الشريف ؛ فإن هذا الذكر إنما يؤتى به عندما يقرأ المسلم ختمة كاملة، فيكبر في بداية كل سورة، وهو ما يسمى التكبير العام، أو يكبر من أول أو آخر سورة : "والضحى " إلى أول أو آخر سورة الناس.

*: حكم التكبير عند ختم المصحف عند القراء والفقهاء

حكم التكبير عند ختم المصحف عند القراء مسنون : ما تقدم في تعريف التكبير وأنه ذكر مسنون جليل ورد على هيئة مخصوصة، وهو ليس جزءا من القرآن الكريم، ولذلك كان التكبير سنة مستحبة.

كما أن الإجماع منعقد على أن الاستعاذة ليست من القرآن، فكذلك الحال بالنسبة للتكبير عند ختم المصحف الشريف، فإن التكبير ليس آية من القرآن، وهو ذكر مستحب جيء به عند الختم تبركا.

=

=

وقد أشار الحافظ ابن الجزري إلى سنة التكبير عند ختم المصحف الشريف في طَيِّبَةِ النشر بقوله :

وسُنَّةُ التكبيرِ عند الخَتْـم صَحَّتْ عَنْ المَكِّينَ أَهـلِ العِلْمِ
في كلِّ حَال ولدى الصلاةِ سُلْسِلَ عَنْ أَئِمَّة ثِقَاتِ
مِنْ أَوَّلِ انشِراحٍ أَوْ مِنْ الضُّحَى مِنْ آخِرٍ أَوْ أَوَّلٍ قَدْ صُحِّـحَا
للنَّاسِ هكـذا وقَبْلُ إنْ تُرِدْ هَلِّلْ وَبَعْضٌ بعدَ لله حَـمِدْ
ثُمَّ اقرإِ الحمدَ وخمسَ البقره إنْ شِئْتَ حِلا وارتحالا ذَكَـرَهْ

وقد نص طائفة من القراء على هذا الحكم، ومنهم الحافظ ابن الجزري – رحمه الله تعالى – في النشر في القراءات العشر، وفي تقريب النشر .

وقد قال ابن الجزري في تقريب النشر : "وهو في الأصل سنة التكبير عند ختم القرآن العظيم عامة في كل حال صلاة أو غيرها، وشاع ذلك عنهم واشتهر واستفاض وتواتر، وتلقاه الناس عنهم – أي القراء – بالقبول حتى صار العمل عليه في سائر الأمصار، ولهم في ذلك أحاديث وردت مرفوعة وموقوفة " .

وقال محمد مكي نصر: "اعلم أن التكبير سنة عند ختم القرآن " .

وقد ورد في التكبير عند ختم المصحف الشريف عن أهل مكة حديث مسلسل، ورواه بعضهم في جميع سور القرآن، وهو ما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بسنده قال : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقري الإمام بمكة في المسجد الحرام، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال حدثنا أحمد ابن محمد بن القاسم بن أبي بزة، قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت، " والضحى " قال لي : "كَبِّر عند خاتمة كل سورة حتى تختم "، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أن ابن

=

=

عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك، وأخبره أبي بن كعب أن النبي ﷺ أمره بذلك " .

قال الحاكم : "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه " .

قال الحافظ ابن الجزري : "لم يرفع أحد حديث التكبير إلا البزي، وسائر الناس رَوَوْهُ موقوفا على ابن عباس ومجاهد، وغيرهما".

وروى الإمام الشافعي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – أنه قال : "إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ " .

وجه الدلالة في الأثر السابق : أن قول الإمام الشافعي : "إن تركت التكبير فقد تركت ....، يدل على أن التكبير ثابت عن النبي – ﷺ – ولا يسعف الأثر القول بالوجوب، فيبقى على الندب.

قال الحافظ ابن كثير – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – : "وهذا يقتضي تصحيحه لهذا الحديث " .

فتعليق الحافظ ابن كثير على كلام الإمام الشافعي هذا يدل على ميله إلى تصحيح حديث التكبير.

وقال ابن كثير : "فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماما في القراءات.

وحكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلا يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال : أحسنت وأصبت السنة وهذا يقتضي صحة هذا الحديث " .

فقول الإمام الشافعي : "أحسنت وأصبت السنة " يعتبر دليلا آخر من أدلة تصحيح حديث التكبير، وأنه ثابت عن النبي – ﷺ –.

وقد ذكر محمد مكي نصر : أن الحفاظ قد اتفقت على أن التكبير لم يرفعه أحدٌ إلى النبي ﷺ إلا البَزِّي، فقد روي عنه بأسانيد متعددة، ورواه الحاكم في مستدركه

=

=

على الصحيحين عن أبي يحيى محمد بن عبد الله بن زيد الإمام بمكة عن محمد بن علي بن زيد الصائغ عن البَزِّي وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه الشيخان، وأما غير البَزِّي فإنما رواه موقوفًا عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-.

من مجموع ما سبق يتبين أن حديث التكبير روي عند المحدثين مرفوعا عن البزي، وروي موقوفا عن ابن عباس وعن غيره.

والبزي إمام في القراءة ثبت فيها ،له عن مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بمجلس من مجالس الأنصار، وهم يمزحون ويضحكون، فقال : "أكثروا ذكر هادم اللذات " .

وذكره ابن حبان في الثقات، فقال مؤذن المسجد الحرام . وقال العقيلي : "يوصل الأحاديث " .

هذا، وإن كان بعض المحدثين قد تكلموا في البزي ؛ ولكن الأسانيد التي رواها القراء في إثبات التكبير عن البزي، وعن غيره أسانيد معروفة وصحيحة عندهم، والتكبير ثابت معمول به، وقد نقله القراء جيلا بعد جيل، ويرويه العلماء، ويتلقاه الطلاب رواية ودراية ومشافهة وأداء.

ولابد هنا من التفريق بين أسانيد القراء والمحدثين، فقد تكلم بعض المحدثين في بعض أئمة القراءة، غير أن حالهم في الحديث يختلف عن حالهم في القراءة ونقلها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الذهبي في ترجمة حفص بن سليمان أبو عمر الأسدي حيث نقل كلام المحدثين فيه فقال : قال البخاري : تركوه، وقال صالح بن جزرة : لا يكتب حديثه، وقال زكريا الساجي : له أحاديث بواطيل، وقال ابن عدي : عامة أحاديثه غير محفوظة "

=

=

مع كل ما سبق من الكلام في حفص من قبل حديثه، فقد وثقه الإمام الذهبي، وهو من أئمة الحديث، وفرق بين حاله في الحديث وحاله في القراءة ونقلها مضبوطه، فقال : "أما في القراءة، فثقة ثبت ضابط لها بخلاف حاله في الحديث " .

وقد وثق الإمام الذهبي جملة من الأئمة في القراءة مع كونهم قد تُكلم فيهم من جهة حديثهم، وهذا لا يقدح بحال في تلقيهم وأدائهم للقرآن الكريم.

كما أن المحدثين أنفسهم يقرون للإمام البزي بالفضل والإمامة في القراءة، وقد تقدم كلام الحافظ الذهبي في البزي حين قال : "وهو إمام في القراءة ثبت فيها".

وذكر الإمام ابن الجزري رواية جماعة كثيرين ثقات عن البزي حديث التكبير حتى رفع إلى النبي –ﷺ–، وذكر منهم : أحمد بن فرح، وإسحاق الخزاعي والحسن بن الحباب، وذكر عددا كبيرا ممن رَوَوا الحديث عن البزي مرفوعا .

وقد صح التكبير عند ختم المصحف الشريف عند القراء، فقد روي عن ابن كثير المكي القارئ المعروف من روايتي البزي وقنبل وغيرهما، وروي عن السوسي عن أبي عمرو، وأما البزي فلم يختلف عنه فيه.

واختلف عن قنبل، فجمهور المغاربة لم يرووه عنه. ولكن جمهور العراقيين رَوَوْه عنه.

وأما السوسي فقطع له به أبو العلاء في غايته من جميع طرقه، ولم يذكر له فيه خلاف، وقطع له به التجريد من طريق أبي حبش وذلك من أول : "ألم نشرح " .

وقد قال في ذلك الحافظ ابن الجزري : "فاعلم أن التكبير صح عند أهل مكة قرائهم وعلمائهم وأئمتهم، ومن روى عنهم صحة استفاضت، واشتهرت، وذاعت، وانتشرت حتى بلغت التواتر، .... وقد صار على هذا العمل عند أهل الأمصار في سائر الأقطار عند ختمهم في المحافل واجتماعهم في المجالس لدى

=

=

الأماثل، وكثير منهم يقوم به في صلاة رمضان ولا يتركه عند الختم على أي حال كان " .

وقال مكي بن أبي طالب : "وروي أن أهل مكة كانوا يكبرون في آخر كل ختمة من خاتمة والضحى لكل القراء لابن كثير ، غيره سنة نقلوها عن شيوخهم " .

وقال الأهوازي : "والتكبير عند أهل مكة في آخر القرآن سنة مأثورة يستعملونه في قراءتهم في الدروس والصلاة " .

وقد ثبت التكبير العام أيضا عن الدينوري، وهو إمام متقن ضابط، قال عنه أبو عمرو الداني : "متقدم في علم القراءات، مشهور بالإتقان، ثقة مأمون " .

وخلص ابن الجزري عن التكبير أنه ثابت بدلائل مستفيضة جاءت من آثار مروية ورد التوقيف بها عن النبي – ﷺ–، وأخبار مشهورة مستفيضة جاءت عن الصحابة والتابعين والخالفين، وقال أبو الفتح فارس بن أحمد : "لا نقول إنه لابد لمن ختم أن يفعله، لكن من فعله فحسن، ومن لم يفعله فلا حرج عليه، وهو سنة مأثورة عن رسول الله – ﷺ–، وعن الصحابة والتابعين".

ثم ذكر سنده – رَحِمَهُ اللَّهُ إلى النبي – ﷺ – في إثبات التكبير ثم قال : "هذا حديث جليل وقع لنا عاليا جدا بيننا وبين البزي فيه من طريق المخلص سبعة رجال ....

ثم قال الداني : وهذا أتم حديث روي في التكبير، وأصح خبر جاء فيه، وأخرجه الحاكم في صحيحه المستدرك عن أبي يحيى بن محمد بن عبد الله بن يزيد الإمام بمكة عن محمد بن علي بم زيد الصائغ عن البزي، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه البخاري ولا مسلم " .

قال الحافظ أبو العلاء الهمداني : "لم يرفع أحد التكبير إلا البزي ؛ فإن الروايات قد تظافرت عنه برفعه إلى النبي – ﷺ–، ورواه الناس فوقفوه على ابن عباس ومجاهد "، ثم ساق الروايات برفعه إياها، ومدارها كلها على البزي .

=

=

-حكم التكبير عند ختم المصحف الشريف عند الفقهاء :

وأما حكم التكبير عند الفقهاء فلم أجد كلاما للحنفية ولا للمالكية فيه، وأما عند الشافعية فلم أجد كلاما لهم إلا ما ذكره الحافظ ابن الجزري من أنه قد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة : فقهائهم وقرائهم، وثبت عن الإمام الشافعي، وقال به سفيان بن عيينة وابن جريج وابن كثير.

ثم إنه لم يجد نصا في كتب فقهاء الشافعية المطولة، ولا المختصرة مع ثبوته عن إمامهم الإمام الشافعي، وإنما ذكره استطرادا أبو الحسن السخاوي، والإمام أبو إسحاق الجعبري، وكلاهما من أئمة الشافعية، والعلامة أبو شامة، وهو من أكبر أصحاب الشافعي، الذين كان يفتى بقولهم في عصرهم بالشام، وهو ممن وصل إلى رتبة الاجتهاد، وحاز وجمع من أنواع العلوم ما لم يجمعه غيره، خصوصا في علوم الحديث والقراءات والفقه والأصول .

وقد ذكر الإمام ابن الجزري أنه رأى كتاب " الوسيط " تأليف الإمام الكبير شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي الشافعي-رَحِمَهُ اللهُ- وفيه ما هو نص على التكبير في الصلاة، وقد تتبع كلام الفقهاء من الشافعية، فلم ير لهم نصا في غير ما ذُكِر .... .

وقد تتبع الباحث كتب الفقهاء، فلم يجد للحنفية ولا للمالكية، ولا للشافعية – غير ما ذكر من نص ابن الجزري المتقدم – يبين حكم التكبير عند ختم المصحف الشريف، ولا كيفيته.

أما عند الحنابلة فقد ذكر حكم التكبير عند ختم المصحف الشريف صراحة الشيخ البهوتي بقوله : "ويكبر إذا ختم ندبا لآخر كل سورة من سورة الضحى إلى آخر القرآن، فيقول : الله أكبر فقط " .

فقوله : "ندبا " : هو تصريح بحكم التكبير عند ختم المصحف الشريف.

=

=

وذكر الإمام ابن مفلح في الفروع روايتين :

الرواية الأولى : استحباب التكبير مطلقا حيثما ثبت التكبير عند ختم المصحف الشريف عند إمام من أئمة القراءة .

الرواية الثانية : استحباب التكبير لرواية ابن كثير فقط.

والذي يبدو أن الرواية الأولى هي الرواية الأصح ؛ لأننا إذا نظرنا إلى ثبوت التكبير عند القراء فنجده ثابتا عند ابن كثير، وعند غيره من القراء، ومعلوم أن التكبير إنما يعرف من جهة الرواية، وإثباته يكون عن طريقها، فتفضيل رواية ثابتة على رواية أخرى ثابتة غير مقبول عند القراء.

ومن هذا القبيل تفضيل بعض الفقهاء رواية حفص على قراءة حمزة مثلا وخاصة في موضوع الإمالة في قراءته، فهذا التفضيل لا مدخل له في القراءة فإن الأحرف السبعة، وما تبقى منها إنما أنزل رخصة وتخفيفا على الأمة، وبأيها قرأ المسلم، فهو مصيب، وليس للرأي والاجتهاد مدخل في القراءة، هذا هو المذهب المستقر عند القراء، فلا يجوز إثبات قراءة إلا بالنص والرواية المتواترة عن النبي – ﷺ –.

وقد قال الإمام الشاطبي :

وَمَا لِقِيَاسٍ فِي القِرَاءَةِ مَدْخَلٌ فَدُونَكَ مَا فِيهِ الرِّضَا مُتَكَفِّلاَ .

ثم فَرَّعَ ابن مفلح على المسألة السابقة– وهي الأصل– مسألة أخرى متعلقة ببداية ونهاية التكبير، وأورد فيه روايتين :

الرواية الأولى : أن القارىء يكبر آخر كل سورة من آخر سورة الضحى، إلى آخر سورة الناس، فيكون آخر تكبير عند نهاية سورة الناس، وهو الصحيح.

ونص عبارة ابن قدامة في المغني : "واستحسن أبو بكر التكبير عند آخر كل سورة من الضحى إلى آخر القرآن ؛ لأنه روي عن أبي بن كعب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أنه قرأ على النبي – ﷺ – فأمره بذلك رواه القاضي في الجامع " .

=

=

الرواية الثانية : يكبر من أول ألم نشرح، إلى أول الناس، فينتهي التكبير على هذه الرواية عند الانتهاء من سورة الفلق، واختاره المجد ابن تيمية.

وقد رجح الإمام ابن مفلح الرواية الأولى بناء على أن الخلاف راجع لاختلاف القراء في ذلك، وأن المحققين اختاروا أن يكبر القارىء من آخر سورة الضحى إلى آخر سورة الناس .

هذا، وإن ما ذكره ابن مفلح عن الحنابلة في حكم التكبير لا يشير إلى حكم التكبير عند ختم المصحف الشريف صراحة، ولا تلميحا، وغاية ما في الأمر أنه أورد الروايات الواردة في المذهب في طريقة التكبير، وقد رأينا أن في المذهب روايتين : الأولى : استحباب التكبير مطلقا، والثانية : استحبابه لرواية ابن كثير فحسب.

ثم فرع ابن مفلح على المسألة السابقة – وهي الأصل – مسألة يبدو أنها مسألة أدائية تتعلق بالقراء فقط، ولا علاقة للفقهاء بها، وهي بداية التكبير ومنتهاه، هل هو من أول سورة " والضحى " أو آخر سورة " والضحى ".

وهل ينتهي التكبير بأول سورة الناس أو آخرها، وقد أطال البحث فيه.

هذا، ويبدو – والله تعالى أعلم- : أن عدم ذكر التكبير عند ختم المصحف الشريف عند الحنفية والمالكية راجع إلى أمور منها :

أ – عدم ثبوت التكبير عند ختم المصحف الشريف عندهم، أو عدم اشتهاره سيما أن مذهب عامة أهل المغرب هو المذهب المالكي، والقراءة السائدة عندهم قراءة الإمام نافع المدني، وليس من طريقها التكبير عند ختم المصحف الشريف.

ب- أنهم تركوا ذكر التفصيلات المتعلقة بالتكبير للقراء اعتقادا منهم أن هذا المبحث يتعلق بالقراء لا بالفقهاء.

=

=

وأما بالنسبة لكتب الشافعية والحنابلة، فقد ذكرت بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالتكبير عند ختم المصحف الشريف، ولكن بصورة مجملة غير مفصلة، وعذرهم في ذلك أنهم يعتبرون هذا المبحث من مباحث علم القراءات.

ويبدو أن وجهة نظر الفقهاء قريبة من الواقع، ولكن هذا كان ينبغي أن لا يمنعهم من التفصيل والتفريع الفقهي على الروايات الواردة في التكبير عند ختم المصحف الشريف، كما فعلوا ذلك في الأحكام المتعلقة بختم المصحف الشريف.

وقد يقال بأن مسألة التكبير عند ختم المصحف الشريف مسألة تتعلق بالرواية فقط، ويبحثها القراء لا الفقهاء، فالجواب : أن مسألة التكبير من المسائل المشتركة بين القراء والفقهاء من جهة أن القراء يلقونها رواية، والفقهاء يفرعون عليها الأحكام التي تمكن القارىء من تطبيقها في داخل الصلاة وخارجها.

(تنبيه) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٦١٣٣): عن حديث (قرأت على رسول الله ﷺ، فأمرني أن أكبر فيها إلى أن أختم! يعني: {الضحى}) أخرجه ابن أبي حاتم في "العلل " (٢/ ٧٦- ٧٧)، والفاكهي في "أخبار مكة " (٣/ ٣٥/ ١٧٤٤)، والحاكم (٣/ ٣٠٤)، والبيهقي في "شعب الإيمان " (٢/ ٣٧٠/ ٢٠٧٧- ٢٠٨١)، والبغوي في "تفسيره" (٤/ ٥٠١) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٦١٣٣): وقال ابن أبي حاتم عقبه: "قال أبي: هذا حديث منكر". قلت: وعلته ابن أبي بزة؛ فقد قال في "الجرح والتعديل " (١/ ١/ ٧١): "قلت لأبي: ابن أبي بزة ضعيف الحديث؟ قال: نعم، ولست أحدث عنه؛ فإنه روى عن عبيدالله بن موسى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله عن النبي ﷺ حديثاً منكراً". وقال العقيلي في "الضعفاء" (١/ ١٢٧): "منكر الحديث، ويوصل الأحاديث". وقال الذهبي: "ليّن الحديث". وأقره الحافظ في "اللسان".

=

=

ولهذا لما قال الحاكم عقب الحديث "صحيح الإسناد"؛ تعقبه الذهبي في "التلخيص" بقوله:"البزي تُكلم فيه". وقال في ترجمته من والعبر" (١/ ٤٤٥- الكويت): "وكان ليِّن الحديث، حجة في القرآن". ولذلك أورده في "الضعفاء" (٥٥/ ٤٢٨)، وقال في "سير الأعلام" (١٢/ ٥١) رداً على تصحيح الحاكم للحديث: "وهو منكر". وقال في "الميزان" عقب الحديث:! حديث غريب، وهو مما أنكر على البّزِّي، قال أبو حاتم؛ هذا حديث منكر". وأقره الحافظ في "لسانه". وقال ابن كثير في "التفسير" عقب الحديث: "فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد البزي من ولد القاسم بنأبي بزة، وكان إمامًا في القراءات، فأما في الحديث؛ فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وأبو جعفر العقيلي...". ثم ذكر كلامهما المتقدم، ثم قال: "لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في "شرح الشاطبية" عن الشافعي: أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة؛ فقال: "أحسنت وأصبت السنة"، وهذا يقتضي صحة الحديث". فأقول: كلا؛ وذلك لأمرين: أحدهما: أن هذا القول غير ثابت عن الإمام الشافعي، ومجرد حكاية أبي شامة عنه لا يعني ثبوته؛ لأن بينهما مفاوز. ثم رأيت ابن الجزري فد أفاد في "النشر في القراءات العشر" (٢/ ٣٩٧) أنه من رواية البزي عن الشافعي؛ فصح أنه غير ثابت عته. ويؤكد ذلك أن البزي اضطرب فيه، فمرة قال: محمد بن إدريس الشافعي، ومرة قال: الشافعي إبراهيم بن محمد! فراجعه. والآخر: أنه لو فرض ثبوته عنه؛ فليس هو بأقوى من قول التابعي: من السنة كذا؛ فإن من المعلوم أنه لا تثبت بمثله السنة، فبالأَوْلى أن لا تثبت بقول من بعده؛ فإن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أتباع التابعين أو تبع أتباعهم. فتأمل. وللحديث علة ثانية: وهي شيخ البزي: عكرمة بن سليمان؛ فإنه لا يعرف إلا بهذه الروأية، فإن ابن أبي حاتم لما ذكره في "الجرح والتعديل" (٣/ ٢/ ١١)؛ لم يزدعلى قوله: "روى عن إسماعيل بن عبدالله بن

=

=

قسطنطين، روى عنه أحمد بن محمد. أبن أبي بزة المكي " فهو مجهول العين- كما تقتضيه القواعد العلمية الحديثية -؛ لكنه قد توبع في بعضه- كمايأتي -.
وله علة ثالثة: وهي جهالة حال إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين؛ فقد أورده ابن أبي حاتم (١/ ١/ ١٨٠) وقال: "روى عنه محمد بن إدريس الشافعي، ويعقوب بن أبي عباد المكي"، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، ولا رأيت له ذكراً في شيء من كتب الجرح والتعديل الأخرى، ولا ذكره ابن حبان في "ثقاته" على تساهله في توثيق المجهولين! وأما المتابعة التي سبقت الإشارة إليها: فهي من الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى؛ فقال ابن أبي حاتم في "آداب الشافعي ومناقبه " (ص ١٤٢): أخبرني محمد بن عبدالله بن عبدالحكم- قراءة عليه -: أنا الشافعي: ثنا إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين (يعني: قارئ مكة) قال: قرأت على شبل (يعني: ابن عباد)، وأخبر شبل أنه قرأ على عبدالله بن كثير، وأخبر عبدالله ابن كثيرا أنه قرأ على مجاهد، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب، وقرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ. قلت: هكذا الرواية فيه؛ لم يذكر: {الضحى} والتكبير، وكذلك هو في "تاريخ بغداد" (٢/ ٦٢) من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم قال: نا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم المصري... به. وخالف جد أبي يعلى الخليلي؛! فقال أبو يعلى في "الإرشاد" (١/ ٤٢٧): حدثنا جدي: حدثنا عبدالرحمن بن أبي حاتم... بإسناده المذكور في "الآداب " نحوه؛ إلا أنه زاد في آخره فقال:!... فلما بلغت: {والضحى}؛ قال لي: يا ابن عباس! كبر فيها؛ فإني قرأت على رسول الله ﷺ... " إلخ- كما فِي حَدِيثِ الترجمة -. قلت: وجدُّ أبي يعلى؛ لم أجد له ترجمة إلا في "الإرشاد" لحفيده الحافظ أبي يعلى الخليلي (٢/ ٧٦٥- ٧٦٦)، وسمى جماعة روى عنهم، ولم يذكر أحداً روى عنه؛ فكأنه من المستورين الذين لم يشتهروا

=

=

بالرواية عنه، ولعله يؤيد ذلك قول الحافظ الخليلي: "ولم يرو إلا القليل". مات سنة (٣٢٧).

وكذا في "تاريخ قزوين" للرافعي (٢/ ١٣٤)- نقلاً عن الخليلي -. قلت: فمثله لا تقبل زيادته على الحافظين الجليلين: ابن أبي حاتم وأبي العباس الأصم؛ فهي زيادة منكرة.

ويؤيد ذلك ما تقدم عن الحافظ ابن كثير: أنها سنة تفرد بها أبو الحسن البزي. مع شهادة الحفاظ المتقدمين بأن الحديث منكر. والله أعلم.

وقد رواه البزي مرة بزيادة أخرى معضلا؛ فقال ابن الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ في "النشر في القراءات العشر" (٢/ ٣٨٨) : "روى الحافظ أبو العلاء بإسناده عن أحمد بن فرج عن البزي أن الأصل في ذلك (يعني: التكبير المذكور) : أن النبي ﷺ انقطع عنه الوحي؛ فقال المشركون: قلا محمدا ربه؛ فنزلت: سورة: {والضحى}، فقال النبي ﷺ: "الله أكبر". وأمر النبي ﷺ أن يكبر إذا بلغ: {والضحى} مع خاتمة كل سورة حتى يختم. وذكره ابن كثير في "تفسيره، معلقا دون أن يعزوه للبزي عقب روايته المتقدمة المسندة؛ فقال: "وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة {الضحى} أنه لما تأخر الوحي... " إلخ نحوه، وعقب عليه بقوله: "ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة أو ضعف". وأقره ابن الجزري على ذلك (ص ٣٨٨)، وعقب عليه بقوله؛ "يعني كون هذا سبب التكبير، وإلا؛ فانقطاع الوحي مدة أو إبطاؤه مشهور، رواه سفيان عن الأسود بن قيس عن جندب البجلي- كما سيأتي - ، وهذا إسناد لا مرية فيه ولا شك. وقد اختلف أيضا في سبب انقطاع الوحي أو إبطائه، وفي القائل: (قلاه ربه)، وفي مدة انقطاعه...". ثم ساق في ذلك عدة روايات كلها معلولة؛ إلا رواية سفيان التي أشار إليها، وقد عزاه بعد للشيخين، وقد أخرجها البخاري (١١٢٤ و١١٢٥ و٤٩٨٣)، ومسلم (٥/ ١٨٢)، والترمذي

=

=

(٣٣٤٢) وصححه، وأحمد (٤/ ٣١٣)، والطبراني (٢/ ١٨٦و١٨٧) من طرق عن سفيان، ولفظه: احتبس جبريل الله ﷺ على النبي ﷺ؛ فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه، فنزلت: {والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى} ولسفيان متابعات كثيرة في "الصحيحين " وغيرهما بألفاظ متقاربة، فمن شاء الوقوف عليها؛ فليتتبعها فيهما، وقد يسر السبيل إليها الحافظ ابن حجر – كعادته في "الفتح " –؛ فليرجع إليه من أرادها. فأقول: وبناء على هذا الحديث الصحيح يمكننا أن نأخذ منه ما نؤكد به نكارة الزيادة المتقدمة من رواية أحمد بن الفرج عن البزي؛ لعدم ورودها في "الصحيح "، وأن ما يحكى عن القراء ليس من الضروري أن يكون ثابتا عندهم، فضلا عن غيرهم- كما سيأتي بيانه في اختلاف القراء في هذا التكبير الذي تفرد به البزي -. ومن المعلوم في علم المصطلح أن الحديث المنكر هو ما رواه الضعيف مخالفا للثقة. وهذه الزيادة من هذا القبيل، وبهذا الطريق رد الحافظ حديثا آخر من رواية الطبراني فيه سبب آخر لنزول {والضحى}، لعله ييسر لي تخريجه فيما بعد؛ فقال الحافظ (٨/ ٧١٠) : لأغريب، بل شاذ (!) مردود بما في (الصحيح)". ثم ذكر روايات أخرى في سبب نزولها مخالفة أيضا، ثم ردها بقوله: "وكل هذه الروايات لا تثبت". قلت: ونحوها ما روى ابن الفرج أيضا قال: حدثني ابن أبي بزة بإسناده: أن النبي ﷺ أهدي إليه قطف عنب جاء قبل أوانه؛ فهم أن يأكل منه، فجاءه سائل فقال: أطعموني مما رزقكم الله؟ قال: فسلم إليه العنقود. فلقيه بعض أصحابه فاشتراه منه، وأهداه للنبي ﷺ، وعاد السائل فسأله، فأعطاه إياه، فلقيه رجل آخر من الصحابة، فاشتراه منه، وأهداه للنبي ﷺ، فعاد السائل فسأله فانتهره وقال: "إنك ملح". فانقطع الوحي عن النبي ﷺ أربعين صباحا؛ فقال المنافقون:

=

=

قلا محمدا ربه، فجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: اقرأ يا محمد! قال: وما أقرأ؟ فقال: اقرأ: {والضحى} ... !، ولقنه السورة، فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبيا لما بلغ: {والضحى} ؛ أن يكبر مع خاتمة كل سورة حتى يختم. ذكره ابن الجزري وقال عقبه: "وهذا سياق غريب جدا، وهو مما انفرد به ابن أبي بزة أيضا، وهو معضل". قلت: وفي هذا دليل على ضعف البزي هذا، لتلونه في رواية الحديث ١ ا،١ حد،

فإن ذلك مما يشعر بأنه غير حافظ للحديث ولا ضابط- كما هو معروف عند أهل المعرفة بهذا الفن الشريف -؛ فلا جرم أنه ضعفه أبو حاتم والعقيلي والذهبي والعسقلاني- كما تقدم -، وقال الحافظ أبو العلاء الهمداني: "لم يرفع أحد التكبير إلا البزي، ورواه الناس فوقفوه على ابن عباس ومجاهد".

ذكره ابن الجزري (ص٣٩٥)، ثم قال: "وقد تكلم بعض أهل الحديث في البزي، وأظن ذلك من قبل رفعه له؛ فضعفه أبو حاتم والعقيلي". أقول: ما أصاب العلائي في ظنه؛ فإن من ضعفه- كالمذكورين -؛ ما تعرضوا لحديثه هذا بذكر، وإنما لأنه منكر الحديث- كما تقدم عن العقيلي -، ومعنى ذلك: أنه يروى المناكير، وأشار أبو حاتم إلى أن منها ما رواه عن ابن مسعود، وإن كان لم يسق متنه.

ثم إن الموقوف الذي أشار إليه العلائي فما ذكر له إسنادا يمكن الاعتماد عليه؛ لأنه لم يسقه (ص ٣٩٧) إلا من طريق إبراهيم بن أبي حية قال: حدثني حميد الأعرج عن مجاهد قال: ختمت على عبد الله بن عباس تسع عشرة ختمة، كلها يأمرني أن أكبر فيها من.: {ألم نشرح}". وإبراهيم هذا: قال البخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ١/ ٢٨٣) : "منكر الحديث، واسم أبي حية: اليسع بن أسعد". وقال الدارقطني: "متروك". فهو ضعيف جدا؛ فلا يصح شاهدالحديث البزي، مع أنه موقوف. إذا عرفت أيها القارئ الكريم ضعف هذا الحديث ونكارته؛ فإن من المصائب في هذا الزمان والفتنة فيه أن يتطاول الجهال على الكتابة فيما لا علم

=

=

لهم به؛ أقول هذا لأنه وقع تحت يدي وأنا أحرر الكلام على هذا الحديث رسالة للمدعو أحمد الزعبي الحسيني بعنوان: "إرشاد البصير إلى سنية التكبير عن البشير
النذير"، رد فيها- كما يقول- على الأستاذ إبراهيم الأخضر، الذي ذهب في كتابه "تكبير الختم بين القراء والمحدثين " إلى أن التكبير المشار إليه ليس بسنة. فرأيت الزعبي المذكور قد سلك سبيلا عجيبا في الرد عليه أولا، وفي تأييد سنية التكبير
ثانيا؛ تعصبا منه لما تلقاه من بعفض مشايخه القراء الذين بادروا إلى تقريظ رسالته دون أن يعرفوا ما فيها من الجهل بعلم الحديث، والتدليس؛ بل والكذب على العلماء، وتأويل كلامهم بما يوافق هواه، وغير ذلك مما يطول الكلام بسرده، ولا مجال لبيان ذلك مفصلا؛ لأنه يحتاج إلى وقت وفراغ، وكل ذلك غير متوفر لدي الآن؛ ولا سيما والأمر كما يقال في بعض البلاد: "هذا الميت لا يستحق هذا العزاء"؛ لأن مؤلفها ليس مذكورا بين العلماء، بل إنها لتدل على أنه مذهبي مقلد، لا يعرف الحق إلا بالرجال، ولكن لا بد لي من الإشارة بأخصر ما يمكن من العبارة إلى بعض جهالاته المتعلقة بهذا الحديث الذي صرح بصحته، بل وزعم أنه متواتر عن النبي ﷺ!

١- ذكر (ص ١٢) تصحيح الحاكم إياه، ولم يعقب عليه برد الذهبي له أو غيره ممن تقدم ذكره من العلماء!

٢- بل زاد على ذلك (ص ١٤) فقال: "يكفي في حجية سنة التكبير حديث الحاكم "، الأمر الذي يدل على جهله بموقف العلماء من تصحيحات الحاكم، أو أنه تجاهل ذلك إ!

=

=

٣- نقل (ص ١٥ - ١٦) عن كتاب "غاية النهاية" لابن الجزري (رَحِمَهُ اللَّهُ) ترجمة مختصرة لعكرمة بن سليمان- الذي بينت آنفا أنه من علل هذا الحديث لجهالته- جاء فيها قول ابن الجزري: "تفرد عنه البزي بحديث التكبير". وهذا نص بأن عكرمة هذا مجهول العين عند من يعرف، فجهل الزعبي ذلك

أو تجاهله؛ فزعم أنه ثقة فقال (ص ١٧) : "رجال السند كلهم ثقات (!)، جهابذة، أذعنت الأمة لهم بالقبول والحفظ "!!!

٤- قال (ص ١٧ و ٣١) : "فالحديث قوي ليس له معارض في صحته "! مع أنه نقل في غير ما موضع ما عزوته إلى أبي حاتم أنه حديث منكر. وإلى الذهبي أنه مما أنكر على البزي، وقول العقيلي في البزي:

"منكر الحديث". ولكنه تلاعب بأقوالهم وتأولها تأويلا شنيعا؛ فأبطل دلالتها على ضعف

الحديث وراويه! وتجاهل قول أبي حاتم فيه: "ضعيف الحديث". فلم يتعرض له بذكر؛ لأنه يبطل تأويله، وذلك هو شأن المقلدة وأهل الأهواء قديما وحديثا. انظر (ص ٢٢ و ٢٥).

٥- قال (ص ٢١) وهو ينتقد غيره، وهو به أولى: "فترى الواحد من إلناس يصحح حديثا ويضعفه بمجرد أن يجد في كتاب من كتب الرجال عن رجل بأنه غير ثقة...". كذا قال! وهو يريد أن يقول بأنه ثقة أو غير ثقة؛ لينسجم مع التصحيح والتضعيف المذكورين في كلامه، ولكن العجمة لم تساعده! وأول كلامه ينصب عليه تماما؛ لأنه يصحح هذا الحديث دون أن يجد موثقا لعكرمة بن سليمان،

والبزي هذا، بل إنه ممن اتفق أهل العلم بالجرح والتعديل على تضعيفه وتضعيف حديثه- كما تقدم -؛ ولذلك طعن فيهم في التالي:

=

=

٦- قال بعد أن نصب نفسه (ص ١٩) لمناقشة آراء العلماء- يعني: المضعفين للحديث- ورواية الذين أشرت إليهم آنفا! قال (ص ٢٢) ؛ "فكون البزي قد جرح في الحديث؛ فإن ذلك قد يكون لنسيان في الحديث أو لخفة ضبطه فيه أو غير ذلك... قال (ص ٢٣) : فكون البزي لين الحديث لا
يؤثر في عدم (!) صحة حديث التكبير، على زعم من قال: إنه لين". كذا قال فض فوه: "زعم... "! وهو يعني: الذهبي ومن تقدمه من الأئمة المشار إليهم آنفا؛ فهو يستعلي عليهم، ويرد تضعيفهم بمجرد الدعوى أن ذلك لا يؤثر في صحة الحديث! فإذا كان كلام هؤلاء لا يؤثر عنده؛ فكلام من هو المؤثر؟!
وإن من عجائب هذا الرجل وغرائبه أنه عقد بحثا جيدا (ص ١٩- ٢١)، ونقل فيه كلاما للذهبي قيما، خلاصته: أن للحديث رجالا، وأن هناك علماء معروفين لا يدرون ما الحديث؟ ثم أشار هذا الرجل بكلام الذهبي، ورفع من شأنه وقال: "وكلامه يدل أن لكل فن رجالا". وهذا حق؛ فهل يعني أن الرجل من هؤلاء الرجال حتى استجاز لنفسه أن يرد تضعيف أهل الاختصاص بهذا العلم وتجريحهم، وهو ليس في العير ولا في النفير؟! نعوذ بالله من العجب والغرور واتباع الأهواء والتقليد الأعمى، والانتصار له بالسفسطة والكلام العاطل! والجهل العميق! وتأمل في قوله المتقدم:"... لا يؤثر في عدم صحة حديث التكبير"! فإنه يعني:"... في صحة... " إلخ؛ كما يدل عليه سياق كلامه؛ فهذا من عيه وجهله. ولا أدل على ذلك مما يأتي، وإن كان فيما سبق ما يكفي.
٧- قال (ص ٢٤) : "وكذلك التكبير نقل إلينا مسلسلا بأسانيد متواترة إلى النبي ﷺ "! وهذا كذب وزور بين، ولو كان صادقا؛ لم يسود صفحات في الرد بجهل بالغ على علماء الحديث الذين ضعفوا البزي وحديثه، ولاكتفى بإثبات تواتره
=

=
المزعوم. ولكن في هذا حكمة بالغة ليتبين المبطل من المحق، والجاهل من العالم، والمغرض من المخلص!

٨- ثم كذب كذبة أخرى فقال (ص ٢٧) : "فتجد أن الذهبي يقوي هذا الحديث". وسبب هذه أنه ساق ترجمة البزي عند الذهبي، وفيها أنه روى الحديث عنه جماعة؛ فاعتبر ذلك تقوية للحديث، وذكر فيها أثرا عن حميد الأعرج- وهو من أتباع التابعين -، فجعله شاهدا للحديث المرفوع، وهذا من بالغ جهله بهذا العلم أو تجاهله، وأحلاهما مر!

٩- ومما يدل على ذلك قوله (ص ٣٠) : "فإذا روى الشافعي عن رجل وسكت عنه؛ فهو ثقة"!

وهذا منتهى الجهل بهذا العلم الشريف، والجرأة على التكلم بغير علم؛ فإن هذا خلاف المقرر في علم المصطلح: أن رواية الثقة عن الرجل ليس توثيقا له، وهذا ولو لم يكن مجروحا، فكيف إذا كان مطعونا فيه؟! فالله المستعان.

١٠- ونحو ذلك قوله (ص ٣٥) : "والبزي. قد وثقه الحافظ ابن الجزري بقوله: أستاذ محقق ضابط متقن "! وفي هذا تدليس خبيث وتلبيس على القراء؛ لأنه- أعني: الجزري- إنما قال هذا فيما هو مختص به- أعني: البزي- من العلم بالقراءة، وليس في روايته للحديث- كما يدل على ذلك السياق والسياق، وهما من المقيدات؛ كما هو معروف عند العلماء -، بل إنه قد صرح بذلك في "النشر" (١/ ١٢٠) ؛ فقال ما نصه: "وكان إماما في القراءة محققا ضابطا متقنا لها ثقة فيها". ومن العجيب حقا أن هذا المدلس على علم بهذا النص؛ لأنه قد ذكره في الصفحة (٣٦) فيما نقله عن المحدث السندي؟ فتجاهله ليسلك على القراء تدليسه! وأعجب من ذلك أنه تجاهل تعقيب السندي رَحِمَهُ اللهُ على ذلك بقوله: "فلا يقدح في ذلك كونه ضعيف الحديث في غيرما يتعلق بالقراءة". قلت: فهذه شهادة
=

=

جديدة من المحدث السندي تضم إلى شهادات الأئمة المتقدمين تدمغ هذا الجاهل دمغا، وتمحو دعواه الباطلة محوا، وتجعل رسالته هباء منثورا.

١١- ومن أكاذيبه الخطيرة التي لا بد من ذكرها وبيانها وختم هذا البحث بها قوله (ص ٣٤)- بعد أن ذكر تصحيح الحاكم للحديث -: "وجاء تواتر الأمة على فعله "! فهذا كذب محض لم يقله أحد قبله! فإن المسألة الخلاف فيها قديم بين القراء، فضلا عن غيرهم؛ فإنه لم يقل بالتكبير المذكور في الحديث من القراء المشهورين غير عبد الله بن كثير المذكور في إسناده المتقدم، وهو مكي توفي سنة (١٢٠). ثم تلقاه المكيون عنه؛ كما حقق ذلك ابن الجزري (٢/ ٣٩٢)، وقال قبل ذلك (٢/ ٣٩٠) بعد أن ذكر الحديث وغيره مما تقدم: "قال الداني: فهذا سبب التخصيص بالتكبير من أخر: {والضحى}، واستعمال النبي ﷺ إياه، وذلك كان قبل الهجرة بزمان؛ فاستعمل ذلك المكيون، ونقل خلفهم عن سلفهم، ولم يستعمله غيرهم؛ لأنه الله ﷺ ترك ذلك بعد، فأخذوا بالآخر من فعله". فأين التواتر الذي زعمه هذا الجاهل- أو: المتجاهل- ونسبه إلى الأمة، مع

تصريح هذا الإمام الداني بأنه لم يستعمله غير المكين؟! أم أن هؤلاء ليسوا عنده من الأمة؟! وماذا يقول في تعليل الإمام الداني تركهم له؟! ثم إن المكيين أنفسهم لم يستمروا على استعماله؛ فقد ذكر الفاكهي في "أخبار مكة" (٣/ ٣٦/ ١٧٤٥) أن ابن أبي عمر قال: "أدركت الناس في مكة على هذا: كلما بلغوا: {والضحى} ؛ كبروا حتى يختموا، ثم تركوا ذلك زمانا، ثم عاودوه منذ قريب، ثم تركوه إلى اليوم".

وابن أبي عمر هذا من شيوخ الفاكهي ومسلم، واسمه: محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني أبو عبد الله الحافظ، وقد أكثر الفاكهي عنه بحيث أنه روى عنه أكثر من خمسمائة رواية- كما ذكر ذلك المعلق على كتابه جزاه الله خيرا -، مات سنة

=

=

(٢٤٣).قلت: فهذه الرواية مما يبطل التواتر الذي زعمه؛ لأنها تنفي صراحة انقطاع استمرار العمل، بل قد جاء عن بعض السلف إنكار هذا التكبير واعتبره بدعة،

وهو عطاء بن أبي رباح المكي؛ فقال الفاكهي: حدثني أبو يحيى بن أبي مرة عن ابن خنيس قال: سمعت وهيب بن الورد يقول: (قلت: فذكر قصته، وفيها) ولما بلغ حميد (وهو: ابن قيس المكي) : {والضحى} ؛ كبر، فقال لي عطاء: إن هذا لبدعة. وهذا إسناد جيد، وفيه إثبات سماع وهيب من عطاء، فما في "التهذيب "، وتبعه في "جامع التحصيل"- أن روايته عن عطاء مرسلة؛ لعله وهم، أو سبق قلم! فإن الذي في "الجرح" مكان: (عطاء) (طاوس) وهو أقدم وفاة من عطاء. والله أعلم.

وفتوى ابن تيمية الواردة في المجلد (١٣) من "مجموع الفتاوى" (ص ٤١٧ - ٤١٩) تميل إلى عدم مشروعية هذا التكبير؛ فإنه سئل عنه فقال: "إذا قرأوا بغير حرف ابن كثير؛ كان تركهم لذلك هو الأفضل، بل المشروع المسنون؛ فإن هؤلاء الأئمة من القراء لم يكونوا يكبرون، لا في أوائل السور ولا في أواخرها. فإن جاز لقائل أن يقول: إن ابن كثير نقل التكبير عن رسول الله ﷺ

جاز لغيره أن يقول: إن هؤلاء نقلوا تركه عن رسول الله ﷺ إذ من الممتنع أن تكون قراءة الجمهور التي نقلتها أكثر من [نقلة] قراءة ابن كثير، قد أضاعوا فيها ما أمرهم به رسول الله ﷺ؛ فإن أهل التواتر لا يجوز عليهم كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي إلى نقله، فمن جوز على جماهير القراء أن رسول الله ﷺ أقرأهم بتكبير زائد، فعصوا أمره، وتركوا ما أمرهم به؛ استحق العقوبة البليغة التي تردعه وأمثاله عن مثل ذلك". ثم قال: "ولو قدر أن النبي ﷺ أمر بالتكبير لبعض من أقرأه؛ كان غاية ذلك يدل على جوازه أو استحبابه...".

=

=

ومن غرائب ذاك الزعبي أنه نقل (ص ٤٩- ٥١) فتوى ابن تيمية هذه، ثم استخلص منها أن ابن تيمية يقول بسنية التكبير! فذكرني المسكين بالمثل المعروف: "عنزة ولو طارت"؛ فإنه تجاهل عمدا قول ابن تيمية الصريح في الترك، بل المشروع المسنون. كما تجاهل إيماءه القوي بعدم ثبوت الحديث بقوله: "ولو قدر أن النبي ﷺ أمر بالتكبير... "؛ فإنه كالصريح أنه لم يثبت ذلك عنده، وأنا على مثل اليقين أن القائل بسنية التكبير، المستدل عليه بحديث الترجمة؛ والمدعي صحته – كهذا الدعي الزعبي- لو سئل: هل تقول أنت بما قال ابن تيمية: "ولو قدر... " إلخ؟

فإن أجاب بـ "لا"، ظهر كذبه على ابن تيمية وما نسب إليه من السنية، وإن قال: "نعم "؛ ظهر جهله باللغة العربية ومعاني الكلام، أو تجاهله ومكابرته. والله المستعان. والخلاصة: أن الحديث ضعيف لا يصح- كما قال علماء الحديث دون خلاف بينهم –، وأن قول بعض القراء لا يقويه، ولا يجعله سنة، مع إعراض عامة القراء عنه، وتصريح بعض السلف ببدعيته. والله ولي التوفيق. وإن مما يؤكد ذلك اختلاف القائلين في تحديد ابتدائه وانتهائه على أقوال كثيرة تراها مفصلة في "النشر"، كما اختلفوا هل ينتهي بآخر سورة الناس، أو بأولها! وصدق الله العظيم القائل: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} . انتهى كلام العلامة الألباني.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (١/ ٤٤٠): هل ثبت التكبير من سورة الضحى إلى آخر القرآن؟

فأجاب: لم يثبت ذلك عن النبي ﷺ كما صرح بذلك الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في أول تفسير سورة الضحى، ولكن ذلك عادة جرى عليها بعض القراء لحديث

=

=

ضعيف ورد في ذلك، فالأولى ترك ذلك؛ لأن العبادات لا تثبت بالأحاديث الضعيفة. والله الموفق. ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في " فتاوى إسلامية " (٤ / ٤٨) : بعض قراء القرآن يفصلون بين السورة والأخرى بقول " الله أكبر " دون بسملة، هل يجوز ذلك، وهل له دليل ؟

فأجاب : هذا خلاف ما فعل الصحابة رضي الله عنهم من فصلهم بين كل سورة وأخرى بـ " بسم الله الرحمن الرحيم "، وخلاف ما كان عليه أهل العلم من أنه لا يفصل بالتكبير في جميع سور القرآن.

غاية ما هناك أن بعض القراء استحب أن يكبر الإنسان عند ختم كل سورة من الضحى إلى آخر القرآن مع البسملة بين كل سورتين، والصواب : أنه ليس بسنة ؛ لعدم ورود ذلك عن النبي ﷺ، وعلى هذا فالمشروع أن تفصل بين كل سورة وأخرى بالبسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " إلا في سورة " براءة " فإنه ليس بينها وبين الأنفال بسملة " انتهى.

وقد ذكر العلامة بكر أبو زيد في كتابه " بدع القراء " (ص ٢٧) سبعة أمور تتعلق بختم القرآن نذكر منها : التكبير في آخر سورة الضحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة أو خارجها.

ثم قال : "فهذه الأمور السبعة : لا يصح فيها شيء عن النبي ﷺ، ولا عن صحابته رضي الله عنهم، وعامة ما يروى في بعضها مما لا تقوم به الحجة، فالصحيح عدم شرعية شيء منها " انتهى.

وألف شيخ المقرئين في المدينة النبوية الشيخ إبراهيم الأخضر رسالة بعنوان " تكبير الختم بين القراء والمحدثين "، وقد ذكر في خاتمة هذه الرسالة ما نصه : "ومن خلال ما تقدم من بحث أحوال الروايات، وتحقيق سندها، وتراجم رجالها

=

=

: لم نجد غير رواية البزي- كما ذكر العلماء-، وهي رواية تسلسلت بالضعفاء والمجروحين، ولم تعضدها رواية أخرى من غير طريق البزي، وذلك كما صرح كثير من علماء الروايات، على أن بعضا من مشاهير القراء كابن مجاهد في كتابه " السبعة " لم يورد التكبير، وكذلك أبو القاسم الهذلي في كتابه " الكامل " لم يورد التكبير أيضا، وهذا مما يدل على عدم ثبوت الرواية عندهما، والله أعلم....

وبهذا فلا نثبت سنة بخبر كهذا، بل الأفضل والأولى تركه سواء في رواية البزي أو رواية غيره من القراء، وذلك صونا لكتاب الله، وتجريدا له عن كل ما ليس منه ممن يظن أنه سنة وهو ليس بسنة، والحمد لله رب العالمين " انتهى.

ثانيا : وقد ذكر في سبب التكبير أسباب عديدة، أشهرها أنه ﷺ كان قد انقطع عنه الوحي مدة، فلما عاد بعد انقطاع نزل عليه بسورة الضحى، وفيها (ما ودعك ربك وما قلى) فكبر فرحا بهذا، وهذا لو صح فإنه لا يدل على استحباب التكبير الذي قال به بعض القراء، وذلك من وجوه :

١ . أنه ليس فيه تكبير من بعد كل قراءة للسورة.

٢ . وليس فيه أنه كبر إلى سورة الناس.

٣ . وأنه كان التكبير مرة واحدة ولسبب مجيء الوحي بعد انقطاعه.

٤ . وأنه ليس في كل السور الأخرى ما في سورة الضحى من معاني.

على أن هذه الرواية لم يأت لها سند صحيح بل ولا ضعيف.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٨ / ٤٢٣): "وذكر القراء في مناسبة التكبير من بعد سورة الضحى : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاءه الملك فأوحى إليه : (والضحى. والليل إذا سجى) السورة بتمامها : كبر فرحا، وسرورا.

ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة أو ضعف، فالله أعلم " انتهى.

سورة الشرح[1]

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".
قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك".
* وآياتها ثمانٍ. وكلماتها ستّ وعشرون. وحروفها مائة وخمسون. وفواصل آياتها (بكا).
* تسمى «سورة الشرح» سميت في مجموعة من التفاسير، وبعض كتب علوم القرآن : «سورة الشرح»، ومثله في بعض المصاحف المشرقية، تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١].
وتسمى «سورة ألم نشرح» وبهذا الاسم عنونت في كثير من كتب التفسير، وكتب علوم القرآن، وفي «صحيح البخاري»، و «جامع الترمذي»، ووجه تسمية بذلك، لافتتاحها بقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١].
وتسمى «سورة الانشراح» سميت في بعض التفاسير، وكثير من كتب علوم القرآن : «سورة الانشراح»، وهي مصدر الفعل: «انشرح».
وقد وردت تسميتها بسورة «اليسر» في مصحف كتبه أبو الحسن علي بن هلال، وهو مصور من جامعة أم القرى، ولعل هذه التسمية من لفظ وقع في السورة، وذلك في قوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥]-والله تعالى أعلم-.
* معظم مقصود السّورة: بيان شرح صدر المصطفى ﷺ ورفعُ قدرِهِ وذكرِه، وتبديل العسر من أَمره بيسره، وأَمره بالطَّاعة فى انتظار أَجره، والرّغبة إِلى الله- تعالى- والإِقبال على ذكره فى قوله: {وإِلى رَبِّكَ فارغب}.
* المتشابه: قوله: {فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً} ليس بتكرار؛ لأَنَّ المعنى: إِنَّ مع العسر الَّذى أَنت فيه من مقاساة الكفار يُسْراً عاجلاً، إِنَّ مع العسر
=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١).

{ألم نشرح} إستفهام تقرر أَيْ شَرَحْنَا {لَك} يَا مُحَمَّد {صَدْرك} بِالنُّبُوَّةِ وغيرها

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢).

{وَوَضَعْنَا} حَطَطْنَا {عَنْك وِزْرك}.

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣).

{الَّذِي أَنْقَضَ} أَثْقَل {ظَهْرك} وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى {لِيَغْفِر لَك الله مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبك}

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤).

{وَرَفَعْنَا لَك ذِكْرك} بِأَنْ تُذْكَر مَعَ ذِكْرِي فِي الْأَذَان وَالْإِقَامَة وَالتَّشَهُّد وَالْخُطْبَة وَغَيْرهَا.

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥).

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْر} الشِّدَّة {يُسْرًا} سُهُولَة.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦).

{إِنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْرًا} وَالنَّبِيّ ﷺ قَاسَى مِنْ الْكُفَّار شِدَّة ثُمَّ حَصَلَ لَهُ الْيُسْر

=

الَّذى أَنت فيه من الكفار يُسْراً آجلاً، والعسر واحد واليسر اثنان. وعن عمر- رضى الله عنه- لن يغلِب عُسْر يُسْرَيْن. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

بِنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ.

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧).

{فَإِذَا فَرَغْت} مِنْ الصَّلَاة {فَانْصَبْ} اِتْعَبْ فِي الدعاء.

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨).

{وإلى ربك فارغب} تضرع [1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا ينظر إلى جحر بحيال وجهه، فقال: "لو جاءت العسرة حتى تدخل هذا الجحر؛ لجاءت اليُسرة حتى تخرجه"؛ فأنزل الله تبارك وتعالى؛ {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥)}.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٨١ رقم ٢٢٨٨- "كشف")، وابن عدي في "الكامل" (٢/ ٦٩٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٦١)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٢/ ١٤٥ رقم ١٥٢٥)، وأبو نعيم في "أخبار أصبهان" (١/ ١٠٧)، والحاكم (٢/ ٢٥٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٢٠٦ رقم ١٠٠١٢)، وابن النجار؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٥٠) من طريق حميد بن حماد ثنا عائذ بن شريح؛ قال: سمعت أنس به.

والحديث قال عنه البزار: "لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ". وقال الطبراني: "لم يروه عن أنس إلا عائذ". وقال البيهقي: "تفرد به حميد". وقال ابن عدي: "لا أعلم يرويه عن عائذ بن شريح غير حميد بن حماد"، كذا في المطبوع.

وفي المخطوط (ق ٨٠/ ٢)؛ كما في "الضعيفة" (٣/ ٥٩٣): "لا أعلم يرويه عن عائذ غير حميد بن حماد وهو يحدث عن الثقات بالمناكير وهو على قلة حديثه لا يتابع عليه".

=

=

وقال الحاكم: "حديث عجيب، غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: تفرد به حميد بن حماد عن عائذ، وحميد منكر الحديث كعائذ".

وقال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر مقالة البزار السابقة: "قلت: وقد قال فيه -يعني: عائذاً- أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٩): "رواه الطبراني في "الأوسط" والبزار؛ وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف".

وقال العلامة الألباني في "الضعيفة" (٣/ ٥٩٣ رقم ١٤٠٣): "ضعيف جداً".

وهو كما قال.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٥٠) وزاد نسبته لابن مردويه.

وأخرج الطبراني في "المعجم الكبير" (١٠/ ٧٠ رقم ٩٩٧٧) من طريق يزيد بن هارون أنا أبو مالك النخعي عن أبي حمزة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "لو كان العسر في جحر؛ لدخل عليه اليسر حتى يخرجه"، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)}. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: أبو مالك النخعي؛ متروك؛ كما قال الحافظ.

الثانية: أبو حمزة؛ ضعيف.

وضعفه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٩) بالأول، ووقع فيه تحريف يحرر من هنا، وضعفه -أيضاً- السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٥٠) بعد أن زاد نسبته لابن مردويه.

وكذا ضعفه جداً شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الضعيفة" (٣/ ٥٩٣).

وفي الباب عن ابن مسعود والحسن لكن ليس فيها التصريح بسبب النزول.

=

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلثمائة أو يزيدون، علينا أبو عبيدة بن الجراح، ليس معنا من الحمولة إلا ما نركب، فزوّدنا رسول الله ﷺ جرابين من تمر، فقال بعضنا لبعض: قد علم رسول الله ﷺ أين تريدون، وقد علمتم ما معكم من الزاد؛ فلو رجعتم إلى رسول الله ﷺ؛ فسألتموه أن يزودكم، فرجعنا إليه، فقال: "إني قد عرفت الذي جئتم له، ولو كان عندي غير الذي زودتكم لزودتكموه"؛ فانصرفنا، ونزلت: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)}؛ فأرسل نبي الله إلى بعضنا فدعاه، فقال: "أبشروا؛ فإن الله قد أوحى إليّ: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)} ولن يغلب عسر يسرين".
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٥٠) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، أي:"ألم نوسع -أيها النبي- لك صدرك لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق".

وهو استفهام تقرير وامتنان.

قال الشوكاني: "والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة، وحفظ الوحي".
قال ابن قتيبة:"{نَشْرَحْ}: نفتح".

قال ابن الجوزي:"الشرح: الفتح بإذهاب ما يصد عن الإدراك. والله تعالى فتح صدر نبيه للهدى والمعرفة بإذهاب الشّواغل التي تصدّ عن إدراك الحق. ومعنى هذا الإستفهام التقريرُ، أي: فعلنا ذلك".

وفي قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني: أما شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فَسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} [الأنعام: ١٢٥]، وكما

=

شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعًا سمحًا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق. ذكره ابن كثير.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مذكِّره آلاءه عنده، وإحسانه إليه، حاضا له بذلك على شكره، على ما أنعم عليه، ليستوجب بذلك المزيد منه: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ} يا محمد، للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحقّ {صَدْرِكَ} فنلِّين لك قلبك، ونجعله وعاء للحكمة".

قال سهل:"ألم نوسع لك صدرك بنور الرسالة فجعلناه معدنـًا للحقائق".

قال الزجاج:"أي: شرحناه للإسلام".

عن الحسن:"{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}، قال: مُلِئَ حِلمًا وعلمًا".

عن الحسن: "{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}، يعني: بالإيمان".

الثاني: أن المراد شرح صدره ليلة الإسراء، كما في رواية مالك بن صعصعة.

قال ابن كثير:"وهذا وإن كان واقعًا، ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا".

قال ابن العربي:"شرحه حقيقة حسية، وذلك حين كان عند ظئره، وحين أسري به، وشرحه معنى حين جمع له التوحيد في صدره والقرآن، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، وشرحه حين خلق له القبول لكل ما ألقى إليه والعمل به، وذلك هو تمام الشرح وزوال الترح".

عن إبراهيم بن طِهْمان، قال: "سألتُ سعيدًا عن قوله: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}، فحدّثني به عن قتادة، عن أنس قال: شُقّ بطنه من عند صدره إلى أسفل بطنه، فاستُخرِج من قلبه، فغُسل في طَسْتٍ من ذهب، ثم مُلِئَ إيمانًا وحكمة، ثم أُعيد مكانه".

=

=

قال ابن عطية: وذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه.

وقيل: إنه شرح حسي، بما وقع له ﷺ من ذلك مرتين:

وشرح صدر النبي ﷺ يتضمن معاني كثيرة عظيمة :

١- شرح الله صدره للإسلام دينا وشريعة، وهذا أعظم ما يمكن أن ينشرح له الصدر، وهو تفسير ابن عباس، علقه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير / باب سورة الشرح، ص ٩٨٢)

٢- وشرح الله صدر نبيه محمد ﷺ بأن ملأه حكمة وعلما وإيمانا، كما فسره الحسن البصري، ويذكر العلماء في تفسير ذلك حادثة شق صدره ﷺ، والتي تكررت مرتين في حياته ﷺ :

الأولى : كانت وهو صغير في بني سعد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال : هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرئي أثر ذلك المخيط في صدره) رواه مسلم (١٦٢)

الثانية : كانت ليلة الإسراء.

كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : (فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ﷺ ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه) رواه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣)

=

=

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى "فتح الباري" (٧/ ٢٠٤) : "وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء، وقال إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به... وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك، قال القرطبي في "المفهم" : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء ؛ لأن رواته ثقات مشاهير " انتهى.

وقد جاءت حادثة شق الصدر أيضا في بعض الروايات في أوقات أخرى، في عمر العشر سنوات، وعند البعثة، لكنها روايات ضعيفة.

قال الآلوسي: "وقيل : المعنى : ألم نزل همك وغمك بإطلاعك على حقائق الأمور وحقارة الدنيا، فهان عليك احتمال المكاره في الدعاء إلى الله تعالى.

ونقل عن الجمهور أن المعنى : ألم نفسحه بالحكمة ونوسعه بتيسيرنا لك تلقي ما يوحى إليك بعد ما كان يشق عليك".

وقال ابن عاشور: "وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات، وإعلامه برضى الله عنه، وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر".

قال الشيخ ابن عثيمين: "وهذا الشرح شرح معنوي ليس شرحا حسيا، وشرح الصدر أن يكون متسعا لحكم الله ﷻ بنوعيه، حكم الله الشرعي وهو الدين، وحكم الله القدري وهو المصائب التي تحدث على الإنسان " انتهى باختصار.

- قال الرازي: لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب؟

=

=

والجواب: لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال (يوسوس في صدور الناس) فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب

- إن من أعظم نعم الله على العبد أن يشرح الله صدره ويوسعه.

كما قال تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه).

والمعنى: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق، ولهذا قال تعالى بعدها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم.

وقال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء).

قال ابن كثير: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أي ييسره له وينشطه ويسهله، ولذلك فهذه علامات على الخير.

إذا: انشراح الصدر أن يوسع الله قلب الإنسان لقبول أحكام الله وأوامره بالقبول والإذعان والرضا بقضاء الله.

كما قال تعالى ممتنا على نبيه ﷺ: (ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك) شرحنا لك صدرك: أي نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا.

وإن من أعظم علامات الخير أن يوسع وأن يشرح الله صدر الإنسان، ولذلك على المسلم أن يسعى في أن يعرف الأسباب التي تعين على هذا الأمر، ليقوم بها ويطبقها ويعمل بها، ليعيش سعيدا منشرحا صدره، ولا تقلقه الهموم، ولا تزعجه الغموم.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأسباب المعينة على انشراح الصدر، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

=

=

فمنهـا التوحيـد، فـأعظم انـشراح الـصدر التوحيـد، وعلـى حـسب كمالـه وقوتـه وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه.

وصـدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فـإن التوحيـد مـن أعظـم أسـباب ذلـك، فالحيـاة الـسعيدة والراحـة والاطمئنان في التوحيد، وكلما كمل توحيـد الإنسان زادت راحتـه، وصـار عيشه طيبا.

قال تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتـدون) أي الـذين لـم يخلطـوا (إيمـانهم) أي توحيـدهم (بظلـم) أي بـشرك (أولئـك لهـم الأمن) في الدنيا والآخرة (وهم مهتدون) في الدنيا والآخرة.

مهتدون في الـدنيا على طريـق الحـق، سـالمون مـن الـشرك والبدعـة، ومهتـدون في الآخرة لطريق الجنة.

نعم؛ التوحيـد نـور يقذفه الله في قلـب العبـد، ولهـذا لمـا أسـلموا الـصحابة واتبعـوا الرسول ﷺ، كان أحدهم يعذب- كبلال- وتوضـع الـصخرة على جسده ليرجـع عن دينه فلا يرجع، بل يردد: أحد أحد أحـد، إنـه التوحيـد والإيمـان حينمـا تخـالط بشاشته القلوب.

وذلك الصحابي يعذب بأنواع العذاب ولا يرجع عن دينه.

وأولئك السحرة الـذين آمنـوا بـالله مع موسـى، حينمـا دخـل التوحيـد والإيمـان في قلوبهم آمنوا، فتوعدهم فرعون بأنواع العذاب والهلاك (قـال آمنـتم لـه قبـل أن آذن لكم إنـه لكبيـركم الـذي علمكـم الـسحر فلأقطعـن أيـديكم وأرجلكـم مـن خـلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى).

ماذا كان جوابهم، وماذا قالوا؟ أجابوا إجابة المؤمن الموحد الذي يعلم يقينا أن لـه ربا سيجازيه ويعوضـه، أن لـه ربـا وعـد مـن صـبر بالجنـة، فهانـت الـدنيا في نظـرهم فرددوا وقالوا (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا مـن البينـات والـذي فطرنـا فـاقض مـا

=

=

أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى).

فجواب إيماني، جواب من يوقن بالجنة وبالثواب والعقاب (فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).

فمن أراد أن يشرح الله صدره فعليه أن يجتهد في تحقيق التوحيد.

لأن الموحد لا يخشى الفقر، لماذا؟ لأنه يعلم أن الله هو الغني، وهو المعطي، والرزق بيده لا بيد أحد من العالمين.

قال تعالى: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

وقال تعالى: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون). وقال تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد).

فلا يخاف الفقر، ولا يخشى من تخويف الجاهلين (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى رجل منكم، ما نقص من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر).

الموحد لا يبخل بماله، بل ينفقه في طاعة الله، وما يقربه إلى جنات عدن، لماذا؟ لأنه يعلم (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ويعلم أن البخل من وسوسة الشيطان الذي يريد له الشيطان ويخوفه من الفقر، كما قال تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) فلتوحيده يصدق بكلام رب العالمين، ويكذب بتخويف الشيطان الذي هو عدو مبين.

الموحد منشرح الصدر، لأنه يخلص في عبادته، لا يعمل لمدح، ولا لثناء، ولا لشهرة، ولا لمال، ولا لمركز، فهو يعمل لله، ولذلك تجده يعمل الطاعات أمام

=

=

الناس، أو كان لوحده، فلا يبالي بالناس. فهو نشيط في العبادة لوحده أو أمام الناس بخلاف المرائي.

الموحد منشرح الصدر، لأنه يعلم أن ما أصابه من مصيبة أو بلاء أنها من عند الله، وأن قضاء الله كله خير.

في الحديث: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).

يعلم أن المصائب من عند الله، وأن الله أرحم بعباده من المرأة بطفلها، وان هذه المصائب لها حكم، من تكفير للسيئات، ورفع للدرجات، وأهم من ذلك هو الرضا بقضاء الله، فليس للعبد أنفع من الرضا بقضاء الله (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

فالاستسلام لقضاء الله وأوامره وأحكامه من أعظم أسباب انشراح الصدر.

الموحد منشرح الصدر، لماذا؟ لأنه يعلم أن كل شيء في هذا الكون بأمر الله وقدره.

وقد قال تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا.

نعم، فإن العلم الشرعي الموروث عن الرسول ﷺ يشرح الصدر ويفتحه وينوره، كيف لا وهو العلم الذي جاء عن طريق الوحي.

فالعلم الشرعي نور، لأن به يعلم حق الله تعالى فيؤديه، ويعرف المحرمات فيجتنبها، ويعرف عدوه الشيطان ومداخله فيحاربه ويحذر منه، ولذلك: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

=

=

كما قال تعالى: (وقل رب زدني علما) وقال تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ويقول ﷺ: (من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله به طريقا إلى الجنة).

(فبالعلم يعرف المسلم كيف يصلي، وبالعلم يعرف كيف يحج، وبالعلم يعرف الحقوق والواجبات، وبالعلم يعرف ماله وما عليه، وبالعلم يعرف هدي النبي ﷺ في مأكله ومشربه وملبسه وفي كل شؤون حياته فيتبعه، ولهذا نرى من أهل العلم في اتباع النبي ﷺ ما لا نراه عند غيرهم الذين لا يتعلمون.

فرق بين إنسان إذا جاء يصلي طبق صلاة النبي ﷺ وعمل مثلها، وبين إنسان لا يدرسها ولا يتعلمها ففاتته كثير من السنن.

فرق بين إنسان إذا ذهب للحج طبق صفة حجة النبي ﷺ حتى بالمستحبات، وبين إنسان آخر ذهب ليحج ففاتته كثير من السنن والمستحبات [كما هو حال كثير من المسلمين].

فرق بين إنسان يعرف كيف كان النبي ﷺ يأكل وكيف يتوضأ وكيف يغتسل، وبين إنسان لا يعرف ذلك إلا قليلا.

فرق بين إنسان إذا جاء للنوم طبق الذكر الوارد عن النبي ﷺ، وبين إنسان آخر ينام ولا يعرف ما ورد عن النبي ﷺ من الأذكار عند النوم، أليس هذا من الحرمان؟ بلى. فمن حرم العلم حرم خيرا كثيرا، وفاته كثير من السنن والمستحبات.

فالعلم من أعظم أسباب انشراح الصدر، كيف لا يكون كذلك وهو يسمع بالليل والنهار الآيات والأحاديث، كيف لا يكون كذلك وهذه المجالس هي مجالس الملائكة، فيها تتنزل الرحمات، وتغفر الزلات.

=

=

ولهذا نجد العلماء الربانيون المتبعون للكتاب والسنة منشرحة صدورهم، واسعة قلوبهم، مستبشرة وجوههم، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: (من يرد الله به خيرا يفقه في الدين).

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته.

نعم، فإن الإقبال على الله تعالى ومحبته والانشغال بطاعته وحبه من أعظم أسباب انشراح الصدر.

وصدق من قال: إن ذلك ثواب عاجل.

ولهذا كان ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وكان يقول: المحبوس من حبس قلبه عن ربه سبحانه وتعالى، والمأسور من أسره هواه.

وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله ومعرفته وذكره.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فمحبة الله، والإنابة إليه، والسكون إليه، وإفراده بالخوف والرجاء والتوكل هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين.

قال تعالى: (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون). وقال تعالى: (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد).

ومنها: دوام ذكره على كل حال وفي كل موطن.

=

=

نعم، فإن من ذكر الله ذكره الله، والجزاء من جنس العمل (فاذكروني أذكركم).

ولو لم يكن بالذكر إلا هذه وحدها لكفى.

وقد قال تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

وقد هدد الله من قسا قلبه عن ذكر الله فقال: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله).

قال ابن مسعود: اطلب قلبك في ثلاث مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فاسأل الله أن يمدك بقلب فإنه لا قلب لك.

وعمارة القلب بالذكر والخشية، وخرابه بالأمن والغفلة.

ولو لم يكن في الذكر إلا أنه يقضي على القيل والقال، وعلى الكلام الفاحش والباطل.

لأن الإنسان لا بد أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تكلم بالغيبة والنميمة وغيرها.

وقال علي: أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ في المال.

وكان عمر يقول لأبي موسى: ذكرنا ربنا، فيقرأ.

وقال عون بن عبد الله: مجالس الذكر شفاء القلوب.

وقال ميمون: إذا أراد الله بعبده خيرا حبب إليه ذكره.

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان.

وهذا من أعظم أسباب انشراح الصدر، فإن الكريم منشرح الصدر مبسوطا مرتاحا.

=

=

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا للبخيل والمتصدق: (مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت- أو وفرت- على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع). تابعه الحسن عن طاوس في الجبتين.

وهذا جزاء المحسن، كما قال تعالى: (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

وقال تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وأعظم نعمة أن يشرح الله صدر الإنسان.

وقال تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال تعالى: (هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون).

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: جمع بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة الإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة الإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق.

ولهذا لما كان البخيل محبوسا عن الإحسان، ممنوعا عن البر والخير، كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر، ممنوع من الانشراح، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب.

وكان عبد الرحمن بن عوف يطوف بالبيت وليس له دأب إلا هذه الدعوة: رب قني شح نفسي، فقيل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد أفلحت.

ويظهر عيب المرء في الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه

تغط بأثواب السخاء فإنني * أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

يقول ابن القيم: سمعت ابن تيمية يقول: أوحى الله إلى إبراهيم: أتدري لما

=

=

اتخذتك خليلا؟ قال: لا يا رب، قال: لأني رأيت العطاء أحب إليك من الأخذ.

قوله تعالى: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} [الشرح: ٢]، أي:"وحططنا عنك بذلك حِمْلك".

الوزر: الحِمْلُ الثقيل من الإثم، وقد وَزَرَ يَزِر، وهو: وازر، والمفعول: موزور.

والوزير: الذي يسْتَوْزِره الملكُ، فيَستعينُ برأيه، وحالته: الوزارة.

وأوزار الحرب: آلتها، لا تُفرد، ولو أفْرِد لقيل وِزْر، لأن يرجع إلى الحمل الثقيل.

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد والحسين وجمهور المفسرين: الوزر هنا، الذنوب.

وفي قوله تعالى: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} [الشرح: ٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: وغفرنا لك ذنبك، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وشريح الحضرمي.

عن مجاهد:"{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}، قال: ذنبك".

قال شريح بن عبيد الحضرمي:"وغفرنا لك ذنبك".

قال مجاهد:"{وِزْرَكَ} في الجاهلية".

قال قتادة: "كانت للنبيّ ﷺ ذنوب قد أثقلته، فغفرها الله له".

قال ابن زيد:"شرح له صدرَه، وغفر له ذنبَه الذي كان قبل أن يُنَبأ، فوضعه".

قال ابن قتيبة:"«الْوِزْرُ»: الإثمُ في الجاهليَّة".

وروي عن الضحاك: "{وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}، يعني: الشرك الذي كان فيه".

عن الحسن وقتادة:"وحطَطنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية".

قال الزجاج:"أي: وضعنا عنك إثمك أن غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر".

قال الطبري: أي: "وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها".

الثاني: وحططنا عنك ثقلك، قاله السدي.

=

=

وهي في قراءة ابن مسعود، «وحللنا عنك وِقرك».

وقال القرطبي: "أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية، لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً "

وقال ابن جرير: "وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها.

وقال الزجاج: "أي وضعنا عنك إثمك أن غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر " وهذا قول مجمل.

وذكر البغوي وابن كثير في تفسيرهما أن قوله تعالى {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} هي كقوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢]

قال أبو حيان في قوله: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢)}: "كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس".

وذهب قوم إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له.

قوله تعالى: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ} [الشرح: ٣]، أي:"الذي أثقل ظهرك".

قال ابن قتيبة:"أي: "أثقله حتى سُمع نَقِيضُه، أي: صوتُه وهذا مَثَل".

قال الطبري: "يقول: الذي أثقل ظهرك فأوهنه، وهو من قولهم للبعير إذا كان رجيع سفر قد أوهنه السفر، وأذهب لحمه: هو نِقْضُ سَفَر".

عن مجاهد:"{الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}، قال: أثقل"

قال ابن زيد:"أثقله وجهده، كما يُنْقِضُ البعيرَ حِمْلُه الثقيل، حتى يصير نِقضا بعد أن كان سمينا".

قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: ٤]، أي:"وجعلناك -بما أنعمنا عليك من المكارم- في منزلة رفيعة عالية".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: ٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: ورفعنا لك ذكرك بالنبوة، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: ورفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا. حكاه الماوردي.

الثالث: أن تذكر معي إذا ذكرت. قاله مجاهد، قال حسان بن ثابت :

أغَرّ عَلَيه للنبوة خَاتَم... مِنَ الله من نُور يَلوحُ وَيشْهَد

وَضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه... إذا قَالَ في الخَمْس المؤذنُ: أشهدُ

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه ليُجِلَّه... فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ

قال مجاهد:"لا أُذْكَرُ إلا ذُكْرِتَ، معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله".

عن مجاهد:"{ورَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ}، يعني: بالتأذين".

قال الضحاك:"إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي، ولا تجوز خطبة ولا نكاح إلا بذِكرك معي".

عن الحسن:"{ورَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ}، قال: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي".

قال الحسن:"ألا ترى أنّ الله لا يُذكر في موضع إلا ذُكر معه نبيّه!.

عن الحسن:"{ورَفَعنا لَكَ ذِكْرَكَ}، قال: إذا ذُكر الله ذُكر رسوله".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، في الآية، قال: "إذا ذُكر الله ذُكر معه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله".

قال الطبري:"يقول: ورفعنا لك ذكرك، فلا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ معي، وذلك قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

قال سهل:"وصلنا اسمك باسمنا في الأذان والتوحيد، فلا يقبل إيمان العبد حتى يؤمن بك".

=

قال الزجاج:"جعل ذكر رسول الله ﷺ مقرونا بذكر توحيد الله في الأذان وفي كثير مما يذكر الله جل وعز، يقول فيه: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله".

روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتانِي جِبْرِيلُ فَقالَ إنَّ رَبِّي وَرَبكَ يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قال: الله أَعْلَمُ، قال: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكرتَ مَعِي».

عن قتادة، في قوله: "{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، قال النبيّ ﷺ: «ابْدَءُوا بالعُبُودَةِ، وَثَنُّوا بالرسالة»، فقلت لمعمر، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده، فهو العبودة، ورسوله أن تقول: عبده ورسوله".

قال قتادة:"رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله".

والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه، وإخباره ﷺ عن الله ﷻ أن من صلى عليه، واحدة ﷺ بها عشرا، وأمر الله بطاعته كقوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وقوله (وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وغير ذلك.

وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان الصدق، والذكر الحسن، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان....

(فائدة): قال ابن تيمية: وقوله {إن شانئك} أي مبغضك والأبتر المقطوع النسل الذي لا يولد له خير ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ولا عمل صالح. قيل لأبي

بكر بن عياش: إن بالمسجد قوما يجلسون ويجلس إليهم فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه. ولكن أهل السنة يموتون ويحيى ذكرهم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم؛ لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: {ورفعنا لك ذكرك} وأهل البدعة شنئوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: {إن شانئك هو الأبتر} فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئا مما جاء به الرسول ﷺ أو ترده لأجل هواك أو انتصارا لمذهبك أو لشيخك أو اشتغالك بالشهوات أو الدنيا. (مجموع الفتاوى ١٦/ ٢٢٨)

(فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا) بشارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يصاحبه ويقارنه حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه.

قوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥]، أي:"فلا يَثْنِكَ أذى أعدائك عن نشر الرسالة؛ فإن مع الضيق فرجًا".

قال الكلبي: "مَعَ الفقر سعة".

قال مقاتل: "إن مع الشدة الرخاء".

قال مجاهد:"يتبع اليسرُ العُسَر". وفي رواية:"أتْبَع العُسرَ يُسرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإنّ مع الشدّة التي أنت فيها من جهاد هؤلاء المشركين، ومن أوّله ما أنت بسبيله رجاء وفرجا بأن يُظْفِرَكَ بهم، حتى ينقادوا للحقّ الذي جئتهم به طوعا وكَرها".

ومما يروى عن الشافعي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال :

صَبرا جَميلا ما أقرَبَ الفَرجا... مَن رَاقَب الله في الأمور نَجَا

مَن صَدَق الله لَم يَنَلْه أذَى... وَمَن رَجَاه يَكون حَيثُ رَجَا

وقال ابن دُرَيد: أنشدني أبو حاتم السجستاني :

=

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ... وضاق لما به الصدر الرحيبُ

وأوطأت المكاره واطمأنت... وأرست في أماكنها الخطوبُ

ولم تر لانكشاف الضر وجها... ولا أغنى بحيلته الأريبُ

أتاك على قُنوط منك غَوثٌ... يمن به اللطيف المستجيبُ

وكل الحادثات إذا تناهت... فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر:

وَلَرُب نازلة يضيق بها الفتى... ذرعا وعند الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها... فرجت وكان يظنها لا تفرج

قوله تعالى: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٦]، أي:"إن مع الضيق فرجًا".

قال سفيان بن عُيينة: "أي: مع ذلك العُسر يُسرًا آخر، كقوله: {هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ} [التوبة: ٥٢]، ولن يَغلِب عُسرٌ يُسريْن".

وفي تكرار قوله تعالى: {مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]، وجوه:

أحدها: من اجل إفراد «العسر» وتثنية «اليسر» -بدخول الألف واللام على «العسر» وحذفها من «اليسر»-، وذلك ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر، قاله ثعلب.

وفي الحديث: «لن يغلب- إن شاء الله- عسر واحد يسرين أبدا»".

قال ابن عباس:"لا يغلب يسرين عسر واحد".

قال الحسن:"كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين".

قال ابن مسعود: "لو دخل العسر في جُحْر، لجاء اليسر حتى يدخل عليه، لأن الله يقول: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}".

قال الزجاج:"وذلك أن أصحاب النبي ﷺ كانوا في ضيق شديد، فأعلمهم الله أنهم سيوسرون وأن سيفتح عليهم، وأبدلهم بالعسر اليسر".

=

=

قال سهل:"عظم الله تعالى حال الرجاء في هذه الآية بكرمه وخفي لطفه، فذكر اليسر مرتين".

الثاني: المراد: فإن مع العسر يسرا في الدنيا، وإن مع العسر يسرا في الآخرة. حكاه الثعلبي.

الثالث: للإطناب والمبالغة والتغليظ، كما قالوا في تكرار الجواب، فيقال: «بلى بلى»، «لا لا»، قاله الفراء، ومنه قول خنساء :

هَمَمْتُ بنَفْسِيَ كلَّ الهُمُوم... فأَوْلَى لنَفْسِيَ أَوْلَى لها

قال ابن كثير:"أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر، ثم أكد هذا الخبر".

قال الثعلبي:"كرره؛ لتأكيد الوعد، وتعظيم الرجاء".

وفي قراءة عبد الله: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} ،مرة واحدة ليست بمكررة".

قال القرطبي: ثم كرر فقال (إن مع العسر يسرا)، فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كما يقال: ارم ارم، اعجل اعجل؛ قال الله تعالى (كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون) ونظيره في تكرار الجواب: بلى بلى، لا، لا، وذلك للإطناب والمبالغة.

قال ابن عاشور: وجملة (إن مع العسر يسرا) مؤكدة لجملة (فإن مع العسر يسرا) وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب، ومن المقرر أن المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمنه الخبر.

تنبيه: قال بعض العلماء: و "اليسر" مذكور بلفظ التنكير، فدل على أن العسر واحد، واليسر اثنان.

قال ابن مسعود، وابن عباس في هذه الآية: لن يغلب عسر يسرين.

=

=

قال الفراء: العرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها بنكرة صارت اثنتين، كقولك: إذا كسبت درهما فأنفق درهما، فالثاني غير الأول، وإذا أعادتها معرفة، فهي كقولك: إذا كسبت درهما فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأول.

ونحو هذا قال الزجاج: ذكر العسر بالألف واللام، ثم ثنى ذكره، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين.... (زاد المسير).

قال ابن رجب: ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب؛ أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجد الإياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق وحده، ومن انقطع عن التعلق بالخلائق وتعلق بالخالق، استجاب الله له وكشف عنه، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، كما قال الإمام أحمد، والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله تعالى يكفي من توكل عليه كما قال تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئا لأعطاك مولاك كل ما تريد.

قوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} [الشرح: ٧]، أي:"فإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فَجِدَّ في العبادة".

وفي قوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} [الشرح: ٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: فإذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود.

قال مكي:"فيكون هذا -على قوله- منسوخاً بما نسخ قيام الليل".

الثاني: فإذا فَرعت من صلاتك، فانصب إلى ربك في الدعاء، وسله حاجاتك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

عن ابن عباس:"{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}، يقول: في الدعاء".

=

=

قال ابن عباس:"يقول: فإذا فرغت مما فُرض عليك من الصلاة فسل الله، وارغب إليه، وانصب له".

قال مجاهد:"إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك إلى ربك".

عن قتادة:"{فَإِذَا فَرَغْتَ}، من صلاتك، {فَانْصَبْ}، في الدعاء".

قال قتادة:"أمره إذا فرغ من صلاته أن يبالغ في دعائه".

قال عامر الشعبي: "إذا فرغتَ من التشَهُّد فادعُ لدنياك وآخرتك".

قال الضحاك:"يقول: من الصلاة المكتوبة قبل أن تسلِّم، فانصَب".

عن الضحاك قال: "كان ابن مسعود يقول: أيما رجل أحدث في آخر صلاته فقد تمت صلاته، وذلك قوله: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}، قال: فراغك من الركوع والسجود، {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}، قال: في المسألة وأنت جالس".

قال ابن قتيبة:"" {فَإِذَا فَرَغْتَ} من صلاتك، {فَانْصَبْ} في الدعاء، وَارْغَبْ إلى الله".

الثالث: فإذا فرغت من جهادك عدوك فانصب لعبادة ربك، قاله الحسن، وزيد بن اسلم.

قال الحسن: "إذا فرغت من غزوك وجهادك، فتعبد لله تعالى".

قال الحسن:"أمره إذا فرغ من غزوه، أن يجتهد في الدعاء والعبادة".

قال ابن زيد:"إذا فرغت من الجهاد فتعبد".

قال زيد بن اسلم:"فإذا فرغت من الجهاد، جهاد العرب، وانقطع جهادهم، فانصب لعبادة الله {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب}".

الرابع: فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"إذا فرغت من أمر دنياك فانصب، فصّل".

قال مجاهد:"إذا فرغت من أسباب نفسك، فصلّ".

=

=

قال مجاهد:"إذا فرغت من أمر الدنيا، وقمت إلى الصلاة، فاجعل رغبتك ونيتك له".

قال الجصاص:"وهذه المعاني كلها محتملة، والوجه حمل اللفظ عليها كلها فيكون جميعها مرادا، وإن كان خطابا للنبي ﷺ فإن المراد به جميع المكلفين".

قال النحاس:"المعاني في الآية متقاربة، أي: إذا فرغت من شغلك بما يجوز أن تشتغل به من أمور الدنيا أو الآخرة فانصب، أي: انتصب لله تعالى واشتغل بذكره ودعائه والصلاة له، ولا تشتغل باللهو وما يؤثم".

قال ابن العربي:"اتفق الموحدون والمفسرون على أن معناه: إذا فرغت من الصلاة فانصب للأخرى بلا فتور ولا كسل، وقد اختلفوا في تعيينهما...".

على أربعة أقوال:

الأول إذا فرغت من الفرائض فتأهب لقيام الليل.

الثاني: إذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء.

الثالث: إذا فرغت من الجهاد فاعبد ربك.

الرابع إذا فرغت من أمر دنياك فانصب لأمر آخرتك.

ثم قال ابن العربي:"ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية فأنصب بكسر الصاد والهمز في أوله، وقالوا: معناه أنصب الإمام الذي يستخلف؛ وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى؛ لأن النبي ﷺ لم يستخلف أحدا. وقرأها بعض الجهال فانصب بتشديد الباء معناه إذا فرغت من الغزو فجد إلى بلدك.

وهذا باطل أيضا قراءة لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقول النبي ﷺ : «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل الرجوع إلى أهله».

=

=

وأشد الناس عذابا وأسوأهم مآبا ومباء من أخذ معنى صحيحا، فركب عليه من قبل نفسه قراءة أو حديثا، فيكون كاذبا على الله، كاذبا على رسوله، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا". [أحكام القرآن: ٤/ ٤١٢- ٤١٣].

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إن الله تعالى ذكره، أمر نبيه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما أدّى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قرّبه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ، دون حال أخرى".

قال ابن تيمية: (فإذا فرغت فانصب) قيل: إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة وإلى ربك فارغب. وهذا أشهر القولين. وخرج شريح القاضي على قوم من الحاكة يوم عيد وهم يلعبون فقال: ما لكم تلعبون؟ قالوا: إنا تفرغنا قال: أو بهذا أمر الفارغ؟ وتلا قوله تعالى (فإذا فرغت فانصب).

قال ابن كثير قوله: "{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}:"أي: إذا فَرَغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطا فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة. ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»، وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء، فابدءوا بالعَشَاء» ".

وقال السعدي: (فإذا فرغت فانصب) أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء. (وإلى ربك) وحده (فارغب) أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

=

=

قوله تعالى: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [الشرح: ٨]، أي:"وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [الشرح: ٨]، وجوه:

أحدها: فارغب إليه في دعائك. قاله ابن مسعود.

قال عطاء:"تضرع إليه راهبا من النار راغبا في الجنة".

قال السمعاني:"قوله: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} هو الحثّ على الدعاء والمسألة".

الثاني: في معونتك. حكاه الماوردي.

الثالث: في إخلاص نيتك، قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}، قال: إذا قمت إلى الصلاة".

قال مجاهد:"اجعل نيتك ورغبتك إلى الله".

قال مجاهد:"اجعل رغبتك ونيتك إلى ربك".

قال الزجاج:"أي: اجعل رغبتك إلى الله وحده".

قال ابن عطية:"أمر بالتوكل على الله تعالى وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه".

قال مكي:"أي: واجعل رغبتك إلى ربك دون من سواه من خلقه".

قال الطبري: المعنى: "وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه، إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد".

عن أبي حصين، قال: مر شريح برجلين يصطرعان، فقال: «ليس بهذا أمر الفارغ، إنما قال الله تبارك وتعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } [الشرح: ٧- ٨]»، -قال الفراء-:فكأنه في قول شريح: إذا فرغ الفارغ من الصلاة أو غيرها".

=

=

قال ابن العربي: «عن شريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال: ما بهذا أمر الشارع».

وعن الشعبي: "أنه رأى رجلا يشيل حجرا، فقال: ليس بهذا أمر الفارغ".

قال الزمخشري:"وقعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه: من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة".

قال عبد الله بن مسعود: «إني لأمقت الرجل أراه فارغا ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة».

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح: ٥- ٦) يسأل عن وجه التكرير؟

والجواب عنه: أن هذه السورة تضمنت ذكر إنعامه سبحانه على نبيه صلي الله عليه وسلم، ثم اتبعت تلك المنح الجليلة بما تشركه فيه أمته من التأنيس بتيسير ما عرض فيه عسر للمؤمن في أمر دينه ودنياه، فقال تعالى: (فإن مع العسر يسرا)، فبشر عباده بأن العسر يتبعه اليسر، وتأكد ذلك بأن المؤكدة للخبر، وزيد تأكيداً بالتكرير وتوسيع التأنيس بالإشعار الحاصل من تنكير اليسر وتعريف العسر، فإن العرب إذا أعادت الاسم بأداة العهد- وهي الألف واللام- كان المذكور ثانيًا هو المذكور أولاً وسواء كان المذكور أولاً نكرة أو معرفة، تقول: لقيت رجلاً فأكرمت الرجل، إنما تريد الرجل الذي لقيته. فإن قلت: (لقيت) رجلا فأكرمت رجلاً كان الثاني غير الأول، هكذا كلامهم. وقد وقع اليسر في الآية منكراً في الموضعين فأشعر بالتوسعة، ولهذا قيل: "لن يغلب عسر يسرين "، فتحصل من التكرير وتنكير ما نكر توسعة طرف الرجاء والتأنيس، وذلك المناسب لما بنيت عليه السورة، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٨).

سورة التين[(١)]

(١) وفي وقت نزول السوره أقوال:
أحدهما: أنها مكّيّة، قاله الجمهور، منهم الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وهو المشهور من كلام ابن عباس.
قال أبو حيان:"هذه السورة مكية في قول الجمهور".
الثاني: أنها مدنيّة، حكاه الماورديّ عن ابن عباس، وقتادة.
* وآياتها ثمان. وكلماتها أربع وثلاثون. وحروفها مائة وخمسون. وفواصل آياتها (من).
* تسمى «سورة التين» سماها أكثر المفسرين باسم: «سورة التين»، بدون «واو»، لأن فيها لفظ «التين» في أولها، قال تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: ١]، وكما قالوا: «سورة البقرة»، وبذلك عنونها «الترمذي»، والنسائي، وبعض المصاحف.
وسميت أيضا في بعض من كتب التفسير، والمصاحف: «سورة والتين» بإثبات «الواو»، تسمية بأول كلمة فيها، وكما سيأتي في كلام ابن عباس-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-.
وتسمى «والتين والزيتون» وردت هذا الاسم في كلام بعض الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين.
* مقصود السّورة: القَسَم على حُسْنِ خِلْقة الإنسان، ورجوع الكافر إِلى النيران، وإِكرام المؤمنين بأَعظم المَثُوبات الحِسَان، وبيان أَن الله حكيم وأَحكم فى قوله: {أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين}.
* المتشابهات: قوله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، وقال فى البلد {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في كَبَد} لا مناقضة بينهما؛ لأَنَّ معناه عند كثير من المفسّرين: منتصِب القامة معتدِلها، فيكون فى معنى أَحسن تقويم، ولمراعاة الفواصل فى السّورتين جاءَ على ما جاءَ. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١).

{وَالتِّين وَالزَّيْتُون} أَيْ الْمَأْكُولَيْنِ أَوْ جَبَلَيْنِ بِالشَّامِ ينبتان المأكولين.

وَطُورِ سِينِينَ (٢).

{وَطُور سِينِينَ} الْجَبَل الَّذِي كَلَّمَ الله تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى وَمَعْنَى سِينِينَ الْمُبَارَك أَوْ الْحَسَن بِالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَة.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣).

{وَهَذَا الْبَلَد الْأَمِين} مَكَّة لِأَمْنِ النَّاس فِيهَا جاهلية وإسلاما.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤).

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان} الْجِنْس {فِي أَحْسَن تَقْوِيم} تعديل لصورته.

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥).

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ} فِي بَعْض أَفْرَاده {أَسْفَل سَافِلِينَ} كِنَايَة عَنْ الْهَرَم وَالضَّعْف فَيَنْقُص عَمَل الْمُؤْمِن عن زمن الشباب ويكون له أجره بقوله تعالى.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦).

{إِلَّا} لَكِنْ {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَلَهُمْ أَجْر غَيْر مَمْنُون} مَقْطُوع وَفِي الْحَدِيث إِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِن مِنْ الْكِبَر مَا يُعْجِزهُ عَنْ الْعَمَل كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَل

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧).

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{فَمَا يُكَذِّبك} أَيّهَا الْكَافِر {بَعْد} بَعْد مَا ذُكِرَ مِنْ خَلْق الْإِنْسَان فِي أَحْسَن صُورَة ثُمَّ رَدّه إِلَى أَرْذَل الْعُمُر الدَّالّ عَلَى الْقُدْرَة عَلَى الْبَعْث {بِالدِّينِ} بِالْجَزَاءِ الْمَسْبُوق بِالْبَعْثِ وَالْحِسَاب أَيْ مَا يَجْعَلك مُكَذِّبًا بِذَلِكَ وَلَا جاعل له.

أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨).

{أَلَيْسَ الله بِأَحْكَم الْحَاكِمِينَ} هُوَ أَقْضَى الْقَاضِينَ وَحُكْمه بِالْجَزَاءِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي الْحَدِيث مَنْ قَرَأَ وَالتِّين إِلَى آخِرهَا فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا على ذلك من الشاهدين[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله -تعالى-: {وَالتِّينِ}؛ قال: مسجد نوح الذي بني بأعلى الجودي، {وَالزَّيْتُونِ}؛ قال: بيت المقدس {وَطُورِ سِينِينَ (٢)}؛ قال: مسجد الطور {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)}؛ قال: مكة {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)} يقول: يرد إلى أرذل العمر، كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ فسئل رسول الله ﷺ حين تسفهت عقولهم؛ فأنزل الله عذرهم: أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧)} يقول: بحكم الله.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم وابن مردويه في "تفسيرهما"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٥٤) من طريق العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: ١]، أي: أقسم" بالتين والزيتون".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: ١]، على أقوال:

أحدها: أنهما التين والزيتون المأكولان، قاله الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي.

=

=

عن مجاهد:"{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}، قال: الفاكهة التي تأكل الناس".

قال مجاهد، وإبراهيم:"التين الذي يؤكل، والزيتون: الذي يعصر".

قال مجاهد:"هو تينكم وزيتونكم".

قال عكرمة:"تينكم وزيتونكم".

قال عكرمة:"التين: هو التين، والزيتون: الذي تأكلون".

قال الحسن:"تينكم هذا الذي يؤكل، وزيتونكم هذا الذي يُعْصر".

قال الحسن:"التين تينكم، والزيتون زيتونكم هذا".

قال الكلبي:"هو الذي ترون".

الثاني: أن التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس، قاله كعب الأحبار، وابن زيد.

وقال قتادة:"ذُكر لنا أن التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الذي عليه بيت المقدس".

الرابع: أن التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس، قاله الحارث، وابن زيد-أيضا.

قال ابن زيد:"التين: مسجد دمشق، والزيتون، مسجد إيلياء".

الخامس: الجبل الذي عليه التين، والجبل الذي عليه الزيتون، قاله ابن قتيبة، وهما جبلان بالشام يقال لأحدهما طور: زيتا، وللآخر طور: تينـًا، وهو تفسير الربيع.

وقال عكرمة:"هما جبلان".

قال ابن قتيبة:"سمِّيا بالتين والزيتون، لأنهما يُنبِتانهما".

وحكى ابن الأنباري:"أنهما جبلان بين حلوان وهمدان"، قال الماوردي:"وهو بعيد".

السادس: أن التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد ايليا، قاله محمد بن كعب.

=

=

السابع: أن التين: مسجد نوح -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الذي بني على الجودي، والزيتون: مسجد بيت المقدس، قاله ابن عباس.

وقال ابن عباس:"التين والزيتون وطور سينين: ثلاثة مساجد بالشام".

الثامن: أن التين: جبال ما بين حلوان إلى همذان، والزيتون: جبال الشام، حكاه الفرّاء.

قال الفراء: "وسمعت رجلا من أهل الشام وكان صاحب تفسير قال: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان، والزيتون: جبال الشام، {وطور سينين}: جبل".

التاسع: أنه أراد بهما نعم الله تعالى على عباده التي منها التين والزيتون، لأن التين طعام، والزيتون إدام. ذكره الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا: قول من قال: التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تينا، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالتين والزيتون. والمراد من الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهبا، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوّز خلافه، لأن دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون".

قال السعدي: أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قال الشوكاني: (والتين والزيتون) قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس (والزيتون) الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة.

=

=

قال القرطبي: وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان ستر آدم في الجنة؛ لقوله تعالى (يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكان ورق التين.

وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه؛ فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجنى، على قدر المضغة.

وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى (يوقد من شجرة مباركة زيتونة) وهو أكثر أدم أهل الشام والمغرب؛ يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة.

قوله تعالى: {وَطُورِ سِينِينَ} [التين: ٢]، أي:"، وأقسم بجبل «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى تكليمًا".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَطُورِ سِينِينَ} [التين: ٢] أقوال:

أحدها: أنه الجبل. قاله مجاهد، وعكرمة، والكلبي.

قال الكلبي:"هو الجبل ذو الشجر".

عن مجاهد: "{وَطُورِ سِينِينَ}: جبل". وفي لفظ:"الجبل".

قال عكرمة:"طُور: جبل".

عن عكرِمة: "{وَطُورِ سِينِينَ}، قال: سواء علي نبات السهل والجبل".

عن عمرو بن ميمون، قال: "صليت خلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه المغرب، فقرأ في أوّل ركعة: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ}، قال: هو جبل".

الثاني: أنه جبل بالشام، قاله قتادة.

الثالث: أنه الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قاله كعب الأحبار.

قال الزمخشري:"الطور: المكان الذي نودي منه موسى".

=

=

عن كعب:"{وَطُورِ سِينِينَ}، قال: جبل موسى ﷺ-".

عن ابن عباس: "{وَطُورِ سِينِينَ}، قال: هو الطُّور".

وقال ابن زيد:"مسجد الطور".

عن قتادة، عن قزعة، قال: قلت لابن عمر: "إني أريد أن آتي بيت المقدس {وَطُورِ سِينِينَ}، فقال: لا تأت طور سينين، ما تريدون أن تدعوا أثر نبيّ إلا وطئتموه. قال قتادة {وَطُورِ سِينِينَ}: مسجد موسى ﷺ".

وفي قوله: «سينين»، أربعة وجوه:

أحدها: أنه الحسن -بلغة الحبشة-، ونطقت به العرب، قاله الحسن، وعكرمة.

قال عكرمة:"وهي لغة الحبشة، يقولون للشيء الحسن: سِينا سِينا".

قال عكرمة: "الطور: الجبل، والسينين: الحسن، كما ينبت في السهل، كذلك ينبت في الجبل".

قال مقاتل:"يعني: الجبل الحسن وهو بالنبطية، وهو الجبل الذي كلم الله- تعالى- عليه موسى- عليه السلام- يوم أخذ التوراة، وكل جبل لا يحمل الثمر لا يقال له سيناء".

الثاني: أنه المبارك، قاله مجاهد، وقتادة.

قال قتادة:"جبل مبارك بالشام".

قال قتادة:"جبل بالشام، مُبارك حسن".

الثالث: أنه اسم البحر، حكاه ابن شجرة.

الرابع: أنه اسم للشجر الذي حوله، قاله عطية.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: طور سينين: جبل معروف، لأن الطور هو الجبل ذو النبات، فإضافته إلى سينين تعريف له، ولو كان

=

=

نعتا للطور، كما قال من قال معناه حسن أو مبارك، لكان الطور منّونا، وذلك أن الشيء لا يُضاف إلى نعته، لغير علة تدعو إلى ذلك".

قال ابن الجوزي:... فالطور الجبل الذي كلم الله موسى عليه، قاله كعب الأحبار في الأكثرين.

- قال في التسهيل: معنى سينين مبارك، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وقيل: معناه ذو الشجر.

قال الشوكاني: وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله). وأعظم بركة حلت به، ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه السلام.

قوله تعالى: {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ} [التين: ٣]، أي:"وأقسم بهذا البلد الأمين من كل خوف وهي «مكة» مهبط الوحي".

فأقسم الله به لأنه أشرف البقاع وأحبها إلى الله، فهو البلد الأمين الذي يأمن من دخله كما قال تعالى: (ومن دخله كان آمنا) وقال تعالى: (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).

- **قال ابن عاشور**: و (البلد الأمين) مكة، سمي الأمين لأن من دخله كان آمنا.

فأقسم الله تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وانبعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم.

قال الفراء: "مكة، يريد: الآمن، والعرب تقول للآمن. الأمين، قال الشاعر :

أَلَمْ تَعْلَمي يا أَسْمَ وَيحَكِ أَنَّنِي... حَلَفْتُ يمِينا لا أَخُونُ أَمِيني؟

يريد: آمني".

قال مقاتل:"يعني: مكة يأمن فيه كل خائف، وكل أحد في الجاهلية والإسلام ولا تقام فيه الحدود".

=

=

قال الطبري:"يقول: وهذا البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله، أو يغزوهم، وهو مكة".

قال الزمخشري:"مكة: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه".

قال ابن تيمية:... وأيضا فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين. وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين.

عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وإبراهيم: "{وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ}، قال: مكة".

عن كعب، والحسن، وعكرمة: "{وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ}، قال: البلد الحرام".

وقال ابن زيد:"المسجد الحرام".

وقال بعض الأئمة: "هذه مَحَالٌّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا، وهو الذي أرسل فيه محمدا ﷺ-قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء- يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران- وأشرق من سَاعيرَ- يعني بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى- واستعلن من جبال فاران- يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا- فذكرهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما".

=

=

قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]، أي:"لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة".

هذا هو المقسم عليه، وهو أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها.

قال تعالى: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك).

- قال القرطبي: (في أحسن تقويم) وهو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين.

وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء منكبا على وجهه، وخلقه هو مستويا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها.

قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا مدبرا حكيما.

قال الطبري:"وهذا جواب القسم، يقول تعالى ذكره: والتين والزيتون، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم".

قال قتادة:"وقع القسم -ها هنا-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}".

وفي المراد بـ«الإنسان» -ها هنا-، قولان:

أحدهما: أنه أراد عموم الناس، وذكر الإنسان على وجه التكثير لأنه وصفه بما يعم لجميع الناس. وهو قول الجمهور.

الثاني: أنه أراد إنساناً بعينه عناه بهذه الصفة، وإن كان صفة الناس.

واختلف فيمن أراده الله تعالى، على خمسة وجوه:

أحدها: أنه كَلَدَة بن أسيد، قاله ابن عباس.

الثاني: أبو جهل بن هشام، قاله مقاتل.

=

=

والثاني: الوليد بن المغيرة، قاله عطاء.

الرابع: عتبة، وشيبة. حكاه الماوردي.

الخامس: أنه عنى رسول الله ﷺ.

وفي قوله تعالى: {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]، أربعة أقوال:

أحدها: في أعدل خلق، قاله ابن عباس ،.

الثاني: في أحسن صورة، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم، والكلبي.

قال مقاتل:"يعني: يمشي على رجلين وغيره يمشي على أربع، وأحسن التقويم الشباب وحسن الصورة".

الثالث: في أحسن خَلْقٍ. قاله مجاهد، وإبراهيم-أيضا-.

الثالث: في شباب وقوة، قاله ابن عباس-أيضا-"، وعكرمة-أيضا-.

عن عكرمة:"{لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، قال: الشاب القويّ الجَلْد".

عن ابن عباس: "{لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، قال: شبابه أوّل ما نشأ".

الرابع: منتصب القامة، لأن سائر الحيوان مُنْكَبٌّ غير الإنسان، فإنه منتصب، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"خلق كلّ شيء منكبا على وجهه، إلا الإنسان".

قال ابن كثير:"وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سَويّ الأعضاء حسنها".

قال الزمخشري:"في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها؛ لأن قوله: {أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، إنما هو نعت لمحذوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم".

=

=

قال ابن العربي:"ليس لله تعالى خلق هو أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيا عالما، قادرا، مريدا، متكلما، سميعا، بصيرا، مدبرا، حكيما، وهذه صفات الرب، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته»، يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها، وفي رواية: «على صورة الرحمن». ومن أين تكون للرجل صفة مشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني، وقد تكلمنا على الحديث في موضعه بما فيه بيانه".

ثم قال ابن العربي:"قد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي، أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجه حبا شديدا قال لها يوما: أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقني. وبات بليلة عظيمة. ولما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر [وقال: يا أمير المؤمنين، إن تم علي طلاقها تصلفت نفسي غما، وكان الموت أحب إلي من الحياة]؛ وأظهر للمنصور جزعا عظيما، فاستحضر الفقهاء، واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت، إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتا، فقال له المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ١- ٤]. يا أمير المؤمنين، الإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه [فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال؛ فأقبل على زوجك]، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجه أن أطيعي زوجك، ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا و هو أحسن خلق الله ظاهرا جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه؛ ولذلك قالت

=

=

الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات أجمع فيه هذا على الجملة وكيف على التفصيل، بتناسب المحاسن، فهو أحسن من الشمس والقمر بالعينين جميعا. وقد بينا القول في ذلك في كتاب المشكلين، وبهذه الصفات الجليلة التي ركب عليها الإنسان استولى على جماعة الكفران، وغلب على طائفة الطغيان، حتى قال: أنا ربكم الأعلى، وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين وهي: الآية الرابعة بأن جعله مملوءا قذرا، مشحونا نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره".

قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: ٥]، أي:"ثم رددناه إلى النار إن لم يطع الله، ويتبع الرسل".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: ٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ثم رددناه إلى أرذل العمر. قاله ابن عباس، وعكرمة، وإبراهيم.

قال مقاتل:"{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ} بعد الشباب والصورة الحسنة {أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، يعني: من الصورة لأنه يسقط حاجباه، ويذهب شبابه، وعقله، وقوته، وصوته، وصورته، فلا يكون شيئا أقبح منه، وما خلق الله شيئا أحسن من الشباب".

عن عكرِمة: "{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)، قال: الشيخ الهَرِم، لم يضرّه كبرُه إن ختم الله له بأحسن ما كان يعمل".

قال عكرمة:"ردّوا إلى أرذل العمر".

قال قتادة:"رددناه إلى الهِرَم".

عن ابن عباس: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، يقول:"يرّد إلى أرذل العمر، كبر حتى ذهب عقله، وهم نفر رُدّوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فسُئل رسول

=

=

الله ﷺ حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم".

وقال الضحاك: إلى الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة".

قال الماوردي::"ويكون «أسفل»، بمعنى: بعد التمام".

قال ابن قتيبة: "أي: إلى الهرم، والسافلون: هم: الأطفال والزَّمْنَى والهَرْمَى".

قال ابن الجوزي:"والسافلون: هم الضعفاء، والزَّمنى، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعًا".

قال الزمخشري:"ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل: حيث نكسناه في خلقه، فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده وكان بضا، وكلّ

سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه: فمشيه دليف، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خرف ".

الثاني: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة، وذلك إن لم يطع الله ويتبع الرسل. قاله الحسن، ومجاهد، وأبو العالية، وابن زيد، ويكون «أسفل السافلين»: محمولاً على الدرك الأسفل من النار.

ورجح هذا القول: ابن تيمية، وابن كثير، وابن القيم، وابن عاشور.

قال ابن تيمية: وفي قوله (أسفل سافلين) قولان.

قيل: الهرم. وقيل: العذاب بعد الموت.

وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعا. فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين. والناس نوعان: فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين والمؤمن في عليين. وأما القول الأول ففيه نظر. فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين. بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم وكثير من المؤمنين يهرم وإن كان

=

=

حال المؤمن في الهرم أحسن حالا من الكافر فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف.

ورجح هذا القول ابن كثير فقال: (ثم رددناه أسفل سافلين) أي إلى النار، قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم، ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ولهذا قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

عن الحسن: "{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، قال: في النار".

قال الحسن: جهنم مأواه".

قال ابن زيد: "إلى النار".

عن مجاهد: "{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، قال: النار". وفي لفظ: "إلى النار".

عن أبي العالية: "{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، قال: في شرّ صورة في صورة خنزير".

قال ابن كثير: "ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: {إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}".

قال الزجاج: "وقيل إلى الضلال، كما قال ﷻ: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: ٢- ٣]، وهو- والله أعلم- أن خلق الخلق على الفطرة فمن كفر وضل فهو المردود إلى أسفل السافلين.

قال الزمخشري: "ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية: أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا، يعنى: أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة، وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات".

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة، وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: معناه: ثم رددناه إلى أرذل العمر، إلى عمر الخَرْفَى، الذين ذهبت عقولهم من الهِرَم والكِبر، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر وذهاب العقل، وإنما قلنا: هذا القول أولى بالصواب في ذلك؛ لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن خلقه ابن آدم، وتصريفه في الأحوال، احتجاجا بذلك على مُنكري قُدرته على البعث بعد الموت، ألا ترى أنه يقول: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}، يعني: بعد هذه الحُجَج. ومحال أن يحتجّ على قوم كانوا مُنكرين معنى من المعاني بما كانوا له مُنكرين. وإنما الحجة على كلّ قوم بما لا يقدرون على دفعه، مما يعاينونه ويحسُّونه، أو يقرّون به، وإن لم يكونوا له مُحسين. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان القوم للنار- التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة- مُنكرين، وكانوا لأهل الهِرَم والخَرَف من بعد الشباب والجَلَد شاهدين، علم أنه إنما احتجّ عليهم بما كانوا له مُعاينين، من تصريفه خلقه، ونقله إياهم من حال التقويم الحسن والشباب والجلد، إلى الهِرَم والضعف وفناء العمر، وحدوث الخَرَف".

قال ابن كثير:"وقال بعضهم: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، أي: إلى أرذل العمر. رُوي هذا عن ابن عباس، وعكرمة- حتى قال عكرمة: «من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر». واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: ١-٣]".

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦]، أي:"لكن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا منقوص".

=

وللمفسرين في معنى الاستثناء في هذه الآية، قولان:

أحدهما: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى الخَرَف، وأَرْذَل العُمُر وإن عُمِّروا طويلاً، وهذا على القول الأول.

عن عكرِمة، قال: "من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا"." ولا ينزل تلك المنزلة أحد قرأ القرآن وذلك قوله: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا}، الآية. قال: هم أصحاب القرآن".

قال ابن عباس: "من قرأ القرآن لم يُردّ إلى أرذل العمر".

قال ابن عباس:"فأيما رجل كان يعمل عملا صالحا وهو قوي شاب، فعجز عنه، جرى له أجر ذلك العمل حتى يموت".

قال ابن عباس:"يقول: إذا كان يعمل بطاعة الله في شبيبته كلها، ثم كبر حتى ذهب عقله، كُتب له مثل عمله الصالح، الذي كان يعمل في شبيبته، ولم يُؤاخذ بشيء مما عمل في كبره، وذهاب عقله، من أجل أنه مؤمن، وكان يطيع الله في شبيبته".

قال ابن عباس:"هم الذين أدركهم الكبر، لا يؤاخذون بعمل عملوه في كبرهم، وهم هَرْمَى لا يعقلون".

قال عكرمة:"يوفيه الله أجره أو عمله، ولا يؤاخذه إذا رُدّ إلى أرذل العمر".

قال عكرمة:"الشيخ الهرم لم يضرّه كبره إن ختم الله له بأحسن ما كان يعمل".

قال قتادة:"من أدركه الهرم، وكان يعمل صالحا، كان له مثل أجره إذا كان يعمل".

قال إبراهيم:"فإذا بلغ المؤمن إلى أرذل العمر، كُتِبَ له كأحسن ما كان يعمل في شبابه وصحته، فهو قوله: {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}".

قال ابن قتيبة: "أي: إلى الهرم، والسافلون: هم: الأطفال والزَّمْنَى والهَرْمَى".

=

=

وقال ابن قتيبة: المعنى: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا}، فمَن أدركه الهَرَمُ كان له مثلُ أجرِه، إذا كان يعملُ".

قال ابن الجوزي:"لأنّ الله ﷻ يعلم أنه لو لم يسلبهم القوَّة لم ينقطعوا عن أفعال الخير، فهو يجري لهم أجر ذلك".

الثاني: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى النار. وهذا على القول الثاني.

عن مجاهد:"{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا من آمن".

عن معمر، قال: قال الحسن، في قوله: "{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}: في النار {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال الحسن: هي كقوله: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قول من قال: معناه: ثم رددناه إلى أرذل العمر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال صحتهم وشبابهم، فلهم أجر غير ممنون بعد هرمهم، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل، وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة لما وصفنا من الدلالة على صحة القول بأن تأويل قوله: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، إلى أرذل العمر".

قال ابن عاشور: وعطف (وعملوا الصالحات) لأن عمل الصالحات من أحسن التقويم بعد مجيء الشريعة لأنها تزيد الفطرة رسوخا وينسحب الإيمان على الأخلاق فيردها إلى فضلها ثم يهديها إلى زيادة الفضائل من أحاسنها، وفي الحديث: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

فكان عطف (وعملوا الصالحات) للثناء على المؤمنين بأن إيمانهم باعث لهم على العمل الصالح وذلك حال المؤمنين حين نزول السورة فهذا العطف عطف صفة كاشفة.

=

=

وفي قوله تعالى: {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦]، وجوه:

أحدها: معناه: لهم أجر غير منقوص، قاله ابن عباس ،والسدي، ومقاتل، ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا... يعطي بذلك ممنونا ولا ترقا

وقول الآخر :

أَعْطَوْا هُنَيْدَة يَحْدُوها ثَمَانِيَة... ما فِي عَطائِهِمُ مَنٌّ وَلا سَرَف

يعني: أنه ليس فيه نقص، ولا خطأ؟

قال مقاتل:"عني غير منقوص، لا يمن به عليهم، يقول ليس الأجر في الهرم إلا للمؤمنين، وذلك أن المؤمن إذا كبر ومرض كتب له حسناته في كبره وما كان يعمل فى شبابه وصحته لا ينقصه، ولا يمن به عليه، وأما الكافر فإنه إذا شاخ وكبر ختم له بالشرك، ووجبت له النار فيموت والله- تبارك وتعالى- عليه غضبان والملائكة والسموات والأرض".

الثاني: غير محسوب، قاله مجاهد، وإبراهيم، ويحيى بن سلام.

الثالث:: ليس فيه منّ. أي: لا يمتن به عليهم أحد- سوى الله- منة تكدر النعمة عليهم. قاله الحسن، وأبو عبيدة، والزجاج، والنحاس.

وقال الحسن:"غير ممنون عليهم مِن أذًى".

وقال عكرمة:"ولا يمن به عليهم".

قال ابن كثير:"وقال بعضهم: {غَيْرُ مَمْنُونٍ} عليهم، وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما سرمدًا، والحمد لله وحده أبدا؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]".

=

الرابع: غير مقطوع، قاله ابن عباس، والفراء، وابن قتيبة. وعزاه الماوردي لابن عيسى.

قال الفراء:"والعرب تقول: ضعفت منتي عن السفر، ويقال للضعيف: المنين، وهذا من ذلك".

قال أبو عبيدة:"ويجيء أيضا «مَمْنُونٍ»: مقطوع، والحبل المقطوع: ممنون.

قال الزجاج:"قال أهل اللغة: «غير ممنون»: غير مقطوع، يقال: منيت الحبل. إذا قطعته".

الخامس: أجر بغير عمل، قاله الضحاك.

وحكي:"أن من بلغ الهرم كتب له أجر ما عجز عنه من العمل الصالح".

السادس: أن لا يضر كل أحد منهم ما عمله في كبره، قاله ابن مسعود.

قال ابن عاشور: وتنوين (أجر) للتعظيم، والممنون: الذي يمن على المأجور به، أي لهم أجر لا يشوبه كدر، ولا كدر أن يمن على الذي يعطاه بقول: هذا أجرك، أو هذا عطاؤك.

قوله تعالى: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ } [التين: ٧].

أي: أيُّ شيء يحملك -أيها الإنسان- على أن تكذِّب بالبعث والجزاء مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟

اختلف في تفسير الآية الكريمة، على ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه: فمن يكذّبك يا محمد بعد هذه الحجج التي احتججنا بها، بطاعة الله، وما بعثك به من الحقّ، وأن الله يبعث من في القبور؟. حكاه الطبري.

الثاني: معناه: فما يكذّبك أيها الإنسان بعد هذه الحجج بالدين. وهذا قول مجاهد، والكلبي.

=

قال مقاتل:"يعني: عدي ابن ربيعة {بِالدِّينِ}، يعني: بالبعث بعد الصورة الحسنة والشباب، وبعد الهرم، وفيه نزلت هذه الآية".

قال الكلبي:"إنما يعني: الإنسان، يقول: خلقتك في أحسن تقويم، فما يكذّبك أيها الإنسان بعد بالدين".

عن منصور قال: "قلت لمجاهد: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} عنى به النبي ﷺ قال: مَعَاذ الله! عنى به الإنسان".

قيل لمجاهد -من طريق سفيان-: "{فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} و {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١] عُني به النَّبِيّ ﷺ ؟ قال: معاذ الله! إنما عُني بهما الإنسان".

قال ابن كثير:"{فَمَا يُكَذِّبُكَ} يعني: يا ابن آدم {بَعْدُ بِالدِّينِ} ؟ أي: بالجزاء في المعاد وقد علمت البدأة، وعرفت أن من قدر على البدأة، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟".

قال الزمخشري:"هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أي: فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل، يعنى أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء، لأنّ كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأيّ شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبا بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}، والمعنى: أنّ خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشرا سويا وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر: لا ترى دليلا أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله: لم يعجز عن إعادته، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع".

=

=

الثالث: إنما عني بذلك رسول الله ﷺ، وقيل له: استيقن مع ما جاءك من الله من البيان، أن الله أحكم الحاكمين. وهذا قول قتادة.

عن قتادة، قوله: "{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ}، أي: استيقن بعد ما جاءك من الله البيان".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى «ما» معنى «مَنْ»، ووجه تأويل الكلام إلى: فمن يكذبك يا محمد بعد الذي جاءك من هذا البيان من الله بالدين؟ يعني: بطاعة الله، ومجازاته

العباد على أعمالهم. وقد تأوّل ذلك بعض أهل العربية بمعنى: فما الذي يكذّبك بأن الناس يدانون بأعمالهم؟ وكأنه قال: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعد ما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا".

قال الشوكاني: (فما يكذبك بعد بالدين) الخطاب للإنسان الكافر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وإلزام الحجة، أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟

- قال ابن القيم: أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول إنك لا تبعث ولا تحاسب ولو تفكرت في مبدأ خلقك وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقا جديدا وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول وأيضا فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين كيف يليق به أن يتركك سدى لا يكمل ذلك بالأمر والنهي وبيان ما ينفعك ويضرك ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه ويجعل هذه الدار طريقا لك إليها فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقضي خلافه.

=

=

واختلفوا في تفسير قوله تعالى: {بِالدِّينِ} [التين: ٧]، على قولين:
أحدهما: بالحساب. قاله عكرمة.
الثاني: بحكم الله. قاله ابن عباس.
قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: الدين في هذا الموضع: الجزاء والحساب، وذلك أن أحد معانى الدين في كلام العرب: الجزاء والحساب؛ ومنه قولهم: كما تدين تُدان. ولا أعرف من معاني الدين "الحكم" في كلامهم، إلا أن يكون مرادا بذلك: فما يكذّبك بعد بأمر الله الذي حكم به عليك أن تطيعه فيه؟ فيكون ذلك".
قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨].
أي: أليس الله الذي جعل هذا اليوم للفصل بين الناس بأحكم الحاكمين في كل ما خلق؟ بلى. فهل يُترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا يُنهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ لا يصحُّ ذلك ولا يكون.
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أليس الله يا محمد بأحكم من حكم في أحكامه، وفصل قضائه بين عباده؟".
قال ابن كثير: "أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا، ومن عَدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه".
قال مقاتل:"على أن يحكم بينك وبين أهل مكة".
قال السعدي:"فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون".
قال الزمخشري:"وعيد للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله".

=

=

عن ابن عباس: "{فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِينَ} إذ بعثك فيهم نبيًّا، وجمعك على التقوى، يا محمد".

عن سعيد بن جُبير، قال: "كان ابن عباس إذا قرأ: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}، قال: سبحانك اللهمّ، وبلى".

قال قتادة: "ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»".

عن معمر، قال: "كان قتادة إذا تلا: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}، قال: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، أحسبه كان يرفع ذلك؛ وإذا قرأ: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ قال: بلى، وإذا تلا: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}، قال: آمنت بالله، وبما أنزل".

عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: "من قرأ: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فقال: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المرسلات: ٥٠]، فليقل: آمنا بالله، ومن قرأ: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ»، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى".

مسألة: قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسام الله سبحانه وتعالى بالتين {والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣)} [التين: ١ - ٣]، فأقسم- سبحانه- بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

فـ "التين" و"الزيتون": المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما، وهو أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه- سبحانه- أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العبرة فيهما، فإن "التين" فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، لا عجم له،

=

=

وهو على مقدار اللقمة، وهو: فاكهة، وقوت، وغذاء، وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة: الحرارة، والرطوبة. وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب "المفرحات". وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من "البواسير" و"النقرس"، ويؤكل رطبا ويابسا.

وأما "الزيتون" ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمرا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور، وصبغ للآكلين، وطيب، ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باق على ممر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مرادا، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه: عيسى بن مريم، كما أن "طور سينين" مظهر عبده ورسوله وكليمه: موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بـ "البلد الأمين" - وهو مكة - مظهر خاتم أنبيائه ورسله، وسيد ولد آدم.

وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختم بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى: "جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران".

فمجيئه من "طور سيناء" بعثه لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختم بنبوة محمد ﷺ.

وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس

=

=

وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم.

ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس؛ ذكر ذلك مطابقا للواقع، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل؛ ذكرها على الترتيب العقلي، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته؛ فقال: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)} [التين: ٤]؛ أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال، معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب، وصنعه بالمشاهدة في نطفة من ماء. وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله، ولهذا يكررها كثيرا في القرآن لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه، وعلى علمه وحكمته = عنايته بخلقه؛ بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه، ويعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بأسه ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين: منهم من أجاب، ومنهم من أبى = ذكر حال الفريقين، فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين.

والصحيح أنه النار، قاله: مجاهد، والحسن، وأبو العالية.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "هي النار بعضها أسفل من بعض".

وقالت طائفة منهم: قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس.

والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى: أسفل سافلين، لا في لغة، ولا عرف، وإنما

=

=

"أسفل سافلين" هو "سجين" الذي هو مكان الفجار، كما أن "عليين" مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أرذل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصا بالكفار حتى يستثني منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله- سبحانه- لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال تعالى: {ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} [الحج: ٥] فجعلهم قسمين: قسما يتوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه "أسفل سافلين".

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين أجر المؤمنين، وهو- سبحانه- قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرا غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم: -

١- خلو الآية عن جزاء الكفار، وعاقبة أمرهم.

٢- وتفسيرها بأمر محسوس.

فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود والأهم، وأخبر بأمر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه- سبحانه- ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين، أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

=

=

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، أو إخراج الكلام عن ظاهره، والتكلف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين؛ كابروا الحس. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر؛ احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. وهذا- وإن كان حقا- فإن الاستثناء إنما وقع من الرد، لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" بقراء القرآن خاصة، فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر.

وهذا ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم.

الثاني: أنه لا دليل لهم على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه- سبحانه- ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان به، وعبادته وحده لا شريك له، فينقله- حينئذ- من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن بربه، وأشرك به، وعصى رسله؛ نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه، وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)} [الانشقاق: ٢٤، ٢٥]، فالعذاب الأليم هو "أسفل سافلين"، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير

=

=

الممنون هنا هو المذكور هناك، والله أعلم.

وقوله: {غير ممنون (٦)}، أي: غير مقطوع، ولا منقوص، ولا مكدر عليهم. هذا هو الصواب.

وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم. ويذكر هذا عن: عكرمة، ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية.

قال هؤلاء: لأن المنة تكدر النعمة، فتمام النعمة بأن تكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعا، أتي أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل؛ فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة، ولذتها، وطيبها، فإنها منة حقيقية، قال تعالى: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين (١٧) } [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: {ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) } [الصافات: ١١٤، ١١٥]، فكيف تكون منته عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة؟

وقال- تعالى- لموسى: {ولقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) } [طه: ٣٧].

وقال أهل الجنة: {فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧) } [الطور: ٢٧].

وقال تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم} [آل عمران: ١٦٤] الآية.

وقال تعالى: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض} [القصص: ٥].

وفي "الصحيح" أن النبي ﷺ قال- لما قال للأنصار -: "ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟ "؛ وجعلوا يقولون له : "الله

=

=

ورسوله أمن".

فهذا جواب العارفين بالله ورسوله، وهل المنة- كل المنة- إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منته؟

وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه. وأما منة المان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال: إنه لا منة لله على "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" في دخول الجنة؟! وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟!

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال لهم: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم، ولا نمن عليكم بما أعطيناكم.

قيل: وهذا- أيضا- هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنا له، ولا معاوضة عنه، وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال "ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"، فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه- سبحانه- المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعتهم، وبالإعانة عليها = فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة، فإن كان في الدنيا باطل فهذا منه.

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا عبدوه وحده أن لا يعذبهم، وقد أخبر عن نفسه أن حقا عليه نصر المؤمنين؟

=

=

قيل: لعمر الله؛ وهذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه وحده، فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه، وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسع

وقوله سبحانه: {فما يكذبك بعد بالدين} [التين: ٧]، أصح القولين:

أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؛ فتقول: إنك لا تبعث، ولا تحاسب؟! ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على إعادتك بعد موتك، ونشأتك خلقا جديدا من خلقك الأول، وأن ذلك لو أعياه وأعجزه لأعياه وأعجزه خلقك الأول.

وأيضا؛ فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذاتك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا يبعثك لدار هي أكمل من هذه الدار، ويجعل هذه الدار طريقا لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك، وتقتضي خلافه.

قال منصور : قلت لمجاهد: {فما يكذبك بعد بالدين (٧) } عنى به محمدا؟ فقال: "معاذ الله؛ إنما عنى به الإنسان".

وقال قتادة: "الضمير للنبي ﷺ". واختاره الفراء.

وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان:

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب. وكذبته: إذا نسبته إلى الكذب، ولو اعتقدت صدقه. وكذبته: إذا اعتقدت كذبه، وإن كان صادقا.

=

=

قال تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك} [فاطر: ٤]، وقال تعالى: {فإنهم لا يكذبونك} [الأنعام: ٣٣].

فالأول بمعنى: وإن ينسبوك إلى الكذب.

والثاني بمعنى: لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون، ويدفعون الحق بعد معرفته؛ جحودا وعنادا.

هذا أصل هذه اللفظة.

ويتعدى الفعل إلى المخبر بنفسه، وإلى خبره بـ "الباء"، أو بـ "في". فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالا، ومنه قوله تعالى: {بل كذبوا بالحق لما جاءهم} [ق: ٥]، وقوله:

{وكذبوا بآياتنا} [الروم: ١٦].

إذا عرف هذا، فقوله: {فما يكذبك بعد} اختلف في "ما"؛ هل هي بمعنى: أي شيء يكذبك، أو بمعنى: من الذي يكذبك؟

فمن جعلها بمعنى: أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟!

ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك؛ جعل الخطاب للنبي ﷺ.

قال الفراء: "كأنه يقول: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟".

وقال قتادة: "فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟".

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة "ما" مقام "من"، وأمره سهل.

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقا، وهو: يكذبك، أي: فمن يكذبك

=

=

بالدين؟ فلا يخلو: إما أن يكون المعنى: فمن يجعلك كاذبا بالدين، أو: مكذبا به، أو: مكذبا به ؛ ولا يصح واحد منهما.

أما الثاني والثالث: فظاهر؛ فإن "كذبته" ليس معناه : جعلته مكذبا أو مكذبا، وإنما معناه نسبته إلى الكذب، فالمعنى على هذا: فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين.

وهذا إنما يتعدى إليه بـ "الباء" الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب بكذا، وإنما يقال: كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا؛ معناه: كذب المخبر به، ثم حذفوا المفعول لظهور العلم به، حتى كأنه نسي منسي، وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل: من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى: كذبوك بكذا- سواء -، أي : نسبوك إلى الكذب في الإخبار به.

بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب- أي: فاعل التكذيب- فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي: يجعلك مكذبا، والمعروف "كذبه": إذا جعله كاذبا لا مكذبا، مثل "فسقه": إذا جعله فاسقا، لا مفسقا لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن "صدق" و"كذب"- بالتشديد- يراد به معنيان:

أحدهما: النسبة؛ وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم.

والثاني: الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل.

قال الكسائي : "يقال: ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا؛ أي: ما حملك على التصديق والتكذيب".

قلت: وهو نظير: ما جرأك على هذا، أي: ما حملك على الاجتراء عليه. وما قدمك، وما أخرك، أي: ما دعاك وحملك على التقدم والتأخر، وهذا استعمال سائغ في العربية، وبالله التوفيق.

=

سورة العلق(١)

=

ثم ختم السورة بقوله تعالى: {أليس الله بأحكم الحاكمين (٨) } [التين: ٨]، وهذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق حالا بعد حال إلى أكمل أحواله. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟

فلله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها، والله أعلم.

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع. وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء حسبما ثبت في صحيح البخاري وغيره، وروي من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل: {يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل: «أول ما نزل فاتحة الكتاب»، والقول الأول أصح، والترتيب في أخبار النبي ﷺ يقتضي ذلك".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم. وهي أول ما نزل من القرآن. وقيل: إنما أنزل عليه في أول الوحي خمس آيات منها، ثم نزل باقيها في أبي جهل".

* تسمى «سورة العلق» سميت في المصاحف ومعظم التفاسير «سورة العلق»، لوقوع لفظ «العلق» في أوائلها، قال تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ٢]. وتسمى سورة «اقرأ باسم ربك» اشتهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم «سورة اقرأ باسم ربك» وبذلك عنونها الترمذي. وعنونها

=

=

البخاري: «سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق»، وكذلك وردت في بعض كتب التفسير.

وتسمى: «سورة اقرأ»، لوقوع هذا للفظ في أول السورة، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]، وبذلك سماها الماتريدي، ومحمد صديق خان القِنَّوجي، والسعدي في تفاسيرهم.

قال ابن عاشور:"وسماها الكواشي في «التخليص» «سورة: اقرأ والعلق»".

وتسمى «سورة القلم» سميت «سورة القلم»، لوقوع هذا اللفظ في أولها، قال تعالى: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} [العلق: ٤]، وعنونها بها ابن العربي في "أحكام القرآن"، وذكرها ابن الجوزي في "زاد المسير"، وهذا اسم سميت به: «سورة ن»، لكن ميّزت الأخيرة باسم «ن والقلم».

* وآياتها ثمان عشرة فى الشَّامى، وتسع عشرة فى العراقى، وعشرون فى الحجازى. وكلماتها اثنتان وتسعون. وحروفها مائتان وثمانون والمختلف فيها آيتان: (العلق) {عَلَّمَ بالقلم}.

* معظم مقصود السّورة: ابتداءٌ فى جميع الأُمور باسم الخالق الربّ- تعالى- جلَّت عظمته، والمِنَّة على الخَلْق بتعليم الكتابة، والحكمة، والشكايةُ من أَهل الضَّلالة، وتهديد أَهل الكفر والمعصية، وتخويف الأَجانب بالعقوبة، وبشارة السّاجدين بالقُرْبة، فى قوله: {واسجد واقترب}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {اقرأ باسم رَبِّكَ} وبعده: {اقرأ وَرَبِّكَ} وكذلك: {الذي خَلَقَ} وبعده: {خَلَقَ} ومثله {عَلَّمَ بالقلم} و {عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ}؛ لأَنَّ قوله: {اقرأ} مطلق فقيّده بالثَّانى و {والذي خَلَقَ} عام، فخصّه بما بعده: و {عَلَّمَ} مبهم فقال: {عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ} تفسيراً له. ١/ ٥٢٩).

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١).

{اِقْرَأْ} أَوْجِدْ الْقِرَاءَة مُبْتَدِئًا {بِاسْمِ رَبّك الَّذِي خلق} الخلائق.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢).

{خَلَقَ الْإِنْسَان} الْجِنْس {مِنْ عَلَق} جَمْع عَلَقَة وَهِيَ الْقِطْعَة الْيَسِيرَة مِنْ الدَّم الْغَلِيظ.

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣).

{اِقْرَأْ} تَأْكِيد لِلْأَوَّلِ {وَرَبّك الْأَكْرَم} الَّذِي لَا يُوَازِيه كَرِيم حَال مِنْ الضَّمِير فِي اِقْرَأْ.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤).

{الَّذِي عَلَّمَ} الْخَطّ {بِالْقَلَمِ} وَأَوَّل مَنْ خَطَّ بِهِ إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥).

{عَلَّمَ الْإِنْسَان} الْجِنْس {مَا لَمْ يَعْلَم} قَبْل تَعْلِيمه مِنْ الْهُدَى وَالْكِتَابَة وَالصِّنَاعَة وَغَيْرهَا[٢].

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أنها قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى =

=

جاءه (وفي رواية: فجئه) الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه؛ فقال: "اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني؛ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية؛ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} الآيات"، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: "زملوني زملوني"؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت له خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً؛ فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي -وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي-، فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: "أوَ مخرجي هم؟ " قال: نعم؛ لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي -وفي رواية: أوذي- وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

أخرجه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).

=

=

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: إن أول ما نزل من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٢)، والحاكم (٢/ ٢٢٠، ٢٢١ رقم ٥٢٩)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ١٥٥) من طرق عن سفيان بن عيينة عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقلنا: وقد وهما في هذا؛ فإن مسلماً لم يخرج له في الأصول بل في المتابعات والشواهد.

وقال البيهقي: "هذا إسناد صحيح". قلت الحديث صحيح بما قبله.

وعن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي: أنه سمع بعض علمائهم يقول: كان أول ما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} إلى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)}؛ فقالوا: هذا صدرها الذي أنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حراء، ثم أنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ١٥٧) من طريق يعقوب بن سفيان ثنا أبو صالح ثني الليث بن سعد ثني عقيل عن الزهري عن محمد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد، وأما ما يخشى من ضعف أبي صالح عبد الله بن صالح؛ فإن الراوي عنه هو الفسوي، وهو من أهل الحذق والدراية؛ فهي من صحيح حديث عبد الله.

وعن الزهري في قوله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)} [المدثر: ١]؛ قال: فتر الوحي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فترة، قال: وكان أول شيء أنزل عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

=

=

خَلَقَ (١)} حتى بلغ {مَا لَمْ يَعْلَمْ}، فلما فتر عنه الوحي؛ حزن حزناً شديداً؛ حتى جعل يغدو مراراً إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها، فكلما أوفى بذروة جبل؛ تبدّى له جبريل، فيقول: "إنك نبي الله حقاً"؛ فيسكن بذلك جأشه وترجع إليه نفسه.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٢٧) والبخاري في "صحيحه" (١٢) عن معمر عن الزهري به. وهذا مرسل رجاله ثقات رجال الصحيح.

وعن أبي رجاء العطاردي؛ قال: أخذت من أبي موسى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} وهي أول سورة أنزلت على محمد ﷺ. وفي رواية قال: كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد مسجد البصرة يقعد حلقاً، فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين يقرئني القرآن ومنه أخذت هذه السورة {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}، قال أبو رجاء: فكانت أول سورة أنزلت على محمد رسول الله ﷺ.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٠/ ٥٤٢ رقم ١٠٢٦٩، ١٤/ ٨٨ رقم ١٧٦٦٤)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٢)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والحاكم (٢/ ٢٢٠) من طرق عن قرة بن خالد عن أبي رجاء به.

وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات؛ لكنه مرسل، يوضح هذا الرواية الأخرى التي ذكرنا، لكن تقدم له شاهد من حديث عائشة؛ فالحديث بمجموعهما حسن -إن شاء الله- على أقل الأحوال، وسيأتي له شاهدان مرسلان عن مجاهد وعبيد بن عمير.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. لكنه مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٠) وزاد نسبته لابن الضريس وابن الأنباري في "المصاحف" والطبراني وابن مردويه.

=

=

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أول ما نزل من القرآن بمكة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن مردويه.

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٧/ ١٤٣، ١٤٤) من طريق عبد العزيز بن عبد الرحمن ثنا خصيف عن مجاهد عن ابن عباس. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: خصيف؛ ضعيف.

الثانية: وعبد العزيز هذا؛ ضعيف -أيضًا-

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أول شيء أنزل من القرآن خمس آيات: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} إلى قوله {مَا لَمْ يَعْلَمْ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٢) ونسبه لابن المنذر وابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: أول ما نزل من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} ثم: {ن}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٠/ ٥٤١ رقم ١٠٢٦٦، ١٤/ ٨٨ رقم ١٧٦٦٥)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٢، ١٦٣) من طرق عن الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن عبيد بن عمير؛ قال: أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}.

=

=

أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٤١ رقم ١٠٢٦٨، ١٤/ ٨٨ رقم ١٧٦٦٢-١٧٦٦٣)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٢) عن شعبة، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٨٥) عن ابن عيينة، كلاهما (شعبة، وابن عيينة)، عن عمرو بن دينار، عن عبيد به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أول سورة أنزلت على محمد: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٢) ونسبه لابن المنذر.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كان أول ما نزل عليه بعد {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} {ن وَالْقَلَمِ} و {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)} و {وَالضُّحَى (١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن الأنباري في "المصاحف".

وعن عطاء بن يسار؛ قال: أول سورة نزلت من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٢). وسنده ضعيف جداً.

* قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]، أي:"اقرأ -أيها النبي- ما أُنزل إليك من القرآن مُفْتَتِحًا باسم ربك المتفرد بالخلق".

يأمر تعالى رسوله أن يقرأ بادئا قراءته بذكر اسم ربه (الذي خلق) أي خلق الخلق كله، فلم يذكر مفعول (خلق) ليعم كل شيء كما قال تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا).

قال الطبري:"يقول: اقرأ يا محمد بذكر ربك {الَّذِي خَلَقَ}... وقيل: إن هذه أوّل سورة نزلت في القرآن على رسول الله ﷺ".

قال الفراء:"هذا أول ما أنزل على النبي ﷺ من القرآن".

=

=

قال مجاهد:"أوّل ما نزل من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}، وزاد ابن مهدي: و {ن وَالْقَلَمِ}".

قال مجاهد:"إن أوّل سورة أُنزلت: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، ثم {ن وَالْقَلَمِ}".

قال أبو رجاء العُطارديّ: "كنا في المسجد الجامع، ومقرئنا أبو موسى الأشعري، كأني أنظر إليه بين بُردين أبيضين؛ قال أبو رجاء: عنه أخذت هذه السورة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وكانت أوّل سورة نزلت على محمد".

عن عطاء بن يسار، قال: أوّل سورة نزلت من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}".

عن عمرو بن دينار، قال: سمعت عبيد بن عمير، يقول: "أول سورة أنزلت على النبي ﷺ: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} [العلق: ١]".

قال ابن الجوزي: وإنما قال تعالى (الذي خلق) لأن الكفار كانوا يعلمون أنه الخالق دون أصنامهم.

والله ﷻ دائما يبين على استحقاقه للعبادة بأنه الخالق وأن الآلهة التي يعبدها المشركون لا تستطيع الخلق.

كما قال تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون).

وقال تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب).

وقال تعالى: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين). وقال تعالى: (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون).

وقال تعالى: (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض).

=

=

عن عروة، عن عائشة أنها قالت:"كان أوّل ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة؛ كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله: "فَجَثَوْتُ لِرُكْبَتيَّ وأنا قائِمٌ، ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجُفُ بَوَادِرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلى خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، حتى ذَهَبَ عنِّي الرَّوْعُ، ثُمَّ أتانِي فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أنا جِبْرِيُل وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، قال: فَلَقَدْ هَمَمْت أنْ أطْرَحَ نَفسِي مِنْ حالِقٍ مِنْ جَبَلٍ، فَتَمَثَّل إليَّ حِينَ هَمَمْتُ بذلكَ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أنا جِبْرِيلُ، وأنْتَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قالَ: اقْرأ، قُلْتُ: ما أقْرأ؟ قال: فأخَذَنِي فَغطَّنِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ، حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، فَقَرأتُ، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقَلْتُ: لَقَدْ أشْفَقْتُ عَلى نَفْسِي، فأخْبَرْتُها خَبري، فَقالَتْ: أبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ الله أبدًا، وَوَاللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الأمانَةَ، وَتحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلى نَوَائِبِ الْحَقّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِي إلى وَرَقَةَ بنِ نَوْفَل بنِ أسَدٍ، قالَتْ: اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أخِيكَ، فَسأَلَنِي، فأخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقالَ: هَذا النَّامُوسُ الَّذِي أُنزلَ عَلَى مُوسَى ﷺ، لَيْتَنِي فِيها جَذَعٌ، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قُلْتُ: أوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟ قال: نَعَمْ، إنَّهُ لَمْ يَجِئْ رَجُلٌ قَطّ بِمَا جِئْتَ بِهِ، إلا عُودِيَ، وَلَئِنْ أدْرَكَنِي يَوْمُك أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ كانَ أوَّل ما نزلَ عَليَّ مِنَ القُرْآنِ بَعْدَ: {اقرأ}: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لأجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ}، و {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ}، {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}".

قوله تعالى: {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ٢]، أي:"الذي خلق كل إنسان من قطعة دم غليظ أحمر".

=

=

قال الطبري:"يعني: من الدم".

أي: خلق الإنسان البديع الشكل الذي هو أشرف المخلوقات من العلقة، وهي قطعة من الدم غليظة كانت في الأربعين يوما الأولى في الرحم، ثم تطورت إلى علقة تعلق بجدار الرحم.

المراد بالإنسان هنا: بنو آدم، ولا يدخل فيهم آدم عليه السلام .

قال ابن جزي: "ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين".

وهذا تخصيص بعد تعميم، لشرف الإنسان من بين سائل المخلوقات.

قال القرطبي: "خص الإنسان بالذكر تشريفا له".

قال الخازن: وإنما خص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لأنه أشرفها، وأحسنها خلقه

- وقال ابن عاشور: وخص خلق الإنسان بالذكر من بين المخلوقات لأنه المطرد في مقام الاستدلال؛ إذ لا يغفل أحد من الناس عن نفسه ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده، ولذلك قال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وفيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم.

- قال الماوردي: ويحتمل مراده بذلك وجهين:

أحدهما: أن يبين قدر نعمته على الإنسان بأن خلقه من علقة مهيئة حتى صار بشرا سويا وعاقلا متميزا.

الثاني: أنه كما نقل الإنسان من حال إلى حال حتى استكمل، كذلك نقلك من الجهالة إلى النبوة حتى تستكمل محلها.

=

=

قوله تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} [العلق: ٣]، أي:"قرأ -أيها النبي- ما أُنزل إليك، وإن ربك لكثير الإحسان واسع الجود، فهو العظيم الكريم، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم، وقد دل على كرمه أنه علم العباد ما لم يعلموا".

قال الطبري:"يقول: اقرأ يا محمد وربك الأكرم".

قال السعدي:"أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم".

قال محمد بن السّائِب الكلبي: "{اقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكْرَمُ}، يعني: الحليم عن جهل عباده، فلا يعجل عليهم بالعقوبة".

قوله تعالى (الأكرم) الذي يفعل الشيء ولا ينتظر الشيء ولا ينتظر المقابل، كذا فسره بعض العلماء، يفعل المعروف ولا ينتظر جزاء من أحد.

" الأكرم": كثير الكرم، واسع الإحسان إلى خلقه.

- والكرم كثرة الخير، والخير كله منه ﷻ، كما قال ﷺ: (والخير كله بيديك). فالأكرم من أسماء الله الحسنى.

- قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"هو أكرم الأكرمين، لا يوازيه كريم ، ولا يعادله فيه نظير، وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم.

- وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"الأكرم: صفة تدل على المبالغة في الكرم، إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى، ويحلم على الجاني، ويقبل التوبة، ويتجاوز عن السيئة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"الله سبحانه غنى كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه قوة، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه.

=

=

- قال الخازن: وغاية الكريم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عينا بل المدح والثواب عوض والله سبحانه وجل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يتعالى عن طلب العوض ويستحيل ذلك في وصفه لأنه أكرم الأكرمين، وقيل الأكرم هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان وقيل هو الحليم عن جهل العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة.

ومن كرمه العظيم أن أنزل القرآن الكريم، وبعث محمدا نعمة على العباد، ورحمة للعالمين.

وهذا الامتنان ذكر في سورة أخرى، قال سبحانه (خلق الإنسان. علمه البيان) فالبيان بيانان: بيان بالقلم، وبيان باللسان، فالأشياء التي تبين بها ما في نفسك وما في صدرك إما بالقلم وإما باللسان، ويلتحق بذلك الإشارات.

قوله تعالى: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} [العلق: ٤]، أي:"الذي علَّم خلقه الكتابة بالقلم".

قال الزجاج:"أي: الذي علم الكتابة".

قال الطبري: يعني:"خَلْقَهُ للكتابة والخط".

قال الشوكاني: قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم، وقال قتادة: القلم نعمة من الله ﷻ عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش.

فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده مالم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين، ولا أمور الدنيا، وسمي قلما لأنه يقلم أي: يقطع.

=

=

فالتعليم بالقلم منة من الله على خلقه، أما الوارد في الأحاديث في النهي عن تعلم الإنسان الكتابة فهي ضعيفة جدا، بل بعضها موضوع.

وأعظم وسيلة للعلم هي القلم.

قال السعدي:"فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم. فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلا للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق".

عن قتادة: "{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، قرأ حتى بلغ: {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}، قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم، ولم يصلح عيش".

قوله تعالى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٥]، أي:"علَّم الإنسان ما لم يكن يعلم، ونقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم".

قال الطبري:"علَّم الإنسان الخطّ بالقلم، ولم يكن يَعْلَمُهُ، مع أشياء غير ذلك، مما علمه ولم يكن يعلمه".

عن قتادة: "{عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، قال: الخط".

قال ابن زيد:"علَّم الإنسان خطا بالقلم".

قال ابن جزي: (علم الإنسان ما لم يعلم) يحتمل أن يريد بهذا التعليم لكل شيء على الاطلاق، وقيل: لأن الإنسان هنا سيدنا محمد ﷺ والأظهر أنه جنس الإنسان على العموم.

كما قال تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون).

=

=

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ. قال «ما أنا بقارئ». قال «فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ. قلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم)». فرجع بها رسول الله ﷺ ...) متفق عليه.

عن عبد الله بن عمرو، قال: "قلتُ: يا نبي الله، أكتب ما أسمع منك مِن الحديث؟ قال: «نعم، فاكتب، فإنّ الله علَّم بالقلم»".

عن علي رضي الله عنه، أنه قال:"يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق عمله علمه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم يجلسون حلقا فيباهى بعضهم بعضا حتى إن أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالستهم تلك إلى الله".

* قال ابن كثير:"فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلّم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال:

=

=

{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، وفي الأثر: «قيدوا العلم بالكتابة». وفيه أيضا: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم»".

قال ابن القيم: إن أول سورة أنزلها الله في كتابه القلم، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم، فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم) فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموما فقال الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة فهي مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإن الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو موليها والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقا، ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصا فقال: (الذي علم بالقلم) فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا فقال: (علم الإنسان ما لم يعلم) فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة:

إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله (خلق).

المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الإنسان ما لم يعلم).

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله (الذي علم بالقلم) واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع

=

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦).

{كَلَّا} حَقًّا {إِنَّ الْإِنْسَان لَيَطْغَى}.

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧).

{أَنْ رَآهُ} أَيْ نَفْسه {اِسْتَغْنَى} بِالْمَالِ نَزَلَ فِي أبي جهل ورأى عملية وَاسْتَغْنَى مَفْعُول ثَانٍ وَأَنْ رَآهُ مَفْعُول لَهُ.

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨).

{إِنَّ إِلَى رَبّك} يَا إِنْسَان {الرُّجْعَى} أَيْ الرُّجُوع تَخْوِيف لَهُ فَيُجَازِي الطَّاغِي بِمَا يَسْتَحِقّهُ.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩).

{أَرَأَيْت} فِي الثَّلَاثَة مَوَاضِع لِلتَّعَجُّبِ {الَّذِي يَنْهَى} هُوَ أَبُو جَهْل.

عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠).

{عَبْدًا} هُوَ النَّبِيّ ﷺ {إِذَا صَلَّى}.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١).

{أَرَأَيْت إِنْ كَانَ} الْمَنْهِيّ {عَلَى الْهُدَى}.

أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢).

=

التصور، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو الخالق المعلم، وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد، وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبقدره وخلقه وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

{أَوْ} لِلتَّقْسِيم {أَمَرَ بِالتَّقْوَى}.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣).

{أَرَأَيت إِنْ كَذَّبَ} أَيْ النَّاهِي النَّبِيّ {وَتَوَلَّى} عن الإيمان.

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى (١٤).

{أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يَرَى} مَا صَدَرَ مِنْهُ أَيْ يَعْلَمهُ فَيُجَازِيه عَلَيْهِ أَيْ اِعْجَبْ مِنْهُ يَا مُخَاطَب مِنْ حَيْثُ نَهْيه عَنْ الصَّلَاة وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمَنْهِيّ عَلَى الْهُدَى آمِر بِالتَّقْوَى وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ النَّاهِي مُكَذِّب مُتَوَلٍّ عَنْ الْإِيمَان.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥).

{كَلَّا} رَدْع لَهُ {لَئِنْ} لَام قَسَم {لَمْ يَنْتَهِ} عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْر {لَنَسْفَعًا بالناصية} لنجرن بِنَاصِيَتِهِ إِلَى النَّار.

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦).

{نَاصِيَة} بَدَل نَكِرَة مِنْ مَعْرِفَة {كَاذِبَة خَاطِئَة} وَصَفَهَا بِذَلِكَ مَجَاز وَالْمُرَاد صَاحِبهَا.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧).

{فَلْيَدْعُ نَادِيه} أَيْ أَهْل نَادِيه وَهُوَ الْمَجْلِس يُنْتَدَى يَتَحَدَّث فِيهِ الْقَوْم وَكَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لما انتهزه حَيْثُ نَهَاهُ عَنْ الصَّلَاة لَقَدْ عَلِمْت مَا بِهَا رَجُل أَكْثَر نَادِيًا مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ عَلَيْك هَذَا الْوَادِي إِنْ شِئْت خَيْلًا جُرْدًا وَرِجَالًا مردا.

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨).

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة} الْمَلَائِكَة الْغِلَاظ الشِّدَاد لِإِهْلَاكِهِ كَمَا فِي الْحَدِيث لَوْ دَعَا نَادِيه لَأَخَذَتْهُ الزَّبَانِيَة عيانا.

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩).

{كَلَّا} رَدْع لَهُ {لَا تُطِعْهُ} يَا مُحَمَّد فِي تَرْك الصَّلَاة {وَاسْجُدْ} صَلِّ لِلَّهِ {وَاقْتَرِبْ} منه بطاعته(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل؛ فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني؛ فأنزل الله ﷻ: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)}؛ فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله.

أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٤٩)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٥٣٥، ٥٣٦ رقم ٧٠٤)، وأحمد (١/ ٢٥٦، ٣٢٩) وابنه عبد الله في "زوائد المسند" (١/ ٢٥٦)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٣)، و"الوسيط" (٤/ ٥٣٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٢٩٨ رقم ١١٨١٤١) من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد صحيح. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب صحيح".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٩): "في "الصحيح" بعضه، ورجال أحمد رجال الصحيح". وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٤) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي.

وهو في البخاري (رقم ٤٩٥٨) من طريق عبد الكريم الجزري عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة؛ لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ، فقال: "لو فعله؛ لأخذته الملائكة".

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٣، ١٦٤): ثني إسحاق بن شاهين ثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عكرمة عن ابن عباس؛ قال: كان رسول الله ﷺ =

=

يصلي، فجاءه أبو جهل فنهاه أن يصلي؛ فأنزل الله: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى} إلى قوله: {كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}.

وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وعنه -أيضًا- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي إلى القبلة؛ لأقتلنَّه، فعاد؛ فأنزل الله ﷻ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} إلى قوله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)} فلما قيل لأبي جهل: إنه قد عاد؛ قال: لقد حيل ما بيني وبينه، قال ابن عباس: والله لو تحرك؛ لأخذته الملائكة والناس ينظرون.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٥)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٨/ ٢٠١ رقم ٨٣٩٨) من طريقين عن يونس بن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث عن ابن عباس به.

وهذا سند حسن على شرط مسلم، وفي يونس كلام لا ينزله عن رتبة الحسن.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٩): "رواه الطبراني في "الأوسط"؛ وفيه موسى بن سهل الوشاء وهو ضعيف!!".

وموسى بن سهل شيخ الطبراني المذكور هو أبو عمر الجوني البصري وهو ثقة حافظ، وليس هو ابن سهل الوشاء كما قال الهيثمي، كما أن الوشاء هذا ليس من شيوخ الطبراني.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٦٤) وزاد نسبته لأبي نعيم في "الدلائل".

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟، قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك؛ لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له:

=

=

ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: "لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً"، قال: فأنزل الله ﷻ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) يعني: أبا جهل {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)}؛ يعني: قومه {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ٢١٥٤، ٢١٥٥ رقم ٢٧٩٧).

وعن قتادة: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)}: ذكر لنا أنها نزلت في أبي جهل، قال: لئن رأيت محمداً يصلي؛ لأطأن على عنقه؛ فأنزل الله: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)}؛ قال: قال نبي الله ﷺ حين بلغه الذي قال أبو جهل؛ قال؛ "لو فعل؛ لاختطفته الزبانية".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٦)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٨٤) من طريق سعيد بن أبي عروبة ومعمر كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات، ويشهد له ما سبق.

* قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦ - ٧].

(كلا) كلمة زجر وردع، وقيل: بمعنى حقا. (إن الإنسان ليطغى) يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، ويتجاوز الحلال إلى الحرام، والحق إلى الباطل، وسبب ذلك:

(أن رآه استغنى) أي: من أجل أن رأى نفسه غنيا واضح ذا ثروة ومال وأشر وبطر.

قال ابن قتيبة:"أي: يَطغى أنْ رأى نفسَه استغنَى".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان أن يُنْعِم عليه ربُّه بتسويته خَلقه، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وإنعامه بما لا كُفءَ له، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك، ويطغى عليه، لأن رأى نفسه استغنت".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله".

قال محمد بن السّائِب الكلبي: "{إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغى أنْ رَآهُ اسْتَغْنى}، يعني: يرتفع مِن منزلة إلى منزلة".

عن السدي: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى}، قال: "ليرتفع من منزلة إلى منزلة".

عن ابن عباس:"{أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}، أي: عن ربه".

قال الحسن: "{كَلّا} معناها: حقًّا".

قال عمر مولى غُفْرة: "إذا سمعت الله يقول: «كلا»، فإنما يقول: كذبت".

قال ابن عطية:"{كَلَّا}: هي ردّ على أقوال أبي جهل وأفعاله، ويتجه أن تكون بمعنى: حقا، فهي تثبيت لما بعدها من القول، والطغيان: تجاوز الحدود الجميلة، والغني: مطغ إلا من عصم الله والضمير في رَآهُ للإنسان المذكور، كأنه قال: أن رأى نفسه غنيا، وهي رؤية قلب تقرب من العلم".

قال السعدي:"ولكن الإنسان -لجهله وظلمه- إذا رأى نفسه غنيًا، طغى وبغى وتجبر عن الهدى".

والتعريف في (الإنسان) للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه.

كما قال تعالى: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه).

=

=

وقال تعالى: (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنيا عن الناس.

وقال تعالى: (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور).

وقال تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (التغابن:١٥)

وقال تعالى: (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله).

وفرعون لما أغناه الله وملكه مصر قال: (يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون).

وقارون لما أنعم الله عليه قال: (إنما أوتيته على علم عندي).

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالا جحدا نعم الله عليهما.

عن عمرو بن عوف وهو حليف بني عامر بن لؤي وكان شهد بدرا مع رسول الله ﷺ أخبره (أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين بمال من البحرين وسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين، فقالوا أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم). متفق عليه.

وقال ﷺ: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه).

=

=

- **قال ابن عاشور**: وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقا حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاحح وخدمم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه، فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس.

ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس.

- قال ابن رجب: هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاربين باتا في الغنم، قد غاب عنها رعاؤها ليلا، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

- قال الرازي: أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها على مذمة المال، وكذا بذلك مرغبا في الدين والعلم، ومنفرا عن الدنيا والمال.

والتعريف في (الإنسان) للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه.

كما قال تعالى: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه).

=

=

وقال تعالى: (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنيا عن الناس.

وقال تعالى: (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور).

وقال تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (التغابن:١٥)

وقال تعالى: (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله).

وفرعون لما أغناه الله وملكه مصر قال: (يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون).

وقارون لما أنعم الله عليه قال: (إنما أوتيته على علم عندي).

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالا جحدا نعم الله عليهما.

عن عمرو بن عوف وهو حليف بني عامر بن لؤي وكان شهد بدرا مع رسول الله ﷺ أخبره (أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين بمال من البحرين وسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين، فقالوا أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم). متفق عليه.

وقال ﷺ: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه).

=

=

- **قال ابن عاشور**: وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقا حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاحح وخدمم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه، فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس.

ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس.

- قال ابن رجب: هذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاربين باتا في الغنم، قد غاب عنها رعاؤها ليلا، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

- قال الرازي: أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها على مذمة المال، وكذا بذلك مرغبا في الدين والعلم، ومنفرا عن الدنيا والمال.

قوله تعالى: {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} [العلق: ٦].

أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيما صرفته. والآية تهديد ووعيد لهذا الطاغية.

عن الضحاك: {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}، قال: "المنتهى".

=

=

قال أبو عبيدة:" {الرُّجْعى} : المرجع، والرجوع".
قال ابن عطية:" {الرُّجْعى} ، أي: الحشر والبعث يوم القيامة".
قال الطبري:"يقول: إن إلى ربك يا محمد مَرْجِعَه، فذائق من أليم عقابه ما لا قبل له به".
قال ابن كثير:"ثم تَهدده وتوعده ووعظه فقال: {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} ، أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيم صرفته؟".
قال السعدي:"ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء".
قال ابن عاشور: وجملة (إن إلى ربك الرجعى) معترضة بين المقدمة والمقصد والخطاب للنبي ﷺ أي مرجع الطاغي إلى الله، وهذا موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة، وتعليم للنبيء ﷺ وتثبيت له، أي لا يحزنك طغيان الطاغي فإن مرجعه إلي، ومرجع الطاغي إلى العذاب قال تعالى (إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مئابا) وهي موعظة للطاغي بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله كقوله (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه).
وفيه معنى آخر وهو أن استغناءه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله في أهم أموره ولا يدري ماذا يصيره إليه ربه من العواقب فلا يزده بغنى زائف في هذه الحياة فيكون: (الرجعى) مستعملا في مجازه، وهو الاحتياج إلى المرجوع إليه، وتأكيد الخبر بـ (إن) مراعى فيه المعنى التعريضي لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث ينزلون منزلة من ينكرها.
قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى} [العلق: ٩- ١٠]، أي:"أرأيت أعجب مِن طغيان هذا الرجل وهو أبو جهل، الذي ينهى عبدًا لنا إذا صلَّى لربه وهو محمد ﷺ؟".

=

=

قال الزمخشري:"معناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته".

قال ابن كثير:"نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت".

قال الطبري:"ذُكر أن هذه الآية وما بعدها نزلت في أبي جهل بن هشام، وذلك أنه قال فيما بلغنا: لئن رأيت محمدا يصلي، لأطأنّ رقبته؛ وكان فيما ذُكر قد نهى رسول الله ﷺ أن يصلي، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: أرأيت يا محمد أبا جهل الذي يَنْهاك أن تصلي عند المقام، وهو مُعرض عن الحقّ، مكذّب به. يُعجِّب جلّ ثناؤه نبيه والمؤمنين من جهل أبي جهل، وجراءته على ربه، في نهيه محمدا عن الصلاة لربه، وهو مع أياديه عنده مكذّب به".

قال السعدي:"ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاتي: {أَرَأَيْتَ} أيها الناهي للعبد إذا صلى {إِنْ كَانَ} العبد المصلي {عَلَى الْهُدَى} العلم بالحق والعمل به".

قال ابن عطية:"ثم صرح بذكر الناهي لمحمد عليه السلام، ولم يختلف أحد من المفسرين في أن الناهي: أبو جهل، وأن العبد المصلي محمد ﷺ".

عن مجاهد: "{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى}، قال: أبو جهل، يَنْهي محمدا ﷺ إذا صلى".

عن الربيع، قال: "{أرأيت الذي ينهي عبدًا إذا صلى} أبو جهل".

قال قتادة:"نزلت في عدوّ الله أبي جهل، وذلك لأنه قال: لئن رأيت محمدا يصلي لأطأنّ على عنقه، فأنزل الله ما تسمعون".

عن قتادة:"قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا ﷺ يصلي، لأطأنّ على عنقه؛ قال: وكان يقال: لكل أمة فرعون، وفرعون هذه الأمة أبو جهل".

=

=

عن العباس بن عبد المُطَّلب، قال: "كنت يومًا في المسجد، فأقبل أبو جهل، فقال: إنّ لله عليّ إن رأيتُ محمدًا ساجدًا لَأطأنّ على رقبته. فخرجتُ على رسول الله ﷺ حتى دخلتُ عليه، فأخبرتُه بقول أبي جهل، فخرج غضبان حتى جاء المسجد، فعجل أن يدخل مِن الباب، فاقتحم الحائط، فقلتُ: هذا يوم شرٍّ. فأْتَزَرْتُ، ثم تبعتُه، فدخل رسول الله ﷺ يقرأ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، فلما بلغ شأن أبي جهل: {كَلّا إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغى} قال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم، هذا محمد. فقال: ألا ترون ما أرى؟! واللهِ، لقد سُدّ أُفُق السماء عليَّ. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد".

قال الألوسي: ولم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية في أن العبد المصلي هو رسول الله ﷺ والناهي هو اللعين أبو جهل.

قوله (عبدا إذا صلى) أطلق عليه اسم العبودية؛ لأنها أفضل ما يوصف به البشر، وقد وصف الله نبيه ﷺ في وصف العبودية في أعلى المقامات.

قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى} [العلق: ١١]، أي:"أرأيت إن كان المنهي عن الصلاة على الهدى فكيف ينهاه؟".

عن الربيع بن أنس، قال: "{أرأيت إن كان على الهدى} محمدًا". وروي عن قتادة نحوه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ} محمد على استقامة وسَدَاد في صلاته لربه".

قال الزمخشري:"إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله".

قال ابن كثير:"فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولا فقال: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى}، أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله".

=

=

قوله تعالى: {أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} [العلق: ١٢]، أي:"أو إن كان آمرًا غيره بالتقوى أينهاه عن ذلك؟".

قال مقاتل:"{أَوْ أمَرَ بِالتَّقْوى}، يعني: بالإخلاص".

قال الطبري:"أو أمر محمد هذا الذي ينهي عن الصلاة، باتقاء الله، وخوف عقابه".

قال الزمخشري:"أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد".

قال ابن كثير:"أو {أَمَرَ بِالتَّقْوَى} بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته".

قال القرطبي:"أي: أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكا؟!".

قال السعدي:"فهل يحسن أن ينهى، من هذا وصفه؟ أليس نهيه، من أعظم المحادة لله، والمحاربة للحق؟ فإن النهي، لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى".

عن قتادة، قوله: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى}، قال محمد: كان على الهدى، وأمر بالتقوى".

قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [العلق: ١٣]، أي:"أرأيت إن كذَّب هذا الناهي بما يُدعى إليه، وأعرض عنه".

قال السعدي:"{أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ} الناهي بالحق {وَتَوَلَّى} عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟".

قال القرطبي:"يعني: أبا جهل كذب بكتاب الله ﷻ، وأعرض عن الإيمان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ} أبو جهل بالحق الذي بعث به محمدًا، وأدبر عنه، فلم يصدّق به".

=

=

قـال الزمخـشري:"وكـذلك إن كـان علـى التكـذيب للحـق والتـولي عـن الـدين الصحيح، كما نقول نحن".

قال ابن عطية:"يعني: الإنسان الذي ينهى".

عن قتادة: "{أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}، يعني: أبا جهل". وروي عن الربيع بن أنس مثله.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، أي:"ألم يعلم بأن الله يرى كل ما يفعل؟".

وقول المصنف ({أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يَرَى} مَا صَدَرَ مِنْهُ أَيْ يَعْلَمهُ فَيُجَازِيه عَلَيْهِ) فيه نظر بين، لأن العلم من لوازم الرؤية لكن الرؤية غير العلم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألم يعلم أبو جهل إذ ينهى محمدا عن عبادة ربه، والصلاة له، بأن الله يراه فيخاف سطوته وعقابه".

قال الزمخشري: أي:"يطلع على أحواله من هداه وضلاله، فيجازيه على حسب ذلك. وهذا وعيد".

قال ابن كثير:"أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء".

قال القرطبي:"أي: يراه ويعلم فعله، فهو تقرير وتوبيخ".

قوله تعالى: {كَلَّا} [العلق: ١٥]، أي:"ليس الأمر كما يزعم أبو جهل".

قال الطبري:"يقول: ليس كما قال: إنه يطأ عنق محمد، يقول: لا يقدر على ذلك، ولا يصل إليه".

قال عمر مولى غُفْرة: "إذا سمعت الله يقول: «كلا»، فإنما يقول: كذبت".

قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ} [العلق: ١٥]، أي:"لئن لم يرجع هذا عن شقاقه وأذاه لنأخذنَّ بمقدَّم رأسه أخذًا عنيفًا، ويُطرح في النار".

=

=

عن الربيع بن أنس:"{كلا لئن لم ينته} أبو جهل".

عن ابن عباس:"{لَنَسْفَعًا}، قال: لنأخذنّ". وروي عن عكرمة مثله.

وفي قوله تعالى: {لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ} [العلق: ١٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني: لنأخذن بناصيته، قاله ابن عباس، وبه قال الفراء، وابن قتيبة، والطبري، وهو عند العرب أبلغ في الاستذلال والهوان، ومنه قول الخنساء:

جززنا نواصي فرسانهم... وكانوا يظنّون أنْ لن تُجَزَّا

عن ابن عباس:"{لَنَسْفَعًا}، قَالَ: لَنَأْخُذَنَّ مِثْلَهُ".

قال الحسن: "السفع: الأخذ".

قال ابن قتيبة:"أي لَنَأْخُذَنَّ بها. يقال: اسْفَعْ بيدِه؛ أي خُذْ بيده".

قال الطبري:"يقول: لئن لم ينته أبو جهل عن محمد، لنأخذنّ بمقدم رأسه، فلنضمنه ولنُذلنه".

قال الفراء:"ناصيته: مقدم رأسه، أي: لنهصرنها، لنأخذن بها لنقمئنه ولنذلنه، ويقال: لنأخذن بالناصية إلى النار، كما قال جل وعز: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَام} [الرحمن: ٤١]، فيلقون في النار".

قال الزجاج:"أي: لنجرن ناصيته إلى النار، يقال: سفعت بالشيء إذا اقبضت عليه وجذبته جذبا شديدا".

الثاني: معناه: تسويد الوجوه، وتشويه الخلقة بالسفعة السوداء، مأخوذ من قولهم: قد سفعته النار أو الشمس إذا. غيرت وجهه إلى حالة تشويه، حكاه الفراء، واختاره ابن كثير، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

أثافيَّ سُفْعًا مُعَرَّس مِرَجلٍ... ونُؤْيًا كجِذم الحوضِ لم يَتَثَلّمِ

قال ابن كثير:"أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد {لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ}، أي: لنَسمَنَّها سوادا يوم القيامة".

=

=

قال الفراء:"ويقال: لنسودن وجهه، فكفت الناصية من الوجه لأنها في مقدم الوجه".

والناصية:"شعر مقدم الرأس، وقد يعبّر بها عن جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة إشارة إلى جميع الإنسان".

وفي قراءة عبد الله: «كلا لئن لم ينته لأسفعا بالناصية».

قال ابن عاشور: "والسفع: القبض الشديد بجذب، والناصية مقدم شعر الرأس، والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكن من الانفلات فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلا لضربه أو جره".

قال القرطبي: "فالآية وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة".

قوله تعالى: {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [العلق: ١٦]، أي:"ناصيته ناصية كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها، فكأن الكذب والخطأ باديان منها".

قال الكلبي: "كاذبة على الله مشركة".

قال الطبري:"وصف الناصية بالكذب والخطيئة، والمعنى لصاحبها".

قال الزجاج:"بناصية صاحبها كاذب خاطئ، كما يقال: فلان نهاره صائم وليله قائم، المعنى هو صائم في نهاره وقائم في ليله".

قال ابن كثير:"يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعَالها".

قال الزمخشري: "وصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازى. وهما في الحقيقة لصاحبها. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطئ".

=

=

قوله تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق: ١٧ – ١٨]، أي:"فليُحْضِر هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، سندعو ملائكة العذاب".

قال ابن كثير: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ}، أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم، {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلبُ: أحزبُنا أو حزبه".

قال السعدي:"{فَلْيَدْعُ} هذا الذي حق عليه العقاب {نَادِيَهُ} أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه على ما نزل به، {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} أي: خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟".

قال الزجاج:"معناه: فليدع أهل ناديه، وهم أهل مجلسه، وكانوا عشيرته أي فليستنصر بهم، والزبانية: الغلاظ الشداد، واحدهم زبنية، وهم ههنا الملائكة، قال الله: ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ} [التحريم: ٦] وهم الزبانية".

قال الطبري:"وإنما قيل ذلك فيما بلغنا، لأن أبا جهل لما نهى النبيّ ﷺ عن الصلاة عند المقام، انتهره رسول الله ﷺ، وأغلظ له، فقال أبو جهل: علام يتوعدني محمد وأنا أكثر أهل الوادي ناديا؟ فقال الله جلّ ثناؤه: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ}، فليدع حينئذ ناديه، فإنه إن دعا ناديه، دعونا الزبانية".

قال الفراء: {نَادِيَهُ}: "قومه، والعرب تقول: النادي يشهدون عليك، والمجلس، يجعلون: النادي، والمجلس، والمشهد، والشاهد- القوم قوم الرجل، قال ذو الرمة:

لهم مجلس صهب السبال أذلة... سواسية أحرارها وعبيدها

أي: هم سواء".

قال ابن قتيبة:"{فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ} أهلَ ناديهِ؛ أي يَنتصِرْ بهم. و «النادي»: المجلسُ. يريد: قومَه".

=

=

عن ابن عباس: "{فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ}، يقول: فليدع ناصره".

قال مجاهد: يعني: "عشيرته، يعني: أبا جهل".

قال قتادة:"قومه حيه".

قال الأخفش:"{نادِيَهُ} -ها هنا-: عشيرته وإنما هم أهل النادي والنادي مكانه ومجلسه".

قال الزمخشري: "النادي: المجلس الذي ينتدى فيه القوم. أي: يجتمعون. والمراد: أهل النادي".

قال ابن عاشور: ولام الأمر في (فليدع ناديه) للتعجيز لأن أبا جهل هدد النبي ﷺ بكثرة أنصاره وهم أهل ناديه فرد الله عليه بأن أمره بدعوة ناديه فإنه إن دعاهم ليسطوا على النبي ﷺ دعا الله ملائكة فأهلكوه.

وهذه الآية معجزة خاصة من معجزات القرآن فإنه تحدى أبا جهل بهذا وقد سمع أبو جهل القرآن وسمعه أنصاره فلم يقدم أحد منهم على السطو على الرسول ﷺ مع أن الكلام يلهب حميته.

عن مجاهد، وقتادة: "{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}، قال: الملائكة".

قال قتادة:"الزَّبَانِيَةُ -في كلام العرب-: الشُّرَطُ".

عن الربيع بن أنس، قال: "{سندع الزبانية}، قال: هم تسعة عشر خزنة النار. فقال رسول الله ﷺ: «واللهِ، لَئِن عاد لتأخذنّه الزبانية». فانتهى، فلم يَعُد".

قال أبو عبيدة:"{الزَّبانِيَةَ}: واحدهم: «زبنيّة»، وكل متمرّد من إنس أو جانّ يقال: فلان زبنية عفريّة".

قال عبد الله بن أبي الهذيل: "«الزبانية»: أرجلهم في الأرض، ورءوسهم في السماء".

عن قتادة:"قال النبيّ ﷺ: «لَوْ فَعَلَ أبُو جَهْلٍ لأخَذَتْهُ الزَّبانِيَةُ المَلائِكَةُ عِيانًا»".

=

=

قال ابن عباس:"كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرّ به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعَّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأيّ شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا، فأنزل الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}، قال ابن عباس: لو دعا ناديه، أخذته زبانية العذاب من ساعته".

قال ابن عباس:"كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه أن يصلي، فأنزل الله: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى}... إلى قوله: {كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}، فقال: لقد علم أني أكثر هذا الوادي نَادِيا، فغضب النبيّ ﷺ، فتكلم بشيء، قال داود: ولم أحفظه، فأنزل الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}، فقال ابن عباس: فوالله لو فعل لأخذته الملائكة من مكانه".

عن ابن عباس، قال: "قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتلنه، فأنزل الله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} حتى بلغ هذه الآية: {لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}، فجاء النبيّ ﷺ وهو يصلي، فقيل له: ما يمنعك؟ قال: "قد اسودّ ما بيني وبينه من الكتائب"... قال ابن عباس: والله لو تحرّك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه".

عن أبي هريرة، قال: "قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل نعم، قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك، لأطأنّ على رقبته، لأعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عَقبيه، ويتقي بيديه؛ قال: فقيل له: مالك؟ قال: فقال: إن بيني وبينه خَنْدقا من نار، وهَوْلا وأجنحة؛ قال: فقال رسول الله ﷺ: "لَوْ دَنا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا" قال: وأنزل الله، لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا {كَلا إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ

=

=

الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}، يعني: أبا جهل، {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ}، يدعو قومه {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} الملائكة، {كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}".

وفي قراءة عبد الله: «فليدع إلي ناديه فسأدعو الزبانية».

قوله تعالى: {كَلَّا} [العلق: ١٩]، أي:"ليس الأمر على ما يظن أبو جهل".

قال الزمخشري: "{كَلَّا}: ردع لأبى جهل".

قال الزجاج:"أي: ليس الأمر على ما عليه أبوجهل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ليس الأمر كما يقول أبو جهل، إذ ينهي محمدًا عن عبادة ربه، والصلاة له".

قال عمر مولى غُفْرة: "إذا سمعت الله يقول: «كلا»، فإنما يقول: كذبت".

قوله تعالى: {لَا تُطِعْهُ} [العلق: ١٩]، أي:"إنه لن ينالك -أيها الرسول- بسوء، فلا تطعه فيما دعاك إليه مِن تَرْك الصلاة".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: لا تُطع أبا جهل فيما أمرك به من ترك الصلاة لربك".

قال الزمخشري: "أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: {فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ}".

قال ابن كثير: يعني: يا محمد، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس".

قال السعدي:"أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين".

=

=

قوله تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: ١٩]، أي:"واسجد لربك واقترب منه بالتحبب إليه بطاعته".

قال الطبري: يقول:"{وَاسْجُدْ} لِرَبّكَ، {وَاقْتَرَبَ} منه، بالتحبب إليه بطاعته، فإن أبا جهل لن يقدر على ضرّك، ونحن نمنعك منه".

قال الزمخشري: "{وَاسْجُدْ} ودم على سجودك، يريد: الصلاة، {وَاقْتَرِبْ} وتقرّب إلى ربك".

قال الزجاج:"أي: وتقرب إلى ربك بالطاعة".

قال السعدي:"{وَاسْجُدْ} لربك {وَاقْتَرِبْ} منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه. وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبث به وآذاه".

وروي عن زيد بن أسلم، قال: "{وَاسْجُدْ}: أنت يا محمد. {وَاقْتَرَبَ}: أنت يا أبا جهل، يتوعده".

عن مجاهد:"قال: "أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، ألا تسمعونه يقول: {واسْجُدْ واقْتَرِبْ}؟!".

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء".

عن قتادة: "{كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، ذكر لنا أنها نزلت في أبي جهل، قال: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأنّ عنقه، فأنزل الله: {كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، قال نبي الله ﷺ حين بلغه الذي قال أبو جهل، قال: «لو فعل لاختطفته الزبانية»".

* (تنبيه): يشرع سجود التلاوة عند هذه الآية، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: (سجدنا مع النبي ﷺ في " إذا السماء انشقت " و " اقرأ

=

=

باسم ربك الذي خلق ").

* مسألة: مواضع السجود من آيات سجود التلاوة.

المبحث الأول: ما اتفق على موضعه.

اتفق أرباب المذاهب الأربعة، وكذا المذهب الظاهري على موضع ثماني سجدات في السور التالية.

١ - الأعراف، الرعد، الإسراء، مريم، الحج، الأولى، الفرقان، السجدة.

كما اتفق القائلون بمشروعية السجود في الحج في الثانية، وكذا في المفصل، على موضع السجدة الثانية في الحج، وسجدة النجم، وسجدة العلق.

وإليك بيان ذلك:

١ - سجدة الأعراف: عند آخرها وهو قوله: {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ١٠٦].

٢- سجدة الرعد: عند قوله: {وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥].

٣- سجدة النحل: عند قوله: {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٥٠].

٤- سجدة الإسراء: عند قوله: {وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩].

٥- سجدة مريم: عند قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

٦- سجدة الحج الأولى: عند قوله: {إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].

٧- سجدة الحج الثاية عند قوله: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧].

٨- سجدة الفرقان: عند قوله: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: ٦٠].

٩- سجدة سورة السجدة عند قوله: {وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة: ١٥].

١٠ - سجدة النجم عند آخرها: وهو قوله: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢].

١١ - وفي العلق في آخرها: وهو قوله: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: ١٩].

=

=

المبحث الثاني: ما اختلف في موضعه، سواء كان مما وقع الاتفاق على مشروعية السجود فيه، أو ما اختلف فيه.

اختلف أهل العلم في موضع السجود في السور التالية: "النمل"، "فصلت"، "ص"، الانشقاق. وإليك بيان ذلك:

أولاً: موضع السجود في سورة النمل:

اختلف أهل العلم في موضع السجود من سورة النمل على قولين:

القول الأول: أن موضعه عند قوله تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل: ٢٦].

ذهب إليه المالكية، والشافعية، والحنابلة.

قالوا: لإتمام الكلام.

القول الثاني: إنه عند قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: ٢٥].

ذهب إليه الحنفية، وبعض الشافعية، وهو قول ابن حزم.

قالوا: لأنه أقرب إلى موضع ذكر السجود والأمر به، والمبادرة إلى فعل الخير.

الترجيح:

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الأول، لوجاهة ما ذكروه، ثم إن فيه احتياطًا، وهو تأخير يسير لا يضر عند الجميع.

الموضع الثاني: في فصلت: اختلف أهل العلم في موضع السجود فيها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن ذلك عند قوله: {وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت: ٣٨].

ذهب إليه الحنفية، وبعض المالكية، والشافعية في الأصح، وأحمد في رواية عنه؛ وهي المذهب.

=

=

وهو قول: سعيد بن المسيب، وابن سيرين، وأبي وائل، والثوري، وإسحاق.

واستدلوا بما يلي:

١- ما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من {حم * تَنْزِيلٌ} [فصلت: ١، ٢].

وروي عنه أنه رأى رجلاً سجد في الآية الأولى من "حم" فقال: عجل هذا بالسجود.

٢- ولأنه أقرب إلى الاحتياط، فإنها إن كانت عند الآية الثانية لم يجز تعجيلها، وإن كانت عند الأولى جاز تأخيرها إلى الآية الثانية.

٣- ولأن تمام الكلام في الثانية، فكان السجود بعدها، كما كان في سجدة النحل عند قوله: {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٥٠] وذكر السجدة في التي قبلها كذا ههنا.

القول الثاني: أن ذلك عند قوله: {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧].

ذهب إليه الإمام مالك، وهو المذهب المشهور، والشافعية في مقابل الأصح، وبعض الحنابلة، وابن حزم.

وحكي عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وأبي صالح، وطلحة بن مصرف، وزيد بن الحارث، والليث.

واستدلوا بما يلي:

١- ما روي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يسجد في الآية الأولى من "حم".

٢- وروى نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه كان يسجد بالأولى.

وهو مناقش: بأنه معارض بمثله، وهو ما روي عن ابن عباس من تأخير السجود.

٣- أنه موضع الأمر بالسجود، واتباع الأمر أولى.

٤- أن فيه مسارعة إلى الطاعة، والمسارعة إلى الطاعة أفضل.

=

=

القول الثالث: أنه مخير إن شاء سجد في الآية الأولى، وإن شاء سجد في الثانية: ذهب إليه الإمام أحمد في رواية عنه، وهو قول ابن وهب من المالكية.

ولم أعثر على دليل هذا القول: ولعلهم نظروا إلى أن كلا الأمرين قد روي عن الصحابة ففهموا أن الأمر فيه واسع.

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الأول لقوة دليله من المعقول، وهو إتمام الكلام، مع الأخذ بالاحتياط، وهو تأخير يسير لا يضر عند الجميع.

الموضع الثالث: في سجدة (ص):

اختلف القائلون بمشروعية السجود في "ص" وأنها من مواضع سجود التلاوة، في موضع السجدة من السورة على قولين:

القول الأول: أن موضعه عند قوله: {وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤].

ذهب إليه الحنفية، وبعض المالكية، وبعض الشافعية، وبعض الحنابلة.

واحتجوا: بأن قوله: {فَغَفَرْنَا لَهُ} [ص: ٢٥] كالجزاء على السجود، وهو يدل على تقديم السجود لتقديم السبب على المسبب.

القول الثاني: أنه عند قوله: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: ٢٥].

ذهب إليه بعض المالكية، ولم أعثر على دليل لهذا القول.

الترجيح:

والذي يظهر لي رجحانه هو القول الأول، لوجاهة ما بني عليه، وهو ترتب الغفران على السجود.

الموضع الرابع: سجدة (الانشقاق):

كما اختلف القائلون بمشروعية السجود في (الانشقاق) في موضع السجدة من السورة على قولين:

=

سورة القدر(١)

=

القول الأول: أنه عند آخر قوله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢١].

ذهب إليه الحنفية، وبعض المالكية، والشافعية، والحنابلة.

لأن ما بعده لا تعلق له بذكر السجود.

القول الثاني: أن ذلك عند آخر السورة في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [الانشقاق: ٢٥].

ذهب إليه بعض المالكية، ولم أعثر على دليل لهذا القول.

الترجيح:

والذي يظهر لي رجحانه هو الأول، لوجاهة ما ذكروه من تمام الكلام. انتهى من رسالة سجود التلاوة وأحكامه.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) (العلق: ١ - ٢) يسأل عن تكرير "خلق"؟

والجواب عنه: أنهما قصدان، فالمراد أولاً خلق المخلوقات وشتى العوالم، والمراد ثانياً تخصيص خلق الإنسان وأنه خلقه من علق، ولا تكرير على هذا. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٥٠٩).

(١) اختلف أهل العلم في وقت نزول هذه السورة، على قولين:

أحدهما: أنها مكّيّة، قالته عائشة، ورواه نوفل ابن أبي عقرب عن ابن عباس، ورواه شيبان عن قتادة وحكاه الماوردي عن الأكثرين.

الثاني: أنها مدنية. قاله ابن عباس، والضحاك، وحكاه الثعلبي، وأبو حيان عن الأكثرين.

=

=

قال علي بن الحسين بن واقد: "هي أوّل سورة نزلت بالمدينة".

قال أبو حيان:"هذه السورة مدنية في قول الأكثر. وحكى الماوردي عكسه. وذكر الواحدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة".

* آياتها ستّ فى عدّ الشام، وخمس عند الباقين؛ وكلماتها ثلاثون. وحروفها مائة واثنتا عشرة. المختلف فيها آية (القدر) الثالث. فواصل آياتها على الرّاءِ.

* سميت هذه السورة في المصاحف، وكتب التفسير، وكتب السنة : «سورة القدر»، ووجه تسميتها سورة القدر، لتكرار ذكره فيها، وهي تسمية لها بصفة ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [القدر: ١]، أي: في ليلة عظيمة الشرف، ولم يقع هذا اللفظ في فيرها من سور القرآن الكريم.

وتسمى سورة «إنا أنزلناه في ليلة القدر» وهي تسمية بأول آية فيها، كما ورد عن بعض الصحابة -رضوا الله عليهم أجمعين-، وبهذا الاسم عنون لها بعض المفسرين. كما ترجم لها الحاكم باسم: «إنا أنزلناه»، باقتصار على مفتتحها.

وسماها النحاس، وأبو بكر الجصاص، «سورة ليلة القدر».

* معظم مقصود السورة: بيان شرف ليلة القدر فى نصِّ القرآن، ونزول الملائكة المقرّبين من عند الرحمن، واتصال سلامهم طوَال اللَّيل على أَهل الإِيمان، فى قوله: {حتى مَطْلَعِ الفجر}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر} (وبعده: {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر}) ثم قال: {لَيْلَةُ القدر} فصرّح به، وكان حقّه الكناية؛ رفعـاً لمنزلتها؛ فإِنَّ الاسم قد يُذكر بالصّريح فى موضع الكناية؛ تعظيماً وتخويفاً.

كما قال الشَّاعر: لا أَرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ... نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا فصرّح باسم الموت ثلاث مرّات؛ تخويفًا. وهو من أَبيات كتاب سيبويه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١).

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن جُمْلَة وَاحِدَة مِنْ اللَّوْح الْمَحْفُوظ إلَى السَّمَاء الدُّنْيَا {فِي لَيْلَة الْقَدْر} أَيْ الشَّرَف الْعَظِيم.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك يَا مُحَمَّد {مَا لَيْلَة الْقَدْر} تَعْظِيم لِشَأْنِهَا وَتَعْجِيب مِنْهُ.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣).

{لَيْلَة الْقَدْر خَيْر مِنْ أَلْف شَهْر} لَيْسَ فِيهَا لَيْلَة الْقَدْر فَالْعَمَل الصَّالِح فِيهَا خَيْر مِنْهُ فِي أَلْف شَهْر لَيْسَتْ فِيهَا.

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤).

{تَنَزَّل الْمَلَائِكَة} بِحَذْفِ إحْدَى التَّاءَيْنِ مِنْ الْأَصْل {وَالرُّوح} أَيْ جِبْرِيل {فِيهَا} فِي اللَّيْلَة {بِإِذْنِ رَبّهمْ} بِأَمْرِهِ {مِنْ كُلّ أَمْر} قَضَاهُ الله فِيهَا لِتِلْكَ السَّنَة إلَى قَابِل وَمِنْ سَبَبِيَّة بمعنى الباء.

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥).

{سَلَام هِيَ} خَبَر مُقَدَّم وَمُبْتَدَأ {حَتَّى مَطْلَع الْفَجْر} بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا إلَى وَقْت طُلُوعه جُعِلَتْ سَلَامًا لِكَثْرَةِ السَّلَام فِيهَا مِنْ الْمَلَائِكَة لا تَمُرّ بِمُؤْمِنٍ وَلَا بِمُؤْمِنَةٍ إلَّا سَلَّمَتْ عَلَيْهِ[٢].

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

=

=

عن يوسف بن سعد الجمحي؛ قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية، فقال: سوّدت وجوه المؤمنين، أو يا مسوّد وجوه المؤمنين! فقال: لا تؤنبني رحمك الله؛ فإن النبي ﷺ أُريَ بني أمية على منبر فساءه ذلك؛ فنزلت: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)} [الكوثر: ١] يا محمد؛ يعني: نهراً في الجنة، ونزلت: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)} يملكها بنو أمية يا محمد! قال القاسم: فعددناها؛ فإذا هي ألف يوم لا يزيد يوم ولا ينقص.

أخرجه الترمذي (٥/ ٤٤٤، ٤٤٥ رقم ٣٥٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٣/ ٩٠ رقم ٢٧٥٤) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (٣٢/ ٤٢٨) -، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٧)، والحاكم (٣/ ١٧٠، ١٧١، ١٧٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٢٦٥، ٢٦٦ رقم ٢٣٩٦)، و"دلائل النبوة" (٦/ ٥٠٩، ٥١٠) من طريق القاسم بن الفضل عن يوسف به.

قلنا: وهذا إسناد ظاهره الصحة؛ لكنهم أعلوه بأن في متنه نكارة.

قال الترمذي: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل، وقد قيل: عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن.

والقاسم بن الفضل الحداني هو ثقة؛ وثقه يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي.

ويوسف بن سعد رجل مجهول، ولا نعرف هذا الحديث على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه".

وقال الحاكم: "هذا إسناد صحيح"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: وَرَوى عن يوسف نوحُ بن قيس -أيضًا-، وما علمت أن أحداً تكلم فيه، والقاسم وثقوه ورواه عنه أبو داود والتبوذكي، وما أدري آفته من أين؟".

=

=

وقال في "سير أعلام النبلاء" (٣/ ٢٧٢): "فيه انقطاع".

قال الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٦/ ٢٤٣، ٢٤٤): "رواه الترمذي وابن جرير والطبري والحاكم في "مستدركه"، والبيهقي في "دلائل النبوة" كلهم من حديث القاسم بن الفضل الحدّاني، وقد وثقه يحيى بن سعيد القطان وابن مهدي عن يوسف بن سعد، ويقال: يوسف بن مازن الراسبي، وفي رواية ابن جرير: عيسى بن مازن، قال الترمذي: وهو رجل مجهول، وهذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

فقوله: إن يوسف هذا مجهول؛ مشكل، والظاهر أنه أراد أنه مجهول الحال؛ فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد، وقال يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عنه قال: هو ثقة [قلنا: ووثقه الحافظ الذهبي في "الكاشف"، والحافظ في "التقريب"]؛ فارتفعت الجهالة عنه مطلقًا، قلت: ولكن في شهوده قصة الحسن ومعاوية نظر، وقد يكون أرسلها عمن لا يعتمد عليه -والله أعلم-.

وقد سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الحديث؟ فقال: "هو حديث منكر".

وأما قول القاسم بن الفضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه حسب دولة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقصه؛ فهو غريب جداً، وفيه نظر؛ وذلك لأنه لا يمكن إدخال دولة عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكانت اثنتا عشر سنة في هذه المدة، لا من الصورة ولا من حيث المعنى، وذلك أنها ممدوحة؛ لأنه أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون.

وهذا الحديث إنما سيق لذم دولتهم، وفي دلالة الحديث على الذم نظر؛ وذلك أنه دل على أن ليلة القدر خير من ألف شهر التي هي دولتهم، وليلة القدر ليلة خيرة،

=

=

عظحمة المقدار والبركة، كما وصفها الله -تعالى- به، فما يلزم من تفضيلها على دولتهم، فليتأمل هذا؛ فإنه دقيق يدل على أن الحديث في صحته نظر؛ لأنه إنما سيق لذم أيامهم، والله -تعالى- أعلم.

وأما إذا أراد أن ابتداء دولتهم منذ ولي معاوية حين تسلمها من الحسن بن علي، فقد كان ذلك سنة أربعين، أو إحدى وأربعين، وكان يقال له: عام الجماعة؛ لأن الناس كلهم اجتمعوا على إمام واحد.

وقد تقدم الحديث في "صحيح البخاري" عن أبي بكرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول للحسن بن علي: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".

فكان هذا في هذا العام، -والله الحمد والمنة-. واستمر الأمر في أيدي بني أمية من هذه السنة إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، حتى انتقل إلى بني العباس كما سنذكره، ومجموع ذلك اثنتان وتسعون سنة وهذا يطابق ألف شهر؛ لأن معدل ألف شهر ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فإن قال: أنا أخرج منها ولاية ابن الزبير وكانت تسع سنين، فحينئذ يبقى ثلاث وثمانون سنة، فالجواب أنه وإن خرجت ولاية ابن الزبير؛ فإنه لا يكون ما بقي مطابقًا لألف شهر تحديداً، بحيث لا ينقص يومـًا ولا يزيده كما قاله، بل يكون ذلك تقريبـًا، هذا وجه، والثاني: أن ولاية ابن الزبير كانت بالحجاز والأهواز والعراق في بعض أيامه، وفي مصر في قول، ولم تنسلب يد بني أمية من الشام أصلاً، ولا زالت دولتهم بالكلية في ذلك الحين، الثالث: أن هذا يقتضي دخول دولة عمر بن عبد العزيز في حساب بني أمية، ومقتضى ما ذكره أن تكون دولته مذمومة، هذا لا يقوله أحد من أئمة الإسلام، وإنهم مصرحون بأنه أحد الخلفاء الراشدين؛ حتى قرنوا أيامه متابعة لأيام الأربعة، وحتى اختلفوا في أيهما أفضل هو أو معاوية بن أبي سفيان أحد الصحابة؟ وقد قال أحمد بن حنبل:

=

=

لا أرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، فإذا علم هذا؛ فإن أخرج أيامه من حسابه؛ انخرم حسابه، وإن أدخلها فيه مذمومة؛ خالف الأئمة، وهذا ما لا محيد عنه، وكل هذا مما يدل على نكارة هذا الحديث -والله أعلم-".

وقال -أيضاً- في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٦٦، ٥٦٧): "وقول الترمذي: إن يوسف هذا مجهول؛ فإنه قد روى عنه جماعة؛ منهم: حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد، وقال فيه يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عن ابن معين: هو ثقة".

ثم قال: "ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزي: هو حديث منكر.

قلت: وقول القاسم بن الفضل الحداني: إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص، ليس بصحيح؛ فإن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية وسمي ذلك عام الجماعة، ثم استمروا فيها بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين، لكن لم تزل يدهم على الإمرة بالكلية، بل عن بعض البلاد، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة وذلك أزيد من ألف شهر؛ فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير وعلى هذا فيقارب ما قاله الصحة في الحساب -والله أعلم-. ومما يدل على ضعف هذا الحديث: أنه سيق لذم بني أمية ولو أريد ذلك؛ لم يكن بهذا السياق؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم؛ فإن ليلة القدر شريفة جداً، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة

=

=

القدر؛ فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث؟ وهل هذا إلا كما قال القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وقال آخر:

إذا أنت فضلت امرءاً ذا براعة ... على ناقص كان المديح من النقص؟

ثم الذي يفهم من الآية: أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية، والسورة مكية، فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها، والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة؛ فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته -والله أعلم-".

قلنا: وهذا تحرير دقيق جداً؛ يدل على إمامة الحافظ وعلوّ كعبه في هذا الشأن -رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة-.

فالحاصل: أن الحديث أعل بعلل:

الأولى: جهالة يوسف بن سعيد، وتبين أنه ثقة مطلقاً.

الثانية: الانقطاع؛ كما قال الذهبي والحافظ ابن كثير.

الثالثة: نكارة متنه.

ونزيد علة رابعة -ذكرت- وهي الاضطراب:

قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٦٦): "ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن (في الأصل: يوسف بن مازن)، كذا قال وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث -والله أعلم-".

وهذا لا يقتضي اضطراباً في الحديث؛ فقد رواه عن القاسم الطيالسي وموسى بن إسماعيل التبوذكي وقراد أبو نوح لم يختلفوا في تسميته (يوسف) وخالفهم سَلْم بن قتيبة فسماه (عيسى).

=

=

وسلم متكلم فيه؛ قال أبو حاتم: كثير الوهم ليس به بأس، وقال يحيى القطان: ليس من جمال المحامل، وهو دون الثلاثة في الضبط والإتقان، هذا أولاً.

وثانيـًا: في الطريق إلى سلم شيخ الطبري سهيل بن إبراهيم الجارودي؛ قال ابن حبان في "ثقاته" (٨/ ٣٠٣): "يخطئ ويخالف".

وقد يقال: إن الاضطراب الذي في سنده أنهم اختلفوا في رواية يوسف؛ فبعضهم قال: يوسف بن سعد الجمحي، وبعضهم قال: يوسف بن مازن الرؤاسي، وقد جرى معظم الأئمة كابن حبان والمزي والذهبي والعسقلاني وغيرهم على جعله واحداً، وخالف في ذلك البخاري وابن أبي حاتم، والصواب جعلهما واحداً -والله أعلم-.

وعليه: مما سبق يتبين لنا أن أقوى ما أعلّ به الحديث هي العلة الثانية والثالثة.

وقال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "ضعيف الترمذي" (ص ٤٣٦ رقم ٦٦٣): "ضعيف الإسناد، مضطرب، ومتنه منكر". وقد بيّنا ما فيه ولله الحمد والمنة.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على منبره؛ فساءه ذلك! فأوحى الله إليه: "إنما هو ملك يصيبونه"، ونزلت: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)}.

أخرجه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" (٨/ ٢٨٠) من طريق الدارقطني ثنا أحمد بن محمد بن سعيد ثنا محمد بن الحسن القطواني ثنا حسين بن أيوب الخثعمي ثني علي بن حديد بن حكيم المدائني عن أبيه؛ قال: أنبأنا أبو الجحاف أخبرني داود بن علي عن أبيه عن جده ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ داود بن علي ضعفه الذهبي وغيره، وحديد بن حكيم المدائني؛ ذكره الخطيب ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، ولم يزد أنه روى عنه ابنه؛ فهو في عداد المجهولين.

=

=

وعن سعيد بن المسيب؛ قال: قال نبي الله ﷺ: "أُريت بني أمية يصعدون منبري؛ فشق عليّ"؛ فأنزلت: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)}.

أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٩/ ٤٤) من طريق علي بن المديني ثنا يحيى بن سعيد القطان عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن ابن المسيب به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: علي بن زيد؛ ضعيف.

وقد رواه الشاذكوني الكذاب عن يحي بهذا الإسناد إلا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أريت بني أمية في صورة القردة والخنازير يصعدون منبري؛ فشق عليّ ذلك"؛ فأنزلت: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)}.

قلنا: الشاذكوني كذاب، وما قبله أصح، وقد أنكره ابن المديني إنكاراً شديداً.

وعن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)} التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٦٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٠٣، ٢٠٤)، والبيهقي (٤/ ٣٠٦) من طرق عن مسلم بن خالد الزنجي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: مسلم بن خالد الزنجي؛ صدوق كثير الأوهام.

=

=

وعنه؛ قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر؛ فأنزل الله هذه الآية: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)}: قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٦٧): ثنا ابن حميد ثنا حكام بن سلم عن المثنى بن الصباح عن مجاهد. وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: ابن حميد؛ متهم بالكذب.

الثانية: المثنى بن الصباح؛ ضعيف.

الثالثة: الإرسال.

* قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [القدر: ١].

أي: إنا أنزلنا القرآن في ليلة الشرف والفضل، وهي إحدى ليالي شهر رمضان.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا هذا القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القَدْر، وهي ليلة الحُكْم التي يقضي الله فيها قضاء السنة".

قال المراغي:"أي: إنا بدأنا ننزل الكتاب الكريم في ليلة الشرف".

في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١]، وجهان:

أحدهما: يعني: جبريل، أنزله الله في ليلة القدر بما نزل به من الوحي. حكاه الماوردي.

الثاني: يعني: القرآن. وهو قول الجمهور.

قال الزجاج: "الهاء ضمير «القرآن»، ولم يجر له ذكر في أول السورة ولكنه جرى ذكره فيما قبلها، وهو قوله: {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان: ١ - ٣]، وهي ليلة القدر".

وللعلماء في كيفية نزول القرآن آراء ثلاثة:

=

=

الرأي الأول:- وهو رأي الجمهور- أن القرآن نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجما في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن عباس:"نزل القرآن في ليلة من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُرِّق في السنين، وتلا ابن عباس هذه الآية: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، قال: نزل متفرّقا".

قال ابن عباس:"أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر، إلى السماء الدنيا، فكان بموقع النجوم، فكان الله ينزله على رسوله، بعضه في أثر بعض، ثم قرأ: {وقالوا لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا}".

قال ابن عباس:"أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئا أوحاه، فهو قوله: {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وكان بين أوّله وآخره عشرون سنة".

قال ابن عباس:"نزل القرآن كله مرة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئًا أنزله منه حتى جمعه".

قال ابن عباس:"أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة من الذكر الذي عند رب العزة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بحراء بجواب كلام العباد وأعمالهم".

قال سعيد بن جبير:"أنزل القرآن جملة واحدة، ثم أنزل ربنا في ليلة القدر: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}".

قال سعيد بن جبير:"نزل القرآن جملة من السماء العليا، إلى السماء الدنيا، ليلة القدر، ثم نزل مفصلا".

قال الشعبي:"بلغنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا".

=

قال الطبري: المعنى:"إنا أنزلنا هذا القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القَدْر، وهي ليلة الحُكْم التي يقضي الله فيها قضاء السنة".

وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن للقرآن تنزلات ثلاثا.

الرأي الثاني:- وهو رأي مقاتل بن سليمان- انه نزل إلى سماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة. ينزل الله في كل ليلة قدر ما قدر إنزاله في تلك السنة. ثم ينزل به جبريل منجما على رسول الله ﷺ.

وقد ذكره فخر الدين الرازي مجوزا له. فقال: "إنه سبحانه كان ينزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا من القرآن ما يعلم أن محمدا عليه السلام وأمته يحتاجون إليه في تلك السنة ثم ينزله على الرسول على قدر الحاجة ثم كذلك أبدا ما دام".

قال ابن كثير: «وهذا الذي جعله احتمالا نقله القرطبي عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا".

الرأي الثالث:- وهو رأى الشعبي- انه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبي ﷺ.

عن الشعبي:" {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، قال: نزل أول القرآن في ليلة القدر".

وقد ساق السيوطي في الإتقان هذه الآراء، ونقل عن ابن حجر أن الأول هو الصحيح المعتمد، كما ذكر هذه الآراء الزركشي في البرهان ثم قال: «والقول الأول أشهر وأصح، واليه ذهب الأكثرون.

قال الألوسي: في تفسير قوله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١- ٢٢]،:"واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء ونحن نؤمن به، ولا يلزمنا البحث عن ماهيته، وكيفية كتابته، ونحو ذلك".

=

قال العثيمين: فما معنى إنزاله في ليلة القدر؟ الصحيح أن معناها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، وليلة القدر في رمضان لا شك في هذا ودليل ذلك قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان} [البقرة: ١٨٥].

فإذا جمعت هذه الآية أعني {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن} إلى هذه الآية: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} تبين أن ليلة القدر في رمضان، وبهذا نعرف أن ما اشتهر عند بعض العامة من أن ليلة القدر هي ليلة النصف من شهر شعبان لا أصل له، ولا حقيقة له، فإن ليلة القدر في رمضان، وليلة النصف من شعبان كليلة النصف من رجب، وجمادى، وربيع، وصفر، ومحرم وغيرهن من الشهور لا تختص بشيء، حتى ما ورد في فضل القيام فيها فهو أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، وكذلك ما ورد من تخصيص يومها وهو يوم النصف من شعبان بصيام فإنها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة.

- قوله (إنا أنزلناه) أي: القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر في السورة لكنه معلوم، قال ابن عطية: الضمير في (أنزلناه) للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه.

- قال في التسهيل: الضمير في أنزلناه للقرآن، دل على ذلك سياق الكلام، وفي ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته.

الثاني: أنه اختار لإنزاله أفضل الأوقات.

الثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه وفي كيفية أنزاله.

- وقال ابن عاشور: وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

=

=

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم.

- وقوله (إنا) ضمير الجمع يعود إلى الله تعالى، والله تعالى يذكر نفسه بضمير الجمع لدلالتها على التعظيم كما هنا، وكما في قوله تعالى (إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) وقد يذكر نفسه سبحانه بصيغة الإفراد لدلالتها على التوحيد كما في قوله تعالى (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري).

- قوله تعالى (ليلة القدر) سميت بذلك:

فقيل: لأن الله يقدر فيها الأرزاق والآجال وحوادث العام.

كما قال تعالى: (فيها يفرق كل أمر حكيم).

وعزاه النووي للعلماء حيث صدر كلامه فقال: قال العلماء: سميت ليلة القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأقدار.

وقيل: سميت بذلك لأنها ليلة عظيمة وذات شرف.

وقولهم لفلان قدر عند الله، أي: منزلة وشرف.

ويدل لذلك قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر).

وقيل: سميت بذلك لأنها تكسب من أحياها قدرا عظيما.

ويدل لذلك قوله ﷺ: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه).

- الحكمة من نزوله منجما:

أولا: تثبيت قلب النبي ﷺ.

كما قال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك) يعني كذلك نزلناه مفرقا (لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا). ثانيا: أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به.

=

=

ثالثا: تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه.

رابعا: التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال.

*وقد اختلف العلماء في تعيين «ليلة القدر»، على أقوال كثيرة، حتى أوصلها الحافظ في «الفتح»، إلى ستةٍ وأربعين قولاً، واحتمالين.

كما أوصلها الحافظ ولُّي الدين العراقي إلى خمسة وعشرين قولاً.

وأوصلها بعض المعاصرين إلى أكثر من ستين قولاً.

قال أبو العباس القرطبي بعدما ذكر بعض هذه الأقوال: "وهذه الأقوال كلها للسلف والعلماء، وسبب اختلافهم اختلاف الأحاديث كما ترى".

وفيما يأتي نذكر بعض الأقوال في تعيين «ليلة القدر»:

القول الأول: أنّها ممكنة في جميع السنة. وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم. وهو قولٌ للحنفية.

ومأخذُ ابن مسعود: لئلا يتكل الناس، كما بيَّن ذلك أُبيّ بن كعب.

ذكر حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس:"ليلة القدر في كل شهر رمضان".

الثاني: أنها مختصة برمضان، ممكنةٌ في جميع لياليه. وهو قول أبي هريرة، وابن عباس، وأبي ذر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وهو قول أبي حنيفة، وابن المنذر، وبعض الشافعية، ورجحه السبكي.

عن عبد الله بن يحنس قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر قد رفعت قال: «كذب من قال ذلك» قال: قلت: فهي في كل رمضان أستقبله؟ قال: «نعم».

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عمر. قال: "ليلة القدر في كلّ رمضان".

وروي ربيعة بن كلثوم، قال: "قال رجل للحسن وأنا أسمع: رأيت ليلة القدر في كلّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كلّ رمضان، وإنها

=

لليلة القدر، {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق، إلى مثلها".

الثالث: أنها أول ليلة من رمضان. وهو قول أبي رزين العقيلي لقيط بن عامر.

الرابع: أنها ليلة سبع عشرة.

رُوي ذلك عن زيد بن أرقم أنّه قال: "ما أشك وما أمتري أنها ليلة أنزل القرآن، ويوم التقى الجمعان".

قال ابن مسعود: «التمسوا ليلة القدر، ليلة سبع عشرة، فإنها صبيحة بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان».

عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: «ليلة القدر ليلة سبع عشرة ليلة جمعة».

الخامس: أنها ليلة ثماني عشرة. قاله الحسن، ومالك بن أنس.

السادس: أنها أول ليلة من العشر الأخير. وإليه مال الشافعي، وجزم به جماعة من الشافعية.

السابع: أنها ليلة ثلاث وعشرين. وهو قول ابن عباس، وبلال، وأنيس الجهني، وابن المسيّب.

عن الصنابحي، قال: سألت بلالا، عن ليلة القدر، قال: «ليلة القدر ثلاث وعشرين».

عن عائشة، «أنها كانت توقظ أهلها ليلة ثلاث وعشرين».

عن عبيد الله بن أبي يزيد، «أن ابن عباس، كان يرش على أهله الماء ليلة ثلاث وعشرين».

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: "ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء".

=

عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: "إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها، وهي في العشر الأواخر، من لياليها ليلة طلقة بلجة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمرًا، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها".

عن محمد بن راشد، عن مكحول أنه: "«كان يراها ليلة ثلاث وعشرين» فحدثه الحسن بن الحر، عن عبدة بن أبي لبابة أنه قال: «ليلة سبع وعشرين، وأنه قد جرب ذلك بأشياء، وبالنجوم» فلم يلتفت مكحول إلى ذلك".

الثامن: أنها ليلة أربع وعشرين. وهو قولٌ لابن عباس.

عن جابر بن عبد الله، قال: «أنزل الله صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة على موسى لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داود في إحدى عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن على محمد ﷺ في أربع وعشرين خلت من رمضان».

روي ن أبي الجلد، قال: «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، ونزل الزبور في ست، والإنجيل في ثمان عشرة، والقرآن في أربع وعشرين».

عن واثلة بن الأسقع، أن رسول الله ﷺ قال: "أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان".

عن عبدة بن أبي لبابة، قال: «ذقت ماء البحر ليلة سبع وعشرين من رمضان، فإذا هو عذب».

عن أيوب بن خالد، قال: "كنت في البحر فأجنبت ليلة ثلاث وعشرين من رمضان فاغتسلت من ماء البحر فوجدته عذبا فراتا قال الشيخ رضي الله عنه: وقد وجد مثل ذلك في ليلة سبع وعشرين".

التاسع: أنها ليلة تسع وعشرين. وهو مرويٌّ عن أبي هريرة وغيره.

=

=

العاشر: أنها في العشر الأواخر.

عن أبي قلابة، قال: «ليلة القدر تجول في ليالي العشر كلها».

عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان».

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان».

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «تحينوا ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان».

عن أبي بكرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان، لتسع بقين، أو لسبع بقين، أو لخمس بقين، أو ثلاث، أو لآخر ليلة».

عن علي، «أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان».

عن علي، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا دخلت العشر الأواخر أيقظ أهله ورفع المئزر» قيل لأبي بكر: ما رفع المئزر؟ قال: «اعتزال النساء».

عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان».

عن عائشة، قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر اجتهادا، لا يجتهد في غيره».

عن عبد الرحمن بن سابط، قال: «كان رسول الله ﷺ يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان، ويشمر فيهن».

عن عمر، قال: «كان يوقظ أهله في العشر الأواخر».

=

=

عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: «كان أبو بكرة يصلي في رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخلت العشر الأواخر اجتهد».

الحادي عشر: أنها في وتر العشر الأخير من رمضان. قاله الجمهور.

قال ابن الجوزي: "وأكثر الأحاديث الصّحاح تدل عليه".

قال رسول الله ﷺ:"التمسوها في العشر الأواخر، في الوتر".

عن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان، فقيل له: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط من رمضان، فقيل له: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأواخر ثم قال النبي ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر في وتر، يعني ليلة القدر».

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنْ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَان".

الثاني عشر: أنها ليلة سبع وعشرين. وهو قول جمع من الصحابة، منهم: عمر بن الخطاب، وحذيفة، وأبيّ بن كعب، وأنس بن مالك، وإليه ذهب زر بن حبيش.

قال الحافظ ابن حجر: "القول الحادي والعشرين: أنها ليلة سبع وعشرين. وهو الجادّة من مذهب أحمد، ورواية عن أبي حنيفة، وبه جزم أبي كعب، وحلف عليه، كما أخرجه مسلم".

عن قنان بن عبد الله النهمي، قال: سألت زرا عن ليلة القدر، فقال: «كان عمر، وحذيفة، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين تبقى ثلاث». قال زر: «فواصلها».

عن زر، قال: سمعت أبي بن كعب، يقول: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

عن زر، عن عبد الله، قال: «من يقم الحول يدركها» قال: وقال أبي: «لقد علم عبد الله أنها في شهر رمضان ليلة سبع وعشرين».

=

=

عن زر بن حبيش: «إذا كانت ليلة سبع وعشرين، فاغسلوا ومن استطاع منكم أن يؤخر فطره إلى السحر فليفعل، وليفطر على ضياح من لبن».

عن عبد الله بن شريك، قال: سمعت أنسا، وزرا، يقولان: «ليلة سبع وعشرين، وإذا كان تلك الليلة، فليغتسل أحدكم وليفطر على لبن، وليؤخر فطره إلى السحر».

عن زر بن حبيش عن أُبي بن كعب ﵁ قال: قال أُبيّ في ليلة القدر: «والله إني لأعلمها، وأكبر علمي هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين».

عن زر، قال: سمعت أبي بن كعب، يقول: وقيل له إن عبد الله بن مسعود، يقول: «من قام السنة أصاب ليلة القدر»، فقال أبي: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، ووالله إني لأعلم أي ليلة

هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها».

عن زر، قال: قلت لأبي: "أخبرني عن ليلة القدر، فإن ابن أم عبد كان يقول: من يقم الحول يصبها قال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، قد علم أنها في رمضان، فإنها لسبع وعشرين، ولكنه عمى على الناس لكي لا يتكلوا، فوالذي أنزل الكتاب على محمد، إنها في رمضان ليلة سبع وعشرين. قال: قلت: يا أبا المنذر، وأنى علمتها؟ قال: بالآية التي أنبأنا رسول الله ﷺ، فعددنا وحفظنا، فوالله إنها لهي ما يستثنى. قلت لزر: ما الآية؟ قال: "إن الشمس تطلع غداة إذ كأنها طست، ليس لها شعاع".

عن زر بن حبيش: "قلت لأبيّ إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن إنما أراد أن لا يتكل الناس، ولقد علم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان وأنها ليلة سبع وعشرين ثم حلف أبي لا

=

=

يستثني أنها لليلة سبع وعشرين، فقلنا له: يا أبا المنذر بأي شيء علمته؟ قال: بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا رسول الله ﷺ «أخبرنا أن الشمس تطلع صبيحة ذلك اليوم ولا شعاع لها».

عن زر بن حبيش، قال: سمعت أبيّ بن كعب، يقول: «هي ليلة سبع وعشرين، هي الليلة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أن الشمس تطلع بيضاء ترقرق».

عن أبي عقرب الأسدي، قال: "أتينا ابن مسعود فوجدناه فوق البيت، فسمعناه يقول قبل أن ينزل: صدق الله ورسوله، فلما نزل قلنا له: يا أبا عبد الرحمن سمعناك تقول: صدق الله ورسوله، قال: فقال: «ليلة القدر في النصف من السبع الأواخر، وذلك أن الشمس تطلع يومئذ بيضاء لا شعاع لها»، فنظرت إلى الشمس فوجدتها كما حدث، فكبرت".

عن الحسن، قال: قال النبي ﷺ: «ليلة القدر بلجة سمحة، تطلع شمسها ليس لها شعاع».

واستدل ابن عباس بأن رسول الله ﷺ، قال: «سورة القدر ثلاثون كلمة فهي في قوله {سلام} و {هي} الكلمة السابعة والعشرون، فدل أنها فيها.

ولعل أرجح الأقوال فيها أنها في العشر الأواخر من رمضان؛ لقوله ﷺ: «إني أُريت ليلة القدر ثم أنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر».

ويستحب تحرّيها في الأوتار من العشر الأواخر، كليلة الحادي والعشرين، والثالث والعشرين، والخامس والعشرين، والسابع والعشرين، والتاسع والعشرين:

لقوله ﷺ: «فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر».

وقولِه ﷺ في حديث عائشة: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان».

=

=

وقولِـه: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى.

وقولِه: «هي في العشر الأواخر، في تسع يمضين أو في سبع يبقين».

وروي عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ".

قال ابن بطال: "وإنّما يصح معناه وتُوافِق ليلة القدر وتراً من الليالي على ما ذُكِر في الحديث: إذا كان الشهر ناقصًا، فأما إن كان كاملاً فإنها لا تكون إلا في شفع، فتكون التاسعة الباقية: ثنتين وعشرين، والخامسة الباقية: ليلة ست وعشرين، والسابعة الباقية: ليلة أربع وعشرين على ما ذكره البخاري عن ابن عباس، فلا تصادف واحدة منهن وتراً، وهذا يدل على انتقال ليلة القدر كل سنة في العشر الأواخر من وتر إلى شفع، ومن شفع إلى وتر، لأنّ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأمر أمته بالتماسها في شهر كامل دون ناقص، بل أطلق طلبها في جميع شهور رمضان التي قد رتبها الله مرّة على التمام، ومرةً على النقصان، فثبت انتقالها في العشر الأواخر وكلّها على ما قاله أبو قلابة".

والليلة السابعة والعشرون هي أحرى الليالي بليلة القدر؛ لقوله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة». ولحلف أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: "وأرجاها أوتار العشر، وأرجى أوتار العشر عند الشافعية ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين على ما في حديث أبي سعيد وعبد الله بن أنيس، وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين".

قال السمعاني:"وأصح الأقاويل وأشهرها أنها ليلة السابع والعشرين، ومن قام العشر أدركها قطعا وحقيقة".

=

=

لذا لا ينبغي للمسلم أن يتعاهد ليلة بعينها على أنها ليلة القدر، لما في ذلك من الجزم بما لا يمكن الجزم به؛ ولما في ذلك من تفويت الخير على نفسه، فقد تكون ليلة الحادي العشرين، أو الثالث والعشرين، وقد تكون ليلة التاسع والعشرين، فإذا قام ليلة السابع والعشرين وحدها فيكون قد ضاع عليه خير كثير، ولم يصب تلك الليلة المباركة، فعلى المسلم أن يبذل جهده في الطاعة والعبادة في رمضان كله، وفي العشر الأواخر أكثر، وهذا هو هدي النبي ﷺ، فالحكمة من إخفائها هي تنشيط المسلم لبذل الجهد في العبادة والدعاء والذكر في العشر الأخير كلها، وهي الحكمة ذاتها في عدم تحديد ساعة الإجابة يوم الجمعة، وعدم تحديد الأسماء التسعة والتسعين لله تعالى والتي قال عنها النبي ﷺ: "مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".

ومن غرائب التفسير:"إن ليلة القدر كانت خاصة لرسول الله ﷺ فرفعت بموته".

قال ابن الجوزي:"اختلف العلماء هل ليلة القدر باقية، أم كانت في زمن النبيّ ﷺ خاصّة؟ والصحيح بقاؤها".

قال ابن العربي: "في الصحيح فيها وترجيح سبل النظر الموصلة إلى الحق منها: أنا نقول: إن الله تبارك وتعالى قال: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ فأفاد هذا بمطلقه، لو لم يكن كلام سواه، أنها في العام كله، لقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فأنبأنا الله أنه أنزله في ليلة من العام، فقلنا: من يقم الحول يصب ليلة القدر، ثم نظرنا إلى قوله شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فأفادنا ذلك أن تلك الليلة هي من شهر رمضان، ثم أخبر في الصحيح أنها في العشر الأواخر، وتواطأت روايات الصحابة على أنها في العشر الأواخر، وخبأها عن التعيين ليكون ذلك أبرك على الأمة في القيام في طلبها شهرا أو أياما، فيحصل مع ليلة القدر ثواب غيرها، فهذه سبل النظر المجتمعة من القرآن والحديث أجمع- على ما سيأتي- فتبصروها لمما، واسلكوها أمما إن شاء الله".

=

=

اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين:

أحدهما: أنها كانت في الأمم السالفة. حكاه ابن كثير.

الثاني: ما رواه أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري: حدثنا مالك: أنه بلغه: أن رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله- أو: ما شاء الله من ذلك- فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر".

قال ابن كثير:"وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب "العُدّة" أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء، فالله أعلم. وحكى الخطابي عليه الإجماع [ونقله الرافعي جازمًا به عن المذهب والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما هي في أمتنا".

عن مَرْثَد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: "بل هي في رمضان". قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت؟ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: "بل هي إلى يوم القيامة". قلت: في أي رمضان هي؟ قال: "التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر". ثم حَدّثَ رسولُ الله ﷺ وحَدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟ قال: "ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها". ثم حدّث رسول الله ﷺ، ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك بحقي عليك لَمَا أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب علي غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال: "التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها".

=

=

قال ابن كثير:"ففيه دلالة على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعدُ من قوله، عليه السلام: «فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم» ؛ لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عينًا.

وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما رُوي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة، من أنها توجد في جميع السنة، وترجى في جميع الشهور على السواء".

وفي تسميتها «ليلة القدر»، أربعة وجوه:

أحدها: لأن الله تعالى قدر فيها إنزال القرآن.

الثاني: لعظم قدرها وجلالة خطرها، من قولهم: رجل له قدر، ذكره ابن عيسى.

وذكر عن الزهري قال: "ليلة القدر ليلة العظمة والشرف من قولهم: لفلان قدر عند فلان، أي منزلة وشرف".

الثالث: لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً.

الرابع: لأن الله تعالى يقدر فيها أمور السنة، أي: يقضيها، وهو معنى قول مجاهد.

جاء في التهذيب: "القدر: القضاء الموفق، يقال قدر الله هذا تقديرًا، قال: وإذا وافق الشيء الشيء قلت: جاء قدرُه".

قال ابن فارس: "و «القدْرة»: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، وهو القَدَر.

عن مجاهد: "{إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} : ليلة الحكم".

قال سعيد بن جبير:"يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم، ولا ينقص منهم".

وقال الحسن:"فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق، إلى مثلها".

=

=

وقال ابن عمر: "أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة، فإنه في كتاب الله لا يبدل ولا يغير".

قال ابن عباس: "إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٣- ٤]، يعني: ليلة القدر، قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل".

قال الواحدي: "معنى القدر في تلك الليلة بيان مَا يكون في السنة للملائكة، لا ابتداء التقدير؛ لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ} [القدر: ٢]

أي: وما أدراك -أيها النبي- ما ليلة القدر والشرف؟

والإستفهام تفخيما لشأنها وتعظيما لقدرها، أي فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.

قال الطبري: "يقول: وما أشعرك يا محمد أيّ شيء ليلة القدر خير من ألف شهر".

قال المراغي: "أي: ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها، ومنتهى علو قدرها. وفى هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء، وإنما يعلمه علام الغيوب الذي خلق العوالم وأنشأها من العدم".

قال الفراء: "كل ما كان في القرآن من قوله: «وما أدراك» فقد أدراه، وما كان من قوله: «وما يدريك» فلم يدره".

قال ابن عاشور: "تنويه بطريق الإبهام المراد به أن إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمة، وكلمة: «ما أدراك ما كذا»، كلمة تقال في تفخيم

=

=

الشيء وتعظيمه، والمعنى: أي شيء يعرفك ما هي ليلة القدر، أي: يعسر على شيء أن يعرفك مقدارها".

قال القشيري:"استفهام على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة".

قوله تعالى: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر: ٣].

أي: ليلة القدر ليلة مباركة، العمل الصالح فيها خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة قدر.

فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها، [ومقدار ألف شهر: ٨٣ سنة وأربعة أشهر].

قال ابن عطية: "هي ليلة خصها الله تعالى بفضل عظيم وجعلها أفضل {من ألف شهر} لا ليلة قدر فيها، وقاله مجاهد وغيره، وخصت هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد عليه السلام أعمال أمته فتقاصرها".

- قال السعدي: "وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول، حيث من تعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل عمر طويل نيفا وثمانين سنة".

قال المراغي:"لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذي أنزل لخير البشر، ويكون فيها وضع الحجر الأساسي لهذا الدين الذي هو آخر الأديان الصالح لهم في كل زمان ومكان، هي خير من ألف شهر من شهورهم التي كانوا يتخبطون فيها في ظلام الشرك وضلال الوثنية، حيارى لا يهتدون إلى غاية، ولا يقفون عند حد".

قال ابن عاشور:"وإظهار لفظ «ليلة القدر»، في مقام الإضمار للاهتمام، وقد تكرر هذا اللفظ ثلاث مرات والمرات الثلاث ينتهي عندها التكرير غالبا".

اختلف في تفسير الآية الكريمة، على أقوال:

=

=

أحدها: ليلة القدر خير من عمر ألف شهر، قاله الربيع.

الثاني: أن العمل في ليلة القدر خير من العمل في غيرها ألف شهر، قاله مجاهد، واختاره الفراء، والزجاج، والطبري، وابن كثير.

قال مجاهد:"عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر".

عن عمرو بن قيس الملائي: "{خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، قال: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر".

قال الفراء:"يقول: العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر".

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تَقَدَّم من ذنبه".

الثالث: أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، قاله قتادة، وبه قال الفراء.

الرابع: أنه كان رجل في بني إسرائيل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدوّ حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأخبر الله تعالى أن قيام ليلة القدر خير من عمل ذلك الرجل ألف شهر، رواه مجاهد، و علي بن عروة.

وفي رواية عن مجاهد: "أن النبي ﷺ ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله ﷻ: إنا أنزلناه في ليلة القدر. {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر: ٢-٣] التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر".

=

الخامس: أن ملك سليمان كان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين كان خمسمائة شهر، فصار ملكهما ألف شهر، فجعل العمل في ليلة القدر خيراً من زمان ملكهما. حكاه الماوردي.

السادس: ما روي عن يوسف بن سعد، قال: قام رجل إلى الحسن بن علي، بعد ما بايع معاوية، فقال: سودت وجوه المؤمنين، أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال: لا تؤنبني رحمك الله، فإن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} يا محمد، يعني: نهرا في الجنة، ونزلت: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر: ١– ٣] يملكها بعدك بنو أمية يا محمد. قال القاسم: فعددناها [مُلْكَ بني أمية] فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص".

قال الطبري:"وأشبه الأقوال في ذلك بظاهر التنزيل قول من قال: عملٌ في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر. وأما الأقوال الأخر، فدعاوى معان باطلة، لا دلالة عليها من خبر ولا عقل، ولا هي موجودة في التنزيل".

قال ابن كثير:"وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر– وليس فيها ليلة القدر– هو اختيارُ ابن جرير. وهو الصواب لا ما عداه، وهو كقوله ﷺ: «رِباطُ ليلة في سبيل الله خَيْر من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»، وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة: «أنه يُكتَبُ له عمل سنة، أجر صيامها وقيامها»، إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك".

قال ابن عطية: وقال بعض العلماء: أخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويقصروا في غيرها.

=

قال ابن الجوزي: فأما الحكمة في إخفائها فليتحقق اجتهاد العباد في ليالي رمضان طمعا منهم في إدراكها، كما أخفى ساعة الجمعة، وساعة الليل، واسمه الأعظم، والصلاة الوسطى، والولي في الناس.

وقال ابن عاشور: وحكمة إخفاء تعيينها إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليال كثيرة توخيا لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة.

قوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ } [القدر: ٤]

أي: يكثر نزول الملائكة وجبريل عليه السلام فيها، بإذن ربهم من كل أمر قضاه في تلك السنة.

قال ابن كثير:"أي: يكثر تَنزلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له".

اختلف في تفسير الآية، على قولين:

أحدهما: تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح في ليلة القدر بإذن ربهم، من كلّ أمر قضاه الله في تلك السنة، من رزق وأجل وغير ذلك. وهذا قول قتادة.

عن قتادة، في قوله: "{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، قال: يقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها".

الثاني: تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح في ليلة القدر، لا يلقون مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلَّموا عليه. روي عن أنس مرفوعا"، وهو معنى قراءة ابن عباس.

عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «من كل امرئ سلام»".

وحكى أبو عبيد أنه روي عن ابن عباس وعكرمة: "أنهما قرءا «من كلّ امرى»، قال إسماعيل بن إسحاق: لم يذكر أبو عبيد إسناده، ولعلّه ضعيف".

قال النحاس: "إسناده ضعيف بغير «لعلّ»: رواها الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا إسناد لا يعرّج عليه، وهو مخالف للمصحف الذي تقوم به الحجّة".

=

=

عن كعب، قال: "إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة، علوها في الجنة وعروقها وأغصانها من تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله ﷻ، يعبدون الله ﷻ على أغصانها، في كل موضع شعرة منها ملك ومقام جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في وسطها، فينادي الله جبريل أن ينزل في كل ليلة قدر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى وليس فيهم ملك إلا قد أعطي الرأفة والرحمة للمؤمنين، فينزلون على جبريل في ليلة القدر حين تغرب الشمس فلا تبقى بقعة في ليلة القدر إلا وعليها ملك، إما ساجد وإما قائم، يدعو للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة، أو بيت نار أو وثن، أو بعض أماكنكم التي تطرحون فيها الخبث، أو بيت فيه سكران، أو بيت فيه مسكر، أو بيت فيه وثن منصوب، أو بيت فيه جرس معلق، أو مبولة، أو مكان فيه كساحة البيت، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لا يدع أحدا من المؤمنين إلا صافحه وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه فإن ذلك من مصافحة جبريل".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك: القول الأوّل الذي ذكرناه قبل، على ما تأوّله قتادة".

وفي «الروح» -ها هنا- أقوال:

أحدها: أن المراد به -هاهنا-: جبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فيكون من باب عطف الخاص على العام. قاله سعيد بن جبير، وهو قول الأكثرين.

يدل عليه رواية قتادة، عن أنس، أن رسول الله -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قال: «إذا كان لَيْلَةُ الْقَدْرِ نزل جبرئيل في كبكبة من الملائكة يصلّون ويسلّمون على كلّ عبد قائم أو قاعد يذكر الله سبحانه».

=

=

عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟ " قالوا: نعم".

الثاني: أن الروح: طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، قاله كعب، ومقاتل بن حيان.

وحكي الماوردي عن مقاتل:"أنهم أشرف الملائكة وأقربهم من الله".

الثالث: أنه ملَك عظيم يفي بخلق من الملائكة، قاله الواقدي.

الرابع: حفظة الملائكة، قاله ابن أبي نجيح.

الخامس: أنهم جند من الله من غير الملائكة، رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعـًا.

السادس: أن الروح والرحمة تنزل بها الملائكة على أهلها، دليله قوله تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [النحل: ٢]، أي: بالرحمة. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } [القدر: ٥]

أي: هي أمن كلها، لا شرَّ فيها إلى مطلع الفجر.

اختلف في تفسير الآية، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ليلة القدر هي ليلة سالمة من كل شر، لا يحدث فيها حدث ولا يرسل فيها شيطان، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا أو يعمل فيها أذى".

عن مجاهد: "{سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، قال: من كلّ أمر سلام".

عن عبد الرحمن بن أبي لَيلى: "{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ}، قال: لا يحدث فيها أمر".

=

=

عن ابن زيد: "{سَلامٌ هِيَ}، قال: ليس فيها شيء، هي خير كلها {حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}".

قال الضّحاك: "لا يقدر الله سبحانه في تلك الليلة إلّا السلامة، فأمّا في الليالي الأخر فيقضي الله تعالى فيهنّ البلاء والسلامة".

قال الطبري: "سلام ليلة القدر من الشرّ كله من أوّلها إلى طلوع الفجر من ليلتها".

قال الزجاج: "أي لا داء فيها، ولا يستطيع الشيطان أن يصنع فيها سيئا".

قال السمعاني: "{سَلامٌ}، أي: سلامة، والمعنى: أنه لا يعمل فيها داء ولا سحر ولا شيء من عمل الشياطين والكهنة".

الثاني: أن ليلة القدر هي سلام وخير وبركة، قاله قتادة.

عن قتادة: "{سَلامٌ هِيَ}، قال: خير {حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}".

الثالث: أن الملائكة تسلم على المؤمنين في ليلة القدر إلى مطلع الفجر، قاله الشعبي، ومنصور بن زاذان، والكلبي.

أخرج سعيد بن منصور بسنده عن الشعبي في قوله تعالى: {مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} قال: "تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر".

قال الشعبي ومنصور بن زاذان: "هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، يمرون على كلّ مؤمن ويقولون: السلام عليك يا مؤمن".

روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أنا حرضت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على القيام في شهر رمضان أخبرته أن فوق السماء السابعة حظيرة يقال لها حظيرة القدس يسكنها قوم يقال لهم الروح، فإذا كان ليلة القدر استأذنوا ربهم في النزول إلى الدنيا، فلا يمرون

=

=

بأحد يصلي أو على الطريق إلا أصابته منهم بركة، فقال له عمر: يا أبا الحسن فتحرض الناس على الصلاة حتى تصيبهم البركة، فأمر الناس بالقيام".

قرأ الكسائي «مطلع»، بكسر اللام، والآخرون بفتحها، وهو الاختيار، بمعنى الطلوع، على المصدر.

مسائل في فضائل ليلة القدر.

المسألة الأولى: تعريف ليلة القدر.

ليلة القدر تتركب من لفظين:

أولهما: ليلة وهي في اللغة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ويقابلها النهار. ولا يخرج المعنى الاصطلاحي له عن المعنى اللغوي.

وثانيهما: القدر، ومن معاني القدر في اللغة الشرف والوقار، ومن معانيه الحكم والقضاء والتضيي.

واختلف الفقهاء في المراد من القدر الذي أضيفت إليه الليلة فقيل: المراد به التعظيم والتشريف، ومنه قوله تعالى: {وما قدروا الله حق قدره} والمعنى أنها ليلة ذات قدر وشرف لنزول القرآن فيها، ولما يقع فيها من تنزل الملائكة، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة، أو أن الذي يحييها يصير ذا قدر وشرف.

وقيل: معنى القدر هنا التضييق كمثل قوله تعالى {ومن قدر عليه رزقه} ومعنى التضييق فيها إخفاؤها عن العلم بتعيينها، أو لأن الأرض تضيق فيها عن الملائكة، وقيل: القدر هنا بمعنى القدر - بفتح الدال - وهو مؤاخي القضاء: أي بمعنى الحكم والفصل والقضاء، قال العلماء: سميت ليلة القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأرزاق والآجال وغير ذلك مما سيقع في هذه السنة بأمر من الله سبحانه لهم بذلك، وذلك ما يدل عليه قول الله تعالى {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين} حيث ذهب جمهور

=

=

العلماء إلى أن الليلة المباركة الواردة في هذه الآية هي ليلة القدر، وليست ليلة النصف من شعبان كما ذهب إليه بعض المفسرين.

قال ابن قدامة في المغني (٣/ ١٧٨): ليلة القدر هي ليلة شريفة مباركة معظمة مفضلة ثم قال: وقيل: إنما سميت ليلة القدر لأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من خير ومصيبة، ورزق وبركة.

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٣٠): قوله تعالى (في ليلة القدر) قال مجاهد: في ليلة الحكم. (وما أدراك ما ليلة القدر) قال: ليلة الحكم.

والمعنى ليلة التقدير، سميت بذلك لان الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والاجل والرزق وغيره....

وقيل: سميت بذلك لان للطاعات فيها قدرا عظيما، وثوابا جزيلا.

وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لان من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها.

وقيل: سميت بذلك لانه أنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر.

وقيل: لانه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر.

وقيل: لان الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.

وقال سهل: سميت بذلك لان الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين.

وقال الخليل: لان الارض تضيق فيها بالملائكة، كقوله تعالى: (ومن قدر عليه رزقه) [الطلاق: ٧] أي ضيق.

المسألة الثانية: فضل ليلة القدر.

ذهب الفقهاء إلى أن ليلة القدر أفضل الليالي، وأن العمل الصالح فيها خير من العمل الصالح في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، قال تعالى {ليلة القدر خير من

=

=

ألف شهر}، وأنها الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، والتي ورد ذكرها في قوله تعالى {إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم}، وورد في فضلها أيضا بالإضافة إلى ما سبق قول الله تعالى {تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر}.

قال القرطبي: أي تهبط من كل سماء ومن سدرة المنتهى فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر، وتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالرحمة بأمر الله تعالى وبكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل.

وفي فضل ليلة القدر أيضا قال الله تعالى: {سلام هي حتى مطلع الفجر} أي أن ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها إلى طلوع الفجر،

قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة.

وقال مجاهد: هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى.

المسألة الثالثة: فضل إحياء ليلة القدر.

اتفق الفقهاء على أنه يندب إحياء ليلة القدر لفعل النبي ﷺ فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه (أن رسول الله ﷺ جاور في العشر الأواخر من رمضان)، ولما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ (كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر) (، والقصد منه إحياء ليلة القدر ولقوله ﷺ (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه).

ويكون إحياء ليلة القدر بالصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وأن يكثر من دعاء (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت (قلت: يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)، قال ابن

=

=

علان: بعد ذكر هذا الحديث: فيه إيماء إلى أن أهم المطالب انفكاك الإنسان من تبعات الذنوب وطهارته من دنس العيوب، فإن بالطهارة من ذلك يتأهل للانتظام في سلك حزب الله وحزب الله هم المفلحون.

المسألة الرابعة: هل الأمة المحمدية مختصة بليلة القدر.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن ليلة القدر خاصة بالأمة المحمدية ولم تكن في الأمم السابقة، واستدلوا بما روي عن مالك بن أنس أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول (إن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر) وبما روي أن رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله تعالى ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله ﷻ {إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر} (.

وذهب بعضهم إلى أن ليلة القدر كانت في الأمم السابقة واحتجوا بحديث أبي ذر رضي الله عنه وفيه (قلت يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي كل رمضان هي؟ قال: نعم قلت: أفتكون مع الأنبياء فإذا رفعوا رفعت أو إلى يوم القيامة؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة) ولكنه حديث ضعيف على الراجح.

قال النووي في المجموع (٦/ ٤٤٨): وهذا الذي ذكرناه أولا من كون ليلة القدر مختصة بهذه الامة ولم تكن لمن قبلها هو الصحيح المشهور الذى قطع به أصحابنا كلهم وجماهير العلماء وقال صاحب العدة من أصحابنا اختلف الناس هل كانت ليلة القدر للامم السالفة قال والاصح انها لم تكن إلا لهذه الامة ثم استدل بالحديث المشهور في سبب نزول السورة ا. هـ

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦: الثالث أنها خاصة بهذه الأمة ولم تكن في الأمم قبلهم، جزم به ابن حبيب وغيره من المالكية ونقله عن الجمهور وحكاه صاحب

=

=

"العدة" من الشافعية ورجحه، وهو معترض بحديث أبي ذر عند النسائي حيث قال فيه: "قلت يا رسول الله أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قال: لا بل هي باقية" وعمدتهم قول مالك في "الموطأ" بلغني أن رسول الله ﷺ تقاصر أعمار أمته عن أعمار الأمم الماضية فأعطاه الله ليلة القدر، وهذا يحتمل التأويل فلا يدفع التصريح في حديث أبي ذر ا. هـ

المسألة الخامسة: بقاء ليلة القدر.

ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة لحديث أبي ذر في المسألة السابقة وللأحاديث الكثيرة التي تحث المسلم على طلبها والاجتهاد في إدراكها، ومنها قول النبي ﷺ (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)، وقوله ﷺ (تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان).

وذهب البعض إلى أن ليلة القدر رفعت أصلا ورأسا، قال الحافظ ابن حجر: حكاه المتولي في التتمة عن الروافض والفاكهاني في شرح العمدة عن الحنفية وكأنه خطأ، والذي حكاه السروجي أنه قول الشيعة، وقد روى عبد الرزاق عن عبد الله بن يحنس قلت لأبي هريرة رضي الله عنه: زعموا أن ليلة القدر رفعت، قال: كذب من قال ذلك، وعن عبد الله بن شريك قال: ذكر الحجاج ليلة القدر فكأنه أنكرها فأراد زر بن حبيش أن يحصبه فمنعه قومه (.

المسألة السادسة: محل ليلة القدر.

اختلف الفقهاء في محل ليلة على أقول كثيرة وصلت إلى أكثر من أربعين قول وأشهر هذه الأقول ما يلي:

ذهب جمهورهم وهو المذهب عند الحنفية إلى أن محل ليلة القدر في رمضان دائرة معه، لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه أنزل القرآن في ليلة القدر بقوله {إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر}.

=

=

وأخبرنا كذلك أنه أنزل القرآن في شهر رمضان بقوله تعالى {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان}، الآية، مما يدل على أن ليلة القدر منحصرة في شهر رمضان دون سائر ليالي السنة الأخرى.

كما استدلوا بالأحاديث الصحيحة والتي سبق نقلها وهي تدل على أن محل ليلة القدر في شهر رمضان.

وذهب بعض العلماء ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبو حنيفة في المشهور عنه إلى أن محل ليلة القدر في جميع السنة تدور فيها، قد تكون في رمضان وقد تكون في غير رمضان (فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول (من يقم الحول يصب ليلة القدر) مشيرا إلى أنها في السنة كلها، ولما بلغ قوله هذا إلى أبي بن كعب رضي الله عنه قال: يرحم الله أبا عبد الرحمن أما إنه علم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان ولكنه أراد ألا يتكل الناس.

وقد واختلف جمهور الفقهاء الذين ذهبوا إلى أن ليلة القدر في شهر رمضان في محلها من الشهر وذلك بعدما قالوا: يستحب طلب ليلة القدر في جميع ليالي رمضان وفي العشر الأواخر آكد، وليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان آكد، للأحاديث السابقة.

وفيما يلي أشهر أقوال العلماء في محلها:

القول الأول: الصحيح المشهور لدى جمهور الفقهاء، وهم المالكية والشافعية والحنابلة، والأوزاعي وأبو ثور أنها في العشر الأواخر من رمضان لكثرة الأحاديث التي وردت في التماسها في العشر الأواخر من رمضان، وتؤكد أنها في الأوتار ومنحصرة فيها، والأشهر والأظهر عند المالكية أنها ليلة السابع والعشرين وبهذا يقول الحنابلة، فقد صرح البهوتي بأن أرجاها ليلة سبع وعشرين نصا.

=

=

قال ابن حزم في المحلى (٧/ ٣: ليلة القدر واحدة في العام في كل عام، في شهر رمضان خاصة، في العشر الأواخر خاصة، في ليلة واحدة بعينها لا تنتقل أبدا إلا أنه لا يدري أحد من الناس أي ليلة هي من العشر المذكور إلا أنها في وتر منه، ولا بد. فإن كان الشهر تسعا وعشرين فأول العشر الأواخر بلا شك: ليلة عشرين منه؛ فهي إما ليلة عشرين، وأما ليلة اثنين وعشرين، وأما ليلة أربع وعشرين، وأما ليلة ست وعشرين، وأما ليلة ثمان وعشرين؛ لإن هذه هي الأوتار من العشر الأواخر. إن كان الشهر ثلاثين فأول العشر الأواخر بلا شك: ليلة إحدى وعشرين، فهي إما ليلة إحدى وعشرين، وأما ليلة ثلاث وعشرين، وأما ليلة خمس وعشرين، وأما ليلة سبع وعشرين، وأما ليلة تسع وعشرين، لإن هذه هي أوتار العشر بلا شك ا. هـ

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٤، ٢٨٥): وتكون في الوتر منها، لكن الوتر يكون باعتبار الماضي، فتطلب ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وليلة خمس وعشرين، وليلة سبع وعشرين، وليلة تسع وعشرين، ويكون باعتبار ما بقي كما قال النبي ﷺ «لتاسعة تبقى لسابعة تبقى لخامسة تبقى لثالثة تبقى»، فعلى هذا إذا كان الشهر ثلاثين يكون ذلك ليالي الأشفاع وتكون الاثنين والعشرين تاسعة تبقى، وليلة أربع وعشرين سابعة تبقى، وهكذا فسره أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح، وهكذا أقام النبي ﷺ في الشهر، وإن كان الشهر تسعا وعشرين كان التاريخ بالباقي كالتاريخ الماضي، وإذا كان الأمر هكذا فينبغي أن يتحراها المؤمن في العشر الأواخر جميعه كما قال النبي ﷺ: «تحروها في العشر الأواخر»، وتكون في السبع الأواخر أكثر، وأكثر ما تكون ليلة سبع وعشرين كما كان أبي بن كعب- رضي الله عنه- يحلف أنها ليلة سبع وعشرين. فقيل له: بأي شيء علمت ذلك؟ فقال بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ «أخبرنا أن الشمس

=

=

تطلع صبحة صبيحتها كالطشت لا شعاع لها»، فهذه العلامة التي رواها أبي بن كعب عن النبي- ﷺ ا. هـ

وقال العلامة الألباني في قيام رمضان (ص ١٢): وأفضل لياليه ليلة القدر.. وهي ليلة سابع وعشرين من رمضان على الأرجح وعليه أكثر الأحاديث منها حديث زر بن حبيش قال: سمعت أبي ابن كعب يقول وقيل له إن عبد الله بن مسعود يقول (من قام السنة أصاب ليلة القدر فقال أبي رضي الله عنه: رحمه الله أراد أن لا يتكل الناس والذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان- يحلف ما يستثني- ووالله إني لأعلم أي ليلة هي؟ هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها هي ليلة صبيحة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها) ورفع ذلك في رواية إلى النبي ﷺ وسل.

(فائدة): بعضهم ينزع في ذلك بإشارة عليها بني الصوفية عقدهم في كثير من الأدلة ويقول: أعددت حروف {إِنا أَنزَلْنَاهُ} فقولك هي: هو الحرف السابع والعشرون.

قال ابن حزم في المحلى (٧/ ٣٥): ومن طرائف الوسواس: احتجاج ابن بكير المالكي في أنها ليلة سبع وعشرين بقول الله تعالى: {سلام هي} قال: فلفظة "هي" هي السابعة وعشرون من السورة. قال أبو محمد: حق من قام هذا في دماغه أن يعاني بما يعاني به سكان المارستان نعوذ بالله من البلاء، ولو لم يكن له من هذا أكثر من دعواه أنه وقف على ما غاب من ذلك، عن رسول الله ﷺ ولم ينس من علم الغيب ما أنساه الله عز وجل نبيه عليه السلام، ومن بلغ إلى هذا الحد فجزاؤه أن يخذله الله تعالى مثل هذا الخذلان العاجل ثم في الآخرة أشد تنكيلا.

القول الثاني: قال ابن عابدين في حاشيته (٢/ ١٣٧): ليلة القدر دائرة مع رمضان، بمعنى أنها توجد كلما وجد، فهي مختصة به عند الإمام وصاحبيه، لكنها عندهما في ليلة معينة منه، وعنده لا تتعين.

=

=

وقال الطحطاوي في حاشيته على مراقي الفلاح (ص ٢١٨): ذهب الأكثر إلى أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين، وهو قول ابن عباس وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، ونسبه العيني في شرح البخاري إلى الصاحبين.

القول الثالث: قال النووي في المجموع (٦/ ٤٤٩، ٤٥٠): مذهب الشافعية وجمهور أصحابنا أنها منحصرة في العشر الأواخر من رمضان مبهمة علينا، ولكنها في ليلة معينة في نفس الأمر لا تنتقل عنها ولا تزال من تلك الليلة إلى يوم القيامة، وكل ليالي العشر الأواخر محتملة لها، لكن ليالي الوتر أرجاها، وأرجى الوتر عند الشافعي ليلة الحادي والعشرين، وقال الشافعي في موضع إلى ثلاثة وعشرين، وقال البندنيجي: مذهب الشافعي أن أرجاها ليلة إحدى وعشرين، وقال في القديم: ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين فهما أرجى لياليها عنده، وبعدهما ليلة سبع وعشرين. هذا هو المشهور في المذهب أنها منحصرة في العشر الأواخر من رمضان.

وقال الشربيني الخطيب في مغني المحتاج (١/ ٤٥٠):. وقال ابن عباس وأبي رضي الله عنهم: هي ليلة سبع وعشرين وهو مذهب أكثر أهل العلم.

القول الرابع: أنها أول ليلة من رمضان، وهو قول أبي رزين العقيلي الصحابي لقول أنس رضي الله عنه: ليلة القدر أول ليلة من رمضان، نقلها عنهما ابن حجر.

القول الخامس: أنها ليلة سبع عشرة من رمضان، روى ابن أبي شيبة والطبراني من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال (ما أشك ولا أمتري أنها ليلة سبع عشرة من رمضان ليلة أنزل القرآن، وروي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه بحجة أنها هي الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ونزل فيها القرآن لقوله تعالى {وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان}، وهو ما يتوافق تماما مع قوله تعالى في ليلة القدر {إنا أنزلناه في ليلة القدر}.

=

=

القول السادس: أنها مبهمة في العشر الأوسط، حكاه النووي وقال به بعض الشافعية وهو قول للمالكية وعزاه الطبري إلى عثمان بن أبي العاص ﵁ والحسن البصري.

القول السابع: أنها ليلة تسع عشرة، قال ابن حجر: رواه عبد الرزاق عن علي ﵁ وعزاه الطبري لزيد بن ثابت وابن مسعود ﵄ ووصله الطحاوي عن ابن مسعود ﵁.

القول الثامن: أنها متنقلة في ليالي العشر الأواخر تنتقل في بعض السنين إلى ليلة وفي بعضها إلى غيرها، وذلك جمعا بين الأحاديث التي وردت في تحديدها في ليال مختلفة من شهر رمضان عامة ومن العشر الأواخر خاصة، لأنه لا طريق إلى الجمع بين تلك الأحاديث إلا بالقول بأنها متنقلة، وأن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يسأل، فعلى هذا كانت في السنة التي رأى أبو سعيد ﵁ النبي ﷺ يسجد في الماء والطين ليلة إحدى وعشرين، وفي السنة التي أمر عبد الله بن أنيس بأن ينزل من البادية ليصلي في المسجد ليلة ثلاث وعشرين، وفي السنة التي رأى أبي بن كعب ﵁ علامتها ليلة سبع وعشرين (، وقد ترى علامتها في غير هذه الليالي، وهذا قول مالك وأحمد والثوري وإسحاق وأبي ثور وأبي قلابة والمزني وصاحبه أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة والماوردي وابن حجر العسقلاني من الشافعية، وقال النووي: وهذا هو الظاهر المختار، لتعارض الأحاديث الصحيحة في ذلك ولا طريق إلى الجمع بين الأحاديث إلا بانتقالها، وقيل: إن ليلة القدر متنقلة في شهر رمضان كله.

قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦٠): قوله- أي: الإمام البخاري -: "باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ": في هذه الترجمة إشارة إلى رجحان كون ليلة

=

=

القدر منحصرة في رمضان، ثم في العشر الأخير منه، ثم في أوتاره، لا في ليلة منه بعينها، وهذا هو الذي يدل عليه مجموع الأخبار الواردة فيها ا. هـ

(فرع): قال بعض أهل العلم: أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في طلبها، ويجدوا في العبادة طمعا في إدراكها كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكثروا من الدعاء في اليوم كله، وأخفى اسمه الأعظم في الأسماء، ورضاه في الطاعات ليجتهدوا في جميعها، وأخفى الأجل وقيام الساعة ليجد الناس في العمل حذرا منهما.

المسألة السابعة: ما يشترط لنيل فضل ليلة القدر.

نص فقهاء المالكية والشافعية على مسألة اشتراط العلم بليلة القدر لنيل فضلها أو عدم اشتراطه واختلفوا في ذلك، فذهب بعض المالكية والشافعية إلى أنه لا ينال فضل ليلة القدر إلا من أطلعه الله عليها، فلو قام إنسان ولم يشعر بها لم ينل فضلها، وقال آخرون من فقهاء المذهبين: إنه لا يشترط لنيل فضل ليلة القدر العلم بها، ويستحب التعبد في كل ليالي العشر الأواخر من رمضان حتى يحوز الفضيلة على اليقين.

ورجح فقهاء المذهبين الرأي الثاني وقالوا: ومع ذلك فإن حال من اطلع على ليلة القدر أكمل وأتم في الفضل إذا قام بوظائفها.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٤/ ٢٢٩):.. وثبوت أجر ليلة القدر حاصل لمن قامها إيماناً واحتساباً سواء علم بها أو لم يعلم؛ لأن النبي ﷺ يقول: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه" ولم يقل إذا علم أنه أصابها فلا يشترط في حصول ثواب ليلة القدر أن يكون العامل عالماً بها بعينها، ولكن من قام العشر الأواخر من رمضان كلها إيماناً واحتساباً فإننا نجزم بأنه أصاب ليلة القدر سواء في أول العشر أو في وسطها أو في آخرها. والله الموفق.

=

=

المسألة الثامنة: علامات ليلة القدر.

لليلة القدر علامات تظاهرت بها الأحاديث، من هذه الأحاديث:

١ -حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا (إنها صافية بلجة كأن فيها قمرا ساطعا ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر ولا يحل لكوكب أن يرمى به فيها حتى تصبح وأن من أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ) أخرجه من طريقين أحمد (٥/ ٣٢٤، رقم ٢٢٨١٧)، وابن نصر في قيام الليل (ص ١٠٨)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٨٦)، والطبراني في مسند الشاميين (١١١٩)، والبيهقي في الشعب (٣٤٢٠)، والضياء في المختارة (٨/ ٢٧٩، رقم ٣٤٢) والحديث قال عنه البيهقي في فضائل الأوقات (ص ٢٤٠): حديث ضعيف، ابن عبد البر في الإستذكار (٣/ ٣٠٠): حسن غريب ورواته كلهم ثقات، وفيه بقية إذا روى عن الثقات فليس في حديثه بأس، وقال ابن كثير في جامع المسانيد (٥٧٢٩): إسناده حسن، إلا أنه منقطع، وقال في تفسيره (٨/ ٤٦٦): في المتن غرابة، وقال العراقي في ليلة القدر (٥١): إسناده جيد، وقال الهيثمي (٣/ ١٧٥): رجاله ثقات، وقال العلامة الألباني في الضعيفة تحت الحديث (٤٤٠٤): هذا إسناد رجاله ثقات، صرح بقية فيه بالتحديث، فهو صحيح إن كان ابن معدان سمع من عبادة، وذلك مما نفاه أبو حاتم، وبين وفاتيهما نحو سبعين سنة، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: الشطر الأول من الحديث حسن وأما الشطر الثاني فمحتمل للتحسين لشواهده وإسناد هذا الحديث ضعيف.

٢- حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رفعه (إني كنت أُريت ليلة القدر، ثم نُسيتها، وهي في العشر الأواخر، وهي طلقة بلجة لا حارة ولا باردة كأن فيها قمرا يفضح كواكبها، لا يخرج شيطانها حتى يخرج فجره) أخرجه ابن خزيمة (٢١٩٠) وعنه

=

=

ابن حبان (٣٦٨٨) من طريق الفضيل بن سليمان النميري ثنا عبد الله بن عثمان بن خُثيم عن أبي الزبير عن جابر به، والفضيل بن سليمان مختلف فيه والأكثر على تضعيفه، وابن خثيم صدوق، وأبو الزبير ثقة يدلس ولم يذكر سماعا من جابر فالإسناد ضعيف، لذا قال العلامة الألباني في الضعيفة تحت الحديث (٤٤٠٤): وهذا ضعيف أيضاً؛ أبو الزبير مدلس وقد عنعنه، والفضيل بن سليمان؛ مع كونه من رجال الشيخين فله خطأ كثير؛ كما قال الحافظ.

٣- حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه (ليلة القدر بلجة، لا حارة ولا باردة، ولا سحاب فيها ولا مطر ولا ريح ولا يُرمى فيها بنجم، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شعاع لها) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٥٩) وفي مسند الشاميين (٣٣٨٩) من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ثنا بشر بن عون عن بكار بن تميم عن مكحول عن واثلة به. قال الهيثمي: وفيه بشر بن عون عن بكار بن تميم وكلاهما ضعيف" المجمع ٣/ ١٧٩، وقال أبو حاتم: بشر وبكار مجهولان. وقال ابن حبان: بشر أحاديثه كلها موضوعة لا يجوز الاحتجاج به بحال.

٤- حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ (قال في ليلة القدر ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، تصبح شمسها صبيحتها ضعيفة حمراء) أخرجه الطيالسي (ص ٣٤٩) عن زَمْعَة بن صالح اليماني عن سلمة بن وَهرَام عن عكرمة عن ابن عباس به. ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في "أخبار أصبهان" (٢/ ٢٦) والبيهقي في "الشعب" (٣٤١٩)

وأخرجه ابن نصر في "قيام الليل" (ص ٢٣٨- ٢٣٩) والبزار (كشف ١٠٣٤) وابن خزيمة (٢١٩٢) وأبو القاسم الأصبهاني في "الترغيب" (١٨٣١) من طريق أبي عامر العَقَدي عن زمعة بن صالح به. قال ابن خزيمة: إنْ صح الخبر فإنّ في القلب من حفظ زمعة" وقال البيهقي: في الإسناد ضعف"، وقال في فضائل

=

=

الأوقات (ص ٢٤٠): حديث ضعيف"، قلت: وعلته زمعة بن صالح فإنّه ضعيف كما قال أبو داود وغيره، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥٤٧٥).

٥- حديث ابن مسعود رضي الله عنه رفعه (إنّ ليلة القدر في النصف من السبع الأواخر من رمضان تطلع الشمس غداة إذ صافية ليس لها شعاع) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٦) عن أبي النضر هاشم بن القاسم ثنا أبو معاوية- يعني شيبان- عن أبي اليعفور عن أبي الصلت عن أبي عقرب قال: غدوت إلى ابن مسعود ذات غداة في رمضان فوجدته فوق بيته جالسا فسمعنا صوته وهو يقول: صدق الله وبلغ رسوله، فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فذكره. وأخرجه أبو يعلى (المقصد العلي ٥٢٦) عن أبي خيثمة زهير بن حرب ثنا شجاع بن الوليد بن قيس ثنا أبو خالد الدالاني عن طلق بن حبيب عن أبي عقرب الأسدي قال: فذكر نحوه. وأخرجه البخاري في "الكنى" (ص ٦٢) عن عبد الله بن محمد بن عبد الله الجُعْفي ثنا شجاع بن الوليد به. قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى وأبو عقرب لم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات" المجمع ٣/ ١٧٤، وأبو عقرب ترجمه البخاري في "الكنى" (ص ٦٢) وابن أبي حاتم في "الجرح" (٤/ ٢/ ٤١٨) والحسيني في "الإكمال" (ص ٥٣٥) وابن عبد البر في "الكنى" (٣/ ١٤٩٠) ولم يذكروا فيه جرحاً ولا تعديلا. وحكى الحافظ في "التعجيل" عن الحسيني أنّه قال: مجهول. وأبو الصلت مجهول كذلك كما في "التعجيل" لكنّه لم ينفرد به. وأبو خالد الدالاني مختلف فيه، والباقون كلهم ثقات.

٦- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال (تذاكرنا ليلة القدر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم و سلم فقال أيكم يذكر حين طلع القمر وهو مثل شق جفنة) أخرجه مسلم (١١٧٠).

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٤/ ٢٣٠): وأما علاماتها: فإن من علاماتها أن تخرج الشمس صبيحتها صافية لا شعاع فيها، وهذه علامة متأخرة،

=

=

وفيها علامات أخرى كزيادة الأنوار فيها، وطمأنينة المؤمن، وراحته، وانشراح صدره، كل هذه من علامات ليلة القدر.

(فرع): كيفية رؤية ليلة القدر.

ليلة القدر ترى بـ:

١- بالعيان، وذلك برؤية علاماتها الصحيحة المتقدمة.

٢- بالمنام، وقد دلت على ذلك الأخبار الصحيحة كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥) أن رجالا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله ﷺ أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر).

٣- بالشعور والإحساس الصادق، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٥): وأكثر ما تكون ليلة سبع وعشرين كما كان أبي بن كعب يحلف أنها ليلة سبع وعشرين. فقيل له: بأي شيء علمت ذلك؟ فقال بالآية التي أخبرنا رسول الله. " {أخبرنا أن الشمس تطلع صبحة صبيحتها كالطشت لا شعاع لها}. فهذه العلامة التي رواها أبي بن كعب عن النبي ﷺ من أشهر العلامات في الحديث وقد روي في علاماتها " {أنها ليلة بلجة منيرة} وهي ساكنة لا قوية الحر ولا قوية البرد وقد يكشفها الله لبعض الناس في المنام أو اليقظة. فيرى أنوارها أو يرى من يقول له هذه ليلة القدر وقد يفتح على قلبه من المشاهدة ما يتبين به الأمر ا. هـ

وقال العلامة الألباني في شرح كتاب الصيام من بلوغ المرام: ذلك أمر وجداني، يشعر به كل من أنعم الله تبارك وتعالى عليه برؤية ليلة القدر، لأن الإنسان في هذه الليلة يكون مقبلاً على عبادة الله ﷻ، وعلى ذكره، والصلاة له، فيتجلى الله ﷻ

=

سورة البينة(١)

=

علـى بعـض عبـاده بـشعور لـيس يعتـاده حتـى الـصالحون لا يعتادونـه في سـائر أوقاتهم....

(تنبيه): التحذير من علامات لا تصح منها:

١- أن الأشجار تسقط حتى تصل الأرض ثم تعود إلى أوضاعها.

٢- أن ماء البحر ليلتها يصبح عذبا.

٣- أن الكلاب لا تنبح فيها.

٤- أن الملائكة تنزل وتسلم على المسلمين.

٥- الحمير لا تنهق فيها.

٦- الأنوار تكون في كل مكان حتى في الأماكن المظلمة في تلك الليلة.

فكل هذا وغيره مما لا أصل له ولم يثبت عن النبي ﷺ، وإن ذكره بعض أهل العلم.

(١) اختلف أهل العلم في موضع وقت هذه السورة، على قولين:

أحدهما: أنها مكّيّة، قالته عائشة، وأبو صالح عن ابن عباس، واختاره يحيى بن سلام.

عن عائشة قالت: نزلت سورة {لم يكن} بمكة".

الثاني: أنها مدنيّة. قاله ابن الزبير وعطاء بن يسار. والجمهور.

قال ابن عطية:"هي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار إنها مدنية والأول أشهر".

=

=

قال ابن عاشور:"أي وأبي من أهل المدينة. وجزم البغوي وابن كثير بأنها مدنية، وهو الأظهر لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب ولحديث أبي حبة البدري، وقد عدها جابر بن زيد في عداد السور المدنية".

قال ابن عطية: إن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة.

* آياتها فى عدّ البصرى سبع، وعند الباقين ثمان. وكلماتها أَربع وسبعون. وحروفها ثلاثمائة وتسع وتسعون. المختلف فيها آية: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدين}. فواصل آياتها على الهاءِ.

* تسمى «سورة البيّنة» اشتهرت باسم «سورة البيّنة»، وكتبت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير، ووجه تسميتها لورود لفظ «البيّنة» في مفتتح السورة، قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: ١].

وتسمى «لم يكن الذين كفروا» أو «لم يكن» وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي ﷺ: «لم يكن الذين كفروا»، روى البخاري ومسلم عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا»، قال: وسماني لك؟ قال: «نعم»، قال: فبكى».

فقوله: «أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا»، واضح أنه أراد السورة كلها فسماها بأول جملة فيها.

وسميت السورة في مجموعة من كتب التفسير، وكتب السنة : «سورة لم يكن»، بالاقتصار على أول كلمة منها، لأنها أول جملة افتتحت بها السورة، ولم تفتتح بها سورة اخرى من القرآن.

وتسمى «سورة القيّمة» سميت في مجموعة من المصاحف «سورة القيمة» وكذلك في بعض التفاسير، وكتب علوم القرآن، ووجه تسميتها بذلك، أنها ذكرت فيها

=

=

لفظ: «القيمة» في قوله تعالى: {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]، ولم ترد في غيرها من القرآن.

وتسمى «سورة البريّة» سميت سورة «البرية»، وذلك لورود هذا اللفظ فيها مرتين، قال تعالى: {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البينة: ٦]، وقال تعالى: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: ٧].

وقد أورد هذا الاسم، الألوسي، والقاسمي، والسخاوي، والسيوطي، في كتبهم.

وتسمى «سورة المنفكين» سميت «سورة المنفكين»، ودونت في بعض المصاحف نسخ سنة ٧٨٥ هـ، كما عنون لها الثعلبي في «الكشف والبيان»، وذكرها الشربيني، وشهاب الدين، والألوسي، والقاسمي، وأوردها الفيروزآبادي في «البصائر»، معللا تسميتها بذلك لقوله تعالى: {وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّين} [البينة: ١]، وسماها السخاوي، ونقل عنه السيوطي، بلفظ: «سورة الانفكاك».

وقد نقلها السيوطي عن السخاوي باسم: «القيامة»، وكذلك الألوسي ذكرها باسم «القيامة». ولعله تصحيف من لفظ «القيّمة»، لأن لفظ: «القيامة»، لم تذكر في السورة، وليست له علاقة وطيدة بمضمون السورة، ومن جهة أخرى توجد سورة أخرى باسم «القيامة»، -والله أعلم-.

وتسمى «سورة أهل الكتاب» ذكر في «الإتقان» : أنها سميت في مصحف أبيّ: «سورة أهل الكتاب»، أي: لقوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: ١].

وذكر الألوسي أنها تسمى: «سورة البلد»، ولم ينسبه لقائل، ولم يعلل تسميتها بذلك، وهي تسمية غريبة، لا علاقة لها بمضمون السورة، ولم اجد أثرا يعززها.

* معظم مقصود السّورة: بيان تمرّد أَهل الكتاب، والخبرُ من صحة أَحكام القرآن، وذكر وظيفة الخَلْق فى خدمة الرحمن، والإشادة بخير البريّة من الإنسان، وجزاء

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١).

{لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ} لِلْبَيَانِ {أَهْل الْكِتَاب وَالْمُشْرِكِينَ} أَيْ عَبَدَة الْأَصْنَام عَطْف عَلَى أَهْل {مُنْفَكِّينَ} خَبَر يَكُنْ أَيْ زَائِلِينَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ {حَتَّى تَأْتِيهِمْ} أَيْ أَتَتْهُمْ {الْبَيِّنَة} أَيْ الْحُجَّة الْوَاضِحَة وَهِيَ مُحَمَّد ﷺ.

رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢).

{رَسُول مِنْ الله} بَدَل مِنْ الْبَيِّنَة وَهُوَ النبي ﷺ {يتلو صُحُفًا مُطَهَّرَة} مِنْ الْبَاطِل.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣).

{فِيهَا كُتُب} أَحْكَام مَكْتُوبَة {قَيِّمَة} مُسْتَقِيمَة أَيْ يَتْلُو مَضْمُون ذَلِكَ وَهُوَ الْقُرْآن فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤).

{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب} فِي الْإِيمَان بِهِ ﷺ {إِلَّا مِنْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَة} أَيْ هُوَ ﷺ أَوْ الْقُرْآن الْجَائِي بِهِ مُعْجِزَة لَهُ وَقَبْل مَجِيئِهِ ﷺ كَانُوا

=

كلّ أَحد منهم بحسب الطَّاعة والعصيان، وبيان أَن موعود الخائفين من الله الرّضا والرضوان، فى قوله: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}.

* والمتشابه فيها إِعادة البينة، والبرية، وقد سبق) بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٣٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَان بِهِ إِذَا جَاءَهُ فَحَسَدَهُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥).

{وَمَا أُمِرُوا} فِي كِتَابهمْ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل {إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله} أَيْ أَنْ يَعْبُدُوهُ فَحُذِفَتْ أَنْ وَزِيدَتْ اللَّام {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} مِنْ الشِّرْك {حُنَفَاء} مُسْتَقِيمِينَ عَلَى دِين إِبْرَاهِيم وَدِين مُحَمَّد إِذَا جَاءَ فَكَيْف كَفَرُوا بِهِ {وَيُقِيمُوا الصَّلَاة وَيُؤْتُوا الزَّكَاة وَذَلِكَ دِين} الْمِلَّة {الْقَيِّمَة} الْمُسْتَقِيمَة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْل الْكِتَاب وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَار جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا} حَال مُقَدَّرَة أَيْ مُقَدَّرًا خُلُودهمْ فِيهَا مِنْ الله تَعَالَى {أُولَئِكَ هُمْ شَرّ الْبَرِيَّة}.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولَئِكَ هُمْ خَير الْبَرِيَّة} الْخَلِيقَة.

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨).

{جزاؤهم عند ربهم جنات عدن} إقَامَة {تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُمْ} بِطَاعَتِهِ {وَرَضُوا عَنْهُ} بِثَوَابِهِ {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبّه} خَافَ عِقَابه فَانْتَهَى عن معصيته تعالى[1].

---

(١) قوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [البيّنة: ١]، أي: "لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين".

=

=

أي لا يزالون في غيهم وضلالهم ولا يزيدهم مرور الأوقات إلا كفرا.
الله تعالى لم يذكر أنهم منفكين عن ماذا، لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول.
قال مقاتل:"وذلك أن أهل الكتاب «قالوا: متي يبعث الذي نجده في كتابنا، وقالت العرب: «{لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (٦٨) {لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ} [الصافات: ١٦٨- ١٦٩] فنزلت: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... }".
قال ابن كثير:"أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عَبَدةُ الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم".
قوله تعالى: {مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البيّنة: ١]، أي:"تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وُعِدوا بها في الكتب السابقة".
وهذه حكاية لحالهم في ذلك الزمان، لأنهم ينتظرون بعث نبي آخر الزمان، ولكنهم لما بعث افترقوا فيه.
قال ابن فورك:"البينة: الحجة الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل، وكل برهان بينة".
وفي قوله تعالى: {مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البيّنة: ١]، وجوه من التفسير:
أحدها: لم يكن الكفار منتهين عما هم عليه حتى يجيئهم الرسول، فيبيّن لهم ضلالتهم. وهذا قول مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وعطاء، ومقاتل. وبه قال الزجاج.
قال مقاتل:"{مُنْفَكِّينَ}، يعني: منتهين عن الكفر والشرك، {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} محمد- ﷺ- فبيّن لهم ضلالتهم وشركهم".

=

=

قال الثعلبي:" {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ} الحجّة الواضحة، وهي محمد -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم، وهداهم إلى الإيمان".

قال الفراء:" {الْبَيِّنَةُ}، يعني: بعثه محمد ﷺ والقرآن".

قال ابن الجوزي:"وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم".

عن مجاهد: " {مُنْفَكِّينَ}، قال: لم يكونوا ليَنتهوا حتى يتبين لهم الحق".

قال ابن زيد:"لم يكونوا منتهين حتى يأتيهم؛ ذلك المنفكّ".

قال عطاء:"منفكين: بارحين.

عن قتادة: {مُنْفَكِّينَ}، قال: منتهين عما هم فيه".

قال الزجاج:"معنى {مُنْفَكِّينَ}: منتهين عن كفرهم".

عن قتادة: " {مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}، أي: هذا القرآن".

عن ابن جريج:" {حَتّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةَ}، قال: محمد".

قال الربيع:"لم يزالوا مقيمين على الشرك والريبة حتى تأتيهم البينة، يعنى: الرسل".

قال أهل اللغة:"أصل «الفكّ»: الفتح، ومنه: فكّ الكتاب، وفكّ الخلخال، وفكّ البيالم وهي خورنق العطر، قال طرفة :

وآليت لا ينفك كشحي بطانة... لعضب رقيق الشفرتين منهد".

قال ابن فورك:"«الانفكاك»: انفصال عن شدة اجتماع، وأكثر ما يستعمل في النفي كما أن ما زال كذلك تقول: ما انفك من هذا الأمر، أي: ما انفصل منه لشدة ملابسته".

الثاني: لم يكن الكفار متفرّقين إلا من بعد أن جاءهم الرسول، لأنهم فارقوا ما عندهم من صفة النبي ﷺ فكفروا بعد البيان، فأقر بعضهم، وأنكر البعض. قاله ابن كيسان، وحكاه الفراء.

=

=

قال ابن كيسان:"معناه: لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد -عليه السلام- حتى بعث، فلمّا بعث تفرّقوا فيه".

قال الفراء:"فلما ظهر تفرقوا واختلفوا، ويصدق ذلك، قوله ﷻ: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: ٤]".

واختاره النحاس وقال:"وهذا القول في العربية أولى لأن منفكّين لو كان بمعنى زائلين لاحتاج إلى خبر ولكن يكون من انفكّ الشيء من الشيء أي فارقه، كما قال ذو الرمّة:

قلائص ما تنفكّ إلّا مناخة... على الخسف أو يرمي بها بلدا قفرا

الثالث: لم يكونوا ليتركوا منفكين عن حجج الله حتى تأتيهم البينة التي تقوم بها عليهم الحجة، قال امرؤ القيس:

إذا قُلْتُ أَنْفَكَّ مِن حُبّها... أبى عالقُ الحُبِّ إلا لُزوما

قال الثعلبي:"قال بعض أئمّة أهل اللغة: قوله: {مُنْفَكِّينَ}، أي: هالكين. من قوله: انفك صلا المرأة عند الولادة. وهو أن تنفصل ولا يلتئم فهلك، ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين، أي: معذّبين إلّا بعد قيام الحجّة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتب".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: معنى ذلك: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مفترقين في أمر محمد، حتى تأتيهم البيِّنة، وهي إرسال الله إياه رسولا إلى خلقه، رسول من الله. وقوله: {مُنْفَكِّينَ} في هذا الموضع عندي من انفكاك الشيئين أحدهما من الآخر، ولذلك صَلُح بغير خبر، ولو كان بمعنى ما زال، احتاج إلى خبر يكون تماما له، واستؤنف قوله {رَسُولٌ مِنَ اللهِ} هي نكرة على البيِّنة، وهي معرفة، كما قيل: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ}،

=

=

فقال: حتى يأتيهم بيان أمر محمد أنه رسول الله، ببعثة الله إياه إليهم، ثم ترجم عن البيِّنة، فقال: تلك البينة".

وفي قراءة أبيّ بن كعب: «ما كان الذي كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين»، وفي قراءة ابن مسعود: «لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين».

عن أبي الأسود قال: "رأيت مصحف عبد الله بن مسعود: «لَمْ يَكُنْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ذَاتُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ وَإِنَّ الدِّينَ الْحَنِيفِيَّةَ الْمُسْلِمَةَ غَيْرَ الْمُشْرِكَةِ لَمْ يَكُونُوا مُفْتَرِقِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ». وقال أبو الأسود: وقال عروة بن الزبير: إن الناس اختلفوا في قراءة: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب}، فدخل عمر بن الخطاب على حفصة بأديم، فقال: إذا دخل عليكم رسول الله ﷺ فاسأليه يعلمك: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب}، وقولي له يكتبها لك في هذا الأديم؛ ففعلت فكتبها لها، فهي قراءة العامة".

(تنبيه): ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين؟ حيث قال (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين)؟

الجواب: أن الواو لا تفيد الترتيب، ومع هذا ففيه فوائد:

أحدها: أن السورة مدنية فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر.

وثانيها: أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم، فكان إصرارهم على الكفر أقبح.

وثالثها: أنهم لكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم فكان كفرهم أصلا لكفر غيرهم، فلهذا قدموا في الذكر ورابعها: أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا في الذكر.

قوله تعالى: {رَسُولٌ مِنَ اللهِ} [البيّنة: ٢]، أي:"هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى".

=

=

وإطلاق البينة عليه كإطلاق النور والسراج عليه ﷺ، لأنه يبين للعباد ما نزل إليهم من ربهم.

كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون).

وقد أخبر الله عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون على العرب بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، أي: يستنصرون به على مشركي العرب، ويتحرون ظهوره لما هو مكتوب عندهم في كتبهم، فيتبعونه بزعمهم.

كما قال تعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

كما أخبر عن المشركين أنهم يقسمون أنه إذا بعث فيهم رسول أن يتبعوه قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا). هذا معنى الآية عند بعض المفسرين.

قال السمعاني:"أي: هو رسول من الله، وقيل: حتى أتاهم رسول من الله".

قال ابن كثير يعني: محمدًا ﷺ".

قوله تعالى: {يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً} [البيّنة: ٢]، أي:"يتلو قرآنًا في صحف مطهرة".

قال الطبري:"يقول: يقرأ صحفا مطهرة من الباطل".

قال السمعاني:"أي: ما في الصحف، {مطهرة} من التغيير والتبديل والإدناس والإنجاس".

قال ابن كثير: يعني:"ما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى، في صحف مطهرة كقوله: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٣- ١٦]".

قال الزمخشري:"{صُحُفًا}: قراطيس، {مُطَهَّرَةً} من الباطل".

=

=

قال قتادة:"يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء".

قال أهل العلم:"أعلم الله تعالى في القرآن بأنه مجموع في الصحف في قوله: {يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً}، الآية، فكان القرآن مكتوباً في الصحف لكن كانت مفرقة فجمعها أبو بكر في مكان واحد، ثم كانت بعده محفوظة إلى أن أمر عثمان بالنسخ منها عدة مصاحف وأرسل بها إلى الأمصار".

قوله تعالى: {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [البيّنة: ٣].

أي: في تلك الصحف أخبار صادقة وأوامر عادلة، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

قال الطبري:"يقول: في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله".

قال مقاتل:"يعني: كتابا مستقيما على الحق ليس فيه عوج ولا اختلاف، وإنما سميت كتابا، لأن فيها أمورا شتى كثيرة مما ذكر الله ﷻ في القرآن".

قال الزجاج:"أي: كتب غير ذات عوج مستقيمة تبين الحق من الباطل على الاستواء والبرهان".

قال الزمخشري: أي: "مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق والعدل".

قال القرطبي:"أي مستقيمة مستوية محكمة، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح".

قال السعدي: أي:"في تلك الصحف أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة".

=

=

قال السمعاني:"أي: أحكام مستقيمة عادلة، والكتاب يأتي بمعنى الحكم، والكتب بمعنى الأحكام، وفي قصة العسيف أن النبي قال: «لأقضين بينكما بكتاب الله»، أي: بحكم الله".

قال السدي:"يعني: فروض الله العادلة".

عن ابن زيد:" {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، قال: التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحقّ؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله تعالى: {فَيها كُتُبٌ قَيِّمة}، قال: فيها الحقّ ليس فيها عوج. وقرأ: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا} يقول: قيما مستقيما".

وإذا كانت الكتب فيها صحف!

فإن صحف هذا الكتاب المبارك فيها كتب!

إن الصفحة الواحدة من القرآن الكريم تشتمل حقا على كتب قيمة!

وهذا ما شاهدناه ورأيناه... وشاهده معنا ورآه مؤرخو الفكر وراصدو الحضارة.

لقد قامت علوم شتى لخدمة ذلك الكتاب المجيد: مثل: علوم القرآن، والتفسير، واللغة، والحديث، والفقه، والسير والمغازي والرجال.. وغيرها، وغيرها كثير.

قال العلماء: "من أول السورة إلى قوله: {فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}، حكمها في من آمن من أهل الكتاب والمشركين، {وَما تَفَرَّقَ} حكمه في من لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج عليها".

قوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البيّنة: ٤].

أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في كون محمد ﷺ رسولا حقًا؛ لما يجدونه من نعته في كتابهم، إلا مِن بعد ما تبينوا أنه النبي الذي

=

=

وُعِدوا به في التوراة والإنجيل، فكانوا مجتمعين على صحة نبوته، فلما بُعِث تفرقوا: فمنهم من آمن به، ومنهم من جحد نبوته بغيًا وحسداً.

قال مقاتل:"يقول الله- تعالى- لم يزل الذين كفروا مجتمعين على تصديق محمد- ﷺ- حتى بعث لأن نعته معهم في كتبهم فلما بعث الله ﷻ من غير ولد إسحاق اختلفوا فيه فآمن بعضهم: عبد الله بن سلام وأصحابه من أهل التوراة، ومن أهل الإنجيل أربعون رجلا منهم بحيري، وكذب به سائر أهل الكتاب".

قال الزجاج:"أي: ما تفرقوا في ملكهم وكفرهم بالنبي عليه السلام إلا من بعد أن تبينوا أنه الذي وعدوا به في التوراة والإنجيل".

قال الطبري:"يقول: وما تفرّق اليهود والنصارى في أمر محمد ﷺ، فكذّبوا به، إلا من بعد ما جاءتهم بيان أمر محمد أنه رسول بإرسال الله إياه إلى خلقه، فلما بعثه الله تفرّقوا فيه، فكذّب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفترقين فيه أنه نبي".

قال الثعالبي:"ذم تعالى أهل الكتاب في أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته".

قال السمعاني:"{الْبَيِّنَةُ} : البينات والبراهين والدلائل".

عن أبي العالية:"{إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} : القرآن".

قال ابن كثير:"يعني بذلك: أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافًا كثيرًا، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة". قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي" »".

=

=

قال الزمخشري: "جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلا ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: {وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ}، لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. والمراد بتفرقهم: تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه. أو تفرقهم فرقا، فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر وقال: ليس به، ومنهم من عرف وعاند".

قال القرطبي: "خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف".

- قال الشوكاني: قال المفسرون: "لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدا، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم وكفر آخرون. وخص أهل الكتاب، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق بعد مجيء البينة لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف".

قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البيّنة: ٥]، أي:"وما أمروا في سائر الشرائع إلا ليعبدوا الله وحده قاصدين بعبادتهم وجهه".

وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجردا عن محبة الله يبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبة خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي يداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أمورا لا تنبغي، والله ﷻ لا يليق به شيء من ذلك.

=

=

فالعبادة تطلق على معنيين: أحدهما: التعبد، يعني التذلل لله كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية.

قال مقاتل:"يعني به: التوحيد".

قال الزجاج:"أي: يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره".

قال الطبري: يقول: "وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب إلا أن يعبدوا الله مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك، فأشركت اليهود بربها بقولهم إن عُزَيرا ابن الله، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودهم نبوة محمد ﷺ".

قال السعدي: أي:"قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه".

قال أبو العالية:"أسس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {حُنَفَاءَ} [البيّنة: ٥]، أي:"مائلين عن الشرك إلى الإيمان".

وفي قوله تعالى: {حُنَفَاءَ} [البيّنة: ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: مسلمين لله، وهو قول الضحاك، قال ذو الرمة :

إذا حَوَّل الظلُّ العشِيَّ رأيتَه... حنيفًا وفي قَرنِ الضحَى يَتَنَصَّر

وقال الراعي :

أخليفة الرحمنِ إنا مَعْشرٌ... حُنفاءُ نسجُدُ بُكرةً وأصيلاً

قال مقاتل:"يعني: مسلمين غير مشركين".

قال النحاس:"أصل هذا أن «الحنف»: الميل، فقيل: حنيف للمائل إلى الإسلام ميلا لا خلل فيه ولا رجوع".

=

=

قال ابن كثير: أي:"مُتَحنفين عن الشرك إلى التوحيد. كقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]".

قال السعدي: "أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد".

قال القشيري:"«الحنيف»: المائل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس، في الجهر وفى السر، في الأفعال وفى الأحوال وفى الأقوال".

قال ابن فورك:"الحنيف: المائل إلى الحق، والحنيفية الشريعة المائلة إلى الحق وقيل: للمائل القدم أحنف على التفاؤل".

الثاني: مخلصين لله، وهو قول خصيف، ومقاتل، ويحيى بن سلام.

الثالث: مستقيمين لله، قاله محمد بن كعب، وعليّ بن عيسى.

الرابع: يعني: متبعين. قاله مجاهد.

الخامس: أنهم المؤمنون بالرسل كلهم، قاله أبو قلابة.

وقال الزجاج:"على دين إبراهيم ودين محمد عليه السلام".

السادس: أن الحنيفية: الختان، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات والمناسك. قاله قتادة.

السابع: حجاجاً إلى الله، وهو قول ابن عباس، والضحاك، وعبد الله بن القاسم، وقطرب.

قال ابن عباس:"حجاجا مسلمين غير مشركين، يقول: ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويحجوا وذلك دين القيمة".

وقال عطية العوفي: "إذا اجتمع الحنيف والمسلم كان معنى الحنيف الحاج وإذا انفرد الحنيف كان معناه المسلم".

وقال سعيد بن جبير: "لا تسمي العرب الحنيف إلا لمن حج واختتن"

=

=

قال السمعاني:"المعنى: أمروا أن يكونوا حنفاء، فإن كان الخطاب مع المسلمين فالمراد منه أن يكونوا حجاجا وإن كان الخطاب مع الكفار فالمراد أن يكونوا مسلمين".

قوله تعالى: {وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} [البيّنة: ٥]، أي:"وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس".

قال مقاتل:"أمرهم أن يقيموا الصلاة الخمس المكتوبة ويؤتوا الزكاة المفروضة".

قال الطبري:"يقول: وليقيموا الصلاة، وليؤتوا الزكاة".

قال الزجاج:"أي: يؤمنوا مع التوحيد بالنبي ﷺ ويقيموا شرائعه".

قال ابن كثير: "{وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ} وهي أشرف عبادات البدن، {وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج".

قال الزجاج:"أي: يؤمنوا مع التوحيد بالنبي ﷺ ويقيموا شرائعه".

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

قال الحسن: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة". وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك.

عن قتادة: "{وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، فهما فريضتان واجبتان، لا رخصة لأحد فيهما، فأدّوهما إلى الله تعالى ذكره".

قال أهل العلم:"فدلَّت هذه الآية على أن الدين العبادات، لقوله: {ذلك دينُ القَيِّمَةِ} بعد ذكر العبادة والصلاة والزكاة".

قال النحاس:"وهذا دليل قاطع على أن الإسلام قول وعمل. قال جل وعز: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ} [آل عمران: ١٩]، ويبيّن أن إقام الصّلاة وإيتاء الزكاة دين القيّمة".

=

=

قال الثعالبي:"يقوي قول من قال: السورة مدنية لأن الزكاة إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة".

قال السعدي: "وخصّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله {لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ} لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين".

عن أبي وائل شقيق بن سلمة -من طريق المُغيرة- قال: "قوم يسألوني عن السُّنّة؟ فقرأ: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ} حتى بلغ {وما أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}، قرأها وهو يُعرِّض بالمُرجئة".

عن عطاء بن أبي رباح، أنه قيل له: "إنّ قومًا قالوا: إنّ الصلاة والزكاة ليسا من الدين. فقال: أليس يقول الله: {وما أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}؟ فالصلاة والزكاة من الدين".

عن عقيل قال: "قلت للزهري: تزعمون أن الصلاة والزكاة ليس من الإيمان؟ فقرأ: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البيّنة: ٥]، ترى هذا من الإيمان أم لا؟".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البيّنة: ٥]، أي:"وذلك هو دين الاستقامة، وهو الإسلام".

قال السعدي: "أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم".

قال مقاتل:"يعني: الملة المستقيمة".

قال الزجاج:"أي: وذلك دين الأمة القيمة بالحق فيكون ذلك دين الملة المستقيمة".

=

=

قال الطبري:"يعني: أن هذا الذي ذكر أنه أمر به هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، هو الدين القيمة، ويعني بالقيِّمة: المستقيمة العادلة".

قال ابن كثير: "أي: الملة القائمة العادلة، أو: الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة، كالزهري والشافعي، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان؛ ولهذا قال: {وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}".

قال ابن فورك:"القيمة: المستمرة في جهة الصواب، وهو «فيعلة» من: قام بالأمر يقوم به إذا أجراه في جهة الاستقامة، وتقديره: وذلك دين الملة القيمة أو الشريعة القيمة".

عن السُّدِّيّ: "{وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ} المِلّة المستقيمة".

عن ابن جريج:"{وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}، قال: القيِّم".

عن ابن زيد:"{كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}، قال: هو واحد؛ قيِّمة: مستقيمة معتدلة".

قال قتادة:"هو الدين الذي بعث الله به رسوله، وشرع لنفسه، ورضي به".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [البيّنة: ٦]، أي:"إن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين، عقابهم نار جهنم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله محمد ﷺ، فجحدوا نبوّته، من اليهود والنصارى والمشركين جميعهم {فِي نَارِ جَهَنَّمَ}".

قال السعدي: "قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، وهذا جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [البيّنة: ٦]، أي:"ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون".

=

=

قال مقاتل:"يقول: يقيمون فيها لا يموتون".

قال الطبري:"يقول: ماكثين لابثين فيها {أَبَدًا} لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها".

قال ابن كثير: "أي: ماكثين، لا يحولون عنها ولا يزولون".

قال السعدي: "لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البيّنة: ٦]، أي:"أولئك هم أشد الخليقة شرا".

قال ابن عباس: "يريد شر الخلائق".

قال مقاتل:"يعني: شر الخليقة من أهل الأرض".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، هم شرّ من برأه الله وخلقه".

قال ابن كثير: "أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها".

قال السعدي: "لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة".

قال ابن عطية:"حكم الله في هذه الآية بتخليد الكافرين من {أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ}، وهم عبدة الأوثان في النار وبأنهم {شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، و «البرية» جميع الخلق، لأن الله تعالى برأهم أو أوجدهم بعد العدم".

قال ابن عاشور: "وإنما كانوا كذلك لأنهم ضلوا بعد تلبسهم بأسباب الهدى، فأما أهل الكتاب فلأن لديهم كتابا فيه هدى ونور فعدلوا عنه، وأما المشركون فلأنهم على الحنيفية فأدخلوا فيها عباد الأصنام، ثم إنهم أصروا على دينهم بعد ما شاهدوا صدق محمد ﷺ وما جاء به القرآن من الإعجاز والإنباء بما في كتب أهل الكتاب، وذلك مما لم يشاركهم فيه غيرهم، فقد اجتنبوا لأنفسهم من حيث كانوا أهلا لنوال الخير، فحسرتهم على أنفسهم يوم القيامة أشد من حسرة عداهم فكان

=

=

الفريقان شرا من الوثنيين والزنادقة في استحقاق العقاب لا فيما يرجى منهم من الاقتراب".

قرأ نافع وابن عامر والأعرج: «البريئة» بالهمز من: «برأ»، وقرأ الباقون والجمهور: «البريّة» بشد الياء بغير همز على التسهيل، والقياس الهمز إلا أن هذا مما ترك همزه كالنبي والذرية، وقرأ بعض النحويين: «البرية» مأخوذ من «البراء» وهو التراب ".

قال ابن فورك:"البرية: «فعيلة»، من: برأ الله الخلق، إلا أنه ترك فيه الهمز، ويجوز أن تكون «فعيلة»: البرى، وهو التراب".

قال الزجاج:"{الْبَرِيَّةِ}، الأصل: «البريئة»، إلا أن الهمزة خففت لكثرة الاستعمال. يقولون: هذا خير البرية وشر البرية وما في البرية مثله، واشتقاقه من «برأ الله الخلق». وقال بعضهم: جائز أن يكون اشتقاقها من: «البرا»، وهو التراب، ولو كان كذلك لما قرأوا: «البريئة» بالهمز. والكلام: برأ الله الخلق يبرؤهم، ولم يحك أحد: «براهم يبريهم»، فيكون اشتقاقه من: «البرا»، وهو التراب".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البيّنة: ٧]، أي:"إن الذين صَدَّقوا الله واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى".

قال ابن عطية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}:"شروط جميع أمة محمد، ومن آمن بنبيه من الأمم الماضية".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

=

=

والإيمان: قول وعمل، قول باللسان وعمل بالأركان، وعقد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان".

قال السمرقندي: "{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، يعني: الطاعات".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البيّنة: ٧]، أي:"أولئك هم خير الخلق".

قال مقاتل:"يعني: خير الخليقة من أهل الأرض.. وكل شيء خلق من التراب فإنه يسمى البرية".

قال الطبري:"يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية".

قال السعدي: "لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير: "وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: {أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}".

عن أبي هريرة قال: "أتعجبون من منزلة الملائكة من الله؟ والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، واقرءوا إن شئتم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } [البيّنة: ٧]".

عن أنس، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: "يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ «ذاك إبراهيم».

عن محمد بن عليّ: "{أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}، فقال النبي ﷺ: "أَنْتَ يا عَلي وَشِيعَتُكَ".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، في قوله:"{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية}، قال:... هذا للخلائق كلّهم، قال الله تعالى: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما} الآية [غافر: ٧]، فهؤلاء من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم ذكر الجن، فقال: إنهم قالوا: {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن

=

=

يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا ومنا المسلمون} [الجن: ١٣- ١٤]، فهؤلاء من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم جمع الخلائق كلّهم، وقال: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية} هؤلاء من الملائكة والإنس والجن، ليس خاصة ببني آدم".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بخير البرية؟ " قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هَيْعَة استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟ " قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "رجل في ثُلَّة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟". قالوا: بلى. قال: "الذي يَسأل بالله، ولا يُعطي به".

قوله تعالى: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البيّنة: ٨]، أي:"جزاؤهم عند ربهم يوم القيامة جنات إقامة واستقرار في منتهى الحسن، تجري من تحت قصورها الأنهار".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثواب هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم يوم القيامة بساتين إقامَة لا ظعن فيها، تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال ابن مسعود: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} بُطْنَانِ الْجَنَّة، يعني: وسطها".

عن ابن عباس في قوله: جنات عدن قال: معدنهم فيها أبدا".

قال الزجاج:"أي: جنات إقامة".

قال السعدي: "أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها".

قال النحاس:"يقال: عدن بالمكان إذا أقام به".

قال ابن عمر: "خلق الله ﷻ أربعة أشياء بيده: آدم -عليه السلام-، والعرش، والقلم، وجنات عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

=

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: "{تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

وفي "جَنَّاتِ عَدْنٍ"، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن «عدن»: اسم قصر في الجنة، قاله الحسن.

وقد روي عن الحسن:"قصرٌ من ذهَب، لا يدخله إلا نبي، أو صدّيق، أو شهيد، أو حكم عدل".

الثاني: أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها. قاله الضحاك.

الثالث: أنها اسم نهر في الجنة، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء.

و «الجنة»: هي دار كرامة الله التي أعدها لعباده المتقين، ولها أسماء كثيرة فمنها:

١ - الجنة: وهو الاسم المشهور لها، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم، واللذَّة، والبهجة، والسرور، وقرّة العين، وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية، ومنه سُمِّيَ الجنين لاستتاره في البطن، ومنه سُمِّي البستان: جَنة؛ لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنات، والجنة كل بستان يستر بأشجاره الأرض، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سبأ:١٥]، والحديقة: جمع "حدائق"، وهي الروضة ذات الشجر والنخيل، وهي البستان، وسُميت حديقة تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة، وحصول

=

الماء فيها. قال الله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [النبأ ٣١- ٣٢]، وقد ذكر الله تعالى الجنة في القرآن الكريم بلفظ المفرد "جنة" ستاً وستين مرة، ولفظ الجمع «جنات» تسعاً وستين مرة.

٢- دار السلام، قال سبحانه: {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ} [كاالأنعام:١٢٧]. {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ} [يونس:٢٥]. فهي دار سلامٍ من كل بليَّةٍ وآفة.

٣- دار الخلد، وسُمْيت بذلك؛ لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً،

قال الله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:١٠٨]، أي: غير مقطوع. وقال تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق:٣٤]، وقال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} [ص:٥٤].

٤- دار المقامة، قال الله تعالى: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر:٣٥].

٥- جنة المأوى، قال تعالى: {عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم:١٥].

٦- جنات عدن، قال سبحانه: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} [مريم:٦١].

٧- الفردوس، قال تعالى: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:١٠- ١١].

والفردوس: هو البستان الذي يجمع كل شيء يكون في البساتين.

٨- جنات النعيم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ} [لقمان:٨]، وقال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [القلم:٣٤].

٩- المقام الأمين، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} [الدخان:٥١].

والمقام: موضع الإقامة.

=

=

والأمين: الآمن مِنْ كل سوءٍ، وآفةٍ، ومكروهٍ، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كله.

١٠- مقعد صدق، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر:٥٤- ٥٥]، سمَّى الله تعالى الجنة مقعد صدقٍ؛ لحصول كل ما يُراد من المقعد الحسن فيها، كما يُقال مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة.

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [البيّنة: ٨]، أي:"ما كثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع".

عن سعيد بن جبير: "{خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قال ابن عباس:"يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له".

قال الطبري:"يقول: ماكثين فيها أبدًا، لا يخرجون عنها، ولا يموتون فيها".

قال ابن كثير: "أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ".

قال ابن عاشور: وقوله (خالدين فيها....) احتراس من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه.

- وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غما، كما قال بعض الشعراء:

أحب ليالي الهجر لا فرحا بها... عسى الدهر يأتي بعدها بوصال
وأبغض أيام الوصال لأنني... أرى كل وصل معقبا بزوال

=

=

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

قوله تعالى: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ} [البيّنة: ٨]، أي:"ضي الله عنهم فقبل أعمالهم الصالحة، ورضوا عنه بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات".

ورضى الله عنهم أعظم من دخول الجنة.

قال تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).

(ورضوان من الله أكبر) أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات.

عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله ﷻ، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير بين يديك، فيقول: هل رضيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا) متفق عليه.

قال مقاتل:"{رضي الله عنهم} بالطاعة، {وَرَضُوا عَنْهُ} بالثواب".

قال الطبري:"{رضي الله عنهم}، بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك، {وَرَضُوا عَنْهُ} بما أعطاهم من الثواب يومئذ، على طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة".

=

=

قال ابن كثير: "ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، {وَرَضُوا عَنْهُ} فيما منحهم من الفضل العميم".

قال السعدي:"فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات".

قال الثعالبي:"قيل ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته، ورضاهم عنه هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار".

قال الحسن: "ارضَ عن الله يرضَ الله عنك، وأَعطِ الله الحقّ من نفسك، أما سمعتَ ما قال -تبارك وتعالى-: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ} ؟".

عن السُّدِّيّ: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ} : إذا كنتَ لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك؟!".

قال جعفر الصادق: "{رضي الله عنهم} بما كان سبق لهم مِن العناية والتوفيق، {ورَضُوا عَنْهُ} بما مَنَّ عليهم بمتابعتهم لرسوله، وقَبولهم ما جاءهم به".

قال سهل: "«إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب». قال الكلاباذي:"يريد قوله جل وعز {رضي الله عنهم وَرَضوا عَنهُ}، فمعناه: الرضا في الدنيا تحت مجارى الأحكام يورث الرضوان في الآخرة بما جرت به الأقلام قال الله تعالى: {وَقضي بَينهم بِالْحَقِّ وَقيل الْحَمد لله رب الْعَالمين}، فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين من أهلها فإن المشركين لا يؤذن لهم في الحمد لأنهم محجوبون".

قال عبد الواحد بن زيد: "الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين"، " ما أحسب شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا. ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا، وهي رأس المحبة".

=

=

قال الحسن بن صالح: "ربما أصبحتُ وما معي درهم، وكأن الدُّنيا قد حيزت لي".

قال أبو عثمان النهدي: "منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته".

قال السري -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك؟".

عن الحسن بن علويه، قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول: دواء القلب خمسة أشياء، قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين. وسمعته يقول: إذا كنت لا ترضى عن الله كيف تسأله الرضا عنك؟".

قيل: "الرضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به: ربا ومدبرا، والرضا عنه: فيما يقضي ويقدر".

قوله تعالى: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البيّنة: ٨]، أي:"ذلك الجزاء الحسن لمن خاف الله واجتنب معاصيه".

قال الطبري:"هذا الخير الذي وصفته، ووعدته الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوم القيامة، لمن خاف الله في الدنيا في سرّه وعلانيته، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال النحاس:"أي: لمن اتّقى الله في الدنيا في سرّه وعلانيته فأدّى فرائضه واجتنب معاصيه".

قال ابن الجوزي:"أي: خافه في الدنيا، وتناهى عن معاصيه".

قال ابن كثير: "أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وقد علم أنه إن لم يره فإنه يراه".

قال السعدي:"أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته".

=

=

قال الثعالبي:"وخصّ تعالى بالذكر أهل الخشية، لأنها رأس كل بركة وهي الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر".

* مسألة: الإخلاص في اللغة: التصفية والتنقية.

قال ابن فارس: "خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد وهو: تنقية الشيء وتهذيبه".

وقال الجوهري: "خلص الشيء بالفتح، يخلص خلوصا، أي: صار خالصا، وخلص إليه الشيء: وصل، وخلصته من كذا تخليصا، أي: نحيته فتخلص، وخلاصة السمن بالضم: ما خلص منه.

والإخلاص أيضا في الطاعة: ترك الرياء. وخالصه في العشرة أي: صافاه وهذا الشيء خالصة لك، أي: خاصة".

ويسمى الفعل المخلص: إخلاصا، قال تعالى: {من بين فرث ودم لبنا خالصا} [النحل: ٦٦].

وخلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الفرث والدم.

الإخلاص في الشرع: تخليص العبادة وتصفيتها من شائبة الشرك والرياء.

قال الراغب الأصبهاني: "فحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى".

وقال الشيخ ابن عثيمين: "الإخلاص هو التنقية، والمراد به هنا أن يقصد المرء وجه الله ﷻ والوصول إلى دار كرامته بحيث لا يعبد معه غيره لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا الله تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [النحل: ١٢٣]".

* الدليل من الكتاب: قال الله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} [البينة: ٥]، وقال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (٢) ألا لله الدين

=

=

الخالص} [الزمر:٣،٢]. وقال لنبيه ﷺ: {قل الله أعبد مخلصا له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه} [الزمر: ١٥، ١٤]، وقال له: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} [الأنعام: ١٦٢،١٦٣].

* الدليل من السنة: عن وقاص الليثي قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله تعالى إلا ازددت به خيرا ودرجة ورفعة".

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل رياء ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

قال ﷺ: "ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر".

وأخبر الرسول ﷺ عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: "قارئ القرآن والمجاهر والمتصدق بماله" الذين فعلوا ذلك ليقال فلان قارئ فلان شجاع فلان متصدق ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

وفي الصحيح عنه ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم".

* أقوال بعض السلف:

=

=

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ "من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس".

وقال بعضهم: "الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ولا مجازيا سواه".

وقال مكحول: "ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه".

وقال أبو سليمان الداراني: "إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء".

قال شيخ الإسلام: "حكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوما، فلم يتفجر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين. فقال لي: إنما أخلصت للحكمة ولم تخلص لله. ثم قال شيخ الإسلام: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه أو غيره من المطالب قد عرف أن ذلك يحصل الإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص وإرادة وجهه كان متناقضا، لأن من أراد شيئا لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته والأول يراد لكونه وسيلة إليه، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالما أو عارفا أو ذا حكمة، أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى" درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٦٦.

* أحكام وفوائد:

١. حكم الإخلاص:

العمل لا يقبل إلا بشرطين أساسيين:

=

=

* أحدهما: الإخلاص.

* الثاني: المتابعة.

فالإخلاص: هو أحد شرطي قبول العمل، قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: {تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير (١) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور} [الملك: ١، ٢].

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} قال: "أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة".

ويقول شيخ الإسلام: "وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان:

أحدهما: ألا نعبد إلا الله.

والثاني: ألا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله كما قال تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا}".

وبهذا يتبين أن الإخلاص والمتابعة شرطان لصحة العمل وقبوله.

قال العز بن عبد السلام: "وكذلك إخلاص العبادة شرط في أولها".

وقال الزبيدي: "واعلم- وفقك الله تعالى- أن الإخلاص شرط في سائر العبادات".

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة".

٢. منزلة الإخلاص وفضله:

=

=

للإخلاص منزلة عالية في الشرع، وجاءت الآيات والأحاديث والآثار بالحث عليه والترغيب فيه وبيان فضله، فهو للعمل بمنزلة الأساس للبنيان، وبمنزلة الروح للجسد، فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكن من الانتفاع منه إلا بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص، وقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز فقال: {أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين} [التوبة: ١٠٩]، ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه جعل وجودها كعدمها فقال: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} [الفرقان: ٢٣].

وقد ذكر الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللهُ: "أن الحسنة تعظم ويكثرت ثوابها بزيادة الإيمان والإخلاص حتى تقابل جميع الذنوب".

ومن ثمرات الإخلاص: أنه يحرر العبد من عبودية غير الله فيكون عمله كله لله فينصرف عن كل مراد لنفسه أو للشيطان ويصبح همه إرضاء ربه.

قال ابن تيمية: "وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله.

فتارة تجذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه عبدا له كان ذلك نقصا وعيبا وذما.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

=

سورة الزلزلة(١)

=

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن مخلصا لله عبدا له قد صار قلبه مستعبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون هو أحب مما سواه، ويكون ذليلا خاضعا له وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه".

ومن ثمرات الإخلاص: "نصر الأمة ورفع المنزلة في الآخرة والإنقاذ من الضلال في الدنيا وسبب لزيادة الهدى الناس ووضع القبول له في الأرض وتفريج كروب الدنيا وحسن الخاتمة واستجابة الدعاء وغير هذا كثير".

(١) اختلف في وقت نزول هذه السورة، على قولين:

أحدهما: أنها مكّيّة. قاله ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وعطاء، وجابر.

الثاني: أنها مدنيّة. قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال ابن عاشور:"والأصح أنها مكية واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم".

* آياتها ثمان فى عَدّ الكوفة، وتسع فى عدّ الباقين. وكلماتها خمس وثلاثون. وحروفها مائة وتسعَ عشرة. المختلف فيها آيةٌ {أَشْتَاتًا} فواصل آياتها (هما) على الميم آية {أَعمَالَهُمْ}.

* تسمى «سورة الزلزلة» اشتهرت تسميتها بسورة «الزلزلة»، وهي تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها، وبذلك كتبت في كثير من المصاحف وكتب التفسير،

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

ووجه تسميتها لافتتاحها بالإخبار عن حدوث الزلزال قبل يوم القيامة، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [الزلزلة: ١]. وقال تعالى في سورة «الحج»: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١].

وتسمى «سورة إذا زلزلت» سميت هذه السورة في كلام الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- سورة: «إذا زلزلت»، وكذلك عنون لها الطبري في تفسيره، وترجم لها البخاري، والترمذي في كتابيهما.

ووجه تسميتها سورة: «إذا زلزلت»، لافتتاحها بهذه الجملة في قوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [الزلزلة: ١].

وتسمى «سورة الزلزال» سميت في بعض المصاحف، وبعض كتب التفسير : «سورة الزلزال»، وهي تسمية بالمعنى لبعض ألفاظها.

وتسمى«سورة زلزلت» سميت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان «زلزلت» -كما قال ابن عاشور-، وقد سماها السخاوي بهذا الاسم دون الاستناد على دليل.

* معظم مقصود السّورة: بيان أَحوال القيامة وأَهوالها، وذكر جزاءِ الطَّاعة، وعقوبة المعصية، وذكر وزن الأَعمال فى ميزان العَدْل فى قوله: {فَمَنْ يَّعْمَل} إِلى آخره.

* المتشابهات: قوله تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ} وإِعادته مرّة أُخرى ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل متصل بقوله: {خَيْراً يَرَهُ}، والثانى متصل بقوله: {وشَرّاً يَرَهُ}. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٣٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١).

{إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْض} حُرِّكَتْ لِقِيَامِ السَّاعَة {زِلْزَالهَا} تَحْرِيكهَا الشَّدِيد الْمُنَاسِب لِعَظَمَتِهَا.

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢).

{وَأَخْرَجَتْ الْأَرْض أَثْقَالهَا} كُنُوزهَا وَمَوْتَاهَا فَأَلْقَتْهَا عَلَى ظهرها.

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣).

{وَقَالَ الْإِنْسَان} الْكَافِر بِالْبَعْثِ {مَا لَهَا} إِنْكَارًا لتلك الحالة.

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤).

{يَوْمئِذٍ} بَدَل مِنْ إِذَا وَجَوَابهَا {تُحَدِّث أَخْبَارهَا} تُخْبِر بِمَا عُمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْر وَشَرّ.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥).

{بِأَنَّ} بِسَبَبِ أَنَّ {رَبّك أَوْحَى لَهَا} أَيْ أَمَرَهَا بِذَلِكَ وَفِي الْحَدِيث تَشْهَد عَلَى كُلّ عَبْد أَوْ أَمَة بِكُلِّ مَا عَمِلَ عَلَى ظهرها.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦).

{يَوْمئِذٍ يَصْدُر النَّاس} يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَوْقِف الْحِسَاب {أَشْتَاتًا} مُتَفَرِّقِينَ فَآخِذ ذَات الْيَمِين إِلَى الْجَنَّة وَآخِذ ذَات الشِّمَال إِلَى النَّار {لِيُرَوْا أَعْمَالهمْ} أَيْ جَزَاءَهَا مِنْ الْجَنَّة أَوْ النَّار.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧).

{فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة} زِنَة نَمْلَة صَغِيرَة {خَيْرًا يَرَهُ} يَرَ ثَوَابه.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨).

{وَمَنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ} يَرَ جزاءه[١].

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: بينا أبو بكر الصديق يأكل مع رسول الله ﷺ؛ إذ نزلت عليه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}؛ فرفع أبو بكر يده من الطعام. وقال: يا رسول الله: إني أجزى بما عملته من مثقال ذرّة من شر. فقال: "يا أبا بكر! ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر، ويُدخر لك الله مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٧٣، ١٧٤)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٨/ ٢٠٤ رقم ٨٤٠٧)، والحاكم في "تاريخه"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٩٣) -وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ١٥١، ١٥٢ رقم ٩٨٠٨) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٩٣) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٦/ ٢٣٠، ٢٣١ رقم ٢٢٤٤- ٢٢٤٧) -، والضياء -أيضًا من طريق آخر- (٦/ ٢٢٩ رقم ٢٢٤٣) من طريق الهيثم بن الربيع ثنا سماك بن عطية عن أيوب السختياني عن أبي قلابة عن أنس به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن أيوب إلا سماك بن عطية ولا عن سماك إلا الهيثم، تفرد به زياد بن يحيى". بل توبع عند الطبري والبيهقي.

وسنده ضعيف؛ مداره على الهيثم بن الربيع العقيلي ضعيف؛ كما في "التقريب"، أما الهيثمي؛ فهو في وادٍ آخر؛ فقال في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٢): "رواه الطبراني في "الأوسط" وشيخه موسى بن سهل -والظاهر أنه الوشاء- وهو ضعيف".

وهذا وهم من وجوه:

الأول: أنه متابع عند المصادر التي ذكرنا، ولم يعله بالهيثم؛ إذ مدار الحديث عليه.
=

=

الثاني: أن شيخ الطبراني ليس هو ابن الوشاء، بل هو ابن عمران الجوني؛ كما نسبه الطبراني نفسه لما ساق أحاديث شيخه في "الأوسط"، وانظر: "الأوسط" (رقم ٨٣٧١)، ثم إن ابن الوشاء ليس من شيوخ الطبراني، فسبحان الذي لا يغفل ولا ينسى.

وعن أبي أسماء الرحبي؛ قال: بينا أبو بكر الصديق ﵁ يتغدى مع رسول الله ﷺ؛ إذ نزلت هذه الآية: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}؛ فأمسك أبو بكر، وقال: يا رسول الله! أكل ما عملناه من سوء رأيناه؟ فقال: "ما ترون مما تكرهون فذلك ما تجزون، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة".

أخرجه إسحاق بن راهويه وأبو بكر بن أبي شيبة في "مسنديهما"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٨٥ رقم ٤١٨١)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٢٠١ رقم ٧٨٩٧)، والحاكم (٢/ ٥٣٢) عن يزيد بن هارون أنبأ سفيان بن حسين عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء به.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: مرسل". وهو كما قال ﵀.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄؛ أنه قال: أنزلت {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)} وأبو بكر الصديق قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: "ما يبكيك يا أبا بكر؟! "، قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: "لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم؛ لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم".

أخرجه ابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٧٥)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٤)، وابن أبي الدنيا في "الرقة والبكاء" (ص ٧٥)، والطبراني في

=

=

"المعجم الكبير" (ص ٣٨ رقم ٨٧- قطعة من المجلد ١٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٤١٠ رقم ٧١٠٣) من طرق عن ابن وهب؛ قال: ثنا حيي بن عبد الله المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله به.

وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات رجال الصحيح؛ غير حيي المعافري، وفيه كلام، وفي "التقريب": "صدوق يهم".

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤١): "وفيه حيي بن عبد الله المعافري وثقه ابن معين وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح".

وعن أبي إدريس الخولاني: أن أبا بكر كان يأكل مع النبي ﷺ؛ فأنزلت هذه الآية: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}؛ فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: إني لراء ما عملت، قال: لا أعلمه إلا قال: ما عملت من خير وشر، فقال النبي ﷺ: "إن ما ترى مما تكره فهو مثاقيل ذر شر كثير، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تعطاه يوم القيامة، وتصديق ذلك في كتاب الله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)} [الشورى: ٣٠]".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٧٤): ثنا ابن بشار ثنا عبد الوهاب ثنا أيوب؛ قال: وجدنا في كتاب أبي قلابة عن أبي إدريس. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: بينما رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق؛ إذ نزلت عليه هذه الآية: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}؛ فأمسك رسول الله ﷺ يده عن الطعام، ثم قال: "من عمل منكم خيراً؛ فجزاؤه في الآخرة، ومن عمل منكم شراً؛ يراه في الدنيا مصيبات وأمراضـاً، ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير؛ دخل الجنة".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٩٤) ونسبه لابن مردويه.

=

=

وعن سعيد بن جبير؛ قال: لما نزلت: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} الآية [الإنسان: ٨]؛ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، وكان آخرون يرون: أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر؛ فأنزل الله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٣)، و"الدر المنثور" (٨/ ٥٩٤، ٥٩٥) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} [الزلزلة: ١]، أي:"إذا رُجَّت الأرض رجًّا شديدًا فاندك ما عليها من بناء وجبال حتى صارت قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا".

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {إِذَا زُلْزِلَتِ الأرْضُ} لقيام الساعة، فرُجَّت رجًّا".

قال الزجاج:"إذا حركت حركة شديدة".

قال مقاتل:"يقول: تزلزلت يوم القيامة من شدة صوت إسرافيل- عليه السلام- يعني تحركت، فتفطرت حتى تكسر كل شيء عليها بزلزالها من شدة الزلزلة، ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل، أو بناء، أو شجر، فيدخل فيها كل شيء خرج منها".

عن ابن عباس:"{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}: تحركت من أسفلها".

عن سعيد، قال: {زُلْزِلَتِ الأرْضُ} على عهد عبد الله، فقال لها عبد الله: مالك، أما إنها لو تكلَّمت قامت الساعة".

=

=

قال الفراء:"حدثني محمد بن مروان قال: قلت: للكلبي: أرأيت قوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}، فقال: هذا بمنزلة قوله: {وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٨]، قال الفراء، فأضيف المصدر إلى صاحبه وأنت قائل في الكلام: لأعطينك عطيتك، وأنت تريد عطية، ولكن قربه من الجواز موافقة رءوس الآيات التي جاءت بعدها، والزلزال بالكسر: المصدر والزلزال بالفتح: الاسم".

وفي وقت هذه «الزلزلة»، قولان:

أحدهما: أنها تكون في الدنيا، وهي من أشراط الساعة، وحكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.

الثاني: أنها زلزلة يوم القيامة، قاله خارجة بن زيد في آخرين.

وفي التفسير: أن إسرافيل إذا نفخ في الصور النفخة الأولى يكسر كل شيء على وجه الأرض من شدة نفخته، ويدخل في جوف الأرض، فإذا نفخ النفخة الثانية أخرجت جميع ما في جوفها، وألقتها على وجهها".

قال ابن الجوزي:"الزلزلة: الحركة على الحالة الهائلة".

وأصل الزلزلة -في اللغة-: من: زل الشيء عن مكانه، فاذا قلت: زلزلته، فتأويله: كررت زلزلته مِن مكانه".

قال ابن فورك:"الزلزلة: شدة الاضطراب عما يهدم البنيان، زل زل يزل زل زلزالا فكأنه مكرر زل يزل زلا للتكثير والتعظيم".

قال الزمخشري: أي: "زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقيّ إكرامه، وأهن الفاسق إهانته، تريد: ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه".

وقرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو حيوة والجحدريّ: «زلزالها» بفتح الزاي.

=

=

قوله تعالى: {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة: ٢]، أي:"وأخرجت ما في بطنها من موتى وكنوز".

وفي قوله تعالى: {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة: ٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: لفظت ما فيها من الكنوز والموتى، قاله عطية، والفراء، والزجاج.

عن عطية:"{وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا}، قال: ما فيها من الكنوز والموتى".

قال الفراء:"لفظت ما فيها من ذهب أو فضة أو ميت".

قال الزجاج:"أخرجت كنوزها وموتاها".

عن سفيان الثوري:"{وأخرجت الأرض أثقالها}، قال: ما استودعت".

عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تَقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قَطَعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعت يدي، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئا".

الثاني: أخرجت ما فيها من الموتى، قاله ابن عباس، ومجاهد.

عن مجاهد: "{وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا}، أخرجت من في القبور".

عن ابن عباس: "{وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا}، قال: الموتى".

قال الطبري:"يقول: وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء، والميت في بطن الأرض ثقل لها، وهو فوق ظهرها حيا ثقل عليها".

قال ابن عطية:"«الأثقال»: الموتى الذين في بطنها. قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين منهم منذر بن سعيد الزجاج والنقاش: أخرجت موتاها وكنوزها، وليست القيامة موطنا لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال".

=

=

قال ابن فورك:"إثقال الأرض: ما فيها مدفون من ميت أو غيره تلفظ بكل ما فيها عند انقضاء أمر الدنيا وتجديد أمر الآخر".

قال ابن كثير:"وهذه كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١] وكقوله {وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت} [الانشقاق: ٣، ٤]".

قال مقاتل:"يقول: تحركت فاضطربت، وأخرجت ما في جوفها من الناس، والدواب، والجن، وما عليها من الشياطين، فصارت خالية ليس فيها شيء، وتبسط الأرض جديدة بيضاء كأنها الفضة، أو كأنها خامة ولها شعاع كشعاع الشمس، لم يعمل عليها ذنب، ولم يهرق فيها الدماء وذلك أنه إذا جاءت النفخة الأولى، يموت الخلق كلهم، ثم تجيء النفخة الثانية، فأما الأولى فينادي من تحت العرش من فوق السماء السابعة، وأما الأخرى فمن بيت المقدس، «يقعد إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فيقول: أيتها العظام البالية، والعروق المتقطعة، واللحوم المتمزقة اخرجوا إلى فصل القضاء، لتجازوا بأعمالكم، قال: فيخرجون من قبورهم إلى الأرض الجديدة، وتسمى الساهرة، فذلك قوله- تعالى-: {فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤]، وأيضا {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة: ٢]: أخرجت ما فيها من الموتى والأموال".

قال الزمخشري:"الأثقال: جمع: ثقل. وهو متاع البيت، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالا لها".

قوله تعالى: {وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا} [الزلزلة: ٣]، أي:"وتساءل الإنسان فزعًا: ما الذي حدث لها؟".

=

=

أي الإنسان الذي هو كنود جزوع ظلوم الذي من شأنه الغفلة والجهالة؛ يقول: مالها، وهو ليس بسؤال؛ بل هو للتعجب، لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الآذان، ولا تطلق بها لسان.

قال الزمخشري: أي: ما لَها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء، فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع، كما يقولون: {مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا} [يس: ٥٢]، وقيل: هذا قول الكافر، لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: ٥٢]".

قال ابن فورك:"معنى {مَا لَهَا}، أي: أي شيء أصارها إلى هذه الحالة التي ترى بها يقول الإنسان متعجبا من عظم شأنها وأنه لأمر عظيم، لفظت بما فيها وتخلت من جميع الأمور التي استودعتها".

قال ابن كثير:"أي: استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا} [الزلزلة: ٣]، وجهان :

أحدهما: أنه اسم جنس يعمّ الكافر والمؤمن، وهذا قول من جعلها من أشراط الساعة، لأنها حين ابتدأت لم يعلم الكلُّ أنها من أشراط الساعة، فسأل بعضهم بعضاً حتى أيقنوا.

قال الطبري:"وقال الناس إذا زلزلت الأرض لقيام الساعة: ما للأرض وما قصتها؟".

=

=

الثاني: أنه الكافر خاصة، وهذا قول من جعلها زلزلة القيامة، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها لأنه لا يؤمن بالبعث، فلذلك يسأل.

قال الفراء:"الإنسان، يعنى به -هاهنا-: الكافر".

قال الزجاج:"هذا قول الكافر لأنه لم يكن يؤمن بالبعث، فقال: ما لها، أي: لأي شيء زلزالها".

عن ابن عباس:"{وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا}، قال: الكافر". وفي لفظ:"يقول الكافر مالها".

وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: "هو الأسود بن عبد الأسد".

قال مقاتل:"قال الكافر جزعا: ما لها تنطق بما عمل عليها؟!".

قال ابن عطية:"«قول الإنسان ما لها» هو قول على معنى التعجب من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: «الْإِنْسانُ» -هنا- يراد به: الكافر، وهذا متمكن لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدقه، وقال بعض المتأولين هو عام في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن وإن كان قد آمن بالبعث فإنه استهول المرأى، وقد قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» ".

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} [الزلزلة: ٥]، أي:"يوم القيامة تخبر الأرض بما عُمل عليها من خير أو شر".

فتشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.

قال الطبري:"يقول: يومئذ تحدث الأرض أخبارها".

قال الفراء:"تخبر بما عمل عليها من حسن أو سيئ".

قال الزجاج:"تخبر بما عمل عليها".

قال ابن كثير:"أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها".

=

=

قال النحاس:"معنى «تحدّث «» و «تخبّر» واحد. ودل هذا على أن معنى: حدّثنا وأخبرنا واحد".

قال مقاتل:"يقول: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر، تقول الأرض وحد الله على ظهري، وصلى علي، وصام، وحج، واعتمر، وجاهد، وأطاع ربه، فيفرح المؤمن. بذلك وتقول للكافر أشرك على ظهري، وزنى، وسرق، وشرب الخمر، وفعل، وفعل، فتوبخه في وجهه، وتشهد عليه أيضا الجوارح، والحفظة من الملائكة، مع علم الله ﷻ فيه، وذلك خزي العظيم".

قال ابن فورك: أي:"يظهر بالدليل الذي يجعله الله فيها ما يقوم مقام إخبارها بأن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى، وأنه لا بد من الجزاء وأن الفوز لمن اتقى والنار لمن جحد".

عن سفيان:"{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}، قال: ما عمل عليها من خير أو شر".

قال مجاهد:"تخبر الناس بما عملوا عليها".

قال ابن زيد:"ما كان فيها، وعلى ظهرها من أعمال العباد".

عن ابن عباس: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}، قال: قال لها ربها: قولي، فقالت".

عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله ﷺ: {يومئذ تحدث أخبارها}، قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها" وإسناده ضعيف.

وعن الحارث بن يزيد- سمع ربيعة الجُرَشي -: أن رسول الله ﷺ قال: "تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرًا، إلا وهي مُخبرة" وإسناده ضعيف أيضا.

=

=

عن ابن أبي صعصعة عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: قال لي أبو سعيد، وكان في حجره فقال لي: يا بني، إذا أذنت فارفع صوتك بالأذان، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليس شيء يسمعه إلا شهد له جن ولا إنس، ولا حجر " وقال مرة: يا بني إذا كنت في البراري، فارفع صوتك بالأذان، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر ولا شيء يسمعه إلا شهد له".

عن سعيد بن جبير:"يقرأ في المغرب مرة: «يَوْمَئِذٍ تُنَبِّئُ أَخْبَارَهَا»، ومرة: {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}".

قوله تعالى: {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [الزلزلة: ٥]، أي:"، وبأن الله سبحانه وتعالى أمرها بأن تخبر بما عُمل عليها".

قال الطبري:"وتحديثها أخبارها، على القول الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود، أن تتكلم فتقول: إن الله أمرني بهذا، وأوحى إليّ به، وأذن لي فيه".

قال الفراء:"يقول: تحدث أخبارها بوحي الله تبارك وتعالى، وإذنه لها".

قال القشيري:"أي: إنما تفعل ذلك بأمر الله".

عن سفيان:" {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}، قال: أعلمها ذلك".

قال مقاتل:"يقول: يوحي الله إليها بأن تحدث أخبارها".

عن مجاهد: " {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}، قال: أمرها".

قال مجاهد:"أمرها، فألقَت ما فيها وتخلَّت".

وعن ابن عباس: " {أَوْحَى لَهَا}، قال: أوحى إليها".

قال ابن عباس:"يريد أذن لها لتخبر بما عُمِل عليها".

قال البخاري: "أوحى لها وأوحى إليها، ووحى لها ووحى إليها: واحد".

قال ابن كثير:"الظاهر أن هذا مُضَمَّن بمعنى: أذن لها".

وقال القُرَظي: "أمرها أن تنشق عنهم".

=

=

قال النحاس: الوحي على وجهين: أحدهما: وحي الله إلى أنبيائه عليهم السلام، والآخر: بمعنى: «الإلهام»، مثل قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل: ٦٨]، ومثل هذه الآية، وهو قوله تعالى: {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [الزلزلة: ٥]، أي: ألهمها أن تحدث".

قال الزمخشري:"معنى «تحديث الأرض والإيحاء لها»: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات؟ وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على الحقيقة. وتخبر بما عمل عليها من خير وشر".

والباء سببية، أي: تحدث بسبب إيحاء الله لها، أي: إذنه لها أن تخبر بما عُمل عليها من خير أو شر.

والظاهر أن هذا التحديث من الأرض على سبيل الحقيقة، بأن يخلق الله- تعالى- فيها حياة وإدراكا، فتشهد بما عمل عليها من عمل صالح أو طالح، كما تشهد على من فعل ذلك....

وفسر كثير من العلماء [اللام] في هذه الآية بـ[إلى]، وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو قول ابن قتيبة، والطبري، والنحاس، والجصاص، والواحدي، والسمعاني، وعليه أكثر العلماء؛ لأن المعروف تعدي الوحي بـ[إلى]، كقوله تعالى: {وأوحى ربك إلى النحل} [النحل:٦٨].

واستعمال [اللام] مكان [إلى] كثير في اللغة العربية، كقوله تعالى: {سقناه لبلد ميت} [الأعراف:٥٧] أي: إلى بلد، وقوله تعالى: {كل يجري لأجل مسمى} [الرعد:٢] أي: إلى أجل.

=

=

وتأمل في قول الله تعالى: {وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا} الآية [الأعراف:٤٣]، فـ[هدى] يتعدى بـ[إلى]، كما قال تعالى: {وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٧)} [الأنعام:٨٧] فالهداية أوصلت صاحبها إلى الصراط المستقيم.

والوصول موجود في معنى [إلى] و [اللام]، فـ[اللام] أقرب الحروف لفظا ومعنى إلى [إلى]، ولذلك جاز دخول كل واحدة منهما في موضع الأخرى، كقوله تعالى: {إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم} [النساء:٦] أي: ادفعوا لهم.

وذهب جماعة من العلماء إلى أن الفعل [أوحى] مضمن معنى: [أذن] منهم الواحدي، وأشار إليه البغوي، واستظهره ابن كثير.

ولا تعارض بين القولين؛ فمؤداهما واحد، وليس تضمين أحدهما بأولى من الآخر.

قال الطبري: (وتأويل الكلام على هذا المعنى: يومئذ تبين الأرض أخبارها بالزلزلة والرجة وإخراج الموتى من بطونها إلى ظهورها بوحي الله إليها وإذنه لها بذلك، وذلك معنى قوله: {بأن ربك أوحى لها (٥)} [الزلزلة:٥]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

فجمع الطبري بين القولين على أنهما قولا واحدا، وهذا بديع في تفسير كلام الله جل وعلا.

فإن قال قائل: فما السر في استعمال [اللام] مكان [إلى]؟.

فالجواب أن يقال:

١- لقرب [اللام] من [إلى] في اللفظ والمعنى كما سبق، فأيهما كان أولى في سياق الآية كان استعماله أجدر وأحرى.

=

=

٢- أن اختيار [اللام] دون [إلى] لمراعاة فواصل الآيات، وهذا من أقوى الأوجه في نظري؛ لأن الفواصل لها اعتبارها في كثير من خواتم الآيات في القرآن مع ما يرتبط بها من معان أخرى قد نعلم منها اليسير ويخفى علينا الكثير، وقد أشار بعض العلماء إلى شيء من ذلك في هذه الآية التي معنا.

٣- أن التعدية باللام لتضمين [أوحى] معنى [قال] وإنما عدل عن فعل [قال لها] إلى فعل [أوحى لها] لأنه حكاية تكوين لا عن قول لفظي.

٤- أن الوحي للأرض أمر خاص لها على سبيل التسخير، وهو ما يفسر به مجيئه هنا متعديا باللام من بين ما يقرب من سبعين موضعا كلها عديت بـ[إلى].

٥- قال الرازي: (لعله إنما قال: [لها] أي: فعلنا ذلك لأجلها، حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفي من العصاة). بمعنى: أن اللام على بابها، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض، أي: لأجل ما يفعلون فيها، وفي هذا من التكلف ما فيه.

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا} [الزلزلة: ٦]، أي:"يومئذ يرجع الناس عن موقف الحساب أصنافًا متفرقين".

قال الطبري:"يومئذ يصدر الناس أشتاتا متفرّقين، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار".

قال الزجاج:"أي: يصدرون متفرقين، منهم من عمل صالحا، ومنهم من عمل شرا".

قال القشيري:"{أَشْتاتـًا}: متفرّقين".

عن السدى: "{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا}، قال: فرقا".

عن ابن عباس:"{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا}، قال: من كل من هاهنا وهاهنا".

قال ابن جريج: "يتصدعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخر ما عليهم".

=

=

قال مقاتل:"يعني: يرجع الناس من بعد العرض والحساب إلى منازلهم من الجنة والنار متفرقين، كقوله: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [الروم: ٤٣]، يعني: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.. و «الأشتات»: الذين لا يلتقون أبدا".

قال ابن عطية:"معناه: قوم مؤمنون وقوم كافرون، وقوم عصاة مؤمنون، والكل سائر إلى العرض ليرى عمله، ويقف عليه".

قال السمعاني:"يقال: شتان ما بين فلان وفلان أي: ما أشد التفرقة بينهما".

قوله تعالى: {لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} [الزلزلة: ٦]، أي:"ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويجازيهم عليها".

قال القشيري:"ليحاسبوا".

قال ابن كثير:"أي: ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر".

قال الطبري:"فيرى المحسن في الدنيا، المطيع لله عمله وما أعد الله له يومئذ من الكرامة، على طاعته إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيء العاصي لله عمله وجزاء عمله وما أعدّ الله له من الهوان والخزي في جهنم على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفره به".

قال ابن فورك: أما رؤية الأعمال المعرفة بها عند تلك الحال وهذه رؤية القلب، ويجوز أن يكون التأويل على رؤية العين بمعنى ليروا صحائف أعمالهم يقرؤون ما فيها. {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} [الكهف: ٤٩]".

قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧]، أي:"فمن يعمل وزن نملة صغيرة خيرًا، ير ثوابه في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك، وقيل: إن الذَّرَّة دُودة حمراء ليس لها وزن".

=

=

قال مقاتل:"يقول من يعمل في الدنيا مثقال ذرة، -يعني: وزن نملة أصغر النمل الأحمر التي لا تكاد نراها من صغرها- خيرا، يره يوم القيامة في كتابه".

عن ابن عباس:"{مِثْقَالَ ذَرَّة}: مثقال ذرّة حمراء".

عن ابن عباس، {مِثْقَالَ ذَرَّة}:نملة حمراء".

قال يزيد بن هارون: "وزعموا أن هذه الدودة الحمراء ليس لها وزن".

عن إبراهيم التيمي، قال: "أدركت سبعين من أصحاب عبد الله، أصغرهم الحارث بن سويد، فسمعته يقرأ: {إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا}، حتى بلغ إلى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، قال: إن هذا إحصاء شديد".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٨]، أي:"ومن يعمل وزن نملة صغيرة شرًا، ير عقابه في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧- ٨]، قولان:

أحدهما: يلقى ذلك في الآخرة، مؤمناً كان أو كافراً، لأن الآخرة هي دار الجزاء. وهذا قول ابن عباس، وبه قال مقاتل، والطبري، والزجاج.

قال ابن عباس:"ليس مؤمن ولا كافر عمِل خيرا ولا شرا في الدنيا، إلا آتاه الله إياه، فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر الله له سيئاته. وأما الكافر فيردّ حسناته، ويعذّبه بسيئاته".

عن أبي سعيد الخدري قال: "لما نزلت: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧- ٨]، قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: نعم تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم قلت الصغار الصغار؟ قال:؟ نعم قلت: واثكل أمي؟ قال: «أبشر يا سعيد، فإن الحسنة بعشر أمثالها- يعني إلى سبعمائة

=

=

ضعف ويضاعف الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله» قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة»".

الثاني: أنه إن كان مؤمناً رأى جزاء سيئاته في الدنيا، وجزاء حسناته في الآخرة حتى يصير إليها وليس عليه سيئة. وإن كان كافراً رأى جزاء حسناته في الدنيا، وجزاء سيئاته في الآخرة حتى يصير إليها وليس له حسنة، قاله محمد بن كعب القرظي، وطاووس، ويحيى بن سلام.

عن محمد بن كعب القُرَظيّ -من طريق عمرو بن قتادة- في الآية، قال: مَن يعمل مِثقال ذرّة مِن خير مِن كافر يرى ثوابها في الدنيا، في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يَخرج من الدنيا وليس عنده خير".

وعن محمد بن كعب: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}، قال: "أما المؤمن فيرى حسناته في الآخرة، وأما الكافر فيرى حسناته في الدنيا".

وفي رواية عن محمد بن كعب:" {ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} مِن مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يَخرج من الدنيا وليس عليه شيء".

عن أنس، قال: "كان أبو بكر رضى الله عنه يأكل مع النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله إني أُجزَى بما عملت من مثقال ذرة من شرّ، فقال: "يا أبا بَكر، ما رأيْتَ في الدنْيا ممَّا تكره فمثَاقيلُ ذَرّ الشَّرّ، وَيَدَّخِرُ لَكَ اللهُ مثَاقِيلَ الخير حتى تُوَفَّاه يَوْمَ الْقِيامَةِ" وإسناده ضعيف.

عن الشعبي، قال: قالت عائشة: "يا رسول الله، إن عبد الله بن جُدْعان كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، هل ذاك نافعه؟ قال: «لا إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»".

=

=

عن مسروق، عن عائشة، قالت: "قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا يَنْفَعُهُ، إنَّهُ لَمْ يَقُلْ يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»".

عن سلمة بن يزيد الجعفي، قال: ذهبت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن أمنا كانت في الجاهلية تقري الضيف، وتصل الرحم، هل ينفعها عملها ذلك شيئا؟ قال: «لا»".

روي:"أن سلمان بن عامر جاء رسول الله ﷺ، فقال: إنّ أبي كان يصل الرحم، ويفي بالذمة، ويُكرم الضيف، قال: "ماتَ قَبْلَ الإسْلام"؟ قال: نعم، قال: "لَنْ يَنْفَعَهُ ذَلكَ"، فولى، فقال رسول الله ﷺ: "عَليَّ بالشَّيْخ"، فجاءَ، فَقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّها لَنْ تَنْفَعَهُ، وَلَكِنَّهَا تَكُونُ فِي عَقِبِهِ، فَلَنْ تُخْزَوْا أبَدًا، وَلَنْ تَذِلُّوا أَبَدًا، وَلَنْ تَفْتَقِرُوا أَبدًا» " وإسناده ضعيف.

عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ المُؤْمِنُ حَسَنَةً يُثابُ عَلَيْها الرِّزْقَ فِي الدنْيا، ويُجْزى بِها فِي الآخِرَةِ؛ وأمَّا الكافِرُ فَيُعْطِيهِ بِها فِي الدنْيا، فإذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنة".

عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ﷺ قال: "الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طِيَلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شَرَفا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يَسقَى به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تَغَنيا وتعففا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورئاء ونواء، فهي على ذلك وزر". فسُئل رسول

=

الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: "ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}".

عن صعصعة بن معاوية- عم الفرزدق -: أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} قال: حسبي! لا أبالي ألا أسمع غيرها".

روي عن عَدي مرفوعا: "اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة".

وفي الصحيح: "لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط".

وفي الصحيح أيضا: "يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة". يعني: ظلفها.

وفي الحديث الآخر: "ردوا السائل ولو بظلْف مُحَرق".

عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: "يا عائشة، استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان".

قال مالك: "بلغني أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب. فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب. فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟".

عوف بن الحارث بن الطفيل: أن عائشة أخبرته: أن النبي ﷺ كان يقول: "يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا".

عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه" وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صَنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، وأجَّجوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها.

=

قال الربيع بن صبيح: "مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة، فلمّا بلغ آخرها قال: «حسبي قد أتممت الموعظة» فقال الحسن: «لقد فقه الرجل».

قال أبو الفضل أحمد بن محمد بن حمدون الفقيه: "أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد بن إبراهيم الحواربي بواسط:

إنّ من يعتدي ويكسب إثما... وزن مثقال ذرّة سيراه

ويجازى بفعله الشر شرّا... وبفعل الجميل أيضا جزاه

هكذا قوله تبارك ربّي... في إذا زلزلت جلّ ثناه".

قال السعدي:"وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلا والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا".

قال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً).

وقال تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً).

وقال تعالى: (إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ).

وقال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وهذا فيه الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

فقد قال ﷺ: (لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) رواه مسلم.

وقال ﷺ لعائشة: (استتري من النار ولو بشق تمرة). رواه أحمد.

فلا ينبغي للمسلم أن يستصغر فعل معروف مهما صغر، ولو أن يلقى أخاه بوجه مبتسم.

لأن الإنسان لا يدري أي أعماله أخلص لله تعالى، فإن العمل يعظم بالإخلاص لله تعالى والإحسان.

=

=

قال ابن تيمية: وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له.

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً.... (منهاج السنة).

وسبب جمع صحيح البخاري أن الإمام البخاري لما كان في شبابه جلس مع أحد شيوخه فقال الشيخ للتلاميذ: لو أن أحداً جمع الحديث الصحيح فتحركت هذه العبارة اليسيرة بقلب البخاري فأخرج لنا الخير الكثير.

ومحدِّث الشام البرزالي أطلَقَ كلمةً عابرة لتلميذه الذهبي، فقال له: إنَّ خطَّك يُشبِه خَطَّ المحدِّثين، ففعَلَتْ هذه الكلمة فِعلَها في نفْس الإمام الذهبي، فأقبَلَ على طلَب الحديث، حتى عُدَّ رأسًا من رؤوس المحدِّثين.

سورة العاديات(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

---

(١) اختلف في وقت نزول هذه السورة، على قولين:

أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وجابر.

الثاني: مدنيّة، قاله ابن عباس، وأنس، ومالك، وقتادة، ومقاتل.

قال ابن عطية:"هي مكية في قول جماعة من أهل العلم، وقال المهدوي عن أنس بن مالك: وهي مدنية".

* آياتها إِحدى عشرة. وكلماتها أَربعون. وحروفها مائة وستُّون. فواصل آياتها على (دار).

* تسمى «سورة العاديات» سميت في أكثر المصاحف وكتب التفسير : «سورة العاديات» بدون واو، فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه، قال تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} [العاديات: ١].

وسميت في بعض كتب التفسير «سورة والعاديات» بإثبات الواو.

* معظم مقصود السّورة: بيان شرف الغُزاة فى سبيل الرحمن، وذكر كفران الإِنسان، والخبر عن اطلاع الملك الدّيّان، على الإِسرار والإِعلان، وذمّ محبّة ما هو فان، والخبر من إِحياءِ الأموات بالأَجساد والأَبدان، وأَنَّه- تعالى- خبير بما للخلق من الطَّاعة والعصيان.

* متشابه سورة والعاديات: قوله: {والعاديات} : أَقسم بثلاثة أَشياء: العاديات والموريات والمغيرات، وجعل جواب القسم أَيضا ثلاثة أَشياء: إِن الإِنسان لربه لكنود، وإِنه على ذلك لشهيد وإِنه لحب الخير لشديد. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٣٧).

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١).

{وَالْعَادِيَات} الْخَيْل تَعْدُو فِي الْغَزْو وَتَضْبَح {ضَبْحًا} هُوَ صَوْت أَجْوَافهَا إِذَا عَدَتْ

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢).

{فَالْمُورِيَات} الْخَيْل تُورِي النَّار {قَدْحًا} بِحَوَافِرِهَا إِذَا سَارَتْ فِي الْأَرْض ذَات الْحِجَارَة بِاللَّيْلِ.

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣).

{فَالْمُغِيرَات صُبْحًا} الْخَيْل تُغِير عَلَى الْعَدُوّ وَقْت الصُّبْح بِإِغَارَةِ أَصْحَابهَا.

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤).

{فَأَثَرْنَ} هَيَّجْنَ {بِهِ} بِمَكَانِ عَدْوهنَّ أَوْ بِذَلِكَ الْوَقْت {نَقْعًا} غُبَارًا بِشِدَّةِ حَرَكَتهنَّ

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥).

{فَوَسَطْنَ بِهِ} بِالنَّقْعِ {جَمْعًا} مِنْ الْعَدْو أَيْ صِرْنَ وَسَطه وَعُطِفَ الْفِعْل عَلَى الِاسْم لِأَنَّهُ فِي تَأْوِيل الْفِعْل أَيْ وَاَللَّاتِي عَدَوْنَ فَأَوْرَيْن فأغرن.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦).

{إِنَّ الْإِنْسَان} الْكَافِر {لِرَبِّهِ لَكَنُود} لَكَفُور يَجْحَد نعمته تعالى.

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧).

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ} أَيْ كَنُوده {لَشَهِيد} يَشْهَد عَلَى نَفْسه بِصُنْعِهِ.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨).

=

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْر} أَيْ الْمَال {لَشَدِيد} الْحُبّ لَهُ فَيَبْخَل بِهِ.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩).

{أَفَلَا يَعْلَم إِذَا بُعْثِرَ} أُثِيرَ وَأُخْرِجَ {مَا فِي الْقُبُور} مِنْ الْمَوْتَى أَيْ بُعِثُوا.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠).

{وَحُصِّلَ} بُيِّنَ وَأُفْرِزَ {مَا فِي الصُّدُور} الْقُلُوب مِنْ الْكُفْر وَالْإِيمَان.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١).

{إِنَّ رَبّهمْ بِهِمْ يَوْمئِذٍ لَخَبِير} لَعَالَم فَيُجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرهمْ أُعِيدَ الضَّمِير جَمْعًا نَظَرًا لِمَعْنَى الْإِنْسَان وَهَذِهِ الْجُمْلَة دَلَّتْ عَلَى مَفْعُول يَعْلَم أَيْ إِنَّا نُجَازِيه وَقْت مَا ذَكَرَ وَتَعَلَّقَ خَبِير بِيَوْمَئِذ وَهُوَ تَعَالَى خَبِير دَائِمًا لِأَنَّهُ يوم المجازاة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً، فأشهرت شهراً لا يأتيه منها خبر؛ فنزلت: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)}: ضبحت بأرجُلها، {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)}: قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً، {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣)}: صبحت القوم بغارة، {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)}: أثارت بحوافرها التراب، {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥)}؛ قال: صبحت القوم جميعاً.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٨٢ رقم ٢٢٩١ - "كشف")، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٥)، والدارقطني في "الأفراد" (٣/ ٢٣٦ رقم ٢٥٢٥ - أطراف الغرائب)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في "تفسيرهم"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٥٩٩) كلهم عن أحمد بن عبدة الضبي عن حفص بن جميع ثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس.

=

=

قال الحافظ الدارقطني: "غريب من حديث سماك عنه، تفرد به حفص بن جميع، ولم يروه عنه غير أحمد بن عبدة". وهو ثقة؛ لكن شيخه حفص بن جميع ضعيف؛ كما في "التقريب".

وفيه علة أخرى وهي: أن رواية سماك عن عكرمة على وجه الخصوص مضطربة.

قال الحافظ الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٢): "رواه البزار؛ وفيه حفص بن جميع وهو ضعيف".

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٧٩): "وقد روى أبو بكر البزار ههنا حديثاً غريباً جداً".

* قوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} [العاديات: ١].

أقسم الله تعالى بالخيل الجاريات في سبيله نحو العدوِّ، حين يظهر صوتها من سرعة عَدْوِها. ولا يجوز للمخلوق أن يقسم إلا بالله، فإن القسم بغير الله شرك.

فالْعَادِيَاتِ جمع عادية صفة للخيل من العدْو وهو الجري السريع، والضبح: هو صوت أنفاسها عند جريها.

وفي «العاديات»، قولان:

أحدهما: أنها الخيل في الجهاد، قاله ابن عباس، وأنس، والحسن، وسالم، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وعكرمة ،وأبو العالية، والربيع بن أنس، وعطاء، ومنه قول الشاعر:

وَطَعْنَةٍ ذَاتِ رَشَاشٍ وَاهِيَهْ... طَعَنْتُهَا تَحْتَ صُدُورِ الْعَادِيَهْ

يعني: الخيل.

قال الزجاج: "يعنى بـ «العاديات» -ههنا-: الخيل، وهذا قسم جوابه: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦]".

=

=

قال ابن كثير:"يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فَعَدت وضَبَحت، وهو: الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو".

عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، وعطاء: "{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، قال: الخيل".

قال ابن عباس: "هو في القتال".

قال قتادة:"هي الخيل، عدت حتى ضبحت". وفي لفظ:"هي الخيل تعدو حتى تضبح".

قال مجاهد:"الخيل تضبح".

عن سعيد بن جبير، قال: "سمعت سالما يقرأ: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، قال: هي الخيل عدت ضبحا".

عن عكرمة:"{والعادِياتِ ضَبْحًا}، قال: الخيل، ألم تر إلى الفرس إذا جرى كيف يضبح؟ وما ضبح بعيرٌ قطّ".

قال الآلوسي: "الجمهور على أنه قسم لخيل الغزاة في سبيل الله تعالى التي تعدو أي تجري بسرعة نحو العدو".

الثاني: أنها الإبل في الحج، قاله عليٌّ رضي الله عنه، وابن مسعود، وإبراهيم، وعبيد بن عمير ،والسدي، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فَلاَ والعَاديَاتِ غَداةَ جَمْعٍ... بأيْديهَا إذا سَطعَ الغُبَارُ

يعني: الإبل، وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الرجل في سرعة المشي.

عن إبراهيم النَّخْعي -من طريق منصور- {والعادِياتِ ضَبْحًا}، قال: الإبل".

وعن محمد بن كعب القُرَظيّ، " {والعادِياتِ ضَبْحًا}، قال: الدّفعة من عرفة".

=

=

عن السدي:"أنها الإبل في الحج، تعدو مِن عرفة إلى المُزدلفة، ومن المُزدلفة إلى مِنى".

عن مجاهد، في قول الله: "{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، قال: قال ابن مسعود: هو في الحج".

عن إبراهيم: قال ابن مسعود: هي الإبل".

عن ابن مسعود:"{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، قال هي الإبل إذا ضبحت تنفست".

عن ابن عباس حدثه قال: "بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل يسأل عن {الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن {الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}، فقال: سألتَ عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي؛ فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون {الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا}! إنما {الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} من عرفة إلى مزدلفة إلى منى؛ قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: عني بالعاديات: الخيل، وذلك أن الإبل لا تضبح، وإنما تضبح الخيل، وقد أخبر الله تعالى أنها تعدو ضبحا".

وفي قوله تعالى: {ضَبْحًا} [العاديات: ١]، وجهان:

أحدهما: أن الضبح: حمحمة الخيل عند العدو، قاله من زعم أن العاديات: الخيل.

=

=

الثاني: أنه شدة النّفس عند سرعة السير، قاله من زعم أنها: الإبل.

قال ابن عطية:"الضبح: تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا رغاء ولا نباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح".

قال علي -رضى الله عنه-: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل: النفس".

قال الزجاج:"وضبحها صوت أجوافها إذا عدت".

عن عطاء، قال: "سمعت ابن عباس يصف الضبح: أحْ أحْ".

وقال ابن عباس: ضبحها: قول سائقها: أج أج".

وقيل: "أن الإبل ضبحها بالنفَس".

قال عطاء:"ليس شيء من الدوابّ يضبح غير الكلب والفرس".

قال ابن عباس:"ما ضبحت دابة قط إلا كلب أو فرس.

قال ابن عطية:"هذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، وذلك أن الإبل تضبح والأسود من الحيات والبوم والصدى والأرنب والثعلب، والقوس هذه كلها قد استعملت لها العرب الضبح، وأنشد أبو حنيفة في صفة قوس :

حَنَّانَةٌ من نَشَمٍ أَو تَأْلَبِ... تَضْبَحُ فِي الكَفِّ ضُباحَ الثعلَبِ

والظاهر في الآية، أن القسم بالخيل أو بالإبل أو بهما".

قوله تعالى: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا} [العاديات: ٢].

فالخيل اللاتي تنقدح النار من صلابة حوافرها؛ من شدَّة عَدْوها.

وفي تفسير الآية، أقوال:

أحدها: أنها الخيل توري النار بحوافرها إذا جرت من شدة الوقع، قاله قتادة، والضحاك، وعكرمة، وعطاء، والكلبي.

قال ابن كثير:"يعني: اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار".

عن قتادة: "{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: هي الخيل".

=

=

عن عطاء: "{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: أورت النار بحوافرها".
قال الضحاك:"توري الحجارة بحوافرها".
قال الكلبي: تقدح بحوافرها حتى يخرج منها النار".
قال أبو رجاء: "سئل عكرِمة، عن قوله: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: أورت وقدحت".
وقال مقاتل والكلبي : "والعرب تسمي تلك النار نار أبي حباحب".
قال مقاتل:"يقول يقدحن بحوافرهن في الحجارة نارا كنار أبي حباحب، وكان شيخا من مضر في الجاهلية له نويرة نقدح مرة وتخمد مرة لكيلا يمر به ضيف فشبه الله ﷻ ضوء وقع حوافرهن في أرض حصباء بنويرة أبي حباحب".
قال الثعلبي:"وكان أبي حباحب شيخا من مضر في الجاهلية وكان من أبخل الناس، وكان لا يوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام كل ذي عين، فإذا نام أصحابه وقد نويرة تقد مرّة وتخمد مرّة، فإذا استيقظ بها أحد أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد، فشبّهت العرب هذه النار بناره، أي: لا ينتفع به كما لا ينتفع بنار أبي حباحب".
الثاني: أنها نيران الحجيج بمزدلفة، قاله محمد بن كعب.
الثالث: أنها نيران المجاهدين إذا اشتعلت فكثرت نيرانها إرهابًا، قاله ابن عباس.
عن ابن عباس، قال:"سألني علي بن أبي طالب رضى الله عنه، عن {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، فقلت له: الخيل تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم ويورون نارهم".
روى مجاهد وعكرمة عن ابن عباس قال: "الناس، يورون النار ليراها غيرهم".
الرابع: أنها الخيل تشعل الحرب بينهم وبين عدوهم، قاله قتادة.
عن قتادة: "{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: هجن الحرب بينهم وبين عدوهم".

=

=

قال ابن عطية:"وهذا على الاستعارة البينة".

الخامس: أنه مكر الرجال في الحروب، قاله ابن عباس-أيضا-، ومجاهد، وزيد بن أسلم.

عن ابن عباس: "{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: المكر".

قال البغوي:"يعني: رجال الحرب، والعرب تقول -إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه-: أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك".

السادس: أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأقيمت بها الدلائل وأوضح بها الحق، وفضح بها الباطل، قاله عكرمة.

عن عكرِمة قال: يقال في هذه الآية: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: هي الألسنة".

عن عكرمة: "هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلّم به".

قال ابن عطية:"فهذا على الاستعارة، أي: ببيانها تقدح الحجج وتظهرها".

السابع: أنها الإبل حين تسير ترجم الحصى بالحصى فيتطاير منه النار. قاله ابن مسعود. وهو مذهب علي بن أبي طالب﵁.

قال ابن مسعود:"نسفت الحصى بمناسمها، فضرب الحصى بعضه بعضا، فيخرج منه النار".

الثامن: أن "الكلام عام يدخل في القسم كل من يظهر بقدحه نارا، وذلك شائع في الأمم طول الدهر وهو نفع عظيم من الله تعالى، وقد وقف عليه في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ} [الواقعة: ٧١]، معناه: تظهرون بالقدح، قال عدي بن زيد:

فقدحنا زنادا وورينا... فوق جرثومة من الأرض نار

حكاه ابن عطية عن ابن عباس -أيضا-، وجماعة من العلماء. وبه قال النحاس.

=

=

قال النحاس:"ولا دليل يدلّ على تخصيص شيء من هذه الأقوال فالصواب أن يقال ذلك لكل من أورى على أن المعنى واحد إذا كان التقدير: وربّ العاديات".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالموريات التي توري النيران قدحا؛ فالخيل توري بحوافرها، والناس يورونها بالزند، واللسان- مثلا- يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر- مثلا -، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها: إذا التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعض دون بعض فكل ما أورت النار قدحا، فداخلة فيما أقسم به، لعموم ذلك بالظاهر".

قوله تعالى: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا } [العاديات: ٣].

أي: فالخيل التي تغير بركبانها على الأعداء عند الصبح.

وفي تفسير الآية، قولان:

أحدهما: أنها الخيل تغير على العدو صبحاً، أي: علانية، تشبيهاً بظهور الصبح، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وعكرمة، وعطية العوفي، وحكاه الثعلبي وابن الجوزي والبغوي عن اكثر المفسرين.

قال ابن كثير:"يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويتسمّع أذانا، فإن سمع وإلا أغار".

قال ابن فورك:"وإنما أقسم بها تنبيه على عظم الشأن وتأكيد الأخبار".

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: "سألني رجل عن المغيرات صبحا، فقال: الخيل تغير في سبيل الله".

قال عكرمة:"أغارت على العدو صبحا".

قال قتادة:"أغارت حين أصبحوا".

قال الحسن:"هي الخيل تُغير على العدوّ إذا أصبحتْ".

=

=

قال قتادة:"أغار القوم بعد ما أصبحوا على عدوهم".

عن مجاهد، وقتادة: "{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}، قال: هي الخيل".

قال البغوي:"الإغارة: سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نغير".

قال الشوكاني:"وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه وقت الإغارة، ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح".

قال ابن عطية:"وعرف الغارات أنها مع الصباح، لأنها تسري ليلة الغارة، والضمير في: {بِهِ} ظاهر أنه للصبح المذكور، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجر له ذكر، ولهذا أمثلة كثيرة، ومشهورة إثارة النقع هو للخيل ومنه قول الشاعر :

يَخْرُجْنَ منْ مُسْتطيرِ النَّقْع دامِيَةً... كأنَّ آذانَها أطْرافُ أَقْلامِ".

الثاني: أنها الإبل حين تعدو صبحاً من مزدلفة إلى منى، قاله عليّ رضي الله عنه، وابن مسعود، ومحمد بن كعب القرظي.

عن ابن مسعود: "{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}، حين يفيضون من جمع".

عن محمد بن كعب القُرَظيّ، {فالمُغِيراتِ صُبْحًا}، قال: الدّفعة مِن جمْع".

وحكي البغوي القرظي: "هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى».

قال البغوي-: "والسنة أن لا تدفع بركبانها يوم النحر حتى تصبح".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله جل ثناؤه أقسم بالمغيرات صبحا، ولم يخصص من ذلك مغيرة دون مغيرة، فكل مغيرة صبحا، فداخلة فيما أقسم به ؛ وقد كان زيد بن أسلم يذكر تفسير هذه الأحرف ويأباها، ويقول: إنما هو قسم أقسم الله به".

=

=

عن ابن زيد: "{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا}، قال: هذا قسم أقسم الله به. وفي قوله: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، قال: كل هذا قسم، قال: ولم يكن أبي ينظر فيه إذا سئل عنه، ولا يذكره، يريد به القسم".

قوله تعالى: {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا} [العاديات: ٤].

أي: فهيَّجْنَ بهذا العَدْو غبارًا.

وفي «النقع»، أقوال:

أحدها: أنه الغبار الذي يسطع من حوافر الخيل.، قاله ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، ومنه قول الشاعر:

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومنه قول الآخر:

عَدِمْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْها... تُثِير النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَداءِ

قال الشوكاني:"المعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع: الغبار، وهذا هو المناسب لمعنى الآية، والنقع: الغبار الذي أثرنه في وجه العدو عند الغزو، وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه وقت الإغارة، ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح، وقيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهن نقعا".

قال الفراء:"النقع: الغبار، ويقال: التراب، قوله ﷻ: {بِهِ نَقْعًا}، يريد: بالوادي، ولم يذكره قبل ذلك، وهو جائز لأن الغبار لا يثار إلا من موضع وإن لم يذكر، وإذا عرف اسم الشيء كني عنه وإن لم يجر له ذكر".

قال الزجاج:"النقع: الغبار، المعنى: فأثرن بمكان عدوها غبارا".

قال ابن كثير:"يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول".

قال أبو عبيدة:"فرفعن به غبارا، النقع: الغبار".

=

=

قال علي رضي الله عنه:"فهي نقع الأرض حين تطأها أخفافها وحوافرها". وفي لفظ:"الأرض حين تطؤها بأخفافها وحوافرها". أي: الإبل.

عن ابن مسعود:"{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}، قال: إذا سرن يثرن التراب".

قال عكرمة:"أثارت التراب بحوافرها".

قال قتادة:"أثرن بحوافرها نقع التراب". وفي لفظ:"أثرن به غبارا".

قال عكرمة:"هي أثارت الغبار، يعني: الخيل".

عن مجاهد: "{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}، قال: الخيل".

قال مجاهد:"رفعنا به غبارا".

عن عطاء وابن زيد، قال: "النقع: الغبار".

قال الطبري: أي:"فرفعن بالوادي غبارا؛ والنقع: الغبار، ويقال: إنه التراب".

قال مقاتل:"فأثرن بجريهن، يعني: بحوافرهن نقعا في التراب".

الثاني: أن «النقع»: رفع الصوت، والمعنى: فهيجن في المغار عليهم صياح النوائح، وارتفعت أصواتهن، قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد:

فَمَتَى يَنْفَعُ صُراخٌ صادقٌ... يُحْلِبوه ذاتَ جَرْسٍ وزَجَل

يقول: متى سمعوا صارخا، أي مستغيثا، أحلبوا الحرب، أي: جمعوا لها.

قال أبو عبيدة: وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم".

قال الفراء: "يقال: نقع الصارخ بصوته وأنقع صوته، إذا تابعه وأدامه".

ومنه قول عمر رضي الله عنه: «ما لم يكن نقع ولا لقلقة».

قال ابن فارس:"ويقال: النقع: صوت النعامة. والنقاع: الرجل يتكثر بما ليس عنده، كأنه يصيح به".

عن ابن الأعرابي: "النقع: الغبار المرتفع. والنقع: الصراخ المرتفع".

=

=

قال الشوكاني:"وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صبحا فأثرن به صوتا، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة".

الثالث: أن النقع: ما بين مزدلفة إلى منى، قاله محمد بن كعب.

الرابع: أن النقع: شق الجيوب، حكاه شمر، ومنه قول مرار الأسدي :

نَقَعْنَ جُيُوبَهُنَّ عليَّ حيًّا... وأَعْدَدْنَ المَرَاثي والعَوِيلاَ

قال شمر: "وقيل في قول عمر: «ما لم يكن نقع ولا لقلقة»، إنه شق الجيوب".

قوله تعالى: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا } [العاديات: ٥].

أي: فتوسَّطن بركبانهن جموع الأعداء.

وفي تفسير الآية، قولان:

أحدهما: أنها مزدلفة تسمى جمعـًا، لاجتماع الحاج لها وإثارة النقع في الدفع إلى منى، قاله ابن مسعود، ومكحول.

عن عبد الله: "{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، يعني: مزدلفة".

الثاني: فوسطن بركبانهن جمع العدو، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، وعطاء.

قال ابن كثير:"أي: توسطن ذلك المكان كُلُّهن جمع".

عن الضحاك:"{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، قال: الجمع: الكتيبة".

عكرِمة:"{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، قال: جمع الكفار". وفي لفظ:"جمع القوم".

قال ابن عباس:"هو جمع القوم".

قال عطاء:"جمع العدو".

قال قتادة:"فوسطن جمع القوم".

قال قتادة:"فوسطن بالقوم جمع العدو".

=

=

قال مجاهد:"جمع هؤلاء وهؤلاء".

قال مقاتل:"فوسطن بذلك الغبار جمعا، يقول حمل المسلمون عليهم، فهزموهم، فضرب بعضهم بعضا، حتى ارتفع الوهج الذي كان ارتفع من حوافر الحيل إلى السماء، فهزم الله المشركين وقتلهم، فأخبره الله ﷻ بعلامات الخيل، والغبار، وكيف فعل بهم؟ فقال رسول الله- ﷺ-: يا جبريل، ومتى كان هذا؟ قال: اليوم. فخرج رسول الله- ﷺ- فأخبر المسلمين بذلك، وقرأ عليهم كتاب الله ﷻ ففرحوا واستبشروا، وأخرى الله ﷻ اليهود والمنافقين".

أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع.

قال الخازن: وإنما أقسم الله بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية، والدنيوية، والأجر، والغنيمة، وتنبيهاً على فضلها، وفضل رباطها في سبيل الله ﷻ.

وقال السعدي: أقسم تعالى بالخيل لما فيها من آياته البارهة، ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق.

قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦]، أي:"إن الإنسان لِنعم ربه لَجحود".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: لكفور جحود لنعم الله تعالى. قاله ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والأرض الكنود: التي لا تنبت شيئا، قال الأعشى :

أَحْدِثْ لَهَا تُحْدِثْ لِوَصْلِكَ إِنَّها... كُنُدٌ لوَصْلِ الزَّائِرِ المُعْتادِ

قال ابن كثير:"هذا هو المقسم عليه، بمعنى: أنه لنعم ربه لجحود كفور".

قال النحاس:"أهل التفسير على أن معناه: لكفور، أي: كفور لنعمه".

=

=

عن ابن عباس: "{إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، قال: لربه لكفور".

قال ابن عباس:"«الكنود» بلساننا أهل البلد: الكفور".

عن الحسن، ومجاهد، وقتادة:"{لَكَنُودٌ}، قال: لكفور".

عن الربيع، قال: "الكنود: الكفور".

قال ابن زيد:"الكنود: الكفور، وقرأ: {إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُور}".

عن سماك أنه قال: "إنما سميت كندة: أنها قطعت أباها، {إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، قال: لكفور".

قال الكلبي: «الكنود» " بلسان مضر وربيعة وقضاعة: الكفور".

ونقل الفراء عن الكلبي:"أنها في لغة كندة وحضرمو: لكفور بالنعمة".

قال الأصمعي: "امرأة كُنُدٌ: أي: كفور للمواصلة".

قال الواحدي:"وأصل الكنود مع الحق والخير، والكنود الذي يمنع مَا عليه".

الثاني: أنه اللوام لربه، يذكر المصائب وينسى النعم، قاله الحسن، وهو قريب من المعنى الأول.

قال الحسن:"هو الكفور الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه".

قال الحسن:"لوام لربه يعد المصائب".

قال الحسن:"لوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم".

وقال ذو النّون: "تفسير الهلوع والكنود قوله: {إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً}".

الثالث: ما روي عن أبي أمامة موقوفًا عليه، ومرفوعًا -أيضًا-: أن: «الكنود: الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده».

وقال الضحاك: "نزلت في الوليد بن المغيرة".

=

=

الرابع: أن الكنود: العاصي، بلسان كندة وحضرموت ومعد، ذكره الكلبي، ويحيى بن سلام.

الخامس: أنه: البخيل، بلسان مالك بن كنانة. قاله الكلبي، ومقاتل.

قال مقاتل:"نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، وهو الرجل الذي أكل وحده، وأشبع بطنه وأجاع عبده، ومنع رفده، ولم يعط قومه شيئا، يسمى بلسان بني مالك بن كنانة «الكنود»".

وقال عطاء: "الكنود الذي لا يعطي في النائبة مع قومه".

وقال الفضيل بن عياض: "الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة".

وقال أبو عبيدة: "هو قليل الخير".

قال السعدي:"أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه. فطبيعة الإنسان وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق".

قال ابن عاشور: وتقديم (لربه) لإفادة الاهتمام بمتعلق هذا الكنود لتشنيع هذا الكنود بأنه كنود للرب الذي هو أحق الموجودات بالشكر وأعظم ذلك شرك المشركين.

والمراد بالإنسان جنس الإنسان من حيث هو، ومعنى الآية يحتمل الجحود والكفر المخرج من الملة، ويحتمل كفر النعم، التي قل من يشكرها، كما قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [العاديات: ٧]، أي:"وإنه بجحوده ذلك لمقر".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [العاديات: ٧]، وجوه من التفسير:

أحدهما: أن الله تعالى على كفر الإنسان لشهيد، قاله مجاهد، وقتادة، وسفيان، وابن جريج، والفراء.

قال الزمخشري:"وإنّ الله على كنوده لشاهد، على سبيل الوعيد".

قال الثعلبي: "قال أكثر المفسّرين: وإن الله على كنود هذا الإنسان وصنيعه لشاهد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الله على كنوده ربه لشاهد".

عن مجاهد: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}، قال: الله ﷻ".

قال سفيان:"وإن الله عليه شهيد".

قال قتادة:"إن الله على ذلك لشهيد".

قال قتادة:"في بعض القراءات: «إن الله على ذلك لشهيد».

الثاني: أن الإنسان شاهد على نفسه بما يصنع، قاله ابن عباس، ومحمد بن كعب، وابن كيسان.

عن محمد بن كعب:"{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}، قال: الإنسان شاهد على نفسه".

قال القرطبي: "أي وإن الله ﷻ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، كذا روى منصور عن مجاهد؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٨]، أي:"وإنه لحب المال لشديد".

عن قتادة: {إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}، قال: هذا في مقاديم الكلام، قال: يقول: إن الله لشهيد أن الإنسان لحب الخير لشديد".

وفي «الخير» -ها هنا-، وجهان:

أحدها: الدنيا، قاله ابن زيد.

=

=

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}، قال: الخير: الدنيا؛ وقرأ: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ}، قال: فقلت له: {إن ترك خيرا}: المال؟ قال: نعم، وأي شيء هو إلا المال؟ قال: وعسى أن يكون حراما، ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا، لأن الناس يسمونه خيرا في الدنيا، وعسى أن يكون خبيثا، وسمي القتال في سبيل الله سوءا، وقرأ قول الله: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ}، قال: لم يمسسهم قتال؛ قال: وليس هو عند الله بسوء، ولكن يسمونه سوءا".

الثاني: المال، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن الإنسان لحب المال لشديد".

قال قتادة:"حب الخير، هو المال".

قال مجاهد:"«الخير» -في القرآن كله-: المال، {لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٨]: الخير: المال، {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} [ص: ٣٢]: المال، {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} [النور: ٣٣]: المال، و {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ} [البقرة: ١٨٠]: المالُ".

عن الليث بن سعد:"في قول الله: {وإنه لحب الخير لشديدٌ}، قال: الخير المال".

وفي قوله: {لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٨]، وجهان:

أحدهما: لشديد المحبة للمال، وشدة الحب: قوته وتزايده. قاله الفراء.

قال الزمخشري:"وأنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس. تقول: هو شديد لهذا الأمر، وقويّ له: إذا كان مطيقا له ضابطا. أو أراد: أنه لحب الخيرات غير هش منبسط، ولكنه شديد منقبض".

=

=

الثاني: لحريص بخيل؛ من محبة المال، يمنع حق الله منه، من قولهم فلان شديد، أي: شحيح. وهذا قول الحسن، وأبي عبيدة، والكلبي، وابن قتيبة، والزجاج، ومنه قول الشاعر :

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطفي... عَقِيلةَ مَالِ الباخل المُتَشَدِّدِ

قال السعدي:"وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة".

قال أبو عبيدة:"وإنه من أجل حبّ الخير لبخيل، يقال للبخيل: شديد ومتشدد".

قال الزجاج:"معنى {لشديد} : لبخيل، أي: وإنه من أجل حب المال لبخيل".

قال الزمخشري:"يعني: وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه: لبخيل ممسك".

قال النحاس:"سمعت علي بن سليمان يقول كما تقول: أنا أكرم فلانا لك. أي: من أجلك، أي: وإنه من أجل حبّ المال لبخيل".

قال ابن كثير:"كلا المعنيين صحيح".

قال الشوكاني: "والمعنى إنه لحب المال قويٌّ مجد في طلبه وتحصيله، متهالك عليه، يقال هو شديد لهذا الأمر وقوي له: إذا كان مطيعًا له، وقيل المعنى: وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، والأول أولى".

وقد رجح القول الأول: ابن جرير، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي.

لأن عرف القرآن للفظة (الخير) غالبًا ما يراد به المال.

ورجح القول الثاني (وهو أنه بخيل من أجل حب المال) البغوي، وابن عطية، والبيضاوي، وابن عاشور.

وحجتهم في ذلك: أن الشديد في لغة العرب هو البخيل الممسك.

=

=

وقالوا إن اللام في قوله (لحب الخير) للتعليل، أي: من أجل حب المال لبخيل.
وذهب ابن كثير والسعدي إلى الجمع بين القولين.
عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ (لَوْ أنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيـاً مِـنْ ذَهَـبٍ أحَـبَّ أنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرَابُ، وَيَتْوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) مُتَّفَقٌ عليه.
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (لاَ يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ) متفق عليه
عَنْ أَنَسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ) رواه البخاري.
وقال ﷺ (اثنتان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب) رواه أحمد.
وحذر الله الاشتغال بالمال- ولو كان حلالاً- عن طاعة الله وعن ذكره وشكره.
كما قال تعالى (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).
وقال سبحانه (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا).
قوله تعالى: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} [العاديات: ٩].
أفلا يعلم الإنسان ما ينتظره إذا أخرج الله الأموات من القبور للحساب والجزاء؟
قال الطبري:"يقول: أفلا يعلم هذا الإنسان الذي هذه صفته، إذا أثير ما في القبور، وأخرج ما فيها من الموتى وبحث".
قال السعدي:"أي: هلا يعلم هذا المغتر {إِذَا} أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم".
عن ابن عباس: "{بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}، بحث".

=

=

قال أبو عبيدة:"أثير فأخرج".

قال ابن قتيبة:"أي: قُلِب وأُثِير".

قال ابن أبي زمنين:"أخرج ما فيها من الأموات".

عن محمد بن كعب:"{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}، قال: حين يبعثون".

قال الفراء:"وهما لغتان: بحثر، وبعثر".

قال الزجاج:"بعثر، وبحثر، بمعنى واحد، والمعنى: أفلا يعلم إذا بعث الموتى".

في قراءة ابن مسعود: «إذا بحث ما في القبور».

قوله تعالى: {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ } [العاديات: ١٠].

أي: واستُخرج ما استتر في الصدور من خير أو شر.

قال الطبري:"يقول: وميز وبين، فأبرز ما في صدور الناس من خير وشر".

قال ابن قتيبة:"مُيِّز ما فيها من الخير والشر".

عن سفيان: "{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}، يقول: ميز".

عن ابن عباس: "{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}، يقول: أبرز".

عن محمد بن كعب:"{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}، قال: حين يبعثون".

قال محمد بن كعب:"أخرج ما في الصدور". وروي عن أبي صالح مثله.

عن محمد بن كعب:"{وحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ}، قال: الأعمال حُصِّل ما فيها".

قال ابن كثير:"يعني: أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم".

قال ابن أبي زمنين:"أي: ميّز، كقوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩]".

قال السمعاني:"أي: أظهر ما فيها. وقيل: جمع يعني: ما في صحائف الأعمال".

قال السعدي:"أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم".

=

=

قال الزمخشري:"معنى {حُصِّلَ}: جمع في الصحف، أي: أظهر محصلا مجموعا. وقيل: ميز بين خيره وشره. ومنه قيل للمنخل: المحصل".

قال الشيخ ابن عثيمين: "ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض: أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور مما تكنه الصدور".

قال الرازي: لم خص أعمال القلوب في قوله (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) وأهمل ذكر الجوارح؟

الجواب: لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب.

فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، ولذلك جعلها تعالى هي الأصل في الذم فقال (آثِمٌ قَلْبُهُ) والأصل في المدح فقال (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ} [العاديات: ١١]

أي: إن ربهم بهم وبأعمالهم يومئذ لخبير، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

عن قتادة، قوله: "{خَبِيرٌ}، قال: "خبير بخلقه".

قال ابن أبي زمنين:"أي: لعالم".

قال ابن كثير:"أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، مجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة".

قال الطبري:"يقول: إن ربهم بأعمالهم، وما أسرّوا في صدورهم، وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ".

=

=

قال السعدي:"أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه".

قال الزجاج:"الله ﷻ خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، وليس يجازيهم إلا بعلمه أعمالهم، ومثله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِم} [النساء: ٦٣]، فمعناه: أولئك الذين لا يترك مجازاتهم".

قال الزمخشري:"معنى علمه بهم يوم القيامة: مجازاته لهم على مقادير أعمالهم، لأنّ ذلك أثر خبره بهم".

وإنما خص علمهم بهم في هذا اليوم- يوم القيامة- لأنه يوم الجزاء، بقصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

قال القرطبي: (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية، وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم.

والخبير اسم من أسماء الله، ومعناه العليم ببواطن الأمور (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

في قراءة عبد الله: «بأنه يومئذ بهم خبير».

حكي:"أن الحجاج بن يوسف قرأ على المنبر هذه السورة يحض الناس على الغزو فجرى على لسانه: «أن ربهم»، بفتح الألف، ثم استدركها من جهة العربية، فقال: «خبير»، وأسقط اللام".

قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة، والظاهرة والخفية.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه- سبحانه- بـ

=

=

{والعاديات ضبحا} [العاديات: ١] الآية وما بعدها. وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك:

فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: "هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى".

وهذا اختيار: محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبد الله بن عباس: "هي خيل الغزاة".

وهذا قول: أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة.

قالوا: فهي تعدو ضبحا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض، فتثير النقع -وهو الغبار- بعدوها، فتتوسط جمعا وهو المزدلفة.

قال أصحاب قول "الخيل": المعروف في اللغة أن "الضبح" أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى: والعاديات تضبح ضبحا، أو: والعاديات ضابحة، فتكون "ضبحا" مصدرا على الأول، وحالا على الثاني.

قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكنه صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو.

قال الجرجاني: "كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: {فالموريات قدحا (٢)}، و"الإيراء" لا يكون إلا للحافر لصلابته، وأما الخف ففيه لين واسترخاء" انتهى.

قالوا: و"الضبح" في الخيل أظهر منه في الإبل، و"الإيراء" لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف الإبل.

قالوا: و"النقع" هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل؛ لأنها لصلابة حوافرها وسنابكها تثير من الغبار بعدوها ما لا تثيره أخفاف الإبل.

والضمير في "به" عائد على المكان الذي تعدو فيه.

=

=

قالوا: وأعظم ما يثور الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأما حمل الآية على إثارة الغبار في وادي "محسر" عند الإغارة = فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب؛ لصلابة المكان.

قالوا: وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل مجاهدين، فهذا لا يلزم؛ لأنه- سبحانه- أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو، وهذا أمر معروف.

وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة، وأشرف أنواع هذا الخيل: خيل المجاهدين.

والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه "العاديات" من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم الحيوان البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فتعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار؛ لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء، فهذه من أعظم آيات الرب- تعالى- وأدلة قدرته وحكمته.

فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم. كما ذكرهم- سبحانه- بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا.

وخص الإغارة بالصبح؛ لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك، ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة جامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة، والعدو لم يأخذوا

=

=

أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنا أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار؛ تأولوا الآية على وجوه بعيدة.

فقال محمد بن كعب القرظي: "هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة".

وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات.

وهذا خلاف الظاهر؛ وإنما "الموريات" هي: العاديات، وهي: المغيرات.

روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم". كأنه أخذه من قوله تعالى: {أفرأيتم النار التي تورون (٧١)} [الواقعة: ٧١].

وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه = فصحيح. وإن أريد به اختصاص "الموريات" به فليس كذلك؛ لأن "الموريات" هي العاديات بعينها، ولهذا عطفها عليها بـ "الفاء" التي للتسبيب، فإنها عدت فأورت.

وقال قتادة: "الموريات" هي الخيل؛ توري نار العداوة بين المقتتلين".

وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: "هي الألسنة؛ توري نار العداوة بعظم ما تتكلم به".

وأضعف منه ما ذكر عن مجاهد: "هي أفكار الرجال؛ توري نار المكر والخديعة في الحرب".

وهذه الأقوال إن أريد بها أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد = فغلط، وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس؛ فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول:

١- تفسير على اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون.

=

=

٢- وتفسير على المعنى؛ وهو الذي يذكره السلف.

٣- وتفسير على الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

١- أن لا يناقض معنى الآية.

٢- وأن يكون معنى صحيحا في نفسه.

٣- وأن يكون في اللفظ إشعار به.

٤- وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: "{فالموريات قدحا (٢) } يعني: فالمنجحات أمرا، يريد البالغين نجحهم فيما طلبوه".

وعطف قوله: {فأثرن} و {فوسطن}- وهما فعلان - على: العاديات، والموريات؛ لما فيه من معنى الفعل، وكان ذكر الفعل في "أثرن" و"وسطن" أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه- سبحانه- قسم أفعالهن إلى قسمين: وسيلة، وغاية.

فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة.

والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع.

فهن عاديات، موريات، مغيرات، حتى يتوسطن الجمع، ويثرن النقع.

فالأول: شأنهن الذي أعددن له.

والثاني: فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

فصل

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودا -بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه -، وكونه بخيلا لحبه المال.

و"الكنود": الكفور للنعمة، وفعله: كند يكند كنودا، مثل: كفر يكفر كفورا.

=

=

والأرض الكنود: التي لا تنبت شيئا، وامرأة كند أي: كفور للمعاشرة.
وأصل اللفظة: منع الحق والخير، ورجل كنود: إذا كان مانعا لما عليه من الحق.
وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى.
قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأصحابه: "هو الكفور".
وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة.
وقال الحسن: "هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم".
قال محمود الوراق في ذلك:

يا أيها الظالم في فعله ... والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت، وحتى متى ... تشكو المصيبات، وتنسى النعم.

وأما قوله تعالى: {وإنه على ذلك لشهيد (٧)}؛ فقال ابن عباس: "يريد: وإن ربه على ذلك لشهيد".
وقيل: وإن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكره بلسانه شهد به عليه حاله.
ويؤيد هذا القول اتساق الضمائر، فإن قوله: {وإنه لحب الخير لشديد (٨)} للإنسان، فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودا، ثم ثناه بكونه شهيدا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلا بماله لحبه إياه.
ويؤيد قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه أتى بـ "على" فقال: {وإنه على ذلك لشهيد (٧)} أي: مطلع عالم به، كقوله تعالى: {ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦)} [يونس: ٤٦]، ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بـ "الباء"، فقيل: وإنه بذلك لشهيد؛ كما قال تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر} [التوبة: ١٧]، فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد، فإن كنوده هو المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.
ثم قال تعالى: {وإنه لحب الخير لشديد (٨)}، و"الخير" ها هنا: المال باتفاق

=

=

المفسرين.

و"الشديد": البخيل، والمعنى: وإنه لبخيل من أجل حب المال، فحب المال هو الذي حمله على البخل، هذا قول الأكثرين.

وقال ابن قتيبة: "بل المعنى: إنه شديد الحب للخير، فتكون "اللام " في قوله {لحب الخير} متعلقة بقوله: {لشديد (٨)} على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب".

ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد "اللام" فيما قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز، فإن قوله: {لربه} معمول {لكنود (٦) }، وقوله: {على ذلك} معمول {لشهيد (٧) }، ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور، فالحق جواز: إني لزيد لضارب.

فوصف- سبحانه- الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير، فلا هو شكور لنعم الله، ولا محسن إلى خلق الله، بل بخيل بشكر الله، بخيل بمال الله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله- سبحانه- هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: {فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون (٧) } [الماعون: ٤- ٧]، فلا إخلاص ولا إحسان.

وكذلك قوله تعالى: {والله لا يحب كل مختال فخور (٢٣) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل} الآية [الحديد: ٢٣، ٢٤]، فاختيال الإنسان وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله تعالى: {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) } [البقرة: ٣]، وقوله تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا} الآية [النساء: ٣٦].

=

=

وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله ﷻ: {والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} [النساء: ٣٨] إلى قوله : {وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله} [النساء: ٣٩].

ونظيره ما تقدم في سورة "الليل" من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى.

ونظيره ذم الهمزة اللمزة {الذي جمع مالا وعدده (٢) } [الهمزة: ٢]، فإن "الهمز" و"اللمز" من الفخر والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل، وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف- سبحانه- الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور؛ أي: يثار ويخرج، ويحصل ما في الصدور؛ أي: ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك.

وجمع- سبحانه- بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: "ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا"، فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره، وسره من صدره، فيصير جسمه بارزا على الأرض، وسره باديا على وجهه، كما قال تعالى: {يعرف المجرمون بسيماهم} [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: {سنسمه على الخرطوم (١٦)} [القلم: ١٦].

ومفعول العلم: "إن" وما عملت فيه، وكسرت لمكان "اللام".

وقيد- سبحانه- كونه خبيرا بهم ذلك اليوم- وهو خبير بهم في كل وقت- إيذانا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه، والله أعلم.

سورة القارعة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(٢)

الْقَارِعَةُ (١).

{الْقَارِعَة} الْقِيَامَة الَّتِي تَقْرَع الْقُلُوب بِأَهْوَالِهَا.

مَا الْقَارِعَةُ (٢).

---

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بلا خلاف".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

* آياتها إِحدى عشرة فى عدّ الكوفة، وعشرة فى الحجاز، وثمان فى البصرة، والشَّام. وكلماتها ستّ وثلاثون. وحروفها مائة وخمسون فواصل آياتها (شثه).

* تسمى «سورة القارعة» اتفقت المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة على تسمية هذه السورة: «سورة القارعة»، وذلك لمفتتحها بقوله تعالى: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ١ – ٣] ولا يعرف لهذه السورة اسم آخر غيره.

* معظم مقصود السّورة: بيان هيبة العَرَصات، وتأْثيرها فى الجمادات والحيوانات، وذكر وَزن الحسنات والسّيئات، وشرح عيش أَهل الدرجات وبيان حال أَصحاب الدّركات فى قوله: {نَارٌ حَامِيَةٌ}.

* المتشابهات:: قوله تعالى: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ}، ثمّ {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} جمع ميزان. وله كِفَّتان (و) عمود ولسان. وإِنَّما جمع لاختلاف الموزونات، وتجدّد الوزن، وكثرة الموزون، أَو جمع على أَنَّ كلّ جزءٍ منه بمنزلة ميزان والله أَعلم. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٣٩).

(٢) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{مَا الْقَارِعَة} تَهْوِيل لِشَأْنِهَا وَهُمَا مُبْتَدَأ وَخَبَر خَبَر القارعة.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا الْقَارِعَة} زِيَادَة تَهْوِيل لَهَا وَمَا الْأُولَى مُبْتَدَأ وَمَا بَعْدهَا خَبَره وَمَا الثَّانِيَة وَخَبَرهَا فِي مَحَلّ الْمَفْعُول الثَّانِي لأدرى.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤).

{يَوْم} نَاصِبه دَلَّ عَلَيْهِ الْقَارِعَة أَيْ تَقْرَع {يَكُون النَّاس كَالْفِرَاشِ الْمَبْثُوث} كَغَوْغَاء الْجَرَاد الْمُنْتَشِر يَمُوج بَعْضهمْ فِي بَعْض لِلْحِيرَةِ إِلَى أَنْ يدعوا للحساب.

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥).

{وَتَكُون الْجِبَال كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوش} كَالصُّوفِ الْمَنْدُوف فِي خِفَّة سَيْرهَا حَتَّى تَسْتَوِي مَعَ الْأَرْض.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦).

{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينه} بِأَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاته على سيئاته

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧).

{فَهُوَ فِي عِيشَة رَاضِيَة} فِي الْجَنَّة أَيْ ذَات رِضًى بِأَنْ يَرْضَاهَا أَيْ مَرْضِيَّة لَهُ.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨).

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينه} بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاته على حسناته.

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩).

{فأمه} فمسكنه {هاوية}.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠).

{وما أدراك ما هيه} أي ما هاوية.

نَارٌ حَامِيَةٌ .

هي {نار حامية} شَدِيدَة الْحَرَارَة وَهَاء هِيَهْ لِلسَّكْتِ تُثْبَت وَصْلًا ووقفا وفي قراءة تحذف وصلا (١).

---

(١) قوله تعالى: {الْقَارِعَةُ} [القارعة: ١]

أي: الساعة التي تقرع قلوب الناس بأهوالها.

والقارعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها.

قال ابن عاشور: الافتتاح بلفظ [القارعة] افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به.

وقال القرطبي: قوله (القارعة. ما القارعة) أي القيامة والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين.

وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قَرَعَتْهُمُ القارعة، وَفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع.

كما قال تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) ولهذا عظم أمرها وفخمه فقال:

(مَا الْقَارِعَةُ) (ما) للاستفهام، ومعناه التعظيم والتفخيم لأمرها.

قال الطبري:"الساعة التي يقرع قلوب الناس هولُها، وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، وذلك صبيحة لا ليل بعدها".

عن ابن عباس:"{الْقَارِعَةُ}، من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله وحذّره عباده".

قال ابن عباس:"هي الساعة".

قال ابن عباس:"القارعة: يوم القيامة".

قال ابن كثير:"{الْقَارِعَةُ} من أسماء يوم القيامة، كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية، وغير ذلك".

=

=

قال وكيع:"سمعت أن «القارعة»، و «الواقعة»، و «الحاقة»: القيامة".

قال مقاتل:"وإنما سميت «القارعة»، لأن الله ﷻ يقرع أعداءه بالعذاب".

قال المبرد: "سميت القيامة «قارعة»؛ لأنها تقرع القلوب، وتهجم عليها بالشدة والكرب".

قال ابن فورك:"القارعة: البلية التي تقرع القلوب بشدة المخافة يقال: قرع يقرع قرعا. وهو الضرب بشدة اعتماد، ومنه انشقت القرعة".

قوله تعالى: {مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ٢].

أي: أيُّ شيء هذه القارعة؟

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره معظما شأن القيامة والساعة التي يقرع العباد هولها: أيّ شيء القارعة، يعني بذلك: أيّ شيء الساعة التي يقرع الخلق هولها، أي: ما أعظمها وأفظعها وأهولها".

عن قتادة:"{القارِعَةُ ما القارِعَةُ}، قال: هي الساعة".

عن قتادة، قوله: "{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}، أي: بالساعة".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ٣].

أي: وأيُّ شيء أعلمك بها؟

تعظيم لأمرها بعد تعظيم، أي: وما أعلمك ما القارعة، أمرها عظيم وهولها جسيم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أشعرك يا محمد أيّ شيء القارعة".

قال الواحدي:"ثم عجب نبيه ﷺ، فقال: {وما أدراك ما القارعة} [القارعة: ٣] تعظيما لشأنها".

=

=

قال مقاتل:"تعظيما لها لشدتها، وكل شيء في القرآن «وما أدراك» فقد أخبر به النبي - ﷺ -، وكل شيء فى القرآن، «وما يدريك» فما لم يخبر به".

قال الكرماني:"أي: لا تعرفها؛ لأنك لم تعهد مثلها".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [القارعة: ٤].

أي: في ذلك اليوم يكون الناس في كثرتهم وتفرقهم وحركتهم كالفراش المنتشر، وهو الذي يتساقط في النار.

وفي «الفراش»، قولان:

أحدهما: أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره، ومنه الجراد، قاله الفراء.

قال الفراء:"يريد: كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا، كذلك الناس يومئذ يجول بعضهم في بعض".

الثاني: أنه طير يتساقط في النار ليس ببعوض ولا ذباب، قاله قتادة، وأبو عبيدة.

قال الزجاج:"والفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار، وشبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، والفراش المبثوث لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد الذي يموج بعضه في بعض".

قال أبو عبيدة:"طير لا بعوض ولا ذباب هو الفراش، والمبثوث: المتفرق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: القارعة يوم يكون الناس كالفراش، وهو الذي يتساقط في النار والسراج، ليس ببعوض ولا ذباب، ويعني بالمبثوث: المفرّق".

عن قتادة: "{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}، هذا الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار".

قال ابن زيد:"هذا شَبَه شبهه الله".

قال الماوردي:"وإنما شبه الناس الكفار يوم القيامة بالفراش المبثوث، لأنهم يتهافتون في النار كتهافت الفراش".

=

=

قال مقاتل:"إذا خرجوا من قبورهم تجول بعضهم في بعض، فشبههم بالفراش المبثوث، وشبههم في الكثرة بالجراد المنتشر، فقال: {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر: ٧]".

قال ابن كثير:"أي: في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث كما قال في الآية الأخرى: {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ}".

قال ابن فورك:"المبثوث: المتفرق في الجهات كأنه محمول على الذهاب فيها".

قال الحسن، في قوله: "{كالفَراشِ المَبْثُوثِ}: المبسوط".

قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره.

* ما الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى: (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)؟

الجمع: أن يكون أول حال الناس أنهم يكونون كالفراش يتحيرون ذهابًا وإيابًا وفي كل اتجاه لا وجهة لهم، ثم يكونون كالجراد، لأن للجراد وجهة تقصدها.

قال القرطبي: والمبثوث المتفرق، وقال في موضع آخر (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) فأوّل حالهم كالفراش لا وجه له، يتحيّر في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجهًا تقصده.

قوله تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: ٥]

أي: وتكون الجبال كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هباء ويزول.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش؛ والعِهْن: هو الألوان من الصوف".

=

=

قال ابن كثير:"يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شَرَع في الذهاب والتمزق".

قال مقاتل:"تكون الجبال يومئذ بعد القوة والشدة كالصوف المندوف عرقها في الأرض السفلى، ورأسها في السماء، يقول هو جبل فإذا مسسته فهو لا شيء من شدة الهول: فما حالك يومئذ يا بن آدم، قال: كالصوف المنفوش في الوهن، أوهن ما يكون الصوف إذا نفش".

عن قتادة: "{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}، قال: الصوف المنفوش".

قال قتادة:"هو الصوف. وذُكر أن الجبال تسير على الأرض وهي في صورة الجبال كالهباء".

عن مجاهد وقتادة: "{كَالْعِهْنِ}، قال: كالصوف".

قال الزجاج:"العِهْن: الصوف".

قال أبو عبيدة:"{العهن}: الصوف الألوان".

قال الفراء:"لأن ألوانها مختلفة، كألوان العهن".

قال السعدي:"وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟ أليس حقيقا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟".

وفي قراءة عبد الله: «كالصوف المنفوش».

قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} [القارعة: ٦ – ٧]

أي: فأما من رجحت موازين حسناته، فهو في حياة مرضية في الجنة.

قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [القارعة: ٦]، أي:"فأما من رجحت موازين حسناته".

=

=

قال الزجاج:"معناه من ثقلت موازينه بالحسنات، كما تقول: لفلان عندي وزن ثقيل، تأويله له وزن في الخير ثقيل".

قال الطبري:"فأما من ثقُلَت موازين حسناته".

قال ابن كثير:"أي: رجحت حسناته على سيئاته".

قال مقاتل:"ولا يثقل الميزان إلا قول: لا إله إلا الله بقلوب المخلصين في الأعمال وهم الموحدون".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ} [القارعة:٦]، وجهان:

أحدهما: معناه: فمن كثرت حسناته. قاله مجاهد.

عن مجاهد: "{فمن ثقلت موازينه}، قال: حسناته".

عن مجاهد:"{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ}، يقول: ليس ميزان، إنما هو مَثَلٌ ضُرِب".

الثاني: معناه: فمن ثقلت موازينه التي توزن بها حسناته وسيئاته. وهذا قول عمرو بن دينار.

والصواب هو القول الثاني: من أن ذلك هو «الميزان» المعروف الذي يوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال جل ثناؤه: {فمن ثقلت موازينه}، موازين عمله الصالح {فأولئك هم المفلحون}، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله: «ما وُضِع في الميزان شيء أثقل من حسن الخُلق»، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزانٌ يوزن به الأعمال، على ما وصفت.

فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه، وِجْهَته، وقال: أوَ بالله حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده، وفي كل حال؟ أو قال: وكيف توزن الأعمال، والأعمال ليست

=

=

بأجسام توصف بالثقل والخفة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة، والكثرة والقلة؟

قيل له في قوله: وما وجه وزن الله الأعمالَ، وهو العالم بمقاديرها قبل كونها: وزن ذلك، نظيرُ إثباته إياه في أمِّ الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكل ذلك في كل حال ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه، كما قال جل ثناؤه في تنزيله: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ} [سورة الجاثية: ٢٨- ٢٩] الآية. فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان، حجة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميم".

قوله تعالى: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} [القارعة: ٧]، أي:"فهو في حياة مرضية في الجنة".

قال الطبري:"يقول: في عيشة قد رضيها في الجنة".

قال البغوي: أي:"مرضية في الجنة".

قال الزجاج:"أي: ذات رضى يرضاها من يعيش فيها".

قال قتادة:"يعني: في الجنة".

قال مجاهد: "يرضى بها".

قال مقاتل: يعني:"لا يسخط بعد دخولها أبدا".

قال الراغب:"العَيْشُ: الحياة المختصّة بالحيوان، وهو أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي الملك، ويشتقّ منه المَعِيشَةُ لما يُتَعَيَّشُ منه".

=

=

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة: ٨- ٩]

أي: وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته، فمأواه جهنم.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} [القارعة: ٨]، أي:"وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته".

قال الطبري:"يقول: وأما من خفّ وزن حسناته".

قال ابن كثير:"أي: رجحت سيئاته على حسناته".

قال مقاتل:"بسيئاته، وهو الشرك، لأنه لا يرى شيئا مما كسب إلا صار كالرماد".

عن عبيد بن عمير، في قوله تعالى: {وأما من خفت موازينه} [القارعة: ٨] قال: «يؤتى بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب يوم القيامة، فيوضع الميزان فما يزن عند الله جناح بعوضة».

عن عبيد الله بن العيزار قال: "إن الأقدام يوم القيامة مثل النبل في القرن، والسعيد الذي يجد لقدميه موضعا يضعهما عليه، وإن الشمس تدنى من رءوسهم حتى لا يكون بينها وبين رءوسهم، إما قال: ميل، أو ميلين، ثم يزاد في حرها بضعة وستون ضعفا، وعند الميزان ملك إذا وزن العبد نادى: ألا إن فلان ابن فلان قد ثقلت موازينه، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، إلا فلان ابن فلان خفت موازينه، وشقي شقاء لا يسعد بعده أبدا".

عن عبد الله بن مسعود قال: «يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار»، ثم قرأ {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم} [الأعراف: ٩]، ثم قال: "إن الميزان يخف بمثقال حبة، أو يرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة، وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة

=

=

نادوا سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا إلى أصحاب النار، قالوا: {ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين} [الأعراف: ٤٧] فتعوذوا بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورا، وكل أمة نورا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ماذا لقي المنافقون قالوا: {أتمم لنا نورنا} [التحريم: ٨] وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا بها، فبقي في قلوبهم الطمع، إذ لم ينزع النور من أيديهم، فبذلك يقول الله تبارك وتعالى: {لم يدخلوها وهم يطمعون} [الأعراف: ٤٦] فكان الطمع النور في أيديهم، ثم أدخلوا بعد ذلك الجنة، وكانوا آخر أهل الجنة دخولا "، قال: وقال ابن مسعود وهو على المنبر: "إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرا، وإذا عمل سيئة لم يكتب عليه إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت وحداته أعشاره".

عن زبيد أن أبا بكر قال لعمر بن الخطاب: "إني موصيك بوصية إن حفظتها: إن لله تعالى حقا بالنهار لا يقبله بالليل، ولله في الليل حقا لا يقبله في النهار، وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق، وثقله عليهم، وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الباطل، وخفته عليهم، وحق لميزان ألا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وإن الله ذكر أهل الجنة بصالح ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول قائل: أنا أفضل من هؤلاء، وذكر آية الرحمة، وآية العذاب، فيكون المؤمن راغبا راهبا، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة، فإن حفظت قولي فلا يكونن غائب

=

=

أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولن تعجزه".

عن عبد الله بن سابط، قال: "لما بلغ الناس، أن أبا بكر يريد أن يستخلف عمر، قالوا: ماذا يقول لربه إذا لقيه؟ استخلف علينا فظا غليظا وهو لا يقدر على شيء، فكيف لو قدر؟ فبلغ ذلك أبا بكر فقال: أبربي تخوفوني؟ أقول: استخلفت خير أهلك، ثم أرسل إلى عمر فقال: إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار، لا يقبله بالليل، واعلم أنه لن تقبل نافلة حتى تؤدوا الفريضة، ألم تر أن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وذلك أنه تجاوز عن سيئة حتى يقول القائل: أنى يبلغ عملي هذا؟ ألم تر أن الله حين ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وذلك أنه رد عليهم حسنة فلم تقبل منهم حتى يقول القائل: عملي خير من هذا؟ ألم تر أن الله أنزل الرغبة والرهبة لكي يرهب المؤمن فيعمل، وكي يرغب فلا يلقي بيديه إلى التهلكة؟ ألم تر أن من ثقلت موازينه يوم القيامة ثقلت موازينهم باتباعهم الحق وتركهم الباطل، فثقل ذلك عليهم، وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل؟ ألم تر أن ما خفت موازين من خفت موازينه إلا باتباعهم الباطل وتركهم الحق، وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف؟ ثم قال: أما إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وأنت لا بد لاقيه، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولا تعجزه".

(فائدة): في الآية إثبات الميزان يوم القيامة.

أولاً: وأدلة ثبوته في الكتاب والسنة:

قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا).

=

=

وقال تعالى: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ).

وقال تعالى: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ).

ومن السنة:

حديث أبي هريرة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). متفق عليه.

وحديث أبي مالك قال: قال ﷺ (... والحمد لله تملأ الميزان) رواه مسلم.

ثانيًا: الدليل على أنه ميزان حسي له كفتان حسيتان مشاهدتان (حديث صاحب البطاقة). لما رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله سيُخَلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعًا وتسعين سجلاً، كل سجل مدُّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل ن فيقول: لا يا رب، فيقول: بلا؛ إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب؛ وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء).

ثالثًا: اختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن الأعمال نفسها.

وإلى هذا ذهب ابن حزم، والطيبي، وابن حجر.

=

=

قال ابن حجر: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن.

أ- للحديث السابق (والحمد لله تملأ الميزان).

ب- ولحديث أبي هريرة السابق (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان...).

قالوا: هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها.

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

القول الثاني: أن الذي يوزن العامل (أي: صاحب العمل).

أ- لحديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة). متفق عليه

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد.

القول الثالث: أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر، والقرطبي. لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي

القول الرابع: أن الجميع يوزن.

وإلى هذا ذهب ابن كثير، وابن أبي العز، وحافظ حكمي، وابن باز وغيرهم.

قال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك: فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال.

=

=

وقال حافظ حكمي: الذي استظهر من النصوص- والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها.

وقال الشيخ ابن باز: الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة.

وهذا القول هو الراجح.

رابعـًا: كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض، لأن الوزن يكون للأجسام؟

أجاب بعضهم: بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجسامـًا ثم توزن.

قال ابن كثير: قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضـًا قد قام بالفاعل، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتـًا يوضع في الميزان.

وقال ابن أبي العز: فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجسامـًا.

خامسـًا: هل هو ميزان واحد أم متعدد؟

وردت نصوص تدل على أنه متعدد، كقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وقوله تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ...).

ووردت نصوص بالإفراد، كقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان).

والراجح أنه ميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون.

سادسـًا: قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديره ليكون الجزاء بحسبها.

سابعـًا: أعمال تثقل في الميزان:

أولاً: حسن الخلق.

=

=

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق) رواه أبو داود.

ثانيًا: قول: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده.

لحديث أبي هريرة السابق: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

ثالثًا: قول: الحمد لله.

لحديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : (الحمد لله تملأ الميزان). رواه مسلم.

قوله تعالى: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة: ٩]، أي:"فمأواه جهنم".

قال الطبري:"فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في جهنم".

قال قتادة:"وهي النار هي مأواهم".

قال مقاتل: "يقول: لا تحمله الأرض، ولا تظله السماء، ولا شيء إلا النار".

قال الماتريدي:"{هَاوِيَةٌ}، أي: تهوي به؛ حيث لا يكون له ثبات ولا قرار".

وروى المبرد أن النبي ﷺ قال لرجل: "لا أم لك، فقال: يا رسول الله، أتدعوني إلى الهدى وتقول: لا أم لك، فقال رسول الله ﷺ: إنما أردت لا نار لك، قال الله تعالى: {فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ}".

وفي قوله تعالى: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة: ٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعَبَّر عنه بـ «أمه»، يعني: دماغه. روي نحو هذا المعنى عن قتادة، وعكرمة، وأبي صالح، وابن خالد الوالبي.

قال عكرمة:"أم رأسه هاوية في جهنم".

عن أبي صالح: "{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}، قال: يهوون في النار على رءوسهم".

=

=

قال قتادة:"يهوي في النار على رأسه".

قال الزمخشري:"فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوسا".

قال يحيى بن سلام:"النار كلها هاوية، يهوون فيها".

الثاني: أنها كلمة عربية، كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قالوا: هَوَتْ أُمُّه، قاله قتادة-أيضا-.

قال قتادة:"مصيره إلى النار، هي «الهاوية»: هي كلمة عربية، كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قال: هوت أمه".

الثالث: أن المعنى: فمسكنُه النار. وإنما قيل لمسكنه: أمّه، لأنّ الأصل السّكون إلى الأمّهات. فالنّار لهذا كالأُمِّ، إذ لا مأوى له غيرها، وهذا قول ابن عباس، وابن زيد، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج، والأخفش، وأنشد الأخير قول الشاعر :

هوت أمّه ما يبعث الصّبح غاديا... وماذا يؤدّي اللّيل حين يؤوب

قال الزمخشري:"قيل للمأوى: أمّ، على التشبيه، لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه".

قال ابن قتيبة:"أي: النارُ له كالأم يأْوِي إليها".

قال الفراء:"صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لا مأوى له غيرها أما له".

قال الزجاج:"قيل {أمه} لمسكنه، لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، فأبدل فيما يسكن إليه {نار حامية}.

قال ابن زيد:"الهاوية: النار، هي أمُّه ومأواه التي يرجع إليها، ويأوي إليها، وقرأ: (وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ}".

عن ابن عباس:"{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}، وهو مثلها، وإنما جعل النار أمَّه، لأنها صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوى غيرها، بمنزلة أمّ له".

=

=

ويدل على صحة القول الأخير، ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: إذا مات العبد تلقى رُوحُه أرواحَ المؤمنين، فتقول له: ما فعل فلان؟ فإذا قال: مات، قالوا: ذُهِبَ به إلى أُمِّه الهاوية، فَبَئِسَتِ الأُمُّ، وبِئستِ المربِّيَة.

الرابع: أي: أصله هاو، أي: هالك، لأن أمّ الشيء أصله ومعظمه، ومنه قيل للحمد: «أمّ القرآن»، قاله مقاتل، وحكاه النحاس، وأنشد قول الشاعر : لأمّ

الأرض ويل ما أجنّت... غداة أضرّ بالحسن السّبيل

قرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرّف، والجحدري «فإمه»، بكسر الهمزة.

عن الأشعث بن عبد الله الأعمى -من طريق معمر- قال: "إذا مات المؤمنُ ذُهِب بروحه إلى روح المؤمنين، فتقول: روِّحوا أخاكم؛ فإنه كان في غَمٍّ الدنيا. ويسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلتْ فلانة؟ فيخبرهم، فيقول: صالح. حتى يسألونه: ما فعل فلان؟ فيقول: مات، أما جاءكم؟ فيقولون: لا، ذُهب به إلى أُمّه الهاوية".

عن وهْب بن مُنَبِّه -من طريق مهاجر- قال: "مَرَّ عيسى عليه السلام بقريةٍ قد مات أهلها؛ إنسُها وجِنّها وهوامها وأنعامها وطيورها، فقام ينظر إليها ساعة، ثم أقبل على أصحابه، فقال: مات هؤلاء بعذاب الله، ولو ماتوا بغير ذلك ماتوا مُتفرِّقين. ثم ناداهم: يا أهل القرية، فأجابه مجيب: لبَّيك، يا روح الله. قال: ما كان جنايتكم؟ قالوا: عبادة الطاغوت، وحُبّ الدنيا. قال: وما كانت عبادتكم الطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل معاصي الله. قال: فما كان حُبّكم الدنيا؟ قال: كحُبّ الصبي لأُمّه، كُنّا إذا أقبلتْ فَرِحنا، وإذا أدبرتْ حزِنّا، مع أمل بعيد، وإدبار عن طاعة الله، وإقبال في سخط الله. قال: وكيف كان شأنكم؟ قال: بِتْنا ليلة في عافية، وأصبحنا في الهاوية. فقال عيسى: وما الهاوية؟ قال: سِجِّين. قال: وما سِجِّين؟ قال: جمرة مِن نار، مثل أطباق الدنيا كلّها، دُفنتْ أرواحنا فيها. قال: فما بال أصحابك لا يتكلّمون؟ قال: لا يستطيعون أن يتكلّموا؛ مُلجمون بلجام من نار. قال: فكيف كلّمتني أنتَ من

=

=

بينهم؟ قال: إني كنتُ فيهم، ولم أكن على حالهم، فلما جاء البلاء عمّني معهم، فأنا مُعلّق بشعرة في الهاوية، لا أدري أُكردس في النار أم أنجو! فقال عيسى: بحقّ أقول لكم: لأكل خُبز الشعير، وشُرْب ماء القَراح، والنوم على المزابل مع الكلاب، كثير مع عافية الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} [القارعة: ١٠].

أي: وما أدراك -أيها الرسول- ما هذه الهاوية؟

قال القشيري:"سؤال على جهة التهويل".

قال السمرقندي:"تعظيما لشدتها".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: وما أشعرك يا محمد ما الهاوية، ثم بَيَّن ما هي".

قال البغوي:"يعني: الهاوية، وأصلها: «ما ه»، أدخل الهاء فيها للوقف والاستراحة".

قال ابن قتيبة:"إنما يجوز في رءوس الآي: أن يزيد هاءً للسكت".

تفسير الحسن: أي: "أنك لم تكن تدري حتى أعلمتك ما الهاوية".

قال سفيان بن عيينة: كل شيء، قال: {وما أدراك}، فإنَّه أخبره به، وما قال: وما يدريك فإنَّه لم يخبره به".

قوله تعالى: {نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة: ١١].

أي: إنها نار قد حَمِيت من الوقود عليها.

قال الطبري:"يعني بالحامية: التي قد حميت من الوقود عليها".

قال ابن كثير:"أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهيب والسعير".

قال الماتريدي:"أي: تحميه، وتنضجه".

قال السمعاني:"أي: حامية على الكفار محرقة لهم".

=

سورة التكاثر(١)

=

قال الواحدي:"حارة، قد انتهى حرها".

قال مقاتل:"تحمي ستة أبواب من جهنم".

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال: "ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»، قيل يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها".

عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: "نار بني آدم التي تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم". قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: "إنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جُزءًا".

عن أبي هريرة، قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: "نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءا من نار جهنم". فقال رجل: إن كانت لكافية. فقال: "لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا حَرًّا فحرا".

(١) اختلف في موقت نزول السورة.

قال ابن عطية:"هي مكية لا أعلم فيها خلافا".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

قال أبو حيان:"هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين. وقال البخاري: مدنية".

قال السيوطي:"الأشهر أنها مكية، ويدل لكونها مدنية- وهو المختار -: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن بريدة: «أنها نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا»... الحديث.

=

=

وأخرج البخاري عن أبي بن كعب قال: «كنا نرى هذا من القرآن- يعني «لو كان لابن آدم واد من ذهب»،- حتى نزلت: {ألهاكم التكاثر} » .

وأخرج الترمذي عن علي قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت».

قال السيوطي:"وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية".

قال ابن عاشور:"والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنها مكية، وأن المخاطب بها فريق من المشركين، لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين".

* وآياتها ثمان. وكلماتها ثمانية وعشرون. وحروفها مائة وعشرون. فواصل آياتها (نمر).

* تسمى «سورة التكاثر» سميت في المصاحف وأكثر كتب التفسير، وبعض كتب السنة : «سورة التكاثر»، وذلك لمفتتحها بقوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١].

وتسمى سورة «ألهاكم التكاثر» اشتهرت تسميتها بسورة: «ألهاكم التكاثر»، في بعض كتب التفسير، وكذلك ترجم لها الترمذي، في «سننه»، والحاكم في «المستدرك».

في حين ترجم لها البخاري في «صحيحه»، والطبري في «التفسير» باسم سورة: «ألهاكم». دون تتمة الآية.

وهي تسمية بأول آية افتتحت بها السورة، قال تعالى:: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١].

وتسمى سورة «المقبرة» وردت هذه التسمية عند الألوسي، مستندا بما رواه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون {ألهاكم التكاثر} : [المقبرة] ".

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١).

{أَلْهَاكُمْ} شَغَلَكُمْ عَنْ طَاعَة الله {التَّكَاثُرُ} التَّفَاخُر بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَاد وَالرِّجَال

=

ووجه تسميتها بسورة «المقبرة»، لورود لفظ: «المقابر»، في السورة، وهو جمع: «المقبرة»، قال تعالى: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [التكاثر: ٢].

* معظم مقصود السّورة: ذمّ المُقْبِلين على الدّنيا، والمفتخرين بالمال، وبيان أَنَّ عاقبة الكلّ الموت والزَّوال، (وأن) نصيب الغافلين العقوبة والنكال، وأَعدّ للمتمولين المذلَّة والسّؤال، والحساب والوبال، فى قوله: {لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم}.

* المتشابهات: قوله: {كَلاَّ} فى المواضع الثلاثة فيه قولان. أَحدهما أَنَّ معناه: الرّدع والزجر عن التكاثر. فيحسن الوقف عليه والابتداءِ بما بعده، والثانى أَنه يجرى مجرى القَسَم. ومعناه: حقًّا.

قوله: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} وبعده: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} تكرار للتأْكيد عند بعضهم. وعند بعضهم: هما فى وقتين: فى القبر والقيامة. فلا يكون تكراراً. وكذلك قول من قال: الأَول للكفَّار، والثانى للمؤمنين.

قوله: {لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا} تأْكيد أَيضاً. وقيل: الأَوّل قبل الدّخول، والثانى بعد الدّخول. ولهذا قال بعده: {عَيْنَ اليقين} أَى عِيانًا، لستم عنها بغائبين. وقيل: الأَوّل من رؤية العَيْن، والثانى من رؤية القلب. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢).

{حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِر} بِأَنْ مُتُّم فَدُفِنْتُمْ فِيهَا أَوْ عَدَدْتُم الْمَوْتَى تَكَاثُرًا.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣).

{كَلَّا} رَدْع {سَوْفَ تَعْلَمُونَ}.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤).

{ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} سُوء عَاقِبَة تَفَاخُركُمْ عِنْد النَّزْع ثُمَّ فِي الْقَبْر.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥).

{كَلَّا} حَقًّا {لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْم الْيَقِين} عِلْمًا يَقِينًا عَاقِبَة التَّفَاخُر مَا اِشْتَغَلْتُمْ بِهِ.

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦).

{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيم} النَّار جَوَاب قَسَم مَحْذُوف وَحُذِفَ مِنْهُ لَام الْفِعْل وَعَيْنه وَأُلْقِيَتْ حَرَكَتهَا عَلَى الراء.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧).

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا} تَأْكِيد {عَيْن الْيَقِين} مَصْدَر لِأَنَّ رَأَى وَعَايَنَ بِمَعْنًى وَاحِد.

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨).

{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ} حُذِفَ مِنْهُ نُون الرَّفْع لِتَوَالِي النُّونَات وَوَاو ضَمِير الْجَمْع لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ {يَوْمئِذٍ} يَوْم رُؤْيَتهَا {عَنْ النَّعِيم} مَا يُلْتَذّ بِهِ فِي الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر؛ حتى نزلت: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)}.

=

=

أخرجه الترمذي (٥/ ٤٤٧ رقم ٣٣٥٥)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٣/ ١٧٦ رقم ٥١٧٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٨٢، ٥٨٣)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٨٣، ١٨٤) من طريق الحجاج بن أرطأة عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبيش عن علي. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه الحجاج بن أرطأة صدوق كثير الخطأ والتدليس. قال الترمذي: "هذا حديث غريب".

وأخرجه الطبري (٣٠/ ١٨٣، ١٨٤): ثنا ابن حميد ثنا حكام بن سلم عن عنبسة عن ابن أبي ليلى عن المنهال عن زر عن علي؛ قال: نزلت {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)} في عذاب القبر.

وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: ابن حميد هذا متهم بالكذب.

الثانية: ابن أبي ليلى؛ صدوق سيئ الحفظ جداً.

وعن ابن بريدة في قوله: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)}؛ قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار: في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبر، ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك؛ فأنزل الله: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)} لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٨٢): ثنا أبو سعيد الأشج ثنا أبو أسامة قال: صالح بن حيان ثني ابن بريدة به. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة؛ قال: في قوله: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)}: نزلت في اليهود.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦١٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١]

أي: شغلكم عن طاعة الله التفاخر بكثرة الأموال والأولاد.

وفي قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ} [التكاثر: ١]، قولان:

أحدهما: شغلكم التكاثر عن ذكر الآخرة. قاله مقاتل.

الثاني: أنساكم، ومعناه: ألهاكم عن طاعة ربكم وشغلكم عن عبادة خالقكم. وهو معنى قول الزجاج، والطبري.

قال الزجاج:"أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد عن طاعة الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم، وعما ينجيكم من سخطه عليكم".

قال السمعاني:"أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد عما أمرتم به".

قال النحاس:"أصوب ما قيل في معناه أنّ المعنى: ألهاكم التكاثر عن طاعة الله جلّ وعزّ إلى أن صرتم إلى المقابر فدفنتم، ودلّت هذه الآية على عذاب القبر".

عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} عن الطاعة، {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} حتى يأتيكم الموت".

وفي تفسير {التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: التكاثر بالمال والأولاد، قاله الحسن، وعطاء الخراساني.

ويدل عليه ما رواه مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه:"أنه انتهى إلى النبيّ ﷺ، وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}، قال: «ابن آدم، ليس لك من مال إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبِست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت»".

=

=

عن أُبيّ بن كعب، قال: "كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن: «لو أن لابن آدم واديين من مال، لتمنى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب»، حتى نزلت هذه السورة: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} إلى آخرها".

وروي عن يعقوب بن مجاهد في قول رسول الله: لو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثاني، فقال: نسخت بـ {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } [التكاثر: ١ – ٢]".

الثاني: التفاخر بالعشائر والقبائل، قاله قتادة.

قال ابن قتيبة:"بالعَددِ والقَراباتِ".

عن قتادة: "{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا".

قال قتادة:"كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان، وهم كلّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم".

الثالث: التشاغل بالمعاش والتجارة، قاله الضحاك.

قوله تعالى: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } [التكاثر: ٢]

أي: واستمر اشتغالكم بذلك إلى أن صرتم إلى المقابر، ودُفنتم فيها.

وفي تفسير الآية الكريمة، وجهان:

أحدهما: حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زوّاراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. وهو معنى قول عمر بن عبدالعزيز، والزجاج، والطبري.

عن ميمون بن مهران قال: "كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } [التكاثر: ١ – ٢]، فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله".

=

=

قال القشيري:"أي: شغلكم تفاخركم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أن متّم".

قال الزجاج:"أي: حتى أدرككم الموت على تلك الحال".

قال الطبري:"يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر، لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدا منه لهم وتهدّدا".

عن عليّ، قال: نزلت: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}، في عذاب القبر".

الثاني: حتى عدَدتُم مَن في المقابر: من مَوتاكم. قاله ابن بريدة، وقتادة، والكلبي، وابن قتيبة.

قال السمعاني: قيل: "أنه تفاخر حيان من قريش، وهما بنو عبد مناف، وبنو الزهرة، وقيل: بنو زهرة وبنو جمح- وهو الأصح- فعدوا الأحياء فكثرتهم بنو زهرة فعدوا الأموات فكثرتهم بنو جمح، فهو معنى قوله تعالى: {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}، أي: عددتم من في القبور".

حكي الماوردي عن قتادة: "أن حيّين من قريش، بني عبد مناف وبني سهم، كان بينهما ملاحاة فتعادّوا بالسادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيّداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعُدّوا الأحياء والأموات، فعدّوهم فكثرتهم بنو سهم، فأنزل الله تعالى {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} -يعني بالعدد- {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِر} - أي: حتى ذكرتم الأموات في المقابر-".

قال ابن كثير: يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، أي صرتم من أهلها.

وقال القرطبي: أي شغلكم المباهات بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى متم ودفنتم في المقابر.

=

=

وقال ابن عاشور: أي شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به لأن اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمرٍ مهم.

- فقد شغل التكاثر كثير من الناس وغفلوا عن الحكمة التي خلقوا لها (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

قال ابن القيم: كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في التكاثر المذموم.

قوله تعالى: (أَلْهَاكُمُ) أبلغ في الذم مما لو قال: شغلكم، لعدم التلازم بين اللهو والاشتغال؛ ذلك أن الإنسان قد يشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاه به، بينما اللهو ذهول وإعراض.

- وحذف متعلق التكاثر ليشمل كل ما يتكاثر به سوى طاعة الله من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والعدد والعدة والعتاد، وغير ذلك.

كما قال تعالى عن صاحب الجنة أنه قال لصاحبه: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً).

قال ابن القيم: قوله تعالى: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) كل ما يكاثر به العبد غيره، سوى طاعة الله ورسوله، وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر، فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

والتكاثر حينما يكون بالعلم والجهاد مما يتقرب به إلى الله لأجل المكاثرة والسمعة والرياء؛ فهو أشد خطراً وأعظم ضرراً.

وقد جاءت النصوص في ذم التكاثر في الدنيا في غير طاعة الله.

=

=

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمـًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ). وقال تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَامـًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

وقال تعالى: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ). عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: (يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: (يقول العبد مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك، فهو ذاهب وتاركه للناس) رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (لو كان لابن آدم واديـًا من ذهب، أحب أن له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب) متفق عليه.

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ : (يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر) متفق عليه.

وقال الحسن: لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك.

=

=

كما قال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ المرء) و (يَأْتِينَا فَرْداً) و (لَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى) إلى أن قال (وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم) وهذا يمنعك عن التكاثر

قال الخازن: فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان، والأقرباء تفاخر بأخس المراتب، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السّعادة الأخروية التي هي سعادة الأبد، ويدل على أن المكاثرة، والمفاخرة بالمال مذمومة.

ما روي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية {ألهاكم التكاثر} " فقال " يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه ماله وأهله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله).

ومما يدخل في هذا اللون من التكاثر المذموم: التكاثر بالجاه والشهرة والرئاسات وثناء الخلق!!

قال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال؛ فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى.

فكما أن المال ملك الأعيان المنتفع بها؛ فإن الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، والتصرف فيها من تحصيل المنزلة في قلوب الخلق، وهو اعتقاد القلوب نعتًا من نعوت الكمال في هذا الشخص، إما من علم أو عبادة أو نسب أو قوة أو إعانة أو حسن صورة أو غير ذلك مما يعتقده الناس كاملاً، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته ومدحه وخدمته وتوقيره.

والحقيقة أن هذا اللون من المكاثرة أشد فتكًا وأعظم خطراً من المكاثرة بالأموال والأولاد ممن يدخل تحت النوع الأول؛ ذلك أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف

=

=

مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوفاً من الذم؛ وذلك من المهلكات.

- علق الله تعالى الذم في الآية على التكاثر الملهي عن التزود للآخرة؛ لكن لو حصلت الكثرة من غير تكاثر لم يضر، وقد كان بعض الصحابة أهل كثرة في المال أو الولد ولم تضرهم؛ لكونها حاصلة من غير تكاثر كما لا يخفى.

- في موضعين يتمنى الإنسان العمل الصالح:

الأول: عند الاحتضار.

كما قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ). والثاني: عند ما يكون في النار.

كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ..).

- قرن الله تعالى بين اللهو واللعب في آيات كثيرة.

قال تعالى (ومَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ).

وقال تعالى (إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ).

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ).

والفرق بين اللهو واللعب: أن اللهو بالقلب واللعب بالجوارح.

قوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: ٣]

أي: ما هكذا ينبغي أن يُلْهيكم التكاثر بالأموال، سوف تتبيَّنون أن الدار الآخرة خير لكم.

=

=

قولـه تعـالى: {كَـلَّا} [التكـاثر: ٣]، أي:"مـا هكـذا ينبغـي أن يُلْهـيكم التكـاثر بالأموال".

قال الفراء:"«كلا»، ليس الأمر على ما أنتم عليه".

قال الطبري:"«كلا»، ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيَكُم التكاثر".

قال الزجاج:"«كلا»: ردع وتنبيه، المعنى: ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه التكاثر، والذي ينبغي أن يكونوا عليه طاعة الله والإيمان بنبيه ﷺ ".

قوله تعالى: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: ٣]، أي:"سوف تتبيَّنون أن الدار الآخرة خير لكم".

قال الطبري:"سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غبّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم".

قال مقاتل:"هذا وعيد: ما نحن فاعلون بذلك إذا نزل بكم الموت".

قوله تعالى: {ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } [التكاثر: ٤]

ثم احذروا سوف تعلمون سوء عاقبة انشغالكم عنها.

قوله تعالى: {ثُمَّ كَلَّا} [التكاثر: ٤]، أي:"ثم:"ما هكذا ينبغي أن يُلْهيكم التكاثر بالأموال وكثرة العدد".

وهو وعيد إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد، أي سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده.

فالتكرار هنا زيادة في التخويف والتهديد والردع والزجر.

قال الطبري:"يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد".

قولـه تعـالى: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكـاثر: ٤]، أي:"سـوف تعلمـون سـوء عاقبـة انشغالكم عن الآخرة".

=

=

قال الطبري: أي:"سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر".

وفي قوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: ٣- ٤]، وجوه:

أحدها: أنه تكرار، للتغليظ والتخويف. قاله الفراء، والطبري.

قال الفراء:"والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف، فهذا من ذاك".

قال الطبري: وكرّر قوله: {كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين".

قال القشيري:"{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: ٣- ٤]، على جهة التهويل".

قال السمعاني:"تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، والمعنى: ستعلمون عاقبة تفاخركم وتكاثركم إذا نزل بكم الموت".

قال ابن قتيبة:"يراد به التأكيد للمعنى الذي كرّر به اللفظ".

الثاني: أن الأولى للكفار، وأما الثانية فللعصاة من المؤمنين. وهذا قول الضحاك، واختيار النحاس.

وروي عن الضحاك: "{كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قال: الكفار، {ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قال: المؤمنون. وكذلك كان يقرأها-أي: الأولى بالتاء والثانية بالياء-".

قال النحاس:"تكرير عند الفراء. وأحسن منه ما قاله الضحاك، قال: «الأولى للكفار، وذهب إلى أن الثانية للعصاة من المؤمنين»".

الثالث: المعنى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}: حين نزل بكم الموت، {ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}: إذا دخلتم قبوركم. قاله مقاتل، وحكاه الماتريدي.

=

=

ويسنده ما وروي عن عليﷺ، قال: "كنا نشكّ في عذاب القبر، حتى نزلت هذه الآية: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}... إلى: {كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}، في عذاب القبر".

قال ابن جرير: وكرّر قوله: (كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين.

وقال ابن جزي: زجر وتهديد ثم كرره للتأكيد

وقد رجحه: ابن جرير، والواحدي، وابن عطية، والبيضاوي، والشوكاني

وقيل: إن قوله (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) هذا عند الموت وفي القبر، وقوله (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) عند قيام الساعة.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، ورجحه ابن القيم لوجوه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هي الأصل.

الثاني: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً، هو فوق العلم الأول.

قال ابن الجوزي: قيل: العلم الأول: يقع عند نزول الموت. والثاني: عند نزول القبر.

قوله تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٥– ٨]

التفسير:

ما هكذا ينبغي أن يلهيكم التكاثر بالأموال، لو تعلمون حق العلم لانزجرتم، ولبادرتم إلى إنقاذ أنفسكم من الهلاك. لتبصرُنَّ الجحيم، ثم لتبصرُنّها دون ريب، ثم لتسألُنَّ يوم القيامة عن كل أنواع النعيم.

=

=

قولـه تعـالى: {كَـلَّا} [التكـاثر: ٥]، أي:"مـا هكـذا ينبغـي أن يلهـيكم التكـاثر بالأموال".

وهي للردع والزجر والتهديد.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس" .

وقال مقاتل: كلا لا يؤمنون بالوعيد".

قوله تعالى: {لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥].

أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون.

قال ابن الجوزي: المعنى: لو تعلمون الأمر علمـاً يقينـاً لَشَغَلَكم ما تعلمون عن التكاثر، والتفاخر، وجواب "لو" محذوف: وهو ما ذكرنا.

وفي تفسير قوله تعالى: {لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥]، وجهان:

أحدهما: ما تعلمونه يقيناً بعد الموت من البعث والجزاء. قاله قتادة.

قال قتادة:"كنا نحدَّث أن علم اليقين: أن يعلم أنَّ الله باعثه بعد الموت".

قال الطبري: أي:"لو تعلمون أيها الناس علما يقينا، أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقا على أنفسكم من عقوبته".

قال الماتريدي:"يعني بهذا- والله أعلم -: إبطال ما كانوا عليه من الظنون والحسبان في هذه الدنيا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: {مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا}، فإذا نزل بهم العذاب تحقق عندهم، وعلموا علما يقينا".

الثاني: أن «علم اليقين»: الموت، والمعنى: لو تعلمون علم الموت الذي هو يقيني لا يعتريه شك. قاله قتادة-أيضا-.

=

=

عن قتادة:"{عِلْمَ الْيَقِينِ}، قال: كنا نتحدث أنه الموت".

قال مقاتل: {عِلْمَ الْيَقِينِ}: لا شك فيه".

وقال الزجاج:"المعنى: لو علمتم الشيء حق علمه، وصرفتم التفهم إليه، لارتدعتم".

قال الكسائي: "جواب {لَوْ} في أول السورة، أي: «لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم التكاثر»".

قوله تعالى: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} [التكاثر: ٦]، أي:"لتبصرُنَّ الجحيم".

فأقسم وأوكد أنكم ستشاهدون الجحيم عياناً ويقيناً.

قيل: إن الخطاب هنا للكفار.

قال الطبري:"لترونّ أيها المشركون جهنم يوم القيامة، ثم لترونها عيانا لا تغيبون عنها"..

ورجح هذا القول: ابن جرير، والقرطبي، والشوكاني.

وقيل: الخطاب لجميع الناس. ورجحه: البغوي، وابن عطية، والبيضاوي.

وتكون للكافرين داراً وللمؤمنين ممراً.

قال الماتريدي:"يرونها عند الموت، وقيل: يرونها بالتفكر والنظر في آيات الله وحججه في الدنيا".

عن أبي مالك:"{الجحيم}، قال: ما عظم من النار". وقال مقاتل مثل ذلك.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٧].

أي: ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية، كما قال تعالى: (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا).

=

=

- وعين اليقين: هو الأمر الحاصل برؤية العين، وهو أعلى درجة من علم اليقين، فإن هذا- علم اليقين- يحصل بالسمع بطريق الإخبار، فعين اليقين أعلى منه لأنه رؤية العين.

- فالدرجات ثلاث:

علم اليقين: كما قال تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)، وهو العلم الثابت الراسخ الذي لا يداخله شك.

عين اليقين: قال تعالى (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)، وهذا لا يُتوصل إليه إلا بالمشاهدة.

حق اليقين: قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)، وهذا لا يتحقق إلا بملابسة شيء.

وقد قال ﷺ (ليس الخبر كالمعاينة) ولهذا لما اخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم، لم يحصل له من الغضب والكيفية والقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

مثال يوضح ذلك: قلت إن معي تفاحة- وأنا عندك ثقة- فهذا علم اليقين.

فإن أخرجتها من جيبي، فهذا عين اليقين. فإن أعطيتك لتأكلها فهذا حق اليقين.

قال الفراء:" {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا}، مرتين من التغليظ أيضا".

عن ابن عباس: " {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}، يعني: أهل الشرك".

وفي تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٧]، وجهان:

أحدهما: أن «عين اليقين»: المشاهدة والعيان.

قال مقاتل:"لترون الجحيم في الآخرة معاينة.. يقينها: رؤية العين".

قال الفراء:"عينا لستم عنها بغائبين".

قال الطبري:"ثم لترونها عيانا لا تغيبون عنها".

=

=

قال ابن أبي زمنين:"يعني: بالمعاينة".

الثاني: أنه بمعنى: الحق اليقين، قاله السدي.

وفي تفسير قوله تعالى: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٦- ٧]، وجوه:

أحدها: أن الثاني تأكيد للأول، والمعنى فيهما واحد. إنما أراد التغليظ. قاله الفراء.

الثاني: معناه: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}: عن بعد إذا أبرزت، {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}: إذا دخلتموها. حكاه السمعاني.

الثالث: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}: بعيون قلوبكم، فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك، وهو أن تتصور لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}: أي: عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك. حكاه القرطبي.

الرابع: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}: في القبر، {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}: في القيامة. حكاه السمعاني-أيضا-.

قال النحاس:"والأحسن ألا يكون تكريرا، ويكون المعنى لترونّ الجحيم في موقف القيامة".

قرأ الكسائي «لَتُرَوُنَّ»، بضمّ التاء. حكاه أبو عبيد عنه، وقرئ على إبراهيم بن موسى عن محمد بن الجهم عن أبي عبد الرّحمن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قرأ": «لَتُرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها»، الأولى بضمّ التاء والثانية بفتحها، والأولى عند الفرّاء، وأبي عبيد فتحها، لأن التكرير يكون متفقا.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨]، أي:"ثم لتسألُنَّ يوم القيامة عن كل أنواع النعيم الذي ننعم به في الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟".

=

=

قال الطبري:"يقول: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به".

واختلف أهل التفسير في ذلك «النعيم»، على أقوال:

أحدها: الأمن والصحة، قاله ابن مسعود، ورواه مرفوعا، وبه قال مجاهد، والشعبي، وسفيان.

قال الشعبي:"النعيم المسئول عنه يوم القيامة: الأمن والصحة".

الثاني: أنه الماء البارد، رواه أبو هريرة عن -النبيّ ﷺ-.

عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعري، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة، يعني العبد من النعيم، أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد".

الثالث: أنه خبز البُرّ والماءُ العَذْبُ، قاله أبو أُمامة.

عن بشر بن عبد الله بن بشار، قال: سمعت بعض أهل يمن يقول: "سمعت أبا أُمامة يقول: النعيم المسئول عنه يوم القيامة: خبز البرّ، والماء العذب".

الرابع: أنه ملاذ المأكول والمشروب، قاله علي بن أبي طالب، وأبو أمامة، وسعيد بن جبير، وأبو معمر عبد الله بن سخبرة. ورواه جابر بن عبد الله مرفوعا.

عن عَمَّار بن أبي عمار، قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: أتانا النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما، فأطعمناهم رطبا، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: "هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسألون عَنْهُ".

عن أبي هريرة، قال: بينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان، إذ جاء النبيّ ﷺ، فقال: "ما أَجْلَسَكُما ها هُنا؟ " قالا الجوع، قال: "وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقّ ما أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ"، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبيّ ﷺ: "أيْنَ فُلانُ؟ " فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل

=

=

قربته، فقال: مرحبا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم، فعلق قربته بكَرَب نخلة، وانطلق فجاءهم بعِذْق، فقال النبي ﷺ: "ألا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ؟ " فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال النبيّ ﷺ: "إيَّاكَ والْحَلُوبَ"، فذبح لهم

يومئذ، فأكلوا، فقال النبيّ ﷺ: "لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيامَةِ، أخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حتى أَصَبْتُمْ هَذَا، فَهَذَا مِنَ النَّعِيم".

عن ابن عباس أنه سمع عمر بين الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد فقال: «ما أخرجك يا ابن الخطاب؟» قال: أخرجني الذي أخرجكما قال: فقد عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: «هل بكما من قوة تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاما وشرابا وظلا؟» قلنا نعم. قال: «مروا بنا إلى منزل ابن التيهان أبي الهيثم الأنصاري» قال: فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا، فسلم واستأذن ثلاث مرات وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم فقالت: يا رسول الله قد- والله- سمعت تسليمك، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك، فقال لها رسول الله ﷺ «خيرا» ثم قال «أين أبو الهيثم؟ لا أراه» قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذب الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله، فبسطت بساطا تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقا فقال له رسول الله ﷺ «حسبك يا أبا التيهان الهيثم» قال يا رسول الله ﷺ تأكلون من بسره ومن رطبه ومن تذنوبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه».

عن أبي عسيب، مولى رسول الله ﷺ، قال: مرّ النبيّ ﷺ حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: "أَطْعِمْنا بُسْرًا"، فجاء بعذق فوضعه، فأكل

=

=

رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال: "لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيامَةِ"، فأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا؟ قال: "نَعَمْ، إلا مِنْ كِسْرَةٍ يُسَدُّ بِها جَوْعَةٌ، أَوْ حُجْرٌ يُدْخَلُ فِيه مِنَ الحَرِّ والقَرِّ".

عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ، قال: "مرّ بي النبيّ ﷺ، فدعاني وخرجت ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخل حائطا لبعض الأنصار، فأُتِيَ بِبُسْرِ عِذْق منه، فوُضِع بين يديه، فأكل هو وأصحابه، ثم دعا بما بارد، فشرب، ثم قال: "لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيامَةِ"، فقال عمر: عن هذا يوم القيامة؟ فقال: "نَعَمْ، إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: خِرْقَةٍ كَفَّ بِها عَوْرَتَهُ، أو كِسْرَةٍ سَدَّ بِها جَوْعَتَهُ، أَوْ جُحْرٍ يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الحَرِّ والقَرّ".

عن أبي بصيرة، قال: أكل رسول الله ﷺ وناس من أصحابه أكلة من خبز شعير لم يُنْخَل، بلحم سمين، ثم شربوا من جدول، فقال: "هذا كله من النعيم الذي تُسْأَلُونَ عنه يوم القيامة".

عن محمد بن محمود بن لبيد، قال: "لما نزلت {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}، فقرأها حتى بلغ: {لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، قالوا: يا رسول الله، عن أيّ النعيم نسأل، وإنما هو الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على عواتقنا، والعدوّ حاضر! قال: "إن ذلكَ سَيَكُونُ".

عن أبي هريرة: قال: رسول الله ﷺ: "إنَّ أولَ ما يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَم نُصِحَّ لَك جِسْمَكَ، وَتُرَوَ مِنَ الماءِ البارِدِ؟".

عن ثابت البناني، عن النبيّ ﷺ قال: "النَّعِيم: المَسْئُولُ عَنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ: كِسْرَةٌ تُقَوّيه، وَماءٌ يُرْوِيهِ، وَثَوْبٌ يُوَارِيهِ".

=

=

عن بشر بن عبد الله بن بشار، قال: سمعت بعض أهل يمن يقول: "سمعت أبا أُمامة يقول: النعيم المسئول عنه يوم القيامة: خبز البرّ، والماء العذب".

عن علي بن أبي طالب:"أنه سئل عن قوله: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم}، قال: عن أكل خبز البر وشرب ماء الفرات مبردا، وكان له منزله يسكنه، فذاك من النعيم الذي يسأل عنه".

عن بكير بن عتيق، قال: "رأيت سعيد بن جُبَير أُتيَ بشربة عسل، فشربها، وقال: هذا النعيم الذي تُسألون عنه".

عن بكير بن عتيق العامري، قال: "أُتِيَ سعيد بن جُبير بشَربة عسل، فقال: أما إن هذا النعيم الذي نسأل عنه يوم القيامة: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم}".

عن مجاهد، قال: قال أبو معمر عبد الله بن سخبرة: "ما أصبح أحد بالكوفة إلا ناعمًا، إن أهونهم عيشا الذي يأكل خبز البرّ، ويشرب ماء الفرات، ويستظلّ من الظلّ، وذلك من النعيم".

عن عكرمة قال: لما أنزلت هذه الآية {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، قالت الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "ما فوق الإزار، وظل الحائط، وخُبْز، يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه".

روي عن مغيرة عن إبراهيم قال: "من أكل فسمّى الله وفرغ فحمد الله لم يسئل عن نعيم ذلك الطعام".

=

=

وقال عروة بن محمد: "كنّا مع وهب بن منبه فرأينا رجلا أصمّ أعمى مقعدا مجذوما مصابا، فقلنا: هل بقي على هذا شيء من النعيم؟ قال: نعم، أعظمه بشبعه ما يأكل ويشرب، ويسهل عليه إذا خرج لذلك".

قال بكر عن عبد الله المزني: "يا لها من نعمة يأكل لذّة ويخرج سرجا!".

الخامس: أنه صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، قال: يسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُول}".

وقال الحسن:"السمع والبصر، وصحة البدن".

وروي سعد بن طريف، عن أبي جعفر، قال: "العافية".

عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد، قالا: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني".

السادس: أنه الغداء والعشاء، قاله الحسن.

السابع: أنه الصحة والفراغ. قاله عكرمة.

وقال سعيد بن جبير:"الصحة والفراغ والمال".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ".

قال ابن كثير:"ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون".

الثامن: أنه كل شيء من لذة الدنيا، قاله مجاهد، وقتادة.

=

=

قال قتادة:"إن الله ﷻ سائل كلّ عبد عما استودعه من نِعَمه وحقه".

قال قتادة:"إن الله تعالى ذكره سائل كلّ ذي نعمة فيما أنعم عليه".

عن مجاهد، في قول الله: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، قال: عن كل شيء من لذّة الدنيا".

قال ابن كثير:"وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "يقول الله، ﷻ- قال عفان: يوم القيامة -: يا بن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تَرْبَع وترأس، فأين شكر ذلك؟.

التاسع: أنه إنعام الله على الخلق بإرسال محمد ﷺ. قاله محمد بن كعب.

قال الثعلبي:"ودليل هذا التفسير قوله سبحانه {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} [النحل: ٨٣]".

وقال أبو العالية: "الإسلام والستر".

العاشر: أنه في صنوف النعم، يعني: الشكر للنعيم الذي أعطاه الله ﷻ، فلم يهتد ولم يشكر. قاله قاله مقاتل، وأبو بكر الوراق، والنحاس.

قال أبو بكر الورّاق: "عن الآلاء والنعماء".

قال النحاس:"ظاهر الكلام يدلّ على أنه عام، وأنّ الإنسان مسؤول عن كل نعيم تنعّم به في الدنيا من أين اكتسبه؟ وما قصد به؟ وهل فعل ما غيره أولى منه؟ ويسند الظاهر للأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه".

وقال مقاتل:"يعني: كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه".

قال السعدي: أي:"الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به، على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل. أم اغتررتم

=

=

به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} الآية".

الحادي عشر: أي: عن النعيم الذي يشغل عن طاعة الله جلّ وعزّ. حكاه النحاس.

الثاني عشر: أنه تخفيف الشرائع وتيسير القرآن، قاله الحسن -أيضاً-، والحسين بن الفضل.

الثالث عشر: أنه شبع البطون وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم. قاله مكحول الشامي، ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} يعني: "شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم".

قال ابن الجوزي: اختلفوا هل هذا السؤال عام أم لا؟ على قولين:

أحدها: أنه خاص للكفار، قاله الحسن. والثاني: عام، قاله قتادة.

ثم قال ابن الجوزي: والصحيح أنه عام في كل نعيم، وعام في جميع الخلق، فالكافر يسأل توبيخاً إذا لم يشكر المنعم، ولم يوحّده، والمؤمن يسأل عن شكرها.

قال الطبري: أن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم دون تخصيص في خبره نوع من النعيم دون نوع، بل عمَّ الخبر في ذلك عن الجميع فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض.

وقال النحاس: "وظاهر الكلام يدل على أنه عام، وأن الإنسان مسؤول عن كل نعيم تنعَّم به في الدنيا من أين اكتسبه؟ وما قصد به؟ وهل فَعَلَ ما غيره أولى منه؟..".

=

=

وأمَّا عمَّن يُسأل ـ والعلم عند الله ـ أن الكل يُسأل (المؤمن والكافر) فسؤال الكافر سؤال توبيخ وسؤال المؤمن سؤال إكرام وتشريف قال القرطبي: "قلتُ: هذا القول حسن".

(فائدة): قال ابن القيم في عدة الصابرين: الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها، وتوعّدهم على ذلك، فقال تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ١ – ٥].

فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاه التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

ولم يعيّن سبحانه المتكاثر بل ترك ذكره إما لأنّ المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يُقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب به ويلهو به.

وإما إرادة الإطلاق، وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي "صحيح مسلم" من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)} قال: "يقول ابن آدم مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت".

=

=

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباء منثورًا، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذّب بتكاثره في دنياه، ثم عذّب به في البرزخ، ثم يعذّب به يوم القيامة فكان أشقى الخلق بتكاثره، إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفزْ من تكاثره إلا بأن صار من الأقليق، ولم يحظَ من علوه في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فيا له تكاثرًا ما أقلّه؟! ورزءًا ما أجلّه؟! وغناء جالبًا لكل فقر، وخيرًا توصّل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: {يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)} [الفجر: ٢٤]، وعملت بطاعة الله قبل وفاتي {رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعوّل عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولًا: {رَبِّ} استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره إلى بين يدي ربه تبارك وتعالى فقال: {ارْجِعُونِ} ثم ذكر سبَب سؤال الرجعة وهو: أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوله وأسبابه، فيقال له: {كَلَّا}، لا سبيل لك إلى الرّجعى وقد عُمّرتَ ما يتذكر فيه من تذكّر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة؛ ليتدارك ما فاته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرّط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيّته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحا لو أجيب، وأنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رُدّ لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وجدّه يأبى إجابته إلى ما سأل؛ فإنه لا فائدة في ذلك، ولو

=

=

ردّ لكانت حاله الثانية مثل حاله الأولى، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)} [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية، وما وردوا. فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب بـ {بَلْ} ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: {مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} قدروا مضافًا محذوفًا وهو جزاء {مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ}، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويَدْعون إليه ويحاربون عليه.

ولما علموا أن هذا وارد عليهم، قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)} [الأنعام: ٢٣]، فلما وُقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه. قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير.

ولم يصنع أرباب هذا القول شيئا؛ فإن السياق والإضراب بـ {بَلْ} والإخبار عنهم بأنهم لو ردّوا لعادوا مشركين لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ.

وأجود من هذا ما فهمه المبرّد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم إذ خفيت عليهم مضرّته.

=

=

ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال: وهذا كما تقول في من كنت حدثته في أمر قبل: ظهر لك الآن ما كنتُ قلتُ لك؟! وقد كان ظاهرًا له قبل هذا.

ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يُقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية -والله أعلم بما أراد من كلامه-: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها تمنّوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنه ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيّتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردّوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبيّن لك معنى الإضراب بـ {بَلْ}، وتبيّن معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه. والحامل لهم على قولهم: {يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ}، فالقوم كانوا يعلمون في الدنيا أنهم على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلّغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه.

فلم يكن الحامل لهم على تمنّي الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، فظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على الباطل وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك

=

=

عيانًا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردّوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الأيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوه لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله.

وهذا كمن كان يُخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليك قيّمه عاقبك. وهو يعلم ذلك ويكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب، فلما أخذه وليّه ليعاقبه على ذلك، وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسّته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب من نهاه عنه ولو ردّ لعاد لما نُهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم: أنا لو رُددنا لآمنا وصدقنا، لأنه ظهر لنا الآن أن ما قالت الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لم تكونوا عالمين به لِتُعذَروا، بل ظهر لكم ما كان معلومًا لكم وكنتم تواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع، وبالله التوفيق.

فلنرجع إلى تمام الكلام فيها وقوله: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)} [التكاثر: ٥] جوابه محذوف دلّ عليه ما تقدم، أي: لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل بصاحبه إلى حدّ الضروريات التي لا يُشك ولا يمارى في صحتها وثبوتها.

ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرّد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له

=

=

علم يقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان في أهل بدر:

سِرْنا وساروا إلى بَدْرٍ لِحَينهم ... لو يعلمونَ يقين العِلْمِ ما ساروا

وقوله: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)} [التكاثر: ٣، ٤]، قيل: هو تأكيد لحصول العلم كقوله: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)} [النبأ: ٤، ٥].

وقيل: ليس بتأكيد بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر.

هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط {ثُمَّ} بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زمانًا وخَطَرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن عليّ بن أبي طالب وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذي: حدثنا أبو كُريب حدثنا حكام بن سلم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج عن المنهال بن عمرو عن زرّ عن على قال: "ما زلنا نشكُّ في عذاب القبر حتى نزلت {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١)} [التكاثر: ١]".

=

=

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: {ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)} [التكاثر: ٤] في القبور.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)} [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى وليست تأكيدًا لفظيًّا للرؤية الأولى، والفرق بين الرؤية الأولى والثانية من وجهين:

إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها.

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكّد بواو القسم ولام التوكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يُسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلّه ووجهِه أم لا؟

فإذا تخلص من هذا السؤال سئل عسْه سؤالًا آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول سؤال عن سبب استخراجه، والثاني عن محل صرفه. كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر.

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟".

وفيه أيضًا عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه". قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة -يعني العبد من النعيم- أن يُقال له: ألم نُصِحّ لك جسمك، ونُرْوِيك من الماء البارد؟!".

=

=

وفيه أيضًا من حديث الزبير بن العوام قال: لما نزلت {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)} [التكاثر: ٨] قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان، التمر والماء؟ قال: "أما إنه سيكون". قال: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه وقال: "فإنما هما الأسودان والعدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا، قال: إن ذلك سيكون".

وقوله: "إن ذلك سيكون" إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال أي أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمرًا وماء فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح -وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد-: "هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة". فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: "يُجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بَذَج، فيوقف بين يدي الله، فيقول الله: أعطيتك وخوّلتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمّرته فتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به فإذا عبد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار".

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالًا وولدًا، وسخّرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع، فكنتَ تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني". قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية: قال يا رسول الله: "أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيّهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذَنَّب وماء عذب،

=

=

أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنما ذلك للكافر"، ثم قرأ: {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١)} [سبأ: ١٧].

قال الواحدي: والظاهر يشهد لهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم. والمعنى أيضًا يشهد لهذا وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر القرآن وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: "يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت... " الحديث وهو في صحيح مسلم.

وقائل ذلك قد يكون مسلمًا وقد يكون كافرًا.

ويدل عليه الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة للنبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له: "وأيّ نعيم نُسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان".

فلو كان الخطاب مختصًّا بالكفار لبيّن لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار.

فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أُنزل عليه القرآن أقرّهم على فهم العموم.

=

=

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح.

والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ " قالا: الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قُومًا" فقاما معه فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول الله ﷺ: "وأين فلان؟ " قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، وأخذ المُدية، فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم".

فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا، فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر (١).

وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يُعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين.

=

=

فقوله: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١] خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار؛ لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصّوه بهم.

وجواب هذا: أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: ١١]، {وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء: ١٠٠]. {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)} [العاديات: ٦]. {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]. {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [الحج: ٦٦]. ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علمٍ وعدلٍ وخيرٍ فيه فمن ربه لا من نفسه.

فإلهاء التكاثر طبيعة العبد وسجيّته التي هي له من نفسه، ولا خروجَ له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدًا للآخرة مُوثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو مُلتَهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بدّ.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيُقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، وهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلًا له في الدنيا.

=

=

وليس في قوله: {سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)} [التكاثر: ٣] ما يقتضي دخول النار فضلًا عن التخليد فيها.

وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يَرِدَها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فليس في جملة من جمل هذه السورة ما ينفي عموم خطابها.

وأما ما ذُكر عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعًا، إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي، وانطباق معناها على أكثر الخلق، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها، ويكفي في رد ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن رأى القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثرُ قلبَه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات.

وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود. وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثرٍ به معيّن؛ ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضًا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كلّ من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للمكاثر كما قيل:

ولست بالأكثرِ منهم حَصًى ... وإنما العِزّة للكاثر

=

=

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها.

وكل مَن كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك، شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلويّة ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يَكْثُرَها غيرها في ذلك، وينافسه في هذه المكاثرة ويسابقه إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد. وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر مُلْهٍ عن الله والدار الآخرة، وهو صائر إلى غاية القلّة، فعاقبة هذا التكاثر قلٌّ وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، فصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل قولًا منه وأحسن عملًا وأغزر علمًا. وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها، كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها.

وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات، وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج في تواصلهم بين يدي رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر فلما تبيّن له مدى سبقه قال: "والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا".

فصل: وتأمل حسن موقع {كَلَّا} في هذا الموضع فإنها تضمّنت ردعًا لهم وزجرًا عن التكاثر ونفيًا وإبطالًا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعِزتِهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنه لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة

=

سورة العصر(١)

=

رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة، وأجلّها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيرًا، وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا، على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا، وبلّغها رسوله عنه وَحْيًا.

فصل: وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حيّ زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار؟! فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر.

فهاهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) (التكاثر٣- ٤)، يسأل عن تكرير قوله: (سوف تعلمون)؟

الجواب: أنه تهديد ووعيد فناسبه التكرير تحقيقًا وتثبيتًا كقوله: (الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة: ١- ٢)، و (الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة: ١- ٢) وما أتى من مثل هذا، ودخلت " ثم " العاطفة في المعطوف بها كما دخلت في قوله: (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) (المدثر: ٢٠) وقد تقدم. ملاك التأويل (٢/ ٥١٠).

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

=

أحدهما: أنها مكية، قاله ابن عباس، وابن الزّبير، وحكاه ابن الجوزي وأبو حيان عن الجمهور.

عن ابن عباس قال: "نزلت سورة {والعصر}، بمكة".

الثاني: مدنيّة، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.

قال ابن عطية:"هي مكية".

قال ابن عاشور:"هي مكية في قول الجمهور وإطلاق جمهور المفسرين".

* آياتها ثلاث. وكلماتها أَربع عشرة. وحروفها ثمانٍ وستون المختلف فيها آيتان: {والعصر} {بالحق}. وفواصلها على الرّاءِ.

* تسمى «سورة العصر» سميت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير: «سورة العصر»، وذلك لمفتتح السورة بقوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [العصر: ١]، وسميت في بعض كتب التفسير، وفي «صحيح البخاري»: «سورة والعصر» بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها، أي: سورة هذه الكلمة.

* مقصود السّورة: بيان خسران الكفَّار والفجّار، وذكر سعادة المؤمنين الأَبرار، وشرح حال المسلم الشكور الصبّار، فى قوله: {وَتَوَاصَوْا بالصبر}.

* المتشابهات: قوله: {وَتَوَاصَوْا بالحق وَتَوَاصَوْا بالصبر} كرّر لاختلاف المفعولين، وهما {بالحق} و {بالصبر} وقيل: لاختلاف الفاعلين؛ فقد جاءَ مرفوعًا أَنَّ الإِنسان فى قوله: {والعصر} أَنَّه أَبو جهل {إِلاَّ الذين آمَنُوا} أَبو بكر {وَعَمِلُوا الصالحات} عُمَر {وَتَوَاصَوْا بالحق} عثمان {وَتَوَاصَوْا بالصبر} علىّ رضى الله عن الخلفاءِ (الأَربع) ولعن أَبا جهل. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَالْعَصْرِ (١).

{وَالْعَصْر} الدَّهْر أَوْ مَا بَعْد الزَّوَال إِلَى الْغُرُوب أَوْ صَلَاة الْعَصْر.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢).

{إِنَّ الْإِنْسَان} الْجِنْس {لَفِي خُسْر} فِي تِجَارَته.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣).

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} فَلَيْسُوا فِي خُسْرَان {وَتَوَاصَوْا} أَوْصَى بَعْضهمْ بَعْضًا {بِالْحَقِّ} الْإِيمَان {وتواصوا بالصبر} على الطاعة وعن المعصية(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ١- ٢].

أقسم الله بالدهر؛ لما فيه من عجائب قدرة الله الدالة على عظمته، على أن بني آدم لفي هلكة ونقصان. ولا يجوز للعبد أن يقسم إلا بالله، فإن القسم بغير الله شرك.

قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [العصر: ١]، أي:"أُقسمُ بالدهر والزمان لما فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات".

والعصر الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي خسارة وهلاك.

عن محمد بن كعب:"{وَالْعَصْرِ}، قال: قسم أقسم الله به ربنا تبارك وتعالى".

قال ابن كثير:"ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب -لعنه الله- وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ فقال: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ١- ٣]، ففكر مسيلمة هُنَيهة ثم قال:

=

=

وقد أنزل علي مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وَبْر يا وَبْر، إنما أنت أذنان وصَدْر، وسائرك حفز نَقْز. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف ب "مساوى الأخلاق"، في الجزء الثاني منه، شيئًا من هذا أو قريبا منه.

والوبْر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه، وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان".

اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [العصر: ١]، على أقوال:

أحدها: أنه العشيّ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن، وقتادة. وقاله مالك عن زيد بن أسلم، ومنه قول الشاعر:

تَرَوّحْ بنا يا عمرُو قد قصر العَصْرُ... وفي الرَّوْحةِ الأُولى الغنيمةُ والأَجْرُ

وروي عن ابن عباس:"هو ما قبل مغيب الشمس من العشي".

قال الماوردي:"وخصه بالقسم لأن فيه خواتيم الأعمال".

قال أبو حيان:"أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة".

قال ابن عاشور:"وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مثلي قدره بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس، قال الحارث بن حلزة:

آنَست نَبأَةً وأفزَعها القَـ... ـنَّاص عَصرًا وقد دَنا الإمساءُ

=

=

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية. وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم".

الثاني: انه ساعة من ساعات النهار. قاله ابن عباس، وقتادة.

قال ابن عباس:"العصر: ساعة من ساعات النهار". وروي عن قتادة مثل ذلك.

وحكي الثعلبي عن قتادة:"آخر ساعة من ساعات النهار".

وقال أبي بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العصر فقال: «أقسم ربكم بآخر النهار».

الثالث: يريد صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى، لأنها أفضل الصلوات. قاله مقاتل، وبه قال الزمخشري.

قال مقاتل:"قسم، أقسم الله ﷻ بعصر النهار، وهو آخر ساعة من النهار، وأيضا «العصر» سميت العصر حين تصوبت الشمس للغروب وهو عصر النهار، فأقسم الله ﷻ بصلاة العصر".

قال الزمخشري:"أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: {وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: ٢٣٨]: صلاة العصر في مصحف حفصة. وقوله عليه الصلاة

=

=

والسلام «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم".

الرابع: أن يريد عصر الرسول ﷺ، لفضله بتجديد النبوة فيه. حكاه الماوردي.

الخامس: أن «العصر»: هو الدَّهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم، والفراء، وابن قتيبة.

قال ابن كثير:"المشهور: أن العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر".

قال الفراء:"هو الدهر أقسم به".

قال أبو حيان:"أقسم به تعالى لما في مروره من أصناف العجائب".

قال ابن الجوزي:"وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم".

قال سهل:"قيل: أي: ورب الدهر".

قال النحاس:"التقدير: وربّ العصر، ويدخل فيه كلّ ما يسمى بالعصر لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة فالعصر الدهر، والعصر العشي، والعصر الملجأ".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر {وَالْعَصْرِ} اسم للدهر، وهو العشيّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزِمه هذا الاسم، فداخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه".

قال الشوكاني:"أقسم سبحانه بـ «العصر»: وهو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع ﷻ وعلى توحيده، ويقال لليل: عصر وللنهار: عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

ولن يلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ... إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تَيَمَّما

=

=

ويقال: للغداة والعشي: عصران، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملني... ويرضى بنصف الدين والأنف راغم".

قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢]، هذا جواب القسم. أي:"على أن بني آدم لفي هلكة ونقصان".

قال الزجاج: (الإنسان ههنا في معنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، تريد قد كثر الدراهم).

ودليلهم: أن الله سبحانه استثنى من الإنسان جماعة فدل على أن المراد عموم الناس.

قال ابن كثير:"فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي: في خسارة وهلاك".

قال النحاس:"«الإنسان» بمعنى: الناس، و «الخسر»: دخول النار. فهو أكبر الخسران".

قال الفراء:"لفي عقوبة بذنوبه، وأن يخسر أهله، ومنزله فى الجنة".

قال الطبري:"يقول: إن ابن آدم لفي هلَكة ونقصان".

قال أبو عبيدة:"أي: مهلكة ونقصان".

قال ابن قتيبة:"أي في نَقْص" ،" الخسر: النقصان".

قال أبو طالب المكي:"أي: لفي خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه".

عن مجاهد: "{لَفِي خُسْرٍ}، يعني: "لفي ضلال".

عن محمد بن كعب:"{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، قال: الناس كلهم".

عن كعب: "{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، قال: يعني: آدم وبنيه".

=

=

عن ابن عباس في قوله: "{وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ١ - ٢]، يعني: أبا جهل بن هشام {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: ٣]: ذكر عليا وسلمان".

وقال سهل: "يعني: أبا لهب، خسر أيامه كلها".

قال أبو هلال العسكري: "الخسران: أصله النقصان، ومنه قيل للتاجر: إذا وضع أنه خسر ثم كثر حتى، قيل لكل من سعى في شيء فأداه إلى مكروه خاسر، وقيل: الخسران الضلال".

قال مقاتل: "يعني: أنه لفي ضلال أبدا حتى يدخل النار، نزلت في أبي لهب، اسمه: عبد العزى بن عبد المطلب".

قال ابن عطية: "«الخسر»: النقصان وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر لأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه في هرمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة وربحه الذي لا يفنى".

روى ابن عون، عن إبراهيم، قال: "أراد أن الإنسان إذا عمّر في الدنيا وهرم لفي نقص وضعف وتراجع إلّا المؤمنين فإنّهم يكتب لهم أجورهم والمحاسن التي كانوا يعملونها في حال شبابهم وقوّتهم وصحّتهم، وهي مثل قوله سبحانه {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [التين: ٤ - ٦] الآية".

عن عمرو ذي مرّ: "أن عليا رضى الله عنه قرأها: «وَالْعَصْرِ وَنَوَائِب الدَّهْرِ، إِنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْر»".

عن عمرو ذي مرّ، قال: "سمعت عليا رضى الله عنه يقرأ هذا الحرف: «وَالْعَصْرِ وَنَوَائِب الدَّهْرِ، إنَ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ، وإنه فيه إلى آخر الدهر»".

=

=

قال قتادة:"ففي بعض القراءات: «وإنه فيه إلى آخر الدهر»".

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان هنا بمعنى الكافر، ومنهم السمرقندي، والواحدي، وأشار إليه النحاس.

قال السمرقندي: (يعني: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومن كان في مثل حالهم).

وقال الواحدي: (يعني: الكافر العامل لغير طاعة الله).

وقال البغوي في استدلالهم: (قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين).

والذي يظهر لي أن هذا الدليل لا يقوى على تخصيص اللفظ العام ببعض أجزائه، أضف إلى ذلك أن الاستثناء سيكون على هذا التفسير منقطعا، وهذا خلاف الأصل، فيبقى الاستثناء دليلا قويا للقول الأول.

كما أن مما يستدل لهم به: أن استعمال لفظ الإنسان في القرآن إنما يراد به الكافر، لأن هذا اللفظ من خصائص المكي، وهذا أيضا غير مسلم، لأنه ينخرم عليهم في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال القرطبي: (وأما من قال: إن قوله: {ياأيها الناس} مكي حيث وقع فليس بصحيح؛ فإن البقرة مدنية وفيها قوله: {ياأيها الناس} [البقرة:٢١- ١٦٨] في موضعين).

فالحق والصواب أن المراد في الآية: عموم الناس؛ لأمور منها:

١- أن هذا هو ما عليه اختيار جماهير العلماء من المفسرين وغيرهم. ... قال القرطبي: (قوله تعالى: {إلا الذين آمنوا} [العصر:٣] استثناء من الإنسان، إذ هو بمعنى الناس على الصحيح).

٢- أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم أجد دليلا صحيحا لمن خصه بأسماء معينة، قال ابن حجر: (تنبيه: لم أر في تفسير هذه السورة- يعني: سورة العصر- حديثا مرفوعا صحيحا).

=

=

٣- أن الأصل كذلك: بقاء العموم على عمومه حتى يأتي ما يقوى على تخصيصه. قال الشنقيطي: (وقيل: خاص بالكافر، والأول أرجح للعموم).

٤- أن: {الذين} [العصر:٣] اسم جماعة، والجماعة لا تستثنى من واحد، فدل ذلك على أنه أراد بالإنسان الجنس كما قال ابن عقيل وغيره.

٥- أنه لوكان المراد بالإنسان في الآية الكافر لما احتيج إلى استثناء المؤمنين. والله تعالى أعلم.

قال ابن القيم: الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رَحِمَهُ اللَّهُ فهداه، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به.

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر: ٣]، أي:"إلا الذين آمنوا بالله وعملوا عملا صالحًا".

قال الطبري:"يقول: إلا الذين صدّقوا الله ووحَّدوه، وأقرّوا له بالوحدانية والطاعة، وعملوا الصالحات، وأدّوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه، واستثنى الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجمع، لا بمعنى الواحد".

قال ابن كثير:"فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم".

قال سهل:"يعني: أدوا الفرائض كما فرضت عليهم".

قال مقاتل:"فليسوا في خسران".

قال ابن قتيبة:"فإنهم غير منقوصين".

عن مجاهد: "{إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، ثم استثنى فقال: إلا من آمن".

قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} [العصر: ٣]، أي:"وأوصى بعضهم بعضًا بالاستمساك بالحق".

=

=

قال سهل:"أي: بالله ﷻ".

قال مقاتل:"يعني: بتوحيد الله ﷻ".

قال الطبري:"يقول: وأوصى بعضهم بعضا بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه، من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه".

قال ابن كثير:"وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات".

عن الحسن، وقتادة: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}، قالا: "الحق: كتاب الله".

قال كعب:"الحق هو الله ﷻ، والإيمان به".

قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣]، أي:"والعمل بطاعة الله، والصبر على ذلك".

قال الطبري:"يقول: وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على العمل بطاعة الله".

قال ابن كثير: أي:"على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر".

قال مقاتل:"يعني: على أمر الله ﷻ، فمن فعل هذين كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فليسوا من الخسران في شيء، ولكنهم في الجنان مخلدون".

عن الحسن، وقتادة: "{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، قالا: "الصبر: طاعة الله".

قال كعب:"على فرائض الله وحكمه".

عن محمد بن كعب:"ثم استثنى فقال: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا}، ثم لم يدعهم وذلك حتى قال: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَات}، ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ}، ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْر} يشترط عليهم".

عن إبراهيم النَّخْعي، قال: "قراءتنا: (والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * وإنَّهُ لَفِيهِ إلى ءاخِرِ الدَّهْرِ * إلّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ). قال: هي مثل التي في

=

=

«التين والزيتون» [٤- ٦]: {لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أسْفَلَ سافِلِينَ إلّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ}".

قال ابن عطية:"ومن كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر والعمل بحسب الوصاة فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله".

قال الشَّافِعِي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة، لكفتهم... وقال: الناس في غفلة عن هذه السورة: {وَالعَصر..}".

عن علي بن رفاعة، عن أبيه رفاعة، قال: "حججت فوافيت علي بن عبد الله بن عباس يخطب على منبر رسول الله ﷺ فقرأ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ١- ٢]: أبو جهل ابن هشام {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}: أبو بكر الصديق. {وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ}: عمر بن الخطّاب. {وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ}: عثمان بن عفّان. {وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ}: علي بن أبي طالب".

قيل لسهل التستري: "ما الصبر؟ قال: لا عمل أفضل من الصبر، ولا ثواب أكبر من ثواب الصبر ولا زاد إلا التقوى، ولا تقوى إلا بالصبر، ولا معين على الصبر لله إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

قيل: الصبر من الأعمال؟ قال: نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه.

قيل: ما أجل الصبر؟ قال: أجله انتظار الفرج من الحق.

قيل: فما أصل الصبر؟ قال: مجاهدة النفس على إقامة الطاعات وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها.

قيل: والناس في الصبر كيف هم؟ قال: الناس في الصبر صنفان: فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا منها ما تشتهي أنفسهم، فهو الصبر المذموم، وصنف يصبرون للآخرة طلبًا لثواب الآخرة وخوفًا من عذابها.

=

قيل: فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع؟ قال: الصبر للآخرة له أربع مقامات: فثلاث منها فرض، والرابع فضيلة: صبر على طاعة الله ﷻ وصبر على معصيته وصبر على المصائب من عنده. أو قال: صبر على أمر الله ﷻ، وصبر على نهيه، وصبر على أفعال الله ﷻ، فهذه ثلاث مقامات منه، وهي فرض، والمقام الرابع فضيلة وهو الصبر على أفعال المخلوقين. قال الله تعالى: {وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [النحل: ١٢٦]، الآية، كم بالمثل وفضل الصبر، ثم قال: {وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} [النحل: ١٢٧]، ولا يعين عليه إلا هو.

ولقد لحق رجل بأويس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسمعه يقول: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة وبدن عاري، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني، وليس شيء من الدنيا إلا ما على ظهري. قال: وعلى ظهره خريقة قد تردى بها".

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك إقسامه- سبحانه- بـ "العصر" على حال الإنسان في الآخرة، وهذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم، حتى قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم".

و"العصر" المقسم به:

قيل: هو الوقت الذي يلي المغرب من النهار.

وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته.

وقيل: المراد صلاة العصر.

وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح.

وتسمية "الدهر" عصرا أمر معروف في لغتهم، قال:

ولن يلبث العصران: يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمما و"يوم وليلة" بدل من: العصران.

=

فأقسم- سبحانه- بـ "العصر" لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم، منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان وسكونه، وانقسام "العصر" إلى: القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها = آية من آيات الرب- تعالى- وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بـ "العصر" الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم- وجعلها قسمين: خيرا وشرا- تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان: خاسر، إلا من رَحِمَهُ اللَّهُ، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به. وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثنائه الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: {إن الإنسان لفي خسر (٢)} ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)}. ولما قال: {ثم رددناه أسفل سافلين (٥)} وسع الاستثناء وعممه، فقال: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} ولم يقل: {وتواصوا}؛ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره به، فإن الأمر

=

=

بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة؛ وقد يكون فرضا على الأعيان، وقد يكون فرضا على الكفاية، وقد يكون مستحبا.

و"التواصي بالحق" يدخل فيه: الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

و"الصبر" يدخل فيه: الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء، وهو- سبحانه- إنما قال: {إن الإنسان لفي خسر (٢)}، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه: في خسر، وأنه: ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "لقد فرطنا في قراريط كثيرة"، فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة "والتين": {ثم رددناه أسفل سافلين (٥)} قال: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات}، فقسم الناس في هذين القسمين فقط.

ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم، وقوة العمل. وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره = استثنى- سبحانه- من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به؛ من الإنسان الذي هو في خسر.

فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره.

وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

=

=

[ف] انتظمت هذه الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالى: {وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)} إرشاد إلى منصب الإمامة في الدين، كقوله تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤)} [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

و"الصبر" نوعان:

نوع بالمقدور، كالمصائب.

ونوع بالمشروع. وهذا النوع- أيضا- نوعان:

١- صبر على الأوامر.

٢- وصبر عن المناهي.

فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من "الصبر" فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واحتساب، كما قال النبي ﷺ في حق ابنته: "مرها فلتصبر ولتحتسب"، وقال تعالى: {إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (١١)} [هود: ١١]، وقال تعالى: {بلى إن تصبروا وتتقوا} [آل عمران: ١٢٥]، وقال تعالى: {وإن تصبروا وتتقوا} [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

وقال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)} [الروم: ٦٠]، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر؛

=

فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم، وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين لما خفوا، ولما استخفوا.

فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف.

فالموقن الصابر رزين ملآن، ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان ا.هـ

(فائدة): إقسام الله ﷻ بالوقت والزمان يدل على أهميته، لأن الوقت هو عمر الإنسان ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

بقول تعالى في مقام الامتنان، وبيان عظيم فضل الله على الإنسان: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ).

ويقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً). وأقسم الله به في مطالع سور عديدة:

قال تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى). وقال تعالى: (وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ).

وقال ﷺ: (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه...).

وقال النبي ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك). رواه الحاكم

- والوقت من خصائصه

أولاً: أنه سريع الانقضاء.

=

فهو يمر مرّ السحاب، ويجري جري الريح، ومهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير، ما دام الموت هو نهاية كل حي، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

وإذا كان آخر العمر موتـًا... فسواءٌ قصيره والطويل

يحكى عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام أنه جاءه ملك الموت ليتوفاه بعد أكثر من ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده، فسأله: كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

ثانيـًا: والوقت ما مضى منه لا يعود ولا يعوض.

فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها.

ولذلك قال الحسن: ما من يوم ينشق فجره، إلا وينادي: يا ابن آدم! أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

ويقول الشاعر:

وما المرء إلا راكب ظهر عمره... على سفر يفنيه باليوم والشهر

يبيت ويضحي كل يوم وليلة... بعيداً عن الدنيا قريبـًا إلى القبر

- وفي موضعين يندم الإنسان على تفريطه في وقته:

الأول: عند الاحتضار.

قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحـًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

والثاني: عند دخول النار.

قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحـًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ).

=

=

وينبغي الحذر من الآفات القاتلة للوقت، وهي: الغفلة.

وقد حذر القرآن منها، حتى إنه ليجعل أهلها حطب جهنم، قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).

والتسويف.

قيل لرجل من عبد القيس: أوصنا؟ قال: احذروا سوف.

وقال آخر: سوف جند من جنود إبليس.

دعا أحد الأمراء رجلاً صالحاً إلى الطعام، فاعتذر بأنه صائم، فقال الأمير: أفطر وصم غداً، قال: وهل تضمن لي أن أعيش إلى الغد؟

تزود من التقى فإن لا تدري... إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر

فكم من سليم مات من غير علة... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى يُمسي ويُصبح ضاحكاً... وقد نُسجت أكفانُه وهو لا يدري

قال الحسن: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما.

وقيل: من علامة المقت إضاعة الوقت.

وقيل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقال ابن مسعود: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

مرّ العبد الصالح عامر بن عبد قيس على مجموعة من الناس وهم يتحدثون، فقالوا له: اجلس معنا، فقال لهم: أمسكوا الشمس عن المسير.

=

=

وكان داود الطائي يشرب الفتيت (الخبز المبلول بالماء) ولا يأكل الخبز الجاف بدون فتٍ، فقالت له مولاته: أما تشتهي أكل الخبز؟ فقال لها: لقد وجدت بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قدر خمسين آية.

وقال الخليل بن أحمد: أثقل الساعات عليّ ساعةٌ آكل فيها.

قال ابن القيم: وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية، في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم.

وقال الحسن: يا ابن آدم! إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك.

وقال: ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلا وهو يقول: يا ابن آدم، أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد، وإذا ذهبتُ عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئت.

وقال الشافعي: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: إحداهما: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، والأخرى: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقال شعبة: لا تقعدوا فارغين فإن الموت يطلبكم.

تنبيه: ذهب بعض العلماء: إلى أن المراد بالعصر هو الوقت المعروف آخر النهار قبل غروب الشمس.

لأنه المراد عند الإطلاق في الأدلة الشرعية، فإن لفظ العصر المذكور بالأحاديث النبوية يراد به هذه الوقت ولا يراد به الزمان والدهر.

فيكون تفسير الآية بالمعهود المعروف من الخطاب.

(فائدة): قال ابن القيم: قال الشافعي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم، وبيان ذلك أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

=

سورة الهمزة(١)

=

فذكر تعالى الأربعة في هذه السورة.

وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر، (إلا الذين آمنوا) وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، فهذه مرتبة. (وعملوا الصالحات) وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه أخرى. (وتواصوا بالحق) وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً، فهذه ثالثة. (وتواصوا بالصبر) صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر وعلى الثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكملاً لغيره.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسارة وفاز بالربح العظيم.

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بلا خلاف".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

قال أبو حيان:"هذه السورة مكية".

قال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق".

* آياتها تسع إجماعاً. وكلماتها ثلاث وثلاثون. وحروفها مائة وثلاثون. فواصل آياتها على الهاءِ. * تسمى «سورة الهمزة» سميت هذه السورة في المصاحف ومعظم التفاسير : «سورة الهمزة» بلام التعريف، ووجه تسميتها لافتتاحها بقوله تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١].

وقد ورد هذا الاسم بلفظ «الهماز»، وذلك في سورة «القلم»، قال تعالى: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١].

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١).

{وَيْل} كَلِمَة عَذَاب أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّم {لِكُلِّ هُمَزَة لُمَزَة} أَيْ كَثِير الْهَمْز وَاللَّمْز أَيْ الْغِيبَة نَزَلَتْ فِيمَنْ كَانَ يَغْتَاب النَّبِيّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ كَأُمَيَّة بْن خَلَف

=

وتسمى سورة «ويل لكل همزة» وبهذا الاسم عنونها في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير.

وهي تسمية لها بأول جملة فيها، قال تعالى:: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١].

وتسمى سورة «الحطمة» ذكر الفيروزآبادي أنها تسمى «سورة الحطمة» لوقوع هذه الكلمة فيها، وذلك في قوله تعالى: {كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ} [الهمزة: ٤- ٥].

وقد سميت في إحدى المصاحف، سورة: «اللمزة»، ولم أجد هذه التسمية عند المفسرين، كما لم أقف على أحاديث تثبت هذه الأسماء بأنها توقيفية.

* معظم مقصود السّورة: عقوبة العَيّاب المغتاب، وذمّ جَمْع الدّنيا ومنعه وبيان صعوبة العقوبة فى قوله: {فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ}.

* ومن المتشابه: (الذى جمع) فيه اشتباه ويحسن الوقف على (لُمَزة) حيث لم يصلح أن يكون (الذى) وصفا له، ولا بدلاً عنه. ويجوز أن يكون رفعًا بالابتداءِ (يحسب) خبره، ويجوز أن يرفع بالخبر أى هو الذى جَمَع. ويجوز أن يكون نصبًا على الذمّ، بإِضمار أَعنى ويجوز أن يكون جَرًا بالبدل من قوله: (كلّ) بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَالْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة وَغَيْرهمَا.

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢).

{الَّذِي جَمَعَ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {مَالًا وَعَدَّدَهُ} أَحْصَاهُ وَجَعَلَهُ عُدَّة لِحَوَادِث الدَّهْر.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣).

{يَحْسَب} لِجَهْلِهِ {أَنَّ ماله أَخْلَدَهُ} جَعَلَهُ خَالِدًا لا يموت.

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤).

{كَلَّا} رَدْع {لَيُنْبَذَنَّ} جَوَاب قَسَم مَحْذُوف أَيْ لَيُطْرَحَنَّ {فِي الْحُطَمَة} الَّتِي تُحَطِّم كُلّ مَا ألقي فيها.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا الْحُطَمَة}.

نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦).

{نَار الله الْمُوقِدَة} الْمُسَعَّرَة.

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧).

{الَّتِي تَطَّلِع} تُشْرِف {عَلَى الْأَفْئِدَة} الْقُلُوب فَتُحْرِقهَا وَأَلَمهَا أَشَدّ مِنْ أَلَم غَيْرهَا لِلُطْفِهَا.

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨).

{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ} جَمَعَ الضَّمِير رِعَايَة لِمَعْنَى كُلّ {مُؤْصَدَة} بِالْهَمْزِ وَبِالْوَاوِ بَدَله مُطْبَقَة.

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩).

{فِي عَمَد} بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَبِفَتْحِهِمَا {مُمَدَّدَة} صِفَة لما قبله فتكون النار

داخل العمد[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت هذه الآية في أصحاب محمد: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)}، قال ابن عمر: ما عنينا بها ولا عنينا بعشر القرآن.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن ابن إسحاق عن عثمان بن عمر؛ قال: ما زلنا نسمع أن {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ} ليست بحاجبة لأحد، نزلت في جميل بن عامر، زعم الرقاشي.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٢٣) ونسبه لابن أبي حاتم، لكن ذكر في "لباب النقول" (ص ٢٣٤): أن ابن أبي حاتم أخرجه عن عثمان وابن عمر قالا: ما زلنا نسمع أن {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ} نزلت في أبيّ بن خلف.

وعن السدي؛ قال: نزلت في الأخنس بن شريق.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٤)، و"الدر المنثور" (٨/ ٦٢٣) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن رجل من أهل الرقة؛ قال: نزلت في جميل بن عامر الجمحي.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ١٨٩) بسند صحيح إلى ابن أبي نجيح عنه به. وهو ضعيف.

وعن ابن إسحاق؛ قال: كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه؛ فأنزل الله ﷻ: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)} السورة كلها.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٤، ٢٣٥) ونسبه لابن المنذر. وهذا معضل.

* قوله تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١]

أي: شر وهلاك لكل مغتاب للناس، طعان فيهم.

=

=

اختلف أهل التفسير في معنى: «الويل»، على أقوال:

أحدها: أنه العذاب، قاله ابن عباس، وبه قال الزجاج.

وحكي الماوردي: أنه أشق العذاب".

الثاني: أنه التقبيح، وهو قول الأصمعي، ومنه قوله تعالى: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]، ومنه قول الشاعر :

كَسَا اللُّؤْمُ تَيْمـًا خُضْرةً فِي جُلودِها... فَوَيْلًا لِتَيْمٍ مِنْ سَرابِيلِها الخُضْرِ

الثالث: أنه الحزن، قاله المفضل، وابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قول الشاعر :

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

وقال ابن عطية:"«وَيْلٌ»: لفظ يجمع الشر والحزن".

الرابع: أنه الخزي والهوان. حكاه الماوردي.

الخامس: أن "الويل": وادٍ في جهنم، وهذا قول أبي سعيد الخدري، وعطاء بن يسار.

السادس: أنه جبل في النار، وهو قول عثمان بن عفان.

السابع: أنها كلمة تقال لمن وقع في هلكة يستحقها، وأصله: الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومنه قوله تعالى: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ} [الكهف: ٤٩].

قال سيبويه : (ويح) كلمة زجر لمن أشرف على هلكة، و (ويل) لمن وقع فيها.

الثامن: أن «ويل»: كلمة وعيد. قاله الكوكباني.

وهي: الويل والويلة، وهما: الهلكة، والجمع: الويلات، قال الشاعر :

لَهُ الوَيْلُ إنْ أمْسَى وَلا أُمُّ هَاشِمٍ... قرِيبٌ وَلا البَسباسَةُ ابنةُ يَشكُرَا

=

=

وقال أيضا :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ... فَقَالَتْ: لَكَ الوَيْلاَتُ!، إِنَّكَ مُرْجِلِي

التاسع: أنه باب من أبواب جهنم. حكاه الزهراوي.

العاشر: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

الحادي عشر: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض، وشقيق.

وقال الطبري:"الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم".

اختلف في تفسير قوله تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: ١]، على أقوال:

أحدها: أن الهُمَزَة: المُغْتَاب، واللُّمَزَة: العيَّاب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وبه قال الطبري، ومنه قول زياد الأعجم :

إذا لقيتُك عن شحط تُكاشرُني... وإن تَغَيَّبْتُ كنت الهامِزَ اللُّمزَهْ

قال الطبري:"يقول: لكل مغتاب للناس، يغتابهم ويبغضهم، ويعني باللمزة: الذي يعيب الناس، ويطعن فيهم".

قال أبو الجوزاء:"قلت لابن عباس: من هؤلاء هم الذين بدأهم الله بالويل؟ قال: هم المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون أكبر العيب".

عن ابن عباس، قوله: "{هَمَّازٍ} [القلم: ١١]، يعني: الاغتياب".

عن ابن عباس: "{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}، قال: ويل لكلّ طعان مغتاب".

قال ابن عباس:"هو المشاء للنميمة والمفرق بين الجمع المغري بين الإخوان".

قال قتادة:"أما الهمزة: فأكل لحوم الناس، وأما اللمزة: فالطعان عليهم".

قال مجاهد:"الهمزة: يأكل لحوم الناس، واللمزة: الطعان".

وقال مجاهد-في رواية-:"الهمزة: الطعان، واللمزة: الذي يأكل لحوم الناس".

عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: "{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}، قال: أحدهما الذي يأكل لحوم الناس، والآخر الطعان".

=

=

الثاني: أن الهُمَزَة: الذي يهمز في وجهه إذا أقبل. واللُّمَزَة: يِلْمِزُه إذا أدبر عنه، قاله الحسن، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والربيع بن أنس، ومنه قول حسان :

همزتك فاخْتَضَعْتَ بذُلَّ نفْسٍ... بقافيةٍ تأَجج كالشُّواظِ

قال الربيع بن أنس: الهُمَزة، يهمزه في وجه، واللمزة من خلفه".

وقال مقاتل: «الهمزة»: يعني: الطعان المغتاب الذي إذا غاب عنه الرجل اغتابه من خلفه، «لمزة»: يعني: الطاغي، إذا رآه طغى عليه في وجهه".

الثالث: أن الهُمَزَة: الطعَّان في الناس، واللُّمَزَة: الطعَّان في أنساب الناس، قاله مجاهد.

الرابع: أن الهُمَزَة: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللُّمَزَة: الذي يَلْمِزهم بلسانه ويعيبهم، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"الهماز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، وليس باللسان، وقرأ: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} الذي يلمز الناس بلسانه".

قال ابن زيد:"الهمزة: الذي يهمز الناس بيده، ويضربهم بلسانه، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم".

الخامس: أن الهمز: باليد والعين، واللمز: باللسان، وقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ}، [التوبة: ٥٨]. وهذا قول مجاهد، وابن أبي نجيح.

قال مجاهد: "الهمزة باليد، واللمزة باللسان".

وحكي ابن الجوزي عن قتادة:"أن الهُمَزَة: بالعين، واللُّمَزَة: باللسان".

السادس: أن الهُمَزَة: الذي يعيب جهراً بيد أو لسان، واللُّمَزَة: الذي يعيبهم سراً بعين أو حاجب، قاله عبد الملك بن هشام. قال رؤبة :

قَارَبْتُ بَيْنَ عَنَقِي وَجَمْزِي... فِي ظِلِّ عَصْرَيْ بَاطِلِي وَلَمْزِي

=

=

وحكي الثعلبي عن ابن كيسان: أن" الهمزة: الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير برأسه، ويومض بعينه، ويرمز بحاجبه، وهما لغتان للفاعل نحو سخرة وضحكة للذي يسخر ويضحك من الناس".

السابع: أن الهُمَزَة: الذي يهمز بلسانه، واللُّمَزَة: الذي يلمز بعينه، قاله سفيان الثوري.

الثامن: أن الهُمَزَة: الذي ينم الكلام إلى الناس، وهو: النمام، واللُّمَزَة: هو الذي يلقب الرجل بما يكره. قاله مقاتل.

التاسع: أن الهمزة: الذي يقول ما في الإنسان، واللّمزة: الذي يقول ما ليس فيه. قاله القشيري.

قال ابن كثير:"الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم".

قال ابن عطية:"صفتان تتلازم، قال الله تعالى: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١]، قيل لأعرابي: «أتهمز إسرائيل،» فقال: إني إذا لرجل سوء، حسب أنه يقال له: أتقع في سبه، و «اللمزة» قريب من المعنى في الهمزة، قال الله تعالى: {وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: ١١]".

قال الشيخ ابن عثيمين: فالهمز: بالفعل. واللمز: باللسان، كما قال الله تعالى (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون). فالهمز بالفعل يعني أنه يسخر من الناس بفعله إما أن يلوي وجهه، أو يعبس بوجهه. أو بالإشارة يشير إلى شخص، انظروا إليه ليعيبه أو ما أشبه ذلك، فالهمز يكون بالفعل، واللمز باللسان.

كما قال تعالى: (وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ).

=

=

قال ابن جزي: قوله (ويْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَة) هو على الجملة الذي يعيب الناس ويأكل أعراضهم، واشتقاقه من الهمز واللمز، وصيغة فعلة للمبالغة، واختلف في الفرق بين الكلمتين فقيل: الهمز في الحضور، واللمز في الغيبة، وقيل: بالعكس. وقيل: الهمز باليد والعين، واللمز باللسان، وقيل: هما سواء. ونزلت السورة في الأخنس بن شريق لأنه كان كثير الوقيعة في الناس وقيل: في أمية بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة. ولفظها مع ذلك على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات.

فالآية عامة في كل من اتصف بهذه الصفة.

وقرأ ابن مسعود والأعمش والحسن: «ويل الهمزة اللمزة»، وهذا البناء الذي هو «فعلة»، يقتضي المبالغة في معناه.

واختلفوا فيمن نزلت فيه، على أقوال:

أحدها: في أُبي بن خلف، قاله عمار.

الثاني: أميّة بن خلف، قاله ابن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق بن مسار: "ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أميّة بن خلف الجمحي".

الثالث: في جميل بن عامر الجمحي، قاله مجاهد، وعثمان بن عمر، وحكاه ابن أبي نجيح.

عن ابن إسحاق عن عثمان بن عمر قال: ما زلنا نسمع أن ويل لكل همزة قال: ليست بحاجبة لأحد، نزلت في جميل بن عامر".

وقال ورقاء:"ليست بخاصة لأحد، نزلت في جميع بني عامر؛ قال ورقاء: زعم الرقاشي".

الرابع: في الأخنس بن شريق الثقفي، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السّدّيّ، وابن السّائب.

=

=

وقال الكلبي: "نزلت في الأخنس بن شريق ووهب بن عمرو الثقفي وكان يقع في الناس ويغتابهم مقبلين ومدبرين".

الخامس: في الوليد بن المغيرة، قاله ابن جريج، ومقاتل.

قال مقاتل: نزلت في الوليد ابن المغيرة المخزومي، كان يغتاب النبي -ﷺ- إذا غاب، وإذا رآه طغى في وجهه".

السادس: العاص بن وائل السّهمي، قاله عروة.

السابع: أنها نزلت في مشرك كان يلمز الناس ويهمزهم. قاله ابن عباس.

قال الفراء:"وإنما نزلت في رجل واحد كان يهمز الناس، ويلمزهم: يغتابهم ويعيبهم، وهذا جائز في العربية أن تذكر الشيء العام وأنت تقصد قصد واحد من هذا وأنت قائل في الكلام عند قول الرجل: لا أزورك أبدا، فتقول أنت: كل من لم يزرني فلست بزائره، وأنت تريد الجواب، وتقصد قصده، وهي في قراءة عبد الله: «ويل للهمزة اللمزة»".

الثامن: أنها مرسلة على العموم من غير تخصيص، وهذا مروي عن مجاهد، وحكاه الماوردي عن الأكثرين.

قال الشوكاني:"الآية تعم كل من كان متصفا بذلك، ولا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

قال الزمخشري:"يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه".

قال ابن عطية:"هي تتناول كل من اتصف بهذه الصفات".

عن مجاهد:"{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}، قال: ليست بخاصة لأحد".

=

=

قال ابن عمر: "نزلت هذه الآية في أصحاب محمد: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}، قال ابن عمر: ما عنينا بها ولا عنينا بعشر القرآن".

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن الله عمّ بالقول كلّ همزة لمزة، كلّ من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها، سبيله سبيله كائنا من كان من الناس".

* الغيبة مرض عضال، تذهب الحسنات، وتسبب الشحناء والخصومات، وتفرح الشيطان.

وقد عرفها النبي ﷺ بقوله: (الغيبة ذكرك أخاك بما يكره). رواه مسلم

فكل قول أو فعل ذكرته في أخيك وهو يكرهه، وهو غائب فإنه غيبة.

كأن يتكلم فيه بجرح وذم، أو يقلده في حركاته ومشيه مستهتراً به.

لقد جاءت النصوص الكثيرة التي تدل على حرمة الغيبة وأنها من الكبائر:

قال تعالى: (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ).

وقال تعالى: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً).

وقال النبي ﷺ: (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال). رواه أبو داود

[ردغة الخبال: عصارة أهل النار من صديد وقيح والعياذ بالله]

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله فيكلح ويصيح). رواه أبو يعلى وابن حبان بسند صحيح

=

=

وقال ﷺ : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا). متفق عليه

فاحذروا الغيبة معاشر المسلمين:

فالغيبة تأكل الحسنات.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون ما المفلس" قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار". رواه مسلم

وهي من أسباب عذاب القبر.

كما جاء في حديث ابن عباس قال: (مر النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة) وجاء في رواية (بالغيبة).

وهي ذنب عظيم كبير.

عن عائشة قالت: (قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: يعني قصيرة، فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته). رواه أبو داود

وهي من أسباب دخول النار.

كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب).

وفي رواية: (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه). رواه مالك

وهي سبب للعذاب قبل الآخرة.

=

كما في حديث عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ : (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم).

قال ﷺ : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه، يتبع الله عورته، حتى يفضحه في بيته).

قال يحي بن معاذ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

واغتاب رجل عند معروف الكرخي فقال له: اذكر القطن إذا وضع على عينيك.

وقيل للربيع بن خثيم: ما نراك تغتاب أحدا؟ فقال: لست عن نفسي راضيا فأتفرغ لذم الناس.

وقال الإمام مالك: أدركت بهذه البلدة- يعني المدينة- أقواما ليس لهم عيوب فعابوا الناس فصارت لهم عيوب، وأدركت بهذه البلدة أقواما كانت لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم.

ذكر أن عيسى قال لأصحابه: أرأيتم لو أديتم على رجل نائم، قد كشف الريح عن بعض عورته، كنتم تسترون عليه؟ قالوا: نعم. قال: بل كنتم تكشفون البقية، قالوا: سبحان الله!! كيف نكشف البقية؟ قال: أليس يذكر عندكم الرجل فتذكرونه بأسوأ ما فيه؟ فأنتم تكشفون بقية الثوب عن عورته.

قوله تعالى: {الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ} [الهمزة: ٢].

أي: من صفة هذا الهماز اللماز، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك.

=

قال الطبري:"يقول: الذي جمع مالا وأحصى عدده، ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يؤد حق الله فيه، ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه".

قال ابن كثير:"أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده، كقوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [المعارج: ١٨]".

قال ابن عطية:"معناه: أحصاه وحافظ على عدده وأن لا ينتقص، فمنعه من الخيرات ونفقة البر".

عن السدي: {جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ}، قال: أحصاه".

وقال محمد بن كعب في قوله: {جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ}:"ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة".

وقال مقاتل:"يقول: الذي استعد مالا، ليشتري به الخدم والحيوان".

وقال الضحاك: "أعد ماله لمن يرثه".

قال الزجاج:"وعدده للدهور".

قال ابن الشوكاني:"قيل المعنى: فاخر بكثرته وعدده، والمقصود ذمه على جمع المال، وإمساكه وعدم إنفاقه في سبيل الخير، يقال: أعددت الشيء وعددته: إذا أمسكته".

قال الشوكاني أيضا :"وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره".

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي والحسن وأبو جعفر: «جمّع»، بشدة الميم، والباقون بالتخفيف، وقرأ الحسن: «وعدده» بتخفيف الدالين، فقيل المعنى جمع مالا وعددا من عشرة، وقيل أراد عددا مشددا فحل التضعيف، قال ابن عطية:"وهذا قلق".

=

=

قال الزجاج:"ومن قرأ «وعدده «»، فمعناه: جمع مالا وعددا، أي: وقوما أعدهم نصارا".

قال الزمخشري:"وقرئ: «وعدده»، أي: جمع المال وضبط عدده وأحصاه. أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه، من قولك: فلان ذو عدد وعدد: إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم".

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط).

قال الرازي: وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيتنقص غيره.

قوله تعالى: {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} [الهمزة: ٣].

أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار، ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

قال الطبري:"يقول: يحسب أن ماله الذي جمعه وأحصاه، وبخل بإنفاقه، مخلده في الدنيا، فمزيل عنه الموت".

قال مقاتل: أي:"من الموت، فلا يموت حتى يفنى ماله".

قال ابن كثير:"أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟".

قال ابن عطية:"يحسب أن ماله هو معنى حياته وقوامها، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه".

قال الزجاج:"أي: يعمل عمل من لا يظن مع يساره أنه يموت".

عن عكرمة: {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}، قال: يزيد في عمره".

=

=

قال الزمخشري:"أي: طوّل المال أمله، ومناه الأماني البعيدة، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أنّ المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت. أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض: عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا. أو هو تعريض بالعمل الصالح. وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فأما المال فما أخلد أحدا فيه".

وروى:"أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار. وقيل: عشرة آلاف".

وعن الحسن: أنه عاد موسرا، فقال: ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم، ولا تفضلت على كريم؟ قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزمان، وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر. قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك، وترد على من لا يعذرك".

قال الرازي: يحتمل أن يكون المعنى طول المال أمله، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله؛ يحسب أن ماله تركه خالدا في الدنيا لا يموت، وإنما قال: (أخلده) ولم يقل: يخلده، لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت، وكأنه حكم قد فرغ منه، ولذلك ذكره على الماضي.

قوله تعالى: {كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ} [الهمزة: ٤].

(كلا) أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب (لينبذن في الحطمة) اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لينبذن في الحطمة، أي ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة وهي اسم من أسماء النار لأنها تحطم من فيها.

والنبذ الإلقاء على سبيل الإهانة، فلم ينفعه ماله الذي كان يجمعه ويعدده ويظن أنه سيخلده، بل صار زاده إلى النار.

قوله تعالى: {كَلَّا} [الهمزة: ٤]، أي:"ليس الأمر كما ظن".

قال مقاتل:"كلا لا يخلده ماله وولده".

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ما ذلك كما ظنّ، ليس ماله مخلِّده".

قال ابن كثير: "أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب".

عن عمر ابن عبد الله مولى غفرة: "إذا سمعت الله سبحانه يقول: {كَلَّا}، فإنما يقول: كذبت".

قوله تعالى: {لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ} [الهمزة: ٤]، أي: "ليُطرحنَّ في النار التي تهشم كل ما يُلْقى فيها".

قال مقاتل: "ليتركن في الحطمة".

قال الطبري: "ليُقذفنّ يوم القيامة في الحطمة".

قال ابن كثير: "أي: ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة".

قال الزجاج: "أي: يرمى به في النار".

عن السدي: {كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ}، قال: ليلقين".

قال الرازي: "وإنما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة؛ لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة.

قال ابن عاشور: والنبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره".

وفي تفسير «الحطمة» -هاهنا-، أقوال:

أحدها: أنه اسم باب من أبواب جهنم، قاله الحسين بن واقد.

وقال الكلبي: "هو الباب السادس".

الثاني: أنه اسم درك من أدراك جهنم، وهو الدرك الرابع، قاله الضحاك.

الثالث: أنه اسم من أسماء جهنم، قاله ابن زيد، والفراء، والطبري.

قال الأعمش: "أسماء أبواب جهنم: الحطمة، والهاوية، ولظى، وسقر، والجحيم والسعير، وجهنم، والنار هي جماع".

=

=

عن ابن عباس في قوله: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} [الحجر: ٤٤]، قال: "جهنم، والسعير، ولظى والحطمة، وسقر، والجحيم، والهاوية، وهي أسفلها".

وقال عكرمة:"لها سبعة أطباق".

عن حطان بن عبد الله، قال: "قال عليّ: تدرون كيف أبواب النار؟ قلنا: نعم كنحو هذه الأبواب، فقال: لا ولكنها هكذا، فوصف أبو هارون أطباقا بعضها فوق بعض، وفعل ذلك أبو بشر".

قال علي:"أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، وأشار بأصابعه على الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث حتى تملأ كلها".

عن هبيرة، عن عليّ، قال: "أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تمتلئ كلها".

وفي تسميتها بـ «الحطمة»، وجهان:

أحدهما: لأنها تأكل كل شيء. يقال: رجل حطمة، أي: أكول.

قال محمد بن كعب:"تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده ابتدى خلقه".

قال مقاتل: "وذلك أن الشقي إذا دخل النار طاف به الملك في أبوابها في ألوان العذاب وفتح له باب الحطمة وهي باب من أبواب جهنم، وهي نار تأكل النار من شدة حرها، وما خمدت من يوم خلقها الله ﷻ إلى يوم يدخلها، فإذا فتح ذلك الباب وقعت النار عليه فأحرقته، فتحرق الجلد واللحم والعصب والعظم".

قال الطبري:"الحطمة: اسم من أسماء النار، كما قيل لها: جهنم وسقر ولظى، وأحسبها سميت بذلك لحطمها كلّ ما ألقي فيها، كما يقال للرجل الأكول: الحطمة".

قال ابن كثير:"الحطمة: هي اسم من أسماء النار صفة؛ لأنها تحطم من فيها".

=

=

قال الأزهري:"أخبرني المنذري عن الحراني عن ابن السكيت: يقال: رجل حطمة إذا كان كثير الأكل".

وقال أبو زيد: "يقال للنار الشديدة: حطمة".

قال الأزهري:"ويقال أيضا: رجل حطمة، للكثير الأكل، ورجل حطم وحطمة أيضا، إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض. وفي المثل: «شر الرعاء الحطمة». وقال الراجز :

قد لفها الليل بسواق حطم".

الثاني: لأنها تحطم ما أُلقي فيها، أي: تكسره وتهده، ومنه قول الراجز :

إنا حَطْمنا بالقضيب مُصْعَبا... يومَ كَسَرنا أَنْفَه ليَغْضَبا

قال ابن الجوزي:"هو اسم من أسماء جهنم. سميت بذلك لأنها تحطم ما يُلقى فيها، أي: تكسره، فهي تكسر العظم بعد أكلها اللحم. ويقال للرجل الأكول: إنه لَحُطَمة".

وقرأ أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أبي عبلة، وابن محيصن: «لَيُنْبَذَانِّ فِي الحُطَمَة» بألف ممدودة، وبكسر النون، وتشديدها، أي: هو وماله.

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ} [الهمزة: ٥]

أي: تفخيم وتهويل وتعظيم لشأنها، وما أدراك -أيها الرسول- ما حقيقة النار؟

قال الطبري:"يقول: وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة".

قال مقاتل: "تعظيما لها".

قال سفيان بن عيينة: كل شيء، قال: {وما أدراك}، فإنَّه أخبره به، وما قال: وما يدريك فإنَّه لم يخبره به".

تفسير الحسن: أي: "أنك لم تكن تدري حتى أعلمتك [ما الحطمة]".

=

=

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن كيّس فطن حذر وقاف ثبت، لا يعجل، عالم ورع، والمنافق همزة لمزة حطمة، لا يقف عند شبهة ولا عند محرم، كحاطب الليل لا يبالي من أين كسب ولا فيما أنفق».

قوله تعالى: {نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ} [الهمزة: ٦]، أي:"إنها نار الله المشتعلة الشديدة اللهب".

قال الزجاج:"هذه نار معدة لهؤلاء الكفار ومن كان مثلهم".

قال مقاتل:"على أهلها لا تَخمد".

قوله تعالى: {الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} [الهمزة: ٧]، أي:"التي من شدة حرها تنفُذ من الأجسام إلى القلوب".

قال الفراء:"يقول: يبلغ ألمها الأفئدة، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد. العرب تقول: متى طلعت أرضنا، وطلعت أرضى، أي: بلغت".

قال الطبري:"يقول: التي يطلع ألمها ووهجها القلوب".

قال الزجاج:"يبلغ ألمها وإحراقها إلى الأفئدة".

قال الزمخشري تدخل [النار] في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه. ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. ومعنى اطلاع النار عليها: أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها".

عن محمد بن كعب: {الَّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ}، قال:"تأكل كلّ شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلغتْ فؤاده ابتُدئ خَلْقُه".

عن محمد بن المُنكَدِر، في قوله: "{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ}، قال: تأكله النار حتى تبلغ فؤادَه وهو حيٌّ".

=

=

قال ثابت البناني:"تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي". وفي رواية:"تأكله إلى فؤاده وهو حيٌّ، لقد تبلغ فيهم العذاب. ثم بكى وأبكى مَن حوله".

قال مقاتل: "فتحرق الجلد واللحم والعصب والعظم ولا تحرق القلب، ولا العين، وهو ما يعقل به ويبصر، فذلك قوله- تعالى-: {الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}، ثم تلا: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّت} [إبراهيم: ١٧]، يقول ليس في جسده موضع شعرة إلا والموت يأتيه من ذلك المكان".

قال الشوكاني:"أي: يخلص حرها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها، وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محل العقائد الزائغة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها، أي: إنهم في حال من يموت وهم لا يموتون. وقيل: معنى تطلع على الأفئدة أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بأمارات عرفها الله بها إنها عليهم".

قال ابن عطية:"«الفؤاد»: القلب، ويحتمل أن يكون المعنى: أنها لا يتجاوزها أحد حتى تأخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته فكأنها متطلعة على القلوب باطلاع الله تعالى إياها".

عن خالد بن أبي عمران يرفعه إلى رسول الله: «إنّ النار تأكل أهلها، حتى إذا اطّلعتْ على أفئدتهم انتهتْ، ثم يعود كما كان، ثم تستقبله أيضًا، فتطّلع على فؤاده، فهو كذلك أبدًا، فذلك قول الله: {نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ}».

قوله تعالى: {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ} [الهمزة: ٨]، أي:"إنها عليهم مطبَقة".

قال الطبري: يقول: "إن الحطمة التي وصفت صفتها عليهم- يعني: على هؤلاء الهمازين اللمازين-: مطبقة".

=

=

وفي قوله تعالى: «مؤصدة»، أقوال:

أحدها: مطبقة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، وابن زيد، والفراء.

قال الزجاج:"معنى {موصدة}: مطبقة، أي: العذاب مطبق عليهم".

قال أبو صالح:"مُطْبَقَة ليس لها أبواب".

عن سعيد بن جبير، قال: "في النار رجل في شعب من شعابها ينادي مقدار ألف عام: يا حنان يا حنان، فيقول رب العزة لجبريل: أخرج عبدي من النار، فيأتيها فيجدها مطبقة، فيرجع فيقول: يا ربّ {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ}، فيقول: يا جبريل فكها، وأخرج عبدي من النار، فيفكها، ويخرج مثل الخيال، فيطرح على ساحل الجنة حتي يُنبت الله له شعرا ولحما ودما".

الثاني: مغلقة -بلغة قريش-، يقولون: آصد الباب إذا أغلقه، قاله ابن عباس- أيضا-، ومجاهد، ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

إن في القَصْر لو دَخَلنْا غَزالاً... مُصْفقاً مُوصَداً عليه الحجابُ

عن عباس:"{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَة}، قال: عليهم مغلقة".

الثالث: مسدودة الجوانب لا ينفتح منها جانب، قاله سعيد بن المسيب.

وقال مقاتل:"فيطبق كل واحدة على صاحبه بمسامير من حديد من نار كأمثال الجبال، فلا يلج فيها روح، «ولا يخرج منها حر النار، ويأكلون من النار ولا يسمع فيها إلا الزفير والشهيق".

وقال مقاتل بن سليمان: "طبقت الأبواب، ثم شدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح، ولا يخرج منها غم آخر الأبد".

=

=

قوله تعالى: {فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ} [الهمزة: ٩]، أي:"في سلاسل وأغلال مطوَّلة؛ لئلا يخرجوا منها".

وفي قوله تعالى: {فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ} [الهمزة: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنها مؤصدة بعمد ممددة، قاله ابن مسعود، وهي في قراءته «بعَمَدٍ ممدّدة».

وعن ابن مسعود، أنه قرأ: {فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}، قال: وهي الأدهم".

الثاني: أنهم معذبون فيها بعُمد محددة، وهي جمع: عمود. قاله قتادة.

عن قتادة: "{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}، قال: عمود يعذبون به في النار".

قال قتادة:"كُنَّا نحدَّث أنها عمد يعذّبون بها في النار".

وقيل: "هي عمد موتّدة على أبوابها ليتأكد أياسهم منها".

الثالث: أن العُمد الممدة: الأغلال في أعناقهم، والمعنى: أدخلهم في عمد، فمدّت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل، فسدّت عليهم بها الأبواب. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"أدخلهم في عمد، فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل، فسدّت بها الأبواب".

وعن ابن عباس: "{فِي عَمَدٍ}، قال: الأبواب".

وعن ابن زيد:"{فِي عَمَدٍ}، من حديد مغلولين فيها، وتلك العمد من نار قد احترقت من النار، فهي من نار {مُمَدَّدَةٍ} لهم".

قال السدي: "من قرأها: «فِي عُمُد»: فهو عمد من نار، ومن قرأها: «فِي عَمَد»: فهو حبل ممدود".

الرابع: أنها قيود طوال في أرجلهم، قاله أبو صالح.

عن أبي صالح: "{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}، قال: القيود الطوال".

الخامس: قيود على قبرهم من نار يعذبون فيها. حكاه السمعاني.

السادس: معناه: في دهر ممدود، أي: لا انقطاع له. قاله أبو فاطمة.

=

سورة الفيل[١]

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: معناه: أنهم يعذّبون بعمد في النار، والله أعلم كيف تعذيبه إياهم بها، ولم يأتنا خبر تقوم به الحجة بصفة تعذيبهم بها، ولا وضع لنا عليها دليل، فندرك به صفة ذلك، فلا قول فيه، غير الذي قلنا يصحّ عندنا، والله أعلم".

قال السمعاني:"وأولى الأقاويل هو أنها مطبقة بعمد، يعني: مسدودة لا يخرج منها غمر، ولا يدخلها روح".

قال الزمخشري:"المعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد، استيثاقا في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة، موثقين في عمد ممدّدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار".

عن أبي جعفر القارئ: "أنه بكى مرة حين قرئت هذه السورة عليه، فقيل له: ما يبكيك يا أبا جعفر؟ قال: أخبرني زيد بن أسلم أن أهل النار لا يتنفسون فذلك أبكاني".

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع الرواة".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

* آياتها خمس إِجماعـاً. وكلماتها ثلاث وعشرون. وحروفها ثلاث وتسعون. فواصل آياتها على اللاَّم.

* تسمى «سورة الفيل» سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير : «سورة الفيل»، ووجه تسميتها بذلك، لذكرها قصة الفيل في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١).

{أَلَمْ تَرَ} اِسْتِفْهَام تَعَجُّب أَيْ اِعْجَبْ {كَيْف فَعَلَ رَبّك بِأَصْحَابِ الْفِيل} هُوَ مَحْمُود وَأَصْحَابه أَبْرَهَة مَلِك الْيَمَن وَجَيْشه بَنَى بِصَنْعَاء كَنِيسَة لِيَصْرِف إِلَيْهَا الْحَاجّ عَنْ مَكَّة فَأَحْدَثَ رَجُل مِنْ كِنَانَة فِيهَا وَلَطَّخَ قِبْلَتهَا بِالْعَذِرَةِ اِحْتِقَارًا بِهَا فَحَلَفَ أَبْرَهَة لَيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَة فَجَاءَ مَكَّة بِجَيْشِهِ عَلَى أَفْيَال الْيَمَن مُقَدَّمهَا مَحْمُود

= فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١]، ولم يذكر لفظ «الفيل» في القرآن الكريم في غير هذه السورة.

وتسمى سورة «ألم تر» و «ألم تر كيف»، و «ألم تر كيف فعل ربك»:

وردت تسميتها في كلام بعض السلف سورة: «ألم تر». وكذلك عنونها البخاري، وبعض المفسرين في كتبهم.

وعنون لها ابن أبي زمنين في تفسيره: «ألم تر كيف».

ووقع تسميتها عند ابن عباس، بالآية الأولى: «ألم تر كيف فعل ربك».

وعنون لها ابن العربي في «أحكام القرآن»: «السورة المنزلة على أصحاب الفيل».

* معظم مقصود السّورة: بيان جزاءِ الأَجانب، ومكرهم، وردُّ كيدهم فى نحرهم، وتسليط أَنواع العقوبة على العصاة والمجرمين، وسوء عاقبتهم بعد حين فى قوله: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}.

* المتشابهات: قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ} أَتى فى مواضع وهذا آخرها. ومفعولاه محذوفان و {كَيْفَ} مفعول {فَعَلَ} لا يعمل فيه ما قبله؛ لأَنه استفهام، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٤).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَحِين تَوَجَّهُوا لِهَدْمِ الْكَعْبَة أَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ مَا قَصَّهُ فِي قَوْله.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢).

{أَلَمْ يَجْعَل} أَيْ جَعَلَ {كَيْدهمْ} فِي هَدْم الْكَعْبَة {فِي تَضْلِيل} خَسَارَة وَهَلَاك.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣).

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيل} جَمَاعَات جَمَاعَات قِيلَ لَا وَاحِد لَهُ كَأَسَاطِير وَقِيلَ وَاحِده أُبُول أَوْ إِبَال أَوْ إِبِّيل كَعُجُولٍ وَمِفْتَاح وَسِكِّين.

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤).

{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل} طِين مَطْبُوخ.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥).

{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول} كَوَرَقِ زَرْع أَكَلَتْهُ الدَّوَابّ وَدَاسَتْهُ وَأَفْنَتْهُ أَيْ أَهْلَكَهُمْ الله تَعَالَى كُلّ وَاحِد بِحَجَرِهِ الْمَكْتُوب عَلَيْهِ اِسْمه وَهُوَ أَكْبَر مِنْ الْعَدَسَة وَأَصْغَر مِنْ الْحِمِّصَة يَخْرِق الْبَيْضَة وَالرَّجُل وَالْفِيل وَيَصِل إِلَى الْأَرْض وَكَانَ هَذَا عَام مولد النبي ﷺ[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١]

أي: ألم يبلغك يا محمد وتعلم علما يقينا كأنه مشاهد بالعين؛ ما ذا صنع الله العظيم بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام.

والاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}، الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم".

=

=

قال مقاتل:" {أَلَمْ تَرَ} ألم تعلم، يا محمد، {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ}، يعني: أبْرَهَة بن الأشرم اليماني، وأصحابه". قال مقاتل: "كان معهم فيل واحد". وقال الضحاك:"كانت الفيلة ثمانية".

قال ابن كثير:"هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وَرَدهم بشر خيبة. وكانوا قوما نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم- يا معشر قريش- على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

قال القرطبي: "والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام؛ أي ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل، أي قد رأيتم، وعرفتم موضع منتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟".

قال ابن عاشور: ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

وثانيهما: أن لا يتخذ منه المشركون غرورا بمكانة لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر).

وقوله: (وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون).

=

=

وفي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١]، وجهان:
أحدهما: ألم تخبر فتعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.
عن السُّدِّيّ: "{أَلَمْ تَرَ}، يعني: ألم تُخبَر".
قال الفراء:"يقول: ألم تخبر عن الحبشة، وكانوا غزوا البيت وأهل مكة".
الثاني: ألم ترَ آثار ما فعل ربك بأصحاب الفيل، لأن النبي ﷺ لم ير أصحاب الفيل.
قال السمعاني:"الفيل: دابة معلومة، ومعنى قوله: {أَلَمْ تَرَ}، أي: ألم تعلم؟ وقيل: ألم تر آثار ما فعل ربك بأصحاب الفيل. وأصحاب الفيل: هم جند من الحبشة أميرهم أبرهة بن الصباح أبو يكسوم وقيل: غيره. غزوا الكعبة، وقصدوا تخريبها وهدمها".
قال سعيد بن جبير:"أقبل أبو يكسوم صاحب الحبشة ومعه الفيل، فلما انتهى إلى الحرم بَرك الفيل، فأبى أن يدخل الحرم، فإذا وُجِّه راجعًا أسرع راجعًا، وإذا أُريد على الحرم أبى، فأُرسل عليهم طيرٌ صغارٌ بيضٌ، في أفواهها حجارة أمثال الحِمَّص، لا تقع على أحد إلا هلك".
قال الحسن البصري: "{كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ} هذا خبر أخبر الله به النبي ﷺ، وذلك أنّ العرب أهل الحَرم هدموا كنيسة للحبشة وهم نصارى، فقال أبْرَهَة بن الصباح: لَنهدمنّ كعبة العرب كما هدموا كنيستنا. وكان أبْرَهَة من أهل اليمن، ملّكته الحبشة عليهم، فبعث بالفيل وبالجنود، فجاء حتى إذا انتهى إلى الحَرم ألقى بجِرانه، فسقط، فوجّهوه نحو منازلهم فذهب يسعى، فإذا وُجِّه نحو الحرم ألقى بجِرانه ولم يتحرّك، وإذا وُجِّه نحو منازلهم ذهب يسعى".
عن قتادة، في قوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ}، قال: "أقبل أبْرَهَة الأشرم بالحبشة ومَن تبعه مِن غُزاة أهل اليمن إلى بيت الله؛ ليهدموه من أجل بِيعةٍ
=

=

لهم أصابها العرب بأرض اليمن، فأقبلوا بفيلهم حتى إذا كانوا بالصِّفاح بَرك، فكانوا إذا وجّهوه إلى بيت الله ألقى بجِرانه إلى الأرض، فإذا وجّهوه قِبل بلادهم انطلق وله هرولة، حتى إذا كانوا بنخلة اليمانية بعث الله عليهم طيرًا أبابيل بيضًا، وهي الكثيرة، مع كلّ طائر منها ثلاثة أحجار؛ حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها، حتى جعلهم الله كعصف مأكول، فنجا أبو يكسوم، فجعل كلمّا قدم أرضًا تساقط بعض لحمه حتى أتى قومه فأخبرهم الخبر، ثم هلك".

عن ابن جريج:" {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ} ، قال: أبو يكسوم جبّار مِن الجبابرة، جاء بالفيل يسوقه معه الجيش؛ ليهدم -زعم- بيت الله من أجل بِيعةٍ كانت هُدمتْ باليمن، فلما دنا الفيل مِن الحَرم ضرب بجِرانه، فإذا أرادوا به الرّجعة أسرع الهرولة".

واختلف في مولده -عليه السلام- من عام الفيل، على أربعة أقوال:

أحدها: أن مولده-عليه السلام- بعد عشر سنوات من عام الفيل.

عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبْزى، قال: "كان بين الفيل وبين رسول الله ﷺ عشر سنين".

الثاني: أن مولده-عليه السلام- بعد ثلاث وعشرين سنة منه.

عن عبيد بن عمير:"كان قبل مولد النبي ﷺ بثلاث وعشرين سنة".

الثالث: أن مولده بعد أربعين سنة من عام الفيل، قاله مقاتل.

الرابع: أنه عام الفيل، وقد ثبت ولادة النبيﷺ في عام يوم الفيل عن غير واحد من الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين-.

عن ابن عباس، قال: "ولد النبي ﷺ، عام الفيل".

قال ابن وهب، عن مالك: "ولد رسول الله ﷺ عام الفيل".

=

=

عن قيس بن مخرمة، قال: "ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، فنحن لدان، ولدنا مولدا واحدا". وفي رواية، قال: "وُلدتُ أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل".

عن أبي الحويرث، قال: "سمعت عبد الملك بن مروان، يقول لقباث بن أشيم الليثي: يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟، فقال: «رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وتنبأ على رأس أربعين من الفيل».

عن محمد بن جُبَير بن مُطعم، قال: وُلِد رسول الله ﷺ عام الفيل، وكانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وبُني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل، وتنبّأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين من الفيل".

عن يعقوب بن عُتبة بن المُغيرة بن الأَخْنَس، قال: "إنّ أول ما رؤيت الحصبة والجُدَرِيّ بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي بها مُرار الشجر: الحرمل والحنظل والعُشر ذلك العام".

قال الماوردي: "وآية الرسول من قصة الفيل: أنه كان في زمانه حملا في بطن أمه بمكة لأنه ولد بعد خمسين يوما من الفيل وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ووافق من شهور الروم العشرين من شباط في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنو شروان، قال: وحكى أبو جعفر الطبري أن مولد النبي ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان".

وقد قيل: "إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فكانت مدة حمله ثمانية أشهر كملا ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم، حكاه ابن شاهين أبو حفص، في «فضائل يوم عاشوراء» له".

وقد اختلف في سبب الفيل، على قولين:

=

=

أحدهما: ما حكاه الكلبي، ومقاتل -يزيد أحدهما وينقص-: أن فتية من قريش خرجوا إلى أرض الحبشة تجاراً، فنزلوا على ساحل البحر على بيعة النصارى في حقف من أحقافها، قال الكلبي تسمى: البيعة ما سرجيان، وقال مقاتل: تسمى: الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف فاضطرمت البيعة ناراً فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضبًا، وأتاه أبرهة بن الصبّاح وحجر بن شراحبيل وأبو يكسوم الكِنْديون، وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة، وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك وقيل وزيره، وحجر بن شراحبيل من قواده.

القول الثاني: ماحكاه ابن إسحاق : "أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء، وكان نصرانيا، فسماها القليس؛ لم يُر مثلها في زمانها بشيء من الأرض؛ وكتب إلى النجاشيّ ملك الحبشة: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة، لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولستُ بمُنتهٍ حتى أصرف إليها حاجّ العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك للنجاشي، غضب رجل من النَّسأة أحد بني فقيم، ثم أحد بني مالك، فخرج حتى أتى القُليس، فقعد فيها، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحجّ العرب إليه بمكة، لما سمع من قولك: أصرف إليه حاجّ العرب، فغضب، فجاء فقعد فيها، أي أنها ليست لذلك بأهل؛ فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرنّ إلى البيت فيهدمه، وعند أبرهة رجال من العرب قد قَدِموا عليه يلتمسون فضله، منهم محمد بن خُزَاعي بن حِزَابة الذَّكواني، ثم السُّلَمي، في نفر من قومه، معه أخ له يقال له قيس بن خزاعي؛ فبينما هم عنده، غَشِيهم عبد لأبرهة، فبعث إليهم فيه بغذائه، وكان يأكل الخُصَى؛ فلما أتى القوم بغذائه، قالوا: والله لئن أكلنا هذا لا تزال تسبُّنا به العرب ما بقينا، فقام محمد بن خزاعي، فجاء أبرهة فقال: أيها الملك، إن هذا

=

=
يوم عيد لنا، لا نأكل فيه إلا الجنُوب والأيدي، فقال له أبرهة: فسنبعث إليكم ما أحببتم، فإنما أكرمتكم بغذائي، لمنزلتكم عندي.

ثم إن ابرهة توج محمد بن خُزَاعِي، وأمَّره على مضر، وأمره أن يسير في الناس، يدعوهم إلى حج القُلَّيس، كنيسته التي بناها، فسار محمد بن خزاعي، حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة، وقد بلغ أهل تهامة أمره، وما جاء له، بعثوا إليه رجلا من هذيل يقال له عُرْوة بن حياض الملاصي، فرماه بسهم فقتله؛ وكان مع محمد بن خزاعي أخوه قيس بن خزاعي، فهرب حين قُتل أخوه، فلحق بأبرهة فأخبره بقتله، فزاد ذلك أبرهة غضبا وحنقا، وحلف ليغزونّ بني كنانة، وليهدمنّ البيت.

ثم إن أبرهة حين أجمع السير إلى البيت، أمر الحُبْشان فتهيأت وتجهَّزت، وخرج معه بالفيل، وسمعت العرب بذلك، فأعظموه، وفُظِعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة، بيت الله الحرام، فخرج رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نَفْر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب، إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، وعَرَض له، وقاتله، فهزم وتفرق أصحابه، وأُخِذَ له ذو نفر أسيرا؛ فلما أراد قتله، قال ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق. وكان أبرهة رجلا حليما.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل بن حبيب الخثعميّ في قبيلتي خثعم: شهران، وناهس، ومن معه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخِذ له أسيرا، فأتي به؛ فلما همّ بقتله، قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران، وناهس، بالسمع والطاعة؛ فأعفاه وخلَّى سبيله، وخرج به
=

=

معه، يدله على الطريق؛ حتى إذا مرّ بالطائف، خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف، فقال: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد- يعنون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة- يعنون الكعبة- ونحن نبعث معك من يدلك، فتجاوز عنهم، وبعثوا معهم أبا رغال؛ فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمِّس، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرَجَمت العرب قبره، فهو القبر الذي ترجم الناس بالمغمِّس، ولما نزل أبرهة المغمس، بعث رجلا من الحبشة، يقال له الأسود بن مقصود، على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل مكة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لكم: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن لم يُرِد حربي فأتني به، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، قال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة؛ هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام- أو كما قال- فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يُخْلِ بينه وبينه، فو الله ما عندنا له من دافع عنه، أو كما قال؛ فقال له حناطة: فانطلق إلى الملك، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقا، فدل عليه، فجاءه وهو في محبسه، فقال: يا ذا نفر، هل عندك غَنَاء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر، وكان له صديقا: وما غناء رجل أسير في يدي ملك، ينتظر أن يقتله غدوا أو

=

=

عشيا! ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسا سائق الفيل لي صديق، فسأرسل إليه، فأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأساله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما تريد، ويشفع لك عنده بخير، إن قدر على ذلك. قال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس، فجاء به، فقال: يا أنيس إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عير مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب الملك له مئتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل.

فكلَّم أنيس أبرهة، فقال: أيها الملك، هذا سيِّد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عير مكة، يُطعم الناس بالسهل، والوحوش في رءوس الجبال، فأْذَنْ له عليك، فليكلمك بحاجته، وأحسن إليه. قال: فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب رجلا عظيما وسيما جسيما؛ فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، فأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال له عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردّ عليّ مئتي بعير أصابها لي؛ فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلَّمتَني، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه فلا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه، قال: ما كان ليمنع مني، قال: فأنت وذاك، أردد إليّ إبلي.

وكان فيما زعم بعض أهل العلم قد ذهب مع عبد المطب إلى أبرهة، حين بعث إليه حناطة، يعمر بن نفاثة بن عديّ بن الديل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وهو يومئذ سيِّد بني كنانة، وخويلد بن واثلة الهُذَليّ وهو يومئذ سيد هُذَيل، فعرضوا

=

=

على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبي عليهم، والله أعلم.

وكان أبرهة، قد ردّ على عبد المطلب الإبل التي أصاب له، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرزّ في شعف الجبال والشعاب، تخوّفا عليهم من مَعَرّة الجيش؛ ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة الباب، باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب، وهو آخذ حلقة باب الكعبة:

يا رَبِّ لا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكا... يا رَبِّ فامْنَعْ مِنْهُم حِماكا

إنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عادَاكا... امْنَعْهُمُ أنْ يُخَربُوا قُرَاكا

وقال أيضا:

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْ... نَعُ رَحْلَهُ فامْنَع حِلالكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ... ومِحَالُهُمْ غَدْوا مِحَالكْ

فَلَئِنْ فَعَلْتَ فَرُبَّمَا... أوْلى فأمْرٌ ما بَدَا لَكْ

وَلئِنْ فَعَلْتَ فإنَّهُ... أمْرٌ تُتِمُّ بِهِ فِعَالكْ

وقال أيضا:

وكُنْتُ إذَا أتى باغٍ بِسَلْمٍ... نُرَجِّي أن تَكُونَ لَنَا كَذلِكْ

فَوَلَّوْا لَمْ يَنالُوا غَيْرَ خِزْيٍ... وكانَ الحَيْنُ يُهْلِكُهُمْ هُنَالكْ

وَلَمْ أسْمَعْ بأرْجَسَ مِنْ رِجالٍ... أرَادُوا العِزَّ فانْتَهَكُوا حَرامَكْ

جَرُّوا جُمُوعَ بِلادِهِمْ... والْفِيلَ كَيْ يَسبُوا عِيَالكْ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها؛ فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة

=

=

مُجْمِعٌ لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجَّهوا الفيل، أقبل نفيل بن حبيب الخثعميّ، حتى قام إلى حنبه، ثم أخذ بأذنه فقال: أبرك محمود، وارجع راشدا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام؛ ثم أرسل أذنه، فبَرَك الفيل، وخرج نُفَيل بن حبيب يشتدّ حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم، فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجَّهوه

راجعا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجَّهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف، مع كل طير ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه مثل الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحدا إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفَيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أيْنَ المَفَرُّ والإلَهُ الطَّالِبْ... والأشْرَمُ المَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبْ

فخرجوا يتساقطون بكلّ طريق، ويهلكون على كلّ منهل، فأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم، فسقطت أنامله أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها مِدّة تَمُثُّ قيحا ودما، حتى قَدِموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون".

وذكر مقاتل بن سليمان: "أن قريشًا أصابوا مالا جزيلا من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة".

=

=

قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رئي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام".

قال ابن إسحاق: "فلما بعث الله محمدا ﷺ كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمتَه عليهم وفضله، ما رَدَّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}

{لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [سورة قريش]، أي: لئلا يغير شيئا من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه".

روي عن ابن عباس، {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيلِ} قال: "أقبل أصحاب الفيل يريدون مكة، ورأسهم أبو يكسوم الحبشي، حتى أتوا المُغَمِّس أتتْهم طير؛ في منقار كلّ طير حجر، وفي رجليه حجران، فرمتْهم بها، فذلك قوله: {وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أبابِيلَ} يقول: يتبع بعضها بعضًا، {تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِن سِجِّيلٍ} يقول: مِن طين. قال: وكانت من جَزْع ظَفار، مثل بعْر الغنم، فرمتْهم بها، {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} وهو ورق الزرع البالي المأكول. يقول: خرقتْهم الحجارة كما يُخرق ورق الزرع البالي المأكول. قال: وكان إقبال هؤلاء إلى مكة قبل أن يُولَد النبيُّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة".

قوله تعالى: {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ } [الفيل: ٢]

أي: ألم يجعل ما دبَّروه من شر في إبطال وتضييع؟

قال الطبري:"يقول: ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة، في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها".

=

=

قال النحاس:"أي: في تضليل عما أرادوه".

قال مقاتل:"الذي أرادوا، من خراب الكعبة واستباحة أهلها، {فِي تَضْلِيلٍ}، يعني: خسار".

قال ابن أبي زمنين:"أي: في ذهاب".

قال القشيري:"أي: مكرهم في إبطال".

قال السمعاني:"أي: أبطل مكرهم وسعيهم".

قال الثعلبي: أي:"عما أرادوا من تخريب الكعبة، وقيل: في بطلان وأباطيل".

قال البغوي:"وأضل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم".

قال الماوردي:"لأنهم أرادوا كيد قريش بالقتل والسبي، وكيد البيت بالتخريب والهدم، يحكى عن عبد المطلب: -بعد ما حكيناه عنه- أنه أخذ بحلقة الباب وقال:

يا رب لا نرجو لهم سواكا... يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا... امنعهم أن يخربوا قراكا

ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس له سريع، ينظر ما لقوا فإذا القوم مشدخون، فرجع يركض كاشفًا عن فخده، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني أفرس العرب وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً. فلما دنا من ناديهم بحيث يُسمعهم قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعًا، فخرج عبد المطلب وأصحابه فأخذوا أموالهم، فكانت أموال بني عبد المطلب، وبها كانت رياسة عبد المطلب لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده فنهبوا، فقال عبد المطلب :

أنتَ مَنعْتَ الحُبْشَ والأَفْيالا... وقد رَعَوا بمكةَ الأَجيالا

وقد خَشِينا منهم القتالا... وكلَّ أمرٍ لهمن مِعضالا

=

=

وشكراً وحْمداً لك ذا الجلالا.

قوله تعالى: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} [الفيل: ٣]، أي:"وبعث عليهم طيرًا في جماعات متتابعة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأرسل عليهم ربك طيرا متفرقة، يتبع بعضها بعضا من نواح شتي؛ وهي جماع لا واحد لها، مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك".

قال عطاء بن أبي رباح: "جاءت الطير عشية فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم".

وقال عطية العوفي: "سألت عنها أبا سعيد الخدري: فقال: حمام مكة منها".

وفي قوله تعالى: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} [الفيل: ٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها من طير السماء، قاله سعيد بن جبير: لم ير قبلها ولا بعدها مثلها.

ويروي جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تعشعش وتفرخ».

الثاني: أنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال، قاله عكرمة، ومجاهد.

عن عكرمة، ومجاهد:"{طَيْرًا أبابِيلَ}، قالا: عنقاء المُغْرِب".

الثالث: أنها من طير الأرض، أرسلها الله تعالى من ناحية البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، قاله الكلبي، وكانت سوداً، خضر المناقير طوال الأعناق. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط.

وقالت عائشة: "كن أشباه الخطاطيف".

وقال ابن عباس:"طير لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب".

وقال عبيد بن عمير:"طيراً أقبلت من قبل البحر كأنها رجال الهند".

وعن عبيد بن عمير الليثي، قال: "لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث الله عليهم طيرا نشأت من البحر كأنها الخطا طيف، بكف كل طير منها ثلاثة أحجار

=

=

مجزئة، في منقاره حجر وحجران في رجليه، ثم جاءت حتى صفت علي رؤسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما من حجر وقع منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، إن وقع على رأسه خرج من دبره، وإن وقع على شيء من بدنه خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحا شديدا فضربت أرجلها فزادها شده فأهلكوا جميعا".

واختلف في معنى: «أبابيل»، على أقوال:

أحدها: أنها الكثيرة، قاله الحسن، وقتادة، وطاووس.

قال قتادة:"الأبابيل: الكثيرة".

الثاني: المتتابعة التي يتبع بعضها بعضـاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك ،وعبيد بن عمير.

قال ابن عباس:"يتبع بعضُها بعضا".

قال ابن عباس:"هي التي يتبع بعضها بعضا".

قال الضحاك:"متتابعة. بعضها على أثر بعض".

وقال مجاهد:"هي شتى متتابعة مجتمعة".

عن عُبيد بن عُمير -من طريق عبد الرحمن بن سابط- في قوله: "{طَيْرًا أبابِيلَ}، قال: هي طير خرجتْ من قِبل البحر، كأنها رجال الهند؛ معها حجارة أمثال الإبل البوارك، وأصغرها مثل رؤوس الرجال، لا تريد أحدًا منهم إلا أصابته، ولا أصابته إلا أهلكته، والأبابيل: المتتابعة".

الثالث: أنها المتفرقة من هاهنا وهاهنا، قاله ابن مسعود، وأبو صالح، وسعيد بن عبدالرحمن بن أبزى، وابن زيد، ومقاتل، وأبو عبيدة، والأخفش، وابن قتيبة، ومنه قول الشاعر :

إن سلولاً عداك الموت عارفة... لولا سلول مشينا أبابيلا

=

=

أي: متفرقين.

ومنه قول الآخر :

وأبابيل من خيول عليها... كأسود الأداء تحت العوالي.

قال ابن زيد:"الأبابيل: المختلفة، تأتي من ها هنا، وتأتي من ها هنا، أتتهم من كلّ مكان".

عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى: "{طَيْرًا أَبَابِيلَ}، قال: متفرّقة". وفي رواية:"أقاطيع كالإبل المؤبّلة".

قال إسحاق بن عبد الله بن الحارث: "هي الأقاطيع، كالإبل المؤَبَّلة".

وروي عن ابن سابط، وأبي سلمة، قال:"الأبابيل: الزُّمَر".

عن أبي صالح: "{طَيْرًا أَبَابِيلَ}، قال: جمعا بعد جمع".

قال مقاتل:"يعني: متتابعة كلها تترى بعضها على إثر بعض.

قال أبو عبيدة:"جماعات في تفرقة، جاءت الطير أبابيل من هاهنا وهاهنا".

قال ابن قتيبة:"{أَبَابِيلَ} جماعاتٍ متفرِّقة".

عن ابن مسعود: "{طَيْرًا أَبَابِيلَ}، قال: فرق". وفي لفظ:"هي الفرق".

قال النحاس:"من أحسن ما روي فيه عن المتقدمين ما حدّثناه علي بن الحسين عن الحسن بن محمد قال: حدثنا عفّان قال: حدّثنا حماد عن عاصم عن زرّ عن عبد الله: "{طَيْراً أَبابِيلَ}، قال: فرقا".

قال النحاس:"ومعروف في كلام العرب: جاءوا أبابيل، أي: جماعة بعد جماعة عظيمة كثيرة بعد جماعة. مشتق من: أبل عليه، إذا كثر وجمع. ومنه سمّيت: «الإبل» لعظم خلقها، وقد قيل: إنّ معنى: {أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية: ١٧]، أنها: السحاب لعظمها، وإن كان القتبي ردّ هذا التفسير بغير حجّة تثبت".

=

=

واختلفوا في ألوانِها، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها كانت خضراء، قاله عكرمة، وسعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"طير خُضْر، لها مناقير صُفْر، تختلف عليهم".

أخرج الطبري بسنده عن عكرمة، قال:"كانت طيرا خرجت خضرا، خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع".

وفي رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال:"طيور خضر جاءت من قبل البحر كان وجوهها وجوه السباع، لم تر قبل ذلك ولا بعده، فاثرت جلودهم مثل الجدري، فإنه أول ما رؤي الجدري".

الثاني: سوداء، قاله عبيد بن عمير.

قال عبيد بن عمير:"هي طير سود بحرية، في مناقرها وأظفارها الحجارة". وفي لفظ:"سود بحرية، في أظافيرها ومناقيرها الحجارة".

الثالث: بيضاء، قاله قتادة، وعكرمة.

قال قتادة:"هي طير بيض، خرجت من قِبَل البحر، مع كلّ طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، ولا يصيب شيئا إلا هشَمه".

قال قتادة:"كانت مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها".

عن عمرو بن الحارث بن يعقوب:"أن أباه أخبره أنه بلغه، أن الطير التي رمت بالحجارة، كأنت تحملها بأفواهها، ثم إذا ألقتها نَفِط لها الجلد".

واختلف النحويون هل للأبابيل واحد من جنسه، على قولين:

أحدهما: لا واحد لها، مثل: الشماطيط، والعباديد، والشعارير، كل هذا لا يفرد له واحد، وهذا مذهب أبي عبيدة، والفراء، وثعلب.

قال أبو عبيدة:"ولم نر أحدا يجعل لها واحدا".

=

=

الثاني: أنّ له واحد من لفظه، واختلفوا في فيه:
فذهب أبو جعفر الرؤاسي، إلى أن واحدها" «إبّالة» مشددة، وقال الكسائي: واحدها: «إبول»، وقال ابن كيسان واحدة «إبيّل».
قال الفراء:"وزعم لي الرؤاسي وكان ثقة مأمونا: أنه سمع واحدها: «إبالة» لا ياء فيها، ولقد سمعت من العرب من يقول: «ضغاث على إبالة»، يريدون: خصب على خصب. وأما «الإيبالة»: فهي الفضلة تكون على حمل الحمار أو البعير من العلف، وهو مثل الخصب على الخصب، وحمل فوق حمل، فلو قال قائل: واحد الأبابيل إيبالة كان صوابا، كما قالوا: دينار دنانير. وقد قال بعض النحويين، وهو الكسائي: كنت أسمع النحويين يقولون: أبوك مثل العجول والعجاجيل".
قال النحاس:"وأصح ما قيل في واحد «الأبابيل» ما قاله محمد بن يزيد، قال: واحدها «ابّيل»، كسكّين وسكاكين".
قوله تعالى: {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ} [الفيل: ٤]، أي:"تقذفهم بحجارة من طين متحجِّر".
وقرأ أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «يرميهم»، أي: الله تعالى، أو الطير.
وفي معنى: «السجيل»، أقوال:
أحدها: أن «السجيل»: كلمة فارسية، وهي: «سنك وكيل »، أولها حجر، وآخرها: طين، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعكرمة، وجابر بن سابط، ووهب.
قال ابن عباس:"سجِّيل بالفارسية: سنك وكل، حَجَر وطين".
عن ابن عباس، وعكرمة: "{حِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}، قال: سنك وكل".
عن جابر بن سابط، قال: "هي بالأعجمية: سنك وكل".
عن ابن عباس: "{حِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}، قال: طين في حجارة".

=

=

قال ابن عباس، وعكرمة:"من طين".

قال قتادة:"هي من طين".

قال عكرمة:"كانت ترميهم بحجارة معها، قال: فإذا أصاب أحدهم خرج به الجُدَرِيّ، قال: كان أوّل يوم رُؤى فيه الجدريّ؛ قال: لم ير قبل ذلك اليوم، ولا بعده".

قال سعيد بن جبير:"هي طير لها مناقير، تختلف بالحجارة، فإذا أصابتْ أحدَهم نطِف جلده، وكان ذلك أول ما رأى الناس الجُدَرِيّ".

قال الزجاج:"في التفسير أنها من: «جل» و «حجارة»... والذي عندي أنه إذا كان هذا التفسير صحيحا فهو فارسي أعرب، لأن الله- جل وعز- قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط، فقال: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ} [الذاريات: ٣٣]، فقد تبين للعرب ما عني بـ سجيل، ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب، نحو: جاموس وديباج. فلا أنكر أن هذا مما أعرب".

الثاني: فارسية ونبطية: «سج»، «إيل». قاله سعيد بن جبير.

قال الطبري:"فذهب سعيد بن جبير في ذلك إلى أن اسم الطين بالفارسية "جل " لا "إيل"، وأن ذلك لو كان بالفارسية لكان «سِجْل»، لا «سجيل»، لأن الحجر بالفارسية يدعى "سج "والطين "جل"، فلا وجه لكون الياء فيها وهي فارسية".

الثالث: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء، ذكره ابن عيسى.

الرابع: أن «السجيل»: هو الشديد، قاله أبو عبيدة، ومنه قول ابن مقبل :

وَرَجْلةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُض... ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا

إلا أن «النون» قلبت «لامـًا».

الخامس: أن «السجيل»: اسم سماء الدنيا، فنسبت الحجارة إليها لنزولها منها، وهي التي أنزل الله جلّ وعزّ على قوم لوط. قاله ابن زيد، وسعيد بن أبي هلال.

=

=

عن سعيد بن أبي هلال:"أنه بلغه أن الطير التي رمت بالحجارة، أنها طير تخرج من البحر، وأن «سجيل»: السماء الدنيا".

عن ابن زيد:" {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}، قال: السماء الدنيا، قال: والسماء الدنيا اسمها: «سجيل»، وهي التي أنزل الله جلّ وعزّ على قوم لوط".

قال الطبري:"وهذا القول الذي قاله ابن زيد لا نعرف لصحته وجها في خبر ولا عقل، ولا لغة، وأسماء الأشياء لا تدرك إلا من لغة سائرة، أو خبر من الله تعالى ذكره".

السادس: {من سجيل} من جهنم، واسمها «سجين» فقلبت النون لامًا.

السابع: أن «السجيل» من «السجل»، وهو «الكتاب»، وتقديره: من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها، وفي التنزيل: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ} [المطففين: ٧- ٩]. حكاه الماوردي، وبه قال الزمخشري.

قال الزمخشري:"كأن «سجيل»: علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم، كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن، واشتقاقه من «الإسجال»، وهو: الإرسال، لأنّ العذاب موصوف بذلك".

الثامن: أنه «فِعِّيل» من السجل، وهو: الإرسال، يقال: أسجلته، أي: أرسلته، ومنه سمي الدلو سجلاً لإرساله، فكان السجل هو المرسل عليهم. حكاه الطبري عن آخرين.

التاسع: أنه مأخوذ من «السجل» الذي هو «العطاء»، يقال: سجلت له سجلاً من العطاء، فكأنه قال سُجلوا البلاء، أي: أعطوه. حكاه الطبري عن آخرين -أيضا-.

العاشر: أنه اسم بحر من الهواء، منه جاءت الحجارة فنسبت إليه. قاله عكرمة.

=

=

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤]".

وفي مقدار الحجر، قولان:

أحدهما: أنه حصى الخذف، حكاه مقاتل عن عبدالمطلب.

الثاني: كان الحجر فوق العدسة ودون الحمصة، قاله أبو الكنود.

عن موسى بن أبي عائشة، قال: "كانت الحجارة التي رُمُوا بها أكبر من العدسة؛ وأصغر من الحِمَّصَة".

عن عمران -من طريق موسى بن أبي عائشة- {طَيْرًا أبابِيلَ}، قال:"طير كثيرة جاءت بحجارة كثيرة، أكبرها مثل الحِمَّصة، وأصغرها مثل العَدَسة".

عن حكيم بن حزام، قال: "كانت في المقدار بين الحِمّصة والعَدسة، حصى به نضْحٌ أحمر مُختّم، كالجَزْع، فلولا أنه عُذّب به قوم أخذتُ منه ما أتخذه في مسجد، أسلمتُ وهو بمكة كثير".

عن أم كُرز الخزاعية، قالت: "رأيتُ الحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل حمرًا مختّمة، كأنها جَزْع ظَفار، فمن قال غير ذلك فلم يقل شيئًا، ولم تصبهم كلّهم، وقد أفلتْ منهم".

عن نوفل بن معاوية الديليّ، قال: "رأيتُ الحصى التي رُمي بها أصحاب الفيل، حصى مثل الحِمَّص، وأكبر من العَدَس، حُمر مختّمة؛ كأنها جَزْع ظَفار".

قال أبو صالح: "رأيت في دار أم هانئ نحو قفيز من الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل مخططة بحمرة كأنها الجزع".

=

=

وقال ابن مسعود: ولما رمت الطير بالحجارة بعث الله ريحها فزادتها شدة، وكانت لا تقع على أحد إلا هلك ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة، فقال :

فإنكِ لو رأيْتِ ولم تريهِ... لدى جِنْبِ المغَمِّسِ ما لَقينا

خَشيتُ الله إذ قدْبَثَّ طَيْراً... وظِلَّ سَحابةٍ مرَّتْ علينا

وباتت كلُّها تدْعو بحقٍّ... كأنَّ لها على الحُبْشانِ دَيْنا

وفي رواية قال عبد الله بن مسعود: "{تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِن سِجِّيلٍ} صاحت الطير، ورمتهم بالحجارة، وبعث الله سبحانه ريحًا، فضربت الحجارة، فزادتها شدّة، فما وقع مِنها حجر على رجل إلّا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج مِن دُبُره".

قال القرطبي:"ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدم أن أميرهم رجع وشر ذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا".

عن عثمان بن عفان، أنه سأل رجلًا من هُذيل، قال: "أخبرني عن يوم الفيل. فقال: بُعثتُ يوم الفيل طليعةً على فرسٍ لي أنثى، فرأيتُ طيرًا خرجتْ من الحَرم، في منقار كلّ طير منها حجر، وفي رِجل كلّ طير منها حجر، وهاجتْ ريح وظُلمة حتى قعدتْ بي فرسي مرتين، فمسَحتهم مسْحة كلَفْتةٍ كذاك، وانجلت الظلمة وسكنت الريح. قال: فنظرتُ إلى القوم خامدين".

عن ابن عباس:"أنّ أبْرَهَة الأشرم قدم من اليمن يريد هدْم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل -يريد: مجتمعة-، لها خراطيم، تحمل حصاة في منقارها وحصاتين في رجليها، ترسل واحدة على رأس الرجل، فيسيل لحمه ودمه، ويبقى عظامًا خاوية، لا لحم عليها ولا جلد ولا دم".

قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} [الفيل: ٥].

أي: فجعلهم به محطمين كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثم رمت بها.

=

=

قال ابن كثير:"والمعنى: أن الله، سبحانه وتعالى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا، وأهلك عامتهم".

قال مقاتل:"هلكوا عند أدنى الحرم، ولم يدخلوه قط".

عن عائشة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-،قالت: "لقد رأيت قائد الفيل، وسائسه أعميين مقعدين، يستطعمان بمكة".

وفي معنى: «العصف»، ثلاثة أقوال:

أحدها: تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الريح، قاله ابن عباس، وضحاك، وقتادة.

عن قتادة: "{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، قال: هو التِّبن".

قال قتادة:"عصفه تبنه".

قال الضحاك:"العصف: التِّبن".

قال ابن عباس:"العصف: الزرع".

قال ابن عباس:"العصف: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رءوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس".

وقال مجاهد:"العصف: الورق من كل شيء. قال: يقال للزرع إذا قُطع: عصافة، وكلّ ورق فهو عصافة".

قال الزجاج:"{ذُو الْعَصْفِ}: ذو الورق".

قال أبو عبيدة:"هو ورق الزرع هو العصيفة".

قال ابن قتيبة:"{الْعَصْفِ} ورق الزرع؛ ثم يصير -إذا جَفَّ ودَرَس- تبنًا".

قال الفراء:"العصف: أطراف الزرع قبل أن يدرك ويسنبل".

وقال الليث: "العصف: ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. قال: والعصف أيضا: ما على ساق الزرع من الورق الذي يبس فتفتت، كل ذلك من العصف".

=

=

الثاني: أن العصف: هو الحب من البرّ والشعير بعينه. قاله الضحاك.

قال الحسن: "كنا ونحن غلمان بالمدينة نأكل الشعير إذا قصّب وكان يسمّى العصف".

قال سعيد بن جبير: "هو الشعير النابت الذي يؤكل ورقه". وفي رواية:"العَصْف المأكول: ورق الحِنطة".

وعن مجاهد، قوله: "{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، قال: ورق الحنطة".

الثالث: أنه حب المأكول منه، قاله الضحاك-أيضا-.

عن الضحاك: "{كَعَصْفٍ مَأْكُول} ـ قال:"كزرع مأكول".

قال الضحاك:"هو الهبور -بالنبطية-، وفي رواية: المقهور".

عن عطاء بن سائب، عن سعيد بن جبير، قال: "العصف: هو الهبور".

قال الأزهري:"الهبور: الشعير النابت بالنبطية".

وفي معنى: «مأكول»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون أراد به أنه أُخذ ما فيه من الحب فأكل، وبقي هو لا حب فيه. حكاه ابن قتيبة، وعزاه الأزهري إلى الحسن.

قال الحسن:"كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه".

قال الأزهري:"أراد: أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما كان فيه من الحب وبقي هو لا حب فيه".

قال عكرمة: "كالجبل إذا أكل فصار أجوف".

عن ابن عباس: "{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، قال: البرّ يؤكل ويُلقى عصفه الريح، والعصف: الذي يكون فوق البرّ: هو لحاء البرّ".

وعن ابن عباس: "{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، قال: هو الطيور عصافة الزرع".

=

=

الثاني: أن يكون أراد العصف مأكول البهائم، كما يقال للحنطة: هذا المأكول ولمَّا يؤكل. وللماء: هذا المشروب ولمَّا يشرب، يريد أنهما مما يؤكل ويشرب، ذكرهما ابن قتيبة.

قال الأزهري: أي:"جعلهم كعصف قد أكله البهائم".

الثالث: أن «المأكول» -هاهنا-: الذي وقع فيه الأُكال. فالمعنى: جعلهم كَوَرَقِ الزَّرْعِ الذي جَفَّ وأُكل، أي: وقع فيه الأُكال، ذكره الزّجّاج.

وروي عن حبيب بن أبي ثابت: "{كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}، قال: كطعام مطعوم".

وقال ابن زيد:"ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار رَوْثا".

قال الزجاج:"أي: جعلهم كورق الزرع الذي جف وأكل، أي: وقع فيه الأكال. وجاء في التفسير أن الله تعالى أرسل عليهم سيلا فحملهم إلى البحر".

قال القرطبي:"أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه".

قال الطبري:"فجعل الله أصحاب الفيل كزرع أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرّقت أجزاؤه؛ شبَّه تقطُّع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم، وتفرّق آراب أبدانهم بها، بتفرّق أجزاء الروث، الذي حدث عن أكل الزرع".

قال الزمخشري:"شبهوا بورق الزرع إذا أكل، أي: وقع فيه الأكال: وهو أن يأكله الدود. أو بتبن أكلته الدواب وراثته، ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن، كقوله كانا: {يَأْكُلانِ الطَّعامَ}، أو أريد: أكل حبه فبقى صفرا منه".

قال الواحدي:"فحصل في المأكول ثلاثة أقوال، أحدها: مأكول على الحقيقة، والثاني: مأكول الحب، والثالث: مأكول أنه مما يؤكل".

=

=

واختلف فيما فعله الله بهم، فقال قوم: كان ذلك معجزة لنبيّ كان في ذلك الزمان، وقال آخرون: بل كان تمهيداً وتوطيداً لنبوة محمد ﷺ، لأنه ولد في عامه، وقيل في يومه.

قال ابن إسحاق: فلما رد الله الحبشة عن مكة، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة، أعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم. فقالوا في ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما رد عن قريش من كيدهم".

وروي أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها فألَحَّت، فقالوا: خلأت القصواء، أي: حَرَنت. فقال رسول الله ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله، إلا أجبتهم إليها". ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسَلَّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب".

(فائدة): قال ابن رجب: كانت قصَّةُ الفيلِ توطِئةً لنبوَّتِهِ وتقدمَةً لظُهوره وبعثتِهِ ﷺ، وقد قصَّ الله تعالى ذلك في كتابه فقال: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥).

فقوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) استفهامُ تقريرٍ لِمن سمع هذا الخطابَ، وهذا يدُلُّ على اشتهارِ ذلكَ بينهم ومعرفتِهم به، وأنَّه ممّـا لا يخفَى

=

=

علمُه على العربِ، خصوصًا قريش وأهل مكَّةَ، وهذا أمر اشتهرَ بينهُم وتعارفُوه، وقالوا فيه الأشعارَ السَّائرةَ.

وقد قالتْ عائشة رضي الله عنها: رأيتُ قائدَ الفيلِ وسَائِسَهُ بمكَّةَ أعميينِ يستطعمانِ.

وفي هذه القصَّة ما يدلُّ على تعظيم مكَّةَ، واحترامِها واحترام بيتِ الله الذي فيها، وولادةُ النَّبيِّ ﷺ عقيبَ ذلك تدُلُّ على نبوَّته ورسالتِهِ، فإنَّه ﷺ بعثَ بتعظيمِ هذا البيتِ وحجِّه والصلاة إليهِ، وكانَ هذا البلدُ هو موطِنه ومولده.

فاضطرَّه قومُهُ عندَ دعوتِهم إلى اللَّهِ تعالى إلى الخُروج منه كُرهًا بما نالوه منه مِنَ الأذَى، ثم إن الله تعالى ظفَّرهُ بهم، وأدخلهُ عليهم قهرًا، فملكَ البلدَ عنوةً، وملكَ رقابَ أهلهِ، ثمَّ منَّ عليهِم وأطلقهم وعفا عنهم، فكانَ في تسليطِ نبيِّه ﷺ على هذا البلدِ وتمليكهِ إياه ولأمَّتهِ منْ بعدِهِ ما دلَّ على صحَّةِ نبوَّتهِ، فإنَّ اللهَ حبسَ عنه من يُريدُه بالأذى وأهلكهُ، ثم سلَّطَ عليه رسولهُ وأمَّتهُ كما قال ﷺ: "إنَّ الله حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ وسلَّطَ عليها رسولهُ والمؤمنينَ".

فإنَّ الرسولَ ﷺ وأُمته إنَّما كان قصدُهم تعظيمَ البيتِ وتكريمهُ واحترامَهُ.

ولهذا أنكرَ النبيُّ ﷺ يومَ الفتح على منْ قال: اليومَ تُستحلُّ الكعبةُ، وقال: "اليومَ تُعظَّمُ الكعبةُ".

وقد كان أهلُ الجاهليةِ غيَّروا دينَ إبراهيمَ وإسماعيلَ بما ابتدَعوه من الشِّركِ وتغييرِ بعضِ مناسكِ الحجِّ، فسلَّطَ اللهُ رسولهُ وأُمته على مكَّةَ فطهرُوها مِن ذلك كله، وردُّوا الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، وهو الذي دعا لهم مع ابنه إسماعيلَ عند بناءِ البيت أن يبعثَ الله فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمةَ، فبعثَ اللهُ فيهم محمَّدًا ﷺ من ولدِ إسماعيلَ بهذه الصِّفةِ، فطهَّرَ البيتَ وما حولَه من الشِّركِ، وردَّ الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، والتوحيد الذي

=

=

لأجلهِ بُنِيَ البيتُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

وأمَّا تسليطُ القرامطةِ على البيتِ بعد ذلك، فإنَّما كانَ عقوبةً بسببِ ذنوبِ النَّاسِ، ولـم يصلُوا إلى هدمِهِ ونقضِهِ ومنع النَّاسِ من حجّهِ وزيارتِهِ، كما كان يفعلُ أصحابُ الفيلِ لو قدرُوا على هدمِهِ وصرفِ النَّاسِ عن حجِّهِ والقرامطةُ أخذُوا الحجرَ والبابَ، وقتلوا الحاجَّ وسلبُوهم أموالَهم، ولم

يتمكّنوا من منع النَّاسِ من حجِّهِ بالكُليَّةِ، ولا قدرُوا على هدمِهِ بالكليةِ، كما كانَ أصحابُ الفيلِ يقصدُونهُ، ثم أذَلَّهم اللهُ بعدَ ذلكَ وخذلَهم وهتكَ أستارَهُم، وكشفَ أسرارَهُم.

والبيتُ المُعظَّمُ باقٍ على حالِهِ من التَّعظيم، والزّيارة، والحجِّ والاعتمارِ.

والصلاةِ إليه، لم يبطُلْ شيء من ذلك عنه بحمدِ اللهَ ومنِّهِ، وغايةُ أمرِهم أنَّهم أخافُوا حاجَّ العراقِ حتَّى انقطعُوا بعضَ السِّنين، ثم عادُوا، ولم يزلِ اللَّهُ يمتحنُ عبادَهُ المؤمنينَ بما يشاءُ من المحن، ولكن دينه قائم محفوظٌ لا يزالُ تقومُ به أُمَّة من أُمَّةِ محمدٍ ﷺ لا يضرُّهُم منْ خذلَهم حتَّى يأتِيَ أمر اللهِ وهُمْ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا البيتَ يُحجّ ويُعتمرُ بعدَ خروج يأجوج ومأجوجَ، ولا يزالُ كذلك حتَّى تُخرّبهُ الحبشة، ويلقونَ حجارتهُ في البحر، وذلك بعدَ أنْ يبعثَ اللهُ ريحًا طيِّبةً تقبضُ أرواحَ المؤمنينَ كلِّهم، فلا يبقى في الأرضِ مؤمنٌ، ويسرَى بالقرآنِ من الصدُورِ والمصاحِفِ، فلا يبقَى في الأرضِ قرآنٌ، ولا إيمانٌ، ولا شيء مِن الخيرِ، فبعدَ ذلك تقومُ السَّاعةُ، ولا تقومُ إلا على شرارِ النَّاسِ.

سورة قريش(١)

(١) في وقت نزول السورة، قولان:
أحدهما: أنها مكّيّة، قاله ابن عباس، وحكاه ابن الجوزي والماوردي والقرطبي عن الجمهور.
عن ابن عباس قال: "نزلت {لإيلاف قريش} بمكة".
الثاني: مدنيّة، قاله الضّحّاك، وابن السّائب.
قال الماوردي:"مكية في قول الأكثرين".
قال ابن عطية:"هي مكية بلا خلاف".
قال ابن عاشور:"السورة مكية عند جماهير العلماء".
* آياتها خمس فى عدّ الحجاز، وأربع فى عدّ الباقين. وكلماتها تسع عشرة. وحروفها ثلاث وسبعون. المختلف فيها آية: {مِنْ جُوْعٍ} فواصل آياتها (شَفَتْ).
* تسمى «سورة قريش» سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير : «سورة قريش»، لوقوع اسم «قريش» فيها ولم يقع في غيرها، قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} [قريش: ١].
قال ابن الفيروزآبادي:"سميت سورة قريش، لذكر ألفتها فيها".
وتسمى سورة «لإيلاف قريش» سميت هذه السورة في عهد السلف : «سورة لإيلاف قريش»، تسمية لها بأول آية وردت فيها، ولم يعدها في «الإتقان» في السور التي لها أكثر من اسم.
وبهذا الاسم عنون لها بعض المفسرين، وترجم لها البخاري في «صحيحه».
وتسمى «لإيلاف» وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير، وهي تسمية للسورة بلفظ وقع في أولها، قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} [قريش: ١].
=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١).

{لإيلاف قريش.

إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢).

{إيلَافهمْ} تَأْكِيد وَهُوَ مَصْدَر آلَف بِالْمَدِّ {رِحْلَة الشِّتَاء} إلَى الْيَمَن {و} رِحْلَة {الصَّيْف} إلَى الشَّام فِي كُلّ عَام يَسْتَعِينُونَ بِالرِّحْلَتَيْنِ لِلتِّجَارَةِ عَلَى الْمُقَام بِمَكَّة لِخِدْمَةِ الْبَيْت الَّذِي هُوَ فَخْرهمْ وَهُمْ وَلَد النَّضْر بْن كِنَانَة.

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣).

{فَلْيَعْبُدُوا} تَعَلَّقَ بِهِ لِإِيلَافِ وَالْفَاء زَائِدَة {رَبّ هذا البيت}.

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤).

{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوع} أَيْ مِنْ أَجْله {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف} أَيْ مِنْ أَجْله وَكَانَ يُصِيبهُمْ الْجُوع لِعَدَمِ الزَّرْع بِمَكَّة وَخَافُوا جَيْش الفيل[٢].

=

* معظم مقصود السّورة: ذكر المِنَّة على قريش، وتحضيضهم على العبادة، وشكر الإحسان، ومعرفة قَدْر النِّعمة والعاقبة والأَمان، فى قوله: {وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}.

* المتشابهات: قوله: {لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ} كرّر؛ لأَنَّ الثَّانى بدل من الأَوّل أَفاد بيان المفعول، وهو {رِحْلَةَ الشتآء}. وعن الكسائى وغيره تَرْكُ التسمية بين السّورتين، على أَنَّ اللاَّم فى (لإِيلاف) متَّصل بآخر السّورة التى قبلها. من بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

=

=

عن أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: "فضّل الله قريشًا بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله ﷻ عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله ﷻ أنزل فيهم سورة من القرآن"، ثم تلا رسول الله ﷺ: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)}.

أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ٣٢١)، والآجري في "الشريعة" (٣/ ٣٩٢ رقم ١٨٢٦)، وابن عدي في "الكامل" (١/ ٢٦٠، ٢٦١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٤/ ٣٢٤ رقم ٩٩٤) -ومن طريقه الحافظ العراقي في "محجة القرب إلى محبة العرب" (ص ٢٣٢، ٢٣٣ رقم ١٣٠) -، والحاكم (٢/ ٥٣٦، ٤/ ٥٤)، والبيهقي في "الخلافيات"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٩١)، و"مناقب الشافعي" (١/ ٣٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٦) من طرق عن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شرحبيل ثني عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة عن أبيه عن جدته أم هانئ به.

قال الحافظ العراقي: "هذا حديث حسن، ورجاله كلهم ثقات معروفون؛ إلا عمرو بن جعدة بن هبيرة فلم أجد فيه تعديلاً ولا تجريحًا، وهو ابن أخت علي بن أبي طالب، وهو أخو يحيى بن جعدة بن هبيرة أحد الثقات".

وتعقبه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٤/ ٥٨٦ رقم ١٩٤٤) بقوله: "قلت: في هذا الكلام نظر من وجوه: الأول: أنه مع جهالة عمرو بن جعدة التي أشار إليها العراقي؛ فإن ابنه سعيد حاله قريب من حال أبيه؛ فإنه لم يوثقه غير ابن حبان، لكن قد روى عنه جمع. والثاني: أن عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق أورده ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٣/ ١/ ١٥٦) من رواية إبراهيم هذا

=

=

وسليمان بن بلال عنه، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، ولعله في "ثقات ابن حبان" [قلنا: هو فيه (٧/ ١٩٨)]. الثالث -وهو الأهم-: أن علة الحديث إبراهيم المذكور؛ فإنه مختلف فيه؛ فقد وثقه ابن حبان [في "ثقاته" (٦/ ١٥)]، وقال ابن أبي حاتم (١/ ١/ ١٢٥) عن أبيه: "صدوق".

وقال ابن عدي: "روى عنه عمرو بن أبي سلمة وغيره مناكير"، وكذا قال الذهبي واستنكر له هذا الحديث كما يأتي، لكن ختم ابن عدي ترجمته بقوله: "وأحاديثه صالحة محتملة ولعله أُتي ممن قد رواه عنه".

قلت: كيف يصح هذا الاحتمال وممن روى عنه المناكير عمرو بن أبي سلمة كما سبق عن ابن عدي نفسه، وعمرو ثقة حافظ؟ وروى عنه هذا الحديث ذاته أبو مصعب كما رأيت وهو أحمد بن أبي بكر الزهري المدني الفقيه، وهو ثقة -أيضًا- من رجال الشيخين.

وبالجملة؛ فإبراهيم هذا لا يخلو من ضعف ما دام أن الثقات رووا عنه المناكير، ومما يؤيد ذلك أنه خولف في إسناده؛ فقال الإمام البخاري عقبه: "وقال لي الأويسي: حدثني سليمان عن عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق عن ابن جعدة المخزومي عن ابن شهاب عن النبي ﷺ نحوه". فأرسله أو أعضله، ورجحه البخاري؛ فقال عقبه: "بإرساله أشبه".

وسليمان الذي أرسله هو ابن بلال المدني ثقة من رجال الشيخين -أيضًا-، فمخالفة إبراهيم إياه في وصل الحديث مردودة، كما لا يخفى على من كان عنده أدنى معرفة بقواعد هذا العلم الشريف". اهـ.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: يعقوب ضعيف، وإبراهيم صاحب مناكير، هذا أنكرها".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ٢٤): "وفيه من لم أعرفه".

=

=

وللحديث شاهد من حديث الزبير بن العوام؛ قال رسول الله ﷺ: "فضل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١)}، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية".

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٩/ ٧٦ رقم ٩١٧٣) -ومن طريقه العراقي في "محجة القرب إلى محبة العرب" (ص ٢٣٣، ٢٣٤ رقم ١٣٧) -: ثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة ثني أبي ثنا عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير مرفوعًا به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن هشام بن عروة إلا عبد الله بن مصعب، ولا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد".

قلنا: وهذا سند حسن في الشواهد؛ رجاله ثقات غير عبد الله بن مصعب بن ثابت ففيه ضعف؛ فقد ضعفه ابن معين، وقال أبو حاتم: شيخ، ولم يوثقه إلا ابن حبان.

أما شيخ الطبراني مصعب؛ فقال ابن الجزري في "غاية النهاية" (٢/ ٢٩٩): "ضابط محقق قرأ على قالون وله عنه نسخة وهو من جلة أصحابه".

وأبوه إبراهيم صدوق من رجال البخاري.

ومع ذلك توبع مصعب؛ فقد أخرجه البيهقي في "المناقب" (١/ ٣٣)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٧/ ٤٩٣ رقم ٢) من طريق آخر عن مصعب به.

ولذلك قال الحافظ العراقي عقبه: "هذا حديث يصلح أن يخرج للاعتبار به والاستشهاد؛ فإن عبد الله بن مصعب بن ثابت ذكره ابن حبان في "الثقات"، وضعفه ابن معين" وهو كما قال.

=

=

وقال شيخنا الألباني (٤/ ٥٨٨): "وهو صالح للاستشهاد كما يشير إليه كلامه؛ فهو على الأقل صالح للاعتضاد به والاستشهاد بحديثه، وسائر رجاله ثقات غير شيخ الطبراني مصعب؛ فإني لم أجد له ترجمة... لكنه توبع".

ثم قال شيخنا في نهاية البحث: "ولذلك؛ فقد انشرح صدري واطمأنت النفس لقول الحافظ العراقي المتقدم: إنه حديث حسن؛ يعني: لغيره، لا سيما ولبعض فقراته شواهد...".

وعن سعيد بن المسيب؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله فضل قريش بسبع خصال: أني منهم، وأن الله أنزل فيهم سورة كاملة من كتابه لم يذكر فيها أحد غيرهم، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده أحد غيرهم، وأن الله نصرهم يوم الفيل، وأن الخلافة والسقاية والسدانة فيهم ولله الحمد كثيراً".

أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٧/ ١٩٥)، وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (١/ ٢٩٧) من طريق إبراهيم بن محمد التيمي ثنا عبد الرحمن بن عياض ثتني عمتي عتيبة عن عبد الملك بن يحيى الزهري عن سعيد به. قال ابن الجوزي: "وهو مرسل، وعتيبة؛ مجهول الحال، وإبراهيم التيمي ضعيف".

* قوله تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} [قريش: ١]، أي:"اعْجَبوا لإلف قريش، وأمنهم، واستقامة مصالحهم".

قال ابن فورك:"الإيلاف: أصحاب الألف بالتدبير الذي فيه لطف، وهو نقيض الإيحاش ونظيره الإيناس".

اختلف أهل العلم في هذه «اللام» التي في قوله تعالى: {لِإِيلَافِ} [قريش: ١]، على أقوال:

أحدها: أنها متعلقة بقوله: {فَلْيَعْبُدُوا}، أي: ليعبدوا الله، لأجل نعمته عليهم بالإيلاف. وهو معنى قول ابن عباس.

=

=

والمعنى: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، لأنهم كانوا في الرحلتين آمنين، وإذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم، قال الزجاج: وهذا الوجه قول النحويين الذي ترتضي أقوالهم.

روي عكرمة عن ابن عباس، قال: "أُمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت، كإلفهم رحلة الشتاء والصيف".

وعن عكرمة، -من طريق أبي مكين- أنه كان يقرأ: «لِيَأْلَفَ قُرَيْشٌ إِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ والصَّيْفِ».

وقال أبو صالح:"علم الله حُبّ قريش الشام، فأُمِروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت كإيلافهم رحلة الشتاء والصيف". وفي رواية: "كانوا تجارا، فعلم الله حبهم للشام".

وقال أبو مالك:" {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ}، قال: كانوا يتَّجِرون في الشتاء والصيف، فآلَفْتُهم ذلك".

قال الزجاج:"وقال النحويون الذين ترتضى عربيتهم: هذه «اللام»، معناها متصل بما بعد {فَلْيَعْبُدُوا}، والمعنى: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت لإلفهم رحلة الشتاء والصيف".

الثاني: أنها متعلِّقة بسورة «الفيل»، والمعنى: جعلتُ أصحابَ الفيل كعَصْفٍ مأكول، لإلفة قريش، أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش. وما قد ألفوا من رحلة الشتاء، والصيف.

والمعنى: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش. وما قد ألفوا من رحلة الشتاء، والصيف هذا قول الفراء والجمهور.

قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى... أي: فعل ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم، وذكر نحو هذا ابن قتيبة... وقال الزجاج:

=

=

والمعنى: فجعلهم كعصف مأكول (لإيلاف قريش) أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. (فتح القدير).

قال الخازن: فقيل هي متعلقة بما قبلها وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بالحبشة، فقال فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

وهذا قول ابن زيد، ومحمد بن إسحاق، واختيار الأخفش، وأبي عبيدة، والجمهور، ونسبه الطبري لابن عباس، ومجاهد، وفسَّروا: «لإيلاف»: «نِعمتي على قريش»، ولا يظهر صريحا من نصوصِهم أنهم يرون تعلّق «اللام»، بالسورة التي قبلها، -والله أعلم-.

وقال الزمخشري:"المعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك، فيتهيبوهم زيادة تهيب، ويحترموهم فضل احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، فلا يجترئ أحد عليهم. وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، فلا يتعرّض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم".

قال السعدي:"قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها، أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام،

لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا".

عن عمر بن عبد العزيز، قال:... لما بعث الله رسوله ﷺ كان فيما أنزل عليه يُعرّف قومه ما صنَع إليهم، وما نصرهم من الفيل وأهله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

=

=

بِأَصْحابِ الفِيلِ} إلى آخر السورة. ثم قال: ولم فعلتُ ذلك -يا محمد- بقومك، وهم يومئذ أهل عبادة أوثان؟! فقال: {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ} إلى آخر السورة، أي: لتراحمهم وتواصلهم...".

عن ابن زيد، في قول الله: "{لإِيلافِ قُريْشٍ}، فقرأ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}، إلى آخر السورة، قال: هذا لإيلاف قريش، صنعتُ هذا بهم لألفة قريش، لئلا أفرّق أُلفتهم وجماعتهم، وإنما جاء صاحب الفيل ليستبيد حريمهم، فصنع الله ذلك".

عن ابن عباس، ومجاهد: "{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، قال: نعمتي على قريش".

قال سفيان بن عُيينة: "{لِإِيلافِ} لنعمتي على قريش".

وكان عمر وأبيّ بن كعب لا يفصلان بين السورتين ويقرآنهما كالسورة الواحدة، ويريان أنهما سورة واحدة، أي: ألم تر لإيلاف قريش.

وأما النحاس، فقد ضعّف هذا الوجه، قائلا:"وهذا القول الخطأ فيه بيّن، ولو كان كما قال لكانت لإيلاف بعض آيات «الم تر»، وفي إجماع المسلمين على الفصل بينهما ما يدلّ على غير ما قال، وأيضا فلو كان كما قال لم يكن آخر السورة تماما، وهذا غير موجود في شيء من السور".

قال ابن قتيبة:"يذهب بعض الناس إلى أنّ هذه السورة وسورة الفيل واحدة. وبلغني عن ابن عيينة، أنه قال: «كان لنا إمام بالكوفة يقرأ {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ [الفيل: ١]، {ولِإِيلافِ قُرَيْشٍ } [قريش: ١] ولا يفرّق بينهما». وتوهّم القوم أنهما سورة واحدة، لأنهم رأوا قوله: {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ}، مردودا إلى كلام في سورة الفيل. وأكثر الناس على أنهما سورتان، على ما في مصحفنا، وإن كانتا متّصلتي الألفاظ، على مذهب العرب في التضمين، والمعنى أنّ قريشا كانت بالحرم آمنة من الأعداء أن تهجم عليها فيه، وأنّ يعرض لها أحد بسوء إذا خرجت

=

=

منه لتجارتها. وكانوا يقولون: قريش سكان حرم الله، وأهل الله وولاة بيته. والحرم واد جديب لا زرع فيه ولا ضرع، ولا شجر ولا مرعى، وإنما كانت تعيش فيه بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة إلى اليمن في الشتاء، ورحلة في الصيف إلى الشام. ولولا هاتان الرّحلتان لم يمكن به مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت، لم يقدروا على التصرّف. فلمّا قصد أصحاب الفيل إلى مكة ليهدموا الكعبة وينقلوا أحجارها إلى اليمن فيبنوا به هناك بيتا ينتقل به الأمن إليهم، ويصير العزّ لهم، أهلكهم الله سبحانه، لتقيم قريش بالحرم، ويجاوروا البيت، فقال يذكر نعمته: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [الفيل: ١، ٥]. {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ} [قريش: ١]. أي: فعل ذلك ليؤلّف قريشا هاتين الرّحلتين اللّتين بهما تعيشّهم ومقامهم بمكة، تقول: ألفت موضع كذا: إذا لزمته، وآلفنيه الله، كما تقول: لزمت موضع كذا، وألزمنيه الله".

الثالث: أن تكون هذه اللام غير متعلقة، لا بما قبلها ولا بما بعدها، قال الزجاج: قال قوم: هذه اللام لام التعجب، كأن المعنى: اعجبوا لإيلاف قريش، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غيا وجهلا وانغماسا في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه، ونظيره في اللغة قولك لزيد وما صنعنا به ولزيد وكرامتنا إياه. وهذا مذهب الفراء ـ والأعمش، والكسائي.

قال الفراء:"إنه تبارك وتعالى عجب نبيه ﷺ، فقال: اعجب يا محمد لنعم الله تبارك وتعالى على قريش في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ثم قال: فلا يتشاغلن بذلك عن إتباعك وعن الإيمان بالله. ليعبدوا رب هذا البيت".

=

=

وهذا القول اختيارُ الطبري، واستدلَّ له بفعل العرب، فقال: "والعربُ إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجُّب اكتفوا بها دليلاً على التعجُّب من إظهار الفعل الذي يجلبُها، كما قال الشاعر :

أَغَرَّكَ أنْ قَالُوا لِقُرَّةَ شاعِرًا... فيالأباهُ مِنْ عَرِيفٍ وَشَاعِرِ

فاكتفى باللام دليلاً على التعجب من إظهار الفعل، وإنما الكلام: أغرَّك أن قالوا: أعجبوا القُرَّة شاعراً فكذلك قوله: {لإِيلاَفِ}".

أما القول بارتباطِها بسورة «الفيل»، ففيه نظرٌ من جهة انفصالِ كلِّ سورة عن أختِها، قال الطبري: «وأما القول الذي قاله من حكَيْنا قولَه أنه من صِلة {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَاكُولٍ}، فإن ذلك لو كان كذلك، لوجبَ أن يكون «لإيلاف» بعض «ألم تر»، وأن لا تكون السورة منفصِلة من {ألم تر}.

وفي إجماع جميعِ المسلمين على أنهما سورتان تامَّتان، كل واحدةٍ منهما منفصلة عن الأخرى، ما يبيِّن فسادَ القول الذي قاله من قال ذلك. ولو كان قوله: {لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ} ؛ من صلة: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأكُولٍ}، لم تكن {أَلَمْ تَرَ} تامَّة حتى توصَل بقوله: {لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ}، لأن الكلامَ لا يتم إلاَّ بانقضاء الخبر الذي ذُكِر".

قال ابن كثير:"هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإن كانت متعلقة بما قبلها".

وفي قبيلة «قريش»، قولان :

أحدهما: أنهم بنو النضر بن كنانة، فمن كان من بني النضر فهو من قريش دون بني كنانة.

الثاني: أنهم بنو فهر بن مالك بن النضر، فمن لم يلده فهر فليس بقرشي.

قال القرطبي: "والقول الأول أصح وأثبت".

=

=

قال الماوردي:"على المشهور أن بني النضر بن كنانة ومن تلده: من قريش، وإن لم يكونوا من بني فهر".

عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

وعن الأشعث بن قيس، قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد لا يرون أني أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، إنا نزعم أنكم منا قال: «نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا»، قال: فكان الأشعث، يقول: «لا أوتى برجل نفى قريشا من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد».

واختلفوا في تسميتهم قريشًا، على أربعة أقوال :

أحدها: لتجمعهم بعد التفرق، والتقريش: التجميع والالتئام، وهذا قول الأكثرين، ومنه قول الشاعر :

إخوةٌ قرَّشوا الذنوب علينا... في حَديثٍ مِن دَهْرِهم وقَديمِ

قال الماوردي:"كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكنًا، قال الشاعر :

أبونا قصيٌّ كان يُدْعى مجمّعـًا... به جمع اللَه القبائلَ مِن فهر"

الثاني: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، والتقريش: التكسب. قاله الفراء.

قال السمعاني:"قال الأكثرون: سموا قريشا للتجارة، وكانوا أهل تجارة، والقرش: الكسب، يقال: كان فلان يقرش لعياله ويقترش أي: يكتسب".

الثالث: أنهم كانوا يفتشون الحاج عن ذي الخلة فيسدون خلته، والقرش: التفتيش، قال الشاعر :

أيها الشامتُ المقِّرشُ عَنّا... عند عَمرو فهل له إبْقاءُ

=

=

الرابع: أن قريشـًا اسم دابة في البحر، من أقوى دوابه، سـميت قريشـًا، لقوتها وأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، قاله ابن عباس، واستشهد بقول الشاعر :

هكذا في العباد حيُّ قريش... يأكلون البلادَ أكْلاً كشيشـًا

ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ... يَكثر القتل فيهمُ والخموشا

يملأُ الأرضَ خَيلةً ورجالاً... يحشُرون المطيَّ حشْراً كميشـًا

تأكل الغثَّ والسَمينَ ولا تت... رُكُ يومـًا في جناحين ريشـًا

وقريش هي التي تسكن البح... ر بها سميت قريش قريشـًا

سلّطت بالعلو في لجج البحر... على سائر البحور جيوشـًا

قال الزمخشري:"قريش: ولد النضر بن كنانة سـموا بتصغير «القرش»: وهـو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار.. والتصغير للتعظيم".

عـن سـعيد بـن المسيّب، قـال: قـال رسـول الله ﷺ : «إنّ الله فضّل قريشًا بسبع خصال: أني منهم، وأنّ الله أنزل فيهم سورة كاملة من كتابه لم يذكر فيها أحدًا غيرهم، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، وأنّ الله نصرهم يوم الفيل وأنّ الخلافة والسِّقاية والسِّدانة فيهم».

قرأ ابن عامر: «لإلاف» بغير ياء بعد الهمزة، وقرأ أبو جعفر بياء ساكنة من غير همز. وروى حمّاد بن أحمد عن الشموني بهمزتين مخففتين، الأولى: مكسورة، والثانية: ساكنة على وزن «لفعلان». وقرأ الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة.

قوله تعالى: {إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} [قريش: ٢]، أي:"وانتظام رحلتيهم في الشتاء إلى «اليمن»، وفي الصيف إلى «الشام»، وتيسير ذلك؛ لجلب ما يحتاجون إليه".

فمعنى (الإيلاف) الإلف والاعتياد، يقال: ألف الرجل الأمر وإلافا، والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى

=

=

اليمن، وفي الصيف إلى الشام، كما قال تعالى: (رحلة الشتاء والصيف) أي: في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم.

قال الماوردي:"كانت لقريش في كل عام رحلتان و «الرحلة»: السفرة، لما يعانى فيها من الرحيل والنزول، رحلة في الصيف ورحلة في الشتاء طلبًا للتجارة والكسب".

وقيل: أن أول من جمع قريشا على رحلتي الشتاء والصيف هاشم بن عبد مناف، وكانوا يأخذون في بضائعهم باسم الفقراء شيئا معلوما فإذا رجعوا أعطوهم ذلك تقربا إلى الله، وقال الشاعر في هاشم :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه... ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما... سفر الشتاء ورحلة الإيلاف.

قال ابن فورك:"الرحلة: حال السير على الراحلة، وهي الناقة القوية، ومنه الحديث «الناس كإبل مائة لا يجد فيها راحلة»، الرحل: متاع السفر. الارتحال: احتمال الرحل للمسير في السفر، الشتاء: أوان شدة البرد".

قال ابن زيد:"كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام، والشتاء إلى اليمن في التجارة، إذا كان الشتاء امتنع الشأم منهم لمكان البرد، وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن".

قال الكلبي:"كانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشأم".

قال أبو صالح:"كانت الشام منها أرض باردة ومنها أرض حارّة، وكانوا يرحلون في الشتاء إلى الحارّة، وفي الصيف إلى الباردة، وكانت لهم رحلتان كلّ عام

=

=

للتجارة: إحداهما في الشتاء إلى اليمن؛ لأنها أدفأ، والأخرى في الصيف إلى الشام، وكان الحَرم واديًا جدبًا لا زرع فيه ولا ضرع، ولا ماء ولا شجر، وإنّما كانت قريش تعيش بها بتجارتهم ورحلتهم، وكانوا لا يُتعرّض لهم بسوء، وكانوا يقولون: قريش سكان حرم الله، وولاة بيته. فلولا الرحلتان لم يكن لأحد بمكّة مقام، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرّف، فشقّ عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام، وأخصبت تَبالة وجُرش والجَنَد من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكّة، وأهل الساحل في البحر على السفن، وأهل البر على الإبل والحُمُر، فألقى أهل الساحل بجدّة، وأهل البرّ بالمحصّب، وأخصبت الشام، فحملوا الطعام إلى مكّة، فحمل أهل الشام إلى الأبطح، وحمل أهل اليمن إلى جدّة، فامتاروا من قريب، وكفاهم الله مؤونة الرحلتين، وأمرهم بعبادة ربّ البيت".

وفي تذكيرهم «رحلة الشتاء والصيف»، قولان:

أحدهما: أنهم كانوا في سفرهم آمنين من العرب، لأنهم أهل الحرم، فذكرهم ذلك ليعلموا نعمته عليهم في أمنهم مع خوف غيرهم.

الثاني: لأنهم كانوا يكسبون فيتوسعون ويطعمون ويصلون، كما قال الشاعر فيهم:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوِّلُ رَحْلَهُ... هَلَّا سَأَلْتَ عَنْ آلِ عَبْدِ مَنَافِ

هَبَلَتْكَ أُمُّكَ لَوْ حَلَلْتَ بِدَارِهِمْ... ضَمِنُوكَ مِنْ جُرْمٍ وَمِنْ إِقْرَافِ

الْخَالِطِينَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ... حَتَّى يَعُودَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

الْمُنْعِمِينَ إِذَا النُّجُومُ تَغَيَّرَتْ... وَالظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ الْإِيلَافِ

وَالْمُطْعِمِينَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ... حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ فِي الرَّجَّافِ

إِمَّا هَلَكْتَ أَبَا الْفِعَالِ فَمَا جَرَى... مِنْ فَوْقِ مِثْلِكَ عَقْدُ ذَاتِ نِطَافِ

إِلَّا أَبِيكَ أَخِي الْمَكَارِمِ وَحْدَهُ... وَالْفَيْضِ مُطَّلِبٍ أَبِي الْأَضْيَافِ

فذكرهم الله تعالى هذه النعمة.

=

=

قال أبو صالح:"كانوا تجارا، فعلم الله حبهم للشام".

الثالث: -وهو قول ابن عباس- : لأنهم كانوا يشتون بمكة لدفئها، ويصيفون بالطائف لهوائها، كما قال الشاعر :

تَشْتو بِمَكَّةَ نَعْمَةٌ... وَمَصِيفُهَا بِالطَّائِفِ

قال ابن عباس:"كانوا يشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف".

قال الماوردي: "وهذه من جلائل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة".

وروي عن أسماء بنت يزيد، قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ: «إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

عن ابن عباس: «إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشتاءِ وَالصَّيْف} »، يقول: لزومهم".

وقرأ عكرمة: «ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف».

قال الفراء ومن قرأ: «إلفهم» فقد يكون من: يؤلفون، وأجود من ذلك أن يكون من يألفون رحلة الشتاء ورحلة الصيف، و «الإيلاف» من: يؤلفون، أي: أنهم يهيئون ويجهزون".

قوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } [قريش: ٣].

أي: فليشكروا، وليعبدوا رب هذا البيت الذي يعتزون به -وهو الكعبة-، وبسببه نالوا الشرف والرفعة، وليوحدوه ويخلصوا له العبادة.

و قوله تعالى: (فليعبدوا) أي: اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة الخاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة.

=

=

قال الطبري:"يقول: فليقيموا بموضعهم ووطنهم من مكة، وليعبدوا ربّ هذا البيت، يعني بالبيت: الكعبة".

قال ابن كثير:"أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما، كما قال تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [النمل: ٩١]".

قال الخازن:"... وذلك أن الإنعام على قسمين أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب نفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر، وقيل إنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت".

قال السعدي:"أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة.. وخص الله بالربوبية البيت، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء".

قال السمعاني: "لأنهم كانوا يجلبون الطعام من المواضع البعيدة وكان هو الذي يسهل لهم ذلك، ويرزقهم إياها بتيسير أسبابها لهم".

قال النحاس:"أي: لهذا فليعبدوه. فهذا لا حذف فيه وهو من حسن النحو ودقيقه، وإن كان أصحاب كتب المعاني قد أغفلوه".

عن ابن عباس:" {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} ، قال الكعبة".

قال ابن عباس:"أُمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت، كإلفهم رحلة الشتاء والصيف".

قال ابن عباس:"نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، وكفاهم المؤنة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، وألفوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا، وإذا شاءوا أقاموا، فكان ذلك من نعمة الله عليهم".

=

=

قوله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤]

أي: الذي أطعمهم من جوع شديد، وآمنهم من فزع وخوف عظيم.

وقد استعاذ النبي ﷺ من الجوع فقال: (اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع).

قوله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} [قريش: ٤]، أي:"الذي أطعمهم من جوع شديد".

قال السعدي:"فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى".

وفي قوله تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} [قريش: ٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أطعمهم من جوع بما أعطاهم من الأموال وساق إليهم من الأرزاق، قاله ابن عيسى.

الثاني: أطعمهم من جوع بما استجاب فيهم دعوة إبراهيم عليه السلام. حين قال: {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ}. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس: "{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}، يعني: قريشا أهل مكة، بدعوة إبراهيم ﷺ حيث قال: {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ}".

الثالث: أن جوعـاً أصابهم في الجاهلية، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً، فحملوه، فخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم متحرزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأعانوهم بالأقوات، فهو معنى قوله: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}.

قال ابن قتيبة:"ثم أمرهم بالشكر فقال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ} [قريش: ٣، ٤] في هذا الموضع الجديب من الجوع".

قال الزجاج:"وكانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الميتة والجيف".

=

=

قال الفراء:" {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} بعد السنين التي أصابتهم، فأكلوا الجيف والميتة، فأخصبت الشام فحملوا إلى الأبطح، فأخصبت اليمن فحملت إلى جدة. يقول: فقد أتاهم الله بالرزق من جهتين وكفاهم الرحلتين، فإن اتبعوك ولزموا البيت كفاهم الله الرحلتين أيضا كما كفاهم".

قوله تعالى: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤]، أي:"وآمنهم من فزع وخوف عظيم".

وفي قوله تعالى: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤]، وجوه:

احدها: آمنهم من خوفهم من الجذام، قاله ابن عباس، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، وشريك، وسفيان الثوري، ووكيع.

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس:" {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، قال: الخوف: الجذام".

عن سفيان: " {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، قال: من الجذام وغيره".

عن وكيع: "سمعت أطعمهم من جوع، قال: الجوع، {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، الخوف: الجذام".

قال السمعاني: "هذا القول هو الأصح".

الثاني: من خوف الحبشة مع الفيل، قاله الأعمش. وبه قال الزمخشري.

الثالث: يعني: آمن قريشاً ألا تكون الخلافة إلا فيهم، قاله علّي رضي الله عنه.

قال الزمخشري:"ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف، من أن تكون الخلافة في غيرهم".

الرابع: آمنهم من خوف العرب أن يسبوهم أو يقاتلوهم تعظيماً لحرمة الحرم، لما سبقت لهم من دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [البقرة: ١٢٦]، قاله ابن عباس-أيضا-.

=

=

قال ابن قتيبة:"وآمنهم فيه، والناس يتخطّفون حوله من الخوف".

عن ابن عباس: "{وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف}: حيث قال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}".

عن مجاهد: "{وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف}، قال: من كل غزو في حرمهم".

قال ابن زيد:"كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضا، فأمنوا من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}".

قال قتادة:"كانوا يقولون: نحن من حرم الله، فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية، يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليه". وفي لفظ:"عليهم".

قال قتادة:"كان أهل مكة تجارا يتعاورون ذلك شتاء وصيفا، آمنين في العرب، وكانت العرب يغير بعضها على بعض، لا يقدرون على ذلك، ولا يستطيعونه من الخوف، حتى إن كان الرجل منهم ليُصاب في حيّ من أحياء العرب، وإذا قيل حِرْمِيٌّ خُليَ عنه وعن ماله، تعظيما لذلك فيما أعطاهم الله من الأمن".

قال الزجاج:"آمنهم من أن يخافوا في الحرم، ومن أن يخافوا في رحلتهم، كانوا يرحلون في الشتاء إلى الشام وفي الصيف إلى اليمن فيمتارون، وكانوا في الرحلتين آمنين والناس يتخطفون، وكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم، فأعلم الله سبحانه أن من الدلالة على وحدانيته ما فعل بهؤلاء لأنهم ببلد لا زرع فيه وأنهم فيه آمنون. قال الله- جل ثناؤه -: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ} [العنكبوت: ٦٧]، أي: يؤمنون بالأصنام ويكفرون بالله- عز وجل- الذي أنعم عليهم بهذه النعمة، فأمرهم بعبادته وحده لأن آلفهم هاتين الرحلتين".

=

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه {آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} والعدو مخوف منه، والجذام مخوف منه، ولم يخصص الله الخبر عن أنه آمنهم من العدوّ دون الجذام، ولا من الجذام دون العدوّ، بل عمّ الخبر بذلك، فالصواب أن يعمّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: آمنهم من المعنيين كليهما".

قال ابن كثير:"أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندا ولا وثنًا. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [النحل: ١١٢-١١٣]".

قال الرازي: ما الفائدة في قوله: (من جوع)؟ الجواب فيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن أمر الجوع شديد، ومنه قوله تعالى: (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا).

وقوله ﷺ: (من أصبح آمنا في سربه) الحديث.

وثانيها: تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة، وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة.

ومما يدل على عظم نعمة الأمن:

قوله تعالى: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

وقال تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات).

=

وإبراهيم عليه السلام حينما طلب من ربه تعالى الرزق من الثمرات لذريته، لم يكن حصول الرزق لهم مقصودا لذاته في نظره، بل صرح في دعائه أن يكون الرزق المعطى لهم عونا لهم على أداء العبادات وإقامة الطاعات، قال تعالى عن دعائه ذلك: (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون).

وقال الخازن: وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

وقال ابن عاشور: والمقصود توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب.

- فالإنسان إذا أعطي نعمة فعليه أن يشكر ربه ويعبده ويقوم بحقه.

قال تعالى عن سليمان: (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم).

وقد قال ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح). رواه أحمد

وللأسف قليل من يشكر، كما قال تعالى: (وقليل من عبادي الشكور).

الفهرس

